

جامعة اليرموك  
أربد



الجامعة الأردنية  
عمان

المؤتمر الدولي الثالث  
لتاريخ بلاد الشام  
« فلسطين »  
المجلد الثاني

جغرافية فلسطين وحضارتها

الطبعة الاولى

١٩٨٣

# الطب العربي في فلسطين في زمن الفاطميين والايوبيين

د. سامي خلف حمارنة

نشطت الحركة العلمية ولا سيما الطبية منها في فلسطين العربية في زمن الخلفاء الفاطميين منذ النصف الثاني من القرن العاشر (الرابع للهجرة)، وقد بلغت ذروتها زمن الايوبيين حتى القرن الثالث عشر (السابع للهجرة).<sup>(١)</sup> ثم انه ظهر في هذه الاثناء عدد لا يستهان به من الاطباء والمؤلفين في العلوم الصحية ومفردات الادوية والاعذية ممن تركوا اثراً واضحاً على تقدم هذه العلوم وفي مستوى يوازي أفضل انتاج في البلدان العربية الاسلامية في ذلك الزمن. وارجو انني في هذه العجالة المقتضبة ان اعرف ببعض هؤلاء المساهمين وانتاجهم مع تقييم اهمية ما خلفوه بالنسبة لتاريخ الطب والصيدلة عند العرب.

ان اول شخص مهني يطلع علينا هو الطبيب ابو محمد بن ابي نعيم ابو علي الذي اشتهر في حوالي منتصف القرن العاشر وكان من سكان البيت المقدس وكان ممدوحاً في سيرته ومهنته. ومع اننا لا نعرف الكثير عن تفاصيل حياته الا النصوص التاريخية تؤكد لنا انه كان من اجل مشايخ الحكيم التيمي الحفيد وانه عنه اخذ من هذه الصناعة مقداراً كبيراً.<sup>(٢)</sup> وهذا يأتي بنا الى اول العائلات العربية الفلسطينية التي اشتهرت بصناعة الطب وتبدأ حسب معرفتنا بالجد الطبيب سعيد التيمي الذي مارس هذه المهنة في البيت المقدس زمناً يعالج المرضى ويؤاسيهم ثم انه صحب أحمد بن ابي يعقوب مولى ولد العباس وخدمه في صناعة الطب والادارة. أما ابن احمد بن سعيد فانه لم يكن مجداً فلم يبلغ شأننا كبيراً لذا سنغفل ذكره.<sup>(٣)</sup>

ابو عبد الله التيمي:

اما الحفيد ابو عبد الله محمد بن احمد بن سعيد التيمي فهو أشهر اطباء فلسطين المعروفين زمن الفاطميين اطلاقاً واكثرهم انتاجاً وعلمياً ولذا فنخصص له شرحاً مفصلاً.

كان مولد ومقام التيمي في القدس وضواحيها حيث درس مهنة الطب دراسة جدية وأحكم ما تعلمه غاية الاحكام. فانه بالاضافة الى ما أفاده من جده سعيد ومن الطبيب المقدسي ابي محمد بن ابي نعيم المذكور اعلاه والذي لحق بسعيد فقد كان قد اجتمع في القدس بحكيم فاضل راهب اسمه الأنبا زخريا بن ثوبة كانت له معرفة حسنة في العلوم الحكمية والطبية ونظر مستقصي في أمر تركيب الادوية ومفرداتها فتتلمذ له ولازمه واخذ عنه فوائد وجمالاً كثيرة منها، «صفة السفوف النافع من الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة» والذي روج استعماله. وبعدها تجول التيمي في مدن اخرى بفلسطين في طلب العلم والفائدة حتى تميز في اعمال صناعة الطب واطلع على دقائقها وصارت له خبرة في تركيب المعاجين والادوية المفردة واستقصى معرفة ادوية الترياق الكبير (الفاروق) وطريقة تركيبه وعمل منه شيئاً كثيراً على أتم ما يكون من حسن الصنعة حتى سمي بالترياقى.<sup>(٤)</sup>

وصارت له بالاضافة الى ذلك معرفة جيدة بالنباتات الطبية وماهياتها وأوصافها وكان له غرام وعناية تامة في تركيب الادوية ودراية حسنة في مواطنها واختيار الجيد من مفرداتها وتحضيرها وعنده غوص على امور هذا النوع واستغراق في طلب غوامضه وبذلك أكمل الترياق الفاروق كما اسلفنا مضيفاً اليه بعض المفردات وحاذفاً اخرى حتى أجمع العارفين بالمعالجة ان الصفة التي رتبها هي أفضل ما وصل اليه الطب حتى زمانه وقد أعد للترياق ثلاثة تصانيف: كبير ومتوسط وصغير حتى امتدحه الطبيب ابو الحسن الانصاري في كتابه جامع الاقتراق.<sup>(٥)</sup>

وفي بيت المقدس اذ كان التيمي معانياً صناعة الطب فقد احكم ايضاً صناعة الصيدنة في اعداد وتركيب المعاجين والترياقات حتى انه عمل ادوية جاهزة معينة تحمل اوصافاً وفوائد متفق عليها منها مثلاً ترياق أسماه «مخلص النفوس» وقال فيه «هذا ترياق الفته بالقدس وأحكمت تركيبه مختصر نافع الفعل دافع لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة في الابدان بلسع ذوات السموم... مجرب ليس له مثيل».

ثم ان التيمي اختص بخدمة والى الرملة وما انضاف اليها من البلاد الساحلية كيفية وضواحيها، الحسن بن عبيد الله بن ضعج وقد أعجب بالتيمي واقتنع بمعالجته وما يصفه من مفردات ومركبات وما اعده له من معاجين ولخايل طبية ودُخُنًا دافعه للاوباء وقد اودع هذه الوصفات جميعها في ثنايا مصنفاته.<sup>(٦)</sup>



وقد أدرك التيمي الدولة الفاطمية بعد انتقال مركزها عام ٥٣٥٨/٩٦٩م (الى الديار المصرية فرحل اليها حوالي عام ٥٣٦٨/٩٧٩م) زمن الخليفة العزيز (٩٧٥-٩٩٦م) وله ركب شراب التمر هندي واشترط فيه شروطاً كثيرة من النفع صَحَّحْتُ جميعها. ثم انه صَحَّب الوزير ابو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس وله أهدي أشهر كتبه واكبرها، مادة البقاء والذي سيأتي ذكره مع مؤلفاته الأخرى<sup>(٧)</sup>. وصنف لبعض اصحابه بالفسطاط جوارشن وركبه وسماه «مفتاح السرور من كل الهموم ومفرح النفس» وذكر طريقة تركيبه واسماء مفرداته ودونه في كتابه مادة البقاء ايضا.

وبعد استقراره بالديار المصرية لقي التيمي الاطباء بعاصمتها وحاضرهم وناظرهم بما فيهم أطباء الخاص الذين قدموا من ارض المغرب بصحبه المعز عند قدومه للعاصمة المصرية والمقيمين فيها من اهلها. ولرجاحة عقله وتوخيه الحق والجدية كان منصفاً في مذكراته ومناقشاته غير رادِّ على أحد الابطريق الحقيقة والمنطق السليم. وكان له نظر صائب في طب الروح ومعالجة امراض العقل والنفس. فان ابن ابي اصيبعة يروي في ترجمة التيمي قصة تاجر كان في بعض اسفاره قد بات في مغارة مع رفقة له فخرحت حية نهشت رجله وذهبت فانتبه مذعوراً من الالم الشديد فقال له رفاقه انك مددت رجلك بسرعة فانخرزت فيها شوكة، اخرجوها امامه فسكن عنه الالم بعد ذلك وتابعوا طريقهم. وكان بعد عودته بمدة ان مروا بنفس الطريق فقال له احدهم أتدري ذلك الوجع الذي عرض لك في هذه النواحي من اي شيء كان؟ فقال لا. فاجابه ان حية ضربتك في رجلك ولم تخبرك ذلك في حينه فعرض له للوقت ضربان قوي في موضع النهشة وعرض له غشي، بقي يتزايد حتى فارق الحياة وكان السبب في ذلك اوهام واحداث نفسانية اصرت على بدنه وقلبه واودت بحياته.<sup>(٨)</sup>.

واشتهر التيمي بفلسطين وفي مصر بمعرفته في الادوية النباتية والمعدنية والاعذية وقد ذكره الحكيم الاجل ضياء الدين ابو عبد الله محمد بن احمد المالقي النبائي ابن البيطار في كتابه **جامع المفردات** حوالي ٧٠ مرة كما اقتبس منه الكثيرون من مؤلفي الكُنُاشات الطبية وكتب مفردات الادوية والاعذية في العصر الاسلامي، نذكر على سبيل المثال ابو جعفر احمد بن ابراهيم ابن الجزائر القيرواني في كتابه حول الاحجار حيث نقل مما كتبه التيمي في كتابه **المُرشد**،<sup>(٩)</sup> أو ان أحدهم تأثر بالآخر كمعاصرٍين.

وقد قضى التيمي بقية حياته في العاصمة المصرية حيث توفي في أواخر القرن العاشر (الرابع الهجري) زوله من التأليف ما يلي:

١ - رسالة الى ابنه علي في صناعة الترياق الفاروق والتبويه على ما يغلط فيه من ادويته ونعت اشجاره الصحيحة وأوقات جمعه وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته، وهذا يدل على أن الابن قد سار في خطا الاب في امتهانه صناعة الطب والمعالجة من الامراض والسموم.

٢ - كتاب اخر في الترياق استوعب فيه تكميل ادويته وتحرير منافعه وربما ايضا مختصر له وكلاهما مفقود حتى الان.

٣ - كتاب الفحص والاخبار. ايضاً مفقود.

٤ - مقاله في ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه، وهذا يشير الى اهتمامه في طب العيون، ونأسف لعدم توفر اية نسخة من هذا الكتاب لنشير الى مقدرته وفضله في هذا الفرع من العلوم الطبية.

٥ - كشف السر المصون والعلم المكنون في شرح خواص القرآن، ولعله نفس كتابه منافع خواص القرآن العزيز والموجود منه نسخ متعددة في الظاهرية بدمشق، وفي اسطنبول والرباط والاسكوريال والقاهرة ولندن وغيرها.<sup>(١٠)</sup>

وهناك كتابان آخران: امتزاج الأرواح وكتاب حبيب العروس وريحان النفوس في الطب لم نجد لهما ذكراً وافياً في كتب التراجم المعاصرة. ولكننا من دراستنا لتاريخ الطب في العصر الفاطمي فان لدينا اكثر من مثال يؤكد فقدان العدد الوفير من الكتب الطبية التي تم تأليفها في ذلك العصر واغلبها ضاعت لاسباب سياسية ودينية.<sup>(١١)</sup> وبسبب الحروب أيضاً وعدم الاستقرار.

وبرايانا ان اشهر كتبه وربما اكبرها حجماً كتابان سبقت الاشارة اليهما: الأول هو كتاب مادة البقاء باصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء الذي صنفه لابن كلسي ولست أعرف منه نسخة باقية غير اقتباسات متفرقة في كتب الاطباء اللاحقين، ولا شك انه اثر فيما كتبه معاصره ابن الجزار ثم ابن رضوان المصري في القرن اللاحق وأشهر أطباء بلده في عصره.

والثاني هو كتاب المرشد الى جواهر الاغذية وقوى المفردات من الادوية ويشتمل على غرضين الأول في الاغذية وتأثيراتها في الصحة والمرض والمداواة في عشرة مقالات dietetics or diet therapy ومنه نسخة ناقصة في لينينغراد بالاتحاد السوفياتي لم أرها.

والغرض الثاني في اربعة مقالات ويتحدث في قوى المفردات من الادوية ومنافعها وذكر الاصناف الساقطة من انواع النباتات واجناسها وقواها والصبوغ والمواد المعدنية. (١٢) وتوجد في المكتبة الوطنية في باريس نسخة فحصتها عام ١٩٧٠ تقع في ١٦ ورقة تم نقلها عام ١٥٤٠هـ / ١٥٤٠م بخط نسخ جميل. وقد حصلت على ميكروفلم لها وهذا عرض بسيط لبعض محتويات مقالاتها باختصار لاعطاء القارئ فكرة عامة عن طريقة واسلوب المؤلف واصالته في البحث والاستقراء.

خصص التيمي المقالة الحادية عشر من كتاب المرشد لذكر الامنان الساقطة بسبب الهواء من انواع النبات واجناسها وقواها ومنافعها موضحاً ان هذه الانواع الكثيرة عنصرها واحد هو الندى او الطل الساقط من السماء بعد تكونه من بخار الارض الرطب تحت تأثير حرارة الشمس في كل مكان. وتختلف حواهر الامنان وطبائعها باختلاف الاهوية والامكنة والتربة وجوهر النبات الذي يستقبلها وتنقسم الى قسمين: الاول ضرب من الادوية، اما قابضة الطعم كالكشوت (الحوك بالعراق)، او الحاد القوة كالافتيمون المطلق للطبيعة والذي يسقط في ارض فلسطين على نبات الصعتر يصدر لغيرها من البلاد، والمر اليسير المرارة العطري الرائحة كالورس الهندي والحبشي والجماني والقنبيل الداخل في طيب النساء وبعضه يزرع كسائر البذور، واللدان واللك الساقط على فروع الكروم وعسله يدخل في الاقراص والسفوف الصيدلانية.

والثاني فيشمل الامنان الحلوة الطعم وغير الحلوة التي تنحل بالماء والنار ثم تجمد ببرد الهواء كالعسل والترنجيبين وسكر العشر (الذي يسقط على ورق العشر رطبا) من جهة، والمطّ (الرمان البري) والجلنار البستاني (الرمان الذكر) والكريس (الساقط على ورق الطرفاء وورق الاثل بخراسان) من جهة اخرى.

وينفي التيمي اعتبار الشمع (الموم) من الامنان الساقطة من الهواء «بل هو جسم قفري يتكوّن من ريق النحل ويخرج من بطونها كمثل ما يتكون القز من ريق دودة القز.»

ثم يتحدث التيمي في اصناف الاقفاز الثانية الخارجة من باطن الارض كالعنبر والسندروس الذي يشبه الكهرمان المعدني الذهبي الشفاف (yellow amber) والمومياء الفارسي الذي استعمله قدماء المصريين لحفظ الاجساد المحنطة وقد ذكره حنين والرازي وغيرهما، والقبير العراقي ومنه يابس ورطب، والنفط الذي تسرع اليه النار وهو اما اسود او ابيض، «والقفّر اليهودي» وقد ذكره احمد بن خالد بن الجزار تلميذ اسحق بن سليمان في

كتابه الاعتماد ولكنه اخطأ في وصفه وفي تعيين معدنه مع انه الحمر المستخرج من البحر الميت من اعمال فلسطين بالقرب من البيت المقدس بين الغورين غور زُغَر وغور ايريجا ويدخل في اخلاط الترياق الفاروق... وفي الضياع الشامية يحمرون به كرومهم... إذ يُحَلَّ بالزيت ويحك به تحت عيون الكروم بشكل دائري على الاغصان لينع الدود من الترقى الى عيون الكرم ومن اكلها insecticide ويدخل في المراهم والسفوفات واذا بخر به المنزل يطرد الحيات والعقارب وسائر الهوام»<sup>(١٣)</sup>.

وجدير بالذكر ان التميمي هنا ينتقد جالينوس بتأدب وموضوعية من جهة خطأ الاخير في تعريف الحمر والذي له منافع طبية جمّة لم يعلمها جالينوس ولا وقف عليها «أقول هذا لا لاني اكثر علماً منه او أحكم رأياً وأقوى بصيرة لكن لسكنائي بالبيت المقدس ومجاورتي لبحيرة لوط ومعرفتي بكثير ممن كانت بهم علل طويلة مزمنة اعتادوا الخروج اليها ( في شهر آب=اغسطس)... للاستحمام بمائها والاحتقان به وشرب من استطاع شرب اليسير منه فعوفوا وسلموا وبروا من علمهم.» ثم يشير التميمي الى انها سميت بالبحيرة الميتة لانه لا يعيش فيها شيء من الحيوان المتولد في مياه البحار كالاسماك والسرّاطين والدلافين والسلاحف. «والسمك الآتي اليها يموت ايضا.»

ويقول في الاردن انه «نهر جواد عظيم الشأن يصب في البحيرة الميتة دائماً من اول الدهر الى وقتنا هذا... وقد كنا ونحن بالبيت المقدس اذا ارتقينا لظهر الطور (شرقي المدينة بعد ان نرقى اليه من كنيسة الجثيمانية وهي مواصفات جغرافية وتاريخية وطوبوغرافية هامة) ننظر الى ماء البحيرة الميتة وبيننا وبينه أربعة فراسخ فنراه ليس على ما وصفه جالينوس بقوله ان ماءها ابيض من ماء البحار بل نراه أشد زرقة من ماء البحر الغربي (الابيض المتوسط) وانما كان يجب ان يكون ماءها أبيض من ماء البحار لو كان وزنه أرق من ماء البحار وأخف وأما وهو أغلظ واثقل فكيف يكون لونه ابيض من ماء البحار وهو على ما وصفته به من الغلظ والثقل والكثافة... وكنا نرى من على ظهر الطور ماء نهر الاردن وهو ينصب فيها ويشقها من شاطئها الشرقي الى قريب من وسطها طافياً على مائها لا يخالطه لخفته عنه وهو ابيض يضرب الى الخضرة الريحانية»<sup>(١٤)</sup>.

وأضاف التميمي ما كان يسمعه من سكان المنطقة ان ماء هذه البحيرة ينقص تدريجياً على مر السنين ويحكون عن آبائهم واجدادهم ان المسافة كانت بين الماء وبين زغر في غابر الازمان أقل مما هي عليه الآن ثم أوضح كيف ان اهل المنطقة يحصلون على الكبريت

المستخرج من منطقة البحيرة وبيعه في نواحي فلسطين وان روائح الكبريت مع روائح الكبريت مع روائح النفط في الصيف تؤذي من حولها. ومن مائها ايضا كانوا يجمعون الملح المستعمل للطبخ والعجين والادام في البيت المقدس وفي فلسطين عامة وقد يتخذ من مائها ملحاً عذباً للطعام وملحاً مرّاً يستعمل في الصناعة.<sup>(١٥)</sup>.

ويتبع ذلك في المقالات الثلاثة الاخيرة دراسة واعية موضوعية ومهمة حول انواع الاطيان المعدنية والاحجار والجواهرز

وفي عصر التميمي هذا حضر الى فلسطين حوالي عام ٣٧٠ / ٩٨١ مُعِيناً من قبل العزيز الفاطمي، يوسف النصراني ليكون بطريركاً في البيت المقدس حيث خدم مدة ثلاثة سنين وثمانية اشهر ولكونه عارفاً بصناعة الطب مزاولاً لها فقد استمر في ممارستها طيلة هذه المهمة ايضا حتى رجوعه الى مصر حيث توفي ودفن في كنيسة مارتوادرس وقد ذكره يحيى بن سعيد بن يحيى في كتابه تاريخ الذيل.<sup>(١٦)</sup>.

ونستطيع ان نستنتج انه مر بفلسطين زمن الفاطميين اطباء آخرون نظير الكحال عمار بن علي الموصللي صاحب المنتخب في علم العين وعللها ومداواتها بالادوية والحديد، الفه بعد حضوره من العراق الى العاصمة الفاطمية زمن الحاكم بامر الله (٣٨٦-٤١١ / ٩٩٦-١٠٢٠)،<sup>(١٧)</sup> ومعاصره ابو علي محمد بن الحسن ابن الهيثم العالم في البصريات والرياضيات والعلوم الحكيمة،<sup>(١٨)</sup> وفي القرن اللاحق مر بها ايضا قادما من عاصمة العباسيين الطبيب النطاسي ابو نصر عدنان ابن العين زربي المتوفي بالقاهرة عام ٥٤٨ / ١١٥٣.<sup>(١٩)</sup>

## ازدهار المهنة زمن الايوبيين:

لقد بلغت الحركة العلمية التي ازدهرت في فلسطين ذروتها زمن الايوبيين. ومن ناحية العلوم الطبية فاول من اشتهر في زمانهم كان الطبيب النصراني ابو سليمان داود بن ابي المنى بن ابي فانه من اهل القدس. ولكنه انتقل الى الديار المصرية وحظي عند الملوك الفاطميين لتقدمه في الصناعة الطبية علما وعملا وتميزه في العلوم الحكيمة واحكام النجوم وكان له خمسة اولاد. وفي ثغر دمياط تعرف على ملك الفرنج الذي أعجبه طبه فطلبه من الخليفة الفاطمي ونقله مع عائلته واولاده الخمسة الى القدس وكان له معرفة بتركيب الترياق وعالج به ابن ملك الفرنج. واراد في آخر عمره ان ينصرف الى خدمة الله تعالى فلبس ثوب الرهبان

وانعزل الى الدير تاركاً ادارة بيته والعناية بمنزله واولاده لابنه الاكبر الحكيم المهذب ابو سعيد الذي خدم بالطب الملك صلاح الدين والملك العادل وانتقل الى الديار المصرية حيث توفي عام ٦١٣هـ/١٢١٧م. واتفق ان ملك الفرنج اسر الفقيه عيسى اخو الامير مجد الدين في القدس وكنبه بالقيود في سجن مظلم فمرض وكان الطبيب المشرف عليه الحكيم بن ابي فانه هذا، فطلب من الملك اطلاق سراحه ففعل ثم عالجته فشفي.

ويذكر ابن ابي اصيبعة ان الحكيم ابا سليمان المذكور اعلاه ظهر له من احكام النجوم اليوم والشهر والسنة التي فيها سيفتتح الملك الناصر صلاح الدين (١١٧١-١١٩١) بيت المقدس وانه يدخلها من باب الرحمة فاوصى ابنه الفارس ابو الخير بان يمضي رسولا عنه الى الملك الناصر ويشره بالخبر في غرة سنة ٥٨٠هـ/ربيع ١١٨٤ وضح تنبؤه بعد ثلاثة سنين فآكرمه صلاح الدين واهله جميعا وعطاهم الامان وجزيل الهبات. وتوفي الحكيم ابا سليمان بعد قليل فاوصى صلاح الدين باولاده خيراً والذين اربعة منهم كانوا اطباء ناجحين خدموا في بلاط الملوك الايوبيين في الديار الشامية والمصرية واشهرهم الحكيم موفق الدين ابو شاكر الذي قال فيه الشاعر مادحاً:-

هذا الحكيم ابو شاكر  
كثير المحبين والشاكر  
خليفة بقرط في عصرنا  
وثانية علمه الباهر

### موفق الدين عبد اللطيف:

وفي زمنهم اشتهر الطبيب الشيخ موفق الدين عبد اللطيف ابن اللباد الموصلّي الاصل البغدادي المولد (عام ٥٥٧/١١٦٢) حيث درس ثم سافر الى خراسان والموصل والشام ومصر وحوالي عام ٥٨٦/١١٩٠ زار بيت المقدس ثم توجه الى ظاهر عكا ليحظى بمقابلة الملك صلاح الدين فاجتمع بقاضي عسكره بهاء الدين بن شداد والكاتب عماد الدين والقاضي الفاضل الذي رتب له زيارة القاهرة للتعرف على عدد من العلماء والمتطهين هناك من بينهم الشيخ الرئيس ابو عمران موسى بن عبد الله بن ميمون الذي خدم الفاطميين بمصر وبعد موته دفن في طبرية ٥٣٤-٦٠١/١١٣٩-١٢٠٤. اما البغدادي فرجع الى القدس حيث حظي هذه المرة برؤية الملك صلاح الدين « فرأيت فيه ملكاً عظيماً يملأ العين روعة والقلوب محبة، قريباً بعيداً سهلاً محبباً واصحابه يتشبهون به ويتسابقون الى المعروف كما قال تعالى: « ونزعنا ما في صدورهم من غل. » واول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل

العلم يتذكرون في اصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة ويأخذ في كيفية ابناء الاسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع. وكان مهتماً في بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ويتأسى به جميع الناس الفقراء والاعنياء والاقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ويأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ويركب العصر ويرجع في المساء ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهاراً». وقد رحب الملك صلاح الدين بالطبيب البغدادي وأكرم وفادته وعينه وأرسله الى دمشق ليخدم هنالك بعلمه ومهنته وكان بدمشق وقت وفاة صلاح الدين عام ١١٩١ م. واشتهر بعد ذلك كطبيب في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها وبعد ان كان بنيته القيام بفريضة الحج توفي بعيد عودته لبغداد مسقط رأسه عام ٦٢٩/١٢٣٢. (٢١)

وقد صنف البغدادي عشرات الكتب الطبية والشروح والمقالات والمسائل المختصرات والرسائل المتعلقة في الطب والصيدلة وهنا نذكر منها ما له صلة باقامته القصيرة في فلسطين ونبدأها بكتابه **الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر** بعد ان حل بمصر ذلك الغلاء العظيم والموتان الذي لم يشاهد مثله حوالي عام ٦٠٠/١٢٠٤ وقد بدأه بالقاهرة وذكر فيه أشياء شاهدها او سمعها ممن عاينها تذهل العقل وفرغ من تأليفه في العاشر من شعبان سنة ٦٠٣/١٢٠٧ بالبيت المقدس. وقد نُشِرَ الكتاب وترجم اكثر من مرة. (٢٢) وهو مقالتان الاولى تحتوي ستة فصول: في خواص مصر العامة، وفيما يختص به القطر من النبات، والحيوان وما شوهد من آثارها القديمة، ومن غرائب الابنية والسفن، ومن الاطعمة. والثانية تحتوي ثلاثة فصول: في النيل وكيفية زيادته وعلل ذلك وقوانينه، وحوادث سنة ٥٩٥ هـ واخيراً حوادث سنة ٥٩٨ (١١٩٩-١٢٠٢). وفي الكتاب ملاحظات وحقائق تاريخية من الاهمية بمكان ولكننا هنا نريد ان نورد تقريراً له يؤكد انه كان يدرس الطب والتشريح وقد حمل تلاميذه على صدق المشاهدة والاهتمام بالتجارب والاختبارات اذ يقول «ومن عجيب ما شاهدناه... تلاً من رم... عشرين الفا فصاعداً وهم على طبقات في قرب العهد وبعده فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها... ما افادنا علما لا نستفيده من الكتب... مخالفاً لما قيل فيها والحس اقوى دليلاً من السمع فان جالينوس وان كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ... فان الحس اصدق منه... فمن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل (جالينوس واتباعه) قد أطبقوا على انه عظامان بمفصل وثيق... والذي شاهدناه (في اكثر من الفمي جمجمة) أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا

درز اصلاً... وهذا الفك الاسفل لا يوجد في جميع احواله الا قطعة واحدة. واما العجز مع العجب ذكر جالينوس انه مؤلف من ستة أعظم ووجدته انا عظماً واحداً». (٢٣)

ثم ان البغدادي هذا اختصر كتاب مادة البقاء للتميحي المار ذكره وكان ذلك ربما في زمن الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب (ملك سنة ١٢٢١) حيث اقام الشيخ موفق الدين البغدادي في بيت المقدس مدة كان يتردد فيها على الجامع الاقصى ويشغل الناس عليه ويتفتعون منه في كثير من العلوم.

وقد قام بعض الزملاء بدراسة تحليلية لمقالته في الحواس<sup>(٢٤)</sup> وكذلك رسالته في المرض المسمى دياييطس وكان العرب أول من كتبوا حول هذا الموضوع في رسالة او مقالة مستقلة.<sup>(٢٥)</sup> ثم اني وجدت في المكتبة الوطنية في باريس وبنفس المجموع العربي المذكور سالفا (رقم ١) والحاوي كتاب المرشد للتميحي، مقاله للبغدادي في اصول مفردات الطب وكيفيات طبائعها يذكر فيها تضاد البسائط الاربع: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ومن اجتماع المتضادات تحصل اربع كيفيات بالفعل او بالقوة وهي مقالة طريفة تحتاج لدراسة مستقلة ويصر فيها المؤلف على عدم استعمال اي عقار دون اختباره بالقياس والتجربة.<sup>(٢٦)</sup>

### مستشفى (بيمارستان) القدس والحكيم المقدسي:

كان معاصراً للبغدادي وقد مات ايضاً في نفس السنة (٢٢٦/٢٢٩) الطبيب النصراني موفق الدين يعقوب بن صقلان (سقلاب) المقدسي (اذ كان مولده بالقدس الشريف وبه درس الحكمة والطب)، الملكي (من الكلمة السريانية ملكو اي اتباع الملك وهم الذين اعتنقوا المذهب الرسولي الارثوذكسي لكنيسة انطاكية وسائر المشرق) والذي نجد عنه اخباراً متخالفة في المراجع المعاصرة التي تعطي ترجمة حياته ولكننا من مجموعها نستخلص الآتي. درس على الراهب الفيلسوف الانطاكي تاذورسي (تاودروس) نزيل القدس في دير السيق وكان خبيراً بالعلم الطبيعي متقناً للهندسة وعلم الحساب والتنجيم حسن الفطرة كثير الفطنة حتى حوالي عام ٥٨٠/١١٨٤ ثم اجتمع بالشيخ ابو منصور النصراني الطبيب واشتغل عليه وياشر معه اعمال صناعة الطب وانتفع به.

وبعد ان اتقن الحكيم يعقوب المقدسي صناعة الطب باشر المعالجة في البيمارستان الصلاحي بحجى الدباغة بالقدس لمدة سنين عديدة وهو اول اطباء الذين نعرف عن مساهمتهم في خدمة هذا المستشفى الهام الذي أوقفه الملك صلاح الدين للعناية بالمرضى بعد



استرجاع بيت المقدس من ايدي الصليبيين المحتلين وقد زوده بالادوية والعقاقير اللازمة. (٢٧)

وكان المقدسي من أعلم أهل زمانه بمعرفة كتب جالينوس وتدقيق معانيها وطرق الاستفادة منها يساعده على ذلك اتقانه للغة الاغريقية وخبرته في نقل معانيها الى العربية وكان عنده بعض كتب جالينوس في اللغة الاصلية مثل حيلة البرء والعلل والاعراض وغير ذلك. وكان ملازماً لقراءة هذه الكتب مفرداً في الحرص على فهمها وشرحها والاشتغال بها، وكان جيد الفطرة شديد الذكاء وكان فيما يستحضره من افكار وما يسأل عنه في صناعة الطب من المسائل والمواضيع المستعصية يجيب بما اورده فيها جالينوس من نصوص مع تعيين المصدر بالذات.

ثم انه بعد تولي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل بدمشق (عام ١٢١٨) انه استدعى الحكيم يعقوب المقدسي الى عاصمة ملكه فاخصّ به وكانت معالجته صائبة فارتفعت حاله عنده وكثر ماله. ويقول فيه الطبيب ابن ابي اصبيعة الذي لحقه وتلمذ له في العاصمة السورية، «ومما شاهدته في ذلك من امره انني كنت اقرأ عليه في أوائل اشتغالي بصناعة الطب ونحن في المعسكر المعظمي وكان ابي ايضاً في ذلك الوقت في خدمة الملك المعظم شيئاً من كلام ابقراط حفظاً واستشراحاً فكنت ارى من حسن تأتبه في الشرح وشدة استقصائه للمعاني باحسن عبارة وواجزها واتمها معنى ما لا يجسر احد على مثل ذلك ولا يقدر عليه. ثم يذكر خلاصة ما ذكره وحاصل ما قاله حتى لا يبقى في كلام ابقراط موضع الا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة. ثم انه يورد نصّ ما قاله جالينوس في شرحه لذلك الفصل على التوالي الى آخر قوله. ولقد كنت اراجع شرح جالينوس في ذلك فاجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس باسره في ذلك المعنى، وربما الفاظ كثيرة من الفاظ جالينوس يوردها باعيانها من غير ان يزيد فيها ولا ينقص. وهذا شيء تفرد به في زمانه. وكان في اوقات كثيرة لما اقام بدمشق يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي (الدمشقي الدخوار ٥٦٥-٦٢٨/١١٦٩-١٢٣٠) في الموضوع الذي يجلس فيه الاطباء عند دار السلطان ويتباحثان في اشياء من الطب فكان الشيخ مهذب الدين افسح وأقوى براعة واحسن بحثاً وكان الحكيم يعقوب اكثر سكينه وأبين قولاً واوسع نقلاً لانه كان بمنزله الترجمان المستحضر لما ذكره جالينوس في سائر كتبه من صناعة الطب.»

وأضاف ابن ابي اصبيعة قائلاً «فاما معالجات الحكيم يعقوب فانها كانت في الغاية من الجودة والنجاح وذلك انه كان يتحقق معرفة المرض أولاً تحقيقاً لا مزيد عليه ثم يشرع في

مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر. وكان شديد البحث واستقراء الاعراض بحيث انه كان اذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرضاً عرضاً وما يشكوه مما يجده من مرضه حالاً حالاً الى ان لا يترك عرضاً يستدل به على تحقيق المرض الا ويعتبه فكانت ابدأً معالجته لا مزيد عليها في الجودة. « وكان الملك المعظم يشكر منه هذه الحالة ويصفه ويقول: لو لم يكن في الحكيم يعقوب الا شدة استقصائه في تحقيق الامراض حتى يعالجها على الصواب ولا يشتبه عليه شيء من امرها لكفاه ذلك فخراً في ممارسة الضاعة الطبية.

ويشهد ابن ابي اصيبعة الذي عرفه معرفة شخصية ودرس عليه ان « الحكيم يعقوب كان من أتم الناس عقلاً واسداهم رأياً واكثرهم سكينه. » وصار مرافقاً للملك المعظم عيسى الذي كان يعتمد عليه في كثير من الاراء الطبية وغيرها فينتفع بها ويحمد عواقبها وقصد الملك المعظم ان يوليه بعض تدبير دولته والنظر في ذلك فما فعل واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط. (٢٨)

وذكر القاضي جمال الدين القفطي (المتوفي عام ١٢٤٨) ان الحكيم المقدسي يعقوب كان من النصارى المشرقين في القدس الذين أصلهم من ارض البلقاء وعمّان (من شرقي الاردن) وعرفوا بالمشركين لانهم من شرقي القدس. ولما استوطنت جماعة منهم في بيت المقدس سكنوا محله في شرقيه تُعرف بمحلة المشاركة. (٢٩)

أما بدمشق فبقي الحكيم المقدسي في خدمة الملك المعظم وادركه في اخر ايامه نقرس في رجله مع آلام مبرحة ووجع مفاصل أقرعه عن الحركة حتى قيل ان المعظم كان اذا احتاج اليه في امر مرضه استدعاه في محفة تحمل بين الرجال فيكرمه غاية الاحرام وله منه الجامكية (مرتب خدام الدولية من العسكرية والملكية) السنية والاحسان الوافر « وقال له يوماً: يا حكيم لم لا تداوي هذا المرض الذي في رجلك فقال: يا مولانا الخشب اذا سوس ما يبقى في اصلاحه حيلة. » وتوفي الملك المعظم في عام ٦٢٤-١٢٢٧ وملك بعده ابنه الملك الناصر داود الذي كآببه واصل احسانه وعنايته بالحكيم يعقوب حتى وفاة الاخير بدمشق بعد حوالي عامين. (٣٠)

واما ابنه الحكيم سديد الدين ابن منصور بن يعقوب المقدسي فكان هو أيضاً من افاضل الاطباء واعيان العلماء متميز في علم صناعة الطب وعملها متقن لفصولها وجملها وكان مولده على الارجح في بيت المقدس حيث درس الطب على والده وغيره ثم انتقل الى

الكرك وقرأ (العلوم الحكمية) على الشيخ شمس الدين الخسرو شاهي وخدم الملك الناصر داود مدة في الكرك ولاقى منه الاحسان الوفير ثم انتقل الى دمشق حيث كان والده الحكيم يعقوب وهناك ايضا توفي. (٣١)

### الطبيب النباتي ابن الصوري وحفيده:

ان من اشهر اطباء فلسطين العرب، الذين كان لهم اهتمام خاص بالنباتات الطبية وأوصافها الظاهرة وتأثيراتها الدوائية، رشيد الدين ابو المنصور بن ابي الفضل بن علي الصوري المولود في مدينة صور سنة ١١٧٧/٥٧٣ حيث ترعرع ثم غادرها ليدرس الطب والعلوم الحكمية في البلاد الشامية ومن شيوخه الطبيب موفق الدين عبد العزيز والحكيم موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي الأنف الذكر حتى تميز في صناعة الطب واطلع على محاسنها الجليلة والخفية فأقام في بيت المقدس سنين عديدة وهو ثاني طبيب يقوم على معالجة المرضى في البيمارستان الصلاحي فيه. ثم صحب الشيخ ابا العباس الجياني المتبحر في معرفة الادوية المفردة والمتفنن بالعلوم الحكمية فأخذ عنه الشيء الكثير حول خصائص الادوية المفردة فاشتغل بها حتى تميز على كثير من اربابها وصار عارفاً باسمائها واوصافها وخواصها وتأثيراتها وكان ذا مرؤة وعرافان للجميل وخدم بصناعة الطب الملك العادل من عام ٦١٢-٦١٤/١٢١٦-١٢١٨ الذي استصحبه الى القدس وخدم بعده الملك المعظم عيسى في الديار المصرية ونال منه اكراماً جزيلاً وبعده خدم ابنه الملك الناصر داود ايام اقامته بدمشق حتى غادرها الملك الى الكرك وبقي ابن الصوري فيها وكا يُدرّس صناعة الطب وله تلامذة أجلاء، وحرر أدوية الترياق الكبير على احسن وانفع ترتيب وكانت له صداقة ومودة مع زعيم مؤرخي الطب ابن ابي اصبيعة فأهداه تأليفاً يحتوي على فوائد ووصايا طبية وله مؤلفات اخرى اهمها كتاب الادوية المفردة أهداه للملك المعظم استقصى فيه المفردات الطبية ذاكر ادوية عرف منافعها واوصافها لم يذكرها المتقدمون. ومن بديع امره انه كان يستصحب مصوراً ومعه الاصباغ على انواعها واللّيقي فيذهبان الى مواضع الاعشاب الطبية في جبال وسهول سورية ولبنان وفلسطين فيشاهدان معا كل نبات فيحققانه من حيث لونه ومقدار اوراقه واغصانه واصوله وازهاره فيجتهد المصور في محاكاتها في اطوار نموه في وقت نموه وايراقه وازهاره حتى كمال نموه وظهور ثمره ويزره فيصوره في كل تلك المراحل حتى وقت ييسه حتى يشاهد القارىء أتم تحقيق واصدق وصف للنباتات. ومع الاسف فان هذا الكتاب الفريد لم يصل الينا. (٣٢) وتوفي ابن الصوري بدمشق سنة ٦٣٩/١٢٤١. اما

حفيدة علي بن يوسف بن عبد الله بن علي التنوخي المقدسي فقد ولد وترعرع في القدس وتعلم صناعة الطب وبها خدم الملك العادل (٥٩٦-٦١٥/١١٩٩-١٢١٨) واستمر في خدمة الطب ولا نعرف عنه شيئاً كثيراً سوى انه بقي من مؤلفاته الكتاب الأشرف في صناعة الترياق المنقذ للنفوس الشريفة من التلف منه نسخة في بنكيبور ربما الفها للملك الأشرف موسى بن الملك العادل الأيوبي المتوفي سنة ١٢٣٧ وتوفي بعد ٦٥٦/١٢٥٨ بقليل. (٣٣)

### ختام عصر الأيوبيين:

في اواخر العهد الأيوبي ظهر عدد من الأطباء الفلسطينيين العرب نذكر منهم ثلاثة باختصار: الأول، فتح الدين ابو العباس احمد بن عثمان بن هبة الله المقدسي الذي ولد وترعرع بالقدس الا انه عاش بدمشق اذ كان أبوه رئيساً للأطباء هنالك ولا نعرف عنهما الشيء الكثير. انما المقدسي هذا كان في خدمة الملك الصالح نجم الدين ايوب في القطر المصري (٦٣٧-٦٤٧/١٢٤٠-١٢٤٩) وربما له اهدى كتابه في امراض العين وعلاجها وعنوانه نتيجة الفكر في علاج امراض البصر وتوجد منه نسخ باقية اشار اليها بعض الباحثين. (٣٤)

والثاني معاصره رشيد الدين ابو سعيد بن موفق الدين يعقوب من نصارى القدس وكان متميزاً في صناعة الطب خبيراً بعلمها وعملها حاد الذهن بليغ اللسان حسن اللفظ اذ اتقن علم النحو والعربية على الشيخ تقي الدين خزعل بن عسكر بن خليل ودرس الطب على الحكيم النطاسي رشيد الدين علي بن خليفة عم ابن ابي اصبيعة ايام حكم الملك المعظم (١٢١٨-١٢٢٧) بدمشق ولازمه في سفره وحضره وكان من خيرة تلاميذه واقربهم اليه فدرس مبادئ الصناعة الطبية وحفظها ثم قرأ الكثير من كتب جالينوس وغيرها ورافق بعدها الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي رئيس اطباء دمشق ودخل في خدمة الملك الكامل عام ٦٣٢/١٢٣٥ في القاهرة عدة سنين وكانت له جامكية حسنة وبعده خدم الملك الصالح نجم الدين من عام ٦٣٧ حتى ٦٤٦هـ اذ كان الملك قد ذهب الى دمشق ومرض فاستدعي ابو سعيد لمعالجته فاصابه فالج مات على اثره. ومن تأليفه كتاب في علاجات مختارة في صناعة الطب كان قد اهداه للملك الصالح نجم الدين وله تعليقات على كتاب الحاوي في الطب لابي بكر محمد بن زكريا الرازي وكلاهما مفقود. (٣٥)

والثالث هو الحكيم نجم الدين ابو زكريا يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد بن اللبودي الذي كان اواحد زمانه في العلوم الطبية والحكمية متقن للعربية وآدابها له بلاغة سحبان وائل وحكمة الاوائل الافاضل وله شعر جيد وترسل بليغ ولد في حلب عام ١٢١٠/٦٠٧ وحضر الى دمشق مع ابيه الحكيم شمس الدين محمد بن اللبودي وكانت النجابة وعلو الهمة تتبين فيه منذ الصغر فقرأ الطب على الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم المذكور اعلاه فتميز بالصناعة واتقن علمها وعملها فخدم الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص مدة وكان يعتمد عليه ويزداد ثقة به فاستوزره وفوض اليه امور دولته واعتمد عليه اعتماداً كبيراً يرافقه في السفر والحضر حتى توفي الملك المنصور بعد كسرة الخوارزمية عام ١٢٤٣/٦٤٣ فالتحق بالملك الصالح نجم الدين فخدمه بالديار المصرية فاكرمه واجزل له العطاء وجعله ناظراً على ديوان الاسكندرية وعين له الجامكية السخية والمنزلية العلية وانتقل من هناك ليكون ناظراً على ديوان دمشق وكافة المدن الشامية وحضر للقدس حوالي عام ١٢٦٧/٦٦٦ وكانت له تاليف منذ ايام شبابه حتى وفاته حوالي ١٢٧٠هـ/١٢٧١م وله من الكتب الطبية: مختصر الكليات من كتاب القانون وكذلك الاشارات والتنبهات لابن سينا، مختصر كتاب المسائل لحنين بن اسحق العبادي، وتدقيق المباحث الطبية، مقاله في البر شعنا، وكتب في علم النجوم والطلاسم والرياضيات والفقهاء والفلسفة والعلوم الطبيعية. (٢٦)

### استنتاجات ختامية:

نستطيع تلخيص ما ذكرناه حول تطور الصناعة الطبية في فلسطين العربية في الحقبة بين اواخر القرن العاشر الى اواسط القرن الثالث عشر ميلادي في الاستنتاجات التالية:

١ - ان اطباء فلسطين يمثلون نخبة صالحة من اطباء هذه الحقبة في الدول الاسلامية عامة وهم كمعاصريهم اعتمدوا على كتب الاغريق كابقراط وجالينوس وغيرهما وتفهموا احكامها وتعاليمها بما يختص بالاحلاط والعناصر والقوى والافعال وتشريح الجسم البشري واسباب وعلامات الامراض والعلل والمعالجة بالغذاء والدواء والعمل باليد واستخدام اسباب الصحة وتحسين الحالة العامة ومنع الامراض وحفظ الصحة. ومع تقيدهم بتعاليم الاغريق الا انهم لم يتورعوا من ان ينتقدوا ما كان خاطئاً وما اثبتته الحس والمشاهدة والتجربة واضافوا الكثير في الدواء والعلاج والنظريات المبنية على الخبرة.

- ٢ - كان اطباء فلسطين وغيرهم من تلك الحقبة يتمتعون بجاه واکرام من ملوك الفاطميين والايوبيين لا سيما الاسرة الاخيرة مما سهل اعمالهم وانجح مهنتهم وممارستها كما ورتبوا لهم مجالس خاصة في قاعات قصورهم وفي دورهم للمناقشة والمناظرة وغالباً ما كان الملوك والوزراء يشتركون في مثل هذه المباحثات العلمية المشجعة البناءة.
- ٣ - تباري المؤلفون من الاطباء وغيرهم في اهداء نتاج افكارهم وزيدة اختباراتهم في كتب قدموها لمناصريهم وذوي الفضل من حكامهم.
- ٤ - وقد تميز الكثير من اطباء فلسطين في التعرف على انواع العقاقير والنباتات الطبية والادوية المعدنية الطبيعية فدرسوها وتحققوها ووصفوها وعرفوا تأثيراتها واستخدموها في المعالجة وكذلك مارسوا اعداد المفردات واختيار الجيد منها وعرفوا طرق التركيب وصناعة الادوية فكان الطبيب يحسن مهنة الصيدلاني في تركيب العقاقير النافعة وفحص تأثيرها لزيادة مفردات جديدة وحذف ما لا يفيد حتى أتت تحضيراتهم الدوائية مجدية وشفافية.
- ٥ - فاق مستوى تعليم الصناعة الطبية وممارستها في فلسطين ما كان معروفاً في الغرب وبين الفرنج الصليبيين في الارض المحتلة. وقد استفاد الصليبيون من احتكاكهم بانباء البلاد في رفع مستوى المعارف الطبية بينهم وكذا دور الشفاء والمستشفيات بدأت تتطور على نمط ما تعلموه من تقدم هذه المؤسسات ونجاحها في البلدان العربية والاسلامية.

## مراجع وحواشي

- ١ - بعد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (حكم بالمغرب ٩٥٣-٩٧٢م) ثم انتقلت قاعدة ملكه لمصر (ملك ابنه نزار ابو منصور العزيز من ٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م وكان كريماً شجاعاً مكثراً من العمران واتسعت حدود الدولة في زمنه، وبعد كسرتة لافتكين التركي وهزيمة القرامطة استرد سلطانه على فلسطين ولاواسط سورية وضرب اسمه على السكة والبنود واستمر نفوذ الفاطميين حتى سقوطهم وقيام الدولة الأيوبية (١١٦٩-١٢٥٠م). انظر ابو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ١، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٠٩، وعلي بن محمد بن ابي السرور الروحي، بلغة الظرفاء في ذكرى الخلفاء، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩، ص ٣٥، وحسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، طبعة سابقة، القاهرة، ١٩٦٦، ٣: ١٥١.
- ٢ - جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء، طبعة لبيزج، ١٩٠٣ ص ١٦٩. Julius Lippert, editor, Leipzig, 1903, p. 169.
- ٣ - يجبرنا مؤرخ الطب العربي الشهير موفق الدين ابي العباس أحمد الخرجي ابن ابي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء، طبعة القاهرة، ١٨٨٢، ج ٢ ص ٨٧-٨٨، ان أحمد بن سعيد التميمي كان بين معاقري الكرمة والمسكرات وكان يخشى على حياته من جرائها، إذ طالما قادته للتصرف كأحد السفهاء والى الادمان منها.
- ٤ - المرجع أعلاه، عيون الانباء، ٨٧-٨٩: ٢ والترياق مستعربة من اللغة الاغريقية = *theriaka*, Latin *theriaca*, and antidote to poisons of wild beasts Greek *therion* وهي معاجين دوائية ويقول في ذلك ابو عبد الله محمد الكاتب الخوارزمي، مفاتيح العلوم، القاهرة، المنيرية، ١٩٢٤، ص ١٠٣-٤ ان الترياق (او الدرياق) مشتق من تيريون باليونانية وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالافاعي ونحوها وقد شاع اولا استعمال الترياق بين الاغريق حتى زمن جالينوس في القرن الثاني ميلادي وقد ترجمت مقالاته فيه الى العربية بواسطة حنين بن اسحق العبادي في القرن التاسع وعنه نقل اكثر الاطباء ومنهم من أضاف وحذف حسب

استحسانه من الجواهر الداخلة فيه المكونة لاجزائه وصار يستعمل علاجاً شافياً لأمراض كثيرة بجانب التسمم حتى نقل الى اوروبا ايضاً.

See S. Hamarneh, "A history of Arabic pharmacy," *Physis*, 14 (1972), pp. 21-23.

٥ - ابو الحسن علي بن عبد العظيم الانصاري أتم كتابه الافتراق والاتفاق في صناعة الترياق، او جامع الافتراق لصناعة الترياق في الاندلس حوالي عام ٦٦٩ هـ ومنه عدة نسخ باقية وهو من أحسن ما كتب بالعربية في هذا الموضوع. Ibid-; and *Origins of Pharmacy and Therapy in the Near East*, Tokyo, The Naito Foundation, 1973, pp. 109-113 and Carl Brockelmann, *Geschichte der arabischen Litteratur*, Leiden, 1937, Supplement, 1:898.

٦ - القفطي، تاريخ الحكماء، ١٠٥-١٠٦، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ٨٧:٢-٨٩، صلاح الدين خليل بن أيك الصفدي، الوافي بالوفيات، Safadi's *al-Wafi*. edited by Hellmut Ritter Bibliotheca ٨٢-٨١:٢ *Islamica*, Wiesbaden, Steiner, and Istanbul. Milli, 1949, 2nd ed., 1961, vol, 2, pp.81-82; and Fuat Sezgen, *Geschichte des arabischen Schrifflums*, Leiden, vol. 3, 1970, pp. 317-18

٧ - كان يعقوب بن كلس (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) يهودي هاجر من العراق الى مصر عن طريق فلسطين زمن كافور الانشيدى وتزلف اليه فاستخدمه عام ٣٥٦هـ / ٩٦٧م وحين بدأ نجم الخليفة الفاطمي المعز يرتفع طلبه وحظي عنده وقر به اليه فآظهر اسلامه عام ٣٦٨هـ وتشيع فرقاه المعز الى أعلى مراتب الدولة وعطاه لأول مرة لقب الوزير الخليفة العزيز وقد فند ادعاءاته وكشف مآربه المؤرخ ابن عساكر في تاريخ دمشق (حقق من الجزئين الاولين صلاح الدين المنجد بدمشق ١٩٥١-٥٤)، وذكره باسهاب القاضي أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧١، ج٧: ٢٧-٣٤، وابي الحاسن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، دار الكتب، ج٤: ٢١، ١٥٧-١٥٨، وتقي الدين المقرئزي، الخطط، بولاق، ج٢: ٤-٧.



٨ - ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ٢: ٨٨ ولقد تميز الطب العربي في هذه الحقبة بان اعطى اطباء عناية خاصة للأمراض النفسانية والعقلية وعالجوها بفتنة ودراية وشاروا اليها في تأليفهم إذ كان اهتمامهم معالجة الانسان كشخصية كاملة مستقلة.

٩ - ضياء الدين عبد الله بن احمد بن البيطار المالقي الاندلسي، الجامع لمفردات الادوية والاغذية، طبقة بولاق ١٨٧٥، ج ١: ٣٤، ٤٥، ٦٧ ومواضيع اخرى كثيرة. also L. Leclerc, Histoire de la medecine arabe, Paris, 1876, vol. 1:388-91; and S. Hamarneh, Catalogue of Arabic Mss. at the Br. Library, 1975, pp.81-82 and 167-72; and for Ibn al-Jazzar see also Sezgin, Geschichte, op. cit., vol. 3: 304-6

وانظر ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ٢: ٣٧-٣٩ حول أحمد بن ابي خالد ابن الجزائر القيرواني الطيب.

١٠ - عزت حسن، فهرس الظاهرية، دمشق، ١: ٣٨٥-٦، عمر رضى كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، الترقى، ٨: ٢٦٣-٤، خير الدين الزركلي، الاعلام، الطبعة الثالثة، ٦: ٣، ٢، برولكمن، ١: ٢٧٢ وملحق ١: ٤٢٢.

١١ - اسماعيل البغدادي، هدية العارفين، استانبول، ج ٢: ٤٩، See also Hamarneh, "Medicine and pharmacy under the Fatimids", Isma'ili Contributions to Islamic Culture, S. H. Nasr editor, Tehran, 1977, pp. 147-60, 181-83.

١٢ - نعرف بالفضل للمكتبة الوطنية بباريس وللقائمين عليها لتفضلهم بارسال ميكروفلم لمخطوط كتاب المرشد للتمييز (عربي رقم ٢٨٧٠ (ق ١-١٢٦) لدراسته والاشارة اليه اما كتابه مادة البقاء فقد ذكره خليفة في كشف الظنون، انظر طبعة استانبول ج ٢: ١٥٧٤ كما ذكره ابن قيم الجوزي في كتابه الطب النبوي.

١٣ - مخطوط باريس أعلاه رقم ٢٨٧٠ (١) ق ١٣-٣٢ يكشف عن أصالة التيمي في آرائه ومشاهداته.

١٤ - مخطوط باريس نفسه ق ٣٣-٣٥، ولا بد هنا من ان نذكر ان الجالينوس (١٢٩-٢٠٠م) أثراً بعيداً وقويماً في تطور وتقدم العلوم الصحية في الاسلام وكان

قسماً هاماً من كتبه قد نُقِلَ الى العربية (من اليونانية) لا سيما بواسطة حنين العبادي ومدرسته بالعاصمة العباسية وبقيت هذه الترجمات منذ القرن التاسع حتى العصور المتأخرة مرجعاً أساسياً وانتقل أثرها من العرب الى اوروبا حتى عصر البعث.

١٥- من أجل ما كُتِبَ في موضوع هذه المعادن في مياه وحوض البحر الميت ما ذكره هاموند Philip C. Hammond, "The Nabataean bitumen industry at the Dead Sea," *Biblical Archaeologist*; 22 (1959), and reprinted in *Bitupal* pp. 4-21.

ولا شك ان القار و الحمر والنفط كانت مواد معروفة ومستعملة في الطب والصناعة في تلك النواحي منذ العصور القديمة أنظر سفر التكوين الاصحاح ١١ واصحاح ١٤ والخروج الاصحاح الثاني.

١٦- ابن ابي أصيبعة، عيون الأنباء، ٢: ٨٦ ونظن أنه ربما لكون نصارى فلسطين من الملكيين الارثوذكس لم يقبلوا رئاسة روحية من أقباط مصر المختلفين عنهم في المذهب والتعليم فرجع لوطنه، بعد ان فرضه ملك العبيديين الفاطميين اعتباراً على المواطنين.

١٧- ان أكمل ترجمة حياة عمار الموصلبي واعماله هو المختصر مع المراجع وتحليل لنسخ اعماله الباقية المعروض في تاريخ فواد سزكين 3: F. Sezgin, *Geschichte*, op. cit., pp. 329-33. Meyerhof also was influenced by the monumental investigation of J. Hirschberg

حكايات في قدح الماء من المنتخب، برشلونه، ١٩٣٧ وانظر وائل الخوري، كتاب العشر مقالات في العين، الجامعة، دمشق، ١٩٧٥.

١٨- في عام ١٩٦٩ أُقيمت في الباكستان ندوة دولية للاحتفال بذكرى مرور الف عام على ولادة ابي علي الحسن بن الحسن بن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٩) تحت رعاية مؤسسة همدرد وصدرت أبحاث الندوة في مجلد خاص واغلب المقالات باللغة الانجليزية *Ibn al-Haitham*, Proceedings of the 1000th anniversary celebration held under the auspices of the Hamdard National Foundation, Pakistan, Hakim Moh. Said, editor, Karachi, 1970. See also the excellent bio-bibliography by A.I. Sabra. "Ibn al-Haytham," *Dictionary of Scientific Biography*, vol.6, New York, C.Scribner's Sons, 1972, pp. 189-210.

١٩- سامي خلف حمارنة، «الطبيب العربي ابن العين زرني وبحاته في العلل والعلاج»  
أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب. الجزء الأول، جامعة  
حلب، سورية، ١٩٧٧ ص ٦٤١-٦٨٠. وحول منسقط راسه راس العين انظر  
رحلة ابن جبير، طبعة بيروت دار التراث، ١٩٦٨ ص ١٩٥-١٩٧.

٢٠- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ٢: ٨٩، ٩٠-٩٧، ١٠٧، ١٢١-١٢٣

٢١- المرجع اعلاه، ٢: ٢٠٢-٢١٣، وجمال الدين علي القفطي، إنباه الرواة على  
أنباه النحاة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ج ٢، القاهرة، دار الكتب، ١٩٥٢  
ص. ١٩٣-١٩٦، وعبد الكريم شحادة، «أضواء على الطبيب العربي والعالم  
الموسوعي عبد اللطيف البغدادي» أبحاث الندوة العالمية، حلب، معهد التراث،  
ج ١، ١٩٧٧، ص. ٦٩٣-٧٣٤.

٢٢- نشرة عام ١٩٣٧ سلامة موسى مع ترجمة تحت عنوان عبد اللطيف البغدادي في  
مصر، مطبعة المجلة الجديدة، القاهرة وكان قد نشر مع ترجمة فرنسية عام ١٨١٠  
ومع ترجمة لاتينية في اكسفورد عام ١٨٠٠ وطبع في مصر بمطبعة وادي النيل عام  
It was translated into English by Kamal H. Zand and ، ١٨٧٠/١٢٨٦  
John and Ivy E. Videan, London, Allen & Unwin, 1965.

٢٣- كان انتقاد عبد اللطيف البغدادي على صواب من الناحية التشریحیة دليل حصافة  
رأيه وصدق مشاهداته لذلك امتدحه كثير من المؤلفين نظير ابن مكتوم في  
التلخيص، ١١٤-١١٧، وتاج الدين ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى،  
ج ٢، ١٠٦-٧ اذ كان شافعيًا (المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٤/١٩٠٦)؛  
ومحمد كرد علي، كنوز الأجداد، دمشق، الترقى، ١٩٥٠ ص ٣٢٥-٣١؛ see  
also Leclerc, *Histoire*, op. cit., 2:184-86; and George SArton, *Introduction*  
to the *History of Science*, vol 2, Krieger ed., 1975, pp.599-600.

٢٤- فيصل دبدوب، «مخطوطة نادرة لعبد اللطيف البغدادي». مجلة طب الموصل،  
ج ٢ عدد ٢-٣، ١٩٧١ ص ٣-٢٠؛ ودراسة وتحقيق بول غليونجي وسعيد  
عبده، مقالتان في الحواس، الكويت، وزارة الاعلام، ١٩٧٢، ص ٤٣-١٢١.  
ولدي ميكروفلم لمقالة في الحواس بفضل مدير مطبعة الاسكوريال باسبانيا  
مشكوراً (رقم ٨٨٩ «١») في ١٨ ق.

٢٥- غليونجي وعبد، المرجع السابق، ص ١٢٣-١٥٧، ونشرت في صورة شمسية لمخطوط بورصة في تركيا (حسين شلبي ٨٢٣ ق ١٤٠-١٤٩، كان الفراغ من نسخها في ٢٥ جمادى الآخر سنة ١٢٢٢/١٢٢٥ في حياة المؤلف) مع ترجمة ومقدمة وتعليق بالالمانية بواسطة Hans-Juergen Thies, *Der Diabetestraktat* 'Abd al-Latif, Bonn, Orientalischen Seminars der Universitaet, 1971. See also Albert Dietrich, *Medicinalia Arabica*, Goettingen, 1966, and "Die arabische Version einer unbekanntenen Schrift des Alexander v. Aphrodisias, Goettingen, *Akad. Wis. Phil.-Hist.*, 1964, no. 2, pp. 85-148, especially p.100; and M. Ullmann, *Die Medizin im Islam*, Leiden, 1970, 235.

و اول مقالة موجود منها نسخة باقية لزمنا في مرض الديقايطس هي من تأليف ابو منصور صاعد بن بشر بن عبدوس الطبيب النسطوري البغدادي وكان مشهوراً في عمله بالبيمارستان (دار المرضى) في فهرس بولس سباط. ج ١: ٤٧ (قرن ٥ هـ ١١م) وبذلك كان اطباء العرب اول من كتبوا مقالة او رسالة مستقلة متخصصة في موضوع مرض السكري لان الاغريق والصينيين والهنود كتبوا عنه وعرفوه ولكن لم يترك أطباءهم كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع وفي الغرب اول من أشار اليه هو الطبيب وليس عام ١٦٧٤م مما يؤيد ما قلته في مراجعتي لكتاب ثيس في جامعة بون الآنف الذكر في مجلة ايزيس Isis ولم يتح لي المحرر تنفيذ اراء المعارض الاستاذ تي. الذي أساء في فهم جمليتي وهي واضحة .

٢٦- حصلنا شاكرين للقائمين على المكتبة الوطنية بباريس على ميكرفلم للمخطوط العربي ٢٨٧٠ (٢) في اصول مفردات الطب وكيفيات طبائعها للبغدادي وقد قوبلت هذه النسخة مع نسخة المؤلف (بلغ المقابلة على اصله المنقول من خط (مصنفة) 'Abdallatif," Der Orient in der Forschung, Festschrift f.O. Spies, ibn Y. al-Baghdadi," Wiesbaden, Otto Harrassowitz, 1967, pp.42-60.

٢٧- لقد تأسس البيمارستان الصلاحي في القدس بامر الملك صلاح الدين الايوبي ونعرف على الأقل اثنين من اطبائه زمن الايوبيين، انظر احمد عيسى، تاريخ

البيمارستانات في الاسلام، دمشق، الهاشمية، ١٩٣٩، (ص) ٢٣٠-٢٣٣؛  
وبدر الدين العيني، عقد الجمان، حوادث سنة ٥٨٤-٥٨٨ ومثلها في البداية  
والنهاية لابن كثير (في ١٤ جزء طبع القاهرة ١٩٣٣-٣٤) وبيروت، مكتبة  
المعارف ١٩٦٦، ج ١٢: ٣١٩-٣٥١.

٢٨- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢: ٢١٤-١٦؛ والقفطي، أخبار، ٣٧٨؛  
وغريفيوريوس ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت، الكاثوليكية، ١٩٥٨ ص.  
٢٢٠-٢٢١، ٢٤٣-٤، ٢٥٣-٢٥٤ وكان الملك المعظم هو مؤسس المدرسة  
المعظمية بدمشق.

٢٩- القفطي إخبار او تاريخ الحكماء، ص ٣٧٨-٣٧٩، وابن ابي اصيبعة المرجع  
اعلاه وايضاً ص ١٧٧، ١٧٨، ١٨٣

٣٠- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ٢: ٢١٤، والقفطي، المرجع اعلاه، ٣٧٩. وربما  
هو الذي أشار اليه ابن العبري بنعته له بالدمشقي السامري، مختصر، ص ٢٧٥.

٣١- ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء، ٢: ٢١٦. ولقد اكتفى الملك الناصر صلاح الدين  
داود بان يكون ملكاً على الكرك والشوبك ونابلس وبيسان وضواحيها بعد ان  
خسر سلطنة دمشق للملك العادل. انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان،  
ج ٥: ٣٣٠-٣٣٣.

٣٢- ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء، ٢: ٢١٦-٢١٩؛ وملحق بروكلمان، ١: ٨٩٨،  
وماكس مايرهوف وجورج صبحي، «مختصر مفردات الادوية للفاقي»، القاهرة،  
١٩٣٢، ج ١: ٢٧، والزركلي الاعلام، ٣: ٤٩.

٣٣- ملحق بروكلمان الأنف الذكر ١: ٨٩٨ وكتابه في الترياق ذكره أطباء لاحقون.

٣٤- ملحق بروكلمان، ١: ٨٩٧-٨؛ وذكره حاجي خليفة، كشف الظنون،  
٢: ١٩٢٦ كفتح الدين احمد بن جمال الدين ابي عمر وعثمان القيسي المتوفي عام  
١٢٥٩/٦٥٧، اوله الحمد لله الذي خلق الداء والدواء لحكمته وقسمه الى سبعة  
عشر بابا في تشريح العين وامراضها وعلاجها، والبغدادي في هدية العارفين،  
استانبول، ١: ٩٦ يذکر القاضي فتح الدين ابو العباس وبانه معروف بابن ابي

See also Julius Hirschberg **Die arabischen** الحوافر المصري الطبيب  
**Lehrbuecher der Augenheilkunde**, Berlin, 1905, Koenigl. Preuss.  
Akademie d. Wissensch.; and **Geschichte**, vol. 13 1908, pp. 1-282

٣٥- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء ٢: ١٣١-١٣٢، ٢٣٩-٢٤٦، اما كتاب  
الحاوي في الطب للطبيب الرازي فقد تم نشره في حوالي ٢٣ (جزءاً) بواسطة  
مطبعة المعارف العثمانية بجيدر اباد الدكن بالهند.

٣٦- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ٢: ١٨٥-١٨٩ يذكر له عدة مؤلفات في علوم  
كثيرة منها الطب والمعالجة؛ والزركلي، الاعلام، ٧: ٥٤ وهو الأب (وكذلك  
الصفدي، الوافي، ٣: ٤٠٢-٣) أما ج٩: ٢٠٩-٢١٠ فيعطي تفصيل حياة  
الابن المشهور بين علماء الاطباء وزير الملك المنصور صاحب حمص وله نظم جيد  
منها قصيدة رثاء للحكيم الطبيب الشيخ الخسرو شاهي المار ذكره وكذلك أبيات  
يتشوق بها الى مدينة الخليل بفلسطين نظمها عام ١٢٦٢/٦٦٠. وهو واقف  
المدرسة اللبودية التي عند حمام الفلك بدمشق جعلها خاصة لتدريس الطب وقد  
اوصى بدفنه بنفس التربة قرب المدرسة، ابن كثير البداية والنهاية، ج١٣: ٢٦٢،  
ويذكر بروكلمان، تاريخ، ١: ٦٥١ له كتاب تحقيق المباحث الطبية في تدقيق  
المسائل الخلافية من نسخة في الاسكوريال ومختصراً لكتاب الكليات (من قانون  
ابن سينا). ويقول عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٩٢٧/٢٥٢١)، المدارس  
في تاريخ المدارس، دمشق الترقى، ١٩٥١ ص ١٣٥-٣٨ بان المدرسة اللبودية  
النجمية أنشئت عام ٦٦٤ هـ

د. سامي خلف حمارة

# تذكرة الكحالين او الكافي في طب العين

لرشيد الدين بن الصوري

## عرض للمخطوطة

د. نشأت الحمارنة  
د. خالد المروان

وصف الاستاذ الدكتور سامي الحمارنة في كتابه «فهرس المخطوطات الطبية في المكتبة الظاهرية» مخطوطة صغيرة الحجم مبتوره، مضافة الى مجموع يحمل الرقم ٣١٤٣ اسمها: «تذكرة الكحالين» او «كتاب الكافي في طب العين للصوري».

وقد رغب اليّ المؤلف ان ادرس هذه المخطوطة. محاولاً تحقيقها.

تقع هذه المخطوطة في واحد وعشرين صفحة. من قياس ٢٢ × ١٥ سم. وتحتوي الصفحة ٢٤-٢٥ سطراً. والخط مقرأً الا انه ليس جميلاً. والورق ابيض جيد. ولا يعرف اسم الناسخ او تاريخ النسخ ذلك انها مبتورة من آخرها.

والواضح ان القسم الضائع يشكل معظمه مادة الكتاب ذلك ان المؤلف يذكر في مطلع الكتاب انه قسمه الى خمسة عشر باباً لا نجد منها في الصفحات التي بين ايدينا الا اقل من النصف.

والمادة العلمية ذات مستوى رفيع تتناسب مع ارقى كتب الكحل التي كتبها العرب. ونحن لا نعرف رجلاً يحمل اسم «الصوري» الذي نسبت المخطوطة اليه، الا رشيد

الدين الصوري الذي ولد في صور وعاش في جبل لبنان والقدس ومصر والكرك ودمشق وتوفي في دمشق، والذي عاصر الأيوبيين وخدم الملك العادل والملك المعظم والملك الناصر الذي فوض إليه رئاسة الطب.

ولقد ترجم ابن ابن اصبيعة لرشيد الدين الصوري.. في «عيون الانباء» ذاكراً معرفته الشخصية به وانه اهدى اليه «تأليفاً له يحتوي على فوائد ووصايا طبية» ومشيراً الى انه «كان اوحداً في معرفة الادوية المفردة...» واشتغل بصناعة الطب «وكان له مجلس للطب». وان «حرر ادوية الترياق الكبير».

وعن ابن اصبيعة المعاصر للصوري نقل المتأخرون.. كالبغدادي في «هدية العارفين» و «ايضاح المكنون». والزركلي في «الاعلام» وعمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين».

وإذا صحت نسبة هذه المخطوطة الى الصوري فانها قد تكون جزءاً من كتابة «الادوية المفردة» الذي «بدأ بعمله في ايام الملك المعظم وجعله باسمه» الا ان دراسة المخطوطة لا ترجح هذا الرأي، لأن المخطوطة تقتصر على معالجة ومداواة امراض العين، وتشمل ابواباً في الادوية المركبة الخاصة بالعين كالشياقات والاكحال. كما انها تتحدث في الباب الاول: «حد العين وشرفها» «وطبقاتها» كما جرت عادة المؤلفين في الكحل في العصور الوسطى. اضافة الى انها تشتمل على فصول في «ذكر امراض الجفن» و «امراض الملتحمة».

هذه المخطوطة اذن ليست من نوع الكتب التي كرسها «للادوية المفردة» وهي للسبب نفسه ليست جزءاً من كتاب رشيد الدين الصوري «الرد على كتاب التاج».

وابن ابي اصبيعة لا يذكر للصوري الا هذين الكتابين.. الا انه يذكر ان للصوري «تعاليق وفوائد ووصايا طبية كتب بها الي» كما يقول ابن ابي اصبيعة. ويذكر ايضاً «كان رشيد الدين بن الصوري قد اهدى اليّ تأليفاً له يحتوي على فوائد ووصايا طبية» فلعل هذه المخطوطة موضوع بحثنا الآن هي «هذا التأليف» او «الفوائد» او «الوصايا».

ولذلك يروي ابن ابن اصبيعة انه قال قصيدة يمدح فيها الصوري. ويشكره على انه اهدى اليه هذا التأليف.

مطلعها.....



لعلم رشيد الدين في كل مشهد

منار علا يأتّمه كل مهتدى

واذا عرفنا ان ابن ابي اصيبعة كان طبيبا للعيون.. سمحنا لأنفسنا ان نظن ان هذا «التأليف» يمكن ان يكون في حقل باب العين. لأن ابن ابي اصيبعة يحتاج الى الصوري في هذا الحقل على وجه التحديد.

وذا تركنا مجال «التخمين» وقمنا بدراسة المادة العلمية التي تحتوي عليها المخطوطة نجد

ما يلي:-

١ - الباب الاول والباب الثاني من المادة العلمية يبدوان متكاملين ومتسلسلين ومختصرين جدا. وينتهي الباب الثاني فجأة ليبدأ بحث جديد.. عن أدوية العين المركبة... ثم بحث آخر عن منافع الادوية المفردة.

ويبدو ان هذا البحث الاخير مبتور ضاع منه نصفه الاخير. ثم يلي ذلك فصول في ذكر امراض العين مرتبة حسب اسلوب ذلك العصر.. ونجد منها ثلاثة فصول كلها ناقصة..

بعد ذلك يرد باب في الادوية المستعملة في علاج العين.. ثم بحثان صغيران يبدو انهما دخيلان على المخطوطة.

٢ - الذي اتصوره ان هذه المخطوطة نسخت عن مخطوطة اخرى ضاعت منها بعض الاوراق في المتن.

وهذا يُفسر ضياع بعض الابواب تماما. كما يفسر ضياع القسم الاخير من الابواب التي ورد في المخطوطة قسمها الاول.

٣ - الباب الاخير من هذه المخطوطة يبدو انه فعلا الباب الاخير. وان النقص حاصل في الوسط.

وان ما ورد في نهاية هذا الباب عن «الحكمة» «ثم عن وصفة طبية نافعة». انما هو اضافة من الناسخ.

٤ - النقص الشديد يظهر ( أ ) في الفصل المتعلق بمنافع الادوية المفردة (منافع الاعشاب).

( ب ) في الفصول المتعلقة بأمراض الأجفان وأمراض الملتحمة والأمراض التي تعرض في العين.

٥ - من الأبواب التي يبدو انها ضاعت من المخطوطة.. هي:

أ ( امراض المآق.

ب ( امراض القرنية.

ذلك ان اسلوب عصر ابن الصوري في التأليف كان يأتي على ذكر امراض الجفن أولاً ثم امراض المآق فأمرض المتحمة فأمرض القرنية... الخ. على اسلوب على بن عيسى الكمال البغدادي.

ونستعرض هنا فصول وأبواب هذه المخطوطة لشرح وجهة نظرنا التي عرضناها في النقاط الخمس المذكور آنفاً.

أولاً:- الباب الاول في الأمور التي يجب ان يعرفها «من اراد ان يداوي امراض العين» وهي حد العين وشرفها وطبقاتها ورطوبتها واعصابها وعضلها. وكذلك الروح الباهر والروح النفساني.

ويقع هذا الباب في ٩٧ سطراً تملأ الصفحات الأربع الاولى من المخطوط.

ثانياً:- الباب الثاني: في القوانين التي تعمل في الاستفراغات ويقع هذا الباب في ٦٢ سطراً تملأ صفحتين ونصف.

ثالثاً:- ينتقل الحديث من الباب الثاني المتعلق بالاستفراغات دون مقدمة الى الحديث عن الشيافات. مما يشير الى خطأ وقع فيه الناسخ.

ويستمر هذا البحث ذاكراً ٩ شيافات و ٨ أكحال و ٤ ذرورات وطلاء واحداً.

وتقع هذه المادة في مائة سطر على الصفحات (٧-١١).

رابعاً:- منافع الاعشاب.

ويبدأ هذا البحث دون عنوان. ولكن باشارة واضحة من الناسخ. في السطر السابع من الصفحة الحادية عشرة. ولا يقتصر البحث على «الاعشاب» بل يشمل ايضا ادوية غير نباتية. اي ان هذا البحث هو في خواص الادوية المفردة. وقد رتب الادوية حسب الاحرف الابجدية التي تبتدىء بها اسمائها. بدءاً بالانزروت فالأثمذ فالأسفيداج الخ... وينتهي البحث قبل انتهاء استعراض الادوية المفردة. فأخر الكلمات هي..عفص - غسل .. ثم يبدأ فصل جديد.

كما يشير الى ان هذه النسخة التي بين ايدينا منسوخة هي بدورها عن نسخة ناقصة الاوراق، ضاعت منها الاوراق الحاوية على اسماء الادوية المفردة التي تبدأ بالأحرف ع-غ-الخ.

والمادة التي بين ايدينا تقع في ٦٢ سطرا وتنتهي في منتصف الصفحة الثالثة عشرة خامسا:- فصل في ذكر امراض الجفن ويذكر المؤلف ان «الجفن يحدث عليه ثلاثون مرضاً» ثم يعدد منها عشرة امراض فقط. ثم ينتقل الى وصفها مرضا مرضا. وما ان يستعرض اربعة امراض حتى ينتقل الى فصل جديد «في امراض المتحممة».

وهنا نستطيع ان اتصور ثانية ان الناسخ اخذ عن نسخة مبتورة او ناقصة الاوراق او ضاع منها بعض الاوراق من المتن.

وتقع مادة امراض الجفن في ٢٤ سطرا على الصفحتين ١٣، ١٤.

سادسا:- «في امراض المتحممة»

وتقع في ٤٥ سطرا على الصفحات ١٤-١٥-١٦ آ

ويذكر المؤلف ان امراض المتحممة عددها ثلاثون. ويبدأ بالحديث عن الرمذ. وينتهي الحديث فجأة ليبدأ فصل جديد.

سابعا:- في الامراض التي تعرض في العين ويقع البحث في ١٤ سطرا. وجميعه على الصفحة ١٦.

ثامنا:- باب الادوية المستعملة في علاج العين بالتطبيب. تقع في ٨٧ سطرا. على الصفحات ١٦-٢٠.

وفيه ذكر لبعض المعاجين والنقوعات والمطبوحات.

تاسعا:- بحث عن «الحكمة»

ويقع في ١٠ أسطر. على الصفحة ٢٠.

عاشرا:- صفة طبية نافعة.

تقع في الاسطر الخمسة الاخيرة من الصفحة ٢٠.

واذا اردنا ان نقيّم الادوية المركبة التي وصفها المؤلف والتي ذكر مواضع استعمالها في امراض العين لخرجنا بنتيجة هامة، هي ان المؤلف يبدو متمكنا من الصنعة، صاحب خبرة واسعة في المداواة. يعرف اين يستعمل الدواء في أي الامراض، وفي أي مراحل المرض ولا

تغيب عن ذهنه ابدأ القواعد الكلية في الكحل التي نعرفها جيداً منذ القرن التاسع (عصر حنين بن اسحق) حتى عصر الصوري (خليفة بن ابن المحاسن الحلبي وصلاح الدين بن يوسف الحموي. وابن النفيس الدمشقي القاهري).

كما نلاحظ حرص المؤلف على معرفة قواعد تشريح وفسولوجيا العين. حيث يشترط توفر هذه المعرفة عند كل من يريد يطبب العين. هذا القاعدة العلمية التي أصر عليها الرازي كثيراً، والتي جعلت ..الكحال.. شخصية محترمة.. بين سائر الاطباء، وجعلت من «جراحة العين» (المعالجة باليد) او (المعالجة بالحديد) اختصاصاً هاماً ومرموقاً.

هذا الحرص الذي جعل مهنة الكحال مهنة راقية تستدعي وجود:

- ١ - كتب تدريسية (منذ عصر حنين).
- ٢ - كتب مختصرة (منذ عصر الرازي).
- ٣ - وامتحانات امام الدولة (منذ عصر سنان بن ثابت بن قرة).
- ٤ - وكتب موسوعية تمتليء بالملاحظات السريرية (منذ عصر الرازي).
- ٥ - وكتب في الجراحة (منذ عصر الزهراوي حتى عصر خليفة بن ابي المحاسن).
- ٦ - وكتب تفيض في ذكر الكليات في الطب (منذ عصر ابن سينا حتى عصر ابن النفيس).

هذا الامر الذي جعل مهنة الكحال مهنة محترمة، وجعل الكحال شخصية مرموقة في المجتمع العربي اذ لم يعد طبيب العيون رجلاً ثانوياً كما كان عند الاغريق.

لقد ذهل هيرشبرغ حيناً درس بعض مؤلفات العرب في الكحل وتعرف على كتبهم التدريسية، واطلع على امانتهم العلمية في الأستاذ، وعلى ملاحظاتهم السريرية وكيف يسمون مراجعهم. وكيف يعلقون على ما كتبه اساتذتهم. وبأية اخلاقية ينقدون المؤلفين من اسلافهم.

ولقد انضم الى هيرشبرغ كل مؤرخي العلوم في وصف الروح العلمية الفذة التي كانت تسيطر على أعمال وسلوك وكتابات الأطباء. العرب. واسوق هنا وصف ابن ابي اصيبعة لاسلوب رشيد الدين الصوري في تحقيقه ووصفه للنباتات الطبية:-

(وكان يستصحب مصورا ومعه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها فكان يتوجه رشيد الدين بن الصوري الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد

اختص كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه ويريد للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها. ثم انه سلك أيضا في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انه كان يري النبات للمصور في ابان نباته وطراوته فيصوره. ثم يريه اياه ايضا وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك. ثم يريه اياه ايضا في وقت ذواه وييسه فيصوره، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه في الارض فيكون تحقيقه له اتم ومعرفته له ابين).

## فلسطين في الأدب الجغرافي العربي

د . عماد الدين خليل  
الموصل - العراق

( ١ )

كسبت فلسطين اهميتها في معطيات الادب الجغرافي العربي لأكثر من سبب: فهناك مكانتها الدينية العريقة، ووجود العديد من المنشآت العمرانية والبقايا الأثرية التي تخدم هذا الجانب وترفده.. وهناك موقعها الجغرافي الممتاز فهي بوابة القادمين من آسيا في طريقهم الى افريقيا عبر مصر، وبالعكس، وهي إحدى المنافذ الآسيوية المطلة على البحر المتوسط باتجاه اوروبا، وهي المر الذي لا بد من اجتيازه، منذ قرون، لمعظم القوافل المتحركة من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال، وهي فضلا عن هذا وذاك ذات مكان وسط عبر مساحات العالم القديم على المستويين السياسي والعسكري والحضاري، وربما كان هذا احد الاسباب الرئيسية لاختيارها منطلقا، او مُستقراً، لعديد من النبوءات.. وهناك -ايضا- العديد من الظواهر الطبيعية المتفردة التي تسترعي الانتباه.. وثمة -اخيرا- الغرائب التي اولع بعض جغرافيينا بشد الرحال اليها ووصفها بقدر من المبالغة التي تخرج بالظاهرة الطبيعية عن ابعادها المعقولة وتضيف اليها من سحر الخيال وتهويل الشائعة ما يجعلها اقرب الى الخرافة.. بل ان بعض هذا الذي وصف بغرائب المشاهدات لا اساس له مطلقا من الصواب وانما هو وليد تشوق للمجهول، او تفسير شاذ لا تقبله مسلمات العقل ولا يصمد للنقد.

ومهما يكن من امر فان فلسطين قد شدت، عبر قرون تألقنا الحضاري، انظار الكثير من رحالتنا وجغرافيينا فشدوا اليها الرحال، هدفا بحد ذاته، او طريقا الى اهداف جغرافية اخرى.. وقدموا لنا عبر رحلاتهم ومشاهداتهم الكثير من المعطيات التي يستطيع الباحث المعاصر ان يتكئ عليها الى حد كبير لتقديم صورة (فلسطينية) مستمدة من هذه المعطيات.

وثمة منهجان اعتمدهما الرحالة والجغرافيون لعرض مشاهداتهم الفلسطينية: يقوم اولهما على عرض افقي يحاول ان يشمل، ينظرة واحدة، كافة الظواهر والانشطة، فيمسها مساً خفيفا بنوع من الوصف الخارجي السريع الذي يعطي الملامح العامة البارزة على السطح ولا يكاد يتوغل الى الاعماق للبحث عن التفاصيل والجذور... بينما يقوم المنهج الثاني على التوغل العمقي او العمودي، في هذه الظاهرة او تلك وعبر هذا النشاط او ذاك، وهو بهذا قد يغفل الكثير من الظواهر والانشطة الاخرى المنتشرة هنا وهناك، ولكنه يعوض عن ذلك بتقديم مادة اغزر ورؤية اكثر نفاذا للمسائل الي يقف عندها حيث يمنحنا ما فقدناه هناك: التفاصيل والجذور.

والمنهجان- في حقيقة الامر - يكمل احدهما الآخر، وكلاهما عون للباحث المعاصر الذي يسعى الى استخراج صورة عن فلسطين، من بطون المصادر الجغرافية، تتميز بالامتداد والعمق في الوقت نفسه... ومع ذلك فان هناك الكثير من الثغرات تركت عبر هذه المصادر دون سعي جاد لسدها.. وهناك مساحات واسعة في هذا الجانب او ذاك من جغرافية فلسطين نبحث عما يلقي عليها ضوء فلا نكاد نعثر على شيء.

وايا ما كان الامر فان الطريقة التي سيعتمدها هذا البحث الموجز الذي تقتضيه مناسبة كهذه، يقوم على تجاوز الوصف البلداني السهل الذي يقف عند كل موقع او مدينة فلا يغادرها الا بعد ان يسرد كل، او جل، النصوص التي قدمتها المصادر الجغرافية عنها، سواء كانت تعالج امرا ثقافيا ام ممارسة دينية ام نشاطا اقتصاديا او تنظيميا اداريا... الى اخره.. وهذا سيؤول -بطبيعة الحال - الى تجزئ الوصف وتقطيع الجغرافية الفلسطينية الى وحدات بلدانية مستقلة كأن ليس بين الواحدة منها وشقيقتها رابطة من نسب او قرى.. فضلا عن ان الكثير من الظواهر والانشطة كوصف البحر الميت، او نهر الاردن، مثلا وكالحديث عن النشاط الزراعي، وما شابه ذلك من مسائل عامة، تخرج عن نطاق بلد بعينه، وتقتضي متابعة في المجال الارحب.. مجال الخارطة الفلسطينية على امتدادها.

ومن ثم فليس هناك غير طريق واحد يقوم على متابعة المظاهر والانشطة وقطاعات الحياة المختلفة على امتداد الخارطة الفلسطينية من اجل منحها حياة اكثر تدفقا وغنى، ومن اجل تكوين صورة عن فلسطين اكثر اصالة وامتدادا، واقدر على الافصاح عن (شخصية) الموقع الجغرافي اذ صحت التعبير.

وسوف يتم - بطبيعة الحال - تجاوز كل ما هو زمني (تاريخي) موقوت في روايات

جغرافينا لانه من قبيل المتغيرات سريعة المدى، والتاكيد - بدلا من ذلك - على المعطيات الجغرافية الاكثر ديمومة، ما دام ان هذا البحث ينصب على الجغرافية لا على التاريخ، رغم ان المصادر التي اعتمدت في هذا المجال تمزج - احيانا - بين هذا وذاك.

ومن اجل ان تصور مدى انتشار المادة الجغرافية لمصادرنا العربية على المساحة الفلسطينية لا بد ان نسترجع في الاذهان آخر التقسيمات الادارية لفلسطين قبل ان تجتاحها جائحة الصهيونية ومن ورائها الاستعمار، فهي تتضمن كافة المدن الرئيسية باسمائها العربية الاصلية المرادفة لما تضمنته المصادر.. واليكموها:

اولا: اللواء الشمالي، ويضم الاقضية التالية:

(١) حيفا(مركز اللواء) (٢) عكا (٣) زمارين (٤) الناصرة (٥) طبرية (٦) صفد.

ثانيا: لواء السامرة، ويضم الاقضية التالية:

(١) نابلس (مركز اللواء) (٢) جنين (٣) طولكرم (٤) بيسان.

ثالثا: لواء القدس - يافا، ويضم الاقضية التالية:

(١) القدس (العاصمة) (٢) رام الله (٣) بيت لحم (٤) اريحا (٥) يافا (٦)

الرملة.

رابعا: اللواء الجنوبي، ويضم الاقضية التالية:

(١) غزة (مركز اللواء) (٢) المجدل (٣) الخليل (٤) بئر سبع.

( ٢ )

عن جغرافية فلسطين الطبيعية التي تنعكس معطياتها سلبا وايجابا على سائر المظاهر والانشطة، نلتقي بحشد من النصوص تتراوح بين الاشارة المركزة العابرة، وبين العرض التفصيلي. ويقف جغرافيونا عند جوانب منها فيطيلون الوقوف: بحيرة طبرية، المياه المعدنية الساخنة، نهر الاردن، الغور، البحر الميت، خليج العقبة... الجبال والصحاري والعيون..

تمتد بحيرة طبرية، حيث تقع على ساحلها مدينة طبرية المستطيلة، مسافة اثني عشر ميلا (سنة فراسخ) اما عرضها فسته اميال ( اكثر من ثلاثة فراسخ قليلا)، تكتنفها الجبال، والى قريب منها جبل الطور، وعلى جانب شواطئها تتفجر ينابيع حارة شديدة الحرارة، وبخاصة عينها الجنوبية«التي تسلق البيض وتنضج اللحم»، تسمى (الحمامات) وماؤها ملحي كبيرتي يتخذ علاجا طبيعيا لترهل البدن والجرب الرطب وتزايد البلغم. وثلاثة ايام



من الاستحمام بهذا الماء تكفي - في نظر ابن الوردي- لكي تشفى اهل البلاء مما يعانونه.<sup>٣</sup>

يصفها ابن جبير بأنها بحيرة مشهورة، وبأن ماءها عذب، ويتحدث عن تضارب الأقوال في سعتها، وهو اذ يشير الى مبلغ طولها بانه ستة فراسخ ومبلغ عرضها بأنه ثلاثة فراسخ او اربعة يعلق بالقول بأن هذه اقربها الى الصحة «لأننا لم نعاينها»<sup>٤</sup>، وهذه ولا ريب واحدة من اللمسات النقدية في معطيات جغرافيينا سنلتقي بها بين الحين والحين، تخفف في نزوعها العلمي بعضا من الغلواء التي يعانها بعض هؤلاء الجغرافيين وهم يتحدثون عن عدد من المظاهر والاشياء بما يخرج بها عن حجمها الحقيقي. ويقول ياقوت بانه رأى طبرية مرارا «وهي كالبركة يحيط بها الجبل ويصب فيها فضلات انهار كثيرة تجيء من جهة باناس والساحل والاردن، وينفصل عنها نهر عظيم (هو نهر الاردن).. ومدينة طبرية في لحف الجبل مشرفة على البحر وماؤها عذب شروب ليس بصادق الخلاوة، ثقيل، وفي وسط البحيرة حجر ناتئ يزعمون انه قبر سليمان بن داود (ع)، وبين البحيرة والبيت المقدس نحو من خمسين ميلا»<sup>٥</sup>.

ويحدد الاصطخري موقع المنابع الحارة بانه على نحو فرسخين من مدينة طبرية، حتى اذا ما انتهى الماء الى المدينة ظل محتفظا بحرارته الشديدة رغم ما دخله من الفتور بطول السير، وانه ليعط الجلود اذا ما طرحت فيه، ولا يمكن استعماله الا باضافة ماء بارد اليه. وفي داخل المدينة يستفاد من هذا الماء في الحمامات واماكن الوضوء<sup>٦</sup>. ويشير العمري الى ان هذه المياه الحارة تعرف بحمام طبرية «وللناس فيها اكاذيب. وهي صورة تنور مثل تنور الكلس، تكون سعته نحو عشر اذرع تقريبا، يخرج منه ماء يدير حجري رحي، مهما وضع فيه احترق لافراط حرارته، وقد استخرج منه جدول في عرض الجبل يمتد نحو الف ذراع تقريبا لتقل، يبعد المدى، حرارته. ثم يأتي بيتين مسقوفين بالحجر احدهما لاستحمام الرجال والاخر لاستحمام النساء. والحمة ماؤها مملوح مكبرت»<sup>٧</sup>.

ويعنقنا المقدسي المزيد من التفاصيل عن هذه المياه الحارة وعن فوائدها الصحية فيقول بان عين طبرية تعم اكثر حمامات البلد، وقد شق الى كل حمام منها نهر، فبخاره يحمي البيوت فلا يحتاج الى وقيد. وفي البيت الاول ماء بارد مقدار ما يتطهرون به. ومن اغتسل بالماء الحار ثلاثة ايام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبه جرب او قروح او ناسور او اي علة تكون، برأ باذن الله. وسمعت الطبرانيين يذكرون انه كان هناك لكل علة بيت، فكان من به تلك العلة واغتسل فيه برأ<sup>٨</sup>.

وينصب في البحيرة نهر الاردن، الذي يسمى احيانا بالشربعة، وهو نهر غزير الماء، ينحدر من الشمال قريبا من بانياس حتى اذا بلغ الحولة كون هناك بحيرة تسمى بحيرة قدس نسبة الى مدينة عبرية لا تزال بقاياها في الجبل على ما يقوله الدمشقي، وفي هذه البحيرة تنصب انهر وعيون اخرى، وما يلبث نهر الاردن ان يغادر الحولة باتجاه طبرية حيث يصب فيها ثم يجتازها الى الغور حيث يلتقي فيه بعد قليل نهر خارج من الحمة التي تشتهر عينا هي الاخرى بأن فيها منافع كثيرة حيث يقصدها الناس لعلاج كثير من الامراض.. وكلما مضى نهر الاردن في طريقه جنوبا كلما غزت مياهه اذ ينصب فيه من عيون بيسان وغيرها الشيء الكثير، حتى اذا بلغ البحر الميت القى عصا الترحال فيه لا يغادره ابدا. ان نهر الشربعة هذا « كأنه في الاعتبار فلك دائرة، يطلع من اول الغور من بحيرة قدس، ويتوسط بحيرة طبرية، ويغور في بحيرة زغز: البحر الميت »<sup>١</sup>.

وينقل ياقوت بأن الاردن هو اردنان، الاردن الكبير والاردن الصغير « فأما الكبير فهو يصب الى بحيرة طبرية، بينه وبين طبرية، لمن عبر البحيرة في زورق، اثنا عشر ميلا، تجتمع فيه المياه من جبال وعيون، فتجري في هذا النهر فتسقى اكثر ضياع جند الاردن مما يلي ساحل الشام وطريق صور، ثم تنصب تلك المياه الى البحيرة التي عند طبرية.. وأما الاردن الصغير فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية ويمر عند الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياعها وقراها الكثيرة ومنها بيسان وقراوا واريحا والعوجاء وغير ذلك. وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين. ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهرا واحدا فيسقي ضياع الغور ثم يمر حتى يصب في البحيرة المنتنة (البحر الميت) في طرف الغور الغربي »<sup>١١</sup>.

يمتد الغور ما بين بحيرة طبرية والبحر الميت تقع فيه مدينتا بيسان واريحا (التي يسميها الاصطخري ريحا) وغيرها، ويصفه بأنه يقع بين جبلين وبأنه غائر في الارض جدا وأن به عيونا وانهارا ونحلا، ولاعتدال مناخه لا يرى سقوط الثلج فيه ابدا، وبعض الغور من حد الاردن، فاذا ما جاوزت بيسان كان من حد فلسطين، وهو مقسم الى ثلاثة اقسام. الاعلى والاوسط والاسفل، ويبلغ طوله نحو من اربعة ايام، وعرضه في مده الاوسع نحو من يوم واحد، وينشق عنه ممر طويل يقود السالك فيه الى ايلة على خليج العقبة. ولكثرة ما تميز به الغور من الخصائص الحسنة عده الجغرافيون « من نواحي العمران الجليلية »<sup>١٢</sup> رغم انه وخم شديد الحر غير طيب الماء.<sup>١٣</sup>

وتختلف تسمية البحر الميت بين جغرافي وآخر، فبعضهم يسميه بحيرة زغر، نسبة الى صغرى بنات لوط(ع) ١٤، او البحيرة المالحة او المقلوبة، وبعضهم الآخر يسميها البحيرة المنتنة، وفي احيان كثيرة يسمى بحيرة لوط، تلك التي « لا يعيش فيها حيوان، ولا ينبت حولها نبات ». ويدهش الدمشقي كيف ان ماءها لا يزيد في الشتاء بسبب زيادة المياه الكثيرة المنحدرة اليها، وكيف انه لا ينقص في الصيف !! ويحاول ان يعثر على الجواب، يقول « للناس في مغيض الماء فيها اقوال، فمنهم من قال ان هذا الماء بحر ارض بعيدة يخرج فيها فيسقيها، ويزرعوا عليه ويشربوا منه مسيرة شهرين، ومنهم من قال ان ارضها شديدة الحرارة ومعادنها كبريتية ملتبة فهي لا تزال ترقأ بخارا متحللا يخلقه الماء الداخل ويتحلل بخارا كذلك. وقيل بل هي خسفة في الارض متصلة ببحر القلزم وقيل بل هي خسفة لا قرار لها الى البهوت، والله أعلم )) ١٥. ويفسر ياقوت سبب تسميتها بالمنتنة، ويبالغ في الوصف بما يخرج عن حدود الواقع، فيقول ((هي بحيرة ملعونة لا ينتفع بها في شئ ولا يتولد فيها حيوان، ورائحتها في غاية التنن. وقد تهيج في بعض الاعوام فيهلك كل ما يقاربها من الحيوان الانسي وغيره، حتى تخلو القرى المجاورة لها زمانا الى ان يجيئها قوم آخرون لا رغبة لهم في الحياة فيسكنونها. واذا وقع في هذه البحيرة شئ لم ينتفع به كائنا ما كان، فانها تفسده، حتى الحطب فان الرياح تلقيه على ساحلها فيؤخذ ويشعل فلا تعمل النار فيه)) ١٦.

واذ يبدو البحر الميت ملعونا لا فائدة منه في نظر ياقوت... نراه في نظر بعض الجغرافيين الآخرين يقدم عددا من الفوائد، فهو طريق سهل للمواصلات حيث تجتازه بين الحين والحين سفن صغيرة يسافر فيها في تلك الناحية وتحمل عليها الغلات والثمار الى اريحا وسائر اعمال الغور ١٧، وهو يقذف بين الحين والآخر بمادة قيرية سوداء لينة، تخرج من قاعه فيأخذها السكان، ويقطعونها ويحملونها الى المدن والولايات حيث تستعمل في حماية الاشجار، وبخاصة الكروم والتين، من الدود والحشرات، باطلاء جذوعها بهذه المادة التي تباع - كذلك - لدى العطارين لكل من يريد ان يبعد دودة تصيب البذور تدعى النقرة. ١٨ ويعدد عبد الغني النابلسي منافع هذه المادة القيرية المسماة بالحر او القفر اليهودي نسبة الى قرية كانت هناك، فيضيف الى فوائده الزراعية فوائد طبية عديدة، فهو يستخدم لتضميد الكسور وللوجاع العارضة في النساء وللسعال المزمن وضيق النفس ونهش الهوام وعرق النساء والاسهال المزمن والنزلات ووجع الاسنان، فضلا عن ان دخانه يطرد الحيات والعقارب والهوام.. ويتحدث كيف انه يستخرج - كذلك - من ساحل البحر الميت حيث يصفى مما اختلط به من الحصى والتراب وبالماء الحار والنار، وكيف ان رائحته تشبه القير العراقي ١٩.

يبلغ طول البحيرة سبعة فراسخ وعرضها الاعرض نحو ثلاثة، أيوقيل ان طولها ستون ميلاً وعرضها اثني عشر ميلاً وهو الصحيح»<sup>٢٠</sup>.. وكانت تقبع على شواطئها - يوماً - خمس مدن هي صعدة، صعبة، عمرة، دوما، وسدوم، والاحيرة اكبرها واصلها في السفاد...<sup>٢١</sup>

وهنالک، فضلاً عن البحيرات الكبيرة آنفة الذكر، اشارات الى العديد من العيون والجداول التي يستقي منها اهل فلسطين ماءهم العذب.. فثمة عيون عسقلان<sup>٢٢</sup> وعيون اريحا<sup>٢٣</sup> وجنين<sup>٢٤</sup> وانهار وعيون بيسان التي اشتهرت بمحبها،<sup>٢٥</sup> وعين الماء التي تتفجر من الصخر في الخليل وينقل ماؤها عبر مسافة بعيدة بواسطة قناة الى خارج القرية حيث بني حوض مغطى يصب فيه الماء فلا يذهب هباء حتى يفني بحاجة اهل القرية وغيرهم من الزائرين..<sup>٢٦</sup> وعين دير الطور، بين طبرية واللجون، والتي تنبع بماء غزير.. ونهر عوجاء بين ارسوف والرملة قريباً من الساحل<sup>٢٧</sup> وعيون قيسارية الجارية<sup>٢٨</sup>.

وهنالک جب طبرية الكبير العميق الذي تنبع مياهه من باطن الارض وترفدها - كذلك - مياه الامطار.<sup>٢٩</sup> وفي شرقي عكا عين تتفجر تعرف بعين البقر ينزل اليها في درج...<sup>٣٠</sup> فضلاً عن نهر المقطع الذي ينبع من جبل الطور ويصب في البحر بين حيفا وعكا،<sup>٣١</sup> والنهر العذب يشق عجلون فيشطرها شطرين...<sup>٣٢</sup>.

وتأخذ نابلس ماءها من شبكة من القنوات<sup>٣٣</sup>. وهناك عين سلوان في القدس التي يصفها الدمشقي بأنها « تجري بمقدار معلوم، وبعد مضي كل ثلاث ساعات واكثر تمد حتى يرتفع ماؤها في مجراه نحو ثلاث قامات عما كان يجزر، ثم يعود الى حاله نحو ست ساعات، ثم تمد وتجزر كذلك ابد الدهر »<sup>٣٤</sup>.

ويصف المقدسي كثرة ماء القدس فيقول « ليس ببيت المقدس امكن من الماء.. قل دار ليس بها صهرج واكثر، وبها ثلاث برك عظيمة عليها حماماتهم. وفي المسجد عشرون جباً متبحرة. وقل حارة الا وفيها جب مسيل. وقد عمد الى واد فجعل بركتان يجتمع اليهما السيول في الشتاء وشق منهما قناة الى البلد تدخل وقت الربيع فتملاً صاريج الجامع وغيرها »<sup>٣٥</sup>. ويقف الدمشقي طويلاً عندما يسميه بالثجان على طريق ايلة للقادمين من غزة «وهو واد فيه عيون ماء كثيرة تمد في ايام الصيف قليلاً، فاذا كانت ايام الشتاء مدت كثيراً. وفي هذا الوادي عين بقدر السطل النحاس الذي يسقون فيه الخيل، وهو في بلاطة كبيرة مدورة مقدار ستة اذرع في ستة، وفيها مقر محفور فيه ماء حلو ملؤه، لا يخرج منه

شيء البته، فاذا ملأت السطل نظرت المقر كأن لم يؤخذه منه شيء، والناس جميعا يملأون منه.. كان هذا دأبه دائما على ممر الليالي والايام، وانا رأيت هذا عيانا وملأت منه واهل الركب من غزة وغيرهم، وذكر ذلك العرب ايضا، قال لي من اثق بكلامه: نحن وأباؤنا واجدادنا من العرب ملأنا من هذا وهو على هذه الحالة.<sup>٣٦</sup>

ولا ينسى الجغرافيون - بطبيعة الحال- ان يسيروا الى المقادير الوافرة التي تتلقاها فلسطين من مصدر آخر للمياه هو الامطار.<sup>٣٧</sup>

### ( ٣ )

كان من الطبيعي ان تتمخض هذه الوفرة في المياه عن نشاط زراعي كثيف بلغ خواجه السنوي في منتصف القرن الثالث للهجرة نصف مليون دينار،<sup>٣٨</sup> واستمر على هذا المعدل حتى القرن التالي.<sup>٣٩</sup> وقد لفت هذا النشاط نظر الجغرافيين فأشاروا اليه، وقالوا عن فلسطين بأنها من اخصب بلاد الشام واكثرها عمراناً على صغر رقعتها،<sup>٤٠</sup> ثم وقفوا عند اشهر مدنها فحدثونا عما شهدوه فيها من زروع واثمار... فالقدس تعد من اخصب بلدان فلسطين<sup>٤١</sup> تحيط بها بساتين وكروم ومزارع واشجار فاكهه وزيتون<sup>٤٢</sup>، وتنتشر حولها قرى كثيرة الزروع والاشجار<sup>٤٣</sup> وقد ازدهرت فيها زراعة الاترج واللوز والجوز والرطب والتين والموز فضلا عن السماق،<sup>٤٤</sup> وعلى بعد فرسخين منها شهد ناصر خسرو اربع قرى متجاورة سميت الفراديس لكثرة حدائقها وبساتينها وجمال موقعها<sup>٤٥</sup> وبسبب من كثرة خيراتها رخصت فيها الاسعار، سيما وان معظم مزارعها تعتمد في سقيها على مياه الامطار.. الا أن اكثر مزارع القدس وفرة، ولا شك الزيتون الذي يستخرج منه الزيت، ولما زار ناصر خسرو القدس قال ان فيها ارباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والاحواض ويصدرونها الى اطراف العالم.<sup>٤٦</sup>

ولا تقل عنها نابلس كثرة اشجار وبخاصة الزيتون الذي يستخرج زيتة ويحمل الى مصر ودمشق وغيرهما، فضلا عن البطيخ الاصفر المنسوب اليها والذي اشتهر بطعمه اللذيذ<sup>٤٧</sup>. ويصفها الدمشقي بانها قصر في بستان<sup>٤٨</sup>. وبلغ من ازدهارها الزراعي ان اقليمها اشتمل على ثلاثمائة قرية.<sup>٤٩</sup> وكان يقع الى قريب من نابلس موقع يدعى عسكر الزيتون اشتهر بكثرة زيتونه<sup>٥٠</sup> وموقع آخر يدعى ياسوف وصف بكثرة رمانه.<sup>٥١</sup>

وازدهرت في ارجح زراعة النخيل والموز والريحان وقصب السكر<sup>٥٢</sup>، فضلا عن النبات المسمى بالوسمة او البلسم او العيج الذي يستخرج منه صبغ النيل الازرق الغامق<sup>٥٣</sup>.

كما اشتهرت بيسان بكثرة بسايتها وبخاصة النخيل والرز<sup>٥٤</sup>، وعرفت الرملة بكثرة فواكهها وبخاصة التين والنخيل<sup>٥٥</sup>، واشتهر تينها بأنه لا يوجد له مثل في اي مكان آخر وكانت تصدر منه كميات كبيرة الى مختلف البلاد<sup>٥٦</sup>. وتقع الخليل في وهدة بين جبلين وهي ملتزمة الاشجار كثيرة الثمار<sup>٥٧</sup>، وبخاصة الاعناب والتفاح والزيتون والتين والخرنوب، والتي اشتهرت بكثرتها وكانت تصدر منها كميات كبيرة الى مصر<sup>٥٨</sup>، كما ازدهرت فيها زراعة الشعير<sup>٥٩</sup>.

فاذا يمينا وجوهنا قبل الساحل ما كان لنا ان نصل عكا الا بعد اجتياز بسايتها المأى باشجار الفواكه، وبخاصة الزيتون، وضياعها العديدة التي تكتنفها الجبال<sup>٦٠</sup>. وانتشرت في حيفا اشجار الفواكه وبخاصة النخيل<sup>٦١</sup> وعلى بعد سبعة فراسخ من عكا تقع قيسارية التي ازدهرت فيها زراعة الفواكه وبخاصة النخيل والحمضيات، وقد وصفها المقدسي بأنه ليس على بحر الروم (المتوسط) بلد اجل ولا اكثر خيرات منها وانها تفور نعمًا<sup>٦٢</sup>. ولا تقل عنها خصبا عسقلان «ذات البساتين والثمار» والتي يكثر فيها الزيتون والكروم واللوز والرمان<sup>٦٣</sup> فضلا عن النخيل<sup>٦٤</sup>، ووصفت غزة بأنها «مدينة كثيرة الشجر كسماط ممدود»، وقد ازدهرت فيها بشكل خاص زراعة الكروم<sup>٦٥</sup>.

وكثرت في منطقة صغد- شمالا- اشجار الكمثرى المسكي المعطر الرائحة، الطيب الطعم، والاترج الذي اشتهر بحجمه الكبير الذي يبلغ وزن الواحدة منه احيانا نحو من ستة ارطال دمشقية، على عهدة الدمشقي<sup>٦٦</sup> وهناك - ايضا - الكروم والزيتون والبطم والخروب والسفرجل وانواع كثيرة من الفواكه<sup>٦٧</sup>، ويبلغ من اتساع نشاطها الزراعي ان اقليمها كان يضم - حسبما ذكر الظاهري- الفا ومائتي قرية<sup>٦٨</sup>.

وعموما، فان سائر جبال فلسطين وسهولها مأى - كما يقول الاصطخري - بالزيتون والتين والعنب وسائر الفواكه<sup>٦٩</sup> فضلا عن قصب السكر الذي ازدهرت زراعته في الغور<sup>٧٠</sup>، والقطن الذي كان يزرع في اطراف القدس ويصدر الى عدد من البلاد<sup>٧١</sup>

وفي تعليق طريف للمقدسي نعرف كم كان الانتاج الزراعي في فلسطين مزدهرا ومتنوعا فهو يقول « اعلم انه قد اجتمع بكورة فلسطين اربعة وثلاثون شيئا، ولا يجتمع في غيرها. فالسبع الاولى لا توجد الا بها، والسبع الثانية غريبة في غيرها، والاثنان والعشرون لا تجتمع

الابها، وقد يجتمع اكثرها في غيرها، مثل... انجاص الكافوري وتين وتين السباعي والدمشقي والجميز والخرنوب والعناب وقصب السكر والتفاح الشامي والرطب والزيتون والاترج والنيل والنارنج والنبق والجوز واللوز والموز والسماق والكرنب والكمأة وعنب العاصمي.. الخ «٧٢.

ومن هذا الانتاج الزراعي الغزير نما وانتشر عدد من الصناعات المحلية كان ابرزها ولا ريب زيت الزيتون الذي كان يصدر الى الديار المصرية والشامية والى الحجاز، وكان يحمل منه الى جامع بني امية في كل سنة الف قنطار دمشقي. ويقول ناصر خسرو الذي زار القدس عام ٤٣٨ هـ ان فيها من ارباب العائلات من يملك الواحد منهم خمسين الف من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والاحواض ويصدرونها الى اطراف العالم، كما يصف ازدهار الحركة الصناعية في القدس فيذكر ان فيها صنعا كثيرون وان لكل جماعة منهم سوق خاصة. ٧٣ وبسبب كثرة الزيتون ازدهرت - كذلك - صناعة الصابون الرقي الذي كان يصدر منه - كذلك - كميات كبيرة الى عدد من البلاد الاسلامية وجزر البحر المتوسط. ٧٤

كما انتشرت صناعة حلواء الخروب. ويصف ابن بطوطة طريقة صنعها: يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ منه من الرب فتصنع منه الحلواء، وكانت كميات من ذلك الرب تصدر الى مصر والشام. ٧٥ ويشير ابن الوردي الى ازدهار صناعة الحصر البديعة في طبرية ومنها حصران الصلاة التي كانت الواحدة منها تشتري بخمسة جنيهات مغربية. ٧٦ وفي بيسان ينبت السامان الذي تصنع منه الحصر السامانية، ولا يوجد نباته البتة الا فيها كما يقول الادريسي. ٧٧.

وازدهرت في فلسطين صناعة السكر وبخاصة بعض مناطق الغور عند اريحا وغيرها حيث تكثر زراعة قصب السكر، ٧٨ وكذلك في بعض الجهات الساحلية من مثل مدينة كابل التي كثرت فيها مزارع الاقصاب والتي كان يطبخ فيها السكر الغائق ٧٩. وفي اريحا كان يزرع نبات الوسمة او النيلج على نطاق واسع لغرض استخراج صبغ النيل ذي اللون الازرق الغامق منه ٨٠

وقد ازدهرت - ايضا - صناعة السفن البحرية في المدن الفلسطينية المطللة على البحر المتوسط، وهناك نوع من السفن يدعى الجودى برعت حيفا في صناعته. ٨١.

ومن خلال قائمة موسعة يقدمها المقدسي عن تجارات فلسطين نستطيع ان نضع ايدينا على عدد آخر من الصناعات الفلسطينية، ومن ابرزها - فضلا عن الصناعات الغذائية -

القوط والمرايا وقدور القناديل والابر والخرز والزجاج والكاغد والبنز والسبح والمآزر. ٨٢

وأفاد الفلسطينيون ايضا من المعادن والمواد الخام المتوفرة في بلادهم، وقد سبق وان اشرنا الى الفوائد الجمة التي كانوا يحصلون عليها من المادة القيرية التي يرمي بها البحر الميت، او تستخرج من سواحله، والمسماة بالحمّر، ويمكن ان نضيف هنا الكبريت الذي كان يستخرج من مقالع اريحا،<sup>٨٣</sup> والفضة التي كانت تصنع في القدس وتصدر الى مختلف البلاد،<sup>٨٤</sup> والملح الذي كان يتجمع على سواحل البحر الميت، وهو انواع شتى، الا ان احسنها ولا ريب الملح ((الاندراني)) الذي يكثر بالقرب من ارض سدوم، وهو اصفهاها والطفها، وكيفما تكسرت حجارتها ما تكسرت الا فصوصا مربعات الزوايا..<sup>٨٥</sup> والحجارة البيضاء التي كانت تستخرج من مقاطع خاصة<sup>٨٦</sup> والرخام الكثير الذي كان يستخرج من اطراف الرملة والذي كانت تُزين به واجهات الكثير من القصور والبيوت بعد نقشه وتزيينه. ويحدثنا ناصر خسرو كيف كان هذا الرخام يقطع بمنشار لا أسنان له وكيف انهم كانوا يعملون المنشار على اعمدة من الرخام بالطول لا بالعرض، فيخرجون منه الواح كالواح الخشب، وكيف انه رأى هناك انواعا والوانا من الرخام، من الملمع والاحضر والاحمر والاسود والابيض، من كل لون<sup>٨٧</sup>.

ولا نكاد نجد، فيما عدا هذه الاشارات، ثمة شىء يذكر عن الصناعات الفلسطينية، رغم انها كانت اكثر من هذا ولا ريب.. وسنعرف بعد قليل سبب هذه الشحة في الحديث عن الكثير من جوانب الحياة الفلسطينية في مصادرنا الجغرافية. وما يقال عن الصناعة يمكن ان يقال عن التجارة.. فرغم ان فلسطين - كما رأينا - كثيرة الزروع والثمار، ورغم ازدهار العديد من الصناعات الغذائية فيها، ورغم موقعها التجاري الممتاز على خطوط المواصلات المحلية والعالمية، برا وجوا، فاننا لا نكاد نعرث سوى على اشارات مبعثرة عن النشاط التجاري الذي مارسته فلسطين: الحركة المزدهمة الدووية في ميناء عكا، ثغر فلسطين الكبير،<sup>٨٨</sup> والاسواق الكثيرة العامرة في عدد من المدن المطلة على الساحل او المنتشرة في الداخل كغزة وعسقلان<sup>٨٩</sup> وعجلون<sup>٩٠</sup> والخليل<sup>٩١</sup> ورفح<sup>٩٢</sup> والرملة التي وصفت بأنها عامرة وان فيها اسواقا وتجارا ودخلا وخرجا<sup>٩٣</sup>. اما القدس فقد اشتهرت بكثرة اسواقها،<sup>٩٤</sup> وجمال تنسيقها حيث كان لكل جماعة من الصناع سوق خاصة.<sup>٩٥</sup> ويصف الظاهري جانبا من هذه الاسواق امتدت على شكل ثلاث قصبات على صف واحد ويقول انه لم يكن بغالب البلاد نظيرها.<sup>٩٦</sup> وقد انشئت فيها الخانات العديدة لتغطية حاجة التجار الى الاقامة.<sup>٩٧</sup> واشتهرت نابلس هي الاخرى بكثرة اسواقها وازدهامها، وكان احد هذه الاسواق يمتد من طرف المدينة



الى طرفها الآخر، بينما امتد سوق ثان الى نصف البلد. ٩٨

وهناك اكثر من اشارة الى ما كانت تصدره فلسطين الى البلاد الاخرى من المواد الخام والمنتجات الزراعية والمصنوعات... وكانت المنتجات الزراعية ابرز هذه الصادرات ولا ريب. فالى البلاد المجاورة كانت تصدر انواع مختلفة من الكروم والتفاح. ٩٩ ونجد في القائمة التي يقدمها المقدسي عن تجارات فلسطين الكثير من المواد الزراعية التي كانت تصدر الى الخارج وبرزها: الزيت والخرنوب والجبن والقطن وانواع الزبيب والتفاح والتمور والنيل والحبوب والعسل والرز. ومن ابرز ما يصدر من المصنوعات: الصابون والمناشف والقوط والمرايا وقدر القناديل والابروالمآزر والبز والسبح والكاغد. ١٠٠ كما يقدم قائمة اخرى بالمكاييل المعمول بها في فلسطين من مثل القفيز والويبة والمكوك والكيلجة. فالكيلجة تبلغ نحو صاع ونصف والمكوك ثلاث كياج والويبة مكوكان والقفيز اربع وبيات وينفرد اهل القدس بالمدى وهو ثلثا القفيز وبالقب وهو ربع المدى، ولا يستعمل المكوك الا في كيل السلطان. وهناك ايضا الرطل الذي يبلغ اثنا عشر اوقية، وتتراوح الاوقية بين الخمسين درهم الى بضع واربعين، ويبلغ الدرهم ستون حبة والحبة شعيرة واحدة، والدانق عشر حبات والدينار اربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث شعيرات ونصف. ١٠١

ويصف ابن جبير عكا بانها محط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، ومرفأ كل سفينة ويشبهها في عظمها بالقسطنطينية، ولا ريب انه يببالغ في ذلك كثيرا رغم ان عكا يومها (٥٨٠هـ) كانت قاعدة مدن الفرنج بالشام... وهي مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الاقدام». ١٠٢ وهو يتحدث عن ايام مغادرته اياها فيمنحنا معلومات اكثر عن حركة التجارة منها واليها..

يقول « في التاسع من شهر اكتوبر كنا لا نزال على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرين الاقلاع وتمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوما لعدم استقامة الريح. وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب وذلك ان الريح الشرقية لا تهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون فيها والتجار لا ينزلون الى عكا بالبضائع الا في هذين الفصلين. والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل. فيها تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مائة، واكثر وأقل بحسب ما يقضي الله تعالى به. والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر وفيه تتحرك الريح الشرقية اقصر من المدة الربيعية، وانما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون

خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل. وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والرياح الغربية أكثرها دواماً، فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الرياح الشرقية في هذين الفصلين انتظاراً وعد صادقاً» ١٠٤.

ويتحدث ناصر خسرو عن ميناء عكا فيقول إنه يقع على الطرف الجنوبي للمدينة، وأن معظم مدن الساحل كذلك. وهو يعرف الميناء بأنه اسم يطلق على الجهة التي بنيت للمحافظة على السفن، وهي تشبه الأسطبل، وظهرها ناحية المدينة، وحائطاها داخلان في البحر وعلى امتدادها مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً، وقد شددت السلاسل بين الحائطين، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء. ١٠٥ ويقول الأدرسي بأن مرساها مأمون وأن ناسها اخلاط، ١٠٦ كما هو معروف بالنسبة لسائر الموانئ في العالم.

وفي حيفا، حيث تنشط صناعة نوع من السفن البحرية المسماة بالجوادي، يمتد لسان واسع في البحر اقيم عليه مرسى جيد لارساء الاساطيل، وهي بمثابة فرضة (ميناء) لطبيرة قاعدة الأردن. ١٠٧ وتعتبر يافا ميناء الرملة على البحر المتوسط، وتبعد عن الرملة ستة أميال، ويقول المقدسي بأن هذا الميناء كان يتميز بالجددة ١٠٨، ولكنه كان يعد من الموانئ الكبيرة ذات الشهرة الواسعة والرخاء العميم والأسواق المزدهمة حيث يتواجد عدد كبير من وكلاء التجار لتسيير المعاملات التجارية المتجددة. ١٠٩ وكان يقوم في غزة مرسى للسفن التجارية ساعد ولا ريب على ازدهار الحركة التجارية فيها. ١١٠

وقد افاد الفيلسطينيون - كذلك - من البحر الميت لاعمالهم التجارية فكانت تجتازه السفن الصغار التي تحمل صنوف الغلال والفواكه إلى أريحا وسائر أعمال الغور. ١١١

#### ( ٤ )

وبنظرة سريعة على حشود النصوص المملأ بالتفاصيل عن المواقع والآثار الدينية في فلسطين، والتي لا يكاد مصدر جغرافي يخلو من الحديث عنها وتركيز اهتمامه عليها.. بنظرة سريعة يمكن أن يتبين السبب الرئيسي في شحة الحديث عن العديد من الجوانب المهمة في الحياة الفلسطينية وفي انعدامه تماماً عن جوانب أخرى لا تقل عنها أهمية. وربما يكون لجغرافيينا الكثير من الحق في موقفهم هذا.. ذلك أن عنصر (الجذب) في الجغرافية

الفلسطينية كان، ولا يزال، وسيظل مركزها الديني العريق، ومعطياتها العمرانية والآثارية ذات الجذور التاريخية المتوغلة في عمر الزمن..

والجغرافي المسلم على وجه الخصوص يجد في انفتاح دينه على سائر الاديان السماوية السابقة ومعطياتها، كما يجد في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام من التقدير والتكريم لهذه البقعة المباركة، ما يدفعه دفعا الى وصف كل ما تقع عليه عينه من تراث فلسطين الديني، والى الحديث يتللف وعشق عن كل ما تلمسه يده، او تطأه قدماه... انه يدخل محرابا دينيا كبيرا توالت على ارضيته نبوات السماء الكبرى، ووقف في ساحته المباركة انبياء الله جميعا عليهم السلام يصلون، يوم الاسراء، وراء خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.. ان الجغرافي او الرحالة المسلم وهو يشد الرحال الى فلسطين لا يكاد يرى فيها الا ما قد جاء لكي يراه فعلا: المواقع والرؤى والمشاهد.. والذكريات العزيزة التي طال شوقه اليها.. وما هو الآن في قلب التجربة.. فلا نتوقعن منه ان يشبح بصره عن مراكز الشد الروحي، فاذا ما أشاح قليلا ها هنا او هناك فلا نفترضن فيه طول المكوث لكي يحكي لنا عن اشجار تزرع او حبوب تحصد او مركب يذهب وآخر يجيىء، ولا نتوقعن فيه ان يحدثنا كيف يعيش الناس في فلسطين وماذا يفعلون.. ففي الاماكن الاخرى من العالم التي اتيح له ان يمر بها منحنا الكثير عن هذه الجوانب.. ولكنه هنا في فلسطين.. فان جل اهتمامه سينصب على بؤرة واحدة: تراث الاديان العريق، ومن ثم فانه مستعد ان يمنحنا ليس فقط الملامح الكلية والقسمات العامة لمعطيات هذا التراث، بل ان يتجاوزها هنا صوب الدقائق والتفاصيل فيحدثنا حتى عن المحنات الاحرف، وتناظر الزوايا، والوان الصخور.

قد يتأذى الباحث الذي يريد ان يأخذ من الجغرافي القديم كل شىء عن فلسطين من اجل ان يحظى بصورة اكثر وضوحا.. ولكن الجغرافي - نفسه - سيكون اكثر اذى لو انه جمّد لحظة الشوق وطامن من عنفوان التجربة، وهو في المكان المبارك الذي قد لا تتاح له رؤيته مرة اخرى.. فلنعطهم الحق هذه المرة.. ولتر - معا - من خلال اعينهم.. هذه المرة كذلك.

وكي لا يطول بنا السرى ونضيع في الدقائق والتفاصيل، مما لا يسمح به مجال كهذا، فسنتكفي بعرض لمسات مما قيل في هذا الميدان الرحب، وهو كثير كثيف يمكن لغرض الاستقصاء احالة القراء والباحثين عليه كما سيجدون في الصفحات التالية.

القدس هي الهدف الاول!! انها في القلب من فلسطين، تتربع على مكان عال، فكأنها

- بذلك - تنادي الرحالة والزائرين، وتفتح لهم صدرها.. «مدينة مرتفعة على جبال يصعد إليها من كل مكان قصد من فلسطين» ١١٢.. واليكم شهادة واحدة من الرحالة المشاهير.. ابن بطوطة.. «ووصلنا الى بيت المقدس شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرجه الى السماء، والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت» ١١٣، وقد كان للمدينة على عهد المقدسي ثمانية ابواب ١١٤.. وما يلبث ابن بطوطة ان ييمّم وجهه قبل المسجد الاقصى، فاذا كانت القدس هي قلب فلسطين فان المسجد الاقصى هو السويداء «وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن. يقال انه ليس على وجه الارض مسجد اكبر منه، وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة وثنتان وخمسون ذراعاً، وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة وخمسة وثلاثون ذراعاً، وله ابواب كثيرة في جهاته الثلاث، واما الجهة القبلية منه فلا اعلم بها الا باباً واحداً وهو الذي يدخل منه الامام. والمسجد كله فضاء وغير مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف، في النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة، ممّوه بالذهب والاصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع، سواء مسقفة» ١١٥.

ويجري ابن الوردي مقارنة بينه وبين جامع قرطبة الشهير.. فيصف اولهما بأنه المسجد المعظم المسمى بالاقصى ثم يقول «وليس في الدنيا كلها مسجد على قدره الا جامع قرطبة من بلاد الاندلس. وطول المسجد الاقصى مائتا باع في عرض مائة وثمانين. وفي وسطه قبة عظيمة تسمى قبة الصخرة، ويقال ان سقف جامع قرطبة اكبر من سقف الاقصى، وصحن الاقصى اكبر من صحن جامع قرطبة» ١١٦.

وثمة شقيقة المسجد : قبة الصخرة .. (وهي من اعجب المباني وأثمنها واغربها شكلاً، قد توفّر حظها من المحاسن واخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على منشز في وسط المسجد يصعد إليها في درج رخام، ولها اربعة ابواب، والدائر بها مفروش بالرخام، ايضاً، محكم الصنعة وكذلك داخلها. وفي ظاهرها وباطنها من انواع الزواقيح «الزينة»، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، واكثر ذلك مغشى بالذهب، فهي تتلأأ نورا وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الاثار، فان النبي عليه السلام عرج منها الى السماء وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة ايضاً ينزل إليها على درج، وهنالك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان

عليها، احدهما، وهو الذي يلي الصخرة، من حديد بديع الصنعة، والثاني من خشب، وفي القبة ورقة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس يزعمون انها ورقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه «١٧. وحسنا فعل ابن بطوطة بقول يزعمون، رغم انه في اماكن اخرى من العالم الواسع الذي تجول فيه، عرض لظواهر واشياء مما لا يصدق العقل ولا يقبل التأويل.. دون ان يدراً عن نفسه الشبهة - احيانا - بقوله (يزعمون)..

وغير المسجد الاقصى وقبة الصخرة، مواقع ومشاهد وذكريات: هناك بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم، شرقي البلد، على تل مرتفع، بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء، وقبر رابعة البدوية وهي غير العدوية الشهيرة.. وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظها النصارى ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها، واخرى معظمة يحج اليها النصارى ويزعمون ان فيها قبر المسيح عليه السلام.. ١١٨. وهناك محراب داود عليه السلام، وهي بنية مرتفعة، يشبه ارتفاعها ان يكون خمسين ذراعاً من حجارة وعرضها نحو ثلاثين ذراعاً على الحزر والتخمين. واعلاه بناء مثل الحجرة وهو المحراب، واذا ما وصلت اليها من الرملة فهو اول ما يتلماك من بناء بيت المقدس. ١١٩.

هنالك ايضا الكنيسة العظمى المسماة بكنيسة القيامة والتي تحج لها الروم من سائر الاقطار، يقول عنها ياقوت بانها اعظم كنيسة للنصارى بالقدس وان وصفها لا ينضب حسنا وكثرة مال وتنميق عمارة، وهي في وسط البلد والسور يحيط بها، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم ان المسيح عليه السلام قامت قيامته فيها، وبروح نقدية يكشف ياقوت عن احدى مزاعمهم - يومها - حول قنديل كانوا يقولون ان النور ينزل من السماء في يوم معلوم فيشعله، ويتبين في نهاية الرواية ان احد القسس كان مكلفا بتقريب شمعة منه، فتعلق به بغتة، والناس لا يرون ولا يشعرون به، فيشتعل على حين غفلة ((فيعظم عندهم ويطعيونه)) ١٢٠. وهذا يذكرنا بما فعله ناصر خسرو مع رواية الناس حول وادي جهنم الذي يقع قريبا من القدس، من ان الذي يذهب الى نهايته يسمع صياح اهل جهنم، فان الصدى يرتفع هناك !! يقول الرجل ((وقد ذهبت فلم اسمع شيئا)). ١٢١.

ويقابل القيامة من المشرق كنيسة الحبس الذي حبس فيه المسيح (عليه السلام)، وبها مقابر الفرنج.. وعلى الميامن من جبل الزيتون تقع القرية التي جلب منها حمار المسيح عليه السلام.. والى الجنوب من بيت المقدس تقوم كنيسة صهيون التي يقال ان المسيح (عليه السلام) اكل فيها مع حواريه من المائدة التي انزلت عليه من السماء، وهي كنيسة

حصينة.. وهناك على طرف الخندق تقع كنيسة بطروس، وفي هذا الخندق تتفجر عين سلوان التي ابرأ فيها المسيح عليه السلام الرجل الاعمى، وحيث تنتشر بيوت كثيرة منقورة في الصخر، فيها رجال مقيمون قد حبسوا انفسهم لله تعالى. ١٢٢. فضلا عن هذا كله فإن القدس تضم جناحها على قبور عدد كبير من الانبياء عليهم السلام، وأثارهم. ١٢٣.

وفي بيت لحم تقوم كنيسة حسنة البناء متقنة الصنعة، في الموضع الذي ولد فيه المسيح عليه السلام، والذي يبعد عن القدس ستة اميال، وفي وسط الطريق اليه يقبع قبر راحيل ام يوسف عليه السلام ١٢٤. وقد زار ابن بطوطة بيت لحم وقال ان فيه اثر جذع النخلة التي اسقطت على مريم عليها السلام رطبا جنيا، وان عليه عمارة كثيرة، وان النصراني يعظمونه اشد التعظيم ويضيفون من نزل به. ١٢٥. كما انه زار الخليل (التي كانت تسمى حبرون) ووصفها بأنها مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار، حسنة المنظر عجيبة الخبر، في بطن واد، وان مسجدها انيق الصنعة محكم العمل، بديع الحسن سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت. ورأى في احد اركانه صخرة يبلغ احد اقطارها سبعة وثلاثون شبرا وفي داخل المسجد الغار المقدس حيث تقبع قبور ابراهيم واسحق ويعقوب (عليهم السلام) تقابلها قبور ازواجهم الثلاث. وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضي الى ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة، ويقال انها محاذية لها. وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو الان مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات. ومما ذكره اهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك. ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه (المسفر للقلوب) عن صحة قبور ابراهيم واسحق ويعقوب، وجلّ اهل العلم يؤكدون ذلك ولا يطعن فيه الا اهل البدع، وهو نقل الخلف عن السلف ولا يشك فيه.

ويواصل ابن بطوطة وصفه لمسجد الخليل فيقول ان به ايضا قبر يوسف عليه السلام، وبشرقي الحرم تربة لوط عليه السلام وهي على تل مرتفع، وعلى قبره ابنة حسنة، وهو في بيت منها حسن البناء، مبيض، ولا ستور عليه.. وعلى مقربة من المكان يقع مسجد اليقين وهو على تل مرتفع، له نور واشراق ليس لسواه، ولا يجاوره الا دار يسكنها قيمه. وفي المسجد، قريبا من بابه، موضع منخفض في حجر صلد قد هيمى فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا واحدا.. وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي (رضي الله عنهم) وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام. ١٢٦. ويصف الدمشقي مقام الخليل عليه

السلام بأن طوله ثمانون ذراعاً وعرضه خمسون، وفي الطول منه عشرون حجراً مدمماً واحداً. ١٢٧

وفي نابلس حيث كان يقيم عدد من اليهود السامريين، ١٢٨ يحجون إلى جبلي طور زيتا المجاورين ويحرقون عليهما قرابينهم من الخرفان، ١٢٩ تقع البئر التي حفرها يعقوب عليه السلام حيث جلس يطلب من المرأة ماء للشرب، وإلى جواره تقع كنيسة معهودة... ١٣٠ وتقع بالقرب من نابلس مدينة سبسطية التي تضم قبر زكريا وابنه يحيى، فضلاً عن قبور جماعة من الأنبياء والصديقين عليهم السلام، ١٣١ كما تقع بليدة تدعى عورتا يقال إن فيها قبور سبعين نبي. ١٣٢ وعلى الطريق إلى بيسان تقع قرية تدعى لاوى نسبة إلى لاوى بن يعقوب. ١٣٣

انه ما من مدينة أو قرية في فلسطين إلا وفيها (الشاهد) على الدور المكثف المترع بالعطاء والذي لعبته فلسطين في حركة الأديان السماوية المتتابعة..

في الرملة يقوم الجامع الأبيض الذي يذهب ابن بطوطة مع إحدى مبالغاته إلى القول بأن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين ١٣٤ ويقول عنه المقدسي بأنه أبهى وأرق من جامع دمشق، وأنه ليس في الإسلام أكبر من محرابه، ولا بعد منبر بيت المقدس أحسن من منبره، وإن له منارة هبيرة ١٣٥.. ويروي الظاهري أن بمغارة الجامع أربعين قبراً من قبور الصحابة، وقبرين لاثنتين من أخوة يوسف وقبري أبي هريرة وسلمان الفارسي رضي الله عنهما. ١٣٦

وفي الناصرة، من أعمال صفد حيث ظهر المسيح عليه السلام، الموضع الذي تلقت فيه أمه البشارة به وهو معروف يزوره النصارى وغيرهم ١٣٧، وقد سمي النصارى باسمهم هذا نسبة إليها، وإلى قريب منها يقع جبل ساعير. ويرى أهل القدس أن المسيح عليه السلام إنما ولد في بيت لحم وإن آثار ذلك عندهم ظاهرة وإنما انتقلت به أمه إلى هذه القرية. ١٣٨

وفي منحدر جبل الكرمل المطل على حيفا، يقع الكهف الذي أوى إليه النبي إلياس عليه السلام، وبظاهر المدينة دير للنصارى يدعى دير القديس إلياس، وعلى قمة الجبل تقع أطلال المذبح الذي عمره هذا النبي في القرن العاشر قبل الميلاد، وهو بناء مستدير يبلغ محيط قاعدته أربعة أذرع. ١٣٩

وقرباً من الكرمل، على شاطئ بحر الجليل، تقع قرية معون التي كانت مقام المسيح عليه السلام بعد مفارقتها الناصرة، ١٤٠ وفي عكا القريبة يقع قبر صالح عليه السلام. ١٤١ وإلى

قريب من طبرية يقع الجب الذي اسقط فيه يوسف عليه السلام فالتقطه بعض السيارة وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية. والجب كبير عميق ينبع منه الماء. ١٤٢ كما يقوم الى جوارها مسجد يعرف بمسجد الانبياء يضم قبور شعيب وبنته وسليمان ويهوذا عليهم السلام وغيرهم ١٤٣ والى قريب من طبرية - كذلك - تقع قرية تدعى كرسي يقال ان المسيح عليه السلام جمع الحواريين بها وانفذهم منها الى النواحي، وفيها موضع كرسي زعموا انه جلس عليه. ١٤٤

وفي الغور، يمر ابن بطوطة لدى مغادرته فلسطين بقبر ابي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فيزوره ويجد عليه زاوية يقدم فيها الطعام لابناء السبيل، ويبيت هناك واصحابه ليلة، ثم يغادرون المكان الى القصير حيث قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه.. وهناك، قريبا من اريحا، اسفل الغور، يقع قبر موسى عليه السلام في مكان يدعى شيخان. ١٤٥

فاذا يمينا وجوهنا قبل الساحل فاننا سنلتقي بما سميّ جبل مشاهد الانبياء الذي يقع على طريق الذاهيين الى عكا، ويحدثنا ناصر خسرو كيف انه عزم على زيارة هذه المشاهد وكيف انه تعرف على رجل من العجم قدم من اذربيجان للتبرك بهذه المشاهد للمرة الثانية فرافقه الى عدد منها: قبور ذي الكفل وهود والعزير واربعة من ابناء يعقوب اخوة يوسف، والغار الذي يقع فيه قبر ام موسى. ١٤٦

وفي شرقي عكا تتفجر العين المعروفة بعين البقر، وقد بني عليها مسجد ويزورها المسلمون واهل الكتاب ١٤٧... وقريبا من عكا - على الطريق الى طبرية - تقع قرية تدعى كفر مندة تحتوي على قبر زوجة موسى المسماة صفوراء، وبها - كذلك - الجب الذي سقى منه موسى عليه السلام للفتاتين، ويقول ياقوت ان الصخرة التي كانت تغطي الجب باقية الى الان. ١٤٨

وفي عسقلان وغزة على الساحل الجنوبي لفلسطين نلتقي بمواقع اخرى: في الاولى، حيث كان ابراهيم الخليل عليه السلام قد مرّ يوما، يقع مشهد شهير لرأس الحسين رضي الله عنه قبل نقله الى القاهرة، على ما يروي ابن بطوطة، وهو مسجد عظيم كثير الارتفاع. وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر (رضي الله عنه) لم يبق منه الا حيطانه، وفيه اساطين رخام لا مثيل لها في الحسن وهي ما بين قائم وحصيد.. وبظاهر عسقلان يقع وادي النمل، الذي يقال انه المذكور في الكتاب العزيز.. وبمقبرة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء ما لا يحصر لكثرتة. ١٤٩



اما في غزة، احد المواقع الاخيرة على الطريق الى مصر، فأنا نلتقي بعدد من المساجد  
ابرزها - ولا ريب - المسجد الجامع الذي تقام به الجمعة وهو انيق البناء، محكم الصنعة،  
وقد بني منبره من الرخام الابيض. ١٥٠

وباختصار، فان في فلسطين على صغر رقعتها، ما يقرب من عشرين مسجد جامع، كما  
يقول الاصطخري، ١٥١ ولهذا دلالة ولا ريب.

### ( ٥ )

على المستوى البلداني، فانه ما من مدينة مهمة في فلسطين الا وقدمها لنا الرحالة  
والجغرافيون.. احيانا ملامحها الشاملة وقسمات شخصيتها المتميزة.. وحيانا اخرى عبر  
واجبتها البارزة: دينية او معمارية او طبيعية او اقتصادية او اجتماعية.. وفي احيان كثيرة  
اخرى قدموا لنا عنها لقطات متفرقة من هنا وهناك، وكانت اقلامهم وهي ترسم الصور اشبه  
بالكاميرا سريعة التحول في تنفيذ اللقطات والتي ازداد اعتمادها - فنيا - في العقد الاخير..

وبالاحالة الى التقسيم الاداري لفلسطين الحديثه، والذي سبق عرضه، يتبين لنا كيف  
حقق ادبنا الجغرافي العربي قدرا طيبا من التغطية، رغم انه ترك فجوات وفجوات، فحدثنا عن  
القدس والرملة واللد وبيت لحم والخليل وحطين واريحا ونابلس وعجلون وبيسان وصفد  
والناصرة وطبرية وعكا وحيفا ويافا وقيسارية وارسوف وايلة وعسقلان وغزة ورفح.. وغيرها..  
كما انه قدم كشوفا زمانية ومكانية للمسافات بين المدن، منها - على سبيل المثال - ما ذكره  
الاصطخري من ان المسافة بين دمشق وطبرية، في الشمال لفلسطين، اربعة ايام، ومن  
طبرية الى الرملة ثلاثة ايام ومن الرملة الى رفح في اقصى الجنوب الغربي يومان. اما عرض  
فلسطين فيبدأ من البحر عند يافا ويمر بالرملة والقدس فأريحا فساحل البحر الميت ويستغرق  
يومين ١٥٢ واذا وصلنا السير في الطريق الاخير وانحرفنا جنوبا بموازاة جبال الشراة باتجاه معان  
فان الطريق سيبلغ ست مراحل. ١٥٣ ويستعرض قدامة بن جعفر في كتابه عن (الخراج)  
«السكك التي ربيت فيها الرجال لحمل الخرائط وجعلت رسما للبريد: من طبرية قسبة  
الاردن الى اللجون من عمل الاردن اربع سكك، ومن اللجون الى الرملة قسبة فلسطين تسع  
سكك، ومن الرملة الى آخر عمل فلسطين وهي سكة (المعينة) تسع سكك». ١٥٤

وقد صنف الجغرافيون فلسطين ضمن الاقليم الثالث من بين سبع اقاليم في العالم، ١٥٥

وهي تقع في اطار قسم جغرافي واحد معروف يدعى الشام كان الروم قد قسموه الى اربعة اقسام: قسم قصبته دمشق وآخر وهو الاردن قصبته طبرية وثالث قصبته حمص، اما القسم الرابع وهو فلسطين فكانت قصبته ايليا او بيت المقدس، وبعد الفتح الاسلامي سميت هذه الاقسام اجنادا، ١٥٦ حيث قسم الشام الى خمسة اجناد وفق الضرورات العسكرية وذلك باضافة جند قسرين. وكان كل جند منها يضم عددا من الكور، ١٥٧ وقد قسّمت فلسطين الى مناطق ادارية سميت اعمالا وهي: عمل القدس وعمل الخليل وعمل نابلس وعمل الرملة وعمل غزة. ١٥٨ وكانت فلسطين تضم في عهد ابن خرداذبة ( منتصف القرن الثالث الهجري) الكور التالية: الرملة، بيت المقدس عمواس، اللد، يافا، قيسارية، نابلس، سبسطيه، عسقلان، غزة، بيت جبريل، ١٥٩ واستمر هذا التقسيم الى عهد الادريسي (منتصف القرن السادس الهجري) ١٦٠

ولم تكن القدس قاعدة لفلسطين باستمرار، ولا اكبر مدينة فيها، فقد نافستها لقرون عديدة، مدينة الرملة التي بناها سليمان بن عبد الملك والتي اتخذت قاعدة لفلسطين واخذت تنمو باستمرار حتى فاقت في اتساعها، بمرور الوقت، شقيقتها القدس ١٦١ ولكن توالي الزلازل عليها اضطر العديد من اهلها لمغادرتها الى القدس ١٦٢. وكانت صفد وغزة في القرن السادس الهجري اكبر مدينتين في فلسطين. ١٦٣

وليس بعد الحديث عن جغرافية فلسطين الطبيعية، واقتصادها، واثارها الدينية، من مادة ذات شأن تكفي لتكوين صورة واضحة عن الجوانب الاخرى وبخاصة الحياة الاجتماعية والنشاط الثقافي والنظم الادارية، وقد نجد الشيء الكثير عن هذه الجوانب جميعا في مصادر عربية اى غير المؤلفات الجغرافية، تلك هي كتب (الخطط) او مانسميه في العصر الحاضر بالنظم، والتي تقدم تفاصيل غزيرة عن الجوانب آنفة الذكر وبخاصة الادارة والمجتمع. وهناك ايضا مصادر التاريخ المحلي والتاريخ العام وان كانت الاخيرة تصب اهتمامها الرئيسي على مجريات الاحداث السياسية والعسكرية لكنها لا تخلو احيانا من اشارة لهذا الجانب الحضاري او ذلك. ولا ننسى - كذلك - ما يمكن ان تقدمه المدونات على اختلاف انماطها من مادة قيمة هن هذه الجوانب. واذا كان هذا البحث ينصب على معطيات الادب الجغرافي العربي عن فلسطين، وليس عن التاريخ الحضاري لفلسطين، فانه ليس من ضرورة منهجية تدفع للرجوع الى هذه الانماط من المصادر.

ثمّة اشارات متفرقة الى بعض جوانب الحياة الاجتماعية، منها تلك التي تتحدث عن

بعض تقاليد (الاقواف) واسهامها في تقديم نوع من (الضمان الاجتماعي) لبعض الفئات من الفقراء او الغرباء او الزائرين، في المأوى والمطعم والعلاج، وهي تقاليد كانت سائدة في معظم انحاء العالم الاسلامي لمدى قرون طويلة، وقد بلغت في المرحلة الممتدة بين القرنين الخامس والتاسع الهجريين حدا كبيرا من الاتساع والنضج.. ومن خلال تتبع هذه التقاليد، او الخدمات، يمكن ان نعثر على بعض ملامح الحياة الاجتماعية يومذاك.

في الخليل زار ناصر خسرو مشهدا لعدد من الانبياء، اقيمت فوqe مقصورة ضمت عددا من الحجرات للضيوف الوافدين، وقد وقف عليها اوقاف كثيرة من القرى ومستغلات القدس وهم يقدمون للضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون... وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق. وبالضيافة خادمت يجبرن طول اليوم. ويزن رغيفهم منا واحدا. ويعطي من يصل هناك رغيفا مستديرا وطبقا من العدس المطبوخ بالزيت وزببا كل يوم. وفي بعض الايام كان يبلغ عدد المسافرين خمسمائة، فتهيأ الضيافة لهم جمعيا. ١٦٤

ويتحدث العمري عن زيارته للحرم الابراهيمي في الخليل عام ٥٧٤٥هـ وكيف اخبره بعض المباشرين انهم في بعض ليالي العشر الاواخر من رمضان تلك السنة فرقوا ما يزيد على الثلاث عشر الف رغيف، وانهم في غالب ايام العام يفرقون ما بين السبعة الآف والعشرة الآف، ويقدمون مع الخبز طعام العدس بالزيت الطيب والسماق. وفي بكرة النهار يطبخ ايضا مع قدر من الدشيش ويفرق على الواردين. وفي بعض ايام الاسبوع يطبخ ما هو افخر من ذلك. وللحرم خدام يقومون بغريلة القمح وطحنه وعجنه وخبزه، لا يتوقفون ليلا ولا نهارا. وقد ربت اهراء القمح والطاحون والفرن بحيث ينفذ بعضها الى بعض.. يفرغ القمح في الاهراء فيخرج خبزا مخبوزا!!! ولا يزال على ذلك مدى الشهور والاعوام، لا ينقطع له مدد ولا يحصر بضبط ولا عدد. ١٦٥

ويشير ناصر خسرو الى المستشفى الكبير في القدس والى الاوقاف الطائلة التي وقفت عليه، وكيف يصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء. وكان يعمل في المستشفى عدد من الاطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف. ويقع هذا المستشفى على حافة وادي جهنم. ١٦٦

ويمنحنا المقدسي تفاصيل اخرى عن الحياة الفلسطينية وتقاليدھا: توقد قناديل المساجد على الدوام، وتعلق بالسلاسل اسوة بما كان سائدا في مكة.. وفي كل جامع يعلق صندوق على احد الاعمدة لجمع الاموال.. ولاصحاب ابي حنيفة بالمسجد الاقصى مجلس ذكر يقرأون خلاله دفاتر في ايديهم.. وكان الحرس يهللون بعد صلاة الجمعة، ويجلس الفقهاء بين

الصلواتين وبين العشائين، وللقراء مجالس في الجوامع.. ومن اراد ان يختم القرآن او يحبى ليلة النصف من شعبان فعليه بالمسجد الاقصى من بين سائر مساجد العالم الاسلامي.

والفلسطينيون يتجملون في ملابسهم، يلبسون الاردية الكثيرة، علماء وجهالا، ولا يتخففون في الصيف، انما هي نعال الطاق، ولا يقوِّرون الطيالسة.. ولا يتدرع الا اهل القرى والكتبة، وبعضهم، في قرى القدس ونابلس يلبسون كساء واحداً فحسب بلا سراويل.. وقد اعتاد اغنياء الرملة ركوب الحمر المصرية بسروج، اما الخيول فلا يركبها الا امير او رئيس.

وتكثر الافران في مدن فلسطين، اما في القرى فثمة ما يسمونه الطوايين، تنور في الارض صغير يفرش ويوقد الزبل حوله وفوقه، فاذا احمرّ طرحت الارغفة على الحصى. وهم يكترون طبخ العدس ويقلون الفول بالزيت او يسلقونه ويبيع مع الزيتون، ويملحون الترمس ويكترون من اكله، ويصنعون من الخرنوب ناطقاً يسمونه القبيط، ويسمون ما يتخذون من السكر ناطقا. وفي الشتاء يكترون من صناعة الزلاية غير المشبكة من العجين.

واكثر الجهاذة والصباغين والسيارفة والدباغين على عهد المقدسي (النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) من اليهود، واكثر الاطباء والكتبة من النصارى، وهؤلاء اعياد يعرفها المسلمون ويقدرّون بها الفصول: الفصح وقت النيروز، والعنصرة وقت الحسر، والميلاد وقت البرد، وعيد بربارة وقت الامطار، وعيد الصليب وقت العنب، وعيد لد وقت الزرع. وهم يعتمدون الشهور الرومية المعروفة: كانون الثاني، شباط، آذار.. الى آخره ١٦٧..

ويأتي لزيارة القدس عبر هذه الاعياد وغيرها، من بلاد الروم الكثير من النصارى واليهود لزيارة كنائسهم هناك ١٦٨..

وقد بلغ عدد سكان القدس على ايام ناصر خسرو ( منتصف القرن الخامس الهجري) عشرون الف رجل، وقد تميزت المدينة - يومها - باتساعها وارتفاع ابنتها وباسواقها الجميلة المنسقة، وبكثرة صناعاتها.. وقد بلطت كافة اراضيها بالحجارة، وسويت الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلت مسطحة، بحيث تغسل الارض كلها وتنظف حين تنزل الامطار. ١٦٩

وتتمركز طائفة اليهود السامرة في نابلس، وتحتج الى جبل طور زيتا المطل عليها، وهم يزعمون ان ابراهيم عليه السلام امر بذبح اسماعيل فيه، وعندهم في التوراة ان الذبيح اسحق. ويزعم اهل بيت المقدس انه لا يوجد سامري في غير نابلس. وكان للسامرة في نابلس مسجد كبير زعموا انه القدس وان بيت المقدس المعروف ملعون عندهم حتى اذا

اجتاز عليه احدهم اخذ حجرا فرجمه. ويتهمهم سائر اليهود بانهم مبتدعة او كفار. ١٧٠  
ولهذه الطائفة توراة تخصهم غير تلك التي بيد بقية اليهود او النصرى، وهم ينفردون عن  
اليهود الاخرين بانكار نبوة من بعد موسى عليه ما عدا هارون، وبخالفونهم في استقبال بيت  
المقدس، اذا يستقبلون طور نابلس زاعمين انه هو الذي كلم الله موسى عليه، ويقولون ان  
الله تعالى هو الذي انقذ بني اسرائيل من فرعون ونجاهم من الغرق، ويقولون انه نصب طور  
نابلس قبلة للمتعبد. ١٧١.

وسكان فلسطين اهل سنة وجماعة، يدين معظمهم بالمذهب الشافعي، فيما عدا بعض  
القضاة من الاحناف فاننا لا نكاد نعثر الا على قلة منهم في المدن والقرى، كما لا نكاد نعثر  
على مالكي ولا داودي. ويكثر الاشعريون في طبرية كما يتواجد الشيعة فيها وفي عدد من  
احياء نابلس، ويتمركز النصيرية في السامرة، اما الجوس الصائبة فلا وجود لهم. ١٧٢.

ثمّة ملاحظة اخيرة قد يحسن ان يختم بها هذا العرض الموجز وهي ان التعامل مع  
معطيات الادب الجغرافي العربي يقود الى حقيقة مهمة وهي تضائل الحضور اليهودي في  
فلسطين عبر العصور الاسلامية. ففيما عدا الاشارات الغزيرة عن الاثار الدينية اليهودية  
جنباً الى جنب مع اثار الاديان السماوية الاخرى، فاننا لا نكاد نجد ثقلاً بشرياً لليهود في  
الحياة الفلسطينية. والاشارات القليلة التي ترد عنهم لا تنفي هذه المقولة بل تؤكدتها في  
معظم الاحيان، لانها تطرح ارقاما محدودة الى حد كبير لا تكاد تقارن باعداد الغالبية  
العظمى من سكان البلاد المسلمين. هنالك اشارة الدمشقي الى طائفة السامرة اليهودية التي  
يقول فيها «انه لا توجد في بلد من البلدان من السامرة ما يوجد منهم بنابلس، ويقولون انهم  
لا يبلغون في بلد منهم الالف اصلاً» ١٧٣... وهنالك اشارة الرحالة الأندلسي بنيامين التطيلي  
الى وجود مائتي يهودي في عكا ١٧٤... وهذا الاخير رغم كونه يهودياً، ورغم ان رحلته انصبت  
بالدرجة الاولى على تدوين احصائيات عن عدد اليهود المنتشرين في المشرق، فانه لا يقدم لنا  
عبر رحلته في فلسطين غير هاتين المائتين من اليهود.. وابن جبير عندما يتحدث عن النشاط  
التجاري المزدهم في مرفأ عكا يصفه بانه مجتمع السفن وملتقى تجار المسلمين والنصارى من  
جميع الافاق ١٧٥، ولا يشير بشيء الى اليهود رغم حذقهم المعروف في ميدان التجارة. ولا  
نسى هنا بطبيعة الحال - اشارة المقدسي - آفة الذكر - الى ان اكثر الصباغين والصبافرة  
والدباغين كانوا على عهده من اليهود، ولكن ذلك لا يقف دليلاً على اتساع قاعدتهم العددية  
بين سكان فلسطين، فاكثر الصاغة في العراق الى عهد قريب - وعلى سبيل المثال - كانوا

من الصابئة الا انهم لا يعدون ان يكونوا اقلية ضعيلة جدا بالمقارنة مع سائر العناصر والفئات الاخرى.

وفضلا عن هذا فاننا، عبر القرون العديدة التي تجول فيها الرحالة والجغرافيون وقدموا معطيائهم، لانكاد نعثر على اية اشارة عن قيام فتنة دينية بين المسلمين واليهود في فلسطين ولا حتى الى ما يوحي بنشوب توتر او سوء تفاهم بين الجماعتين.. وان دلّ هذا على شيء فانما يدل - من جهة - على انعدام ثقل اليهود في الحياة الفلسطينية بحيث انهم لا يشكلون تيارا سكانيا له خطره وتحدياته.. ويدل - من جهة اخرى - على ما اشتهر به المسلمون من سماحة في تعاملهم مع ابناء الاديان السماوية الاخرى، كما علمهم كتابهم وسنة نبهم عليه السلام، وكما عرفهم تاريخ المذاهب والاديان عبر القرون ١٧٦. وليس ادلّ على هذا الانفتاح وعدم التشنج ازاء الاديان الاخرى من تركيز جغرافيينا ورحالتنا اهتمامهم على كافة المنشآت والآثار الدينية سواء كانت اسلامية ام نصرانية ام يهودية، ومن الحديث عنها بنفس القدر من الاعجاب والتكريم والمحبة.

ان ثمة رواية يحكيها لنا الدمشقي قد تكون ادلّ ما نختم به هذه الملاحظات «يقال انه اذا اجتمع في طريق (واحد) مسلم ويهودي وسامري ونصراني، رافق السامري المسلم»<sup>١٧٧</sup>

## مصادر البحث

- الادريسي: ابو عبد الله محمد الشريف (ص ٥٤٨هـ)  
نزهة المشتاق في اختراق الافاق، تحقيق دوزي ودي غويه، ليدن - ١٨٦٦.  
الاصطخري: ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٥٣٤٦هـ)  
مسالك الممالك، ليدن - ١٩٢٧  
ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتب (ت ٥٧٧٩هـ)  
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، دار صادر - دار  
بيروت - ١٩٦٤  
التطيلي: بنامين بن يونة الاندلسي (٥٦١ = ٥٦٩هـ)  
رحلة بنيامين، ترجمها عن الاصل العربي عزرا حداد، المطبعة الشرقية بغداد  
- ١٩٤٥.  
ابن جبير: محمد بن احمد الكناي الاندلسي (٥٧٨ - ٥٨٠هـ)  
رحلة ابن جبير  
ابن الحسين: اسحق (ت ؟)  
اكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، روما - ١٩٢٩  
الخنسلي: مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ؟)  
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المطبعة الوهبية، القاهرة - ١٨٦٦  
ابن حوقل: ابو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ)  
كتاب صورة الارض، دار مكتبة الحياة، بيروت - ؟  
ابن خرداذبه: ابو القاسم عبيد الله (ت في حدود سنة ٣٠٠هـ)  
كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، ليدن - ١٨٨٩.  
الدمشقي: شمس الدين محمد الانصاري الملقب بشيخ الربوة (ت ٥٧٢٧هـ)  
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مصورة عن طبعة ليبزك - ١٩٢٣.  
الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ)  
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق ريفيس باريس -  
١٨٩٤.  
ابن عبد الحق: صفي الدين (ص ٧٠٠هـ)  
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، تحقيق جرينبول، ليدن -  
١٨٥٠.

العمري: ابو العباس شهاب الدين بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ)  
مسالك الابصار في ممالك الامصار، الجزء الاول تحقيق احمد زكي، دار  
الكتب المصرية، القاهرة - ١٩٢٤.

أبو الفداء: عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ)  
تقويم البلدان، تحقيق رينود ودي سلين، باريس - ١٨٤٠.  
ابن الفقيه: ابو عبدالله احمد الهمداني (ت ٣٦٥هـ)  
كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن - ١٨٨٥.

قدامة بن

جعفر: ابو الفرج الكاتب البغدادي (ت ٣٢٠هـ)  
نبد من كتاب الخراج وصنعه الكتابة، تحقيق دي غويه، ليدن - ١٨٨٩.  
القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ)

اثار البلاد واخبار العباد، تحقيق وستنفلد، غوتنجن - ١٨٤٩.  
المقدسي: ابو عبد الله محمد بن احمد البشاري (ت ٣٧٥هـ)  
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، تحقيق دي غويه، ليدن - ١٩٠٦.  
النابلسي: عبد بن اسماعيل بن عبد الغني (١٦٨٩م)

الحضرة السنية في الرحلة القدسية ( عن مخطوطة المتحف الفلسطيني)  
ناصر خسرو: الفارسي (ص ٤٣٨هـ)  
سفرنامه، ترجمه عن الفارسية الدكتور يحيى الخشاب، لجنة التأليف والترجمة  
القاهرة - ١٩٤٥.

المهروي: علي بن الحسين (ت ٦١١هـ)  
الاشارات الى معرفة الزيارات ( عن نسخة المخطوطة، المصورة في المتحف  
الفلسطيني).

ابن الوردي: ابو حفص عمر (ت ٧٤٩هـ)  
خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة الشيخ عثمان عبد الرزاق، القاهرة  
- ١٣٠٣هـ.

ياقوت: شهاب الدين عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)  
معجم البلدان، تحقيق وستنفلد، ليزك، ١٨٦٦-١٨٧٣، المشترك وضعاً  
والمفترق صقعا، تحقيق وستنفلد، غوتنجن ١٨٤٦.

اليعقوبي: احمد بن ابي يعقوب بن واضح (ص ٢٧٨هـ)  
كتاب البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن - ١٨٩١.



- ١ - حسين روجي: المختصر في جغرافية فلسطين، القدس ١٩٢٣.
- ٢ - الدمشقي: نخبة الدهر ص ٢١١، ٢١٢-٢١٩، اسحق بن الحسن: آكام المرجان ص ٢٢، ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٢.
- ٣ - خريدة العجائب ص ٢٤، وانظر: العمري: مسالك الأبصار ٨٢/١.
- ٤ - رحلة ص ٢٩٢.
- ٥ - المصدر السابق ٥١٥/١ وانظر ياقوت: المشترك ص ٣٨.
- ٦ - مسالك الممالك ص ٥٨-٥٩ وانظر: ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٠ وابن الوردى: خريدة ص ٢٤ واليقوتى: البلدان ص ٣٢٧.
- ٧ - مسالك الأبصار ٨٩/١.
- ٨ - احسن التقاسيم ص ١٨٥ ولزيد من التفاصيل عن بحيرة طبرية وعيونها انظر: ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٧ والهروى، الاشارات في معرفة الزيارات، ص ٢٨، ٢٦ وياقوت: معجم البلدان ٥٠٩/٣ والقزويني: آثار البلاد، ص ١٤٥ وابى الفداء: تقوم البلدان ص ٢٤٣.
- ٩ - الدمشقي: نخبة الدهر ص ١٠٧-١٠٨.
- ١٠ - المصدر السابق ص ١٠٨-١٠٩، الادريسي: نزهة المشتاق ص ١.
- ١١ - معجم البلدان ٢٠٠/١ وانظر: العمري: مسالك ٨٢/١
- ١٢ - الاصطخري: مسالك ص ٥٨، ٥٩، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٧-١٥٨، الدمشقي: نخبة ص ٢٠١، ابو الفداء: تقوم ص ٢٢٦.
- ١٣ - ياقوت: معجم ٨٢٢/٣، المشترك ص ٣٢٦.
- ١٤ - ياقوت: معجم ٧٥٢/٢.
- ١٥ - نخبة الدهر ١٠٧-١٠٨.
- ١٦ - معجم: ٥١٦/١.
- ١٧ - الادريسي: نزهة ص ١.
- ١٨ - ناصر خسرو: سفرنامه، ص ١٧ وانظر نخبة الدهر، ص ٨٢ وابو الفدا: تقوم ص ٢٢٨.
- ١٩ - الحضرة السنوية في الرحلة القدسية ص ٢٣٤.
- ٢٠ - الدمشقي: نخبة ص ١٢١.
- ٢١ - نفسه ص ١٢١.
- ٢٢ - اسحق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢، ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٠٥٩.
- ٢٣ - المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٧٤.
- ٢٤ - ياقوت: معجم ١٨٠/٢.
- ٢٥ - ابو الفداء: تقوم ٢٤٣.
- ٢٦ - ناصر خسرو: سفرنامه ص ٣٢.

- ٢٧- العمري: مسالك ٣٣٧/١، ياقوت: معجم ٧٣٣/٣.
- ٢٨- ناصر خسرو: المصدر السابق ص ١٨.
- ٢٩- ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٢.
- ٣٠- نفسه ص ٦١ وانظر: ابن جبير: رحلة ص ٢٩٢.
- ٣١- التليلي: رحلة ص ٩٣ وانظر هامش رقم ٢ من الصفحة نفسها.
- ٣٢- ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦١، الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠-١٠٢.
- ٣٣- ابن بطوطة: المصدر السابق ص ٦٠-٦١.
- ٣٤- نخبة الدهر ص ١١٩، ياقوت: معجم ١٢٥/٣ وانظر خسرو، سفرنامه ص ٢١.
- ٣٥- نخبة الدهر ص ١٦٥، ياقوت معجم: ٥٩٨، ٥٩٣/٤.
- ٣٦- نخبة الدهر ص ١١٩-١٢٠.
- ٣٧- انظر: الاضطخري: مسالك ص ٥٦ وابن حوقل: صورة الارض ص ١٥٧-١٥٨، اسحق بن الحسين: اكام مرجان ص ١٣ ابن الوردى: خريدة ص ٢٣ والدمشقي: نخبة ص ٢١٢.
- ٣٨- ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ٧٨.
- ٣٩- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٨٩.
- ٤٠- الاضطخري: مسالك ص ٥٨، ابن حوقل: صورة الارض ص ١٥٩.
- ٤١- الاضطخري: نفسه ص ٥٦-٥٧، ابن حوقل: نفسه ص ١٥٨.
- ٤٢- اسحق بن الحسين: آكام المرجان ص ١٣.
- ٤٣- ابن عبد الحق: مراصد ص ١٣٢.
- ٤٤- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٦٥، ياقوت: معجم ١٠٠٥/٤.
- ٤٥- سفرنامه ص ٣٣.
- ٤٦- نفسه ص ١٩.
- ٤٧- ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٠-٦١، الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠-٢٠١.
- ٤٨- نخبة ص ١٠٢-٢٠٠.
- ٤٩- الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ٤٦.
- ٥٠- ياقوت: معجم ٦٧٥/٣.
- ٥١- نفسه ١٠٠٢/٤.
- ٥٢- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٧٤ القزويني: آثار ص ٨٥.
- ٥٣- ابو الفداء: تقويم ص ٢٣٦، الادريسي: نزهة ص ٢.
- ٥٤- الادريسي: نفس الصفحة، المقدسي: احسن التقاسيم ١٦٢، ابو الفداء: تقويم ٢٤٣.
- ٥٥- المقدسي: احسن التقاسيم ص ٦٤.
- ٥٦- ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٩.
- ٥٧- ابن الوردى: خريدة ص ٢٤، الاضطخري: مسالك ص ٥٧-٥٨، ابن حوقل: صورة الارض ص ١٥٨-١٥٩.
- ٥٨- المقدسي: التقاسيم ص ١٧٢، ابو الفداء: تقويم ٢٤١، ناصر خسرو: سفرنامه ٣٢.
- ٥٩- ناصر خسرو: نفس الصفحة.

- ٦٠- ابن جبیر: رحلة ص ٢٩٢، المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٦٢.
- ٦١- ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٨.
- ٦٢- احسن التقاسيم ص ١٧٤، ناصر خسرو نفس الصفحة.
- ٦٣- ابن الوردی: خریفة ص ٢٣-٢٤.
- ٦٤- اسحق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢.
- ٦٥- الدمشقي: نخبة ص ٢١٣، الظاهري: زبدة ص ٤٢، ابو الفداء: تقويم ٢٣٩.
- ٦٦- نخبة ص ٢١١.
- ٦٧- نفسه.
- ٦٨- زبدة : ص ٤٤.
- ٦٩- مسالك ص ٥٧-٥٨، ياقوت: معجم ٦٥٧/٢ العمري: مسالك ٣٣٧/١ وانظر: ابن حوقل: صورة الارض ص ١٥٨-١٥٩.
- ٧٠- ياقوت: معجم ٢٠٠/١.
- ٧١- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٨٠.
- ٧٢- نفسه ص ١٨٠.
- ٧٣- سفرنامه ص ١٩.
- ٧٤- الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠-٢٠١، ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٦٠-٦١.
- ٧٥- ابن بطوطة: نفس الصفحة.
- ٧٦- ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٧.
- ٧٧- زهوة ص ٢.
- ٧٨- ياقوت: معجم ٢٠٠/١ القزويني: اثار ص ٩٥.
- ٧٩- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٦٢.
- ٨٠- ابو الفداء: تقويم ص ٢٣٦.
- ٨١- ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٨.
- ٨٢- احسن التقاسيم ص ١٨٠.
- ٨٣- القزويني: اثار ص ٦٥، المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٨٤.
- ٨٤- الظاهري: زبدة ص ٢٣.
- ٨٥- الدمشقي: نخبة ص ٧٩.
- ٨٦- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٨٤.
- ٨٧- سفرنامه ص ١٩. المقدسي: نفس الصفحة.
- ٨٨- ابن جبیر: رحلة ص ٢٨٥-٢٨٦، التطليبي: رحلة ص ٩٣.
- ٨٩- ابن بطوطة: تحفة ص ٥٤، اسحق بن الحسين: آكام المرجان ص ٢٢.

- ٩٠- ابن بطوطة: تحفة ص ٦٠-٦١.
- ٩١- ياقوت: معجم ٢/٤٦٨.
- ٩٢- نفسه ٢/٧٩٦، ابن عبد الحق: مراصد، ١/٤٧٦،
- ٩٣- الأدرسي: زهوة ص ٢، ابن بطوطة: تحفة ص ٦٠-٦١.
- ٩٤- ياقوت: معجم ٤/٥٩٣، ابن عبد الحق: مراصد ٣/١٣١.
- ٩٥- خسرو: سفرنامه ص ١٩.
- ٩٦- زبدة ض ٢٣.
- ٩٧- نفسه.
- ٩٨- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٧٤.
- ٩٩- نفسه ص ١٧٢.
- ١٠٠- نفسه ص ١٨٠.
- ١٠١- نفسه ص ١٨١.
- ١٠٢- رحلة ص ٢٨٥.
- ١٠٣- نفسه ص ٢٨٥-٢٨٦.
- ١٠٤- نفسه ص ٢٩٣-٢٩٤.
- ١٠٥- سفرنامه ص ١٥.
- ١٠٦- زهوة المشتاق ص ٦.
- ١٠٧- خسرو: سفرنامه ص ١٨، الأدرسي: نفسه ص ٦.
- ١٠٨- احسن التقاسيم ص ١٧٤.
- ١٠٩- ابو الفداء: تقوم البلدان ص ٢٣٩.
- ١١٠- الأدرسي: زهوة المشتاق ص ٢.
- ١١١- نفسه ص ١.
- ١١٢- الاضطخري: مسالك ص ٥٦.
- ١١٣- تحفة النظار ص ٥٧.
- ١١٤- احسن التقاسيم ص ١٦٥.
- ١١٥- تحفة النظار ص ٥٨، وعن المعطيات الغزيرة للجغرافيين العرب الخاصة بالمسجد الاقصى انظر بالتفصيل الصفحات ٢٤٢-٣٠١ من كتاب: الاب أ.س مرمجي الدومنيكي: بلدانية فلسطين العربية (بيروت- ١٩٤٨) وهو المرجع الذي اعتمده في هذا البحث بالنسبة لعدد من المصادر غير المتوفرة وهي رحلة ناصر

خسرو، ومعجم البلدان لياقوت، ونزهة المشتاق للادريسي واحسن التقاسيم للمقدسي واثار البلاد للقزويني ومخطوطنا الاشارات للهروي الرحلة القدسية للنايلسي.

- ١١٦- فريدة ص ٢٣-٢٤.
- ١١٧- ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٥٨.
- ١١٨- نفسه ص ٥٩.
- ١١٩- الاصطخري: مسالك ص ٥٦-٥٧، ابن حوقل: صورة الارض ص ١٥٨.
- ١٢٠- معجم البلدان ١٧٣/٤.
- ١٢١- سفرنامه ص ٢٠.
- ١٢٢- ابن الوردى: فريدة ص ٢٤، اسحق بن الحسين : اكام المرجان ص ١٣.
- ١٢٣- اسحق بن الحسين: نفسه ص ١٣، الظاهري: زبدة ص ٢٣، ولزيد من التفاصيل عن الكنائس انظر: خسرو: سفرنامه ص ١٨/١٦، ياقوت: معجم ٤٣٨/٣، ١٧٣/٤. ابن عبد الحق: مراصد ١٧٣/٢، المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٥٩، الادريسي: نزهة ص ٥٣، الهروي: الاشارات ص ٤٠ القزويني: اثار البلاد ص ١٠٩.
- ١٢٤- ابن الوردى: فريدة ص ٢٤.
- ١٢٥- تحفة النظار ص ٥٧ وانظر: الاصطخري: مسالك ص ٥٧-٥٨ وابن حوقل: صورة الارض ١٥٨-١٥٩.
- ١٢٦- تحفة النظار، ص ٥٥-٥٦ وانظر: ابن الوردى: فريدة ص ٢٤.
- ١٢٧- نخبة الدهر ص ٣٩. ولزيد من التفاصيل عن الخليل انظر: المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٧٢. ياقوت معجم ١٩٤/٢، ٤٦٨ ابو الفداء: تقويم ص ٢٤١، الادريسي: نزهة ص ٦، الهروي: الاشارات ص ٤٢، الظاهري: زبدة ص ٢٤.
- ١٢٨- انظر: الاصطخري: مسالك ص ٥٧-٥٨ وابن حوقل: صورة الارض ص ١٥٨-١٥٩ والدمشقي: نخبة ص ٢٠٠-٢٠١ وابن الوردى: فريدة ص ٢٤.
- ١٢٩- الدمشقي: نخبة ص ٢٠٠-٢٠١ وانظر ياقوت: معجم ٥٥٧-٥٥٨ وابن الفقيه: البلدان ص ١٠١ وابن عبد الحق: مراصد ٢١/٢-٢١٥.
- ١٣٠- ابن الوردى: فريدة ص ٢٤.
- ١٣١- ياقوت ٣٣/٣، ابن عبد الحق: مراصد ١٠/٢، العمري: مسالك ص ٢٢٠.
- ١٣٢- ياقوت: معجم ٧٤٥/٣، ابن عبد الحق: مراصد ٢٨١/٢.
- ١٣٣- ياقوت: معجم ٣٤٤/٤، ابن عبد الحق: مراصد ٣/، ولزيد من التفاصيل عن مكانة نابلس الدينية انظر: الاصطخري: مسالك ص ٥٨، المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٦٤ الهروي: الاشارات ص ٣٤، الادريسي: نزهة ص ٢، القزويني: اثار ١٨٤.

- ١٣٤- تحفة النظر ص ٦٠
- ١٣٥- احسن التقاسيم ص ١٦٤.
- ١٣٦- زبدة ص ٤٢.
- ١٣٧- دمشققي: نخبة ص ٢١٢.
- ١٣٨- ياقوت: معجم ٧٢٩/٤ القزويني: اثار ص ١٨٤، الهروي: الاشارات ص ٣٠.
- ١٣٩- التظلي: رحلة ص ٩٣-٩٤.
- ١٤٠- نفسه ص ٩٤، وانظر الهامش رقم ٣ من الصفحة نفسها.
- ١٤١- ابن بطوطة: تحفة ص ٦١.
- ١٤٢- نفسه ص ٦٢، اسحق بن الحسين: اكام المرجان ص ٢٢.
- ١٤٣- ابن بطوطة ص ٦٢، ابن جبير: رحلة ص ٢٩٢، الاضطخري: مسالك ص ٥٨-٥٩، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٠.
- ١٤٤- ياقوت: معجم ٢٦٠/٤، ابن عبد الحق: مراصد ٤٨٩/٢.
- ١٤٥- العمري: مسالك ص ١٧٦.
- ١٤٦- سفرنامه ص ١٦.
- ١٤٧- القزويني: اثار ص ١٤٩، ياقوت: معجم ٧٥٨/٣، ابن عبد الحق: مراصد ٢٩٤/٢.
- ١٤٨- معجم ٢٩١/٤، ابن عبد الحق: مراصد ٥٠٤/٢، الهروي: الاشارات ص ٢٩، القزويني: اثار ص ١٦٥.
- ١٤٩- ابن بطوطة: تحفة ص ٥٩-٦٠، اسحق بن الحسين: اكام المرجان ص ٢٢.
- ١٥٠- ابن بطوطة: ص ٥٤.
- ١٥١- مسالك ص ٥٨.
- ١٥٢- نفسه ص ٥٦، ٦٥-٦٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٧-١٥٨.
- ١٥٣- الاضطخري: مسالك ص ٦٥-٦٧ وانظر عن المسافات كذلك: ابن جبير: رحلة ص ٢٩٢، قدامة بن جعفر: الخراج ص ٢١٩، دمشققي: نخبة ص ٢٠١.
- ١٥٤- الخراج ص ٢٢٨.
- ١٥٥- دمشققي: نخبة ص ٢٠.
- ١٥٦- نفسه ص ١٩٢، وانظر: ابن الوردي: فريدة ص ٢٣.
- ١٥٧- ياقوت: معجم ١٣٦/١، ابن عبد الحق: مراصد ٢٧/١، الظاهري: زبدة ٤٢، الادريسي: نزهة ص ١٢.
- ١٥٨- مجير الدين الحنبلي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ص ٤٣٠.
- ١٥٩- المسالك ص ٧٨.

- ١٦٠ - نزهة ص ١٢ .
- ١٦١ - انظر: قدامة بن جعفر: الخراج ص ٢٤٧ .
- ١٦٢ - الدمشقي: نخبة ص ٢٠١ .
- ١٦٣ - نفسه ص ٢١٤ .
- ١٦٤ - سفرنامه ص ٣٢ .
- ١٦٥ - مسالك ١/١٦٨ .
- ١٦٦ - سفرنامه ص ٢١ .
- ١٦٧ - احسن التقاسيم ص ١٨٢ .
- ١٦٨ - ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٩ .
- ١٦٩ - نفسه .
- ١٧٠ - ياقوت: معجم ٣/٥٥٧، ابن عبد الحق، مرصد ٢/٢١٤، الاضطخري، مسالك ص ٥٨، الادريسي: نزهة ص ٢، الهروي: الاشارات ص ٣٤، القزويني: اثار ص ١٨٤، ابو الفدا: تقويم ص ٢٤١ .
- ١٧١ - القلقشندي: صبح الاعشى ١٣/٢٢٨ .
- ١٧٢ - نفسه ٤/١٥٠ المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٧٩، اليعقوبي: بلدان ص ٣٢٧، ناصر خسرو: سفرنامه ص ١٧ .
- ١٧٣ - نخبة ص ٢٠١ .
- ١٧٤ - رحلة ص ٩٣ .
- ١٧٥ - رحلة ص ٢٨٥-٢٨٦ .
- ١٧٦ - انظر على سبيل المثال: ياقوت: معجم ١/٤٢٢، ابن عبد الحق: مرصد ١/١٠٨، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٨، ابو الفدا: تقويم ٢٤١ .
- ١٧٧ - نخبة ص ٢٠١ .

# غزة

## دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣-١٢٧٧ / ١٨٥٧-١٨٦١

الدكتور عبد الكريم رافق  
استاذ تاريخ العرب الحديث في جامعة دمشق

جمعت هذه الوثائق من سجل يحمل رقم ٤٦١ وعنوان المحاكم الشرعية في غزة، موجود في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، ويتألف من ٤٥٩ صفحة من القطع الكبير المعتاد في سجلات المحاكم الشرعية، وخطه مقروء، ولكن املاءه ركيك، وليس فيه من حرص على قواعد اللغة يبدأ المجلد بتاريخ ١٩ جمادى الأولى ١٢٧٣ / (١٥ كانون الثاني ١٨٥٧) وينتهي في ختام رجب ١٢٧٧ / (١١ شباط ١٨٦١). ولا نعلم من اعطى هذا السجل الرقم ٤٦١، ولا مجموعة السجلات التي يتنظم فيها هذا الرقم، وما الذي أتى به الى دمشق. وقد ذكر لي الاستاذ انور الانزاووط، خبير الوثائق العثمانية في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، انه جاء بهذا السجل، مع غيره، من أقبية قصر العدل الى مديرية الوثائق. ولعل هذا السجل قد استعير في الاصل من محكمة غزة الشرعية للاستشهاد بمحتواه في محاكم دمشق، في قضية وقف او ارث، او غيرها. وما يجدر ذكره ان Jon Mandaville الذي قام بمسح لسجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشام بعامه في مقاله:

«The Ottoman Court Records of Syria and Palestine». Journal of the American Oriental Society, Vol. No. 3 (1966), pp. 311-319.

لم يشر الى سجلات محكمة غزة.

وسنشير الى وثائق سجل غزة هذا باختصار كما يلي: سجل غزة، ص (كذا)، ٣، ٧٧ (أي ان تاريخ القضية هو ٣ رمضان عام ١٢٧٧). والاحرف المعتمدة في سجل غزة للاشهر القمرية هي التالية: م=محرم، ص=صفر، ر=ربيع الأول، ر=ربيع الثاني، ج=جمادى الأولى، ج=جمادى الثاني، ب=رجب، ش=شعبان، ن=رمضان، ل=شوال، ذ=ذو القعدة، ذ=ذو الحجة.



## ١ - مقدمة:

لعبت غزة دوراً هاماً إبان الحكم العثماني. وكانت، في معظم الاوقات، صنجقاً، أو لواء، في ولاية الشام. وألحقت، لفترة قصيرة، بولاية صيدا، وكذلك بمتصرفية، ثم ولاية، القدس، كما في الفترة التي نحن بصدد دراستها.

واشتهرت في غزة، في النصف الثاني من القرن السادس عشر واولائل السابع عشر، أسرة الأمير أبي شاهين، التي برز منها ابناه بهرام ورضوان. واشتهر كذلك ابن هذا الأخير، احمد، الذي توفي في ١٥/١٠/١٦٠٦. وعين هؤلاء الامراء حكاماً على صنجق غزة، وشغل بعضهم حكم ولاية اليمن ومصر، كما عهد اليهم بامارة الحج الشامي، لسنوات عديدة. واشتهر من ممالك هذه الاسرة الامير فروخ بن عبد الله، الذي حكم صنجقي نابلس والقدس، وعين أميراً للحج الشامي، في الربع الاول من القرن السابع عشر<sup>(١)</sup>.

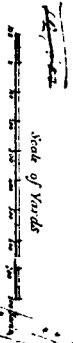
وبرز من أبناء غزة، في القرن الثامن عشر، حسين باشا ابن مكّي، الذي عين صنجقاً عليها، وكانت تابعة لولاية الشام، ثم نقل والياً على دمشق في عام ١٧٥٧، خلفاً لاسعد باشا العظم<sup>(٢)</sup>، واعتبره الاحباري الدمشقي المعاصر، ميخائيل بريك، «من ثاني طائفة من اولاد العرب الذين صاروا وزراء في بلادنا»<sup>(٣)</sup>. وكانت الطائفة الاولى آل العظم<sup>(٤)</sup>.

واشتهرت غزة بمرور قافلة الحج الشامي فيها، في بعض الاحيان، أثناء عودتها من الحجاز، لتحاشي هجمات البدو، أو لانقاذ ما يمكن انقاذه، في أعقاب هذه الهجمات. وعرف الطريق الذي سلكته القافلة، عبر غزة، بالطريق «الغزاوي» تمييزاً له عن الطريق الرئيسي، المعروف بالطريق السلطاني<sup>(٥)</sup>. وذكر ان من أراد اللحاق من الحجاج الشاميين بقافلة الحج المصري، التي كانت تمر بالعقبة، كان يمر بغزة في طريقه الى العقبة<sup>(٦)</sup>. وافادت غزة كذلك من وقوعها على الطريق التجاري، الذي يربط بين بلاد الشام ومصر.

ويتبين من وثائق محكمة غزة الشرعية ان غزة كانت، في فترة دراستنا، صنجقاً أو لواءً، حكمه قائمقام، لقب بالافندي، وألحق بالقدس، التي كانت آنذاك، كما يبدو، ولاية قائمة بذاتها. وكان والي القدس، في عام ١٢٧٣/١٨٥٦-١٨٥٧، اسماعيل كامل باشا، الذي وصف بأنه متصرف الالوية. وأشار الى أمر صدر عنه بانه سطر «من ديوان متصرفيتنا ايات قدس شريف ونابلس وغزة»<sup>(٧)</sup>. ويبدو انه خلفه في ولاية القدس مصطفى باشا ثريا، الذي وصف في أمر أصدره الى قائمقام غزة، في ٢٨ محرم ١٢٧٤/ (١٨ ايلول ١٨٥٧)، بانه «متصرف القدس الشريف»<sup>(٨)</sup>. كما وصف في الاوامر اللاحقة التي أصدرها الى

of the Villages of  
**HARRAT IT T B PEAR**  
and

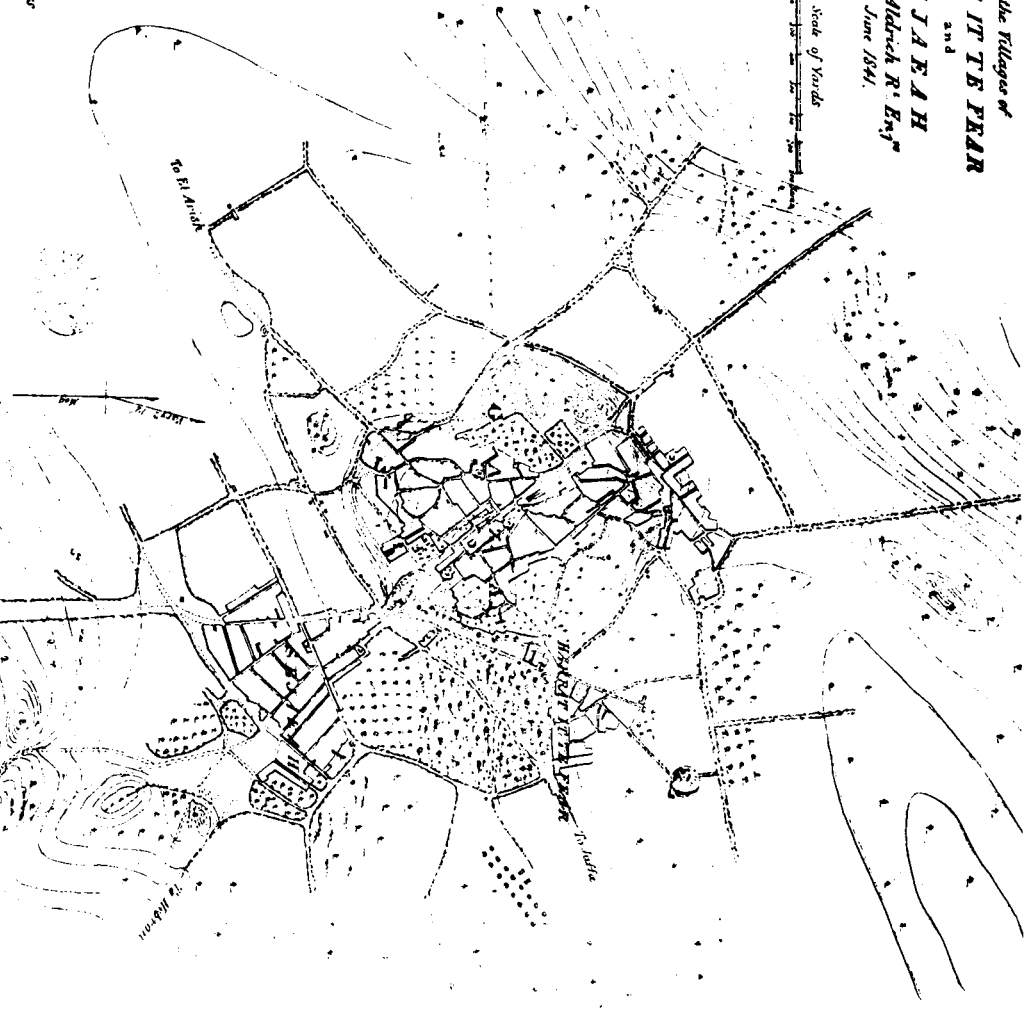
**SE J A E A H**  
 by **L. Aldrich R. Eng<sup>r</sup>**  
 June 1894.



*Surveys in Area  
 by Sir & P. Colborne  
 Part 1.*

- 3 Mosque
- 2 Barns
- 1 Well
- 1 Chapel
- 1 Enclosure

The distance of each village, the distance from, is measured to the first line.



Drawn to accompany a Report dated 17th June 1894  
**W. H. Aldrich, R. Eng<sup>r</sup>**  
 for the **Eng<sup>r</sup>**

Revised 17th June 1894  
 by **L. Aldrich, R. Eng<sup>r</sup>**  
 Camp, **Harrat**

قائم مقام غزة وكبار موظفيها بانه «والي الالوية»، وان أمره صادر من «ديوان ألوية القدس الشريف وملحقاتها».

وقد شغل قائممقامية غزة، في فترة دراستنا هذه كل من مصطفى بك السعيد، الذي عزل بموجب الأمر الذي أبلغه ووالي القدس، مصطفى باشا ثريا، الى المسؤولين في غزة، بتاريخ ٢٨ محرم ١٢٧٤ / (١٨ ايلول ١٨٥٧)، وعين مكانه سالم أفندي<sup>(٩)</sup>. ثم عزل هذا القائم مقام، وخلفه في حكم غزة عثمان أفندي القاسم، كما جاء في الامر المؤرخ في ١٧ ربيع الثاني ١٢٧٤ / (١٥ كانون الاول ١٨٥٧)، الذي أبلغه مصطفى باشا ثريا الى المسؤولين في غزة<sup>(١٠)</sup>. وفي أمر لاحق من مصطفى باشا ثريا، مؤرخ في ١٩ شوال ١٢٧٤ / (٢ حزيران ١٨٥٨)، الى المسؤولين في غزة، أبلغهم انتهاء قائممقامية عثمان أفندي القاسم في غزة، وتوجيه هذا المنصب الى مصطفى بك السعيد<sup>(١١)</sup>.

وأقام القائم مقام في سراي غزة<sup>(١٢)</sup>، وتقع في الجانب الشرقي منها، في مكان غير بعيد عن الجامع الكبير<sup>(١٣)</sup>. وجاء في أوامر تعيينه ذكر المسؤوليات المترتبة عليه، مثل مطابقة أعماله للشريعة والقانون، وتحصيل أموال الميري من محلاتها بأوقاتها، وتوريدها الى الخزينة. ولعل المقصود بالخبز هنا خبز غزة التي أشارت اليها الوثائق<sup>(١٤)</sup>. وحثت الاوامر القائم مقام على الاهتمام بكافة السكان، في غزة وخارجها، وتأمين الأمن في الطرق.

وجاء تسلسل المسؤولين في غزة، كما ورد ذلك في مطلع الأوامر الصادرة اليهم من قبل ووالي القدس، وفق الترتيب التالي: قائممقام غزة، وهو المعنى الاول بتنفيذ الأمر، ثم نائب الشريعة حالاً أفندي، أي القاضي الحنفي (ولم يذكر اسمه الا اذا كان الأمر موجهاً اليه)، ومفتي أفندي بها حالاً، وقائم مقام نقيب السادة الاشراف بها حالاً، ثم اعضاء المجلس بها حالاً. ولا نعرف شيئاً عن تركيب هذا المجلس أو صلاحياته. وأشارت الأوامر، بعد ذلك، الى أصحاب الالقاب التالية، أو بعضهم «وجوه البلدة، مختارين المحلات، مشايخ الحارات، أرباب التكلم بوجه العموم، ومفاخر القبائل والعشاير وشيوخ مشايخ عربان الصف القبلي والشمالي ومشايخ العربان ومشايخ واختيارية قرايا بلاد غزة بوجه العموم».

وقد عين قاضي غزة الحنفي، الذي أشير اليه، عادة، بنائب الشريعة في غزة، وأحياناً بخليفة الحكم الحنفي بمدينة غزة<sup>(١٥)</sup>، من قبل قاضي القدس، الذي وصف بأنه مثلاً (مشتقة من مولى، أي سيد) أفندي الديار القدسية. وذكر في قرار تعيين قاضي غزة انه

نصب نائبا شرعيا بغزة هاشم ومجدل عسقلان<sup>(١٦)</sup>. وكان والي القدس يؤكد تعيين القاضي بتوجيه أمر من قبله الى قائم مقام غزة، والى القاضي المعين، والمفتي، ونقيب الاشراف، وأعضاء المجلس، ووجوه البلدة، وأرباب التكلم بوجه عام، يعلمهم فيه بتعيين القاضي الجديد وعزل سلفه، ويوصيهم بأن يكون القاضي الجديد مرفوع المقام بينهم. ويهيب بالقاضي الجديد ان يتعاطى الاحكام على قاعدة ابي حنيفة ويتقوى الله<sup>(١٧)</sup>.

وأشير، عادة، في أمر تعيين قاضي غزة الى مهامه الرئيسية التي خوله اياها قاضي القدس، ومنها «مباشرة وتعاطي فصل الاحكام بين الاهالي، وختم الصكوك الشرعية والسندات المرعية، وتحرير التركات غير الجسمية وتقسيمها بين مستحقيها، ونصب الاوصياء والنظار من أهل الدين والصلاح، وتزويج من لا ولي له من الصغار، واناة من شاء عند الحاجة<sup>(١٨)</sup>». وأبلغ القاضي، وغيره من كبار الموظفين، بالتوجيهات الجديدة حين صدورها. ومما أبلغه، مثلا، ضرورة تطبيق المساواة العادلة بين السكان، على اختلاف مللهم ومبداهم<sup>(١٩)</sup>، وذلك في أعقاب صدور خط شريف همايون في ١٨ شباط ١٨٥٦، الذي أقر المساواة بين السكان. وأبلغ القاضي أيضا ضرورة التأكد، في عمليات شراء العقارات، من هوية المشتري وجنسياتهم، ومن صفة العقار، ان كان ملكا أم وقفا، ومن صلاحيته «أي القاضي» النظر في أمر العقار، من حيث تبعيته لدائرة أم الدائرة قاض آخر<sup>(٢٠)</sup>، وذلك في أعقاب صدور قانون الاراضي العثماني في عام ١٨٥٨.

وشغل منصب القضاء في غزة ومجل عسقلان، في فترة دراستنا، ثلاثة قضاة هم: مصطفى أفندي<sup>(٢١)</sup> وعلمي ناده السيد مصطفى وفا أفندي (أى السيد مصطفى وفا أفندي ابن علمي)، الذي عين بموجب مراسلة من قبل والي القدس بتاريخ الأول من ربيع الأول ١٢٧٤/ (٢٠ تشرين الأول ١٨٥٧)<sup>(٢٢)</sup>، ثم عزل في الأول من ذي الحجة ١٢٧٦/ (٢٠ حزيران ١٨٦٠)، وخلفه صلاحى زادة السيد عبد الغني أفندي<sup>(٢٣)</sup>

ولا نعلم فيما اذا كانت الدولة قد اعتمدت في غزة، أو قام فيها، في الواقع، قضاة من المذاهب الاخرى. ووردت معلومات في الوثائق الشرعية عن ممارسة المفتي الشافعي في غزة، واسمه محمد نجيب أفندي النخال، عملية الافناء، الى جانب المفتي الحنفي<sup>(٢٤)</sup>. ولكن المفتي الحنفي بقي متميزا، واشير اليه بانه مفتي غزة. وشغل هذا المنصب، في فترة دراستنا، السيد الحاج احمد محي الدين عبد الحي الحسيني<sup>(٢٥)</sup>. وكان نقيب الاشراف في غزة السيد صالح أفندي عبد الحي الحسيني<sup>(٢٦)</sup>، ولعله من اقرباء المفتي الحنفي. ولم يرد، في الوثائق، ما

يشير الى هوية السلطات التي عينت كلا من المفتي الحنفي والمفتي الشافعي ونقيب الاشراف في غزة.

وضم لواء، أو صنجق، أو قضاء غزة، عددا كبيرا من القرى، ترأس كلا منها شيخ عرف بشيخ القرية. وذكرت الوثائق الشرعية، في فترة دراستنا هذه، القرى التالية<sup>(٢٧)</sup>: برير، البطاني الغربي، بعلين، بيت جرجا، بيت حانون، بيت داراس (ذكرها العارف، ص ١٩٧، بيت دارس)<sup>(٢٨)</sup>، بيت طيما، بيت لاهيا، تل الترمس، جباليا، الجسير، جلين، جولس، الحية، حتا، الحديثة، حامة، حميل الخيل (ذكر العارف ص ١٩٧ قرية حميل، ولعلها نفسها)، خان يونس، دمرة، الدواليبة، الدوامية، دورة، الدير، دير البلح، دير سنيد (ذكرها العارف، ص ١٩٧، دير اسنيد)، ذكريا، زرنوقة، سدود (ولعلها اسدود)، سمس، سوافير عودة، سوافير المسالفة، الشيخ مؤنس، صامة (أو حمامة)، عيسان، عجور، عراق المنشية، الفالوجة، القبيبة الغربية، القبيبة (وردت ايضا القبيبة)، القسطينة، اللتينة (وردت ايضا التينة)، المسمية، معربيا، المغار، ثعلبا، هربيا، بينا، وكرين البردان. ويديهي ان هذه القرى لا تشمل جميع قرى لواء غزة.

## مظاهر عمرانية:

ميزت الوثائق الشرعية، في تحديد مواقع المحلات والخطوط، ومن خلالها مواقع العقارات، في غزة، بين داخل مدينة غزة وظاهرها. ومثل هذا التمييز، بين داخل المدينة وظاهرها، يقوم، عادة، كما في دمشق مثلاً، بالاستناد الى سور المدينة. ولم تشر وثائق غزة، في فترة دراستنا، الى وجود مثل هذا السور. ولاحظ كتاب (بيديكر)<sup>(٢٩)</sup>، في حوالي عام ١٨٩٠، زوال وجود السور وكذلك زوال وجود بوابات للمدينة. وهناك اشارة<sup>(٣٠)</sup> الى وجود السور قبل ذلك والى ان البقية الباقية منه قد تهدمت ابان هجوم نابليون بونابرت. ولم يتبق منه الا بقايا قليلة، بجوار مدرسة الفلاح الاسلامية<sup>(٣١)</sup>. وربما كانت تسمية داخل غزة وظاهرها تعود الى زمن وجود السور. ومهما يكن، فالامر الثابت ان وثائق غزة الشرعية أشارات الى التقسيم، وان داخل غزة ضم سبع محلات، وما عداها عرف بظاهر غزة.

ولم يتجاوز ظاهر مدينة غزة حدود اراضيها المباشرة، التي توقفت عند حدود اراضي القرى المجاورة لها. وتألفت الاراضي ظاهر مدينة غزة، والتي أشير اليها بأرض غزة، من بساتين، وحواكير، كانت بجوار غزة المباشر، كما في داخلها، ومن كروم وموارس (جمع مارس، وهي

الأرض الزراعية) (٣٢). ومن جملة ما وجد في ظاهر غزة سوق الحمير (٣٣).

ومن النقاط المشهورة، ظاهر غزة، ما اسمته وثائق غزة الشرعية بمجبل المنطار (٣٤). واشير اليه كذلك بتل المنطار، وكان على ارتفاع ثلاثة وثلاثين مترا عن سطح البحر، ويقع الى الجنوب الشرقي من غزة، على مسافة خمس عشرة دقيقة منها، كما قدرت في حوالي عام ١٨٩٠. وفيه عدد من القبور، واختلف المسلمون والمسيحيون حول تسميته ونسبته اليهم (٣٥). ولا ندري اذا كان المنطار هذا هو نفسه الذي أعطى اسمه الى ضريبة (منطقة) عرفت بضرية ولي الله تعالى الشيخ أبو علي المنطار، وكانت ظاهر غزة، من الجهة الشرقية (٣٦).

وتألف داخل غزة، في فترة دراستنا، من عدد من المحلات (مفردها محلة)، وربما عادت الاحياء في التعبير الدمشقي وغيره آنذاك. وورد في وثائق غزة الشرعية استخدام كلمة «حارة»، ولكن بمعنى مرتبك، فمرة قصد بها محلة (٣٧)، ومرة سمي بها رزاق (٣٨). وقسمت كل محلة الى خطوط (مفردها خط)، وهي ما يعادل الشارع الرئيسي. وكلمة «خط» مقتبسة من مصر، حيث استخدمت للدلالة على الشارع (٣٩). واستخدمت وثائق غزة الشرعية كلمة «شارع» بشكل ضئيل، وبصورة مرتبكة، فمرة استخدمتها للدلالة على «خط»، كما ورد في العبارة التالية، حول موقع دكان صباغة: «داخل غزة بمحلة السجاعة بشارع الاسكافية» (٤٠). وهذا الشارع أشارت اليه الوثائق باستمرار تقريبا، بخط الاسكافية. ووردت كلمة «شارع» بمعنى التفرع من خط، كما في العبارة التالية: «الدار الكاينة داخل غزة بمحلة السجاعة بخط الجديدة شارع الواوية» (٤١). ويبدو ان «شارع» هنا اطلق على مسار سالك، أي نافذ، وربما يوازي، في ذلك، تعبير «الطريق السالك» الذي استخدمته الوثائق الشرعية، باستمرار تقريبا، حين تحديد جهات عقار ما، ويقع فيه، عادة، باب العقار. ومن تفرعات الخط والطريق السالك الرزاق، ويفترض انه ضيق وقصير وكان، عادة، غير نافذ، وفتحت عليه ابواب الدور. ولم ترد في وثائق غزة كلمة «الدخلة»، الا اذا كان القصد من المحلات، في الأمر، الاشارة الى الخطوط، التي استخدمت في دمشق آنذاك لتدل على تفرع أصغر من الرزاق، وكانت غير سالكة.

ومن الطريف ان الامر الذي وجهه والي القدس الى قائممقام غزة وكبار موظفيها وأصحاب النفوذ فيها، بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٢٧٤ / (٢٧ تموز ١٨٥٨)، قد ذكر «مختارين المحلات ومشايخ الحارات» (٤٢). ويبدو ان هذه العبارة هي مجرد اصطلاح، استخدم في الاوامر الادارية، بصورة عامة، ولا ينطبق على لواء غزة، لان الوثائق الشرعية فيها لم تشر الى الحارات، وانما الى الخطوط، التي لم يكن لفظها مستعملا في غير لواء غزة.

ومما تجدر ملاحظته ان بعض القرى، على الاقل، المحيطة بغزة، قد حذت حذوها في تسمية الشارع بالخط. ويلاحظ ذلك، بصورة خاصة، في جباليا، اذ قسمت الى خطوط. ولكن لم ترد اشارة الى انتظام هذه الخطوط في محلات، كما كان الامر في غزة، ربما بسبب صغر حجم القرى. ومن الخطوط، في قرية جباليا، خط الدرادنة<sup>(٤٣)</sup>، وخط الجامع الكبير<sup>(٤٤)</sup>.

وقد اشارت وثائق غزة الشرعية، في فترة دراستنا، الى سبع محلات فيها. واذا ما رتبناها بالنسبة لعدد الخطوط في كل منها لاصبح تصنيفها كما يلي: السجاعية (وكتبت أحيانا: الشجاعية)، البرجلية، الزيتون، الدرج، حكر التفاح (أو التفاح)، الخضر (أو دار الخضر)، وبني عامر. وورد في الوثائق أحيانا ذكر خط بني عامر، التابع لمحلة البرجلية. فاذا كانت الاشارة هنا الى محلة بني عامر فهذا يعني ان المحلة لصغرها اعتبرت، أو اصبحت خطا تابعا لمحلة البرجلية.

وتقع محلات غزة، من الناحية الجغرافية، بالاستناد الى المصور المرافق لغزة الذي وضعه Aldrich<sup>(٤٥)</sup>، والى الاوصاف الواردة في الوثائق الشرعية، والمصادر الاخرى، كما يلي: محلة السجاعية في الشرق من غزة، قرب الطريق المؤدي الى الخليل، ومحلة التفاح في الشمال، غربي الطريق المؤدي الى الرملة ويافا، ومحلة الزيتون في الجنوب، غربي الطريق المؤدي الى العريش، ومحلة الدرج في الغرب من غزة، أي الى الشمال الغربي من محلة الزيتون، ومحلة الخضر الى الجنوب الغربي من محلة الدرج. وتقع محلة البرجلية الى الجنوب الشرقي من محلة الدرج، باتجاه الشمال الغربي من محلة الزيتون. والى جانب محلة البرجلية، وربما في قسم منها، قامت محلة بني عامر، التي حلت تسميتها فيما بعد، كما يبدو، محل تسمية البرجلية<sup>(٤٦)</sup>.

ولو قارنا محلات غزة هذه مع محلاتها، التي ذكرتها كتابات اخرى، في فترات أخرى، سابقة ولاحقة، ابان الحكم العثماني، لوجدنا انسجاماً أكثر بين هذه المحلات ومحلات الفترات التي تقدمت دراستنا بحوالي ثلاثة قرون وربع القرن، واختلافاً مع محلات الفترة التي أعقبت دراستنا بحوالي ربع القرن. ففي القرن السادس عشر، ومن خلال عدد من السجلات العثمانية، ذكرت أحدث الدراسات<sup>(٤٧)</sup> وجود الحارات التالية: حكر التفاح، دار الخضر، الدباغة او الصباغة، الزيتون، البرجلية، التركان وسجاعية (أو شجاعية) الاكراد وبالمقارنة مع فترتنا نجد أن حارة التركان أصبحت خطأ، ضمن محلة السجاعية. أما محلة الدباغة، أو

الصباغة، فلم ترد أية اشارة اليها في وثائق غزة الشرعية، في فترة دراستنا. وبدت الدراسة، التي أوردت هذه التسمية، غير متأكد من طريقة كتابتها، كما انها ذكرت انها جزء من حارة التفاح، ولعلها جنوبه حيث يقوم المسلخ، وذلك بالاستناد الى ما ذكره العارف بعد حوالي اربعة قرون. ومع ذلك ينسجم هذا التقسيم مع تقسيم غزة، في فترة دراستنا، الى حد كبير، ويتفق معه بانه لا يذكر حيا خاصا بالنصارى، وآخر باليهود، وآخر بالمسلمين.

بعد الفترة التي تلت دراستنا، بحوالي ربع القرن، جاء في كتاب (بيديكر)<sup>(٤٨)</sup>: ان غزة تألفت من اربع حارات، هي حارة التفاح، وحارة السجاعية، وحارة الزيتون، وحارة الدرج، وانه في السنوات الاخيرة زاد عدد حاراتها خمس حارات جديدة. ولكن الكتاب لم يسم هذه الحارات، ولا مواقعها، ولا السنوات التي ازدادت فيها. كما انه لم يشر الى هوية السكان الذين أقاموا فيها، وفيما اذا كانت هذه الحارات قد سلخت او تفرعت عن الحارات الاربعة الأولى.

ثم جاءت دراسة Gatt عن غزة في عام ١٨٨٧،<sup>(٤٩)</sup>، ويبدو انه كان على اطلاع بما جاء في كتاب (بيديكر) باللغة الالمانية، وربما على تنسيق معه، فذكر ان حارات غزة، آنذاك، هي التالية: الزيتون، اليهود، النصارى، المسلمين، الفواخير، الدرج، بني عامر، التفاح، والسجاعية. وهذا التقسيم يعني انه في مدى حوالي خمس وعشرين سنة، من فترة دراستنا، أصبح في غزة تسع حارات، عوضا عن المحلات السبع، وان محلاتي البرجلية والخضر قد الغي اسماهما على الاقل، وبرزت حارات لليهود والنصارى والمسلمين. وقد نقل Meyer<sup>(٥٠)</sup> في عام ١٩٠٧ هذا التقسيم عن (غات)، وقبله دون مناقشة، حتى بالنسبة لكلمة «التفاح» التي وردت في (غات) على شكل tufen، فابقاها كما هي. واخطأ (ماير) في كتابة كلمة el-Fawakhir، التي ذكرها (غات) بشكل صحيح فجعلها el-Fawakhir.

والملاحظ ان كلا من (غات) و (ماير) ذكر حارات خاصة باليهود والنصارى والمسلمين، وهو ما لم تذكره وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا، ولا السجلات العثمانية في القرن السادس عشر<sup>(٥١)</sup>. فهل تعرضت غزة الى موجة من هجرة اليهود خاصة، وربما النصارى، اليها، في مدة خمسة وعشرين عاما، استدعت قيام حارات خاصة بهم، أو ربما غلب وجودهم في هذه الحارات على ماعدهم من السكان، أم هل اتخذ التوقع الديني بعدا كبيرا جعل اتباع هذين المذهبين يتجمعون في حارات خاصة بهم. ثم هل تتطابق حارات اليهود والنصارى والمسلمين مع الحازتين، أو المحلتين، اللتين اندثرت تسميتهما على الاقل في تقسيم (غات) ومن نقل عنه، وهما محلة الخضر ومحلة البرجلية، اللتان أشارت اليهما الوثائق



الشرعية قبل حوالي ربع قرن. لقد أشارت السجلات العثمانية، في القرن السادس عشر، الى وجود النصارى في غزة، والى وجود معظمهم في حارة الزيتون، وكذلك الى وجود اليهود باعداد أقل، بحيث شكلوا، وسطيا، حوالي ثلث عدد النصارى<sup>(٥٢)</sup>، وان حوالي ثلثهم، في سجل عام ٩٣٢/١٥٢٥-١٥٢٦، كانوا من المغرب، بنتيجة هجرة السفارديم<sup>(٥٣)</sup> من اسبانيا بعد اخراج العرب والساميين منها. ولكن وثائق غزة الشرعية، في فترة دراستنا، لم تشر الى محلة خاصة بالنصارى اذ انهم توزعوا في عدد من المحلات أهمها: الزيتون، والخضر، والدرج، وستعرض الى ذلك في مكان آخر من هذه الدراسة<sup>(٥٤)</sup>. كما انها لم تشر الا الى اسمين يهوديين من غير غزة فهل يعني هذا، وفي أحسن الحالات، تساؤل عدد اليهود في غزة آنذاك.

وعلى أية حال فقد ذكر D. Sourdel<sup>(٥٥)</sup> ان عدد سكان غزة في عام ١٨٨٢ كان ١٦٠٠٠ نسمة، وبلغ في عام ١٩٠٦ ٤٠٠٠٠ نسمة، منهم ٧٥٠ مسيحيا و ١٦٠ يهوديا. ويفترض ان عدد هؤلاء كان أقل من ذلك في عام ١٨٨٢، أي قبل خمس سنوات من التاريخ الذي ذكر فيه (غات) وجود حارة للنصارى وأخرى لليهود في غزة.

أما عارف العارف، الذي طبع كتابه عن تاريخ غزة في عام ١٩٤٣، قد ذكر<sup>(٥٥)</sup> انه وجد في غزة القديمة خمسة احياء هي: الدرج، الزيتون، التفاح والشجاعية (بقسميها: الجديدة والتركان). ولم يذكر العارف الحدود الزمنية لغزة «القديمية»، ولا في أية فترة وجدت هذه الاحياء. وتقسيم الشجاعية الى الجديدة والتركان ربما ينطبق على فترة المؤلف، ولكنه لا يتفق مع محلات غزة، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر، حين كانت الجديدة والتركان خطين، من جملة خطوط في هذه المحلة.

وضمت محلات غزة، في فترة دراستنا، عددا كبيرا من الخطوط جاءت على ذكرها وثائق المحكمة الشرعية، واشتملت محلة السجاعة<sup>(٥٦)</sup> على الخطوط التالية: خط الجديدة، خط التركان<sup>(٥٧)</sup>، خط الاسكافية (ورد ايضا باسم خط السكافية)، خط المحكمة القديمة، خط الحمام (وقف آل رضوان) بزقاق الحزيراتي، خط الشيخ الغزالي (ورد ايضا باسم خط الغزالي)<sup>(٥٨)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى السيد علي المغربي (ورد أيضا باسم خط الشيخ علي المغربي أو خط السيد علي المغربي)<sup>(٥٩)</sup>، خط اولاد عياد، خط العيادة (ولعل التسميتين الاخيرتين لخط واحد)، خط بوابت ابو بكر (ورد ايضا باسم خط بوابت<sup>(٦٠)</sup> ابو كر)، خط ولي الله تعالى الشيخ نصر الدين، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عكري بن

مسافر (ورد ايضا باسم خط بن مسافر)<sup>(٦١)</sup>، خط الثقليسي، خط سوق الغزل، خط العابد<sup>(٦٢)</sup>، خط زقاق اولاد ححت، خط الباسطية<sup>(٦٣)</sup>، خط مسجد الشيخ محمد الطيار<sup>(٦٤)</sup>، خط ساقية خليل<sup>(٦٥)</sup>، خط خليل (لعل التسميتين لخط واحد)، خط المفتي، خط البازار (ضمن سوق السجاعية)، خط الباز (قد يكون هو نفسه خط البازار)<sup>(٦٦)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الظفر دمري<sup>(٦٧)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ سعيد (ورد ايضا باسم خط الشيخ سعيد)<sup>(٦٨)</sup>، خط الشيخ علي ابو الكاس<sup>(٦٩)</sup>، خط الواوحد، خط جامع شهاب الدين بن عثمان<sup>(٧٠)</sup>، خط ولي الله تعالى الشيخ المضلع (ورد ايضا باسم خط الشيخ مضلع)<sup>(٧١)</sup>، خط الجامع الكبير<sup>(٧٢)</sup>، خط حارة حلس، خط الترجمان، خط الطواشي، خط أولاد سهمود (ورد ايضا باسم خط سهمود)، خط مسجد محمد الهواشي<sup>(٧٣)</sup>، خط مسجد الست رقية<sup>(٧٤)</sup> (ورد ايضا باسم خط الست رقية).

وضمت محلة البرجلية الخطوط التالية: خط سوق الخضر، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ظريف<sup>(٧٥)</sup> (ورد ايضا باسم خط الشيخ ظريف)، خط زاوية الهنود<sup>(٧٦)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عياد<sup>(٧٧)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى فرج<sup>(٧٨)</sup> (ورد ايضا باسم خط الشيخ فرج)، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي<sup>(٧٩)</sup>، خط الشيخ محمد العراقي<sup>(٨٠)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى محمد الهليس<sup>(٨١)</sup> (ورد ايضا باسم خط الشيخ محمد الهليس)، خط بني عامر، خط الخرابة<sup>(٨٢)</sup>، خط سوق الفخار<sup>(٨٣)</sup>، خط خان الكتان<sup>(٨٤)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ علي الاندلسي<sup>(٨٥)</sup> (ورد ايضا باسم خط مسجد الاندلسي، وباسم خط الاندلسي)، خط حمام السوق، خط القهوة، خط الشيخ الاوزاعي<sup>(٨٦)</sup>، خط مسجد سيدي هاشم<sup>(٨٧)</sup>، خط مسجد العجمي<sup>(٨٨)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ منصور<sup>(٨٩)</sup>، خط جامع البلاطة<sup>(٩٠)</sup>، خط الشيخ شرف<sup>(٩١)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الازيكي<sup>(٩٢)</sup>، خط ساقية الدرج<sup>(٩٣)</sup>، خط البيطار<sup>(٩٤)</sup>، خط زاوية سيدي ابن مدين الغوث<sup>(٩٥)</sup>، خط القلعة<sup>(٩٦)</sup>، خط الجامع الكبير<sup>(٩٧)</sup>.

وضمت محلة الزيتون الخطوط التالية: خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عثمان قوشقار<sup>(٩٨)</sup> (ورد ايضا باسم خط الشيخ عثمان قوشقار)، خط الكمالية<sup>(٩٩)</sup>، خط الخضر، خط بوابت اولاد شبير<sup>(١٠٠)</sup>، خط ولي الله تعالى الشيخ عطية<sup>(١٠١)</sup>، خط مسجد الشمعة<sup>(١٠٢)</sup> (ورد ايضا باسم خط جامع الشمعة)، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ كاتب الاوليا<sup>(١٠٣)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد البطل<sup>(١٠٤)</sup> (ورد ايضا باسم

خط البطل)، خط جامع باب الدروب (ورد ايضا باسم خط باب الداروب)، خط ساقية القيدة<sup>(١٠٥)</sup> (ورد ايضا باسم القيدة)، خط الشيخ الياس (حيث وجد مقام الشيخ الياس، ولا نعلم اذا كان هذا نفسه مسجد الشيخ الياس الذي ذكرت الوثائق انه في خط الكمالية)<sup>(١٠٦)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد العجمي (ورد ايضا باسم خط مسجد الشيخ العجمي)<sup>(١٠٧)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ابي ركاب<sup>(١٠٨)</sup> (ورد ايضا باسم خط مقام ابي الركاب)، خط مسجد الشيخ الصيحاني<sup>(١٠٩)</sup>، خط آل رضوان، خط بوابت سليط، خط دار شرير<sup>(١١٠)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى عمر<sup>(١١١)</sup>، خط مسجد الوزيري<sup>(١١٢)</sup>.

واشتملت محلة الدرج<sup>(١١٣)</sup> على الخطوط التالية: خط مسجد الشيخ ظريف<sup>(١١٤)</sup>، خط الشيخ ذكري<sup>(١١٥)</sup>، خط الشيخ خالد<sup>(١١٦)</sup>، خط الخرابة<sup>(١١٧)</sup>، خط مسجد البلاطة<sup>(١١٨)</sup>، خط الفواخير<sup>(١١٩)</sup>، خط سوق الفخار<sup>(١٢٠)</sup> (ويبدو انهما خطان منفصلان)، خط بير الدولاب، خط الشيخ شعبان<sup>(١٢١)</sup>، خط البيمارستان<sup>(١٢٢)</sup>، خط الشيخ محمد الخروبي<sup>(١٢٣)</sup>.

وضمت محلة حكر التفاح (أو التفاح) الخطوط التالية: خط جامع الشيخ عبد الله الايكي<sup>(١٢٤)</sup> (ورد ايضا باسم خط جامع الشيخ عبد الله)، خط جامع المسكة<sup>(١٢٥)</sup>، خط ولي الله تعالى الشيخ عبد الرحمن بن سلطان، خط جامع القهوة<sup>(١٢٦)</sup>، خط القهوة<sup>(١٢٧)</sup> (لعلهما خط واحد)، خط جامع السدرة<sup>(١٢٨)</sup>، خط المعصرة، خط الجماحية، خط القاعات، خط زقاق الشرفا<sup>(١٢٩)</sup>.

واشتملت محلة الخضر على الخطوط التالية: خط حمام السمرة<sup>(١٣٠)</sup>، خط مسجد كاتب الاوليا<sup>(١٣١)</sup>، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ابي ركاب<sup>(١٣٢)</sup>، خط سوق الخضر، خط معصرة أولاد مكّي.

وضمت محلة بني عامر<sup>(١٣٣)</sup> خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي<sup>(١٣٤)</sup> (ورد ايضا باسم خط محمد المغربي، وخط الشيخ المغربي).

ويلاحظ في خطوط غزة ان عددا منها اجتاز محلتين متجاورتين واحتفظ باسمه في المحلتين، مثل خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي، الذي اجتاز محلتي البرجلية وبني عامر، وخط الجامع الكبير، الذي مر بمحلتي السجاعية والبرجلية، وخط مسجد الشيخ

الظريف الذي امتد في محلتي البرجلية والدرج، وخط مسجد البلاطة في كل من محلتي  
البرجلية والدرج، وخط مسجد كاتب الاوليا الذي مر بمحلتي الزيتون والخضر، وكذلك  
خط مسجد الشيخ ابي ركاب الذي مر بهاتين المحلتين، مما يدل على تجاوز الاحياء ذات  
الخطوط المشتركة وانفتاح المحلات على بعضها.

ويلاحظ كذلك ان معظم الخطوط تسمى باسم جامع أو مسجد فيها، مما يدل على كثرة  
الجوامع والمساجد في غزة عبر العصور. وتعتبر هذه الجوامع والمساجد من السمات العمرانية  
البارزة في غزة. ولا ندري هل استخدمت كلمتا «جامع» و «مسجد» بمعناهما، كما في  
أوج ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، اذ كانت تعقد في الجامع حلقات الدراسة في العلوم  
الدينية المختلفة في حين غلب على المسجد تدريس الشريعة<sup>(١٣٥)</sup>، أم انهما استخدمتا بمعنى  
آخر، أي ان الجامع حيث اقيمت صلاة الجمعة والصلوات الخمس، والمسجد حيث  
اقيمت الصلوات الخمس فقط، كما ذكر العارف<sup>(١٣٦)</sup> او انهما استخدمتا دون تمييز في  
الوظيفة والمعنى؟

ونستدل من كثرة الجوامع والمساجد في غزة على تاريخ حافل لها خلدهت هذه المجموعة  
من الابنية الدينية، التي حملت في تسمياتها بعض تاريخ المدينة وتاريخ بناتها. ويمكن ايضا ان  
نستشف من كثرة الجوامع والمساجد، والمحافظة عليها، الى حد كبير، درجة عالية من التدين  
والتقى عند السكان أكدها لجروؤهم في كل أمر، مهما صغر، الى القاضي الشرعي لتحكيم  
الشريعة، وكذلك مستوى عال من الالتزام بقواعد الدين، كما دلت على ذلك عدة امثلة في  
الوثائق<sup>(١٣٧)</sup>.

ولو أحصينا الجوامع والمساجد، التي ورد ذكرها في مختلف الخطوط في غزة، لتبين ان  
عددها ثمانية وثلاثون جامعا ومسجدا. وهناك مسجد آخر لم يسم خط باسمه، وهو مسجد  
المحكمة القديمة، في محلة السجاعية<sup>(١٣٨)</sup>، وكان بخط المحكمة القديمة. وذكرت الوثائق جامع  
الخضر دون ان تعين مكانه. وهناك مسجد عرف بمسجد الشيخ الياس (ورد ايضا لياس)،  
بخط الكمالية، في محلة الزيتون، علما بانه وجد خط في هذه المحلة عرف باسم خط الشيخ  
الياس<sup>(١٣٩)</sup>. ووجد مسجد باسم مسجد الكمالية، بخط الكمالية، في محلة الزيتون، وكذلك  
وجد مسجد الشيخ محمد العجان<sup>(١٤٠)</sup>، بمحلة الزيتون. وذكر وقف يخص مسجد جامع  
الحدرة، ولعل هذا المسجد، وليس فقط الوقف، في غزة. ولا نعلم تفاصيل اخرى عنه<sup>(١٤١)</sup>،  
مما يرفع عدد الجوامع والمساجد، التي ذكرتها الوثائق الشرعية، في فترة هذه الدراسة، الى اربعة

واربعين. وقد ذكرت الوثائق عددا من الزوايا، يفترض انها ضمت مساجد اخرى، ولكن ليس من نص صريح على ذلك في الوثائق، في حين ذكر العارف<sup>(١٤٢)</sup> ان لكل من الزاوية الاحمدية وزاوية الهنود مسجدا، مما يرفع عدد جوامع ومساجد غزة الى ستة واربعين. ولا ندري كم من هذه الجوامع والمساجد كان، في فترة دراستنا، بحالة تسمح بأن يؤمه المصلون. واستبعدنا خربة مسجد الجاولي، التي ذكرتها الوثائق، رغم ان كلمة «خربة» قد تعني مكانا خربا ملحقا بالمسجد، أو ان المسجد قد اصبح خربا، فأخذنا بالمعنى الثاني بدليل ما ذكره العارف (ص ٣٥٢) من ان هذا المسجد قد هدم أثناء حملة نابليون بوناپرت، وانه كان مندثرا في زمنه.

وإذا اعتبرنا ان عدد سكان غزة، في تلك الحقبة من الزمن، وفق تقديرات عدة، يساوي تقريبا ١٥٠.٠٠٠ نسمة، وان عدد المسلمين منهم حوالي ١٤٠.٠٠٠ نسمة، فيكون لكل ٣٠٤ أشخاص جامع أو مسجد. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان حوالي ثلث هؤلاء الاشخاص من الاطفال، بدليل ما سنلاحظه فيما بعد<sup>(١٤٣)</sup> من ان عدد غير البالغين فاق عدد البالغين، لاصبح لكل ٢٠٣ اشخاص جامع أو مسجد، مما يؤكد شدة التدين عند سكان غزة. ونستدل من ذلك ايضا ان الجوامع صغيرة. ويمكن معرفة ابعادها على اساس ما يحتاج اليه الرجل من مساحة لاداء الصلاة.

والى جانب الجوامع والمساجد، وجد في غزة عدد من الابنية الدينية الاخرى، مثل المزارات والزوايا. ولا تزودنا الوثائق الشرعية بمعلومات عن المزارات<sup>(١٤٤)</sup>، ولكنها ذكرت عددا من الزوايا. فهناك زاوية الهنود، بمحلة البرجلية، وقد تسمى خط باسمها<sup>(١٤٥)</sup>. وذكرت زاوية سيدي احمد البدوي بمناسبة الاشارة الى دكان اوقف عليها بسوق الصوافين بمحلة السجاعية<sup>(١٤٦)</sup>، ولا نستدل من ذلك على انها كانت فعلا في هذه السوق أو المحلة. ووجود هذه الزاوية في غزة دليل على تأثير مصري قوي فيها، لان سيدي احمد البدوي له مكانة صوفية مرموقة في مصر، وخاصة في طنطا، حيث توفي ودفن فيها في عام ١٢٧٥/١٢٧٦-١٢٧٧، واقيم له مقام مشهور<sup>(١٤٧)</sup>. وأشارت الوثائق الى الزاوية الاحمدية بمناسبة ذكر دار موقوفة عليها بمحلة الزيتون، بخط مسجد الشيخ الصيحاني<sup>(١٤٨)</sup>. وذكر العارف<sup>(١٤٩)</sup> ان مسجد الزاوية الاحمدية يقع في حي الدرج وانه كان عامرا في زمنه، وان انشاء هذه الزاوية قد تم على يد اتباع الطريقة البدوية، في أوائل القرن الثامن للهجرة، انتسابا منهم للسيد احمد البدوي، فهل يعني هذا ان الزاوية الاحمدية هي نفسها زاوية سيدي احمد

البدوي. واذا كان الامر كذلك، فلماذا أشارت الوثائق، خلال ست صفحات، الى الزاوية الاحمدية وزاوية سيدي أحمد البدوي. ولهذا نحتاج الى مزيد من الادلة لتتمكن من القول ان الزاويتين مستقلتان عن بعضهما، أو انهما تسميتان لزاوية واحدة.

وذكرت الوثائق زاوية المغاربة، ولعلها بخط مسجد الشيخ فرج، بمحلة البرجلية<sup>(١٥٠)</sup>. وتسمى احد خطوط محلة البرجلية بخط زاوية سيدي ابن مدين الغوث<sup>(١٥١)</sup>، مما يدل على وجود هذه الزاوية في ذلك الخط.

ووجد عدد من السبل في غزة ذكرت الوثائق منها سبيلا بسوق الخضر<sup>(١٥٢)</sup>، ولعله بخط سوق الخضر، في محلة الخضر، وسبيلا آخر بخط الاسكافية، في محلة السجاعية، بمناسبة وقف دكان صباغة عليه<sup>(١٥٣)</sup>. والمدرسة الوحيدة التي ذكرت في الوثائق هي المدرسة الحسنية، بمحلة البرجلية، تجاه الجامع الكبير<sup>(١٥٤)</sup>.

وذكرت الوثائق الشرعية عددا من الحمامات في غزة، مثل حمام السمرة بمحلة الخضر، وعرف خط باسمها<sup>(١٥٥)</sup>، وحمام السوق، بمحلة البرجلية، حيث عرف خط باسمها<sup>(١٥٦)</sup>، وحمام السجاعية «الذي شهرته بمحلة تغني عن وصفه»<sup>(١٥٧)</sup>، وحمام وقف آل رضوان، بمحلة السجاعية، بزقاق الحزيراني<sup>(١٥٨)</sup>، الذي تسمى خط باسمه، ويبدو ان حمام السوق، الذي اشارت اليه الوثائق، لم يكن حماما واحدا، وانما سمي كذلك نسبة الى السوق الذي وجد فيه، أي انه وجد في معظم الاسواق الرئيسية، على الاقل، حمام. فقد ذكر، مثلا، السوق الفوقاني، وفيه حمام السوق<sup>(١٥٩)</sup>، وسوق المسلخ، وفيه حمام السوق<sup>(١٦٠)</sup>.

وقد ميزت وثائق غزة الشرعية بين أنواع من الابنية السكنية، مثل الحوش والدار والبيت والقاعة. واكثر هذه الانواع تنوعا في اقسام البناء وفي الاستخدام هو الحوش. ووجود الاحوش باعداد كبيرة في غزة يدل على غلبة الطابع الزراعي على سكانها، لان الاساس في الحوش انه لا يواء الحيوانات المستخدمة في الزراعة، التي كانت تقيم في البايكة، ثم استعمل لاقامة اصحابها ايضا. وتطور الحوش، من الناحية السكنية، الى درجة الغيت معها البايكة في عدد من الحالات. وقد وصفت بايكة في حوش، تألفت من ست قناطر، بانها بايكة كبيرة، وكانت مسقوفة بالاحشاب<sup>(١٦١)</sup>. وقد تباع البايكة دون بقية الحوش<sup>(١٦٢)</sup>. وهناك أمثلة متعددة على بيعها بمفردها، وكانت في هذه الحالة اما ذات بناء مستقل في الاساس، او انها استخرجت من حوش<sup>(١٦٣)</sup>. ومن اجزاء الحوش الاساسية الساحة السماوية. ويلحق الحوش أحيانا بالدار، فيعرف عندئذ بحوش الدار (ولا علاقة لهذا بالتعبير الدارج ان حوش

الدار يعني ساحتها السماوية)، ويشكل، في هذه الحال، القسم البراني منها<sup>(١٦٤)</sup>. وإذا ألحق الحوش بمعصرة سمي بحوش المعصرة<sup>(١٦٥)</sup>. واشتمل الحوش، مثل الدار، على عدد من الآبار التي استخدمت لتخزين الغلال<sup>(١٦٦)</sup>. وأحيانا سمي مكان خزن الغلال بالكورة<sup>(١٦٧)</sup>

وقد لا يشتمل الحوش على بايكة، كما في المثال التالي، الذي كان الحوش فيه ملحقا بحاكورة: «المبيع ستة قراريط في جميع الحوش والحاكورة الكاينين داخل غزة بمحلة البرجلية بخط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الهليس... المشتمل الحوش المذكور على ايواين وخمسة قاعات معقدات بالحجر والجير وساحة سماوية بها بئرين معدين لتخزين الاغلال ومحل راحة وممر موصل الى الحاكورة المذكورة<sup>(١٦٨)</sup>». وأحاط بالحوش هذا دور سكن. ويلاحظ في هذا الحوش، رغم ضخامته، غياب البيوت السكنية فيه، وكذلك المطبخ، الذي هو لخدمة الساكنين. وقد وجد مطبخ، مثلا، في حوش اصغر، بمحلة السجاعية، بخط مسجد الست رقية «المشتمل على بيتين وخزانة ومطبخ مسقفات بالاختشاب وساحة سماوية»<sup>(١٦٩)</sup>، مما يدل على ان المطبخ كان لخدمة ساكني البيت. ومع ذلك فالمطبخ لم يكن موجودا باستمرار في دور السكن، ووجوده فيها يدل عادة على مستوى مادي متميز لاصحابها. واصغر حوش ورد ذكره، في فترة دراستنا، تألف من بيت واحد، مسقوف بالخشب، ولا توجد فيه ساحة سماوية او بايكة<sup>(١٧٠)</sup>.

واطلقت كلمة «دار» على مكان سكن الناس، وقد تضم بايكة<sup>(١٧١)</sup>، ولكن اسمها، في هذه الحال، لا يتحول الى حوش، لان الاساس فيها سكن الناس، والبايكة شيء اضافي. وضمت دار كبيرة، بمحلة البرجلية، بخط مسجد ولي الله تعالى الشيخ فرج «قاعتين عقد وثلاثة بيوت مسقفات بالخشب وثلاثة لواوين مسقفات بالخشب ومحل راحة عقد وساحة سماوية مفروشة بالبلاط بها سلمين (كذا) من الحجر احدهما يوصل الى قصر معقد بالحجر والجير وايوان واوضة مسقفين (كذا) بالخشب بجانب القصر المذكور ومحل راحة عقد والسلم الثاني موصل الى حضير فقط»<sup>(١٧٢)</sup>. ويستخدم الحضير عادة لتربية الحمام والدجاج، ووجد في معظم دور غزة، مما اضفى على المدينة صفة ريفية. ولتلك الدار بابان: احدهما جواني، يفتح على زقاق غير نافذ، ولعله لاستخدام الحریم، والآخر براني، يفتح على طريق سالك. ورغم ضخامة هذه الدار يلاحظ عدم وجود المطبخ فيها. وخصت الدار محمد آغا سليمان الذي باع ستة قراريط منها لابنه خليل آغا بثمن قدره ٦٠٠٠ قرش اسدي، مما يجعل سعرها معادلا ل ٢٤٠٠٠ قرش، وهذا ثمن من اغلى اثمان الدور في غزة في الفترة التي ندرسها.

ومما يلفت النظر في هذه الدار وجود طابق أعلى فيها، لأن معظم دور غزة كانت من طابق واحد ارضي. ولهذا الامر دلالاته. فلم تكن هناك من حاجة للتوسع عاموديا، مما يدل على توافر الارض للتوسع أفقيا. وربما كان السبب في ذلك ان طبيعة الارض ومواد البناء لم تكن مهياة لبناء طوابق عليا، كما ان حجم الاسرة الواحدة، والازدحام السكاني بصورة عامة، لم يبلغا درجة كبيرة يتحتم معها بناء طوابق عليا. وبالإضافة الى ذلك فالاجتمعات المحافظة تتحاشى عادة الطوابق العليا خشية أشرف ساكنيها على جيرانهم، وبالعكس.، واقتصر معظم دور غزة على طابق ارضي أعطى للمدينة امتدادا أفقيا، مع مراعاة ارتفاعها عن المناطق المحيطة بها بحوالي ثمانين متر<sup>(١٧٣)</sup>.

واصغر دار في غزة، ورد ذكرها في الوثائق، ضمت بيتا واحدا وساحة سماوية، وكانت بمحلة السجاعية، بخط المحكمة القديمة، وبيعت بثمان قدره ٨٠٠ قرش<sup>(١٧٤)</sup>. ولكن هذه لم تكن أرخص دار اذ بيعت دار بمحلة السجاعية، بخط الشيخ محمد الطيار، بثمان قدره ٥٥٠ قرشا، وكانت مستخرجة من دار اخرى<sup>(١٧٥)</sup>. وفي الحالتين كانت الدار، في الاصل، قسما من دار أكبر.

ولبعض الدور دهليز<sup>(١٧٦)</sup> أي دخلة طولانية تفصل الباب الخارجي عن ساحة الدار. والى جانب شيوخ الايوان أو الليوان، في الدور الكبيرة، وجد الرواق، ولكن بصورة أقل، وهو، على الغالب، مسقوف، مثل الايوان، بالخشب، ويختلف الرواق عن الايوان بطولانيته، في حين يكون الايوان مربعا، على الغالب، او مستطيلا. ويلاحظ في دور غزة عدم وجود الاقبية أو المغر فيها، واستخدمت هذه، عادة، لايواء الحيوانات، أو لحزن الحبوب، وعوضت عنها، في الحاليين، البايكة والآبار.

ولا توجد اشارة في الوثائق الى أماكن تجمع المياه في الدور. وقد استخدمت كلمة بئر لمكان خزن المؤونة والغلل. وذكرت الوثائق «ماء الاشبية النازل من السما»<sup>(١٧٧)</sup>، وذلك حين تقسيم دار ما وظهور خلاف حول مساره. ولكن لم يرد ذكر لمكان تجمع المياه، وهل سمي ذلك بالبئر أو بغير ذلك. ويبدو ان الدور كانت تشرب من السواقي او من السبل خارجها. وربما وجد فيها ما يشبه الآبار لجمع مياه المطر (الاشبية)، أو للوصول الى نبع ارضي. وكثرت في غزة ومنطقتها المياه الجوفية<sup>(١٧٨)</sup>، بدليل كثرة السواقي فيها، والحزام الاخضر من الاشجار الذي احاط بها وتحللها. ونقل المياه من الخارج الى اماكن استخدامها كان يتم بواسطة القرب. وذكر ان شخصا حصل على اذن بنقل الف قرية ماء، كل سنة، من احدى



السواقي، الى جامع كاتب الاوليا في غزة، لاستخدامها في الوضوء<sup>(١٧٩)</sup>. ويبدو ان مياه هذه القرب، بمعدل ثلاث قرب في اليوم، دعمت ما يوجد محليا، في الجامع، من الماء، الا اذا كان عدد المصلين في هذا الجامع محدودا لا يحتاج لاكثر من ثلاث قرب يوميا.

وخضعت معظم دور غزة الى التجزئة باستمرار، سواء من ناحية الملكية، حين كانت مشاعا ووجب تعيين أو فرز حصص الورثة، أو من ناحية الواقع، اذا ما رغب الورثة في أخذ حصصهم، ومن هنا تقسيم الدور، وخاصة اذا ما بيع قسم منها الى أناس من خارج الأسرة. وأقيمت جدران فاصلة، في هذه الحالات، وفتح باب آخر. وتم تقسيم الدور رغم ان الحصص فيها غير متكافئة، وربما سهل هذا عملية التقسيم<sup>(١٨٠)</sup>، وفي احدى الحالات كانت نسبة القسم الواحد الى الآخر عشرين قيراطا الى اربعة، واشتملت حصة صاحب القراريط الاربعة على بيت ومطبخ وساحة سماوية، مما يدل على كبر العقار<sup>(١٨١)</sup>. والخلاف الرئيسي الذي أثاره عادة تقسيم العقار، دار حول صعوبة تقسيم ماء المطر، وغالبا ما اتفق ان «يمر حسب عاداته»<sup>(١٨٢)</sup>.

والى جانب الحوش والدار ذكر البيت كعقار قائم بذاته. والبيت، في الاساس كان جزءا من الدار، وعمد الى اخراجه منها، احيانا، وبيعه بمفرده<sup>(١٨٣)</sup>. وشاري البيت، في هذه الحال، كان، في الغالب، صاحب دار مجاورة له رغب في ضمه اليها. أما البيت، كعقار مستقل، فغالبا ما كانت له ساحة سماوية، وشكل وحده اصغر من الدار. ونسبة وجوده في غزة لم تكن بقليلة، ولكنه كان أكثر في الريف منه في غزة<sup>(١٨٤)</sup>، مما يدل على ان الاوضاع المالية لقطاع من السكان لم تكن جيدة.

اما بالنسبة للقاعة، فقد اشتملت بعض دور غزة على قاعة واحدة أو أكثر، ودل وجودها، عادة، على اتساع الدار وثراء صاحبها، لانه غالبا ما استقبل زواره فيها. وعلى غرار البيت، امكن اخراج القاعة من الدار، وجعلها عقارا قائما بذاته<sup>(١٨٥)</sup>. وهناك أمثلة عن قاعات مستقلة، وربما بنيت كذلك، او استخرجت من دور، استخدمت للحياكة، وكانت موزعة في أنحاء غزة<sup>(١٨٦)</sup>.

وكانت مواد البناء من الحجر والجير، المعقودة ببعضها، بالنسبة للجدران، ومن الخشب بالنسبة للسقف. أما السلم، الذي يصعد عليه الى السطح، فكان، عادة، من الحجر. وفي الحالات النادرة التي وجد فيها طابق أعلى فقد بنيت جدرانه هو الآخر من الحجر والجير المعقدين، وسقف بالخشب. وفي احدى الحالات اشترط بائع دار على المشتري الا يحدث

على سطح الدار أي بناء الا بموافقته، ولعل سبب هذا الشرط رغبة البائع بتقاضي مبالغ اضافية، في حال البناء على السطح، أو ربما لان البائع يسكن، فعلا، في دار، لصيقة بالدار التي باعها ويخشى ان يشرف الطابق الاعلى، اذا ما بني، على داره.

ولم تذكر المادة التي بنيت منها ارض الساحة السماوية في الدار الا اذا كانت من البلاط<sup>(١٨٧)</sup> وهذا شيء متميز، لان الغالب ان تبنى الساحة من الحجارة المرصوفة، وليس في هذا الامر الشائع والمألوف من جديد يستدعي ذكره. وزرعت في الساحة السماوية، او في جانب منها على الاقل، اشجار متنوعة، ذكرت في احدى الحالات بانها شجر نخل ورمان وسدر. (١٨٨)

ويلاحظ في عمليات بيع العقارات عدم ورود ذكر لمساحة العقار ككل. وفي بعض الحالات، عند تقسيم دار ما، ذكرت مساحة الساحة السماوية بذراع البناء، او الذراع الاسلامبولي. (١٨٩)

وتنوعت طرق قبض ثمن العقار المباع، فاما ان يتم ذلك في المحكمة، وتستعمل عندئذ «عبارة مقبوض بالحضرة والمعينة»<sup>(١٩٠)</sup>، او عبارة «حالا مقبوضا»<sup>(١٩١)</sup> بيد البائع من المشتري، واما ان يعترف البائع، في المحكمة، بقبض الثمن، ويشار عندئذ الى ذلك «مقبوض بالاعتراف»<sup>(١٩٢)</sup>. والبيع اما ان يكون باتا<sup>(١٩٣)</sup>، اي نهائيا، لا رجعة عنه، وان كان فيه غبن، او ان يكون بالوعد، اي ان يتم دفع الثمن بعد فترة معينة، ويبيع عندئذ البائع للمشتري استخدام العقار قبل الدفع. وحدث ايضا ان البائع قبض ثمن عقاره، ولكن المشتري وعده يرد العقار له ان جاءه بالثمن الذي اخذه بعد فترة، وابع البائع للمشتري استخدام العقار في هذه الفترة، وسمي هذا ((بيع وعد بالاباحة))<sup>(١٩٤)</sup>. وفي هذا نوع من انواع الفائدة. (١٩٥) وذكر احيانا، في عملية البيع ان كلا من البائع والشاري ابرأ واحدهما الآخر من دعوى العذر والاعراض والغبن الفاحش وإلا رد القاضي عملية البيع بسبب ذلك<sup>(١٩٦)</sup>. واستخدمت عملية المقاصصة، اي اقتطاع مبلغ بذمة البائع، او بذمة من يقبل به البائع، للمشتري من اصل ثمن الشراء. (١٩٧) وكثرت المقاصصة في المخالعة، واشير اليها انها مقاصصة شرعية<sup>(١٩٨)</sup>.

وحين شراء عقار ما، ذكر اذا كان المشتري يشتري العقار بماله لنفسه دون مال غيره<sup>(١٩٩)</sup>، او انه يقوم بالشراء بالوكالة عن شخص آخر<sup>(٢٠٠)</sup>، او جزئيا بماله وايضا بالوكالة عن غيره<sup>(٢٠١)</sup>. كما ذكر احيانا (في دمشق آنذاك باستمرار) فيما اذا كان البائع قد آل اليه العقار عن طريق الشراء ام الارث<sup>(٢٠٢)</sup>، وفيما اذا كان يقوم بالبيع بطريق الوكالة<sup>(٢٠٣)</sup>، او

بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن غيره في ان (٢٠٤). وتم ايضا البيع والشراء بطريق الولاية عن قاصر (٢٠٥). وهذه المعلومات اهميتها لانها تدلنا على طريق انتقال الملكية، بالشراء ام بالارث، وما يترتب على ذلك من اوضاع اجتماعية واقتصادية.

وذكر في معظم عمليات شراء العقارات التي تمت في عام ١٢٧٣/١٨٥٦-١٨٥٧، ومطلع العام التالي، العبارة التالية: ((بشمن قدره (كذا) وصره مجهولة القدر مستهلكة بالمجلس)) (٢٠٦). وهذا يعني ان صرحة طعام، احضرها الشاري الى المجلس (مجلس عقد البيع) (٢٠٧) في المحكمة، كما يرجح، قد استهلكت فيه من قبل الحاضرين، احتفالا بعملية الشراء. وفي حالات قليلة، ذكر ان الصرحة مقبوضة بالاعتراف (٢٠٨)، وقد تعني انها استهلكت في غير المكان والتاريخ، او ربما حصل وعد بها. وعدم ذكر الصرحة في عقود البيع التي تمت في بقية عام ١٢٧٤ وما بعد، ربما يدل على ان هذه العادة قد بطلت، اكثر من انها قد رسخت ولم تعد من ضرورة لذكرها، لانه لا يعقل ان تكون قد بدأت قبل فترة قصيرة.

وروعيت شفعة الجوار بدقة في عمليات بيع العقارات. والنهي البيع، لصالح الشفيع، في عدد من الحالات (٢٠٩). وفي حال علم الشفيع بعملية الشراء، وعدم مطالبته بذلك مباشرة ( لم يرد ذكر لطول المهلة المعطاة للشفيع للمطالبة)، فقد حقه بالمطالبة بالشفعة. وطلب القاضي عادة الى الشهود، الذين عدلهم ( أي زكاهم وشهد بصحة اقوالهم ) آخرون، اثبات حق الشفعة (٢١٠). وحق الشفعة لا يورث. فقد اشترت امرأة، لها ولاختها، حصة شائعة في كرم، في أواخر ربيع الثاني ١٢٥٢ / اواسط آب ١٨٣٦، وحين احتج على هذا الشراء وارث لكرم مجاور، بعد اكثر من عشرين سنة، في ٣ رمضان ١٢٧٣ / ٢٧ نيسان ١٨٥٧، بشفعة الجوار، رفضت المرأة التسليم للجوار بحق الشفعة، لان والده من قبله لم يطالب من بشفعة الجوار، حين كان حيا، وان جوار الابن لكرمها قد ورثه عن ابيه. وقضى القاضي بأن لا شفعة للابن لان الشفعة لا تورث، ومنعه من معارضة المرأة (٢١١). والاراضي الموقوفة لا تجري فيها الشفعة بالنسبة للعقارات المبنية عليها، والتي هي ملك للافراد، يتصرفون فيها بيعا وشراء، لان الاساس هو الارض.

واستخدام حق التصرف في العقار، فترة من الزمن، تراوحت، في اربعة امثلة من وثائق غزة، بين ثلاث عشرة سنة، وما يزيد عن اثنتين وثلاثين سنة (٢١٢)، لمنع مالك العقار من المطالبة بعقاره من المتصرف به، واعتبر المتصرف بالعقار بمثابة مالك له، بعد ان ثبت تصرفه به، هدمًا وبناء وغير ذلك، وبعد ان ثبت لدى القاضي، بافادات الشهود، ان مالك العقار لم يعارض المتصرف بالعقار طيلة تلك الفترة. وتمتع وارث المتصرف بالعقار بحقوق مورثه، في

هذا المجال، وضمت فترة تصرف المتصرف الى مدة تصرف الوراثة، وذلك لمنع المالك من المطالبة بعقاره، نظرا لطول المدة مجتمعة، لتصرف كل من المورث والوراثة، حتى لو اثبت المالك انه تغيب عن البلدة في بعض الاوقات ولم يستطع معارضة المتصرف، فالمهم انه علم بالامر، ولم يحتج طيلة تلك المدة.

### ٣ - مظاهر اجتماعية :

يمكننا التعرف على هوية معظم سكان الخطوط والمحلات المختلفة في غزة، ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية، المتمثلة في حجم دورهم، واتساع ملكيتهم، وعدد افراد اسرهم، وكذلك التعرف على مدى تجمع، او انتشار الاسر المتقاربة في النسب، او الاصول، او المذهب، من خلال دراسة بيع الدور وشرائها، كلها او اجزاء منها، وكذلك تقسيمها، وتعيين حصص الورثة فيها. وطبيعي ان احصاء كهذا لا يشمل جميع الدور، ولكن تحديد موقع الدور المباعة، والمقسمة، من جهاتها الاربع (لانه غالبا ما كانت الجهة المطلة على طريق سالك، او زقاق غير نافذ، يتممها عقار آخر، كما ان اكثر من عقار واحد شكل الحدود في جهة ما)، كفيل بذكر ثلاث دور، على الاقل، واحيانا اربع، او اكثر، بمقابل كل دار خضعت للعملية شراء او مقاسمة. وبذلك نضمن ذكر معظم دور الخط والحى، وبالتالي المدينة ككل.

وبالاضافة الى المعلومات، التي تزودنا بها الوثائق، بخصوص التركيب الاجتماعي والاقتصادي لسكان مدينة غزة وريفها، وللمقيمين والمتوطنين فيها من النزلاء، وخاصة من المصريين، الذين كان عددهم كبيرا، يمكننا معرفة حجم الاسرة، ونسبة الاناث الى الذكور، ومستوى الدخل، وعمليات توظيف رأس المال والربح، من دراسة ضبوط تركات المتوفين.

ويلاحظ من مواقع الدور وأثمانها ان اي خط او محلة لم يكونا مقتصرين على طبقة اجتماعية او اقتصادية معينة. ونجد الدور ذات الأثمان العالية تجاور دورا ذات اثمان متدنية. ومع ذلك فهناك خطوط دورها اكثر تواضعا في الثمن، بصورة عامة، من دور خطوط اخرى. مثلا دور خط مسجد الشيخ عثمان قوشقار، بمحلة الزيتون، اكثر ثمنا من دور خط جامع (او مسجد) الشمعة. ودور الخط الاخير اكثر ثمنا من دور خط البطل، علما بان الخطين الاخيرين هما ايضا من خطوط محلة الزيتون.

ويلاحظ في خطوط محلة الزيتون ان بعضها كثرت فيه الحواكير، مثل خط الكمالية، مما يدل على وقوعها على اطراف المحلة المتاخمة لحدود المدينة، وبعضها الآخر كثرت فيه الاحواش والبايكات، مثل خط ساقية القيدة، مما يدل على اصول ريفية لساكنيها، وعلى علاقتهم الزراعية.

وكثرت الخرائب في انحاء غزة<sup>(٢١٣)</sup>. وهناك خطوط تميزت في هذا المجال، فعرف واحدها بخط الخرابية، كما في خط الخرابية بمحلة الدرج<sup>(٢١٤)</sup>، وخط الخرابية بمحلة البرجلية<sup>(٢١٥)</sup>. ويفترض ان تكون هذه الخطوط اكثر فقرا من غيرها. وكثرة الخرائب، بالنسبة لدور بكاملها، او لاجزاء من دور مسكونة، في مختلف انحاء غزة، دليل، من ناحية، على ضعف النشاط العمراني، ومن ناحية اخرى، على الضيق الاقتصادي، بالنسبة لبعض قطاعات السكان على الاقل. كما انه دليل على توافر الارض، وعلى عدم وجود ضرورة لتوسع الساحة المعمورة في غزة، ربما بسبب عدم ازدياد السكان بشكل كبير، وبالتالي عدم وجود الحاجة لاشغال جميع مناطق السكن في المدينة.

ولعل شيوع العقارات، الذي يلاحظ بكثرة في ممتلكات غزة، دليل على الصعوبات التي واجهت عملية بناء، او بيع، عقار تهدم كله او جزء منه، وكثيرا ما قسمت بيوت كبيرة، وحتى صغيرة، بين الورثة<sup>(٢١٦)</sup>، كما سبق القول<sup>(٢١٧)</sup>. وهذا التفتت في الملكية اوجد دورا كبيرة الى جانب الصغيرة، اذ نتجت عن ذلك محاولات لتجميع الملكية في مكان معين كأن يعمد صاحب دار الى شراء عدد من القراريط في دار مجاورة له ويضمها الى داره، او يطمح الى شراء بقية الدار ليجعل منها دارا اخرى، الى جانب داره. ولم تكن هذه القاعدة مطلقة، اذ كثيرا ما بيعت حصة من دار مشاع الى اشخاص اغراب عن المنطقة، وحيانا عن المذهب، مما يدل على ملكية صغيرة ومتساعمة تحرص على ايجاد مكان للسكن بالدرجة الاولى وقبل اي اعتبار آخر. وهذا الاقبال على شراء، او بيع الدور، او الحصص الشائعة فيها، ربما يفسر الغياب الملحوظ لعمليات تأجير الدور و اجزائها، بشكل فاق معه نسبة الايجارات التي قد لا تسجل في المحكمة الا في حالة خلاف، وذلك بالمقارنة مع كثرة عقود الايجار في دمشق، مثلا، في الفترة ذاتها.

ويلاحظ كذلك ان العادة، عند بيع عقار او جزء منه، ان يسجل في المحكمة، اي في حجة البيع او الشراء، نوع ملكية الجزء المباع، وهل انتقلت ملكيته لبائعه، في الاصل، عن طريق الشراء او الارث<sup>(٢١٨)</sup>. ومن دراسة عقود البيع والشراء في سجل غزة الشرعي، في فترة

دراستنا، يتبين لنا ان معظم اجزاء الدور المباعة قد استكملت عن طريق الارث، وان مشتريها كانوا من الورثة. ونتج عن ذلك تجميع الملكية في يد واحدة، والتخلص قدر الامكان من شيوع العقار<sup>(٢١٩)</sup>. كما بيع عدد من العقارات، او اجزاء منها، بسبب وجود المسوغ الشرعي لبيعها، وهو احتياج القاصرين، من الورثة، للنفقة، او بسبب غرق التركة بالديون<sup>(٢٢٠)</sup>. ولعبت النساء دورا هاما في شراء العقارات، او حصص منها، لانهن تمتعن بثروة مجمدة، كسبنها عن طريق ارث او نفقة، ووظفنها بشراء العقارات او الحلي، او في الديون. كما انهن ادخرن المال، بصورة عامة، اكثر من الرجال<sup>(٢٢١)</sup>.

ويلاحظ انه لم يكن هناك من محلة او خط خاص بالمسيحيين في غزة في فترة دراستنا. فقد سكن هؤلاء في عدد من خطوط محلة الزيتون، كما سكنوا في محلات اخرى، مثل محلة الخضر ومحلة الدرج. وكان المسيحيون اقل سكنا في حي السجاعة والبرجلية مثلا. ووجود المسيحيين في خطوط ومحلات معينة، اكثر من وجودهم في خطوط ومحلات اخرى، ربما يفسر بقلة نسبتهم العددية الى باقي السكان<sup>(٢٢٢)</sup>، الامر الذي لا يمكنهم من الانتشار بصورة متساوية في مختلف محلات غزة وخطوطها. ولم تكن امكنة عمل المسيحيين ملاصقة لمناطق سكنهم، بل نجدهم يشغلون دكاكين في قسبة السوق الرئيسية، في حي السجاعة مثلا. ولم تكن دور المسيحيين متوقعة على بعضها، في الخطوط والمحلات التي وجدت فيها، بل جاورت دور المسلمين، كما في المثال التالي: دار شايعة في خط (مسجد) الشيخ عثمان قوشقار، بمحلة الزيتون، اشترت فيها حبيبة بنت ابراهيم الخوري اربعة قراريط ونصف قيراط، البايع ولدها عبد النور بن يوسف حديدة، الثمن ١٥٠٠ قرش صاغ مقبوضة بالاعتراف، حدها قلة الزقاق الغير نافذ، وفيه الباب، وشرقا دار السيد محمد بن السيد مصطفى العلمي ومن يشركه، وشمالا حوش الحاج حسن بن الحاج احمد البورنو، وغربا دار ايوب بن الياس الحداد، وكان للمشترية ومن يشركها حصة بالدار<sup>(٢٢٣)</sup>. ونلاحظ في عمليات بيع وشراء العقارات، ان ذلك لم يكن ضمن اطار الطائفة الواحدة، بل شارك فيها كما اية سلعة اخرى، مسلمون ومسيحيون، مما يدل على عدم تقوقع الطوائف في امكنة معينة، وعلى اختلاط دورهم. وهناك امثلة عن اشتراك الفريقين حتى في ملكية عقار واحد، مثل الدار، في محلة الزيتون، بخط مسجد الوزيري، التي اشترى فيها كل من الشقيقين، موسى و خليل، ولدى المعلم ايوب مخايل الرومي، سوية بينهما، اثني عشر قيراطا. وكان البايع حمودة ابن المرحوم سليمان شبلاق، الوكيل الشرعي عن الحرمة خديجة بنت المرحوم حسين شبلاق، بثمن قدره ٣٦٠٠ قرش اسدي، شركة الحرمة زبيدة اخت البائعة بحق الباقي. وحد هذه الدار قلة دار

ورثة المرحوم محمد ابو عاصي المناخلي ومن يشركهم، وشرقاً دار ورثة المرحوم مصطفى المنون، وشمالاً الزقاق الغير النافذ وتمامة دار ورثة المرحوم درويش السوق ومن يشركهم، وغرباً الطريق السالك وفيها الباب (٢٢٤). ثم استأجر يوسف، احد المشتريين، من الحاج احمد شبلاق، وكيل الحرمة زبيدة بنت المرحوم حسين شبلاق فأجره الموكل المذكور نصف الدار المرقومة اعلاه، شركة بها مدة خمس سنين، باجرة قدرها ٣٠٠ قرش اسدي، واذن له الوكيل بصرفها في عمارة الحصة المذكورة بمعرفته (٢٢٥). ويلاحظ من المثال السابق، بالاضافة الى التسامح وانتفاء التكتل الطائفي، ان الاجرة السنوية لنصف الدار، التي عادت ٦٠ قرشاً، تشكل نسبة ضئيلة من ثمن المأجور، اذ تقدر ب١٦٦٦ر٪ من ثمنه البالغ ٣٦٠٠ قرش.

ومما يدل على عدم رغبة المسيحيين في التوقع او التكتل انهم لم يحاولوا شراء دور لمسلمين جاورت دورهم، حين طرحت هذه الدور للبيع، بل اشتراها مسلمون آخرون، ولم يستغل المسيحيون شفعة الجوار لتملكها (٢٢٦).

وهكذا. فلم تكن في غزة، في فترة دراستنا على الاقل، محلة او خط خاصين بالمسيحيين، حرصوا على حصر ملكيتهم فيها، كما انهم لم يمتنعوا عن بيع العقارات للمسلمين او شرائها منهم. وما ورد في مقال (غات)، في عام ١٨٨٧، ومن نقل عنه، من ان هناك حارة خاصة بالنصارى، مما قد ينطبق على الفترة التي كتب عنها، ليس هناك ما يؤكد في وثائق غزة الشرعية، في فترة دراستنا (٢٢٧).

كما انه ليس من دليل، في الوثائق الشرعية، في الفترة التي درسناها، على وجود حارة خاصة باليهود في غزة، كما جاء في المقال المشار اليه، ولعل ذلك قد حدث في فترة لاحقة للوثائق التي ندرسها، والتي تقف عند عام ١٢٧٧/١٨٦١. واذا صح ذلك فانه يعني ان هجرة مكثفة لليهود الى غزة قد تمت خلال حوالي خمس وعشرين سنة، اي بين ١٨٦١ و ١٨٨٧، استوجب فرزاً طائفيًا بين السكان. وجاء ذكر اليهود مرتين في وثائق غزة الشرعية التي استخدمناها، وفي المرتين لم يكن هؤلاء اليهود من سكان غزة. ففي المرة الاولى اشارة الى شلوه اليهودي اليافي، الذي استأجر اوضة (غرفة) بخان الزيت في غزة، محل الكمرك، وضع فيها امتعته ودراهمه، ثم نقلها وتوجه الى اسكلة يافا. وعند رجوعه ادعى ان ممتلكاته في الاوضة سرقت، واتهم اناسا حلفوا ان لا علاقة لهم بذلك. وعجز شلوه عن اثبات التهمة عليهم، فمنع من معارضتهم (٢٢٨). والمرة الثانية حين اشترى الخواجة معتوق مسعد، بطريق الوكالة الشرعية عن الحرمة رحيل بنت ساسون الجوهري البغدادي اليهودي، بتاريخ ١٧ محرم

١٢٧٥/٢٧ آب ١٨٥٨ حصة من سبعة قراريط ونصف قيراط وربيع قيراط وثمن قيراط وثلاثة ارباع ثمن قيراط في الدار الكائنة داخل اسكلة يافا، المعروفة بدار الكنفاني، بخط حارة اليهود<sup>(٢٢٩)</sup>. ففي الحالة الاولى كان شلوه من يافا، وفي الحالة الثانية لا نعرف مكان اقامة رحيل بالضبط، وليست نسبة ايها بالبغدادي بكافية للاستنتاج على ان مكان اقامتها كان في بغداد او في غزة، ولكن شراءها قسما من دار في يافا يدل على علاقتها بذلك البلد ان لم يكن على اقامتها فيه. واجراء البيع والشراء امام قاضي غزة ربما يفسر بان البائعين اقاموا في غزة، او ان وكيلهم، على الاقل، الذي اجري عملية البيع، كان من سكان هذه المدينة ومن المقيمين فيها. ولم يكن امر تسجيل حجج البيع في محكمة غير محكمة المدينة التي يوجد فيها العقار المباع بالامر الممنوع، بل كان ذلك شائعا آنذاك الى درجة استدعت اصدار امر من والي القدس الى قاضي غزة بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥/٧ كانون الثاني ١٨٥٩، اي بعد اربعة اشهر ونصف من صدور حجة البيع العائدة لرحيل، طلب فيه التدقيق في عملية انتقال الاملاك، وعدم تعاطي بيع اي عقار خارج منطقة القاضي «فبعد الآن اذا تعاطيتم عملا مخلا بهذه النظامات وانوجد حجة بيع وانتقال بعد الذي حصل ليس مستوفيا النظام المقرر او حررتم حجة بيع محل واقعا بالقدس او في محل خارج نيابتكم فلا نقدر نصمت عن اجري الترية اللازمة»<sup>(٢٣٠)</sup>.

ولو نظرنا الى مجموع السكان في غزة لوجدنا انسجاما ومساواة في التعامل، بين اتباع مختلف المذاهب. مثلا، اعتمدت شهادات المسيحيين في المحكمة، بالنسبة للمسلمين، والعكس بالعكس. كما ان دور السكن، كما لاحظنا، اختلطت ببعضها. واستدان اتباع المذاهب المختلفة بعضهم من البعض الآخر، وتشاركوا في اعمال ومشروعات تجارية واحدة. ولم يعطل هذا التعايش بعض مظاهر التمييز، التي كانت شائعة آنذاك في الدولة العثمانية، كأن يشار الى المسيحي بالذمي، او النصراني، وان يلقب بالمدعو، او الخواجة، وان تستخدم كلمة «ولد» حين نسبته، وليس «ابن» التي كني بها المسلمون. اما كلمة «المعلم»، التي اشير بها الى عدد من المسيحيين والمسلمين فيبدو انها كانت ذات مدلول حرفي، تشير الى اتقانهم الحرفة، وتعادها كلمة «اوسطة»، المحرفة من «استاذ» الفارسية الاصل. ولم يكن وجود المسيحيين طارئا في غزة بل كانوا من سكانها الاصليين بدليل اشارة الوثائق لاحدهم بانه من نصارة غزة.

ولم تشر وثائق غزة، في فترة دراستنا، الى المذاهب المسيحية المختلفة فيها. وهناك اشارة في احدى الوثائق الى بيع الحرمة مارية بنت روافيل القبطي دارا لها بمحلة الزيتون بغزة<sup>(٢٣١)</sup>. فاذا



كانت كلمة «القبطي» تشير الى مذهبها، فيعني ذلك ان اقباطا من مصر هاجروا، مثل المسلمين، الى غزة. وهناك اشارة الى ان صراف كمر ك غزة كان زنون الارمني (وامين الكمر ك جناب حمدي افندي)، ولا نعلم الى اي مذهب مسيحي انتسب زنون<sup>(٢٣٢)</sup>. ولكن امرا اصدره والي القدس الى قاضي غزة، علمي زادة السيد مصطفى افندي، بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥/ (٧ كانون الثاني ١٧٥٩)، اشار الى وجوب التفحص عن هوية مشتري العقار، وهل «هو من تبعة الدولة العلية ام لا وكيفية الوقوف على هذه الحقيقة يكون من راس الملة المنسوب اليها اعني ان كان من المسيحيين ورومي المذهب مثلا ام خلافة فيصير الاستعلام من رأس ملته ومتى اخذ الجواب انه من تبعة الدولة العلية وتبين محليا سلامة جميع ذلك الخل من المحذور ملكا وموقعا فعندها يصير الرخصة من الحكومة بتحرير حجة وسند البيع للمشتري كما يوفق اصول الشرع»<sup>(٢٣٣)</sup>. ونلاحظ ان الامر خص المسيحيين من اصحاب الممل، ربما لعدم وجود غيرهم، كما انه خص ذكر المذهب الرومي، اي الاثوذكسي، المعروف والمعتمد في الدولة العثمانية. وأشار ضمنا الى وجود مذاهب اخرى، ربما كانت هي المعنية بالامر الصادر، لان طلب التأكيد من ان المشتري يجب ان يكون من تبعة الدولة العلية يعني ان اناسا من غير هذه التبعة كانوا يشترون العقارات بشكل مخالف لاصول الشريعة. ولعل في هذا ما يدل على تهافت الاجانب على شراء العقارات في غزة، وربما في غيرها.

وقد اكدت الدولة العثمانية، في فترة التنظيمات، وفي اعقاب صدور خط شريف همايون في عام ١٨٥٦ وقانون العقوبات الجديد في ١٨٥٨، على المساواة بين سكان الدولة، بقطع النظر عن مذهبهم. ففي ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٤/ (٦ آب ١٨٥٨)، بعث والي القدس بأمر الى قائم مقام غزة، وكبار موظفيها، يبلغهم بوجوب تطبيق المساواة العادلة بين جميع السكان «من كل صنف وتبعة ومن اي ملة ومذهب»، عملا بأوامر الدولة العثمانية<sup>(٢٣٤)</sup>.

ولو استعرضنا تركات المتوفين في غزة، في فترة دراستنا، لوجدنا معلومات هامة تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها. وهناك بضع ملاحظات، في هذا المجال، يجدر ذكرها اولا. فالمعتاد ان تنظم ضبوط التركات، في المدن الكبيرة، من قبل قسام عربي، او بلدي، فيما يتعلق بالمدينين، ومن قبل قسام عسكري، فيما يتعلق بالعسكريين. ونظرا لوجود نائب قاض حنفي واحد، وبالتالي محكمة واحدة في غزة، فقد نظرت هذه المحكمة في تركات المتوفين بعامه. والمعتاد ايضا، كما في دمشق مثلا، ان تذكر تركات كافة المتوفين، على اختلاف مذاهبهم وثرواتهم واجناسهم، في سجلات القسام، التي اشير اليها بالخلفات،

وذلك بشكل متتال، وليس وفق ترتيب معين، كأن يخصص سجل، أو جزء منه، للمتوفين من غير المسلمين، أو للنساء أو للريفين. ورغم ان سجل الوثائق الشرعية في غزة، الذي اعتمدها، ذكر مخلفات نساء توفين فيها، فانه لم يذكر المتوفين في الريف التابع لغزة، باستثناء حالتين، احدهما لشخص توفي بقرية الدوايمة<sup>(٢٣٥)</sup>، والاخرى لآخر توفي بخان يونس<sup>(٢٣٦)</sup>، وكلاهما من موظفي كرتينة غزة. اما الذين يحملون، مثلا، نسبة «الجبالي»<sup>(٢٣٧)</sup> او «الرملي»<sup>(٢٣٨)</sup> من المتوفين الذين ذكرت ضبوط تركاتهم، فهم من سكان غزة الذين احتفظوا باصوهم الريفية في اسمائهم. ولم يرد في ضبوط المتوفين في سجل محكمة غزة ذكر للمتوفين من النصارى.

ومن الملاحظات الاخرى على ضبوط التركات ما جاء في المراسلة التي وجهها قاضي القدس «ملا افندي الديار القدسية»، الى نائب القضاء في غزة، بمناسبة تعيين هذا الاخير في منصبه، حين اوكل اليه، من جملة ما اوكل «تحرير التركات الغير جسيمة وتوزيعها بين مستحقيها بالفريضة الشرعية»<sup>(٢٣٩)</sup>. ولا نعلم أهذا التقييد شىء جديد ام انه تذكير بقاعدة اهملها القاضي. فاذا طبقت بجذافيرها فهذا يعني ان قاضي غزة (نائب القضاء فيها) لم ينظر في التركات الكبيرة، التي يفترض ان امرها قد اوكل الى قاضي القدس. ولا ندري، في حال تطبيع ذلك ما اذا كان ضبط هذه التركات قد سجلت صورة عنه في سجل محكمة غزة. ولا نعرف، كذلك، سقف التركة، الذي لم يسمح لقاضي غزة بأن يتجاوزه، او بمعنى آخر ما هي حدود «التركات الغير جسيمة»، التي سمح له بالنظر فيها. وبتفحص ضبوط التركات في سجل الرسوم والمصارف المترتبة على التركة<sup>(٢٤٠)</sup>.

وبلغ عدد ضبوط التركات، التي سجلت في سجل غزة الذي اعتمدها، ستا وخمسين ضبطاً، تاريخ اقدمها ٢٨ جمادى الاول ١٢٧٣/ (٢٤ كانون الثاني ١٨٥٧)<sup>(٢٤١)</sup>، وتاريخ احدثها حوالي منتصف جمادى الثاني ١٢٧٧/ (اواخر كانون الاول ١٨٦٠)<sup>(٢٤٢)</sup>، وهي حدود السنوات التي يعالجها السجل. ومن مجموع التركات هذه، خصت ثمان منها نساء توفين. واذا اعتبرنا ان عدد سكان غزة قدر، في فترة دراستنا، بحوالي خمسة عشر الف نسمة، فان وفاة ست وخمسين منهم على مدى حوالي اربع سنوات يعتبر نسبة ضئيلة، رغم ان معظم المتوفين كانوا من اصحاب الاسر. ولم تذكر الوثائق من توفي من القاصري، ولا بد ان نسبتهم كانت كبيرة. واذا صعب اتخاذ ضبوط التركات كمؤشر لمعرفة نسبة الوفيات بين السكان، فان دراستها، اذا ما اخذناها كعينة، توصلنا الى نتائج اجتماعية واقتصادية هامة.

ويلاحظ في تركت الرجال الثانية والاربعين المتوفين ان اربعة منهم لم تذكر لهم زوجات، او اولاد على قيد الحياة، حين توفوا. وربما كانوا غير متزوجين، او متزوجين ماتت زوجاتهم، وان ستة منهم كانت لكل منهم زوجتان، مما يدل على تدني نسبة تعدد الزوجات. كما انه لم ترد اية حالة بلغت فيها زوجات شخص واحد، خلفن له اولاد وكن في عصمته حين وفاته، اكثر من زوجتين، وفي حالة واحدة كانت احدى الزوجتين قاصرة. وطبيعي ان الزوجات اللواتي طلقن، دون ان يخلفن اولاد، لم يذكرن، لانهم لا يرثن، في حين يذكر الاولاد من زوجة سابقة، لم يشر الى اسمها، لانها لم تكن في عصمة صاحب التركة حين وفاته.

ونلاحظ ان عدد الابناء البالغين، من الجنسين، للرجال المتوفين الاربعة والاربعين، بلغ واحدا وخمسين (منهم ٢٩ من الذكور و ٢٢ من الاناث)، وعدد القاصرين بلغ تسعين (منهم ٤٤ ذكرا و ٤٦ انثى)، اي ان مجموع الانباء، من بالغين وقاصرين، كان ١٤١. وبذلك يكون وسطي ابناء الاسرة ثلاثة، وهذه نسبة قليلة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الطبيعة الزراعية لسكان غزة ومنطقتها. ويتبين ايضا ان عدد الاناث بين الابناء ال ١٤، كان ٦٨ انثى، اي بنسبة ٤٨٪، ولكن نسبة الاناث بين مجموع القاصرين، وهو ٩٠، بلغت حوالي ٥١٪، في حين بلغت من مجموع البالغين، وهو ٥١، حوالي ٤٣٪. وربما يفسر هذا التدني في نسبة الاناث بين البالغين بقلّة الرعاية التي تمتعت بها الاناث، حين كن قاصرات، مما ادى الى ارتفاع نسبة الوفيات بينهن.

ونتج عن كثرة عدد الاناث بين ورثة المتوفين تجزئة الارث الى حصص اكثر مما لو كان العدد الاكبر، من الورثة، من البنين. وحدث مثل ذلك بالنسبة لتعدد الزوجات، لان الثلث قسم بينهن مهما كان عددهن. واذا اعتبرنا ان المرأة عندما تتزوج لا تنفق على نفسها بل ينفق زوجها عليها، حتى بعد طلاقها، وذلك خلال عدتها الشهرية، كما تشير عشرات الوثائق في غزة، فانها على حصتها في الميراث، تدخر كمية لا بأس بها من المال، وتوظف ذلك في ميادين مختلفة، مثل شراء العقارات، والحلي، وعقد الديون، بالدرجة الاولى لزوجها، واولادها، ثم للآخرين.

ولعل اهم استنتاج ديموغرافي نصل اليه من دراسة التركات هو النسبة الكبيرة من الابناء القاصرين الذين خلفهم المتوفون، والتي بلغت ٩٠ من اصل ١٤١، اي حوالي ٦٣٪. ولو اضفنا الى عدد القاصرين في التركات الاربعة والاربعين التي درسناها، اربعة اجنة، يتوقع ولادتها لدى بعض زوجات المتوفين، لارتفعت هذه النسبة الى حوالي ٦٤٪. ونستنتج من

ذلك احد امرين: اما ان الزواج كان يتم في سن متأخرة نسبيا، وهذا غير معقول، بالنسبة للمعطيات الاخرى المعروفة في المجتمع الزراعي، مثل حرص الاهل على زواج الابناء في سن مبكرة، لاسباب اجتماعية واقتصادية، او ان وسطي الاعمار بين الرجال كان متدنيا. ومهما كان السبب، فان في ذلك دليلا على ان مجتمع غزة كان فنيا نسبيا. وطول اعمار الزوجات، بالنسبة للازواج، ربما يفسره صغر سنهن، بالنسبة للازواج، عند الزواج، وقلة الاعمال المرهقة التي يقمن بها. كما ان من بقي منهن على قيد الحياة، بعد وفاة ازواجهن، يدل ايضا على مقاومتهم الطبيعية ومناعتهم، حين كن صغيرات، فبقين عندئذ على قيد الحياة.

ويمكننا ايضا، من خلال الوثائق الشرعية، معرفة النسب التقريبية للزواج والطلاق وايجاد خط بياني لها مرتبط بالاضاع الاقتصادية. فقد اخذنا بصورة عشوائية، عينة تقع ضمن فترة بين ٢٣ ذي الحجة ١٢٧٤/١٤ آب ١٨٥٧ ونهاية رجب ١٢٧٧/١١ شباط ١٨٦١، اي في حوالي واحد وثلاثين شهرا، فوجدنا انه ذكر فيها احدى وخمسون حالة زواج مقابل سبع وثمانين حالة طلاق. ورغم ما قد يكون في هذا من تكرار في الزواج، او في الطلاق، بالنسبة لشخص واحد، فان النسبة المقارنة تبقى ذاتها. وهذا يدل، بوجه عام، على تفكك في الاسرة. وفي حالات الزواج الاحدى والخمسين كانت الزوجة في ثلاث وثلاثين منها بالغة عند الزواج، وقاصرة في الحالات الاخرى. واقل مهر بالنسبة للبالغة كان اربعمائة قرش، وفي هذه الحالة كان الزوجان مصريين، من نزلاء لواء غزة، واعلى مهر بلغ ١٠٠٠ قرش، وكان الزوج ابن امير بدوي، وهذا استثناء لان اعلى مهر بالنسبة لسكان غزة، بلغ ٥٥٠٠ قرش. وبلغ متوسط مهر البالغة، في العينة التي درسناها، ١٦١٨ قرشا، في حين بلغ متوسط مهر القاصرة ١٧٢٥ قرشا. ولم تقل نسبة المهر في الريف عنها في المدينة، بصورة عامة، مما يدل على مستويات اقتصادية متشابهة وتقاليد مالية متقاربة في الزواج. وفي مختلف حالات الزواج شكل المقدم، او الحال، من المهر نسبة بالنسبة لاهل العروس، كما انه يفسر سهولة الطلاق وعدم وجود رادع اقتصادي كبير له.

ويلاحظ، في العينة التي درسناها، ان الزواج بين الاسر المتباعدة كان هو الغالب في حين كان الزواج بين الاقرباء اقل نسبة. وربما يفسر هذا الامر، الذي يبدو غريبا، بالنسبة لتقاليد الزواج، وخاصة بين الريفيين، او بين من هم من اصول ريفية، ان الزواج بين الاقرباء قد لا يسجل في المحكمة، لان اي خلاف يحل عائليا. وقلما وردت حالات زواج بين سكان الريف وغزة. وكان الزواج في الريف، بصورة عامة، ضمن اطار القرية الواحدة، وفي حالات

اقل بين قريتين. كما ان الزواج بطريق البدل، كأن يزوج رجل ابنته من شخص آخر مقابل زواجه من ابنة هذا الشخص، كان معروفا، وخاصة في الريف. اما بالنسبة للنزلاء المصريين، سواء في غزة ام في الريف، فغالبا ما تزوجوا من بعضهم، ويسهل معرفة ذلك من نسبة «المصري» التي لحقت باسمائهم، مما ابقاهم كتلة مترابطة وغريبة.

اما بالنسبة للطلاق في العينة التي درسناها، فقد بلغت حالات الطلاق بالثلاثة احدى وثلاثين حالة من اصل سبع وثمانين، والبقية كانت بالخالعة. ومبادرة الطلاق بالثلاثة، كما هو معروف، تخص الرجل، اما الطلاق بالخالعة فأمره بيد الزوجة، او وكيلها، الذي قد يكون والدها او شخصا آخر، ويتم بموافقة الزوج، وارتفاع نسبة الطلاق بالخالعة يفسر بسبب اقتصادي، كأن تحاول الزوجة الحصول على مؤخر مهرها، ونفقة عدتها، ونفقة اولادها القاصرين، ثم تتزوج من جديد في غالب الاحيان. ويستفيد والدها، ايضا، مرة ثانية، من زواجها هذا. ولا يعطي الزوج موافقته، في الطلاق بالخالعة، الا حين يسترد ما بذمة الزوجة او والدها، او وكيلها له. والمثال التالي يوضح ذلك: سألت الحرمة فطومة بنت عمرو ابو عقبة زوجها، الحاج احمد بن يوسف بلبل، ان يخالعه من عصمته وعقد نكاحه على ١٢٠٠ قرش بذمتها له، فاجابها لذلك، وقال لها خالعتك من عصمتي وعقد نكاحي على ١٢٠٠ قرش بذمتك لي، ثم دفعت له من ذلك ٥٤٠ قرشا، وقاصصها بمؤخر صداقتها، وقدره ٢٠٠ قرش، ونفقة عدتها وقدرها ٦٠ قرشا. والباقي لها بعد ذلك، وهو ٤٠٠ قرش اسدي، اذن لها ان تصرفه على ولده القاصر منها، في مدة اربع سنوات، كل سنة مائة قرش<sup>(٢٤٣)</sup>. ولكن، بعد اقل من شهرين، تزوج الزوج، الحاج احمد بن يوسف بلبل، الحرمة فطومة، مخلوعته سابقا، بمهر قدره ٨٤٠ قرشا، الحال منها ٦٤٠ قرشا، والباقي ٢٠٠ قرش، وهي التي زوجت نفسها على ذلك<sup>(٢٤٤)</sup>. ولا ندري اذا كان في الامر محاولة لتغطية شيء ما، او ان إعادة الزواج اقتضتها ضرورات اقتصادية، وربما شخصية.

وقد تمتعت المرأة، في غزة وريفها، بقدر كبير من الاستقلال في العمل. وكثيرا ما ظهرت في المحكمة بنفسها، فيما يتعلق بزواجها وطلاقها، وشرائها العقارات، او بيعها، ووقفها الاوقاف، وعقدها الديون والمطالبة بها. كما انها ظهرت في المحكمة كمدعية ومدعى عليها. ومع ذلك لم يرد اسم امرأة بين شهود الحال او العدول في المحكمة. وطبيعي ان الوكيل ناب عن المرأة، حين لم تحضر بنفسها، واقتضى ذلك منه ان يأتي بالشهود لتأكيد وكالته عنها. وكان ظهور المرأة المسيحية في المحكمة الشرعية اقل من ظهور المرأة المسلمة، نظرا لان زواجها او طلاقها لا يبان في هذه المحكمة، وناب عنها في الغالب، وكيلها في قضايا البيع والشراء.

ولم تميز المحكمة بين المرأة المسلمة والمسيحية من حيث اللقب والنسبة، كما فعلت بالنسبة للرجال من الطرفين، فكلتاهما وصفتا بالحرمة، اذا كانتا متزوجتين، واستعملت في نسبتها لفظة « بنت » فلان.

ووجدت الجوارى في غزة، واختلفت الوانهن وأثمانهن. مثلاً، جارية سمراء بيعت في تركة احمد عودة البطل بثمن قدره ٢٥٠٠ قرش<sup>(٢٤٥)</sup>، واخرى سوداء، اسمها أمان، اعتقها مالكها قبل وفاته<sup>(٢٤٦)</sup>. وكان للنساء الثريات جوار او مملوكات اعتقنهن ابان حياتهن، واوصين لهن بالمال بعد مماتهن<sup>(٢٤٧)</sup>. وعرفت الجارية، قبل عتقها، باسمها الاول فقط، وبلونها، واسم مالكها. واطلق على الجارية، التي اعطيت حريتها، لقب « معتوقة » او « عتيقة »، ونسبت الى معتقها، كأن يقال الحاجة حليلة عتيقة الحرمة السيدة الحاجة زينب<sup>(٢٤٨)</sup>.

وكثر النزلاء الاغراب في غزة وريفها. واشير الى زاوية الهنود وخان زاوية الهنود في غزة، في محلة البرجلية، بخط سوق الفخار<sup>(٢٤٩)</sup>، مما يدل على تواجد الهنود في غزة وتردهم عليها للتجارة. وليس من دليل، في الوثائق، على توطن الهنود فيها، او في ريفها، اذ انهم لا يذكرون في عمليات لبيع العقارات او شرائها، ولا في وقائع الطلاق والزواج والوفيات. ولا ندري إذ كان قدوم الهنود الى غزة قد تم في الماضي البعيد او القريب، واذا ما كان متصلاً. ولكن نسبة الزاوية والخان اليهم ربما يدل على تواجد مستمر، وان يكن غير مستقر.

وهناك اشارات الى وجود المغاربة في غزة وتوطنهم فيها. فقد ذكر استيفاء الحرمة حفيظة بنت المرحوم محمد آغا البرعصي المغربي مبلغاً من المال من زوجها عبد الله بن المرحوم عبد الحفيظ آغا البرعصي المغربي<sup>(٢٥٠)</sup>. وذكرت دار الحاج هيبه المغربي بمحلة السجاعية، بخط الشيخ محمد الطيار<sup>(٢٥١)</sup>. ولا ندري الى اي مدى تواجد المغاربة في غزة وريفها، وباية صفة: كمجاورين، ام كعسكريين، ام كتجار. ونستدل من لقب آغا، بالنسبة للاسمين السابقين، الصفة العسكرية التي غلبت على المغاربة المتواجدين بكثرة، مثلاً، في بلاد الشام، منذ القرن الثامن عشر، اذ كانوا فيها جنوداً وحراساً. والتواجد المغربي، في بلاد الشام في العهد العثماني، بدأ اساساً بهدف المجاورة والعلم، ثم ازداد في المجال العسكري. وزواج المغاربة، فيما بينهم، كما في المثال السابق، امر له دلالاته، لأن من طبيعة المغاربة، في بلاد الشام، الانطواء على انفسهم والتكتل في طوائف، يحمل كل منها اسم منطقة في المغرب انتسب افرادها اليها، مثل طائفة الفاسية، والمراكشية، والدرابية، والتونسية، والسوسية، والجزائرية، والطرابلسية. وترأس كل طائفة شيخ رعى مصالحها. وترأس الجميع شيخ المشايخ<sup>(٢٥٢)</sup>.

وأشارت الوثائق الى طائفة النور في غزة، وذلك بمناسبة مخالعة تمت بين امرأة وزوجها من النور(٢٥٣). ويدل لجوء النور الى المحكمة الشرعية على تمسكهم بمبادئ الشريعة، وعلى ترددهم الى غزة، وربما على استقرارهم الجزئي او الكلي في المنطقة.

اما الفئة التي فاقت ما عداها، من النزلاء والاعراب، بعددها، واستقرارها في غزة وريفها، واشتراكها في الفعاليات الاقتصادية المختلفة، ونشرها لكثير من المصطلحات التي اتت من بلدها الاصلي، فهي المصريون. ولا عجب في ذلك نظرا لجوار لواء غزة لازاعي مصر، وللعلاقة السياسية والاقتصادية والسكانية المستمرة بين المنطقتين. وكانت قلعة العقبة، في فترة دراستنا، تابعة «قضا مصر»(٢٥٤). وجاء في كتاب (بيديكر)، من حوالي ١٨٩٠، ان غزة شبه مصرية، وان الغطاء الذي استعملته نساؤها كان مشابها لغطاء سكان مصر(٢٥٥).

وكثيرا ما استخدم المصريون محكمة غزة لتسجيل عقود بيع العقارات وشرائها في مصر، بالاضافة، طبعا الى استخدامهم اياها في تسجيل العقود المحلية. وأشارت الوثائق الى كل مقيم من اصل مصري بالمصري، مما سهل تمييز المصريين عن غيرهم. واشير احيانا الى البلد الام للمصري المتوطن في لواء غزة، كأن يكون من دار قلعة نخل، من اعمال مصر(٢٥٦)، او من قرية الصالحية(٢٥٧)، او غيرها. وكان عدد من المصريين القادمين الى لواء غزة من اصول بدوية، واشير اليهم على انهم من عرب مصر، وسميت بعض طوائفهم مثل (طايفة السعادين) و (طايفة الحواز) و (طايفة اكباد الغتاورة)(٢٥٨).

ولم يحل المصريون في محلة او خط خاص بهم في غزة، فقد تواجدوا، مثلا، في محلات الزيتون، والبرجلية، والسجاعية، وتملكوا فيها(٢٥٩). كما تزوجوا، احيانا، مع السكان المحليين. ويبدو ان الوضع الاقتصادي للمصريين المقيمين في غزة لم يكن متميزا، نظرا لشرائهم دورا في غزة باسعار متدنية(٢٦٠).

ولا تتوفر معلومات مفصلة حول عمل المصريين المقيمين في لواء غزة. وقد اشير الى احدهم انه جندي(٢٦١)، ولا ندري صفة الجندي آنذاك. فقد اشير، في احدى الوثائق، الى شاب في غزة اخذ للنظام(٢٦٢)، مما يدل على نوع من الخدمة الاجبارية في الجيش العثماني. ووصف مصري آخر في غزة بأنه دقاق البارود(٢٦٣). وهذه صفة اطلقت على اصحاب الزنود القوية، الذين عملوا في دق البارود بمطارق طويلة القبضة تحاشيا لانفجار البارود. وأشير الى آخر اقتنى ثلث دار بمحلة الزيتون في غزة بأنه الاسطى(٢٦٤). وذا كان مفهوم اللقب هنا حرفيا فانه يدل على براعته في المهنة.

وقد عمل بعض المصريين في كرتينة غزة<sup>(٢٦٥)</sup>. وكان لهذه الكرتينة، التي اقيمت جنوبي غزة، في منطقة عرفت باسمها (ضريبة الكرتينا)، ناظر، ومدير، واون باشي، أي قائد عشرة<sup>(٢٦٦)</sup>. وذكر كتاب (بيديكر)<sup>(٢٦٧)</sup> وجود كرتينا، بجوار قلعة، قرب العريش، في منطقة الحدود مع مصر. ولا ندري ما اذا كانت هي ذاتها الكرتينة التي اشارت اليها وثائق غزة الشرعية، حين ذكرت ضريبة الكرتينا ظاهر غزة. ومما يرجح انها هي نفسها ان المفروض في الكرتينا ان تكون في منطقة الحدود، حيث يمكن عزل المصايين. كما ان مصطفى افندي اسطنبولي، اون باشي كرتينة غزة، توفي في خان يونس، القرية من الحدود<sup>(٢٦٨)</sup>.

وقد أقام المصريون في ريف غزة. ومن القرى التي سكنوها زرنوقة، خان يونس، دير البلح، بينا، وجولس. واشير الى المصريين المقيمين في هذه القرى على انهم من نزالها<sup>(٢٦٩)</sup>. وذكرت اسماء عدد منهم بمناسبة خلاف حول ملكية ثور، او حمار، او جمل. وبلغ من سماحة صدر قاضي غزة، واهتمامه بتطبيق القواعد الشرعية في كل كبيرة وصغيرة، ان احضرت هذه الحيوانات في المجلس، أو اكتفي بايقافها في بابه<sup>(٢٧٠)</sup>.

وغالبا ما تراوح المصريون بين بعضهم، سواء في ريف غزة أم في قراها، مما ابقاهم كتلة متميزة لم تندمج كلية مع السكان المحليين الا بمرور الزمن. ولم تكن نسبة الطلاق بينهم بأقل من نسبتها بين السكان المحليين. وقلما لجأت المرأة المصرية الى تعيين وكيل عنها في القضايا التي رفعتها الى المحكمة، بل كانت تظهر بنفسها في المحكمة.

والكتلة السكانية الرئيسية في ريف غزة، من حيث الاهمية السياسية والاقتصادية، كانت البدو. وسنستعرض الفعاليات الاقتصادية للبدو في بحث الاقتصاد، ونكتفي هنا بالتعريف بهم وذكر مظاهر من حياتهم الاجتماعية مستشفة من خلال الوثائق الشرعية. فقد انقسم البدو، في منطقة غزة، الى قسمين رئيسين: عربان بلاد غزة الصف القبلي، او القبالي، وترأسهم الشيخ عيسى ابن المرحوم الشيخ عايش الوحيددي الحسيني، الذي لقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان، وعربان بلاد الشمالي، وترأسهم الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ رباح الوحيددي الحسيني، الذي لقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان<sup>(٢٧١)</sup>. ويبدو ان الشيخ حسن ابن المرحوم الشيخ رباح الوحيددي الحسيني، الذي كان احيانا الوكيل الشرعي عن اخيه الشيخ حسين<sup>(٢٧٢)</sup>، قد حل مكانه كشيخ مشايخ عربان الصف الشمالي، وذلك في الفترة الواقعة بين ٢٥ شوال ١٢٧٥ / (٢٨ ايار ٥٩)<sup>(٢٧٣)</sup>، حين ورد اسم الشيخ حسين، شيخ



مشايخ عربان بلاد غزة الصف الشمالي، و ٢٥ شوال ١٢٧٦ / (١٦ ايار ١٨٦٠) (٢٧٤)، حين ورد اسم الشيخ حسن شيخ مشايخ هؤلاء العربان، هذا اذا لم يخطيء كاتب الوثائق الشرعية بين اسمي حسين وحسن، كعادته في كثير من الاحيان.

ويبدو من تسميات شيوخ عربان الصفيين الشمالي والقبالي انهم انتسبوا الى اسرة واحدة، هي الوحيدي او الوحيدات. ولا نعرف من أي وحيدات كان هؤلاء، اذ ذكر العارف (٢٧٥) ان هناك وحيدات الترايين ووحيدات الجبارات، ونسب الوحيدات اصله الى قريش وانتسبوا الى الحسين بن فاطمة الزهراء.

وورد كذلك ذكر عرب السواركة (٢٧٦)، وموقعهم الى الشرق من غزة، ربما في منطقة بئر السبع (٢٧٧)، وهم غير عرب السويكة الى الجنوب منها (٢٧٨). وذكر شيخ عرب القديرات، واسمه الشيخ عوض بن المرحوم الشيخ سلامة ابي رقيق (٢٧٩). ويشتق اسم عرب القدرات من قدرتهم «على الطعن والنزال» (٢٨٠)، وكانو في الجنوب الشرقي من غزة، الى الشرق من عرب العزازمة، كما يظهر من المصور الملحق بهذه الدراسة. كما ورد ذكر عرب بني ايوب (٢٨١)، وعرب وادي موسى (٢٨٢)، ولا نعلم اذا كان هؤلاء الاعراب قد شكلوا جزءا من عربان الصف القبلي او الصف الشمالي. والدليل انه وجد مشايخ عربان خارج نطاق نفوذ شيخي مشايخ الصفيين القبلي والشمالي ان الاوامر التي ارسلها والي القدس الى المسؤولين في لواء غزة اشارت الى «مفاخر القبائل والعشاير شيوخ مشايخ عربان الصف القبلا والشمالا ومشايخ العربان زيد عشيرتهم» (٢٨٣). وقد اعتمدت الدولة العثمانية على معظم هؤلاء العربان في نقل المؤن، وعلى الاخص الشعير والحنطة من غزة الى بندر معان لحساب قافلة الحج الشامي.

وقد التزم البدو باصول الشرع الاسلامي فلجأوا الى محكمة غزة لفض المنازعات بينهم وبين غيرهم (٢٨٤)، او لابراء ذمتهم تجاه مالية الدولة (٢٨٥). كما انهم سجلوا بعض عقود الزواج في محكمة غزة. فقد تزوج، مثلا، الشيخ عوض ابن المرحوم الشيخ سلامة ابي رقيق، شيخ عرب القديرات، أمونة البكر البالغ بنت المرحوم الشيخ احمد الشاعر اللهواني، بمهر مقداره اربعة آلاف وخمسمائة قرش اسدي، الحال منها اربعة آلاف قرش، والباقي يؤخر على الزوج لاقرب الاجلين، زوجها على ذلك وكيلها السيد سلامة الهليس. وقبل الزوج المذكور لنفسه ذلك (٢٨٦). ولا نعلم تماما فيما اذا كان الشخ احمد الشاعر اللهواني غزيا، ولو ثبت ذلك لتأكد لدينا بعض علاقات الود، لا العدا، بين سكان غزة والبدو. ويؤكد هذا التزام مشايخ البدو بالشريعة حين سجلوا عقود زواجهم في محكمة غزة، وكذلك شراء عدد منهم دورا لهم

في غزة. وكان أعلى مهر سجل في محكمة غزة، في فترة دراستنا، هو مهر زواج الشيخ عيسى بن المرحوم الشيخ عايش الوحيدى الحسيني، شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي، من أمينة البكر القاصر ابنة جناب عين الاغوات الشيخ عقيلة الحاسي (لعله شيخ بدوي)، اذ بلغ احد عشر الف قرش، الحال منها عشرة آلاف، مقبوض بيد والد الزوجة. وقد زوجها على ذلك الشيخ حمود شقيقها الثابتة وكالته عن والدها عقيل آغا(٢٨٧).

وكان الشيخ عيسى قد اشترى، قبل زواجه هذا بحوالي ثلاث سنوات، دارا من اكبر دور غزة، بمحلة الخضر، بخط حمام السمرة، داخل بوابة الكجك، بأعلى ثمن ذكرته الوثائق لاية دار، ومقداره ثلاثة وثلاثون الفا وستائة قرش، قبضت في المحكمة بيد الشقيقين الباعين، الشيخ عبد الله والشيخ عبد القادر، ابني المرحوم الحاج صقر العايدي. وكان هذان قد اشترىا عشرين قيراطا من هذه الدار من الشيخ عايش، والد الشيخ عيسى، الاصيل عن نفسه والوكيل عن ابنتي اخته، كما اشترىا بقية القرايط، وهي أربعة، من شركاء الشيخ عايش، بموجب حجج مؤرخة في رمضان وشوال ١٢٦١ / (آب-تشرين الاول ١٨٤٥). والذي يلفت النظر في هذه الديار انها ضمت ما لم تضمه دور غزة الاخرى، لتتلاءم، كما يبدو، مع احتياجات ساكنها البدوي. فقد اشتملت على قاعة كبيرة بجيمنتين، وقاعة بخيمة واحدة، الى جانب لواوين، وبيوت وغيرها(٢٨٨). ولم تكن هذه الدار أول تملك للشيخ عيسى في غزة، فقد امتلك دارا، بمحلة الزيتون، بخط الخضر، باعها بثمن قدره ستة آلاف وثمانية قروش، قبل اربعة اشهر من شرائه الدار الاخرى(٢٨٩).

#### ٤ - مظاهر اقتصادية:

سنستعرض، في هذا المجال، من خلال ما ورد في الوثائق الشرعية، مراكز الفعاليات الاقتصادية في غزة، ونماذج من النشاطات الاقتصادية، مثل مقومات الثروة والدخل، وعمليات البيع والشراء، والديون، واسعار السلع والعقارات والمقارنة بينها، وكذلك الاقتصاد في الريف، والعلاقة بينه وبين المدينة. ونهى البحث بدراسة عن المقاييس، والمكاييل، والاوزان، والنقود في لواء غزة.

وقد حفلت غزة، بدليل اسماء الخانات والاسواق فيها، بفعاليات اقتصادية مختلفة، على مر العصور، ولا عجب في ذلك، لانها كانت على الطريق التجاري البري الوحيد الذي يربط بين بلاد الشام، وما اتصل بها من تجارة الاناضول والعراق وفارس وما وراءها، ومصر.

كما ان قافلة الحج الشامي، وهي بالضرورة قافلة تجارة ايضا، كثيرا ما سلكت الطريق الغزاوي، في طريق عودتها، حين كانت محملة بالبضائع من الحجاز. وأم غزة، كذلك، عدد من الحجاج، قاصدين العقبة، للالتحاق بقافلة الحج المصري(٢٩٠). يضاف الى ذلك موقع غزة، في وسط منطقة زراعية غنية، قريبة من البحر ومن البادية، مما يجعلها سوقا لمنطقة واسعة تحيط بها. وكان لهذا الموقع التجاري الهام، وتنوع الفعاليات الاقتصادية، المحلية والدولية، في غزة، أثره الكبير في اشتهارها عبر العصور.

وقد ذكرت وثائق غزة الشرعية عددا من الخانات(٢٩١) فيها تدل اسمائها على انواع السلع التي تعاطتها. واشهر هذه الخانات، بدليل ان جميع من زار غزة ذكره اول ما ذكر، خان الزيت، الواقع داخل غزة، بمحلة الخضر، بخط حمام السمرة. وكان من اوقاف آل رضوان(٢٩٢)، الذين اشتهروا في حكم غزة، في النصف الثاني من القرن السادس عشر(٢٩٣). وجاء في كتاب (بيديكر)(٢٩٤) ان خان الزيت يقع الى الجنوب الغربي من الجامع الكبير، وان حارة الزيتون تقع الى الجنوب الغربي من هذا الخان. ولا ادل على اشتهار الزيت والزيتون في منطقة غزة من تسمية خان الزيت ومحلة الزيتون باسميهما. وهناك خان الكتان، ويقع داخل المدينة بمحلة البرجلية. وتسمى الخط، حيث وجد، باسمه (خط خان الكتان)(٢٩٥)، نظرا لاهميته في تلك المنطقة. وذكر خان زاوية الهنود، داخل غزة، بسوق الفخار. ويقع هذا السوق بمحلة البرجلية، وتسمى خط باسمه (خط سوق الفخار)(٢٩٦). ويبدو ان هذا الخان كان لصيقا بزاوية الهنود، مما جعله يعرف بها، وقد ذكر (غات)(٢٩٧) زاوية الهنود ضمن قائمة الخانات، مما يعني انها استخدمت خاننا، ولا ندري ما اذا كانت الزاوية قد استخدمت خاننا في الفترة التي كتب فيها (غات)، في عام ١٨٨٧، أم أن الخان الملاصق للزاوية الحق بها وتسمى باسمها، أم ان (غات) قد أشار خطأ الى الزاوية على انها الخان. وقد ميزت الوثائق الشرعية، في فترة دراستنا، بين زاوية الهنود وخان زاوية الهنود.

ووجد في غزة خان الجمالي، نسبة الى الحاج علي الجمالي، بمحلة الزيتون. بخط الخضر(٢٩٨). وقد اشار اليه (غات)(٢٩٩) باسم خان الجمالة. واذا كانت نسبة الجمالي تدل على تعاطي امور الجمال فرما استخدم الخان لايقاء الجمال، التي نقلت عليها البضائع من غزة واليه(٣٠٠). ونظرا لكثرة الجمالة، فقد عرفت حارة باسمهم، وهي حارة الجمالة، بمحلة التفاح(٣٠١). ومن خانات غزة خان القهوة بمحلة السجاعية، في سوقها(٣٠٢). والجدير بالذكر ان قافلة الحج الشامي حملت القهوة (البن) من الحجاز، التي اتاها من اليمن وغيرها، الى الشام. ويبدو ان خان القهوة هذا كان لحزن القهوة وبيعها، لا استهلاكها. ووجدت في غزة

مقاه (قهوات) تقدم القهوة للجالسين. وهناك خط في غزة عرف بخط القهوة، في محلة حكر التفاح<sup>(٣٠٣)</sup>. كما وجد جامع، ولعله في محلة التفاح، عرف بجامع القهوة<sup>(٣٠٤)</sup>، مما يدل على اشتهار القهوة التي عرف الجامع بها. وهناك خط آخر، يدعى خط القهوة، بمحلة البرجلية<sup>(٣٠٥)</sup>، وربما كانا خطا واحدا مر بمحلتي حكر التفاح والبرجلية.

وذكر (غات)<sup>(٣٠٦)</sup> خان الغلة، وخان المعارف، ووكالات ابو شعبان، وابو خضرة، وعلى ساق الله في غزة. واستخدام التعبير المصري «وكالة» للإشارة الى الخان دليل على الاثر المصري في المفردات السائدة في غزة. ولم تشر الوثائق الشرعية، في فترة دراستنا، الى هذه الاماكن، اما لانه لم تعرض في محكمة غزة قضايا تستدعي ذكرها، او لانها، كلها او بعضها، اوجدت في فترة الخمس والعشرين سنة التي فصلت بين فترة دراستنا والفترة التي كتب فيها (غات) وربما كانت تسميات قديمة لبعض الاماكن وقد تبدلت آنذاك.

ووجدت في غزة اسواق متخصصة ببيع منتجات معينة، بعضها من الانتاج المحلي والبعض مستورد من ريف غزة او من الخارج. وكان للسوق قصبه، أي ساحة، تطل عليها الدكاكين. ومن هذه الاسواق سوق الفخار، بخط الفخار، بمحلة البرجلية. واشير اليه احيانا باسم سوق الفواخيرية<sup>(٣٠٧)</sup>. وبيعت في هذا السوق المنتجات الفخارية، التي صنعت في غزة في أمكنة سميت بالفواخير. وذكرت الوثائق وجود خط، بمحلة البرجلية، عرف بخط الفواخير، حيث تواجدت الفواخير بكثرة، بعضها بجانب البعض، كما في المثال التالي: «المشتري الحاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرابع البايع علي بن خليل القعوه المبيع ١٢ قيراط من اصل كامل في جميع الفاخورة الكاينة بمدينة غزة بمحلة البرجلية بخط الفواخير التي حدها قبله فاخورة احمد عطا الله وتمامه فاخورة ابراهيم الشويكي ومن يشركه وتمامه حاكورة ابراهيم العيد وشرقا المطاح التابع لها الداخل في المبيع ومنه التوصل وشمالا المشتري ومن يشركه وغربا كذلك المشتري الثمن ١٠٨٠ قرشا»<sup>(٣٠٨)</sup>.

ولا نعلم اذا كان خط الفخار، بمحلة البرجلية، هونفسه خط الفواخير، ولكن مما لا شك فيه ان سوق الفخار ضم دكاكين بيع الفخار، في حين صنع الفخار في الفواخير التي تجمعت في محلتين: في محلة البرجلية، بخط الفواخير، الذي يبدو انه امتد داخل غزة وظاهرها، وفي محلة الدرج، بخط مسجد الشيخ ظريف، وكذلك في ظاهر هذه المحلة<sup>(٣٠٩)</sup>. واشتملت الفاخورة عادة على دواليب خشبية، لصنع الفخار، ومسطح، وهو عبارة عن ساحة واسعة مكشوفة لتجفيف الفخار فيها بعد صنعه<sup>(٣١٠)</sup>. ويبدو ان غزة اشتهرت بصناعة

الفخار نظرا لكثرة الفواخير فيها، وتخصيص سوق لبيع منتجاتها. كما انها صدرت الفخار الى مناطق اخرى. وذكر، مثلا، تحميل الفخار على جمال، ونقله الى القدس<sup>(٣١١)</sup>. واستمرت صناعة الفخار فيها رائجة، كما يبدو، الى درجة ان مصطفى الدباغ ذكر ان احد احياء غزة عرف بالفواخير<sup>(٣١٢)</sup>، ولكنه لم يعين تاريخ ذلك.

ونظرا للحاجة الى الخبرة في صناعة الفخار، وربما حرص اصحاب هذه الصناعة على حصرها باسرههم، فاننا نلاحظ تخصصد اسر معينة بها. ومن الاسر التي ذكرتها الوثائق في هذا المجال اسرة قعوة، التي امتلك عدد من افرادها الفواخير، ومنهم خليل بن قعوة، واحمد قعوة، وعلي بن خليل قعوة، وموسى ابن خليل قعوة. ومن الذين امتلكوا الفواخير، أو اجزاء منها، من غير هؤلاء، ابراهيم الشوبكي، خلف الاقرع، محمد فلفل، عبد ربه بن الحاج محمد الغداوي، الحاج عبد الفتاح بن مصطفى المشهراوي، الحاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرابع، ابراهيم بن احمد الزنوتي، ابو عبيد الازعر، والحرمة أمون بنت صالح دغمش. ولا نعلم اذا كانت الحرمة أمون مجرد مالكة، بطريقة الشراء او الارث، لفاخورة كاملة، او جزء منها، أم انها عملت فيها ايضا. وتدل كثرة المتعاملين بالفواخير ملكا او صناعة أو تسويقا، على ان هذه الصناعة كانت رائجة.

ووجد في غزة سوق الاسكافية (الذين يعملون بصنع الاحذية)، بمحلة السجاعية، وتسمى الخط، حيث موقع هذا السوق، بخط الاسكافية (او السكافية)<sup>(٣١٣)</sup>. وليس من الضروري ان يقتصر أي سوق حصرًا على مهنة معينة، وان يكن اتخذ اسمها. ففي خط الاسكافية، مثلا، ذكر لدكان صباغة<sup>(٣١٤)</sup>. وفي غزة سوق الصوافين، بمحلة السجاعية<sup>(٣١٥)</sup>، وسوق الغزل، بمحلة السجاعية ايضا، حيث تسمى خط باسمه (خط سوق الغزل)<sup>(٣١٦)</sup>، وسوق العطارين داخل غزة. ولم يعين مكان وجود السوق الاخير بالضبط، ولكن ذكر ان ظهر هذا السوق كان مواجه الصبانة<sup>(٣١٧)</sup> (ولعلها الصبانة، أي المصبنة، الرضوانية، التي ذكرت بكثرة في الوثائق). ولم يذكر (غات)<sup>(٣١٨)</sup>، في قائمة الاسواق التي ذكرها في عام ١٨٨٧، الاسواق المذكورة سابقا. ولا يعني هذا انها لم تعد موجودة في زمنه. وربما لم تثر اهتمامه، أو ان اسمها تبدل، أو ادمج بغيره، او انها لم تعد مشهورة بالنسبة لاسواق اخرى.

وذكرت الوثائق، سوق السراجين، بمحلة الزيتون<sup>(٣١٩)</sup>، وسوق الخضّر، داخل غزة<sup>(٣٢٠)</sup>. ولم يعين مكان وجوده بالتفصيل، ولعله كان بمحلة الخضّر. والملاحظ انه حين يشتهر سوق ما فان الوثائق لا تشير الى موقعه بالتفصيل، مثل سوق السجاعية، الذي غالبا ما اشارت

اليه بالسوق داخل غزة. ووجد سوق للحمير، وسمي خط باسمه (خط سوق الحمير)، وكان بظاهر غزة، الى الجنوب الغربي منها<sup>(٣٢١)</sup>. وهناك سوق المسلخ، داخل غزة، بمحلة البرجلية، كما يعتقد<sup>(٣٢٢)</sup>، وربما بيعت في هذا السوق ذبائح المسلخ، او انه سمي بذلك لوقوعه قرب المسلخ. أما المسلخ نفسه فكان بظاهر غزة، بضريبة المسيل، ويؤدي اليه زقاق عرف بزقاق المسلخ<sup>(٣٢٣)</sup>. وذكرت الوثائق خط النحاسين، داخل غزة، دون ان تذكر المحلة التي وجد فيها<sup>(٣٢٤)</sup>، ولعل التسمية جاءت من كثرة النحاسين في هذا الخط.

ويبدو ان السوق الرئيسي في غزة، الذي لم يتخصص بسلع معينة، ولم يحدد بخط معين، كان سوق السجاعية. واشتهرت ساحته، المعروفة بالقصبة، التي تطل عليها الدكاكين. والى جانب القصبة وجد، بسوق السجاعية، خط عرف بخط البازار، مما يعني ان هذا السوق كان متشعبا<sup>(٣٢٥)</sup>. وأشارت الوثائق الى السوق الفوقاني بمدينة غزة، وكانت له قصبة<sup>(٣٢٦)</sup>. ولا نعلم سبب تسميته بالفوقاني، وبالنسبة لاي موقع سمي بذلك. ولعله تسمى بذلك لكونه يقع شمالي سوق السجاعية، او ربما كان جزءا من سوق كبير اطلق على قسمه الاعلى تعبير السوق الفوقاني.

وكثرت في غزة اماكن الصباغة، وتوزعت في أنحاء متعددة من المدينة لتلبية حاجات المواطنين. واشير الى هذه الاماكن احيانا، بالمصبغة، وحيانا اخرى بديكان الصباغة، وتصعب معرفة وجه الاختلاف بين التعبيرين. ويبدو ان لا فرق بينهما لانهما استخدمتا بمعنى واحد. ووجدت مصبغة في خط الاسكافية، بمحلة السجاعية<sup>(٣٢٧)</sup>، واخرى في خط جامع ابن عثمان، بالمحلة ذاتها<sup>(٣٢٨)</sup>. وقد اوقف المصبغة الاولى صاحبها، احمد بن علي المشهراوي، على سبيل الى جانبها. وكانت المصبغة الثانية وقفا على جامع ابن عثمان. وذكرت مصبغتان اخريان بمحلة السجاعية: تملك احدهما عبد الرحمن زموا ومن يشركه، وملك الاخرى عبد الرحمن زموا ايضا، ونازعه في ملكية جزء منها السيدان يوسف السقا وأخوه علي<sup>(٣٢٩)</sup>.

وذكرت صباثتان (مصبتان) في غزة: الصبانة الرضوانية داخل غزة<sup>(٣٣٠)</sup>، وصبانة بمحلة البرجلية، بخط بني عامر<sup>(٣٣١)</sup>. ولا يوجد دليل قاطع على ان الصبانة الثانية كانت غير الاولى. ووجدت مشعرة في غزة<sup>(٣٣٢)</sup>، ويبدو انها مكان لغزل شعر الماعز. وأشارت الوثائق الى عدد من المعاصر في غزة، ولكنها لم تذكر تخصص كل منها، باستثناء واحدة بمحلة البرجلية، بخط مسجد الشيخ عياد. وقد اشتملت على حاملين وفرن ومعجن واحواض وشمعة لتثبيت الأحجار، وهي معدة لطحن السمسم، وقد اشترى ثلثها في ٢٥ جمادى الثاني

١٢٧٣/٢٠ شباط ١٨٥٧، السيد خليل بن المرحوم السيد محمد ابي خضرة من صاحبيهما بالتساوي الحاج احمد بن المرحوم الحاج خليل العشي والحواجة نقولا ولد جبران الطويل النصراني<sup>(٣٣٣)</sup>. واذا صح القول ان معصرة الزيت عرفت باستمرار بالبد، الذي اشارت اليه الوثائق في اماكن كثيرة، فان المعاصر، التي ورد ذكرها في الوثائق، ولم تعين هويتها، كانت اما لطحن السمسم، الذي استخرج منه زيت السرج، كما في المثال السابق، او لعصر العنب لاستخراج الدبس. والمعاصر التي اشارت اليها الوثائق هي التالية: معصرة اولاد الغزالي بمحلة السجاعية<sup>(٣٣٤)</sup>، ومعصرة بدوي تحت بمحلة السجاعية، بخط الست رقية<sup>(٣٣٥)</sup>، ومعصرة اولاد تحت بمحلة السجاعية، بخط جامع ابن عثمان<sup>(٣٣٦)</sup>، ومعصرة اولاد مكّي بمحلة الخضر، بخط معصرة اولاد مكّي<sup>(٣٣٧)</sup>، ومعصرة اولاد القهوجي بمحلة البجلية، بخط سوق الحمام<sup>(٣٣٨)</sup>، ومعصرة الحاج حسن بن المرحوم الحاج احمد البورنة (كتبت احيانا البورنو او البورنوا)، بمحلة الزيتون، بخط الشيخ عطية<sup>(٣٣٩)</sup>.

وقد ذكرت عدد من البدود التي يعتقد انها اختصت بعصر الزيت. وضم البد المسطاح، وهي الارض المكشوفة، حيث يجمع الزيتون قبل عصره، وحيث ترص بقايا الزيتون المعصور وتجفف لتستخدم كوقود. وهناك بد لاولاد شرير بمحلة الزيتون<sup>(٣٤٠)</sup>، وبد آخر بمحلة الزيتون، بخط البطل، امتلك بعضه، او كله، آل مرتجا<sup>(٣٤١)</sup>. واشير الى خربة البد بمحلة الزيتون، بخط ساقية القيدة<sup>(٣٤٢)</sup>، والى خربة بد آخر بمحلة الزيتون، عرف بيد زايد<sup>(٣٤٣)</sup>، والى خربة بد ثالثة بمحلة الزيتون، بخط البطل<sup>(٣٤٤)</sup>. وليس غريباً ان جميع هذه البدود قد وجدت بمحلة الزيتون التي اقترن اسمها بهذا الانتاج. وهناك بد بنزلة المشاهرة، بظاهر غزة<sup>(٣٤٥)</sup>، وبد آخر، بظاهر غزة ايضا، من الجهة القبليّة، بجانب «حارت الزيتون»، بخط البطل<sup>(٣٤٦)</sup>.

واشارت الوثائق الى خربة طاحون بمحلة الزيتون، اشترى حوالي ثلثيها نصار بن الحاج سليمان من اولاد الطحان. وهناك اشارة الى فرن بمحلة البرجلية، بخط مسجد الشيخ عياد، وكان في وقف الشيخ ذكري<sup>(٣٤٧)</sup>.

ولم تشر الوثائق الشرعية الى طوائف حرفية في غزة، في فترة دراستنا. وليس ذلك بسبب عدم وجود هذه الطوائف، بل ربما لان المحكمة الشرعية لم تعد آنذاك المرجع المسؤول عن النظر في قضايا الطوائف. والجدير بالذكر ان قضاة دمشق، في الفترة ذاتها، لم ينظروا في قضايا الطوائف الحرفية، خلافا لما كان عليه الامر في القرون السابقة، ابان الحكم العثماني، وعهد الى مجالس اخرى بالنظر فيها. ومع ذلك، وجدت اشارات الى وجود حرفيين في غزة،

مثل محمد بن قبيل، دقاق البارود المصري<sup>(٣٤٨)</sup>، وخليل بن ابراهيم البلعاوي الحداد، الذي ذكر بمناسبة بيع دكانه المعدة للحدادة بمحلة الخضر، بسوق الخضر<sup>(٣٤٩)</sup>. كما جاء ذكر داود ولد مسعود النحاس الذمي<sup>(٣٥٠)</sup>، ورمضان البيطار، الذي اشترى من الخواجة سالم البصلة خمسة عشر الف مسمار<sup>(٣٥١)</sup>. وورد اسم الحاج مصطفى قصاب باشي الحج الشريف<sup>(٣٥٢)</sup>. وذكر الصوافون بغزة، وانهم ارباب خبرة ودراية بصناعة الصوف وشراؤه<sup>(٣٥٣)</sup>.

وهناك قاعات اعدت للحياكة في غزة، منها واحدة بمحلة السجاعية، بخط مسجد علي المغربي<sup>(٣٥٤)</sup>، واخرى امتلكها محمد الاقراع ومن يشركه بمحلة البرجلية، بخط بني عامر. وذكرت «القاعة المعدة للحياكة سابقا»، بمحلة السجاعية، بخط الحمام<sup>(٣٥٥)</sup>.

وفي اطار علاقات غزة التجارية مع العالم الخارجي ذكر استيراد الذرة من الاسكندرية اليها، عن طريق البحر. وكانت الذرة معبأة بأكياس، داخل كل كيس ٢٣ ريعا<sup>(٣٥٦)</sup>. وكان لتجار غزة وكلاء في الاسكندرية. كما انه تم استيراد الصوف من جدة الى غزة، بواسطة أمين التجار في السويس، واسمه جريس الظهر. وكان مصدر الصوف في جدة السيد بناجه، وله أمين، أي وكيل، في غزة، اسمه السيد احمد يوسف السقا. وكا السيد أحمد هذا أميناً، في الوقت ذاته، لتجار آخرين. وكان الصوف موجهها، في الاصل، الى الحاج عمر زعيتير بنابلس. ولكن هذا اذن لوكيله، السيد احمد يوسف السقا، يبيعه في غزة<sup>(٣٥٧)</sup>. وورد ذكر شراء خيول وبواريد من مصر وجلبها الى غزة<sup>(٣٥٨)</sup>. وبالمقابل، صدر الفخار، من غزة الى القدس<sup>(٣٥٩)</sup>.

ويلاحظ في العمليات التجارية في غزة انتشار الديون بشكل كبير، ودراسة هذه الظاهرة تلقي ضوءا هاما على البنية الاجتماعية والاقتصادية في غزة وريفها، اذ يقتضي ذلك معرفة هوية المدينين والدائنين ومهنتهم، على حد سواء، ومقدار مداخيلهم. ويقودنا ذلك الى معرفة انواع الثروة، وتوزعها بين الناس، وكيفية توظيف الرساميل، والعقلية التجارية التي حركت ذلك. واهم مصدر لمعرفة هذه التفاصيل هو ضبوط تركات، أي مخلفات، المتوفين. ولا بد من الاشارة هنا الى انه ليس من الضروري ان تسجل كل تركة في سجل الوثائق الشرعية، أي ان عددا من التركات لم يسجل بسبب عدم وجود خلاف حولها يستدعي عرضها على القاضي. كما ان ضبط التركة لا يجري مباشرة بعد وفاة صاحبها بدليل ان حسين بن حمودة الدباغة توفي في شهر ذي القعدة ١٢٧٣ / حزيران-تموز ١٨٥٧، في حين ان تاريخ ضبط متروكاته وبيعها، كان في ٥ ربيع الاول ١٢٧٤ / ٢٤ تشرين الاول ١٨٥٧<sup>(٣٦٠)</sup>. ويبدو ان هذا التأخير كان بسبب ثروته الكبيرة، وضرورة حصرها، وجمع ما أمكن من الديون التي



كانت له بذمة الناس. ونجد، بالمقابل، ان التركة البسيطة، التي لا مشكلة تقتضي تأخير ضبطها، سجلت بعد وفاة صاحبها بوقت قصير، مثل تركة مصطفى افندي اسطنبولي، اون باشي كرتينة غزة، المتوفي بخان يونس في ١٠ رجب ٢٧٦٦ظ/ ٢ شباط ١٨٦٠، والتي سجلت في سجل محكمة غزة بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٧٦/ ١٥ شباط ١٨٦٠ (٣٦١). ولم يشر ضبط التركة، في الغالب، الى تاريخ الوفاة، او الى مكان سكن المتوفي، او عمله. ويمكن استنتاج مهنته من تفاصيل الادوات التي وجدت في دكانه، ومن طبيعة الاعمال التي قام بها.

ونعرض فيما يلي نموذجاً لهذه التركات يتمثل في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد(٣٦٣):  
 «بيان ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد المنحصر ارثه في أولاد عبد القادر واحمد وعزيرة وشنن القاصرين عن درجة البلوغ ومحمد وعبد ربه وخديجة البالغين وفي زوجته هما الحرمة زينب بنت خليل ابو حمار وفاطمة البكر القاصرة بنت محمد كمشكوا وذلك بحضور ومعرفة كل واحد من محمد البالغ المذكور الاصيل عن نفسه والمنسوب الآن من قبل مولانا الحاكم الشرعي على اخوته القاصرين المذكورين وبحضور عبد ربه ومحمد بن خليل ابو حمار الوكيل الشرعي عن اخته الحرمة زينب الزوجة المذكورة بشهادة وتعريف كل واحد من عبد الهادي الحداد وعبد ربه المذكور وبحضور محمد كمشكوا ولي الزوجة الثانية وبحضور محمد الوصي وكيل خديجة البالغة بشهادة وتعريف كل واحد من محمد بن شاهين الخزامي وحسين بن نصار ابو تريا التعريف الشرعي وهو هذا كما يأتي بيانه بالمفردات.

ثم عدة الدكان على عبد ربه ابن المتوفي، ٧٠٠ (قرش)، دين ثابل قبل جبر العقاد الخاني بموجب سند، ١٣٠٠، دين قبل سعودي واخيه طالب العقاد بموجب سند، ٩٨٠، دين قبل ابراهيم عبد الدايم الخاني بموجب سند، ٥٢٠، دين قبل الحاج حسن الراعي بموجب سند، ١٣٥، دين قبل سعد الدين مرتجا بموجب (فراغ)، ١٣٥، المجموع ٣٧٧٠.  
 مصارف نافذة: تجهيز وتكفين ومصارف، ١٥٠، مؤخر الزوجة، ٢٠٠، رسم التركة، ٢٠٠، كتاب، ٣٠، رسلية، ٦، المجموع ٤٨٦. الباقي ٣٢٨٤.

خص الزوجة الحرمة زينب بحق قيراط ونصف قيراط، ٢٠٥٥ (٥ تساوي نصف قرش اي ٢٠ مصرية)، خص الزوجة الشابة فاطمة القاصرة بحق قيراط ونصف قيراط، ٢٠٥٥، خص ولده عبد ربه البالغ استحقاقه، ١٥ر٥٢٢، (١٥ مصرية من اربعين مصرية)، خص ولده محمد البالغ بحق استحقاقه، ١٥ر٥٢٢، خص عبد القادر القاصر بحق حصته،

٥٢٢ر١٥، خص احمد القاصر بحق حصته، ٥٢٢ر١٥، خص عزيزة القاصرة، ٢٦١ر٧  
(اي سبع مصريات)، خص شبن القاصرة، ٢٦١ر٧، خص خديجة البالغة، ٢٦١ر٧،  
(المجموع) ٣٢٨٤، تحريرا في غزة رجب ١٢٧٣ / (٢٥ شباط ١٨٥٧).

ثم قضى مولانا الحاكم الشرعي لرسم طعام وشراب وكسوة عزيزة وشنن في كل يوم عشرة  
قروش فضة واذن لوصيهما المذكور في انفاق ذلك عليهما مياومة وقيل منه ذلك غرة رجب  
٧٣.

الشهود: عبد الهادي الحداد، محمد شاهين الخزامي، حسين نصار ابو تريا، نصر الله  
محمد المغير، محمد ابو حمار، السيد حسين ابو سيدو، يوسف الكاتب، الفقير علي م (أي  
علي الجاعوني كاتب المحكمة الذي انتدب من قبل القاضي لضبط التركة وتوزيعها)».

ولم تتعرض التركة الى العقارات التي خلفها المتوفي ابراهيم ابو ريالة الحداد ونستدل عليها  
(٣٦٣) من بيع الزوجة فاطمة القاصرة الى بقية الورثة حصتها ومقدارها قيراط ونصف قيراذ مما  
يلي: جميع الدكان بخط النحاسين، جميع الدار، بمحلة الزيتون، بخط مسجد الشمعة، جميع  
الحاكورة، بمدينة غزة، بخط الكمالية. وقبضت عن حصتها هذه ٥٠٠ قرش. وهذا يعني ان  
ثمن كامل عقارات ابراهيم ابو ريالة الحداد يعادل ٧٩٢٨ قرشا. وبذلك يكون مجمل ثروته،  
المنقولة وغير المنقولة، ١١٢١٢ قرشا.

وما يسترعي الانتباه، اول شيء، في تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد، وفي ضبوط التركات  
بصورة عامة، ان الدولة لم تتقاض ضريبة على التركات. اما رسم التركة، الذي اشير اليه  
احيانا برسم جناب الافندي (اي القاضي)، فكان اجر القاضي. وهذا الرسم زهيد القيمة،  
لغ في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة، الذي بلغت ثروته المنقولة ٣٧٧٠ قرشا، مائة قرش، أي  
بنسبة ٢٦ بالالف منها. ومن دراسة رسوم التركات الاخرى يتبين ان نسبة الرسم تراوحت  
بين ١٠ و٢٦ بالالف. ولم تتبين لنا قاعدة ثابتة لحساب نسبة الرسم، التي اختلفت من  
تركة الى اخرى.

ونلاحظ كذلك في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة ان ضبط التركة وتوزيعها تناول فقط الثروة  
المنقولة، ولم يتطرق، في هذه الثروة، الى محتويات الدار التي كانت تباع في العادة في تصفية  
التركات. أما الثروة غير المنقولة فلم يتعرض لها ضبط التركة، وبقيت مشاعا الى ان رغب احد  
الورثة بالحصول على حصته منها. والغالب في ضبوط التركات عدم ذكر الثروة غير المنقولة

التي خلفها المتوفي الا في الحالات التي فاقت فيها قيمة ديونه مجموع ثروته فيعمد عندئذ الى بيع العقارات لتغطية كامل الديون، او جزء منها، اذا لم يف ثمنها بمبالغ الديون المترتبة على المتوفي. وما يجدر ذكره ان وثائق غرة الشرعية اشارت الى متروكات المتوفي، التي توزعها ورثته، بالمنقول، وهذا لا يشمل الممتلكات غير المنقولة « ما عدا العقار والجدار فانه باق بينهما على حاله وكل منهما له ان يتصرف فيه بقدر استحقاقه(٣٦٤).

ويلاحظ ايضا في تركة ابراهيم ابو ريالة ان نسبة الاموال المنقولة الى غير المنقولة ( ٣٢٨٤ قرشا ٧٩٢٨ قرشا) بلغت ٤١ر٤ بالمئة، وهي نسبة من السيولة المادية لا بأس بها من مجموع الثروة. واذا صح ان ابراهيم ابو ريالة كان حدادا، بدليل ان كلمة «الحداد»، كما يبدو، لقب مهنته، وليست نسبته، وكذلك بدليل انواع الادوات المتعلقة بمهنة الحدادة التي وجدت في دكانه، فان رأسمال هذا الحدود، البالغ ٧٠٠ قرش، وهو ثمن عدة الدكان، الذي يمكن اعتباره نواة الثروة، يشكل توظيفا ضئيلا، ولكن مربحا جدا، للمال، بالنسبة لكامل الثروة التي بلغ مجموعها ١١٢١٢ قرشا، اي ان نسبة الربح بلغت حوالي ١٥٠١٧ بالمئة، دون ان تدخل فيها نفقات معيشته واسرته. وما يدل على ان ثروة ابراهيم ابو ريالة غير المنقولة كانت بكاملها من املاكه الخاصة، ولم تكن جزءا من مشاع، ان زوجته فاطمة القاصرة حين اخذت حصتها البالغة قيراطا ونصف القيراط احتسبت على اساس كامل العقارات التي ملكها زوجها، وكان من الممكن الوصول الى قناعة اضافية بأن هذه الثروة غير المنقولة جناها ابراهيم ابو ريالة بنفسه ولم يرثها عن احد، فيما لو كانت وثائق غرة الشرعية اكثر تفصيلا، اي ان تذكر، كما فعلت وثائق دمشق مثلا في الفترة ذاتها، ان العقارات حصل عليها صاحبها بطريق الشراء لا الارث.

ان الثروة التي جمعها ابراهيم ابو ريالة الحداد ليست معيارا لحجم ثروات الحرفيين الآخرين. فثروات هؤلاء كما تظهر ضبوط تركات الحرفيين، لم تبلغ حدود ثروة الحداد ابو ريالة. مثلا، ثروة مصطفى المناخلي، الذي كانت حرفته صنع المناخل وما يتعلق بها، بلغت ٦٩٧ قرشا. وترتب على التركة ١٣٤ر٥ قرشا من المصاريف، فيكون باقي الثروة ٥٦٢ر٥ قرشا(٣٦٥). أما أسعد الخاني الاسكافي فلم يخلف سوى داره التي بيعت بـ ١٢٠٠ قرش، في حين بلغت ديونه ٢٤٦٢ قرشا. وقد وزع ثمن الدار، بعد اقتطاع مبلغ ٤٧ر٥ قرشا مقابل رسوم ومصاريف المتوفي، على اصحاب الديون. والذي حصل من هؤلاء على كامل حصته من الدين كان السيد خليل الشوى، لان الدار كانت مرهونة لديه، بطريق بيع الوعد، لقاء

مبلغ قدره ٤٥٧٥ قرشا<sup>(٣٦٦)</sup>. وقدرت ثروة سالم الطحان بـ ١٧٠٦ قرشا، وبلغت ديونه ٤٥٤٠ قرشا، فوزعت الثروة على اصحاب الديون بنسب متفاوتة<sup>(٣٦٧)</sup>.

ويمكن تفسير ثروة ابراهيم ابو ريانة بالديون التي عقدها، والتي لم تبرز في تركات الحرفيين الآخرين، بل على العكس كانوا ضحيتها لانهم اغرقوا بالديون، وما تضمنته من نسبة مرتفعة من الفائدة، التي يبدو ان الدائنين تقاضوها، مما ضاعفها عدة مرات. ولم تشر الوثائق الشرعية بالنص الى الفائدة او نسبتها، في قضايا الدين، لانها غير مقبولة شرعا، ولكن اشير اليها احيانا، بصورة غير مباشرة، باصطلاح «مراجعة المال بالفائدة»، كما في المثال التالي: بيان الذي قبضته الحرمة فاطمة بنت محمد الادهم من تركة ولديها عبد الخالق واحمد من يد شعبان بن الحاج احمد بسيسه ٢٠٠٠ درهم بالاضافة الى ١٠٠٠ مراجعة المال بالمعاملة وذلك عما خص عبد الخالق واخيه، فاصبح المجموع ٤٠٠٠. ومات عبد الخالق عن القدر المذكور وعنه ورثته والدته واخته شقيقته واخته لاييه واخوته لامه<sup>(٣٦٨)</sup>. ولا نعلم مقدار الفترة التي تمت فيها المراجعة، ولكن نسبة المراجعة التي بلغت الثلث، تعتبر فائدة كبيرة مهما كانت الظروف. وهناك مثال آخر يؤكد الفائدة ونسبتها المرتفعة ورد في ضبط تركة عبد الله بن علي الجبالي<sup>(٣٦٩)</sup>. فقد ذكر ان له جملة من الديون بلغت ٢٠٢٨٦ قرشا (من أصل ثروته البالغة ٢٢٢٦٣ قرشا). واحد هذه الديون، بذمة علي ابن بدر شعث، بلغ مقداره ٣٢٥٠ قرشا. وحين حساب ما تبقى من الثروة للورثة نقص مبلغ الدين هذا، الذي بذمة علي بن شعث، من ٣٢٥٠ الى ٥٥٣ قرشا، لانه «صار دفعة قبل وفا الاجل وقطع زيادة الربح على قدر المدة». ولا توجد هذا ايضا اشارة الى نسبة الفائدة، او مدة وفاء الدين، سواء الفعلية منها، التي دفع مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا على اساسها، أم النظرية، التي توقع ان يصل اجمالي المبلغ فيها الى ٣٢٥٠ قرشا. ولكن يلاحظ ان مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا، الذي دفعه علي ابن بدر شعث، لا بد انه اكثر من اساس المبلغ الذي استدانه، لانه يتضمن بعض الفائدة عن الفترة منذ استلامه المبلغ من المدين حتى وفاء الدين، وعلى هذا، فان مقدار الدين، الذي كان أقل من ٥٥٣ قرشا، كان مقدارا له ان يبلغ ٣٢٥٠ قرشا، فيما لو استكمل كامل مدة اجل الدين، وهذا دليل على فائدة مرتفعة جدا، اي ان المبلغ الاساسي كان مقدارا له ان يتضاعف ست مرات تقريبا.

ومن ثلاث واربعين تركة لرجال، وردت تفاصيلها تامة في سجل وثائق غزة الشرعية (توجد ضبوط تركات اخرى لم تستكمل في السجل)، نجد ان خمس تركات بلغت النفقات

المرتبة على اصحابها اكثر من الثروة التي جمعوها، من اموال منقولة وغير منقولة، لذا اعتبرت هذه التراكمت مثقلة بالديون. ودفعت نسبة معينة من الديون لاصحابها، في هذه الحالات، بقدر ما سمحت به الثروة. وقد بلغت هذه النسبة، مثلا، في تركة صالح الدويري، خمسين قرشا لكل مائة قرش من الديون<sup>(٣٧٠)</sup> وفي حال عجز التركة عن مبلغ معين، واقتدار الورثة على دفعة، قسط المبلغ على الورثة، كل على قدر حصته، لصالح ارباب الديون<sup>(٣٧١)</sup>.

وادنى ثروة وردت في ضبوط التراكمت كانت لمحمد المصري، سواق ساقية حمام بغزة (لعله كان يعني بدفع المواد المتراكمة في ساقيتها، وبالتالي تنظيفها)، اذ بلغت ٥١ قرشا. وقد استهلكت بكاملها في مصاريف الوفاة، وكان اولاد محمد المصري غائبين في مصر<sup>(٣٧٢)</sup>.

ويلاحظ في التراكمت ان الثروات الكبيرة جمعت عادة من التجارة والزراعة وتوظيف المال في الديون، وحتى من الاستدانة وتوظيف المال المستدان في اعمال رابحة. وسنستعرض اكبر ثلاث ثروات بين التراكمت. وكان أقلها ثروة درويش السيروان، الذي تعاطى تجارة الاقمشة، وعمل بالزراعة. وبلغ مجموع ثروته المنقولة ٣٦٣٥٨ قرشا، منها ٧٢٨٦ قيمة موجودات دكانه، و ٢٥٨٤ مجموع النقود المختلفة، التي وجدت بالدكان، و ٢٦٤٨٨ ثمن حبوب وحيوانات مختلفة. وبلغت مصاريفه ٢٤٨٥١ قرشا، منها ٢١٧٨١ قيمة ديون ترتبت عليه. وبذلك بقي من ثروته ١١٥٠٧ قرشا<sup>(٣٧٣)</sup>. ولم يتعرض ضبط التركة الى الممتلكات غير المنقولة. ومما يلفت الانتباه ان نسبة الديون الى مقدار الثروة (٢١٧٨١ الى ٣٦٣٥٨) بلغت حوالي ٦٠ بالمئة، مما يدل على اهمية السيولة المالية وعدم اللجوء الى تحنئة المال على مقياس كبير، وتعطيل الفعاليات الاقتصادية بالتالي. كما انه يدل على عقلية تجارية ناشطة عمدت الى الاستدانة وتوظيف المال بشكل مريح. ونستدل من ذلك ايضا ان الربح من المتاجرة فاق الربح الناتج عن فائدة الديون، على كبر هذه الفائدة.

وفاقت ثروة درويش السيروان في الاهمية ثروة السيد عبد القادر بن صالح الشوي، اذ بلغت ٤٨٣٥٨ قرشا، منها ١٩٠٠٧ وجدت نقدا بصندوقه، و ١٢٣٠٠ قيمة ديون (منها ٦٩٩٤ بذمة اهالي قرية حتا) و ٨٦٥٠ ثمن حنطة وذرة وشعير. وبلغت مصاريفه ١١٩٦٤ قرشا، منها ٧٠٨٥ ديون عليه للافراد، و ٢٥٣١ قرشا مطلوبة منه للميري، بمقابل زراعته في قريتي بين طيما وبرير. وبلغ باقي ثروته ٣٦٣٩٣ قرشا<sup>(٣٧٤)</sup>. ومن جديد، نلاحظ ان الديون كونت نسبة كبيرة من توظيف المال، بلغت ٢٥ر٤ بالمئة من اصل الثروة. ويمكن القول ان ثروة عبد القادر الشوي بنيت بمعظمها على سيولة نقدية بلغ مجموعها

٤٠٩٢٣ قرشا، منها ١٢٣٠٠ ديون عقدها، و ١٩٠٠٧ وجدت نقدا في صندوقه، و ٧٠٨٥ ديون استدانها، و ٢٥٣١ بذمته للميري، وجميع ذلك من اصل ثروته البالغة ٤٨٣٥٨، أي بنسبة ٨٤٦ بالمئة. في حين ان الواردات الزراعية بلغت حوالس سدس ثروته فقط.

واكبر ثروة بين التركات في سجل غزة خصت السيد حسين بن السيد حمودة الدباغة. وكان تاجر اقمشة في الاساس، ووظف بعض امواله في الريف. وقد بلغت ثروته ٦٥٠٨٦ قرشا، منها ٣٦٠٨١٥ قيمة موجوداته (بما فيها ١٤٠٥٠ ثمن بقر في قرية دير سنيد وغيرها)، والباقي، وبلغ ٢٩٠٠٤٢٥ ديون بذمة الناس. وكانت مصاريفه ٣٧٨٠ قرشا، فيكون باقي التركة ٦١٣٠٦ قرشا وزعت على الورثة (٣٧٥).

ويلاحظ ان نسبة الديون التي كانت للسيد حسين الدباغة بذمة الآخرين بلغت ٤٤٥ بالمئة من ثروته. واذا ما قارنا ذلك مع نسبة الديون التي عقدها كل من درويش السيراوي وعبد القادر الشوي، وعدد كبير آخر من اصحاب التركات في غزة، تبين لنا الطابع الرأسمالي لثروة معظم الاغنياء في غزة، ممن ذكرت اسمائهم في الوثائق الشرعية. ولكثرة ما شاع أمر الدين بين الناس غصت صفحات الوثائق الشرعية بتعابير «دين» و «ديانة». وشاع كذلك استخدام تعبير «أن بذمته مبلغ كذا» بطريق الدين الشرعي.

ويلاحظ على الديون، في غزة، انها فردية، بمعنى ان الدائن فرد، وليس مجموعة أمر ذلك في الريف، حيث اعطيت الديون، من قبل افراد غزة، الى بعض سكان قرية ما، او كلهم، بصورة جماعية. وكانت مسؤولية هؤلاء في وفاء الدين جماعية ايضا، مما يدل على حاجة سكان الريف الجماعية للاستدانة، وعلى اعمالهم الزراعية المشتركة، ربما لانهم عملوا في الارض ولم يملكوها، وعلى عدم ملاءة احدهم للاستدانة بمفرده. ولم نثر على أمثلة عن استدانة المال من الدولة. وقد عمد بعض الاغنياء كما في مثال عبد القادر الشوي، الى تأخير دفع مال الميري للدولة، وتوظيف ذلك في اعمالهم، وكأنه دين، رغما عن الدولة، ولكن دون فائدة. وهناك أمثلة عن ديون بذمة الافراد لجوامع غزة، مثلا، ورد في تركة عبد القادر الشوي دين بذمته الى مسجد السيد هاشم، وقدره ٨٧٥ قرشا (٣٧٦). وورد في تركة حسن دلول وجود دين مقداره ٢٧٩٥ قرشا، ثابت عليه لجهة جامع الخضر محمد درويش وسلامة الهليس (٣٧٧). والسؤال الهام الذي يطرح هنا: هل هذا الدين استدانة من مال الوقف العائد للمسجد، أو بمعنى آخر، هل لجأ نظار الوقف الى عقد الديون من مال الوقف ولفائدته، أم

ان الدين الذي كان بذمة هؤلاء الافراد للجوامع هو لقاء مال الحكر المترتب على بعض ممتلكاتهم لفائدة هذه الجوامع (٣٧٨).

وعمد معظم الناس الى الاستدانة والادانة في آن معا. وغالبا ما كانت الديون زهيدة جدا، اذ بلغت قرشا في اكثر من حالة (٣٧٩). وهذا يدل على القيمة الشرائية للقرش، وفي الوقت نفسه على قلة الدخل، مما يعزز اهمية المبالغ الصغيرة، وعلى اهتمام المحكمة بالنظر في أقل الديون. ونستشف من ذلك ايضا درجة عالية من الالتزام بالحقوق المالية مهما صغرت. وكثرة المدانة دليل على حاجة الناس اليها، وعلى ان الدين كان أمرا عاديا ولا عضاضة اجتماعية فيه، كما انه كان وسيلة من وسائل توظيف المال والربح بأقل جهد. وتقييد الناس بوفاء الديون، الا في الحالات التي ثبت فيها الافلاس (وفي هذه الحالات كان مجموع الثروة يقسط على الدائنين ويلتزم الورثة بوفاء الدين)، يدل على مستوى متميز في العلاقات العامة، وعلى احترام الالتزامات المالية، وعلى فعالية القضاء في جعل الناس يحترمون عقود الدين، لذلك قلما لجأ اصحاب الديون الى القضاء لاستيفاء ديونهم الا في حالات قليلة، مثل حل تركة او افلاس صاحبها.

ونلاحظ من ضبوط التركات ان اسماء الدائنين لم تقتصر على افراد معينين، اي ان الدائنين لم يكونوا قلة من المحترفين، كما انهم لم يقتصروا على أسر معينة. وشيوع الدين دليل على ان عددا كبيرا من الناس، قد تعاطوه. ولم تكن للديون حدود مذهبية، فقد استدان المسيحيون من المسلمين، كما استدان هؤلاء من اولئك. ولجأ المسيحيون، في الديون التي عقدها فيما بينهم، الى المحكمة الشرعية للفصل في الخلافات التي وقعت بينهم (٣٨٠). ولكن المبالغ التي التزم بها المسيحيون، كدائنين ومدنين، اذ ما قيست بالديون بين المسلمين، بدليل ما ورد في ضبوط التركات التي درسناها، كانت متوضعة الى حد كبير. وربما دل ذلك على عدم ثرائهم، او عدم رغبتهم بالمغامرة بالمال، واكتفائهم بما هم عليه. وحضر المسيحيون البيع العلني لتركات المسلمين، واشتروا منها (٣٨١).

واشتهرت النساء كدائيات، وقلما ذكرن كمستدينات من الرجال، اذ كن يستدن من بعضهن. ومن دراسة ضبوط التركات نجد ان الرجل استدان، اول الامر، من زوجته، او زوجاته، ومن بناته، مثلما استدان من ابناؤه. كما انه استدان من نساء أخريات. وتألفت ثروة النساء، في الغالب، من حلي متنوعة، بالدرجة الأولى، ومن نقود، على اختلاف انواعها. ومصادر ثرائهن، في الغالب، كان ارثا، او وصية، او مؤخر مهر. ولا بد انهن عملن في

بعض الاعمال، مثل الزراعة، وصناعة الالبان، وقطف القطن وغزل خيوطه. ووظفت النساء المال في الديون، وشراء العقارات، واحيانا شراء الماشية.

ومن دراسة ثمانية ضبوط كاملة لتركات نساء توفين في غزة<sup>(٣٨٢)</sup>، يتبين لنا ان ثروة أغناهن، وهي زينب الرملي، ويبدو أنها لم تكن متزوجة، قد بلغت ٣٣٢٦٧ قرشا، من ذلك ٩٣٥٢ قرشا قيمة حليها وانواع النقود الي وجدت لديها، و ١٦٠٠٠ قرش دين عقده لشخص واحد، و ٥٠٠٠ قيمة حصص في عقارات، ويعادل ذلك ٣٠٣٥٢ قرشا. والمبلغ المتبقي من مجموع الثروة هو ثمن امتعة وممتلكات شخصية<sup>(٣٨٣)</sup>. والشخص المدين للسيدة زينب كان السيد احمد عودة، ولا نعرف اكثر من ذلك عنه. وكان للسيدة زينب معتوقتان اوصت لهما ببعض المال، وهما الحاجة حليلة ومحبوبة.

وتجاوز سكان غزة نطاق مدينتهم في عقد الديون، فاستدان منهم الريفيون، وقلما حدث العكس. ويدل هذا على تدفق رأس المال من المدينة الى الريف، وتبعية الريف المالية للمدينة، وعلى نمو الثروة في غزة عن طريق استثمار الريف. واعطى الدين لقرية بكاملها او لجماعة منها<sup>(٣٨٤)</sup>. والى جانب الديون، وظف سكان غزة جانبا من مالهم في الزراعة، او في تربية الحيوانات في الريف<sup>(٣٨٥)</sup>.

ووصف الدين في الوثائق بانه دين شرعي. وتم بموجب سند. واذا ما دعت الحاجة فان صحة السند او عدمها يشتها الشهود، وتدعم باليمين<sup>(٣٨٦)</sup>. واقتضى الامر، في بعض الاحيان، ايداع رهن لقاء الدين، كأ ن ترهن حلي او عقار مثلا<sup>(٣٨٧)</sup>. ولجىء احيانا الى كفالة شخص لآخر لتأمين وفاء الدين<sup>(٣٨٨)</sup>. ولم يكن الدين باستمرار نقدا، اي مالا يقدم للغير، بل احيانا، ثمن محاصيل، او حيوانات، او غيرها ترتبت بذمة شخص، او مجموعة اشخاص، وخاصة في الريف، واعتبر هذا الثمن دينا شرعيا<sup>(٣٨٩)</sup>. وكثيرا ما ذكر ان فلانا بذمته مبلغ من المال الى شخص آخر. وكلمة «بذمته» لا تشير دائما الى الدين الا اذا اقترنت بالعبارة التالية «بطريق الدين الشرعي». وقد تعني، بمفردها، ان اصل مال الذمة ارث، او مهر، او قرض. ووصف القرض، احيانا، بانه قرض شرعي. ولا ندرى اذا كان القرض الشرعي تضمن فائدة. واستخدمت كلمة «القرض» مرادفة لكلمة «القرضة»، كأ ن يقال ان فلانا له بذمة فلان قرضة شرعية، او ان يذكر انه وجدت في دكانه دراهم قرضة<sup>(٣٩٠)</sup>.

وحدد لوفاء الدين موعد اول او مؤجل، في تاريخ معين، كغرة شهر، او يوم في شهر، حدد على اساس رؤية هلال الشهر الذي يستحق فيه وفاء الدين. ويقتضي ذلك شهود



اثبات لرؤية الهلال (٣٩١). وحين عجز شخص عن الوفاء بالدين، وثبت انه معسر، قسط المبلغ، او الغي جزء منه. وطبيعي انه اذا كان للمدين عقار يبيع لوفاء الدين. ولجىء في وفاء الدين الى نوع من بيع العقار، تضمن ما يشبه الرهن والفائدة، كأن يعد مشتري العقار بائعه، الذي قبض الثمن، انه ان جاءه خلال مدة معينة بنظير الثمن رد له المبيع. وابع البائع للمشتري، في هذه الحال، الانتفاع بالعقار، سكنا او تأجيرا، او ثمرا، ما دام الثمن باقيا بدمته (٣٩٢). وطبيعي ان هذا الانتفاع هو نوع من انواع الفائدة. وسمي هذا النوع من البيع «بيع وعد بالاباحة» (٣٩٣).

ومن مظاهر الحياة الاقتصادية الاوقاف، من حيث ان مواردها استخدمت لاعاشة عدد كبير من السكان، ارتبطوا اما بخدمتها، او باقتسام مواردها، حسب نوعية الوقف، خيرا كان أم أهليا (ذريا). كما ان الفائض من واردات الاوقاف الخيرية وظف، عادة، في شراء عقارات باسم الوقف (٣٩٤). ونظرا لكثرة الجوامع، والاماكن العامة الخيرية الاخرى، مثل الزوايا والسبل والحمامات، في غزة، والعقارات التي اوقفت عليها، والموارد التي أغدقت عليها، فقد شغلت الاوقاف حيزا كبيرا من الثروة الاقتصادية.

واستخدمت كلمة «الحكر» للدلالة على اجرة الاراضي الموقفة والمؤجرة، والفعل منها «استحكر»، أي استأجر ارض الوقف. وعرف ناظر الوقف، الذي أجر الوقف، «بالحكر». كما عرف مستأجر الوقف «بالمستحكر». والشرط في الحكر «ان يكون فيه الحظ والمصلحة لجهة الوقف»، وأن يكون مساويا لحكر مثل الوقف، أي ليس فيه غبن للوقف. واستدعي، عادة، الشهود لاثبات ذلك (٣٩٥).

واشهر وقف اهلي في غزة، في فترة دراستنا، هو الوقف الرضواني، نسبة الى الامير رضوان بن الامير مصطفى ابي شاهين، الذي اشتهر في غزة في النصف الثاني من القرن السادس عشر (٣٩٦). وكانت لهذا الوقف مقاطعات حتى داخل مدينة حلب الشهباء وفي ضواحيها. وعين افراد من آل رضوان، وآل وفا العلمي، وآل رياح الحسيني، ابان فترة دراستنا، نظارا على وقف آل رضوان (٣٩٧). ويلي هذا الوقف في الاهمية وقف حسين باشا ابن مكى، الذي كان حاكما على غزة، ثم نقل منها واليا على دمشق في عام ١٧٥٧ (٣٩٨). وعين أفراد من أسرة مكى نظارا على هذا الوقف (٣٩٩). وكثيرا ما كان الناظر هو نفسه المتكلم، او المتولي، على الوقف (٤٠٠). وذكرت الوثائق وظيفتي مشارف اول ومشارف ثان على الوقف، الى جانب الناظر (٤٠١). وعينت المرأة ناظرة ومتولية على الوقف (٤٠٢).

وكانت عمليات الايقاف ناشطة في غزة، في فترة دراستنا، من قبل الرجال والنساء، على حد سواء، ومالت كفتها لصالح الاوقاف الاهلية او الذرية. ولهذا الامر دلالاته لانه يضمن بقاء الثروة في عقب الواقف، واستفادة هذا العقب منها ما دام قائما. والمعروف في العهد العثماني، وخاصة منذ القرن الثامن عشر، حين كثرت مصادرة الدولة لها. وهكذا اوقف السيد حسين بن حمودة الدباغة، صاحب اكبر ثروة منقولة، كما رأينا، ما ملكه من العقارات على ذريته، وذلك قبل شهرين من وفاته<sup>(٤٠٣)</sup>. وجاز ان يوقف شخص بالوكالة عن آخر، وبالاشتراك معه كما اوقفت الحصص الشائعة وقفا اهليا<sup>(٤٠٤)</sup>.

والملاحظ في الاوقاف الاهلية في غزة ان النساء اوقفنها مثلما فعل الرجال. ولكن اختلفت هوية المستفيدين منها، بالنسبة للذكور والاناث من الذرية، من وقف الى آخر. وقد حصرت الاستفادة، في الوقف الاهلي، أولا بالواقف وحده، طيلة حياته. ثم توزع وارد الوقف بين ورثة الواقف، بعد وفاته، وفق ترتيب معين اختاره الواقف واثبته في شروط الوقف. ففي احدي الحالات، نص الواقف ان يوقف الوقف، بعد مماته، على اولاده واولاد اولاده (الخ) وذريتهم، للذكر مثل حظ الانثيين<sup>(٤٠٥)</sup>. وفي حالات اخرى، نص على ان يوقف الوقف، بعد وفاة صاحبه، على اولاده، ذكورا واناثا، بالفريضة الشرعية بينهم. وأفادت الانثى منهم، مدة حياتها، فاذا ماتت انتقل نصيبها لاختها الثانية، وهكذا كل واحدة منهن ترث الاخرى الى ان يتوفين، ثم من بعد ذلك على اولاد اولاده الذكور دون الاناث<sup>(٤٠٦)</sup>. وفي حالة اخرى، اوقف الوقف على اولاد الظهور دون البطون، واذا ماتت الانثى عن اولاد من ذرية احد الواقفين الذكور انتقل نصيبها لهم، واذا ماتت عن اولاد من غير اولاد الواقف رجع نصيبها للوقف. ولكن اذا انقرض اولاد الظهور انتقل الوقف الى اولاد البطون<sup>(٤٠٧)</sup>. واذا انقرضت ذرية الواقف، من اولاد الذكور ثم اولاد الاناث، تحول الوقف الى الحرميين المكبي والمدني. واذا تعذر ذلك تحول للفقراء والمساكين من اهالي غزة. وفي حالات اخرى، اعطيت الاولوية، بعد انقراض ذرية الواقف، الى مسجد عمرو هاشم في غزة، أو الى فقراء غزة. ولم تتمتع ذرية الواقف، عادة، بكامل واردات الوقف، لان جانبها منها رصد، في الغالب، على عمارة الوقف، او على قراءات دينية في امكنة معينة. واشير الى حصص الورثة بالسهم وليس بالقيراط.

ويمكننا التعرف على جوانب متعددة من مستوى المعيشة في غزة، في فترة دراستنا، بعقد موازنة بين وسطي اسعار العقارات، واسعار الحاجيات، واثمان الحبوب والحيوانات، ومقادير الثروات، بصورة عامة.

ولا نجد في الوثائق معلومات كثيرة عن إيجار العقارات، ربما لان الاتجاه الغالب كان نحو ملكية العقار من قبل شاغله، او ان عقود الإيجار لم تثر خلافات حولها استدعت عرضها على القاضي. وفي احدى الحالات اجر نصف دار، ثمنه ٣٦٠٠ قرش، بستين قرشا في السنة، أي ان نسبة الاجرة الى ثمن المأجور كانت محدود ١ر٦٦ بالمئة. وبلغت اجرة دكان ٧٥ قرشا في السنة، ولكن ثمن الدكان غير معروف ولا يمكن اجراء مقارنة بينها وبين الدار السابقة.

وقد لاحظنا سابقا ان اسعار الدور في غزة تراوحت بين ٥٥٠ و ٢٤٠٠٠ قرش. ولم ندخل هنا اعلى سعر لدار ورد ذكره في الوثائق والبالغ ٣٣٦٠٠ قرش لانه كان استثناء، ولم ترد اسعار بينه وبين الرقم السابق. ولو اخذنا عينة من عشر دور، ذات مواصفات مختلفة، ولكنها تمثل نماذج شائعة، وتقع في خطوط ومحلات مختلفة في غزة، لوجدنا ان وسطي ثمن الدار هو ٣١٠٠ قرش. واذا اجرينا دراسة مماثلة بالنسبة للدكاكين لوجدنا ان وسطي ثمن الدكان حوالي ٢٢٥٠ قرشا. وعلى هذا، فان الغزي المتوسط الحال بحاجة الى ٥٣٥٠ قرشا لشراء دار ودكان. ولم تكن ادوات العمل في الدكان مرتفعة الاسعار، مثلا، بلغ ثمن عدة دكان ابراهيم ابو زبالة الحداد ٧٠٠ قرش، وبلغ ثمن عدة نول للحياكة ٢٤٠ قرشا. وليتزوج الغزي متوسط الحال كان بحاجة الى مهر يبلغ وسطية ١٤٩٠ قرشا، وذلك بالاستناد الى عينة من عشرة عقود زواج، خمسة منها بامرأة بالغ، وخمسة بقاصر.

واذا ما درسنا عينة من عشر تركات لغزين توفوا، في فترة دراستنا، وحسبنا ما بقي من تركتهم بعد اقتطاع ما ترتب عليهم من مصاريف، لوجدنا ان وسطي باقي التركة هو ٧٢٥٣ قرشا. ونستنتج من ذلك ان الفاضل بين ما جناه الغزي المتوسط في حياته وما انفقه على المتطلبات الاساسية في حياته، من دار ودكان وزواج، هو ٤١٣ قرشا. ويصعب ان نستشف الربح او الخسارة في هذا المبلغ، اذ يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الجهد الذي بذله أثناء حياته وطبيعة عمله، وكذلك الاسرة التي بناها. ولو استعرضنا قائمة تركات الرجال المتوفين في غزة، على مدى اربع سنوات (١٢٧٣-١٢٧٧هـ)، لوجدنا ان سبعة متوفين من اصل ثلاث واربعين فاقت ديونهم ثروتهم، وربما امكنا الاستنتاج ان حوالي سدس السكان كانوا معسرين. لذا، فالغزي المتوسط الذي وفر مبلغا قدره ٤١٣ قرشا كان من ضمن خمسة الاسداس من السكان غير المعسرين.

واذا اخذنا عينة من اسعار السلع المختلفة في غزة لامكنا التعرف على قيمة الانتاج

ومعرفة تكاليف المعيشة بالنسبة لغيرها. ففي مجال المواد الغذائية كان وسطي سعر ربع (٤٠٨) الحنطة اربعة قروش، وربع الشعير ثلاثة، وربع العدس اربعة، وربع الذرة اربعة، ورطل السمنة خمسة وعشرين، ورطل الزبيب ثمانية، ورطل اللوز الناشف خمسة، ورطل العسل ثلاثة وعشرين، ورطل الفول خمسة، ورطل الدخان عشرة. وثمن جرة البرغل عشرة، وجرة الشعيرية ثمانية عشر، وجرة السيرج سبعين، وجرة الزيت خمسين. وفي مجال الادوات المنزلية والملابس، وهي مستعملة في الغالب، لان اسعارها مبنية على بيع التراكات، فقد بلغ متوسط سعر الفراش خمسة وستين قرشا، واللحاف الاطلس سبعين، والمخدة ثمانية، والطراحة خمسة وستين، ومنقل الحديد ستة عشر، والطنجرة النحاس المتوسطة اربعا وخمسين، والصحن النحاس المتوسط خمسة عشر، والصحن الرملي، الذي غلب فيه الرمل على النحاس، ثمانية ونصف، والعباية الغزاوية ستين، والفروة ستة عشر، والجرة الجوخ، وهي مستوردة المادة وربما الصنع، مائة وثمانين، والقنناز الابيض ثلاثين، وكمر الصوف خمسة وعشرين، والطرشوش (وهو مستورد) اربعين، والطرشوش المغربي ستين. وبالنسبة للمواد النسيجية كان سعر رطل الغزل الابيض اثنان واربعين، والاسود ستا وثلاثين، والصوف سبعة ونصف، وذراع الشيت قرشا ونصف، وذراع الخام قرشا وربع. وبيعت جارية سمراء ب ٢٥٠٠ قرش.

وكان متوسط ثمن عجل البقر خمسمائة قرش، والبقرة ثلاثمائة، والجمل ستائة، والحمار مائتين، والثور مائة وخمسين. وبلغ وسطي ثمن الفرد الطبنجة ثلاثين قرشا، والبارودة خمسين، والسيف عشرين.

ويصعب الحكم على هذه الاسعار كما هي. ولو اوزناها باسعار السلع ذاتها في فترات سابقة او لاحقة، واخذنا بعين الاعتبار التبدلات في سعر القرش وقوته الشرائية لامكننا معرفة نسبة الغلاء او الرخص في فترة معينة. ومع ذلك يبدو، من مقارنة اسعار هذه السلع واسعار العقارات، ان تكاليف الحياة الاساسية، من سكن وشراء مكان عمل، او استئجارهما، وكذلك الزواج، كانت متدنية بالنسبة لاسعار السلع. فاجره نصف الدار، التي سبق ذكرها، والتي بلغت ستين قرشا في السنة، في حين كان ثمن هذا النصف ٣٦٠٠ قرش، واجرة الدكان التي بلغت خمسة وسبعين قرشا تبدو بخسة جدا اذا ما قورنت بسعر جرة زيت يبيعت بخمسين قرشا، رغم اشتهار الزيت وكثرتة في منطقة غزة. ونستدل من ذلك على ان الذين تعاطوا الزراعة، وهم الجزء الاكبر من سكان غزة، كانوا في وضع احسن من غيرهم، مثل اصحاب العقارات. وارتفاع اسعار الحيوانات المستخدمة في الزراعة والنقل (مثلا، سعر جمل فاق سعر دار صغيرة)، دليل على اهمية هذه الحيوانات بالنسبة للعاملين

في الزراعة، سواء في المدينة أم الريف، ومن هنا الحرص عليها، وكذلك سرقتها باستمرار، ورفع الدعاوي الى المحكمة للنظر في ذلك. وارتفاع سعر الجمال يفسر الحالة المادية الحسنة للبدو، التي تمثلت بشراء احد امرائهم لاعلى دار في غزة ودفعه اعلى مهر على الاطلاق عند زواجه.

وتميز الريف التابع لغزة بحياة اقتصادية غلبت عليها الزراعة المتنوعة تبعا لتنوع الاراضي. فهناك البساتين والحواكير، وتقع اما في المدينة او القرية، او بجوارها المباشر. وتكثر فيها عادة السواقي لتزويدها بالمياه. وفي حين كان البستان متنوع الاشجار المثمرة والازهار، ضمت الحاكورة اشجارا مثمرة متنوعة، وخص فيها الصبر، كما في العبارة التالية: «جميع صبر واشجار الحاكورة»<sup>(٤٠٩)</sup>. وقد تكون الحاكورة مقتصرة على اشجار التين او الصبر<sup>(٤١٠)</sup>. وكثرت الكروم خارج غزة والقرى، وزاد عددها على عدد الحواكير، وتداخلت معها في احيان كثيرة. واذ لم يشر صراحة الى ان الكرم هو كرم زيتون، فانه يضم اشجار أقل تنوعا من الحاكورة، يغلب عليها شجر التين والكرمة والزيتون مجتمعين. واختلط بالكروم نوع آخر من الاراضي عرف بالمارس (جمعها موارس)، وتعني الارض المعدة للحرث والزرع<sup>(٤١١)</sup>، واشير اليها انها ارض كشف<sup>(٤١٢)</sup>، أي دون اشجار. والمتعارف عليه، كما ذكر لي، ان المارس يمثل مساحة ارض مزروعة يحرثها زوج بقر في مدة تتراوح بين خمسة وعشرة ايام. واطلق، احيانا، تعبير «مارس» على الكرم، كما في العبارة التالية: «الكرم الكائن بارض غزة المعروف بالمارس الشمالي بضرية الرنجس.. والكرم المعروف بمارس جنيد الشمالي»<sup>(٤١٣)</sup>.

وجزئت اراضي الريف، على انواعها، اصطلاحا، الى مناطق عرفت واحدها بالضرية. وحددت الاراضي بالنسبة اليها، ولا نعلم معنى الضرية بالضبط، ولعلها وحدة ضريرية لتسهيل جباية الضرائب عنها. وكان لكل ضريرية اسم خاص بها، تماما كما كان للبستان او الحاكورة، او الكرم، او الساقية، اسم خاص به، كما في المثال التالي: «جميع الكرم الكاين بارض بيت لاهيا بضرية عياضة المعروف بكرم مهابه»<sup>(٤١٤)</sup>. وذكر كرم الدخاخين وكرم الدلقوم بارض القرية ذاتها ولكن بضرية اخرى.

وتخللت الاراضي الزراعية، وخاصة منها البساتين والحواكير، داخل غزة والقرى، وفي اطرافها، السواقي لريها. ووصفت احدى السواقي، الموجودة بمحلة السجاعية، بخط بوابت ابي كرم، المعروفة بساقية البهجة، بانها اشتملت على «بير ماء وبركة معدة لجمع الماء ودولاب واخشاب وبايكة بثلاثة قناطر من الحجر وبيت مسقفين بالخشب وساحة سماوية ومن داخلها حوش مغروس به شجر نخل»<sup>(٤١٥)</sup>. وخص شجر النخل بوجوده في السواقي<sup>(٤١٦)</sup>.

وبيعت الساقية كأية سلعة أخرى<sup>(٤١٧)</sup>، ولم تشر الوثائق فيما اذا كانت الساقية تسقي الارض القائمة عليها فقط أم تباع مياهها للاراضي الاخرى.

واحاطت بهذه الاراضي الزراعية، وتخللتها احيانا، اراض رملية، اشير اليها بغليظ الرمل، كما في المثال التالي: «الكرم بارض بيت لاهيا بضرية الاجاير الذي حده قبة غليظ الرمل»<sup>(٤١٨)</sup>، او المثال الآخر: «الكرم الكاين بارض غزة بضرية البصاصي المعروف بكرم الخاني.. حده شرقا كرم ورثة حمد العكة وتمامه غليظ الرمل.. وغربا غليظ الرمل»<sup>(٤١٩)</sup>. وامتدت الكروم، في الواقع، حتى ساحل البحر<sup>(٤٢٠)</sup>.

وتنوعت ملكية الاراضي وطرق التصرف بها، فقد يباع كرم بكامله، اي بارضه وشجره، او قراريط منه، او يباع شجره فقط، كليا او جزئيا<sup>(٤٢١)</sup>، وينطبق ذلك على الحاكرة وغيرها من الاراضي المشجرة<sup>(٤٢٢)</sup>. وبيعت الساقية ايضا، كليا او جزئيا. ويلاحظ ان السواقي كانت تكثر في مناطق معينة، قرب بعضها البعض، نظرا لتوافر الماء في تلك المنطقة، كما في المثال التالي: «المبيع اربعة قراريط ونصف القيراط في جميع الساقية الكاينة داخل قرية دير البلح المعروفة بساقية القاعدود التي حدها قبة الطريق السالك وفيها الباب وشرقا حاكرة ورثة المرحوم ابو سمرة وشمالا ساقية الفاخورة بيد ابو بشير وغربا ساقية خبيزة بيد ابن جمعان البدوي ومن يشركه بثمان قدره ٤٠٠٠ قرش»<sup>(٤٢٣)</sup>.

ويلاحظ ان معظم البساتين والحاواكير والكروم والسواقي، التي ورد ذكرها في الوثائق الشرعية، تملكها افراد، مسلمون ومسيحيون، اقاموا في غزة او في القرى التابعة لها. وكان بعضها وفقا خيريا او اهليا. ولم يرد ما يفيد بتملك الدولة لهذه الاراضي الزراعية، اي ما يثبت ان بعضها على الاقل كان اراض اميرية (ميرية). وذكر ان مشايخ قرية سمس الاربعة تسلم كل منهم الربع في ارض البلد وتعهد بادارتها بالحرث والزرع وبدفع ما عليها لجهة مال الميري من مال وغللال وغيره ما عدا الزيتية فانها تخرج من ريع زيتون البلد عن الجميع منهم<sup>(٤٢٤)</sup>. ويبدو ان اراضي هذه القرية كانت من املاك الدولة. وجاء في ضبط تركة عبد القادر الشوى<sup>(٤٢٥)</sup> ان بذمته الى جهة الميري على شدة (ذكرتها الوثيقة «شده») بقرية بيت طيما وقرية برير، بالاشتراك مع آخرين، مبلغا قدره ٢٥٣١٧٥ قرشا، مقدره على وارداتهم من الحنطة والشعير والذرة. ولم تشر الوثيقة فيما اذا كانت الاراضي التي استغلوها هي اراضي الدولة أم انه ترتب على وارداتهم منها هذا المقدار من الضرائب للدولة. والشداد، في الشام، هو الذي يستغل الارض، ولا يملكها، ويستخدم فيها اناسا بالاجرة، كما انه يدفع

ربع الغلال للمرابعين الذين يعملون معه. وعرف الذي حرث وزرع الأرض في منطقة غزة بالحراث (٤٢٦). وفي إحدى الحالات اتفق صاحب أرض مع آخر أن يرسل هذا جماله وأربعة حراثين، ويقدم صاحب الأرض حراثين اثنين والبذار من الشعير، ويكون الزرع بينهما مناصفة. وفي وقت الحصاد يأخذ صاحب الأرض البذار الذي وضعه من أصل المحصول، ثم يقسم الباقي مناصفة (٤٢٧).

وقد استدان القرويون المال من سكان غزة لتمويل أعمالهم. كما وظف سكان غزة أموالهم في الريف، سواء في الزراعة أم شراء الحيوانات (٤٢٨). ونظرا لأهمية الحيوانات في الزراعة فقد كانت مثار خلافات وتفاض، كما سبق، وعرفت بصفات خاصة، مثل الجمل الأشقع الأصفر، والثور الأسود المكوي.

وتملك القرويون في مناطق غير مناطقهم بواسطة الشراء أو الإرث، وأكثر ما تملكوا في غزة، حيث عرفوا بنسبتهم القروية، مثل الجبالي (نسبة إلى جباليا، والحانوني (نسبة إلى بيت حانون)، والمجدلي أو المجدلاوي (نسبة إلى المجدل)، والعبسائي (نسبة إلى عبسان)، والسنيداوي (نسبة إلى دير سنيد). وتشير هذه النسبة إلى إقامة أصحابها في غزة، أي إلى هجرة من الريف إلى المدينة. وليس من دليل، من خلال الوثائق، على حجم هذه الهجرة، أو أسبابها، أو الفترات التي نشطت فيها أو تضاءلت. ورغم أن نسبة الغزيين الذين تملكوا في الريف، أو وظفوا أموالهم فيه، كانت كبيرة، فلم يترتب على ذلك هجرتهم إلى الريف. ووجدت في الريف أراض موقوفة على أماكن في غزة، بنوعها الخيري والأهلي (٤٢٩)، وقلما حدث العكس، أي أن توقف الأراضي والعقارات في غزة على أماكن في الريف.

وقد أسهم البدو، في ريف غزة، بدور اقتصادي متنوع وهام. وأشارت الوثائق إلى نقلهم المون، من شعير وحنطة، من اشوان (جمع شونة) الميري في غزة إلى بندر معان، لتمويل قافلة الحج الشامي. وكان شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي والصف الشمالي مسؤولا أمام الدولة، ممثلة بشخص ناظر اشوان الميري بغزة، رستم آغا، ومن بعده محمد آغا البريار، في فترة دراستنا، وكذلك بشخص مأمور حملة الحج الشريف (لعله الموظف الذي يرافق المون، أو ربما أمير الحاج الشامي الذي تسلمها)، عن نقل المون إلى بندر معان لاحتياجات قافلة الحج. وعهد شيخ المشايخ إلى العربان التابعين له بنقل هذه المون، التي بلغت كل سنة عدة آلاف من الكيليات من الشعير، بصورة خاصة، الذي وصف بأنه نظيف وخال من التراب والحصا، وأقل من ذلك من الحنطة. وعبئت هذه الحبوب داخل خيش ذات عرى،

ونقلت على ظهور الجمال. وجرى اقرار شيخ مشايخ العربان، او شيخ عربان آخر من غير هؤلاء<sup>(٤٣٠)</sup>، بتسلم ذلك في محكمة غزة الشرعية<sup>(٤٣١)</sup>. ونقل الشعير والحنطة بكميات كبيرة من لواء غزة لسد احتياجات قافلة الحج الشامي دليل على توفر وجودة هذه الاصناف فيها.

وباستثناء ما يمكن ان يستنتج من معلومات حول الزراعة في لواء غزة، من خلال ما زرع في البساتين والحواكير والكروم والموارس، فلم ترد معلومات في الوثائق عن نوعية المنتجات الزراعية وكمياتها السنوية. واقتصرت المعلومات على ذكر كميات محددة منها، وجدت في تركات المتوفين، وعلى اسعارها.

وفيما يتعلق بالمقاييس، والمكاييل، والاوزان، والنقود، في لواء غزة، فقد وجدت عدة انواع من كل منها. فبالنسبة للمقاييس استخدم ما سمي «ذراع البنا» (البنا)، لقياس الاراضي داخل المدينة، وكذلك ساحات الدور والاحواش. ويلاحظ ان المساحة الفارغة هي التي قيست، وليس القسم المبني. وقسم الذراع الى اربعة وعشرين قيراطا، وذكرت اقسامه النصف والربع، وما عداها ذكر بالقراريط، كما في الامثلة التالية: «قطعة ارض.. مساحتها شرقا بغرب ثلاثة اذرع وثلاثة قراريط من ذراع البنا كل ذلك فارغا بذراع البنا»<sup>(٤٣٢)</sup>. وايضا «ساحة سماوية (في دار) بها بئر معد لخزين الاغلال التي ذرعها من الجهة القبلية شرقا بغرب اربعة اذرع وربع ومن الجهة الشرقية قبله بشمال خمسة اذرع وعشرين قيراط من ذراع ومن الجهة الغربية قبله بشمال خمسة اذرع كل ذلك فارغا بذراع البنا»<sup>(٤٣٣)</sup>. وذكر استخدام الذراع الاسلامبولي، في غزة، في الفترة نفسها، لقياس مساحة الساحة السماوية في احدى الدور<sup>(٤٣٤)</sup>. ولا ندري اذا كان الذراع الاسلامبولي هو نفسه ذراع البنا. ويلاحظ في الامثلة التي استخدم فيها ذراع البنا ان اطول جهة فيها لم تتجاوز احد عشر ذراعا واجزاء الذراع، في حين ان الذراع الاسلامبولي، في المثال السابق، استخدم في قياس ساحة سماوية بلغ طول جهتها الشرقية، قبله بشمال، ستة وعشرين ذراعا ونصف ذراع وربع ذراع وبلغ وسطها عشرة اذرع، كل ذلك فارغا بالذراع الاسلامبولي. والذي يشير الاهتمام ويطرح امكانية التمييز بين الدراعين انهما استخدمتا في الوثائق في حوالي الوقت نفسه، وفي صفتين متعاقبتين (٤٣ و ٤٤).

ولم يرد من الذكر لذراع البنا في كتاب «المكاييل والاوزان الاسلامية» لمؤلفة فالتر هنتس<sup>(٤٣٥)</sup>. وقد ذكر هنتس (ص ٨٩) ذراع المساحة، التي كانت تساوي ٦٦٥ سم، والذراع المعمارية (ص ٩٠)، المعادلة لذراع النجار، والتي عادت، في النصف الثاني من



القرن التاسع عشر في مصر ٧٥ سم. اما الذراع الاستانبولية، فقد ذكر هنتس (ص ٨٤)، انها استخدمت في مصر لقياس الاقمشة، وان طولها، في القرن التاسع عشر، كان ٦٨ر٥٧٩ سم. ولا يمكن الاخذ بأي من هذه التفسيرات، بالنسبة لغزة، الا بحذر شديد، لانها تأثرت بمصر كما بالمناطق المجاورة من بلاد الشام. والجدير بالذكر ان الذراع النجاري استخدم في دمشق، في الفترة نفسها تقريبا، لقياس قطعة ارض خالية من البناء داخل دمشق (٤٣٦). وجاء في كتاب (بيديكر) (٤٣٧) ان الذراع المستخدمة، ويقصد في سورية وفلسطين، في حوالي ١٨٩٠، كان طولها ٦٧ر٧٥ سم.

واستخدمت القصبه في غزة، في فترة دراستنا، لقياس الاراضي، سواء أكانت حواكير أم اراض زراعية. وذكرت اجزاء القصبه بانها النصف والثلث والرابع، وكان نوع القصب المستخدم هو القصب الحاكمي (٤٣٨). واستخدم، في الوثائق، تعبير «تقسيم الارض» نسبة لاستخدام القصب في قياسها (٤٣٩). وحين تقاس قطعة ارض، او ساحة دار، او أي عقار، سواء بالذراع او القصبه، يبدأ القياس من الجهة القبليه، مثلما يبدأ تحديد العقار من الجهة القبليه. وذلك، كما يبدو، للتبرك، نظرا للاهمية الدينية للقبلة في التوجه نحو الاماكن المقدسة.

واستخدمت كلمتا «الذراع» و «القصبه»، في غزة، في مجالات ومعاني اخرى. فالذراع، او الدرعا، او الدرع، كما ورد احيانا، قيس به القماش على انواعه (٤٤٠). والذراع المستخدمة كانت من الحديد، ولا نعلم طولها (٤٤١). ووجد في تركة بائع اقمشة ذراعان من الحديد قدر ثمنهما بثلاثة قروش (٤٤٢)، وفي مناسبة اخرى باربعة قروش (٤٤٣). ولا نعلم اذا كان ذراع البنا او الذراع الاسلامبولي من الحديد ايضا. واستخدمت كلمة «قصبه» ايضا للتدليل على اداة التدخين، كأن يقال «قصبه دخان» (٤٤٤).

واستخدم القيراط لتقسيم الكل الى أجزاء بلغت أربعة وعشرين قيراطا. ومثلما قسم الذراع، مثلا، الى قيراط قسم العقار كذلك. وجزء القيراط الى نصف وثلث وربيع، والى اجزاء اصغر من ذلك، مثل، الثمن والسدس والخمس، وقسمت هذه بدورها الى اجزاء اصغر منها. واستخدم السهم للدلالة، عادة، على حصة في ارث اهلي، كما في المثال التالي: «السيدة الحاجة عالمة بنت المرحوم بهرام بيك آل رضوان لها في جميع ريع الوقف الرضواني سهما كاملا من تسعة اسهم ونصف كونها من الذرية» (٤٤٥). ولا نعلم بدقة مجموع الاسهم، الذي شكل السهم جزءا منه، وهل هو بعدد مجموع الورثة في مثال الارث.

وفي التعامل الزراعي في دمشق، مثلاً، اعتبر السهم جزءاً من مائة سهم، وفي بعض مناطق الشام حالياً يقسم العقار الى ٢٤٠٠ سهم. ورغم ان وثائق غزاة اشارات الى حدود كل عقار، حين يبيعه او وقفه، وذكرت حصصه بالقراريط، واحياناً قاست بعضه او كله بالذراع، فانها لم تذكر كلمة «فدان» في قياس الاراضي. وشاع في دمشق، مثلاً، نوعان من الفدان: الروماني والخطاط<sup>(٤٤٦)</sup>.

وتنوعت المكايل، في غزاة ومنطقتها، في فترة دراستنا. فمنها الكيلة، التي كيلت بها الحنطة والشعير. فقد نقل، مثلاً، من شونة غزاة في شوال ١٢٧٣ / حزيران ١٨٥٧، الى بندر معان، تموين الحج الشامي، ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل المجيدي<sup>(٤٤٧)</sup>. ونقل من شونة غزاة، في جمادى الاول ١٢٧٦ / كانون الاول ١٨٥٩، ١٠٩٩١ كيلة حنطة، و ٢٢٩٩٢٢٥ كيلة شعير، الى بندر معان للغرض نفسه<sup>(٤٤٨)</sup>، مما يدل على ان الكميات الكبيرة كانت تقاس بالكيلة<sup>(٤٤٩)</sup>. وفي وثيقة اخرى وصفت الكيلة بانها مجيدي<sup>(٤٥٠)</sup>. ويبدو ان التسمية نسبة الى السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١)، وهذا يعني ان الكيلة المجيدية، او الكيل المجيدي، استخدمت في عهده. ولا ندري ماذا كان وزن الكيلة او الكيل المجيدي، فيما اذا عبت قمحاً، او شعيراً، او بمادة اخرى، لان هذه المواد يختلف وزنها من مادة الى اخرى. وذكر هنتس (ص ٧٣) انه اصبح للكيلة في تركيا، بعد عام ١٨٤١، قيمة موحدة تساوي ٣٥ر٢٧ لتراً، وهذا ما يعادل ٢٥ر٦٥٦ كغ من الحنطة. اما كيلة الشعير، فيعتقد هنتس (ص ٧٢) انها وزنت ٢٢ر٢٥ كغ. وقد جاء في كتاب (بيديكر)<sup>(٤٥١)</sup>، في حوالي ١٨٩٠، ان الكيلة في سورية عادت مدين، أي ٣٦ لتراً، وهذا ما يعادل ٢٦ر١٨٧ كغ.

وذكرت الوثائق نصف كيلة<sup>(٤٥٢)</sup>، ولكننا لم نجد اشارة الى ربع كيلة. وهناك اشارة الى ان الكيلة قسمت الى اربع وعشرين وحدة، كما ورد، مثلاً، حين تقدير ضرائب الميري في غلال الحنطة والشعير والذرة<sup>(٤٥٣)</sup>، وقد اشارت الوثيقة الى هذه الوحدة بحرف (ط)، وهذا الحرف يشار به، عادة، الى كل من القيراط والرطل. ومع جمع اعداد هذه الوحدات من الحبوب، نلاحظ ان كل اربع وعشرين وحدة، اي (ط)، اعتبرت كيلة، اضيف عددها الى عدد الكيلات بجانبها. وهكذا، فمن الممكن ان الكيلة قسمت الى اربعة وعشرين قيراطاً، او انها قسمت الى اربعة وعشرين رطلاً. ونحتاج الى امثلة اخرى لتنتمكن من الاخذ بتفسير او آخر. ان حصر الكيلة بالكيل المجيدي يعني ان هناك انواعاً اخرى من الكيل، يفترض ان

تختلف احجامها، وبالتالي اوزانها، لذا فالكيله حجم نسبي، والكيل متعدد الحجموم. ووجدت اختلافات في المقادير، وبالتالي في الوزن، حتى ضمن الكيل من نوع معين. مثلا، هناك كيل مجيدي مسح<sup>(٤٥٤)</sup>، أي على مستوى الاطراف. وهناك كيل عرم من غير هز ولا لبد<sup>(٤٥٥)</sup>. وتتساءل فيما اذا كان الكيل العرم من غير هز يضم اكبر كمية ممكنة، والمفترض ان الكيل العرم بعد الهز يستوعب كمية اكبر.

وذكر المد كميكال في غزة ومنطقتها، وقدر بانه يساوي نصف كيله<sup>(٤٥٦)</sup>. وكان المد في غزة، مثل الكيله، مجيديا، كما ورد ذلك في المثالين التاليين: «قبض وتسلم ووصله.. من محمد آغا الحلبي مأمور حملة الحاج الشريف الشامي ثمانية وعشرون الف مد وستاية مد شعير بالمد المجيدي كيل عرم من غير هز ولا لبد عنها اربعة عشر الف كيله شعير وثلاثماية كيله مجيدي داخل الف وماية وثمانية وثلاثون زوج خيش اسود ونصف زوج خيش»<sup>(٤٥٧)</sup>. و «قبض وتسلم ووصله من شونة زخاير الميري بمدينة غزة تسعة وثلاثون الف واثنين وسبعون مد شعير مجيدي عنها تسعة عشر الف وخمسمائة وستة وثلاثون كيل شعير بالمد المجيدي»<sup>(٤٥٨)</sup>. ويلاحظ من المثال الاول ان زوج الخيش الاسود استوعب ١٢٥٦ كيله مجيدية من الشعير، أو ١٢ ر ٢٥ مدا مجيديا من الشعير، وهو ما يفترض ان يكون قد حمل على ظهر جمل واحد واذا كان المد المجيدي في غزة معادلا للمد المصري، الذي قدر في عام ١٢٥٦ / ١٨٤٠-١٨٤١<sup>(٤٥٩)</sup>، بانه يعادل رطلا وسبع وثلث سبع رطل، فان زوج الخيش الاسود استوعب ٣٩٤٦ رطلا من الشعير بالرطل المصري. والى جانب الخيش الاسود استخدم الخيش الاسمر. ويبدو انه كان اكثر استيعابا من الخيش الاسود. فقد وضعت ٥١٧٠ كيله مجيدي من الشعير داخل ٣٦٩ زوج خيش اسمر جديد بعراها وخوابطها<sup>(٤٦٠)</sup>، أي ان الزوج من هذا الخيش استوعب ١٤٠١ كيله مجيدي من الشعير. ومع ذلك، فلم يستخدم الخيش، سواء منه الاسود أم الاسمر، كمكيال بحد ذاته.

وعملية الكيل لم تكن منحصرة بالكيله، لان اي مكيال آخر وجب كيل محتواه، فالخنطة، مثلا، كيلت، الى جانب الكيله، بالصاع، او بالربع، ولكل منهما حجم معين يكال بكيل معين، كأن يقال «صاع بكيل قرية المغار»<sup>(٤٦١)</sup>، او ربع «بكيل السوق»<sup>(٤٦٢)</sup>. وهذا يعني ان هناك صاعا يكال بغير كيل قرية المغار، وربعا يكال بغير كيل السوق، مثلما كيلت الكيله بغير الكيل المجيدي.

وقد استخدم الصاع في منطقة غزة كمكيال، وكانت تكال به انواع الحبوب، حتى

الزيتون(٤٦٣). وذكر هنتس (ص ٦٣)، ان الصاع عادل ٣ر٢٤ كغ. ولكنه لم يعين المكان والزمان حيث بلغ وزنه ذلك المقدار.

وكان الربع اكثر شيوعا من الصاع في كيل الحبوب في منطقة غزة. والتسمية نسبة الى ربع المد(٤٦٤)، أي ان وزن الربع، الذي ساوى ٤ر٥ لترا، عادل ٣ر٢٧٣ كغ ويجب ان نأخذ هذا بتحفظ بالنسبة لانواع الحبوب، التي اختلفت احجامها، وبالتالي اوزانها. وإذا ما قارنا بين سعر ربع من الحنطة وسعر صاع منها، في فترة واحدة، لوجدنا ان سعر ربع الحنطة راوح بين ثلاثة وخمسة قروش، حسب نوع الحنطة ونظافتها (مقدار الحصى والتراب فيها)، والسعر الوسطي اربعة قروش، في حين ان سعر صاع الحنطة كان حوالي عشرة قروش، مما يدل على ان الصاع اكبر من الربع، وربما بلغ ضعفه او اكثر(٤٦٥). وطبيعي ان المقارنة بين اسعار الربع والصاع والمكاييل الاخرى، للتوصل الى مقارنة بين احجام هذه المكاييل، يجب ان تتم بحذر وبدقة كبيرة، نظرا لاختلاف نوعية كل سلعة، ونظافتها، ومواصفاتها الاخرى، كأن يكون العدس، مثلا، صحيحا او مجروشاً، وان تكون الحنطة معروقة او عادية. وكذلك يجب الاخذ بعين الاعتبار ان تكون المقارنة في الاسعار في موسم واحد يتساوى فيه العرض والطلب، بالنسبة لمختلف انواع الحبوب المراد مقارنة اسعارها.

وكان هناك كيالة محترفون يتفاضون اجورا على كيل الحبوب. وتقاضى كيال الشعير، مثلا، خمسة وعشرين قرشا على كيل الف ربع من الشعير(٤٦٦)، علما بان وسطي ثمن ربع الشعير كان ثلاثة قروش(٤٦٧). ولا نعلم ان كان هناك كيالون لكل مادة، كما قد توحي به عبارة « كيال الشعير ».

ومن المكاييل الاخرى « الحمل »، وهو ما يحمل على ظهر حيوان النقل. ولم ترد معلومات كثيرة حول الحيوان، الذي حملت عليه الاحمال عادة. فقد عهد الى مشايخ البدو بنقل كميات كبيرة من كيات الشعير والحنطة من شونة غزة الى بندر معان، والمفهوم انها نقلت على الجمال(٤٦٨)، وان الخيش الاسود او الاسمر استخدم لنقلها. وكانت الاشارة الى « زوج الخيش »، مما يعني ان كل زوج وضع على ظهر جمل، ولكن « الحمل » كمكيال أمر آخر. فقد اشارت الوثائق، مثلا، الى حملين من الحنطة، يضمنان اربعة وستين ريعا، سعرهما ٣٢٠ قرشا، بذمة مصطفى سلمان للمتوفى عبد القادر بن صالح الشوى(٤٦٩). وهذا يعني ان حمل الحنطة تألف من اثنين وثلاثين ريعا، وان سعر الربع خمسة قروش. واشير في تركة اخرى، بعد عام من تركة الشوى، الى حملين من الحنطة ضما اربعة وستين ريعا، بسعر ستة

قروش للربع<sup>(٤٧٠)</sup>. وإذا اعتبرنا ان الربع وزن ٣٢٧٣ ر كغ، فان وزن حمل الحنطة عادل ١٠٤٧٣٦ ر كغ. ونظرا لان حمل الجمل قد قدره (هنتس، ص ٢٧) بـ ٢٥٠ كغ، فان هذا الحمل الذي عادل ٣٢ رعا، يبدو انه حمل على حيوان اضعف من الجمل، مثل البغل او الحمارة.

واستخدم الحمل كمكيال بالنسبة لغير الحبوب، مثلا، جاء ذكر حمل ملح بيع بخمسين قرشا<sup>(٤٧١)</sup>، واحمال صوف استوردت من جدة، بطريق السويس، الى غزة. وبلغ عدد هذه الاحمال ٢٢ حملا، وزنها ٢٢٧ رطلا، أي ما يعادل ١٠٣١٨ رطل للحمل الواحد، وبيع الرطل منها في غزة بسعر ٧ر٥ قرشا<sup>(٤٧٢)</sup>. وذكر الكيس كمكيال، بمناسبة استيراد عدد من اكياس الذرة من الاسكندرية الى غزة، وداخل كل كيس ١٣ رعا من الذرة<sup>(٤٧٣)</sup>، أي ما يعادل ٤٢ر٥٤٩ كغ.

وذكرت الطبة كمكيال، بالنسبة للحبوب، واختلف مقدارها حسب الكيل الذي كيلت به، مثلا، توسط الحاضرون الصلح على ان يدفع المدعى عليه محمد ابن الحاج عودة الله، من اهل قرية تل الترمس، الى المدعي خليل بن علي القاطوع، من أهالي قرية الشيخ مونس، ثماني طبات ذرة بكيل قرية تل الترمس<sup>(٤٧٤)</sup>. ومعنى ذلك ان الطبة يمكن ان تقاس بكيل آخر. ولم نجد ما يساعد على التعريف بالطبة ونسبتها الى الكيلة، او الصاع، أو الربع. ولكنها تدل، من معناها، على ان الكيل الذي كيلت به كان يفرغ على الأرض، اي «يطب» على وجهه، لافراغ محتوياته، والكمية تكون «طبة». وتصف الطبة الى جانب اختها، ثم تعد فرادى، ويكون مجموعها، مثلا، ثماني طبات.

واستخدمت الجرة كمكيال، بالنسبة لعدد من الحبوب والسوائل. وكان سعر جرة الشعيرية، مثلا، في حوالي رجب ١٢٧٥ / شباط ١٨٥٩، ١٧ر٥ قرشا، وجرة البرغل ١٠، وجرة المفتول (برغل مفتول مع طحين) ١٦ر٢٥<sup>(٤٧٥)</sup>. وكانت قيمة جرة السيرج، في غزة جمادى الثاني ١٢٧٦ / ٢٦ كانون الاول ١٢٥٩، ٧٠ قرشا<sup>(٤٧٦)</sup>. وبلغت قيمة جرة الزيت، في التاريخ السابق، ٦٣ قرشا، وبيعت جرة زيت ونصف رطل زيت، في التاريخ نفسه (وفي التركة نفسها) بسعر ٦٦ر٥ قرشا، مما يعني ان سعر رطل الزيت بلغ سبعة قروش، وان جرة الزيت وسعت تسعة أرطال.

وذكرت الوثائق عددا من الاوزان استخدمت في غزة ومنطقتها، وكان ابرزها، واكثرها استخداما، الرطل. وورد ذكر نصف الرطل، وتلته الاوقية (جمعت أواق)، ثم الدرهم.

وذكرت احدى الوثائق «درهمين حرير»، في تركة احد المتوفين، مما يدل على اهمية هذه الكمية الصغيرة. ووجد ميزان خاص لوزن الحرير، عرف بميزان الحرير<sup>(٤٧٧)</sup>. ولم يرد في الوثائق ما يفيد عدد الاواق في الرطل، أو عدد الدراهم في الاوقية. والمعروف انذاك في مصر<sup>(٤٧٨)</sup> ان كل ١٢ أوقية عادت رطلا، وان الاوقية تألفت من ١٢ درهما. ونظرا لاختلاف هذه القيم، في الزمان والمكان، يصعب علينا معرفة ماذا كانت تعادل في غزة في فترة دراستنا.

واستخدم المثقال، عادة، لوزن الذهب والوَلُو. وبلغ وزنه في مصر، في النصف الاول من القرن التاسع عشر، درهما ونصف<sup>(٤٧٩)</sup>. وفي عام ١٨٤٠/١٢٥٦-١٨٤١ قدر بدرهم وثلاثة اسباع الدرهم، وبذلك يساوي الدرهم سبعة اعشار المثقال، أي ان كل دراهم تساوي سبعة مثاقيل. وقسم المثقال، في مصر، الى عدد من الحبات بلغ عددها ستة آلاف حبة<sup>(٤٨٠)</sup>. واستخدم الدرهم، عادة، لوزن الفضة.

وذكرت الوثائق انواعا كثيرة من النقود الفضية، وغيرها، المتداولة في غزة، واسعارها، في فترة دراستنا. واستخدم تعبير «دراهم» للدلالة على النقود بصورة عامة، كما نقول «بها امتعته ودراهمه»<sup>(٤٨١)</sup>. وقصد بالدراهم، احيانا، القروش، كما في التعبير التالي، الذي ورد في ضبط احدى التركات: «دراهم نقدي بيد السيد محمد عابدين، ٩٥ قرشا»<sup>(٤٨٢)</sup>.

وكانت الوحدة النقدية الاكثر تداولاً هي القرش (كتب احيانا الغرش) الفضة الاسدي. اما انواع العملات الاخرى، من محلية واجنبية، فضية وذهبية، قديمة وحديثة، فكانت موجودة بوفرة، ولكنها كانت أقل تداولاً، وعمد الى تخزينها، واكثر ما ورد ذكرها في التركات. وتسمية القرش بالاسدي مشتقة من اصل هولاندي، حيث ظهرت صورة الاسد على العملة الهولاندية<sup>(٤٨٣)</sup>. وقد استخدم نوعان من القرش في غزة ومنطقتها: قرش اسدي صاغ وقرش جرك، وكلاهما من الفضة. وجاء في كتاب (بيديكر)<sup>(٤٨٤)</sup> ان القرش الصاغ تعاملت به خزينة الدولة، في حين استخدم القرش الجرك في التجارة والشؤون العامة، وان الفرق بينهما بنسبة ٢٠ الى ١٨. وقد اشارت وثائق دمشق الشرعية، في فترة دراستنا، وفي معاملات البيع والشراء بين الافراد، الى «قرش فضة صاغ ميرية»، مما يدل على القيمة الرسمية لهذا القرش<sup>(٤٨٥)</sup>. وبالنسبة للوثائق الشرعية في غزة فالتعبير الذي شاع استخدامه فيها، في قضايا البيع والشراء، هو قرش اسدي، او قرش. ولا ندرى هل الاشارة هنا الى القرش الصاغ الرسمي (الميري) او الى القرش الشائع الجرك. ومما يجعلنا نميل الى الاخذ بالمعنى الثاني ما ورد في

احدى القضايا، في سجل محكمة غزة، من ان امرأة قبضت من زوجها مبلغا قدره من المعاملة الجرك او الجارية تسعة آلاف قرش وستاية قرش يعدل كل قرش اربعين فضة مصرية<sup>(٤٨٦)</sup>. وجاء في وثيقة اخرى ان الثمن بلغ ١٥٠٠ قرش اسدي عملة جرك<sup>(٤٨٧)</sup>، وفي مناسبة ثانية ان الثمن بلغ ٨٥٠ غرش جرك مقبوضة بالحضرة<sup>(٤٨٨)</sup>. ونستشف من هذا ان القرش الجرك كان شائع الاستخدام في غزة.

وتقسيم القرش الى اربعين (قطعة) فضية مصرية (اختصرت احيانا الى فضة او مصرية) سهل امور التعامل النقدي كثيرا. واشير الى قطعة الفضة، في غير غزة باسم «بارة» احيانا. ففي قضايا الطلاق ونفقة العدة، والحضانة، وفرض رسوم الطعام والشراب للمطلقة، او للقاصرين، استخدمت قطع الفضة المصرية لتحديد المبلغ الذي تراوح بين ٣٠ و ٨٠ قطعة فضة مصرية يوميا. ولم تكن هذه القطع من الفضة الصرف اذ خلطت بالنحاس<sup>(٤٨٩)</sup>. واطلق على قطعة الفضة المصرية، في الاصل، اصطلاح «نصف فضة»<sup>(٤٩٠)</sup>. ونظرا لتدني قيمتها وجد منها قطع بخمسة، وعشرة، وعشرين فضة. واشير، في كتابة الارقام، الى اجزاء القرش باشارات متعارف عليها، فالنصف علامته (ز)، والثالث (ر)، والربع (/)، والنصف والربع معا ( ) . واشير الى عدد قطع الفضة المصرية، خارج هذه النسب، كما يلي: (٥) أي خمس قطع فضة مصرية. مثلا، عشرة قروش، ونصف قرش، وخمس قطع فضة مصرية (مصري)، تكتب كالتالي (١٠ ٥).

ومن قطع النقود الفضية التي ورد ذكرها في وثائق غزة الشرعية الريال المجيدي، الذي اختصر احيانا الى المجيدي<sup>(٤٩١)</sup>، والتسمية نسبة الى السلطان العثماني عبد المجيد. ومن اقسام الريال المجيدي نصف المجيدي وربع المجيدي. وكلمة «ريال» مشتقة، في الاساس، من الريال الاسباني<sup>(٤٩٢)</sup>. وقدر «الكرمي»<sup>(٤٩٣)</sup> الريال المجيدي على انه يساوي ٨٠٠ بارة، او عشرين غرشا تركيا صاغا، او ثلاثة وعشرين غرشا تركيا شركا (اي جرك). وذكر ايضا ان وزن الريال المجيدي ١٢٥ قيراطا<sup>(٤٩٤)</sup>. وكان سعره في دمشق، في فترة دراستنا، ٢٢ر٥ قرشا<sup>(٤٩٥)</sup>.

واشارت وثائق غزة الى نقد عرف بالفرنك<sup>(٤٩٦)</sup>، وجاء في كتاب (بيديكر)<sup>(٤٩٧)</sup> انه من الفضة، وكان سعره في دمشق، في فترة دراستنا، اربعة قروش وخمسة مصاري<sup>(٤٩٨)</sup>. واستخدمت العملة المصرية الفضية من القروش في غزة في فترة دراستنا. فقد شريت دار في غزة بهذا النوع من القروش المصرية<sup>(٤٩٩)</sup>. وذكر الكرملي<sup>(٥٠٠)</sup> ان القرش المصري عملة فضية، وان وزنه هو ٧ر٥ من القرايط.

وشاع في غزة استخدام ريال فرانسة عامود<sup>(٥٠١)</sup>. وكان سعره ٣٢ قرشا. واذا كان مخزوقا فسعره ٣١ر٥ قرشا<sup>(٥٠٢)</sup>. وهذا الريال هو، في الاساس، ريال ماريا تيريزا<sup>(٥٠٣)</sup>. واشير اليه بلقب ابو مدفع، في غير غزة<sup>(٥٠٤)</sup>. اما في دمشق فأشير اليه بعامود، وكان سعره فيها، في فترة دراستنا، ٢٧ر٧٥ قرشا<sup>(٥٠٥)</sup>. ووجد ريال فرانسة شوشة<sup>(٥٠٦)</sup>. واشارت وثائق دمشق المعاصرة اليه باسم ريال شوشة او شوشة، واختلف سعره، في دمشق، بين عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هجرية، اذ هبط من ٢٦ر٥ قرشا الى ٢٥ر٧٥ قرشا<sup>(٥٠٧)</sup>.

واستخدم في غزة ريال سينكو (وذكر ايضا باسم سينكوا، وسنكو، وشنكو)، والكلمة مشتقة من الكلمة الايطالية خمسة<sup>(٥٠٨)</sup>. وكان سعره في غزة ٢٦ قرشا<sup>(٥٠٩)</sup>. وسعره في دمشق في ١٢٧٤ هـ ٢٤ر٢٥ قرشا، وفي ١٢٧٦ هـ ٢٤ر٥٠ قرشا<sup>(٥١٠)</sup>. وفي غزة ايضا ريال منون، وسعره ٢١ قرشا، ومنه نصف منون، وسعره ١٠ر٥ قرشا<sup>(٥١١)</sup> ولا نعلم وجه التسمية. وفيها كذلك نقد من نوع ناقشلي<sup>(٥١٢)</sup>، والتسمية لنقش عليه<sup>(٥١٣)</sup>، وربما هو نفسه منقشلي، الذي كان سعره ٤ قروش<sup>(٥١٤)</sup>. ووجد نقد مفرد، وسعره ٣ر٥ قرشا<sup>(٥١٥)</sup>، ونقد بوزلي<sup>(٥١٦)</sup>، اشار اليه الكرمللي<sup>(٥١٧)</sup> باسم بوزلك. ووجد نقد من نوع نصف وزري، وسعره ٣ قروش<sup>(٥١٨)</sup>، ونقد نافلي، وسعره ٤ر٧٥ قرشا<sup>(٥١٩)</sup>، وربيع زريفة، استخدمت لتحميل الحلق بها، ولعلها من الذهب<sup>(٥٢٠)</sup>، ونقد حميدي<sup>(٥٢١)</sup>، وغازي قديم، وسعره ٤ر٥ قرشا<sup>(٥٢٢)</sup>. ويبدو ان هذا الغازي كان من الفضة لان الغازي القديم الوزان من الذهب كان سعره في دمشق، آنذاك، ٣٧ قرشا<sup>(٥٢٣)</sup>.

ووجد في غزة، في فترة دراستنا، نقد نحاسي عرف بالفرنس<sup>(٥٢٤)</sup>. وقد ذكره (بيديكر)<sup>(٥٢٥)</sup> في كتابه. وعرف هذا النقد في دمشق، وكان سعره فيها، في عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ، ١٩ر٥ قرشا<sup>(٥٢٦)</sup>. ووجد نقد نحاسي آخر في غزة، اعتبر قديما، في الوثائق، وهو الزلطة<sup>(٥٢٧)</sup>. والتسمية من السلافية (Zoloto, Zolata)<sup>(٥٢٨)</sup> وكانت تساوي ثلاثين بارة، او ثلاثة ارباع القرش.

وكثرت انواع النقود الذهبية، العثمانية والاوربية، في غزة، في فترة دراستنا. ومن هذه النقود العثمانية الجهادي، ومن انواعه جهادي قديم، وسعره ١٠٥ قروش<sup>(٥٢٩)</sup>، وجهادي به نقص، وسعره حوالي ١٠٩ قروش<sup>(٥٣٠)</sup>. ولا ندري ما اذا كان الجهادي، الذي به نقص، نوعا من العملة، أم ان الجهادي، في هذا المثال بالذات، كان ناقصا قليلا. ووجد جهادي يابس، وكذلك نصف جهادي جديد، سعره ٤٠ قرشا<sup>(٥٣١)</sup>. وقد ذكر الكرمللي<sup>(٥٣٢)</sup> ان تسمية



هذا النقد الجهادي، نسبة الى الجهاد، واثار الى وجود جهادي من الفضة (٥٣٣) ، وكان سعر الجهادي الصحيح الوزان في دمشق، في عام ١٢٧٦هـ (٥٣٤)، ١١٢ قرشا، ونصف جهادي طري ٥٠ قرشا، ونصف جهادي يابس ٣٩ قرشا. واختلفت تسميات الجهادي هذه في دمشق، في فترة دراستنا، عن تسمياته واسعاره فيها في عام ١٨٣٩، وما حول ذلك، حين اشير فيها الى جهادي قديم وجهادي جديد (٥٣٥).

ومن النقود الذهبية في غزة المحبوب، ولعله مختصر من زر محبوب، والتسمية مشتقة من كلمة «زر» الفارسية، وتعني الذهب، وكلمة «محبوب» العربية (٥٣٦). واثارت وثائق غزة الى تداول محبوب اسلامبولي فيها (٥٣٧). ووجدت، في غزة، قطعة نصف محبوب، وسعرها ٢٠ قرشا (٥٣٨). ووجد نقد ذهبي باسم خيرى، وسعره ٣٠ قرشا (٥٣٩). ووجدت خيريات نواقص، سعر واحدتها ٢٩ر٤ قرشا (٥٤٠). وكان في التداول قطعة ربع خيرى (٥٤١)، وسعرها حوالي ٧ قروش (٥٤٢). واثارت وثائق غزة الى نقد خيرى قديم (٥٤٣) ولم يرد ذكر الخيرى بين فئات المعاملة في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦هـ (٥٤٤). ووجدت في مصر، حوالي فترة دراستنا، خيرية مصرية (٥٤٥).

واشارت وثائق غزة الى نقد ذهبي من نوع ربع عدلي، وسعره ٦ قروش (٥٤٦). وقد وجد نقد عادل في دمشق في حوالي ١٨٣٩ (٥٤٧)، ولم يرد له ذكر فيها، في عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦هـ (٥٤٨). ووجد في غزة ايضا نقد فندقلي ذهبي (٥٤٩). ويقول الكرملى (٥٥٠) ان هذا النقد هو نفسه البندقلي، نسبة الى البندقية. وكان سعر قطعة فندقلي صحيح في غزة ٦٠ قرشا (٥٥١). ووجد منه نصف فندقلي وربع فندقلي. وهذه الاخيرة كانت اكثر شيوعا، وسعرها ١٥ قرشا. ووجد ربع فندقلي سادة، سعره ١١ قرشا (٥٥٢). ولم يرد ذكر الفندقلي في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦هـ. ووجد في غزة ما عرف بنصف جنزيره، ولعلها من الذهب، وسعرها ٢٠ قرشا (٥٥٣).

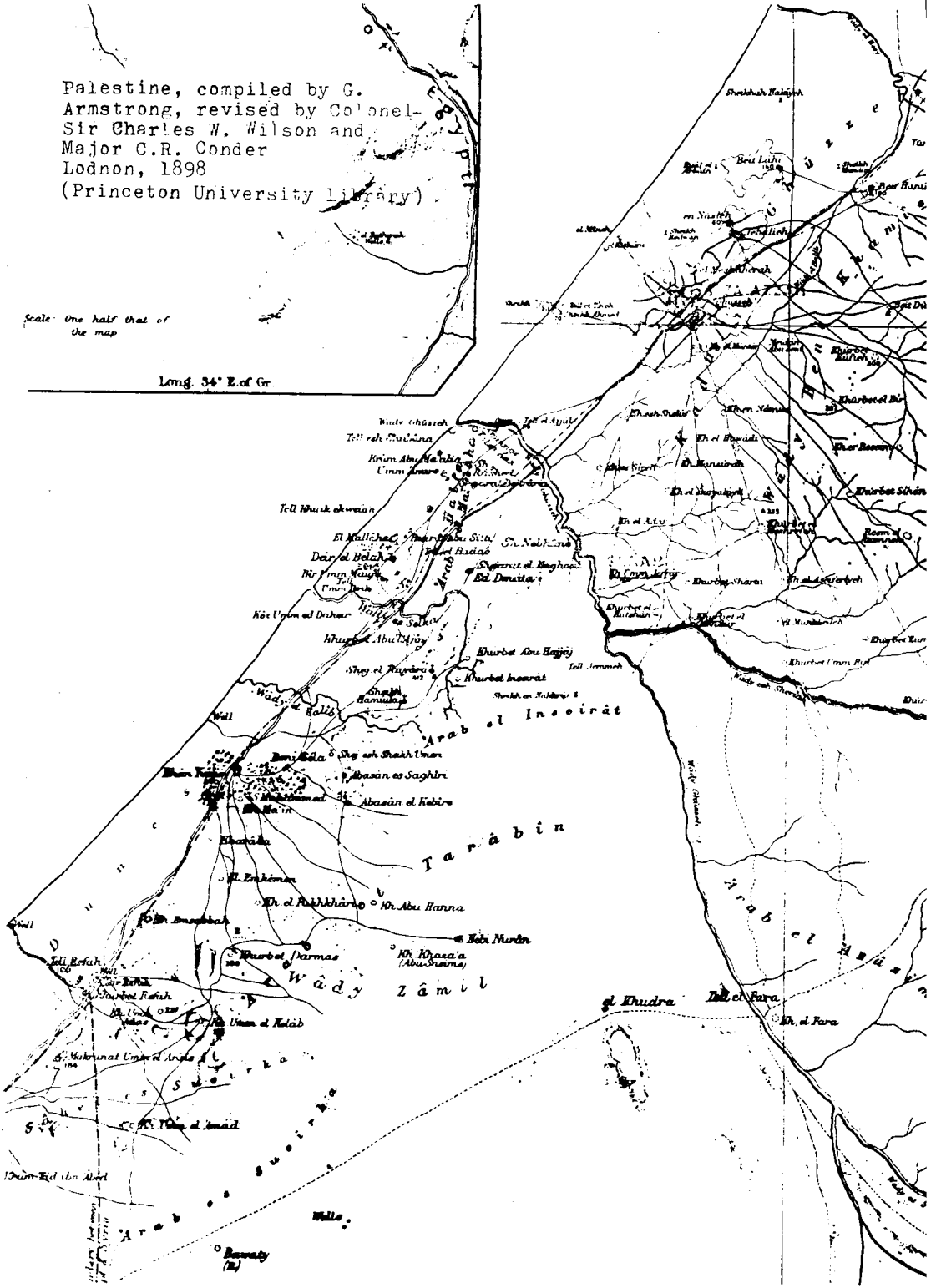
واستخدمت في غزة، في فترة دراستنا، عدة ليرات ذهبية، منها الليرة المجيدية، نسبة الى السلطان عبد المجيد، وسعرها ١٢٠ قرشا (٥٥٤). وكان سعرها في دمشق في ١١١هـ ١٢٧٤ و ١٣٠ قرشا، وفي ١١١هـ ١٢٧٦هـ (٥٥٥). ووجدت الليرة المسكوبية، وسعرها ١٣٠ قرشا، في حين كان سعرها في دمشق في ١٢٧٤هـ ٩٧ر٥ قرشا، وفي ١٢٧٦هـ ١٠٠ قرش (٥٥٦). ووجد كذلك ليرة بنيتوا او بنيته، وسعرها ١٠٥ قروش، ونقد ذهبي عرفت وحدته باسم

مجر (جمعها مجرات) ، وسعرها ١٢٠ قرشا، ولعله ليرة، لانه ذكر بين الليرات الاخرى .  
وورد ذكر مجر شباك، وسعره ٦٠ قرشا(٥٥٧). ووجد المجر في دمشق في عام ١٢٧٦ هـ  
وسعره ٥٦٥ قرشا. والملاحظ ان وثائق دمشق، المعاصرة لفترة دراستنا، اشارت الى ليرات  
ذهبية اخرى لم يرد ذكرها في سجل غزة، مثل الفرنساوية (سعرها ٩٥٥ قرشا في ١٢٧٤  
و ٩٨٥ في ١٢٧٦ هـ)، والانجليزية (سعرها ١٢٠ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٤ في ١٢٧٦ هـ)،  
والمصرية (سعرها ١٢٥ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٦ في ١٢٧٦ هـ)، وليرة ممدوحي (سعرها ٨٠  
في ١٢٧٧ هـ)، ودبلون (سعرها ٤٠٠ قرش في ١٢٧٦ هـ)، وقرانصة (سعرها واحد في  
١٢٧٤ هـ و ١٢٧٦ هـ، ومقداره ٥٧٥)، وقرانصة ربع (سعرها ٢٥٠ قرشا في  
١٢٧٦ هـ)(٥٥٨).

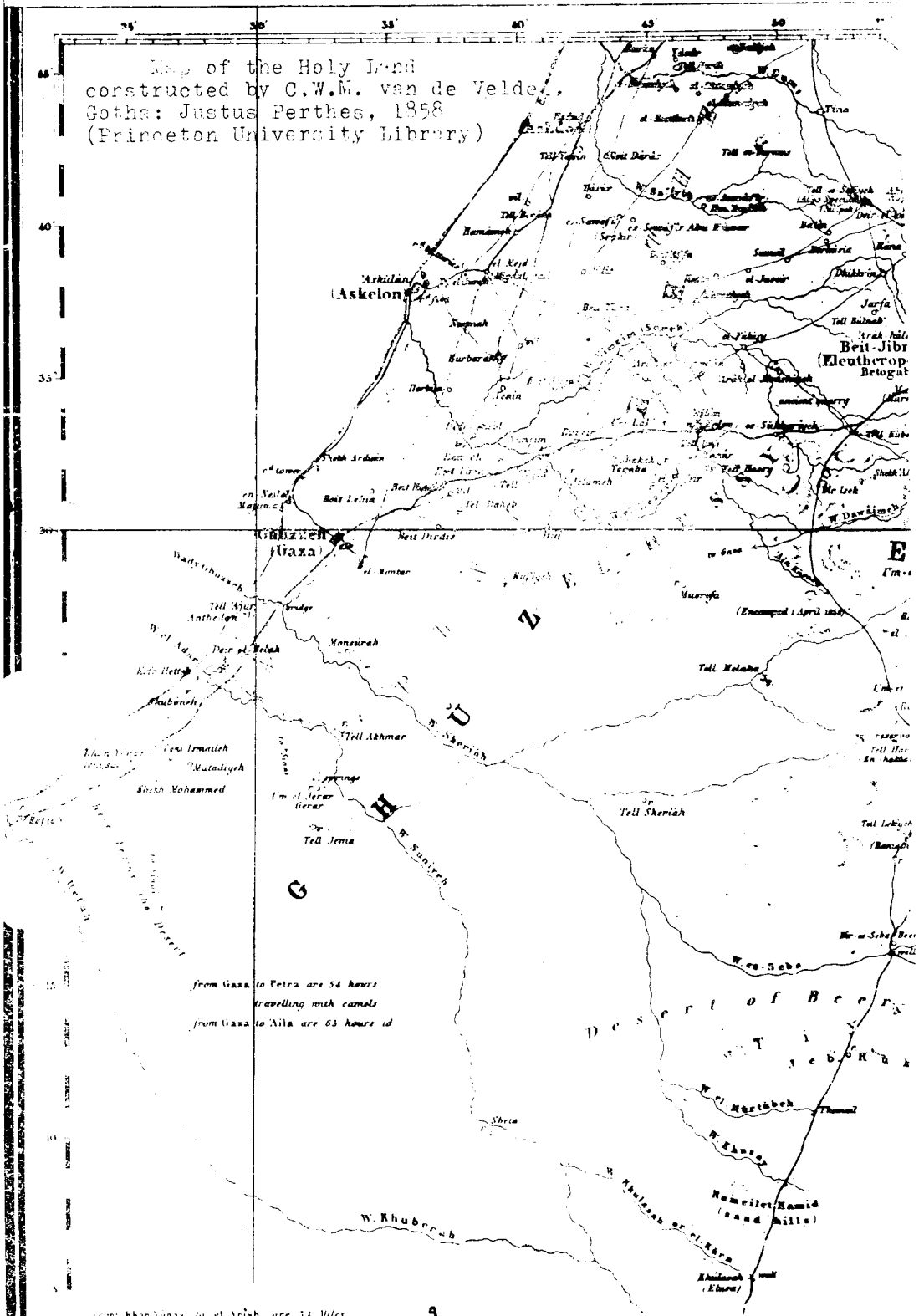
Palestine, compiled by G. Armstrong, revised by Colonel-Sir Charles W. Wilson and Major C.R. Conder  
 London, 1898  
 (Princeton University Library)

Scale: One half that of the map

Long. 34° E. of Gr.



Map of the Holy Land  
 constructed by C.W.M. van de Velde,  
 Gotha: Justus Perthes, 1858  
 (Princeton University Library)



from Gaza to Petra are 54 hours  
 travelling with camels  
 from Gaza to Aila are 63 hours id

from Khan Yunis to el Arish are 34 Miles

## مصادر البحث

- ١ - انظر حول حكم افراد هذه الاسرة ومملوكهم الامير فروخ، كتابنا: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨، ط٢، دمشق، ١٩٦٨، ص ١٦٤، ١٩٩-٢٠٠، ٢٠٨.
  - ٢ - انظر حول حكم حسين باشا ابن مكى في دمشق ومهاجمة البلو قافلة الحج الشامي، التي كانت بامرته، كتابنا: The Province of Damascus, 1723-1783, paperback ed., Khayats, Beirut, 1970, 209 ff.
  - ٣ - الخوري ميخائيل بريك، تاريخ الشام (١٧٢٠-١٧٨٢)، نشره الخوري قسطنطين الباشا، حريصا، ١٩٣٠، ص٣٦.
  - ٤ - المصدر السابق، ص٢.
  - ٥ - انظر مصور هذا الطريق في كتابنا: بلاد الشام ومصر، ص ٤٧٣.
  - ٦ - انظر: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، دار الطليعة، ج١، ق٢، ص ٩٧ وانظر حول طريق الحج المصري، كتابنا: بلاد الشام ومصر، ص ٤٧٥.
  - ٧ - سجل غزة، ص ١٢ مكرر، صورة أمر من اسماعيل كامل باشا، بتاريخ ١٢ جمادى الثاني ١٢٧٣ / (٧ شباط ١٨٥٧).
  - ٨ - سجل غزة، ص ٥٩.
  - ٩ - المصدر السابق.
  - ١٠ - سجل غزة، ص ٩٣.
  - ١١ - سجل غزة، ص ١٣١.
  - ١٢ - سجل غزة، ص ٤٣٩، ج٤ ٧٧ / (١٨ كانون الأول ٦٠).
  - ١٣ - انظر: K. Baedeker, *Palestine et Syrie, Manuel du Voyageur*, Deuxieme edition, Leipzig, 1893, p.159-
- ولكن (بيديكر) لم يقيم بنفسه بالرحلة التي يذكرها الكتاب الى فلسطين وسورية، بل قام بها وكتب وصفها، كما جاء في مقدمة الكتاب، Albert Socin، استاذ اللغات السامية في لايبزيغ، وهناك نسخة المانية اقدم من هذا. ونظرا لان هذه الرحلة تحمل اسم (بيديكر) فسنشير الى اسمه، حين الرجوع الى هذا المصدر. والجدير بالذكر ان تاريخ ١٨٨٩ ورد داخل الرحلة مما يجعلنا نشير اليها بانها كانت حوالي ١٨٩٠. وسنشير الى هذا الكتاب في مناسبات كثيرة فيما بعد.
- ١٤ - سجل غزة، ص ٩٣، ١٧ ر ٧٤ / (٥ كانون الأول ٥٧)، ص ١٣١، ١٩ ل ٧٤ / (٢ حزيران ٥٨)، ص ٤٠٥، ١٤ ر ٧٧ / (٣٠ ايلول ٦٠).
  - ١٥ - سجل غزة، ص ٢٢٣، ١٠ ذ ٧٥ / (١١ حزيران ٥٩).
  - ١٦ - سجل غزة، ص ٣٥٨: صورة مراسلة من قاضي القدس الى نائب الشريعة في غزة، بمناسبة تعيينه، بتاريخ ١ ذي الحجة ١٢٧٦ / (٢٠ حزيران ١٨٦٠).
  - ١٧ - انظر، مثلا، سجل غزة، ص ٣٥٨.
  - ١٨ - سجل غزة، ص ٨٣: صورة مراسلة، ص ٣٥٨: صورة مراسلة.
  - ١٩ - سجل غزة، ص ١٤٥: صورة أمر من ولي القدس الى كبار موظفي غزة، بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٤ / (٦ آب ١٨٥٨).

- ٢٠- سجل غزة، ص ١٩٠: صورة أمر من والي القدس الى نائب الشريعة في غزة، بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥ / (٧ كانون الثاني ١٨٥٩).
- ٢١- سجل غزة، ١٢ (مكرر): صورة أمر من والي القدس، بتاريخ ١٢ جمادى الثاني ١٢٧٣ / (٧ شباط ١٨٥٧).
- ٢٢- سجل غزة، ص ٨٣.
- ٢٣- سجل غزة، ص ٣٥٨: صورة مراسلة من قاضي القدس، بتاريخ ١ ذي الحجة ١٢٧٦ / (٢٠ حزيران ١٨٦٠).
- ٢٤- سجل غزة، ص ٧٩، ١٤٦.
- ٢٥- سجل غزة، ص ٧، ٢٨ جا ٧٣ / (٢٣ شباط ٥٧)، وانظر ص ١١٧، ٢١٦، ٢٦٧، ٣٧١.
- ٢٦- سجل غزة، ص: ٣، ٩٠، ١٢٣ (ذكر اسمه هنا بانه السيد صالح افندي علاي الدين عبد الحمي)، ص ١٢٨ (ذكر انه السيد صالح افندي، نجل نخبة الاشراف حسيني زادة المرحوم السيد علاي الدين افندي)، ص ٢٣٢، ٣٧٩، ٤٤٥، ٤٤٦.
- ٢٧- انظر حول موقع هذه القرى المصورت الملاحقة بهذه الدراسة، التي وضعت في فترة قريبة من الفترة التي نحن بصدد دراستها، وانظر مثلاً: الدراسة المفصلة لهذه القرى التي قام بها الدباغ، ج ١، ق ٢، ص ١٨٩-٣٠٦.
- ٢٨- عارف العارف (قائمقام غزة)، تاريخ غزة، مطبعة دار الايتام الاسلامية في بيت المقدس، ١٣٦٢/١٩٤٣، ص ١٩٧.
- ٢٩- Baedeker, p. 159
- ٣٠- العارف، ص ٢٠٩.
- ٣١- الدباغ، ج ١، ق ٢، ص ٩٩.
- ٣٢- انظر ما يلي، ص ٧٤.
- ٣٣- انظر ما يلي، ص ٥٦.
- ٣٤- سجل غزة، ص ٥٤، ١٥ ذ ٧٤ / (٢٧ تموز ٥٨).
- ٣٥- انظر حول المنطار، العارف، ص ٣٢٧، الدباغ، ج ١، ق ٢، ص ٩٩، وانظر ايضا:
- Baedeker, p. 159; Martin M. Meyer, *History of the City of Gaza*, 1st ed- Columbia University Press. 1907, reprinted by AMS Press, N.Y. 1966, pp.109-111-
- ٣٦- سجل غزة، ص ٣٧٣، ٤٧٧ / (٢٣ تموز ٦٠).
- ٣٧- سجل غزة، ص ٢٣٩، ٥٧٦ / (٤ آب ٥٩)، حيث اشير الى « حارت الزيتون » وهي محلة الزيتون.
- ٣٨- سجل غزة، ص ٣٤٢، ٢٦ ل ٧٦ / (١٧ أيار ٦٠).
- ٣٩- انظر:
- A ndre Raymond, *Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siecle*, 2 tomes, Damas, 1973, 1974, II, p.855.
- ٤٠- سجل غزة، ص ٢٣٣، ١٨ ذ ٧٥ / (١٩ تموز ٥٩).
- ٤١- سجل غزة، ص ٣٢٢، ١٢ ش ٧٦ / (٥ آذار ٦٠).
- ٤٢- سجل غزة، ص ١٤٥.
- ٤٣- سجل غزة، ص ٢٦٥، ١٧ را ٧٦ / (١٣ تشرين الثاني ٥٩).

- ٤٤ - سجل غزة، ص ٥٢، ١٧ م ٧٤ / (٧ ايلول ٥٧).
- ٤٥ - Reconnaissance of Gaza, of the villages of Harrat IT TE Fear and Sajaeah, by Lt Aldrich RI Engrs, June 1941.
- ٤٦ - انظر مايلي، ص هكذا في الاصل
- ٤٧ - انظر: Amnon Cohen and Bernard Lewis, **Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century**, Princeton University Press, 1978, pp. 117-677.
- ٤٨ - Baedeker, p. 159
- ٤٩ - G- Gatt, «Legende zum Plane von Gaza», **ZDVP (Zeitschrift des deutschen Palestina Vereins)**, XI (1888), pp. 149-159.
- ٥٠ - انظر بصورة خاصة: Cohen and Lewis, p. 127
- ٥١ - Ibid., p. 128
- ٥٢ - Ibid., p. 120, n. 15
- ٥٣ - انظر مايلي، ص ٣٨.
- ٥٤ - **Encyclopaedia of Islam**, 2nd ed., s.v. Ghazza, pp. 1080-1081.
- ٥٥ - ص ٢٥٥.
- ٥٦ - ذكر العارف، ص ٢٥٥، ان تسميتها تعود الى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد في غزة سنة ٦٣٧ / (١٢٣٩-١٢٤٠)، ابان الحروب الصليبية. وذكر الدباغ، ج ١، ق ٢، ص ٥٣، احتمال نسبة الشجاعة الى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد بغزة، ولكنه، في هامش ٢، رجح ان الاسم نسبة الى «السجاعة»، وهي بلدة من اعمال «المحلة الكبرى»، في مصر، وان جماعة منها نزلت غزة وسميت البقعة التي استقرت فيها باسم وطنها الاول.
- ٥٧ - ذكر العارف، ص ٢٥٦، ان التسمية نسبة الى القبائل التركانية التي سكنت غزة، في القرن الثالث عشر، في عهد السلطنة المملوكية. ولا ندري اذا كان للتسمية من علاقة بمسجد ركن الدين التركاني الذي بناه ركن الدين عمر بن خليل التركاني الغزي في ٧٨٢ / (١٣٨٠-١٣٨١)، والذي ذكر العارف، ص ٣٥٣، انه اندثر في عهده.
- ٥٨ - ذكر العارف، ص ٣٤٩، ان كثيرين يظنون ان الذي بنى هذا الجامع هو جان بردي الغزالي والي الشام (ومن ضمنها غزة) في مطلع الحكم العثماني.
- ٥٩ - هناك مسجد آخر باسم محمد المغربي تسمى به خط في محلة البرجلية. وقد اشار العارف، ص ٣٤٦، ٣٤٧، الى مسجد المغربي، المسمى ايضا بمسجد الشيخ المغربي، وانه في حي الدرج. والمعروف لدينا، من خلال الوثائق الشرعية، ان خط مسجد الشيخ محمد المغربي وجد في محلة البرجلية التي اندمجت، في زمن العارف، وما قبله بحارة الدرج. لذا فمسجد المغربي الذي أشار اليه العارف هو مسجد محمد المغربي. ويبقى مسجد علي المغربي دون تعريف.
- ٦٠ - هكذا وردت كتابتها في الوثائق الشرعية، وستبقى كتابة الاسماء كما وردت.
- ٦١ - ذكر العارف، ص ٣٥٣، ان مسجد الشيخ مسافر، في حي السجاعة، كان مندثرًا في زمنه. وذكر ان الذي أنشأه هو الحاج سعد الدين مسافر بن قتبغلي، احد المماليك السلطانية، في عام ٧٠٦ / (١٣٠٦-١٣٠٧).

- ٦٢- لعله إشارة الى مسجد العابد، الذي ذكر العارف، ص ٣٥١، انه كان مهجورا في زمنه، وانظر ايضا، العارف ص ٣٥٤.
- ٦٣- نسبة الى جامع الباسطية. وجاء في الوثائق تعبير «خربة جامع الباسطية»، سجل غزة، ص ٩٩، ١٨ جا ٧٤ / (٤ كانون الثاني ٥٨)، ولا ندري أكان الجامع خربة أم أن خربة وجدت قرب الجامع فعرف بها؟ وذكر العارف، ص ٣٥٣، ان هذا المسجد كان مندثرا في زمنه، وقامت في مكانه مطحنة زمو.
- ٦٤- ذكر العارف، ص ٣٥٣، ان هذا المسجد كان مندثرا في زمنه.
- ٦٥- اشار اليها Gatt, p. 157 في عام ١٨٨٧ انها ساقية اخليل.
- ٦٦- ذكر العارف، ص ٣٥٢، مسجد الشيخ الباز في حي التفاح بغزة، وانه كان مندثرا بكامله في زمنه. وقد يكون ان الشيخ الباز هذا تسمى خط الباز باسمه في محلة البرجلية او ان مسجد الشيخ الباز كان في محلة البرجلية، وسمي الخط، بالنسبة اليه، اختصارا بخط الباز.
- ٦٧- ذكر العارف ص ٣٥٠ ان هذا المسجد انشئ من قبل شهاب الدين ازفهر بن الظفر دمري في سنة ٧٦٢ / (١٣٦٠-١٣٦١)، وينسب الى ظفر دمر من بلاد المغرب، وانه عامر الى يومه.
- ٦٨- لم يرد ذكره في كتاب العارف، سواء بين اسماء المساجد القائمة أو المهجورة أو المندثرة، او بين المزارات.
- ٦٩- لا نعلم فيما اذا كان للشيخ علي ابو الكاس مقام او مسجد اندثر (لم يشر اليه، على اية حال، العارف) في هذا الخط. و اشار Gatt, p. 151 الى مقبرة ابو الكاس في غزة.
- ٧٠- ذكر العارف، ص ٣٤٢، والدباغ، ج ١، ق ٢، ص ١٢٦، ان هذا الجامع من الجوامع الكبيرة في غزة، وبأني بعد الجامع العمري الكبير من حيث الحجم ومتانة البناء، والذي بناه هو احمد بن عثمان من رجال القرن الثامن الهجري.
- ٧١- لا نعرف الاسم الكامل لهذا الشيخ ولا لماذا نسب الخط اليه.
- ٧٢- اشار العارف، ص ٣٣٠-٣٣٧، والدباغ، ج ١، ق ٢، ص ١٢٤-١٢٦، الى الجامع العمري الكبير وانه قائم في محلة الدرج، وانه بني في مكانه، في الاصل، معبد وثني، ثم كنيسة بيزنطية. ولكن الوثائق الشرعية في فترتنا ذكرت خط الجامع الكبير في محلة الشجاعية وكذلك في محلة البرجلية، وربما ان الخط استمر في المثلين نظرا لان الجامع واحد وبما ان العارف، ص ٢٥٥، حين تعداد احياء غزة، لم يشر الى محلة البرجلية، التي يعتقد انها دمجت بحجى الدرج، فان هذا يفسر ورود الجامع الكبير في حي الدرج في تصنيفه. انظر وصف الجامع الكبير حوالي عام ١٨٩٠ في كتاب Baedeker, p- 159
- ٧٣- ذكر العارف ٢، ص ٣٥٠، ان هذا الجامع واقع في حي الشجاعية، ولا يعرف عن ماضيه شيئا.
- ٧٤- ذكر العارف، ص ٣٥٠، ان التسمية نسبة الى اسم زوجة احد حكام غزة العثمانيين.
- ٧٥- اشار العارف، ص ٣٥١، الى ان هذا الجامع، الذي أضحى في عهده في حي الدرج، هجرة الناس، مع جوامع اخرى، لقلته استعمالها، او لعدم تصليح الخراب فيها. وورد هذا الخط ايضا في محلة الدرج، انظر فيما يلي، ص ٢٣.
- ٧٦- ذكر العارف، ص ٣٤٨، وجود مسجد زاوية الهنود. وحول هذه الزاوية، انظر فيما يلي، ص ٢٧.
- ٧٧- لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم. ولا ندري اذا كان لهذه التسمية من علاقة باسم الشيخ عياد بن الشيخ عبد الله الايكي، الذي ذكر العارف، ص ٣٤٠، انه مدفون بالقرب من السيد هاشم.
- ٧٨- ذكر العارف، ص ٣٤٧، ان هذا المسجد كان صغيرا، وانه ينسب الى فرج، عبد السيد محمد بن خطاب، من اواخر القرن العاشر (اواخر القرن السادس عشر)، وانه دفن في ذلك الموقع وبني مسجد عنده.



- ٧٩- انظر فيما سبق، ص ١٨، هامش ١. لعل هذا المسجد هو الذي اشار اليه العارف، ص ٣٤٦، ٣٤٧، وانه كتب على مدخله ان الذي أمر بانشائه هو شاهين بن عبد الله الكجكلي، وأوقف الإوقاف عليه في ١٣٨٤/٧٨٦-١٣٨٥.
- ٨٠- لا تتوافر معلومات حوله.
- ٨١- ذكر العارف، ص ٣٥١، ان مسجد الهليس كان مهجورا في زمنه.
- ٨٢- انظر فيما يلي، ص ٢٣.
- ٨٣- انظر فيما يلي: ص ٥٤.
- ٨٤- انظر فيما يلي، ص ٥٣.
- ٨٥- ذكر العارف، ص ٣٥٢، ان هذا المسجد، الذي كان مندثرا في عهده، بني في القرن الثامن الهجري، وبني كذلك لأن فيه قبر الشيخ علي الاندلسي المتوفي في رجب ٧٥٩ / (حزيران ١٣٥٨).
- ٨٦- ذكر العارف، ص ٣٥٢، انه من المساجد المندثرة في زمنه وان مقبرة حلت مكانه.
- ٨٧- ذكر العارف، ص ٣٣٧، ان هذا الجامع، في حي الدرج، من اكبر جوامع غزة واتقنها بناء، وانه يعتقد ان السيد هاشم جد الرسول الكريم مدفون فيه، وقيل انه بني في ١٢٦٨ / (١٨٥١-١٨٥٢) من قبل السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١). ولكن مما يشكك في هذا الكلام ما جاء في وصف هذا الجامع في كتاب Baedeker, p.159، في حوالي عام ١٨٩٠ من ان هذا الجامع assez vieille، وانه رُم في ذلك القرن، أي التاسع عشر.
- ٨٨- ذكر العارف، ص ٣٥٢، مسجد العجمي بانه من المساجد التي اندثرت في زمنه، ولكنه ذكر ان موقعه في حي الزيتون. ونظرا لأن الوثائق الشرعية ذكرت خط مسجد العجمي في حي البرجلية ومسجد محمد العجمي في حي الزيتون، ولعل الاسمين للشخص نفسه وان خط مسجد العجمي، امتد في الحيين، او ان خط مسجد العجمي في البرجلية هو غير خط مسجد محمد العجمي في محلة الزيتون.
- ٨٩- ذكر العارف، ص ٣٥١، ان جامع الشيخ منصور، في حي الدرج، بجوار خان الكنان، كان مهجورا في عهده
- ٩٠- وجد خط في محلة الدرج يحمل اسم مسجد البلاطة، انظر فيما يلي، ص ٢٢، والتشابه في التسمية ربما يفسره ان الخط امتد في المثلثين باسم واحد تقريبا (مع اختلاف بين جامع ومسجد). ولا نعرف دلالة «البلاطة».
- ٩١- لا تتوافر معلومات حول هوية الشيخ شرف.
- ٩٢- لم يشر اليه العارف بين المساجد القائمة، أو المهجورة، أو المندثرة. وإذا لم يكن له من اسم آخر فلعله يندرج تحت جملة «جوامع سمعت بها ولكنني لم اعثر لها على أثر»، كما ذكر العارف، ص ٣٥٣.
- ٩٣- ذكر Gatt, p. 157، ساقية الدرجية في غزة في عام ١٨٨٧ ولعلها ساقية الدرج.
- ٩٤- لا نعلم دلالة الكلمة.
- ٩٥- يبدو ان جامعا كان مندثرا في زمن العارف، ص ٣٥٢، قد اقترن بالزاوية.
- ٩٦- ذكر اوليا جلبي، الذي زار غزة في عام ١٦٤٩ (انظر العارف، ص ١٧٩)، ان في غزة قلعة تبعد ساعة عن البحر الى الشرق. ولم ترد في الوثائق الشرعية، في فترة الدراسة، معلومات عن القلعة. وقد اشار الى هذه القلعة الياس ديب مطر في كتابه المطبوع عام ١٨٧٤، وعنوانه: العصور الدرية في المملكة السورية، وذكره الدباغ، ج ١، ق ٢، ص ٩٨.
- ٩٧- انظر فيما سبق، ص ١٩.
- ٩٨- يظن ان عثان قوشقار ألباني الاصل، انظر العارف، ص ٣١٩.

- ٩٩- لم يتبين لنا وجه التسمية.
- ١٠٠- وجد في هذا الخط دار اولاد شبير (سجل غزة، ص ١٨٠، ١٧ ر ٧٥ / (٢٤ تشرين الثاني ٥٨) ويبدو انه سمي نسبة اليها.
- ١٠١- ذكر العارف، ص ٣٥٤، مزار الشيخ عطية، الذي كان مسجدا، وهو في زمنه مزار فيه قبر بنت الامام الشافعي، ونخادمه الشيخ عطية، واطاف، ص ٣٥١، ان المسجد اصبح مهجورا في عهده.
- ١٠٢- ذكر العارف، ص ٣٤٠، انه من الجوامع الشهيرة بغزة في زمنه، وانه نقش على بابه الخارجي ان سنجر بن عبد الله الجاولي، نائب غزة في ٧١١-٧٢٠ / (١٣١١-١٣٢٠) وفي ٧٤٠ / (١٣٣٩-١٣٤٠) أمر ببنائه.
- ١٠٣- عرف ايضا بجامع كاتب الولاية، كما يقول العارف، ص ٣٣٨، والديباغ، ج ١، ق ٢، ص ١٢٧، واطاف العارف انه بالقرب من كنيسة الروم الاثوذكس، وانه نقش على بابه ان احمد بك كاتب الولاية أمر ببناء هذا الجامع في أوائل ذي القعدة ٩٩٥ / (أوائل تشرين الاول ١٥٨٧). وقد اشار اليه Gatt, p. 152، باسم جامع كاتب ولايات.
- ١٠٤- من الجوامع التي اندثرت تماما في عهد العارف، انظر ص ٣٥٢.
- ١٠٥- ذكرها Gatt, p. 152، من جملة سواقي غزة. ويبدو انه وجد عندها مسجد عرف بمسجد القيدة، انظر العارف، ص ٣٥٢.
- ١٠٦- ذكر العارف، ص ٣٥١، ان مسجد الشيخ الياس يقع، في زمنه، امام مقبرة آل الشوا، بالقرب من زاوية الشيخ عايد (انظر فيما سبق، ص ١٨، وانه كان مهجورا انذاك.
- ١٠٧- اشار العارف، ص ٣٤٩، الى مسجد العجمي، في حي الزيتون، والى قيام الصلوات الخمس فيه. وذكر ان هناك مسجدين بهذا الاسم: واحد في حي العجمي وآخر في حي المباشر لكنهما في حالة من الخراب شديدة. ثم ذكر، ص ٣٥٢، ان مسجد العجمي، في محلة الزيتون، كان مندثرا في زمنه، ولا نعلم أي مسجد من هذه المساجد يتفق مع المسجد الذي ذكرته وثائق غزة الشرعية. وذكر Gatt, p. 152 جامع العجمي.
- ١٠٨- ذكر العارف، ص ٣٥١، ان هذا المسجد كان مهجورا في زمنه.
- ١٠٩- لا تتوافر معلومات عنه.
- ١١٠- كانت أسرة شير من الاسر الكبيرة في غزة في فترة دراستنا.
- ١١١- لا تتوافر معلومات عنه.
- ١١٢- من المساجد التي ذكرها العارف، ص ٣٥١، بانها مهجورة في زمانه، واطلق عليه لقب جامع.
- ١١٣- سمي بذلك لانه أعلى من المناطق المجاورة ويشعر المرء وكأنه يرتقي درجا للوصول اليه، انظر، العارف، ص ٢٥٥، و Gatt, p. 142
- ١١٤- ذكره العارف، ص ٣٥١، باسم جامع الشيخ ظريف، وانه في حي الدرج، وكان مهجورا في زمنه.
- ١١٥- لعل التسمية مشتقة من جامع الشيخ ذكري، الذي ذكر Gatt, p. 142 وجوده في غزة في ١٨٨٧.
- ١١٦- لعل التسمية نسبة لمسجد الشيخ خالد، الذي يحمل كتابة تذكر انه جدد في أوائل جمادى الأولى ٩٥٥ / (أواسط حزيران ١٥٤٨)، وانه يضم ضريح الشيخ خالد المتوفي سنة ٧٤٩ / ١٣٤٨-١٣٤٩، انظر، العارف، ص ٣٤٧.
- ١١٧- هناك خط آخر باسم الخرابة ورد ذكره في محلة البرجلية (انظر فيما سبق، والتسميات تشير الى كثرة الخراب في هذين الخطين.
- ١١٨- انظر فيما سبق، ص ٢١.
- ١١٩- انظر فيما يلي، ص ٥٥.

- ١٢٠- انظر فيما يلي، ص ٥٤.
- ١٢١- يبدو ان التسمية بالنسبة لمزار الشيخ شعبان، الذي كان من أولياء غزة، او ربما لقبه الشيخ شعبان، انظر Gatt, p. 152, Baedeker, p. 159 واذا كان الشيخ شعبان هذا هو الذي ذكره العارف، ص ٣٥١، حين أورد اسم مسجد الشيخ شعبان ابي القرون ووصفه بانه مهجور فرما تكون التسمية مشتقة ايضا من هذا المسجد.
- ١٢٢- لعل التسمية نسبة الى جامع البيمارستان الذي ذكره العارف، ص ٣٥٢، بانه من الجوامع التي اندثرت في زمنه، وان به رباطا انشأه الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون سنة ٧٣٠/١٣٢٩-١٣٣٠، وانه بقي عامرا حتى عام ١٢١٥/١٨٠٠ اذ تهدم ابان هجوم نابليون بونابرت.
- ١٢٣- لعل التسمية بالنسبة الى مقبرة الخروبي التي ذكرها Gatt, p. 151
- ١٢٤- كان هذا الجامع عامرا في زمن العارف، انظر، ص ٣٤٠، وتسميته بالنسبة الى الشيخ عبد الله الايكي من مماليك عز الدين ابيك المدفون بجانبه.
- ١٢٥- لا تتوافر معلومات حول هذا الجامع.
- ١٢٦- لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم، ولعله اتخذ تسمية اخرى.
- ١٢٧- انظر فيما يلي، ص ٥٤.
- ١٢٨- ذكره العارف، ص ٣٤٩، بانه يقع الى جانب بئر الاحمقية، وانه سمي كذلك لوجود سدره بالقرب منه.
- ١٢٩- لعل التسمية نسبة الى اسرة الشرفا التي ذكرتها وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا.
- ١٣٠- ذكرها Gatt, p. 154 في ١٨٨٧، وذكر العارف، ص ١٧٧، انها بنيت في عهد حكام غزة من آل رضوان في القرن السادس عشر.
- ١٣١- هناك خط مسجد كاتب الاوليا بمحلة الزيتون-انظر فيما سبق ص ٤٢- مما يدل على ان هذا الخط مر بمحلي الزيتون والخضر.
- ١٣٢- انظر فيما سبق، ص ٢٣، هامش ١، ويبدو ان هذا الخط مر بمحلي الزيتون والخضر.
- ١٣٣- لعلها سميت كذلك لكون سكانها، كما قيل (العارف، ٢٥٥) ينتسبون الى عامر بن لؤي.
- ١٣٤- انظر فيما سبق، ص ١٨، هامش ١.
- ١٣٥- George Makdisi, «Muslim institutions of learning in eleventh-century Baghdad», *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, London, XXIV (1961), pp. 1-56.
- ١٣٦- ص ٣٣٠، ٣٣٦.
- ١٣٧- انظر مثلا، ص ١٠، ٥ ج ٧٣ / (٣١ كانون الثاني ٥٧)
- ١٣٨- ذكره العارف، ص ٣٣٠، باسم جامع المحكمة، سجل غزة، ص ١٣٣، ٧ ذ ٧٤ / (١٩ حزيران ٥٨).
- ١٣٩- انظر فيما سبق، ص ٢٢.
- ١٤٠- ذكر العارف، ص ٣٥٢، انه كان مندثرا في زمنه.
- ١٤١- سجل غزة، ص ٢٧٨، ٥ جا ٧٦ / (٣٠ تشرين الثاني ٥٩).
- ١٤٢- ص ٣٤٨.
- ١٤٣- انظر فيما يلي، ص ٤٣.
- ١٤٤- ذكر العارف، ص ٣٥٣-٣٥٥، عشرة من هذه المزارات في غزة.
- ١٤٥- انظر فيما سبق ص ٢٠، وانظر: سجل غزة، ص ١٢٣، ٧٤ ن ٧٤ / (٢١ نيسان ٥٨).
- ١٤٦- سجل غزة، ص ٣٧١، ٧٧ م ٧٧ / (٢٦ تموز ٦٠).

- ١٤٧- انظر كتابنا: العرب والعثمانيون، ١٥١٦-١٩١٦، دمشق، ١٩٧٤، ص ١٣١.
- ١٤٨- سجل غزة، ص ٢٧٥، ختام ر ٧٦ / (٢٥ تشرين الثاني ٥٩).
- ١٤٩- ص ٣٤٨.
- ١٥٠- سجل غزة، ص ٢٢، ٣٣ ن ٧٣ / (٢٧ نيسان ٥٧).
- ١٥١- يبدو ان هذه الزاوية ضمت جامعا، عرف بجامعة ابي مدين القوث. وقد ذكر العارف، ص ٣٥٢، انه كان مندثرا في زمنه، ووصفه انه في حي الدرج، الذي اندمج في حي الرحلية.
- ١٥٢- سجل غزة، ص ٣٦٨، غزة م ٧٧ / (٢٠ تموز ٢٦٠).
- ١٥٣- سجل غزة، ص ٢٣٣، ١٨ ذ ٧٥ / (١٩ تموز ٥٩).
- ١٥٤- سجل غزة، ص ٣٢٨، ٢٩ ش ٧٦ / (٢٢ آذار ٦٠)، وانظر ايضا، ص ٣٢٢، ١٤ ش ٧٦ / (٧ آذار ٦٠).
- ١٥٥- انظر فيما سبق، ص ٢٤، سجل غزة، ص ٣٢٢، ١٤ ش ٧٦ / (٧ آذار ٦٠)، ذكر Gatt, p. 158، حمام السمرة.
- ١٥٦- سجل غزة، ص ٢٤٩، ٩ م ٧٦ / (٨ آب ٦٠).
- ١٥٧- سجل غزة، ص ٣٩، ١٤ ذ ٧٣ / (٦ تموز ٥٧)، وانظر: Gatt, p. 159.
- ١٥٨- سجل غزة، ص ٤٣٢، ١٠ ج ٧٧ / (٢٤ تشرين الثاني ٦٠).
- ١٥٩- سجل غزة، ص ٤٤٧، ١٥ ج ٧٧ / (٢٩ كانون الأول ٦٠).
- ١٦٠- سجل غزة، ص ٣٧٩، ٢٥ م ٧٧ / (١٣ آب ٦٠).
- ١٦١- سجل غزة، ص ٢٦٨، ٣ ر ٧٦ / (٣٠ تشرين الأول ٥٩).
- ١٦٢- سجل غزة، ص ٣٨٨، ١٣ ص ٧٧ / (٣١ آب ٦٠).
- ١٦٣- سجل غزة، ص ٣٣١، ١٩ ب ٧٦ / (٧٧ شباط ٦٠)، ص ٣٨٨، ١٣ ص ٧٧ / (٣١ آب ٦٠).
- ١٦٤- سجل غزة، ص ٢٦٣، ١٩ ش ٧٥ / (٢٤ آذار ٥٩).
- ١٦٥- سجل غزة، ص ٢٤٥٥، ١٣ ب ٧٧ / (٥ شباط ٦٠).
- ١٦٦- سجل غزة، ص ٤٤٣، ١٣ ج ٧٧ / (٨ كانون الأول ٥٩).
- ١٦٧- سجل غزة، ص ٩٢، ١٧ ر ٧٤ / (٥ كانون الأول ٥٧).
- ١٦٨- سجل غزة، ص ٣٦، ٢٣ ل ٧٣ / (١٦ حزيران ٥٧).
- ١٦٩- سجل غزة، ص ٣٩٩، ختام ص ٧٧ / (١٦ ايلول ٦٠).
- ١٧٠- سجل غزة، ص ٣٦٨، غزة م ٧٧ / (٢٠ تموز ٦٠).
- ١٧١- سجل غزة، ص ٢٤٨، ٥ ص ٧٦ / (١٣ ايلول ٥٩).
- ١٧٢- سجل غزة، ص ٦٠، ١١ ص ٧٤ / (١ تشرين الأول ٥٧).
- ١٧٣- Baedeker, p. 158
- ١٧٤- سجل غزة، ص ٤٢٤، قضية دون تاريخ تقع بين قضيتين تاريخهما ٢٣ و ٢٤ ر ٧٧ / (٩ تشرين الأول و ١٠ تشرين الأول ٦٠). ونظرا لتكرار هذه الحالة فسنشير الى تاريخ القضية حسب تاريخ سابقها، لان المفروض ان تكون قد سجلت بعدها، بتاريخها نفسه. ولكن يلاحظ ان تواريخ القضايا لم يكن متسلسلا، أي انه لن يفيدنا، حتى لو ذكرنا تاريخ القضية السابقة، تاريخ القضية اللاحقة.
- ١٧٥- سجل غزة، ص ٥٠، ختام الحجة ٧٣ / (٢١ آب ٥٧).
- ١٧٦- سجل غزة، ص ٣٧، ٢٨ ل ٧٣ / (٢١ حزيران ٥٧).

- ١٧٧- سجل غرة، ص ٤٤، ١٤ ذ ٧٣ / (٥ آب ٥٧).
- ١٧٨- انظر: العارف، ص ١٨٠، Baedeker, p. 159.
- ١٧٩- سجل غرة، ص ٣٨٠، ٢٥ م ٧٧ / (١٣ آب ٦٠).
- ١٨٠- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٤٣، ١٣ ذ ٧٣ / (٤ آب ٥٧)، ص ٤٤، ١٤ ذ ٧٣ / (٥ آب ٥٧).
- ١٨١- سجل غرة، ص ١٣، ٢٣ ج ٧٣ / (١٩ كانون الثاني ٥٧).
- ١٨٢- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٤٤، ١٤ ذ ٧٣ / (٥ آب ٥٧).
- ١٨٣- سجل غرة، ص ٤٤٠، ٤ ج ٧٧ / (١٨ كانون الاول ٦٠)، وانظر ايضا: ص ٢٣، ٢٤ ب ٧٣ / (٢٠ آذار ٥٧).
- ١٨٤- انظر مثلا: سجل غرة، ص ١٦٩، ١٩ ر ٧٥ / (٢٦ تشرين الثاني ٥٨)، ص ٢٠٤، ٢٥ ب ٧٥ / (٢٨ شباط ٥٩)، ص ٢٠٨، ٢٥ ب ٧٥ / (٢٨ شباط ٥٩)، ص ٤٥٨، غاية ب ٧٧ / (١١ شباط ٦١).
- ١٨٥- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٣٣٥، ٢٧ ن ٧٦ / (١٨ نيسان ٦٠)، ص ٣٣٦، ٣ ل ٧٦ / (٢٤ نيسان).
- ١٨٦- انظر مثلا: سجل غرة، ص ١٣٢، ٣ ذ ٧٤ / (١٥ حزيران ٥٨)، ص ٢٥٢، ٩ ذ ٧٥ / (١٠ تموز ٥٩)، ص ٤٤٢، ٦ ج ٧٧ / (٢٠ تشرين الثاني ٦٠).
- ١٨٧- سجل غرة، ص ١١٠، ٦٠ ص ١١ / (١ تشرين الاول ٥٧).
- ١٨٨- سجل غرة، ص ٤٣، ١٣ ذ ٧٣ / (٣ آب ٥٧).
- ١٨٩- انظر فيما يلي، ص ٧٨.
- ١٩٠- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٣٧، ٢٨ ل ٧٣ / (٢١ حزيران ٥٧).
- ١٩١- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٣٧، ٢٩ ل ٧٣ / (٢٢ حزيران ٥٧).
- ١٩٢- انظر مثلا: سجل غرة، ص ١٠٤، ١٩ ج ٧٤ / (٤ شباط ٥٨).
- ١٩٣- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٥٠، ختام ذ ٧٣ / (٢١ آب ٥٧).
- ١٩٤- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٣٢، ٥ ن ٧ / (٢٩ شباط ٥٧)، ص ٣٢٢، ١٢ ش ٧٦ / (٣ ايار ٦٠)، ص ٤٣٤، ١٢ جا ٧٧ / (٢٦ تشرين الثاني ٦٠). ص ٤٤٨، ١٦ ج ٧٧ / (٣٠ كانون الاول ٦٠).
- ١٩٥- انظر فيما يلي، ص ٧٠.
- ١٩٦- سجل غرة، ص ٦، ٢٧ جا ٧٣ / (٢٣ كانون الثاني ٥٧)، ص ١٤٦، غرة م ٧٥ / (١١ آب ٥٨).
- ١٩٧- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٥، ٢٤ جا ٧٣ / (٢٠ كانون الثاني ٥٧)، ص ٤٤٩، ١٩ ج ٧٧ / (٢ كانون الثاني ٦١).
- ١٩٨- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٩٩، ١٩ جا ٧٤ / (٥ كانون الثاني ٥٨)، وانظر فيما يلي، ص ٤٥.
- ١٩٩- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٣٧، ٢٩ ل ٧٣ / (٢٢ حزيران ٥٧).
- ٢٠٠- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٥٠، ختام ذ ٧٣ / (٢١ آب ٥٧).
- ٢٠١- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٢٧، ١٤ ش ٧٣ / (٩ نيسان ٥٧).
- ٢٠٢- انظر مثلا: سجل غرة، ص ١٤٤، ١٧ ذ ٧٤ / (٢٩ تموز ٥٨).
- ٢٠٣- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٢١٧، ١٩ ن ٧٥ / (٢٢ نيسان ٥٩).
- ٢٠٤- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٣٩٦، ٢٦ ص ٧٧ / (١٣ ايلول ٦٠).
- ٢٠٥- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٢٥، ٤ ش ٧٣ / (٣٠ آذار ٥٧).
- ٢٠٦- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٣٧، ٢٩ ل ٧٣ / (٢٢ حزيران ٥٧).
- ٢٠٧- انظر مثلا: سجل غرة، ص ٧٧، ١٥ را ٧٤ / (٣ تشرين الثاني ٥٧).

- ٢٠٨- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ٢١٩، ٧ ب ٧٣/٣ آذار ٥٧).
- ٢٠٩- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ٩٠، ١٤ ر ٧٤/٢ تشرين الثاني ٥٧)، ص ٢٢٦، ١٢ ذ ٧٥/١٣ تموز ٥٩).
- ٢١٠- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ٨٩، ١٣ ر ٧٤/١ كانون الأول ٢١٥٧).
- ٢١١- سجل غزوة، ص ٣١، ٣١ ن ٧٣/٢٧ نيسان ٥٧).
- ٢١٢- سجل غزوة، ص ٩٥، ٦ جا ٧٤/٢٣ كانون الأول ٥٧)، ص ٨٠، ١٩ را ٧٤/٧ تشرين الثاني ٥٧)، ص ١٣٤، ٢٤ ذا ٧٤/٦ تموز ٥٨)، ص ٣٨٨، ١٣ ص ٧٧/٣٠ آب ٦٠).
- ٢١٣- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ٤٣١، ٧ جا ٧٧/٢١ تشرين الثاني ٦٠)، ص ٤٤١، د ج ٧٧/١٨ كانون الأول ٦٠).
- ٢١٤- سجل غزوة، ص ٦٥، ٢٣ ص ٧٤/١٣ ايلول ٥٧).
- ٢١٥- سجل غزوة، ص ٤٤٩، ١٩ ج ٧٧/٢ كانون الثاني ٦١).
- ٢١٦- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ١٣، ٢٣، ج ٧٣/١٨ شباط ٥٧)، ص ٢٤، ٢٧ ب ٧٣/٢٣ آذار ٥٧).
- ٢١٧- انظر فيما سبق، ص ٣١.
- ٢١٨- انظر فيما سبق، ص ٣٤.
- ٢١٩- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ١٩، ٧ ب ٧٣/٣ آذار ٥٧)، ص ٤٨، ٧٣/٢٨ نيسان ٥٧).
- ٢٢٠- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ١٢، ١٥ ج ٧٣/١١ كانون الثاني ٥٧)، ص ٢٢٣، ١٠ ذا ٧٥/١١ حزيران ٥٩).
- ٢٢١- انظر فيما يلي، ص ٦٨.
- ٢٢٢- انظر فيما سبق، ص ٢٦.
- ٢٢٣- سجل غزوة، ص ٣٨٧، ١١ ص ١١/٢٩ آب ٦٠).
- ٢٢٤- سجل غزوة، ص ٩٠، ١٤ ر ٧٤/٢ تشرين الثاني ٥٧).
- ٢٢٥- سجل غزوة، ص ٩٠، ١٥ ر ٧٤/٣ تشرين الثاني ٥٧).
- ٢٢٦- انظر مثلاً: سجل غزوة، ص ٣١، ٤٨ ن ٧٣/٢٨ نيسان ٥٧).
- ٢٢٧- انظر فيما سبق، ص ١٥.
- ٢٢٨- سجل غزوة، ص ١٣٣، ٣ ذا ٧٤/١٥ حزيران ٥٨).
- ٢٢٩- سجل غزوة، ص ١٤١، ١٧ م ٧٥/٢٧ آب ٥٨).
- ٢٣٠- سجل غزوة، ص ١٩٠، صورة امر من والي القدس الى نائب الشريعة بغزة، بتاريخ ٢ ج ٧٥/٧ كانون الثاني ٥٩).
- ٢٣١- سجل غزوة، ص ٢٦٨، ٣ ر ٧٦.
- ٢٣٢- سجل غزوة، ص ١٣٣، ٣ ذا ٧٤/١٥ حزيران ٥٨).
- ٢٣٣- سجل غزوة، ص ١٩٠، صورة امر من والي القدس الى نائب الشريعة بغزة، بتاريخ ٢ ج ٧٥/٧ كانون الثاني ٥٩).
- ٢٣٤- سجل غزوة، ص ١٤٥، ٢٥ ذ ٧٤/٦ آب ٥٨).
- ٢٣٥- سجل غزوة، ص ٧٢، ١٤ ر ٧٤/٢٣ تشرين الأول ٥٧).

- ٢٣٦- سجل غزة، ص ٣١٠، ٢٣ ب ٧٦/١٥ شباط ٦٠).
- ٢٣٧- انظر: سجل غزة، ص ٣١٧، ٣ ش ٧٦/٢٥ شباط ٦٠)، ص ٣٥٥، ٢٩ ذ ٧٦/١٨ تموز ٦٠).
- ٢٣٨- انظر: سجل غزة، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦/١١ نيسان ٦٠).
- ٢٣٩- سجل غزة، ص ٨٣، صورة مراسلة، بتاريخ غزة ربيع الأول ٧٤/٢٠ تشرين الأول ٥٧)، ص ٣٥٨، صورة مراسلة، غزة ذي الحجة ٧٦/٢٠ حزيران ٦٠).
- ٢٤٠- انظر: سجل غزة، ص ٦٢-٦٣، ١٥ ر ٧٤/٢٤ تشرين الأول ٥٧).
- ٢٤١- سجل غزة، ص ٤٢. وردت عدة ضبوط قبل ذلك، اولها في الصفحة ١٥ وتاريخه ٢٥ ج ٧٣/٢٠ شباط ١٨٥٧)، والاخرى تقع ما بعد ٢٨ جمادى الأول ١٢٧٣.
- ٢٤٢- سجل غزة، ص ٤٤٤.
- ٢٤٣- سجل غزة، ص ١٦٦، ١٩ ر ٧٥/١٧ تشرين الأول ٦٨).
- ٢٤٤- سجل غزة، ص ١٦٦، ٥ جا ٧٥/١١ كانون الأول ٥٨).
- ٢٤٥- سجل غزة، ص ٣٦٤، ٢١ ر ٧٦/١٨ تشرين الأول ٥٩).
- ٢٤٦- سجل غزة، ص ٤٠، ٢٨ ذ ٧٣/٢٠ تموز ٥٧).
- ٢٤٧- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٣٣٤، ٢٠ ن ٧٦/١١ نيسان ٦٠).
- ٢٤٨- سجل غزة، ص ٣٢٤، ١٩ ن ٧٦/١٠ نيسان ٦٠).
- ٢٤٩- سجل غزة، ص ٢٠٢، ١٨ ب/٢١ شباط ٥٩)، ص ٢٦٢، ٢ را ٧٦/٢٩ ايلول ٥٩)، ص ٣٠٤، ختام ج ٧٦/٢٣ كانون الثاني ٦٠)، ص ٣٦٦ ذ ٧٦/١٦ تموز ٦٠)، ص ٤٤٩، ٢٢ ج ٧٧/٥ كانون الثاني ٦١).
- ٢٥٠- سجل غزة، ص ٢٢٤، ١٥ ذ ٧٥/١٦ حزيران ٥٩).
- ٢٥١- سجل غزة، ص ٣٩٤، ٢٣ ص ٧٧/١٠ ايلول ٦٠).
- ٢٥٢- انظر كتابنا: العرب والعثمانيون، ص ٥١-٥٢.
- ٢٥٣- سجل غزة، ص ١٢٦، ٨ ل ٧٤/٢٢ ايار ٥٨).
- ٢٥٤- سجل غزة، ص ٩٩، ١٦ جا ٧٤/٢ كانون الثاني ٥٨).
- ٢٥٥- (Baedeker, P. 158)
- ٢٥٦- سجل غزة، ص ١٧٣، ٣ ر ٧٥/١٠ تشرين الثاني ٥٨).
- ٢٥٧- سجل غزة، ص ٢١٩، ١٣ ل ٧٥/١٦ ايار ٥٩).
- ٢٥٨- سجل غزة، ص ١٣٠، ٢١ ل ٧٤/٤ حزيران ٥٨).
- ٢٥٩- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٢٣، ٢٤ ب ٧٣/٢٠ آذار ٥٧)، ص ٧٧، ١٥ را ٧٤/٣ تشرين الثاني ٥٧)، ص ١٧٣، ٣ ر ٧٥/١٠ تشرين الثاني ٥٨)، ص ٢٠٧، ٢٠ قرش ٧٥/٢٥ آذار ٥٩).
- ٢٦٠- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٧٧، ١٥ را ٧٥/٣ تشرين الثاني ٥٧)، ص ٢٠٧، ٢٠ ش ٧٥/٢٥ آذار ٥٩)، ص ٢٠، ٢٩/١٥ ايلول ٥٨)، ص ٢١٣، ٢٠ ش ٧٥/١٥ آذار ٥٩).
- ٢٦١- سجل غزة، ص ١١٦، ختام ب ٧٤/١٦ آذار ٥٨).
- ٢٦٢- سجل غزة، ص ٢٧٨، ٥ جا ٧٦/٣٠ تشرين الثاني ٥٩).
- ٢٦٣- سجل غزة، ص ١٢٦، ١٥ ذ ٧٤/٢٧ حزيران ٥٨).
- ٢٦٤- سجل غزة، ص ٤٣٢، ١٠ جا ٧٧/٢٤ تشرين الثاني ٦٠).

- ٢٦٥ سجل غزة، ص ٣٨٧، ١٠ ص ٧٧ / (٢٨ آب ٦٠).
- ٢٦٦ سجل غزة، ص ٣١٠، ٢٣ ب ٧٦ / (١٥ شباط ٦٠).
- ٢٦٧ Baedeker, p. 160
- ٢٦٨ سجل غزة، ص ٣١٠، ٢٣ ب ٧٦ / (١٥ شباط ٦٠).
- ٢٦٩ انظر مثلاً: سجل غزة، ص ٨٠، ١٩ را ٧٤ / (٧ تشرين الثاني ٥٧)، ص ٤١٣، ختام را ٧٧ / (١٦ تشرين الأول ٦٠).
- ٢٧٠ انظر مثلاً: سجل غزة، ص ١٣٠، ٢١ ل ٧٤ / (٤ تموز ٥٨)، ص ١٣٦، ٢٨ ذ ٧٦ / (١٧ تموز ٦٠)، ص ٤٥٦، ١٧ ب ٧٧ / (٢٩ كانون الثاني ٦١).
- ٢٧١ سجل غزة، ص ٣٥، ٢٢ ل ٧٣ / (١٥ حزيران ٥٧)، ص ١٣٠، ٢٠ ل ٧٤ / (٣ حزيران ٧٨)، ص ٢٢١، ٢٥ ل ٧٥ / (٢٨ أيار ٥٩).
- ٢٧٢ سجل غزة، ص ٣٥، ٢٢ ل ٧٣ / (١٥ حزيران ٥٧).
- ٢٧٣ سجل غزة، ص ٢٢١.
- ٢٧٤ سجل غزة، ص ٣٤١.
- ٢٧٥ عارف العارف، بير السبع وقبائلها، مطبعة بيت المقدس، ١٩٣٤، ص ١٤٤.
- ٢٧٦ سجل غزة، ص ٧٨، ١٩ را ٧٤ / (٧ تشرين الثاني ٥٧).
- ٢٧٧ انظر حول عرب السواركة، العارف، بير السبع وقبائلها، ص ١٤٨-١٤٩.
- ٢٧٨ انظر حول مواقع هؤلاء العربان المصور الملحق بهذه الدراسة.
- ٢٧٩ سجل غزة، ص ١١، ١٦ ج ٧٣ / (١١ شباط ٥٧).
- ٢٨٠ العارف، بير السبع وقبائلها، ص ١٢١.
- ٢٨١ سجل غزة، ص ٢٥٩، ٧ را ٧٦ / (٤ تشرين الأول ٥٩).
- ٢٨٢ سجل غزة، ص ٢١٨، ١٥ ل ٧٥ / (١٨ أيار ٥٩).
- ٢٨٣ سجل غزة، ص ٥٩، ٢٨ م ٧٤ / (١٨ ايلول ٥٧).
- ٢٨٤ انظر مثلاً: سجل غزة، ص ٢١٨، ١٥ ل ٧٥ / (١٨ أيار ٥٩).
- ٢٨٥ سجل غزة، ص ١٣٠، ٢٠ ل ٧٤ / (٣ حزيران ٥٨).
- ٢٨٦ سجل غزة، ص ١١، ١٦ ج ٧٣ / (١١ شباط ٥٧).
- ٢٨٧ سجل غزة، ص ٤٠٤، ١٢ را ٧٧ / (٢٨ ايلول ٦٠).
- ٢٨٨ سجل غزة، ص ١٢٩، ١٩ ل ٧٤ / (٢ تموز ٥٨).
- ٢٨٩ سجل غزة، ص ١٠٤، ١٩ ج ٧٤ / (٤ شباط ٥٨).
- ٢٩٠ انظر فيما سبق، ص ٦.
- ٢٩١ انظر حول موقع هذه الخانات مخطط غزة، الذي وضعه Gatt في عام ١٨٨٧.
- ٢٩٢ سجل غزة، ص ١٢٩، ١٩ ل ٧٤ / (٢ حزيران ٥٨)
- ٢٩٣ انظر فيما سبق، ص ٥.
- ٢٩٤ Baedeker, p. 159
- ٢٩٥ سجل غزة، ص ٢٨٥، ١٦ جا ٧٦ / (١١ كانون الأول ٥٩)، ص ٤٠٩، ٢١ را ٧٧ / (٧ تشرين الأول ٦٠)، ص ٤٥٢، ٢٨ ج ٧٧ / (١١ كانون الثاني ٦١)



- ٢٩٦- سجل غزة، ص ٣٠٤ ختام ج ٢٦/٢٣ (كانون الثاني ٦٠)، ص ٤٤٩، ٢٢ ح ٧٧ (٥ كانون الثاني ٦١)  
 ٢٩٧- Gatt, p. 153
- ٢٩٨- سجل غزة، ص ٧، ٢٩ جا ٧٣/٢٥ (كانون الثاني ٥٧)، ص ٢٤٠، ٧ م ٧٦/٧٦ (آب ٥٩).  
 ٢٩٩- Gatt, p. 153
- ٣٠٠- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ٤٤٣، ١٤ ج ٧٧/٢٨ (كانون الأول ٦٠).  
 ٣٠١- سجل غزة، ص ٩١، ١٥ ر ٧٤/٣ (كانون الأول ٥٧)  
 ٣٠٢- سجل غزة، ص ٤٠٨، ١٩ را ٧٧ ذ (٥ تشرين الأول ٦٠).  
 ٣٠٣- سجل غزة، ص ١٠٨، غزة م ٧٤/٢٢ (آب ٥٧)  
 ٣٠٤- سجل غزة، ص ٢٨٨، ٢٥ جا ٧٦/١٠ (كانون الأول ٦٠)  
 ٣٠٥- سجل غزة، ص ١٠٨، غزة م ٧٤/٢٢ (آب ٥٧)، ص ٣٧٩، ٢٥ م ٧٧/١٣ (آب ٦٠)، ص ٤٤٨،  
 ٢١ جا ٧٧/٥ (كانون الأول ٦٠)  
 ٣٠٦- Gatt, p. 153
- ٣٠٧- سجل غزة، ص ٢٦٢، ٢ را ٧٦/٢٩ (أيلول ٥٩).  
 ٣٠٨- سجل غزة، ص ٤٣٤، ١٢ جا ٧٧/٢٦ (تشرين الثاني ٦٠).  
 ٣٠٩- سجل غزة، ص ٣٢، ٥ ن ٧٣/٢٩ (نيسان ٥٧)، ص ٧٠، ٣ را ٧٤/٢٢ (تشرين الأول ٥٧)، ص  
 ٩٥، ٦ جا ٧٤/٢٣ (كانون الأول ٥٧)، ص ٤٤٩، ٢٢ ج ٧٧/٥ (كانون الثاني ٦١).  
 ٣١٠- سجل غزة، ص ٧٠، ٣ را ٧٤/٢٢ (تشرين الأول ٥٧).  
 ٣١١- سجل غزة، ص ٤٤٣، ١٤ ج ٧٧/٢٨ (كانون الأول ٦٠).  
 ٣١٢- ج ١، ق ٢، ص ١٠٠.
- ٣١٣- سجل غزة، ص ٢٩٣، ٤ ج ٧٦/٢٩ (كانون الأول ٥٩)، ص ٣٩٩، ٢٨ ص ٧٧/١٥ (أيلول ٦٠)،  
 ص ٤٣٣، ١١ جا ٧٧/٢٥ (تشرين الثاني ٦٠).  
 ٣١٤- سجل غزة، ص ٢٣٣، ١٨ ذا ٧٥/١٩ (تموز ٥٩).  
 ٣١٥- سجل غزة، ص ٣٧١، ٧ م ٧٧/٢٦ (تموز ٦٠).  
 ٣١٦- سجل غزة، ص ٩٩، ١٨ جا ٧٤/٤ (كانون الثاني ٥٨).  
 ٣١٧- سجل غزة، ص ٢٦٢، ٧ را ٧٦/٣ (تشرين الأول ٥٩).  
 ٣١٨- Gatt, pp. 153-4
- ٣١٩- سجل غزة، ص ١٤٤، ١٧ ذا ٧٤/٢٩ (تموز ٥٨)، ذكر Gatt. p. 151 سوق السوجية، ولعله نفسه.  
 ٣٢٠- سجل غزة، ص ٦، ٢٨ جا ٧٣/٢٤ (كانون الثاني ٥٧).  
 ٣٢١- سجل غزة، ص ٣٤٢، ٢٥ ل ٧٦/١٦ (أيار ٦٠)، ص ٣٥٩، ٥ ذ ٧٦/٢٥ (أيار ٦٠)  
 ٣٢٢- سجل غزة، ص ٣٧٩، ٢٥ م ٧٧/١٣ (آي ٦٠)، ص ٤٢٨، غزة جا ٧٧/١٥ (تشرين الثاني ٦٠).  
 ٣٢٣- سجل غزة، ص ٤١٤، ٦ ر ٧٧/٢٢ (تشرين الأول ٦٠)، ص ٤١٥، ٥ ر ٧٧/٢١ (تشرين الأول  
 ٦٠).  
 ٣٢٤- سجل غزة، ص ٢٧، ٢٥ ب ٧٣/٢٣ (آذار ٥٧)، ص ١٠٨، غزة م ٧٤/٢٢ (آب ٥٧).  
 ٣٢٥- سجل غزة، ص ٧٧، ١٥ را ٧٤/٣ (تشرين الثاني ٥٧)، ص ١٢٢، ٧ ن ٧٤/١ (أيار ٥٧)، ص  
 ١٩٣، ٢٥ ج ٧٥/٣٠ (كانون الثاني ٥٩)، ص ٢٦٩، ٨ ر ٧٦/٤ (تشرين الثاني ٥٩)، ص ٣٧٣، ٤  
 م ٧٧/٢٣ (تموز ٦٠).

- ٣٢٦- سجل غزة، ص ٤٤٧، ١٥ ج ٧٧ / (٢٩ كانون الأول ٦٠).
- ٣٢٧- سجل غزة، ص ٢٢١، ٥ ذ ٧٥ / (٦ حزيران ٥٩)، ص ٢٣٣، ١٨ ذ ٧٥ / (١٩ حزيران ٥٩).
- ٣٢٨- سجل غزة، ص ٥، ٢٤ جا ٧٣ / (٢٠ كانون الثاني ٥٧)، ص ٢١٣، ١٩ ش ٧٥ / (٢٤ آذار ٥٩).
- ٣٢٩- سجل غزة، ص ٥٤، ١٥ ذ ٧٣ / (٦ آب ٥٧).
- ٣٣٠- سجل غزة، ص ٢٦٢، ٧ را ٧٦ / (٣ تشرين الأول ٥٩).
- ٣٣١- سجل غزة، ص ١٤، ٢٤ ج ٧٣ / (١٩ شباط ٥٧).
- ٣٣٢- سجل غزة، ص ٥٤، ١٥ ذ ٧٣ / (٦ آب ٥٨).
- ٣٣٣- سجل غزة، ص ١٥، ٢٥ ج ٧٣ / (٢٠ شباط ٥٧).
- ٣٣٤- سجل غزة، ص ٥٤، ١٥ ذ ٧٣ / (٦ آب ٥٨).
- ٣٣٥- سجل غزة، ص ٤٥٥، ١٣ ب ٧٧ / (٢٥ كانون الثاني ٦١).
- ٣٣٦- سجل غزة، ص ٥، ٢٤ جا ٧٣ / (٢٠ كانون الثاني ٥٧)، ص ٢١٣، ١٩ ش ٧٥ / (٢٤ آذار ٥٩).
- ٣٣٧- سجل غزة، ص ٣٦، ٢٧ ذ ٧٤ / (٨ آب ٥٨).
- ٣٣٨- سجل غزة، ص ٢٤٩، ٩ م ٧٦ / (٨ آب ٥٩).
- ٣٣٩- سجل غزة، ص ٣٧٢، ٧ م ٧٧ / (٢٦ تموز ٦٠).
- ٣٤٠- سجل غزة، ص ٢٤٧، ختام را ٧٣ / (٢٨ تشرين الثاني ٥٦).
- ٣٤١- سجل غزة، ص ٢٣٨، ٥ م ٧٦ / (٤ آب ٥٩).
- ٣٤٢- سجل غزة، ص ٢٥٤، ٥ ص ٧٦ / (٣ ايلول ٥٩).
- ٣٤٣- سجل غزة، ص ٢٠٣، ٢١ ب ٧٥ / (٢٤ شباط ٥٩).
- ٣٤٤- سجل غزة، ص ١٦٢، ٢ را ٧٥ / (١٠ تشرين الأول ٥٨).
- ٣٤٥- سجل غزة، ص ٤٩، ٢٨ ر ٧٣ / (٢٦ كانون الأول ٥٦).
- ٣٤٦- سجل غزة، ص ٢٣٩، ٥ م ٧٦ / (٤ آب ٥٩).
- ٣٤٧- سجل غزة، ص ٢٦٧، ختام را ٧٦ / (٢٧ تشرين الأول ٥٩).
- ٣٤٨- سجل غزة، ص ١٢٦، ١٥ ذ ٧٤ / (٢٧ حزيران ٥٨).
- ٣٤٩- سجل غزة، ص ٢٣٨، ٣ م ٧٦ / (٢ آب ٥٩).
- ٣٥٠- سجل غزة، ص ٣٥، ١٥ ل ٧٣ / (٨ حزيران ٥٧).
- ٣٥١- سجل غزة، ص ٤٢٩، ٢٢ ر ٧٧ / (٨ تشرين الثاني ٦٠).
- ٣٥٢- سجل غزة، ص ٢، ٢٤ جا ٧٥ / (٣٠ كانون الأول ٥٨).
- ٣٥٣- سجل غزة، ص ٢٩٤، ٧ ج ٧٦ / (١ كانون الثاني ٦٠).
- ٣٥٤- سجل غزة، ص ١٣٢، ٣ ذ ٧٤ / (١٥ حزيران ٥٨).
- ٣٥٥- سجل غزة، ص ٢٥٢، ٩ ذ ٧٥ / (١٠ حزيران ٥٩).
- ٣٥٦- انظر فيما يلي، ص ٨٣.
- ٣٥٧- سجل غزة، ص ٢٩٤، ٧ ج ٧٦ / (١ كانون الثاني ٦٠).
- ٣٥٨- سجل غزة، ص ١٧٣، ٢٠ را ٧٥ / (٢٨ تشرين الأول ٥٨).
- ٣٥٩- سجل غزة، ص ٤٤٣، ١٤ ج ٧٧ / (٢٨ كانون الأول ٦٠).
- ٣٦٠- سجل غزة، ص ٦٣، ٦٢، ٥ را ٧٤ / (٢٤ تشرين الأول ٥٧).

- ٣٦١- سجل غزة، ص ٣١٠، ٢٣ ب ٧٦ / (١٥ شباط ٦٠).
- ٣٦٢- سجل غزة، ص ١٦، غزة ب ٧٣ / (٢٥ شباط ٥٧).
- ٣٦٣- سجل غزة، ص ١٧، ختام ج ٧٣ / (٢٤ شباط ٥٧).
- ٣٦٤- سجل غزة، ص ١٤٦، ٢٦ ذ ٧٤ / (٧ آب ٥٨).
- ٣٦٥- سجل غزة، ص ٤، ٢٤٦ ع ٧٦ / (٢ ايلول ٥٩).
- ٣٦٦- سجل غزة، ص ٤٢٨، ٢٩ ر ٧٧ / (١٤ تشرين الثاني ٦٠).
- ٣٦٧- سجل غزة، ص ٣، ٣٠٧ ب ٧٦ / (٢٦ كانون الثاني ٦٠).
- ٣٦٨- سجل غزة، ص ٤٤١، ٤ ج ٧٧ / (١٨ كانون الأول ٦٠).
- ٣٦٩- سجل غزة، ص ٣، ٣١٧ ش ٧٦ / (٢٥ شباط ٦٠).
- ٣٧٠- سجل غزة، ص ٤٣٨، ٢٧ جا ٧٧ / (١١ كانون الأول ٦٠).
- ٣٧١- سجل غزة، ص ٤٠٠-٤٠١، ١٨ ر ٧٧ / (٢٤ ايلول ٦٠).
- ٣٧٢- سجل غزة، ص ١٩٢، ٢٢ ج ٧٥ / (٢٧ كانون الثاني ٥٩).
- ٣٧٣- سجل غزة، ص ١٦٤-١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٣٧٤- سجل غزة، ص ٩٧، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٣٧٥- سجل غزة، ص ٦٢، ٥ را ٧٤ / (٢٤ تشرين الأول ٥٧).
- ٣٧٦- سجل غزة، ص ٩٨، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٣٧٧- سجل غزة، ص ١٠١، غزة ج ٧٤ / (١٧ كانون الثاني ٥٨).
- ٣٧٨- انظر مثلا: سجل غزة، ص ١٦٣، ٨ را ٧٥ / (١٦ تشرين الأول ٥٨)، انظر فيما يلي، ص ٧٠.
- ٣٧٩- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٢٢٩، ٨ ذ ٧٥ / (٩ تموز ٥٩).
- ٣٨٠- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٣٦٦، ٢٨ ذ ٧٦ / (١٧ تموز ٦٠).
- ٣٨١- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٩٧، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٣٨٢- انظر: سجل غزة، ص ١٥، ١٧٨، ١٩١، ١٩٧، ٢١١، ٣٣٣، ٣٤٨، ٤١٢.
- ٣٨٣- سجل غزة، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦ / (١١ نيسان ٦٠).
- ٣٨٤- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٩٧، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٣٨٥- انظر مثلا: سجل غزة، ص ١١٠، ١٤ ب ٧٤ / (٢٨ شباط ٥٨)، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨)، ص ٣، ٣١٧ ش ٧٦ / (٢٥ شباط ٦٠)، وانظر فيما يلي، ص ٧٦.
- ٣٨٦- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٨١، ٢٠ را ٧٤ / (٨ تشرين الثاني ٥٧).
- ٣٨٧- انظر مثلا: سجل غزة، ص ١٩٧، ٧ ب ٧٥ / (١٠ شباط ٥٩)، ص ٤٢٨، ٢٩ را ٧٧ / (١٥ تشرين الأول ٦٠)، ص ٣٥٧، ٢٩ ذ ٧٦ / (١٨ حزيران ٦٠).
- ٣٨٨- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٦٢، ٥ را ٧٤ / (٢٤ تشرين الأول ٥٧).
- ٣٨٩- انظر مثلا: سجل غزة، ص ١١٠، ١٤ ب ٧٤ / (٢٨ شباط ٥٨).
- ٣٩٠- سجل غزة، ص ٩٦، ١٢ را ٧٤ / (٣١ تشرين الأول ٥٧)، ص ١٦٤، ٩ را ٧٥ / (٢٧ تشرين الأول ٥٨)، ص ٢٨٣، ١٣ جا ٧٦ / (٨ كانون الأول ٥٩).
- ٣٩١- سجل غزة، ص ٤١، ٤ ذ ٧٣ / (٢٦ تموز ٥٧)، ص ٢٢٩، ٨ ذ ٧٥ / (٩ تموز ٥٩).

- ٣٩٢- سجل غزة، ص ٤٤٨، ١٦ ج ٧٧ / (٣٠ كانون الأول ٦٠)، وانظر ايضا: ص ٣٢٢، ١٢ ش ٧٦ / (٥ آذار ٦٠)، ص ٤٠٨، ٢٠ را ٧٧ / (٦ تشرين الأول ٦٠)، ص ٤٣٤، ١٢ جا ٧٧ / (٢٦ تشرين الثاني ٦٠).
- ٣٩٣- سجل غزة، ص ٣٣٦، ٤ ل ٧٦ / (٢٥ نيسان ٦٠)، وانظر فيما سبق، ص ٣٣.
- ٣٩٤- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٤٤٣، ١٢ ج ٧٧ / (٢٦ كانون الأول ٦٠)، ص ٤٤٨، ١٧ ج ٧٧ / (٣١ كانون الأول ٦٠).
- ٣٩٥- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٢٩، ٢٣ ش ٧٣ / (١٨ نيسان ٥٧)، ص ٤٩، ٢٨ ر ٧٣ / (٢٦ كانون الأول ٥٦).
- ٣٩٦- انظر فيما سبق، ص ٥.
- ٣٩٧- سجل غزة، ص ٢٦٦، ١٩ را ٧٦ / (١٦ تشرين الأول ٥٩)، ص ٤٤٦، ٢٥ م ٧٧ / (١٣ آب ٦٠).
- ٣٩٨- انظر فيما سبق، ص ٥.
- ٣٩٩- سجل غزة، ص ٥٣، ٢٠ م ٧٤ / (١٠ ايلول ٥٧).
- ٤٠٠- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٨٦، ١١ ر ٧٤ / (٢٩ تشرين الثاني ٥٧).
- ٤٠١- سجل غزة، ص ٥٥، ٢٢ م ٧٤ / (١٢ ايلول ٥٧)، ص ٢٥ م ٧٤ / (٥ ايلول ٥٧).
- ٤٠٢- انظر مثلا: سجل غزة، ص ١٢٨، ١٢ ل ٧٤ / (٢٦ ايار ٥٨).
- ٤٠٣- سجل غزة، ص ٢٢، ٣ ن ٧٣ / (٢٧ نيسان ٥٧).
- ٤٠٤- سجل غزة، ص ٤٢٢، ٢١ ر ٧٧ / (٦ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤٠٥- سجل غزة، ص ٩١، ١٥ ر ٧٤ / (٣ كانون الأول ٥٧).
- ٤٠٦- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٢٢، ٣ ن ٧٣ / (٢٧ نيسان ٥٧)، ص ٥٦، ١٩ م ٧٤ / (٩ ايلول ٥٧).
- ٤٠٧- سجل غزة، ص ٤٢٢، ٢١ ر ٧٧ / (٦ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤٠٨- انظر حول الربع فيما يلي، ص ٨٣.
- ٤٠٩- سجل غزة، ص ١٢ (مكرر)، ١٥ ج ٧٣ / (١٠ شباط ٥٧).
- ٤١٠- سجل غزة، ص ٤٥٧، ٢٧ ب ٧٧ / (٨ شباط ٦١).
- ٤١١- سجل غزة، ص ٢٧، ١٣ ش ٧٣ / (٨ نيسان ٥٧).
- ٤١٢- سجل غزة، ص ٤٣٤، ١١ جا ٧٧ / (٢٥ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤١٣- سجل غزة، ص ٤٣٩، ختام جا ٧٧ / (١٤ كانون الأول ٦٠).
- ٤١٤- سجل غزة، ص ٣٩٣، ٢٢ ص ٧٧ / (١٩ ايلول ٦٠).
- ٤١٥- سجل غزة، ص ١١، ١٣ ج ٧٣ / (٨ شباط ٥٧).
- ٤١٦- انظر مثلا: سجل غزة، ص ٤٣٤، ١١ جا ٧٧ / (٢٥ تشرين الثاني ٦٠)، ص ٤٥٥، ١٥ ب ٧٧ / (٢٧ كانون الثاني ٦١).
- ٤١٧- انظر مثلا: سجل غزة، ص ١١، ١٣ ج ٧٣ / (٨ شباط ٥٧)، ص ٤٠١، ٨ را ٧٧ / (٢٤ ايلول ٦٠)، ص ٤٥٥، ١٥ ب ٧٧ / (٢٧ كانون الثاني ٦١).
- ٤١٨- سجل غزة، ص ٤٣٠، ٢ جا ٧٧ / (١٦ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤١٩- سجل غزة، ص ٤٢١، ١٩ ر ٧٧ / (٤ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤٢٠- سجل غزة، ص ٤٣٣، ١١ جا ٧٧ / (٢٥ تشرين الثاني ٦٠).

- ٤٢١- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ١٨، ٧ ب ٧٣ / (٣ آذار ٥٧)، ص ٢٠، ١٢ ب ٧٣ / (٨ آذار ٥٧).
- ٤٢٢- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ١٣، ٢١ ج ٧٣ / (١٦ شباط ٥٧).
- ٤٢٣- سجل غزة، ص ٤٠٨، ٢٠ را ٧٧ / (٦ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤٢٤- سجل غزة، ص ١٠٥، ٢٦ ج ٧٤ / (١١ شباط ٥٨).
- ٤٢٥- سجل غزة، ص ٩٧-٩٨، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٤٢٦- سجل غزة، ص ٤١٨، ١٢ ر ٧٧ / (٢٨ ايلول ٦٠).
- ٤٢٧- سجل غزة، ص ٢٧٣، ٢٤ ر ٧٦ / (٢٠ تشرين الثاني ٥٩).
- ٤٢٨- انظر مثلاً: ص ١٤٢، ٢١ ذ ٧٤ / (٢ آب ٥٨)، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨)، ص ٣١٧، ٣ ش ٧٦ / (٢٥ شباط ٦٠) ص ٢٦، ٢٦ ر ٧٧ / (١٣ ايلول ٦٠).
- ٤٢٩- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ٢٧، ١٣ ش ٧٣ / (٨ نيسان ٥٧)، ص ١٤ ش ٧٣ / (٩ نيسان ٥٧).
- ٤٣٠- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ٣٥، ٢٢ ل ٧٣ / (١٥ حزيران ٥٧).
- ٤٣١- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ٢٢١، ٢٥ ل ٧٥ / (٢٨ ايار ٥٩)، ص ٣٤١، ٢٥ ل ٧٦ / (١٦ ايار ٦٠).
- ٤٣٢- سجل غزة، ص ٢٦٢، ٧ را ٧٦ / (٤ تشرين الأول ٥٩).
- ٤٣٣- سجل غزة، ص ٣١، ٣ ن ٧٣ / (٢٧ نيسان ٥٧)، وانظر ايضا: سجل غزة، ص ٤٤، ١٤ ذ ٧٣ / (٥ آب ٥٧)، ص ٩٢، ١٧ ر ٧٤ / (٥ كانون الأول ٥٨)، ص ٤٣٢، ١٠ جا ٧٧ / (٢٤ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤٣٤- سجل غزة، ص ٤٣، ١٣ ذ ٧٣ / (٤ آب ٥٧).
- ٤٣٥- ترجمه عن الالمانية الدكتور كامل العسلي، وهو من منشورات الجامعة الاردنية، بدون تاريخ.
- ٤٣٦- سجلات محاكم دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٧٥، ص ١٠٧، ٢٢ ربيع الأول ١٢٧١ / (١٣ كانون الأول ١٨٥٤).
- ٤٣٧- Baedeker, p. XXX
- ٤٣٨- سجل غزة، ص ٤١٩، ١٣ ر ٧٧ / (٢٩ تشرين الأول ٦٠). وقد ذكر هنتس (ص ٩٤-٩٥) ان القصبة الحاكمة سميت بذلك نسبة الى الحاكم بأمر الله الفاطمي، وانها بعد عام ١٨٣٠ اصبحت تساوي ٣٠٥٥ مترا. ولم يعين هنتس في أي مكان ساوت ذلك. ولا ندري اذا كان هذا الطول ينطبق على قصب غزة الحاكمي في فترة دراستنا.
- ٤٣٩- سجل غزة، ص ٢٦، ٢٠ ش ٧٣ / (١٧ نيسان ٥٧).
- ٤٤٠- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ١٦٤، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٤٤١- ذكر هنتس، ص ٨٥-٨٧، ان ذراع الحديد، كذراع البر، استخدم في قياس الاقمشة، وكان طوله في القدس، في القرن التاسع عشر، ٦٤٧ سم. ولا نعلم اذا كان ذراع غزة في فترتنا قد شابهه في الطول.
- ٤٤٢- سجل غزة، ص ٢٤١، ٢٣ م ٧٦ / (٢٢ آب ٥٩).
- ٤٤٣- سجل غزة، ص ١٦٤، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٤٤٤- سجل غزة، ص ١٦٤، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٤٤٥- سجل غزة، ص ٤٤٧، ٢١ م ٧٧ / (٩ آب ٦٠).
- ٤٤٦- انظر مقالنا: «Economic relations between Damascus and the dependent countryside, 1743-1771», to be published in Land, Population and Society, ed. A. Udovitch, Darwin Press, Princeton, 1980.

- ٤٤٧- سجل غزة، ص ٣٥، ٢٢ ل ٧٣ / (١٥ حزيران ٥٧).
- ٤٤٨- سجل غزة، ص ٢٨٦، ١٧ جا ٧٦ / (٢٢ كانون الأول ٥٩).
- ٤٤٩- سجل غزة، ص ٩١، ١٣ ر ٧٤ / (١ كانون الأول ٥٧)، ص ٢٨٦، ١٧ جا ٧٦ / (١٢ كانون الأول ٥٩)، ص ٣٤١، ٢٥ ل ٧٦ / (٦ ايار ٦٠).
- ٤٥٠- سجل غزة، ص ٣٤١، ٢٥ ل ٧٦ / (٦ ايار ٦٠).
- Baedeker, p. XXX - ٤٥١
- ٤٥٢- سجل غزة، ص ٢٨٦، ١٧ جا ٧٦ / (١٢ كانون الأول ٥٩).
- ٤٥٣- سجل غزة، ص ٩٨، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٤٥٤- سجل غزة، ص ٢٢١، ٢٥ ل ٧٥ / (٢٨ ايار ٥٩).
- ٤٥٥- سجل غزة، ص ١٣٠، ٢٠ ل ٧٤ / (٣ حزيران ٥٨).
- ٤٥٦- وقد تأكدت هذه النسبة، أي ان كل مدين يعادلان كيلة، في كتاب Baedeker, p. XXX الذي وضع حوالي عام ١٨٩٠، أي بعد حوالي ثلاثين سنة من الوثائق الشرعية التي استخدمناها، مما يدل على ان نسبة المد الى الكيلة كانت ثابتة في تلك الفترة.
- ٤٥٧- سجل غزة، ص ١٣٠، ٢٠ ل ٧٤ / (٣ حزيران ٥٨).
- ٤٥٨- المصدر السابق.
- ٤٥٩- انظر: مخطوطة تحرير الدرهم والمثقال، والرطل والمكيال، وبيان مقادير النقود المتداولة بمصر على مقتضى ما حدد بدار الضرب سنة ١٢٥٦، تأليف مصطفى الذهبي الشافعي، نشرها الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي، في كتابه: النقود العربية وعلم التميات، القاهرة ١٩٣٩، ص ٧٥-٧٦، انظر، ص ٧٨.
- ٤٦٠- سجل غزة، ص ٣٤١، ٢٥ ل ٧٦ / (٦ ايار ٦٠).
- ٤٦١- سجل غزة، ص ٤٣٣، ١١ جا ٧٧ / (٢٥ تشرين الثاني ٦٠).
- ٤٦٢- سجل غزة، ص ١٧٢، ٢٥ را ٧٥ / (٢ تشرين الثاني ٥٨).
- ٤٦٣- سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- Baedeker, p. XXX - ٤٦٤
- ٤٦٥- سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨)، ص ٩٧، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٤٦٦- سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٤٦٧- انظر فيما سبق، ص ٧٣.
- ٤٦٨- انظر مثلاً: سجل غزة، ص ٣٥، ٢٢ ل ٧٣ / (١٥ حزيران ٥٧).
- ٤٦٩- سجل غزة، ص ٩٧، ٥ جا ٧٤ / (٢٢ كانون الأول ٥٧).
- ٤٧٠- سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٤٧١- سجل غزة، ص ٤٥٧، ٢٥ ب ٧٧ / (٦ شباط ٩١).
- ٤٧٢- سجل غزة، ص ٢٩٤، ٧ ج ٧٦ / (١ كانون الأول ٦٠).
- ٤٧٣- سجل غزة، ص ٣٦٠، ١٥ ذ ٧٦ / (٤ تموز ٦٠).
- ٤٧٤- سجل غزة، ص ٤١٨، ١٢ ر ٧٧ / (٢٨ تشرين الأول ٦٠).
- ٤٧٥- سجل غزة، ص ٢٠٠، ٢٠ ش ٧٥ / (٢٥ آذار ٥٩).

- ٤٧٦- سجل غزة، ص ٣٠١، غزة ج ٧٦ / (٢٦ كانون الأول ٥٩).
- ٤٧٧- سجل غزة، ص ٦٢، ٥ را ٧٤ / (٢٤ تشرين الأول ٥٧).
- ٤٧٨- انظر: هنتس، ص ١٩-٢٠، ٣٠-٣٧، وانظر:
- E. W. Lane, An Account of the manners and customs of the Modern Egyptians, 5th ed., London, 1860, p. 572.
- ٤٧٩- انظر: Lane, p. 572
- ٤٨٠- الذهبي، نشر الكرمل، ص ٧٦.
- ٤٨١- سجل غزة، ص ١٣٣، ٣ ذا ٧٤ / (١٥ حزيران ٥٨).
- ٤٨٢- سجل غزة، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦ / (١١ نيسان ٦٠).
- ٤٨٣- Raymond, I, 20; H. Bowen and H. A. R. Gibb, Islamic Society and the West, Vol. 1, in 2 parts, 1951, 1975, ii, 50.
- ٤٨٤- Baedeker, p. XVIII-XIX
- ٤٨٥- انظر مثلاً: سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٢١، ص ١٨٠، ١٦ رجب ١٢٦٦ / (٢٨ ايار ١٨٥٠).
- ٤٨٦- سجل غزة، ص ٢٢٤، ١٥ ذا ٧٥ / (١٦ حزيران ٥٩).
- ٤٨٧- سجل غزة، ص ٢٤٤، ٢٧ ص ٧٦ / (٢٥ ايلول ٥٩).
- ٤٨٨- سجل غزة، ص ٢٥١، ٨ ص ٧٦ / (٦ ايلول ٥٩).
- ٤٨٩- Lane, p. 572
- ٤٩٠- المصدر السابق، وانظر بحثنا: ثورات العساكر في القاهرة في الربع الاخير من القرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السابع عشر ومغزاها، دمشق، ١٩٦٩، ص ٦.
- ٤٩١- سجل غزة، ص ٩٦، ١٢ ر ٧٤ / (٣٠ تشرين الثاني ٥٧).
- ٤٩٢- انظر: الكرمل، ص ١٧٤
- ٤٩٣- ص ٩٤-٩٥.
- ٤٩٤- المصدر السابق، ص ٨٥.
- ٤٩٥- سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٩٤، ص ١١٣، ختام محرم ١٢٧٤ / (٢٠ ايلول ١٨٥٧).
- ٤٩٦- سجل غزة، ص ٢٤١، ٢٣ م ٧٦ / (٢٢ آب ٥٩).
- ٤٩٧- Baedeker, p. XXIX
- ٤٩٨- سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٥١٠، ص ٤، ١٤ جمادى الثاني ١٢٧٦ / (١٠ كانون الثاني ١٨٦٠).
- ٤٩٩- سجل غزة، ص ١٣٢، ٥ ذا ٧٤ / (١٧ حزيران ٥٨).
- ٥٠٠- ص ٨٥.
- ٥٠١- سجل غزة، ص ٢٣٠، ١٤ ذا ٧٥ / (١٥ تموز ٥٩).
- ٥٠٢- سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٥٠٣- Raymond, I, 24, 25 n
- ٥٠٤- Lane, p. 573
- ٥٠٥- سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٥١٠، ص ٤، ١٤ جمادى الثاني ١٢٧٦ / (١٠ كانون الثاني ١٨٦٠).

- ٥٠٦ - سجل غزة، ص ١١٨، ١١ ش ٧٤ / (٢٧ آذار ٥٨).
- ٥٠٧ - سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٩٤، ص ١١٣، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥٠٨ - الكرمل، ص ١٤١.
- ٥٠٩ - سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨)، ص ٢٤١، ٢٣ م ٧٦ / (٢٢ آب ٥٩).
- ٥١٠ - سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٩٤، ص ١١٣، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥١١ - سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٥١٢ - سجل غزة، ص ١١٨، ١١ ش ٧٤ / (٢٧ آذار ٥٨).
- ٥١٣ - الكرمل، ص ١٨٧.
- ٥١٤ - سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الأول ٥٨).
- ٥١٥ - المصدر السابق.
- ٥١٦ - سجل غزة، ص ١١٨، ١١ ش ٧٤ / (٢٧ آذار ٥٨).
- ٥١٧ - ص ٨٥.
- ٥١٨ - سجل غزة، ص ١٩١، ١٦ ج ٧٥ / (٢١ كانون الثاني ٥٩).
- ٥١٩ - المصدر السابق.
- ٥٢٠ - سجل غزة، ص ٤٢٧، ٢٨ ر ٧٧ / (١٣ تشرين الثاني ٦٠)، ص ٣٤٨، ١٣ ذا ٧٦ / (٢ حزيران ٦٠)،  
وقد اشير اليها من الذهب وعرفت في دمشق في حوالي عام ١٨٣٩، انظر: Jean-Paul Pascual, «Une  
neige a Damas au XIXe Siecle». *Bulletin d'Etudes Orientales*, t. XXVIII (1975), pp. 57-81,  
voir p. 60.
- ٥٢١ - سجل غزة، ص ١١٨، ١١ ش ٧٤ / (٢٧ آذار ٥٨).
- ٥٢٢ - سجل غزة، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦ / (١١ نيسان ٦٠).
- ٥٢٣ - سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥٢٤ - سجل غزة، ص ١١٨، ١١ ش ٧٤ / (٢٧ آذار ٥٨).
- ٥٢٥ - Baedeker, p. XXIX
- ٥٢٦ - سجل دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٩٤، ص ١١٣، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥٢٧ - سجل غزة، ص ٤٢٧، ٢٨ ر ٧٧ / (١٣ تشرين الثاني ٦٠).
- ٥٢٨ - الكرمل، ص ١٧٥، Bowen and Gibb, ii, 54
- ٥٢٩ - سجل غزة، ص ١٩١، ١٦ ج ٧٥ / (٢١ كانون الثاني ٥٩).
- ٥٣٠ - سجل غزة، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦ / (١١ نيسان ٦٠).
- ٥٣١ - سجل غزة، ص ١٤٢، ٢١ ذ ٧٤ / (٢ آب ٥٨).
- ٥٣٢ - ص ١٧٢.
- ٥٣٣ - ص ٩٦.
- ٥٣٤ - سجلان دمشق الشرعية، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥٣٥ - Jean-Pascual, p. 60
- ٥٣٦ - انظر الكرمل، ص ١٧٥، ١٨٤
- Raymond, I, 20, 30-33, Bowen and Gibb, ii, 55 n.7
- ٥٣٧ - سجل غزة، ص ١١٨، ١١ ش ٧٤ / (٢٧ آذار ٥٨).



- ٥٣٨- سجل غزة، ص ٢١١، ١٣ ش ٧٥ / (١٨ آذار ٥٩).
- ٥٣٩- سجل غزة، ص ١٤٢، ٢١ ذ ٧٤ / (٢ آب ٥٨).
- ٥٤٠- سجل غزة، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦ / (١١ نيسان ٦٠).
- ٥٤١- سجل غزة، ص ٤٢٧، ٢٨ ر ٧٧ / (١٣ تشرين الثاني ٦٠).
- ٥٤٢- سجل غزة، ص ٣٤٨، ١٣ ذا ٧٦ / (٢ حزيران ٦٠)، ص ٣٩٢، ٢٠ ص ٧٧ / (٧ ايلول ٦٠).
- ٥٤٣- سجل غزة، ص ١١٨، ١١ س ٧٤ / (٢٧ آذار ٥٨).
- ٥٤٤- سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٩٤، ص ١١٣، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥٤٥- كرملي، ص ١٤١، pp. 572-3 Lane, cf.
- ٥٤٦- سجل غزة، ص ٣٤٨، ١٣ ذا ٧٦ / (٢ حزيران ٦٠).
- ٥٤٧- Jean-Paul Pascual, p. 60
- ٥٤٨- سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٩٤، ص ١١٣، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥٤٩- انظر حول الفندقلي: Raymond, I, 30-31; Bowen and Gibb, ii, 55.
- ٥٥٠- ص ٢٣.
- ٥٥١- سجل غزة، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦ / (١١ نيسان ٦٠).
- ٥٥٢- سجل غزة، ص ٣٤٨، ١٣ ذا ٧٦ / (٢ حزيران ٦٠).
- ٥٥٣- سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الاول ٥٨).
- ٥٥٤- سجل غزة، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الاول ٥٨).
- ٥٥٥- سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٤٩٤، ص ١١٣، سجل رقم ٥١٠، ص ٤.
- ٥٥٦- المصدران السابقان.
- ٥٥٧- انظر حول هذه الليرات الذهبية والمجر في غزة، سجل غزة، ص ١٤٢، ٢١ ذ ٧٤ / (٢ آب ٥٨)، ص ١٦٥، ٩ را ٧٥ / (١٧ تشرين الاول ٥٨)، ص ٣٣٣، ٢٠ ن ٧٦ / (١١ نيسان ٦٠).
- ٥٥٨- سجلات دمشق الشرعية، سجل رقم ٥٠٠، ص ٧٤، ١٠ ربيع الثاني ١٢٧٧ / (٢٦ تشرين الاول ٦٠).

# الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة

د. أحمد الربابعة

الجامعة الأردنية

مقدمة:-

تشكل فلسطين جزءاً طبيعياً من بلاد الشام. وهي تؤلف جزءها الجنوبي الغربي. فلو ألقينا نظرة على خريطة الوطن العربي نجد أنها تحتل قلب هذا الوطن الكبير، ونجد أنها تشكل جسراً يصل آسيا بأفريقيا وتصل البحر المتوسط بالسهول الداخلية وصحاري الجزيرة العربية، ووقوعها على البحر المتوسط أكسبها أهمية تجارية كبرى حيث توجد الموانئ والمدن الساحلية. ولا ننسى أنها كانت يوماً طريقاً للقوافل التجارية بين مصر وشمال أفريقيا وكذلك القوافل المتجهة من وإلى الجزيرة العربية وبلاد الشام. فوقع فلسطين عند مجمع السبل وصوريتها ميادين قتال واتخاذها طرقاً للتجارة أكسبها فوائد التمدن والصنائع والعلوم من الأمم العظيمة المجاورة<sup>(١)</sup>. وقد تسنى لفلسطين كما يقول الدكتور «بريستد» أن يتجمع في أسواقها أناس من كل بلاد وأمة ولسان. فكان الواحد يشاهد في تلك الأسواق ما صنعه يد المصري من نفيس الحلبي وضروب الآنية النحاسية والمصنوعات العاجية المختلفة وفخار جزر بحر إيجه وخزف بلاد الحثيين الأحمر ومنسوجات الصوف البابلية. فقد امتزجت بها مدنات مصر وبابل وفينيقية وبلاد إيجه وآسيا الصغرى على أسلوب لا مثيل له في الشرق القديم<sup>(٢)</sup> وهكذا نجد أن موقع فلسطين الجغرافي كون لها تاريخاً حضارياً وثقافياً على نحو متميز. وفي الوقت الذي حققت فيه فلسطين شهرة عالمية في التجارة بسبب موقعها الاستراتيجي الهام فقد تقدمت أيضاً في صناعتها وبلغت في ذلك شأواً بعيداً.

وفي الحقيقة فقد كان في فلسطين صناعة بدائية أخذت في الفترة الأخيرة حظا من التطوير. غير أن تلك الصناعة كانت تعتمد بالدرجة الأولى على البيئة الطبيعية ومشتقاتها وعلى الحيوان ومشتقاته وعلى ما يقع تحت بصر الفرد ليسد به حاجة أو ليشبع به مطلبها حياتيا معينا. ولكن هذه الصناعات ( كالسيف والسكين والمطرقة والبلطة والقوس والقباس الحجرية والمسمار وعود الحرت ) أودعت في الانسان الثقة بإمكان استقلاله عن الطبيعة يوما. والشيء الذي يمكن أن يقال عن الصناعة في فلسطين في عصورها التاريخية الأولى أنها كانت فقيرة في أدواتها الفنية وأنها كانت مشتقة من البيئة الطبيعية ومن الحيوان.

كما أن الصناعة كما يقول «مونتاجو» Montag تتأثر بالبنين الاجتماعي والوضع الحضاري ولذلك فانها غالبا ما تنسجم مع الخلفية العامة للبناء الاجتماعي ومبلع ادائه لوظائفه<sup>(3)</sup>.

وتجدر الاشارة الى أن المكتبة العربية ما زالت تفتقر الى دراسة علمية تحليلية منظمة عن الصناعات المختلفة في فلسطين. فمعظم الكتابات التي أمكن الاطلاع عليها تشير الى صناعة واحدة أو صناعتين اشارات عابرة مكثفة بذكر الصناعة وأماكن وجودها. وغالبا ما تكون هذه الاشارات مبعثرة ومتناثرة في مواقع متفرقة لا يجمع بينها جامع أو تؤلف فيما بينها وحدة متكاملة. ولهذا رأينا أن نسهم في سد هذه الثغرة بتناول هذه الصناعات المختلفة في دراسة شمولية آملا أن تتوفر جهود زملائنا من الدارسين والباحثين على دراسة كل صناعة من هذه الصناعات دراسة علمية متعمقة.

ولكي تتمكن من اعطاء صورة واضحة عن الصناعة في فلسطين فانه من المناسب أن نقدم عرضا تاريخيا موجزا يصف الصناعة في فلسطين في العصور التاريخية الأولى لكي نقف على الجهود التي بذلها الفلسطينيون في هذا المجال. ذلك لأن ما نشاهده اليوم من ضروب الصناعات المختلفة في فلسطين كان حصيلة جهود متتابعة أحدثت تعديلات وتطويرات على الصناعة اقتضتها الحاجات الانسانية الملحة. وستحدث بعد ذلك عن أبرز الصناعات التقليدية التي كانت قائمة في فلسطين ثم اندثرت أو في سبيلها الى الاندثار وتلك التي ما زالت قائمة. وسيتضمن البحث كذلك تحليلا يبين العلاقات الأرباطية بين النماذج الصناعية المختلفة وبين مكونات البنية الاجتماعية والاقتصادية والعناصر الطبيعية والتيارات السياسية والخصائص الحضارية والثقافية التي أثرت على الشعب الفلسطيني ككل في المراحل التاريخية المختلفة.

وستتناول البحث كذلك دراسة القوى والعوامل والظروف التي أثرت تأثيراً فعّالاً على الصناعة في فلسطين فطبعها بطابع خاص وجعلت لها خصائص مميزة، وستتحدث بعد ذلك عن عوامل النهضة الصناعية في فلسطين وفي مقدمتها اثر التكنولوجيا الغربية ووسائل الاتصال بالحضارة الأوروبية والهجرة من داخل فلسطين واليهما. ثم نتحدث عن مستقبل الصناعة في فلسطين وسبل استمرارها وعوامل نموها وتطورها. وستتضمن هذا البحث كذلك ملحقاً يشمل على الصناعات التي ما زالت قائمة في فلسطين والأماكن التي توجد فيها.

## الصناعة في فلسطين عبر التاريخ

تشير المصادر التاريخية والتنقيبات الاثرية الى أن الصناعة في فلسطين تضرب بجذورها في التاريخ الانساني البعيد. فقد دلت الحفريات التي أجريت في مناطق مختلفة في فلسطين على اهتمام الفلسطينيين بالصناعة في وقت مبكر من تاريخ الحضارة الانسانية. فقد تمكن علماء الحفريات من اكتشاف بقايا آثار وأدوات تشتمل على مقاشط وفؤوس يدوية ومحافر وشفرات وسكاكين وغيرها من الآلات الصوانية تعود الى العصر الحجري القديم. وقد وجدت هذه الأدوات في كهوف الكرمل وكهوف أم قطفة والزطية ومغارة الأميرة ومغارة أبو سيف الواقعة شرقي الخليل كما عثروا على بلطات يدوية في جنوب جسر بنات يعقوب جنوبي بحيرة الحولة.<sup>(٤)</sup>

وفي سنة ١٩٦٠، اعلن عن اكتشاف أقدم انسان صانع للأدوات الحجرية في العالم وذلك في موقع «العبيدية» (قرية في جنوب فلسطين) عند التقاء وادي العمود بنهر الأردن حيث وجد مع البقايا العضوية أدوات من النوع المعروف Pebble culture وهو أقدم صناعة انسانية معروفة<sup>(٥)</sup> وفي العصر الحجري الوسيط تمكن الانسان الفلسطيني من صقل أدواته الحجرية وتصغير احجامها وتحسين صنعها بحيث أصبحت أكثر فاعلية بالنسبة لأغراضه. وقد وجدت «دوروتي جارود» سنة ١٩٣٢، اثر تنقيباتها في مغارات جبل الكرمل صناعة صوانية سمّتها النطوفية نسبة الى وادي النطوف في فلسطين. وهي عبارة عن شظايا دقيقة ذات طرفٍ حادٍ مستقيم. ولاحظت أن هذه الصناعة لم يتعد انتشارها لبنان ومصر. وقد رافقت هذه الأدوات الصوانية مجموعة من الجواريش والمدقات المصنوعة من البازلت ومن الحجر الطباشيري، كما عثروا أيضاً على عدد من الأدوات المصنوعة من العظام والأصداف. ومن هذه الأدوات الخطاف والسنارة والمنجل<sup>(٦)</sup>

وعند نهاية العصر والوسيط دخل سكان فلسطين في طور جديد من العيش وهو طور الاعتماد على الزراعة فانتقلوا من طور جمع القوت الى طور انتاج القوت، وتمثلت حضارتهم في هذه الفترة بالأدوات الحجرية المصقولة وبالصحون الحجرية التي وجدت في وادي المغارة، والهواوين والمداق في مغارة الكبارة والمناجل والصوانية ذوات القبضة الخشبية التي يظن أنها كانت تستعمل لحصد القمح. ويظهر من هذه الأدوات أن الفلسطينيين هم أول من مارس الزراعة في العالم. (٧)

وفي العصر الحجري الحديث تقدموا في استعمال الأدوات الحجرية فزادوا في صقلها وارهاف حدودها، ووضعوا لفؤسهم الحجرية مقبضا حجريا ليكون وقعها أشد. وقد عثر علماء الحفريات في تليلات الغول على فأس ثبت بعد التحليل أنها تكاد تكون مصنوعة من النحاس الخالص، وعثروا في هذه التليلات على أسنة عظيمة يرجح أنها كانت تستعمل في الحياكة وأسنة عظيمة أخرى كانت تستعمل في خياطة الاقمشة الغليظة والجلود. وعثروا على ملاعق فخار مغارف كانت تستعمل لصب الطعام من القدر في الصحون. وفي مجال الصناعات الحربية استخدم الفلسطينيون في حربهم مع اسرائيل اسلحة صنعوها من الحديد. وهي صناعة لم يكن يعرفها الاسرائيليون من قبل فكانوا يغلبون الاسرائيليين ويلحقون بهم هزائم متواصلة. (٨)

وفي العصور الوسطى أسس الخليفة معاوية بن أبي سفيان داراً لصناعة السفن في مدينة عكا أمدهت بألف وسبعمائة سفينة مكنته من فتح جزر بحر الروم وحاصرت القسطنطينية أكثر من مرة في العهد الأموي. وقد أصبحت صناعة السفن في مدينة عكا تدعم القاعدة البحرية للخلافة الأموية المبكرة. (٩) وأشتهر أهل حيفا كذلك بصناعة السفن البحرية المسماة «بالجودي» (١٠) وعند محاصرة الصليبيين لمدينة عكا توصل أحد المواطنين فيها ممن هم مولعون بجمع آلات النفاطين في ايجاد عقاقير تقوى عمل النار. فقد شرع في عمل ما يعرفه من تلك الأدوية المقوية للنار. وعند استخدامها في القدر التي تقذفها المنجنيقات اندحر الصليبيون فتكبدوا خسائر فادحة. (١١)

وحول التقدم الصناعي في فلسطين في العصور الوسطى يقول «صموئيل ايتيور» كانت فلسطين في بداية العصور الوسطى وخلال الحملات الصليبية متقدمة اقتصاديا وكان فيها تكنولوجيا صناعية في مجالات المنسوجات الحريرية والصبغة وصناعة الزجاج واستخراج الزيت واستخدام القوى المائية والانتفاع بها أكثر من أي بلد أوروبي في ذلك الوقت. (١٢)

وهناك كثير من الصناعات ظهرت في فلسطين انقضت لعل في مقدمتها صناعة السكر وطواحين الهواء والماء. وتشير كثير من المصادر العربية الى كثرة زراعة قصب السكر في السواحل السورية وفي أرض الغور خاصة. وقد دلت الحفريات في تلك المنطقة على وجود بقايا لمعاصر السكر تعود بتاريخها الى الفترة الممتدة ما بين القرنين الثاني عشر حتى القرن الرابع عشر للميلاد. وقد بقيت واحدة من هذه المعاصر في الاستعمال حتى سنة ١٩٦٧، ولكنها تحولت من معصرة للسكر الى مطحنة للقمح.<sup>(١٣)</sup> وفي أريحا بجانب عين السلطان موقع يعرف باسم طواحين الهواء أو طواحين السكر. مما يدل على أن تلك المنطقة كانت تشتهر في السابق بزراعة السكر وصناعته. وقد ذكر «النويري» أن كثيرا من مصانع السكر قد تركزت في السواحل البيروتية والسواحل العكاوية.<sup>(١٤)</sup> وفيما يتصل بطواحين الهواء والماء يبدو أن الفلسطينيين قد عرفوا هذه الصناعة منذ فترة طويلة جدا. ذلك لأن المصادر التاريخية تشير الى الفترة التي تم فيها إعادة بناء هذه الطواحين ولا تشير الى بداياتها الأولى. غير أن «فولني» Volney يذكر أن أول طاحون هواء في الشرق الأوسط كانت في الرملة في عام ١٧٨٤<sup>(١٥)</sup> بينما تذكر بعض المصادر التاريخية أن الولاة المسلمين قد أعطوا أهمية خاصة لإعادة بناء هذه الصناعة وحياتها وتطويرها. فقد بنى «ظاهر العمر» طاحونتي ماء في عكا ثم بنى الجزار سبعة طواحين أخرى<sup>(١٦)</sup> وقد اهتم «محمد علي» ببناء طواحين الهواء في الفترة ما بين ١٨٣٢-١٨٤٠ لتوسيع قاعدة الطاقة وزيادة عمليات الانتاج الزراعي.<sup>(١٧)</sup>

وهكذا نجد أن الفلسطينيين بذلوا جهودا متواصلة طيلة الفترات التاريخية المتعاقبة للارتقاء بصناعاتهم وتحسينها وتطويرها الى أن عرفوا صناعة النسيج والغزل وصناعة الخرف مما ساعد في رقي حياتهم المستقرة. كما طوروا معرفتهم بمصنوعاتهم الفنية الجميلة مما يدل على تحمسهم بالجمال.

## الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة

تتميز الصناعة في فلسطين بأنها صناعة «ثنائية» و«ثلاثية» مصطلح يشير الى وجود نمطين ثقافيين يعيشان معا في آن واحد. ففي المجتمع الفلسطيني يوجد نمط تقليدي للصناعة يعيش الى جانب النمط الصناعي المتطور نسبياً في حالة من التضاد والتعايش. وتتميز الصناعة التقليدية بأنها صناعة يدوية تفتقر الى الانتاج الكثيف. وتمارس غالبا في المنزل على نطاق ضيق وضمن الوحدة الأسرية. أما الصناعة الحديثة فتتميز بكثرة انتاجها

واستخدامها للآلة وت مارس غالبا خارج نطاق الوحدة الأسرية ويسودها نظام التخصص وتقسيم العمل وتحكمها قوانين ولوائح تحدد العلاقات الرسمية وغير الرسمية بين العمال والموظفين والفنيين ضمن اطار من التنظيم الرسمي الذي يتحدد وفق التسلسل الهرمي القائم. وستناول في البداية الصناعات التقليدية التي ما زالت حيّة في المجتمع الفلسطيني.

## الصناعات التقليدية

### أولا: صناعة الفخار والخزف

لعل صناعة الفخار والخزف أقدم صناعة تقليدية في فلسطين. فقد ذكر « غارستنج » أن صناعة الفخار والخزف اخترعت في أريحا حوالي ٥٠٠٠ من.م. وقد وجد أن الأدوات التي عثر عليها كانت بدائية من نوع الأجران والجرار وجميعها كانت تصنع باليد<sup>(١٨)</sup> أما الدولاب فيظن أنه اخترع حوالي ٤٠٠٠ من.م. ويذكر المؤرخون أن الكنعانيين أول من صنعوا أوعيتهم الفخارية على دولاب الخزاف لأول مرة في التاريخ<sup>(١٩)</sup> ومن أريحا انتشرت صناعة الفخار في مختلف أنحاء فلسطين وسوريا حيث عثر على الخزف المدهون والملون أو المزخرف في بيسان وقرب غزة وحماة وطرابلس. وما زال في منطقة نابلس خربة تدعى خربة الفخاخير نسبة الى صناعة الفخار فيها. ويذكر المؤرخون ودارسو الحفريات أن أهل بلدة « جازر » كانوا يصنعون خزفهم بأيديهم ويزينونه بخطوط حمراء وبيضاء ويضعون موتاهم في جرار وبجانبا خزف مملوء بالطعام والشراب. ولا تزال قرية « بيتا » الى الشرق من نابلس تشتهر بصناعة الأدوات الفخارية المختلفة كالأباريق وجرار الماء والزيت<sup>(٢٠)</sup> غير أن هناك بعض الباحثين يرون أن صناعة الفخار جاءت الى فلسطين من سوريا والبعض الآخر يرى أنها جاءت من الأناضول في تركيا<sup>(٢١)</sup> ومع أن هذه الحرفة التقليدية أخذت تتناقص خلال القرن التاسع عشر بسبب تدفق السلع الأوروبية إلا أنها لم تنقرض تماما. فما زال الفلسطينيون متمسكين بهذه الحرفة لأنها تشكل عنصرا من عناصر حياتهم الاقتصادية والمعيشية وتنسجم مع خصائص حياتهم الاجتماعية. فمن المعروف أن الفلسطينيين اشتهروا منذ القديم بصناعة استخراج الزيت من الزيتون وكان لا بد أن يخترعوا أدوات وأواني لحفظ محصولهم من الزيت وخزنه في وقت لم يكن استخراج الزيت يتم بكميات تجارية يمكن بيعه في الاسواق المحلية أو العالمية على نحو ما نجد اليوم. وقد ساعد على تنشيط هذه الصناعة وانتشارها على نطاق واسع في معظم القرى والمدن الفلسطينية توفر التربة الصلصالية وهي المادة الخام الأساسية التي تلزم في هذه الصناعة.

كذلك فقد ساعد اسلوب تقسيم العمل على انتعاش هذه الصناعة واستمرارها. ففي المجتمع الفلسطيني يقوم الرجال بالاعمال التي تتطلب مجهودا عضليا بينما تضطلع النساء بالشؤون المنزلية التي لا تتطلب مثل ذلك المجهود العضلي وقليلًا ما كان النساء يشتركن مع الرجال في الانشطة الاقتصادية التي تمارس خارج المنزل. وقد شكل هذا فراغا كبيرا لدى المرأة الفلسطينية راحت تستغله بصناعة أدوات منزلية مختلفة كصناعة الفخار وغيرها. وتتميز صناعة الفخار عن غيرها من الصناعات بأنها سهلة ورخيصة الكلفة. وقد لعبت العوامل المناخية دورا بارزا في هذه الصناعة، فصناعة الفخار تبدأ عادة في شهري آب وأيلول وتقل في الأشهر الأخرى ذلك لأن درجة الحرارة تكون مرتفعة في هذه الأشهر ويكون الهواء جافا مما يساعد على تجفيف الأواني الفخارية وفي هذه الفترة تكون الدورة الزراعية قد انتهت وتكون الأواني قد أعدت لحفظ المحاصيل وتخزينها وخاصة محصول الزيت الذي يعد أكبر عامل مشجع لهذه الصناعة(٢٢)

ويقوم بعض النساء في قرية سنجل في محافظة القدس في الوقت الحاضر بصناعة الجرار المزخرفة على نمط فلكلوري بديع وبشكل هندسي جميل حصل على شهرة واسعة. وقد أشتهر عرب فلسطين منذ القدم بطلاء الخرف وتزجيجه وتلميعه بأشكال هندسية معقدة، وفي بعض الأحيان تدهن هذه الأدوات الفخارية وتنقش وتحز. وهذا ما يميز الفخار الفلسطيني بوجه عام(٢٣)

## ثانياً: صناعة اللباد والبشوت

تعتبر مدينة صفد موطن صناعة اللباد. وهي تفتخر بثلاثة آلاف مصنع للباد والأكليم(١)، وتصنع كذلك البشوت وسجاد الصلاة(٢) وفي قرية عورتا تصنع البشوت من الصوف الملون، وهي صناعة نفيسة، وكثيراً ما عرضت نماذجها في المعارض المختلفة التي أقيمت في البلاد.

وتصنع فيها أيضاً العباءة البيضاء والبسط(٣) ومنذ سنين قليلة كانت تصنع البشوت في قرية حجة، وكانت تعرف بابشوت الحجاوية. وقد اندثرت هذه الصناعة عام ١٩٢٧، بموت آخر عامل فيها(٤) ويشير « فريير » Freer الى أن معظم ملابس القرويين في فلسطين كانت تصنع من اللباد الذي تم صناعته في المنازل. ويبدو أن اللباد كما يشير « فريير » كان لباس النساء بينما كانت ملابس الرجال تصنع من شعر الماعز والابل والغنم أو من جلود الماشية(٥)



ولا شك أن تعدد نماذج اللباس التي تصنع من هذه المواد دليل على وجود نوع من التمايز الطبقي بين سكان فلسطين خاصة أن المنطقة كانت تمتاز ببناء اجتماعي يغلب عليه الصفة الاقطاعية أو أنه يخضع لنظام اقطاعي قوامه استثمار مجموعة قليلة من الناس بمساحات واسعة من الأَرْض الزراعية يعمل فيها الفلاحون لحساب الاقطاعيين الذين يعيشون في المدن، يتلذذون بالرفاه والنعيم تاركين الفلاحين في القرى يعانون من ضيق اقتصادي لا يحسدون عليه. وتشير نماذج اللباس الخاصة بالنساء الى تدهور مكانة المرأة وتدني مستواها الاجتماعي وربما يكون هذا الوضع حالة عامة في معظم أجزاء الوطن العربي آنذاك.

### ثالثا: المصنوعات الجلدية والشعرية:-

اشتهرت مدينة الخليل بصناعة الأكياس الشعرية والاحزمة الجلدية والقرب المصنوعة من جلود الغنم والماعز والدباغة والمعاطف المصنوعة من فراء الضأن. وفيها حارة تعرف بحارة العقابة حيث يضم رجال صناعة المعاطف الشتوية المصنوعة من الجلد. واشتهرت قرية حجة بصناعة السروج الخاصة بالجمال والدواب وتباع في القرى المجاورة. واشتهرت طمّون وطرابلس والقدس بصنع بيوت الشعر والخرجة (جمع خرج) والأكياس والحبال من شعر الماعز وصوف الغنم.<sup>(١)</sup> وهذه الأدوات يحتاج اليها السكان بكثرة في تلك المناطق لاشتغالهم بالزراعة وتربية الحيوان فكانوا يقضون معظم أيام السنة في بيوت الشعر مع مواشيهم مما جعل الثقافة البدوية تسود حياتهم ووسائل معيشتهم. وهكذا نجد أن البيئة الطبيعية التي يعيش فيها السكان تحدد نماذج الصناعة فيها وتطبعها بطابع خاص وتلونها بلون مميز.

### رابعا: صناعة الأدوات الزراعية:-

توصل الفلسطينيون منذ القدم الى صناعة معظم الأدوات التي تساعدهم في العمليات الزراعية والأنشطة الاقتصادية المختلفة. ويقال أنهم من استختم المنجل في حصد المحصول وقد ذكرت «فرنسيس املي ينوتن»<sup>(٢)</sup> أن الفلسطينيين اخترعوا معظم أدواتهم الزراعية مثل عود الحرث والمنجل والشُعُوب الغريبال والتورج والمذراة والمجرفة والفأس وغيرها<sup>(٣)</sup>

### خامسا: صناعة الأثاث والأدوات المنزلية:-

صنع الانسان الفلسطيني من عناصر الطبيعة ومن منتوجاته الزراعية ومن الحيوان معظم

ما يحتاج اليه في المنزل من آنية وأثاث. وجعل من هذه الأدوات تحفا فنية في غاية من الروعة والجمال. وتصف «فرنسيس نيوتن» هذه الصناعات فتقول «وعلى الحيطان أطباق بديعة الرسوم والنقوش من قش الخنطة وقد صبغ ألوانا وحاكته يد صانع» وتصف الاستعمالات المختلفة لهذه الأدوات فتقول «وهذه لحمل أقراص العجين الى الفرن وفي الزاوية جرار الزيت وما سواها، وما يخلو بيت من مطحنة ذات حجرتين من حجار الرحي تدار باليد فتسد الحاجة. وفي البيت ما يلزم من آنية النحاس للطبخ وأوعية الفخار للزيت وغيره، وبه صفيحة من الكاز للطباخ «البرموس» وللمصباح يشعل ويحمل عند الخروج. (٣٢) وبالإضافة الى الصواني الأطباق التي تصنع من سيقان القمح فقد اشتهرت القرى الفلسطينية على وجه الخصوص بصناعة أدوات بنائية مثل الكوارة والحامل والخزانة والفرن (الطابون) واشتهرت بصناعة أدوات منزلية أخرى مثل المنخل والبسط والحصر والجواريش. وقد تخصصت بعض القرى الفلسطينية بصناعة أداة بعينها أو أداتين من هذه الأدوات فقد تخصصت «جوريش» بصناعة الجواريش وتخصصت «أبو ديس» بصناعة الحصر وتخصصت «سنجل» بصناعة الصواني والأطباق من سيقان القمح بالإضافة الى شهرتها بصناعة الفخار على نمط فلكلوري جميل.

#### سادسا: تصنيع المأكولات:-

اشتق الانسان الفلسطيني معظم مأكولاته من بعض مشتقات الحيوان ومن مزروعاته. فصنع من مشتقات الحيوان السمن والجبن واللبننة. وهنالك كثير من القرى والمدن الفلسطينية قامت شهرتها على أساس هذه المصنوعات مثل أبو ديس وصفد (٣٣) أما المأكولات التي تصنع من النباتات فقد تفوقت فيها مدينة الخليل تفوقا ملحوظا فقد اشتهرت بصناعة الزبيب والدبس ومرنى «العين طبيخ» وهي ما تعرف اليوم باسم الصناعات التحويلية. وقد أقام آل عبد النبي مصنعا للمعلبات بأنواعها وفي مقدمتها عصير البندورة الذي أخذوا يصدرونه الى الخارج ويصنع في الخليل القطايف والكعك المحشو بالتمر والكنافة وغيرها من الحلويات التي يكثر رواجها في الأعياد بشكل خاص. كما اشتهرت مدينة الخليل «بالسماط الخليلي».

وكان على باب المسجد الذي تدق عنده الطبلخانة أي المكان الذي يصنع فيه السماط مكان متسع يشتمل على ثلاثة أفران وستة أحجار للطحن حيث يدخل اليه القمح فلا يخرج منه إلا وقد صار خبزاً (٣٤) ويوجد في القدس صناعة البسكوت والمكرونه وخبز الفطير (٣٥) واشتهرت نابلس منذ القدم بصنع الكنافة التي أصبحت جزءا من حياة النابلسي.

## الصناعات التقليدية ذات الأغراض الدينية

أولاً: صناعة الصدف والتحف الشرقية:-

تعتبر مدينة بيت لحم رائدة هذه الصناعة. فقد اشتهر أهلها منذ القديم بصناعة الصلبان والمسابع من خشب الزيتون يخطونها في اشكال مختلفة ويبيعونها للزوار. والمرجح أن أهل بيت لحم أخذوا هذه الصناعة بالإضافة الى صناعة عقد اللؤلؤ عن الأوربيين. وكانوا قبلاً يصنعون تلك من الخشب أو عجم الزيتون وكان أهل بيت لحم يجلبون الصدف من بومباي بالهند ومن جدة على البحر الأحمر ويصنعون منه بأيديهم المسابع والصلبان والدبابيس ويبيعونها للسياح. وقد انتقلت صناعة الصدف الى بيت ساحور وأصبح أهلها يصنعون منه بعض القطع الفنية والمسابع. وقد بلغت بيت لحم حداً من الشهرة رغبت الملوك والقواد في امتلاك شيء من ثمارها، فلما جاء ابراهيم باشا الى سوريا أخذ من أهل هذه البلدة ومن بيت جالا أيضاً عدداً من أصحاب الحرف والمهن الحاذقين بقصد انشاء تلك الحرف في القطر المصري وكذلك دعا «منليك» نجاشي الحبش ابرع الحفارين والبنائين من أهل بيت لحم لتشييد قصر له في بلاده. ولقد بلغت الدقة في العمل آنذاك أن صنعوا صورة لجامع عمر المشهور من الصدف وقدموه للسلطان عبد الحميد وكان أرباب هذه الصناعة بادية ذي بدء يأخذون مصنوعاتهم ويتاجرون بها في مصر وآسيا الصغرى ثم توجهت أبصارهم الى البلدان الافرنجية فاتتحمو البحار وعرضوا بضاعتهم في اسواق أوروبا، وهنالك لاقوا اقبالا عليها مما رغب عدداً من أبناء سوريا في استيراد المسابع والصلبان من بيت لحم والمتاجره بها في البلدان الخارجية. وقد بلغت التجارة في البضائع الصدفية درجة جدية بالاعتبار فقد بلغت صادرات فلسطين من الصدف عام ١٩٣٦ ما قيمته خمسة ملايين فرنك. وهذا التقدير يقل عن القيمة الحقيقية ذلك لأن التجارة المهربة كانت رابحة في ذلك الوقت. (٣٦)

وقد حرص أرباب هذه الصناعة على أن لا تقع في أيدي غيرهم فيخسروا وسيلتهم الوحيدة الى الرزق فإن ٨٠٪ من السكان كانوا يشتغلون بهذه الصناعة بيد أن المهاجرة التلحمية التي بلغت ما فوق ٥٠٪ من السكان قللت عدد المشتغلين بهذه الحرفة. ولهذا اتجه أهل البلدة الى تعليم اسرار هذه الحرفة الى اخوانهم في بيت جالا وبيت ساحور ودربوهم على صناعتها (٣٧) وقد بلغ عدد مصانع الصدف في الأردن حتى عام ١٩٦٣، ٢٤ مصنعا

وكان معظمها في القدس وبيت لحم باستثناء ثلاثة متاجر في عمان. ويقدر عدد المنتفعين من هذه الصناعة بـ ٥٠٠ شخص<sup>(٣٨)</sup> وبالإضافة الى بيت لحم فقد اشتهرت حيفا كذلك بصناعة مسحوق الأصداف (أي الصباغ الأرجواني) المشهور في التاريخ<sup>(٣٩)</sup> ومن الجدير بالذكر أن هذه الصناعة تخضع لنظام دقيق في التخصص واسلوب تقسيم العمل. فهناك عمال مختصون بنقع الصدف وآخرون بالنشر وغيرهم بالنجز والتزليم والنشر وهكذا. ويقوم تقسيم العمل كذلك على أساس النوع فالرجال يقومون بالأعمال التي تتطلب مجهودا عضليا كالنشر والتقطيع والتحريم والانجاز ويقوم النساء بالغسل والنظم والتشريط، والعميان يقومون بذلك. فالمشتغل في هذه الصناعة لا يهتم إلا بأمر واحد فقط طول نهاره. ولهذا فقد فتحت هذه الحرفة مجالا واسعا للرزق للرجل والمرأة للقوي وللضعيف للمبصر ولفاقد البصر سواء بسواء<sup>(٤٠)</sup>

وقد اشتهرت مدينة القدس بصناعة أدوات الزينة من خشب الزيتون فتراهم يحفرون على خشب الزيتون اشكالا متنوعة باتقان عجيب ويصنعون من هذا الخشب أدوات دقيقة الصنع ولعبا للاطفال وما الى ذلك من أدوات الزينة التي تستهوي الأجانب الذين يهبطون هذه المدينة. واشتهر المقدسيون كذلك في جدل سعف النخل وفي الصور النباتية التي تصور سهول فلسطين وجبالها ومدنها وقراها والأماكن المقدسة فيها<sup>(٤١)</sup> وقد ذكر «فولني» في رحلته الى القدس عام ١٧٨٥ بأن والي القدس كان يتقاضى ضريبة على السلع التي تصنعها مدينة القدس كالمسابع والصلبان وما اليها من التحف الشرقية ذات الرموز الدينية التي يصدرها منها كل سنة ٣٠٠ صندوق. وينفق دير اللاتين وحدة على مشتريها ٥٠٠٠٠ قرش في السنة<sup>(٤٢)</sup>

وقد كان لحجاج بيت المقدس وللعمال السوريين المهرة فضل كبير في تشجيع هذه الصناعات التي اقرنت بالتجارة التذكارية. وهذه الحوافز التشجيعية شجعت الفلسطينيين لأن يذهبوا الى الخارج ويؤسسوا شركات تجارية هناك، وبخاصة في امريكا وأوروبا. وكان لهذا التحرك الفلسطيني أثر كبير على رجال الاعمال الأوروبيين دفعهم لأن يأتوا الى بيت المقدس ويستقروا بها ليكونوا قريبين من اعمالهم هناك التي تركز معظمها في تجارة الصدف والتحف الشرقية.<sup>(٤٣)</sup>

### ثانياً: صناعة التطريز والأشغال اليدوية

اقرنت هذه الصناعة كسابقتها بالأماكن الدينية المقدسة في فلسطين ذلك لأن

منتجات هذه الصناعة كانت تباع للزوار وللحجاج المسيحيين بشكل خاص. ولذلك كان يذلل في صنعها جهد كبير وفن رفيع يتناسب مع عظمة الأماكن الدينية وقديستها. وقد أقامت مدينة بيت جالا مشغلا للفتيات المنحرفات ضمَّ معظم أعمال التطريز والأشغال اليدوية.<sup>(٤٤)</sup> واشتهرت مدينة الناصرة بصناعة الأشغال اليدوية الدقيقة الصنع تقوم بها الآنسات على وجه الخصوص وهناك مدن أخرى في فلسطين ليست ذات طابع اشتهرت بهذه الصناعة مثل رام الله وبيت زيت وبيت ساحور وبيت جالا الآ أن هذه المدن غالبا ما تصدر هذه الصناعات الى القدس وبيت لحم ومن هناك تصدر الى اميركا وأوروبا.<sup>(٤٥)</sup> ويبدو أن هذه الصناعة كانت حرفة النساء بشكل خاص ذلك لأن شغل الابرة والتطريز يتطلب دقة وصبرا لا يقدر عليه غير النساء.

### ثالثاً: صناعة البخور والشمع والعطارة:

كانت صناعة الشمع من الصناعات التي اشتهرت بها مدينة القدس. وكان الشمع المقدسي ولا يزال مرغوبا لدى الأجانب والسياح، وتباع منه مقادير كبيرة في الأعياد. وما زالت تجارة الشمع رائجة في هذه المدينة.<sup>(٤٦)</sup> واشتهرت القدس كذلك بالعطارة منذ القدم فقد ذكر ابن بطوطة أن فيها سوقا تعرف بسوق العطارين<sup>(٤٧)</sup>

وذكر السائح التركي أوليا شاهي سنة ١٦٧٠هـ أن القدس اشتهرت بالمسك والبخور والمباخر النحاسية.<sup>(٤٨)</sup>

### الصناعات المتطورة

نقصد بالصناعات المتطورة تلك الصناعات التي أصبحت تستخدم الآلة في معظم العمليات الانتاجية. ولا شك أن هذه الصناعات كانت في يوم من الأيام تستخدم القوة الانسانية العضلية والقوة الحيوانية وقوى أخرى غير الآلة. وفي مقدمة هذه الصناعات صناعة استخراج الزيت من الزيتون وصناعة الصابون وصناعة الغزل والنسيج وصناعة القاشاني والزجاج.

### أولاً: صناعة استخراج الزيت

تعتبر صناعة استخراج الزيت من الزيتون من أقدم الصناعات في فلسطين وكان يتم

استخراج الزيت في الماضي بطريقة بدائية قوامها «البَد» والبد عبارة عن عصا طويلة يثبت في اسفلها حجر دائري كبير بحيث يوضع الزيتون على الحجر وتتحرك العصا بواسطة الحيوان حركة دائرية ضاغطة على حبوب الزيتون بواسطة ثقل معين وتكرر هذه العملية يعزل الزيت جانبا. إلا أن الزيت المستخرج لم يكن بكميات تجارية وإنما لاغراض الاستهلاك المحلي.<sup>(٩٩)</sup> وكان الانتاج في بعض الأحيان يزيد عن طاقة الاستهلاك المحلي فيلقى الزيت بعيدا في الخارج. فقد ألقى سكان القدس في سنة من السنين بزيتهم القديم ليتمكنوا من ايجاد أوعية كافية لحزن زيتهم الجديد. وفي فلسطين بدود كثيرة فنادرا ما تخلو قرية أو مدينة من بد واحد أو بدين أو ثلاثة بدود<sup>(١٠٠)</sup> الى درجة أن بعض القرى في فلسطين اشتقت اسماءها من هذه الاداة أو كانت تحريفها لها مثل «بيديا» وبيت زيت ويدو. وكان الناس هناك يستعملون الزيت للأكل والاناة والعلاج ولكنهم في المدّة الأخيرة أخذوا يصدرونه للخارج بعد أن استخدموا معاصر الزيت الآلية الحديثة. ففي قرية مزارع النوباني على سبيل المثال معصرة ميكانيكية واحدة وفي دير غانة وبيت زيت معصرتان ميكانيكيتان حديثتان وفي قرية عابود معصرتان ميكانيكيتان. وفي رام الله أربع معاصر حديثة. وكان في الخليل عام ١٩٦٥، ثلاث آلات لعصر الزيتون تدار بالآلة وثلاثة تدار بالحيوان<sup>(١٠١)</sup>. وفي القدس أيضا عدد كبير من معاصر الزيت التقليدية والحديثة. وفيها جامع يسمى جامع خان الزيت في سوق خان الزيت<sup>(١٠٢)</sup> وفي سنة ١٩٤٥ كان في نابلس معصرتان حديثتان للزيت. وفي السنين الأخيرة تأسست في نابلس شركة الزيوت النباتية فأقامت مصنعا لتكرير جميع الزيوت النباتية وتنقيتها وخصوصا زيت الزيتون لانتاج السمن النباتي الذي تستهلك منه الأردن ٤٥٠٠ طن سنويا. وفي تشرين الثاني من عام ١٩٥٣، باشر المصنع انتاجه ويضم اليوم حوالي ٢٠٠ عامل وموظف، ومن المشاريع التوسعية التي انجزتها الشركة إنشاء مصنع للصفائح لتعبئة الزيت. واستوردت معاصر لعصر البذور الزيتية الأخرى<sup>(١٠٣)</sup> وقد مهدت صناعة استخراج الزيت لظهور صناعة الصابون.

## ثانياً: صناعة الصابون

صناعة الصابون في فلسطين صناعة قديمة لعلها تعود بتاريخها الى القرن الرابع الهجري<sup>(١٠٤)</sup> ومما ساعد على ازدهار صناعة الصابون وانتشارها على نطاق واسع في فلسطين توفر المادة الأولية لهذه الصناعة وهي شجر الزيتون. وقد أصبح امتلاك شجر الزيتون وما ينتجه من زيت مقياسا للثروة والغنى والثروة في المجتمع الفلسطيني. وبسبب تركيز هذه الثروة في

محافظة نابلس فقد أصبحت عاملا أساسيا من عوامل النهضة الصناعية فيها. ويعتبر استعمال هذه المادة (أي الصابون) في غسل الأجسام والملابس والثياب دليلا على الوعي والتقدم الحضاري في فلسطين، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار قدم هذه الصناعة في فلسطين.<sup>(٥٥)</sup> وقدر «فولني» Volney عدد مصانع الصابون في فلسطين سنة ١٧٨٥، ثلاثة في غزة وواحدة في الرملة وأخرى في الخليل.<sup>(٥٦)</sup> أما المركز الفعلي لهذه الصناعة فكان مدينة نابلس. ففي سنة ١٧٩٩، صدرت هذه المدينة حوالي تسعة آلاف قنطار من الصابون. وكانت مصر واليونان وآسيا الصغرى والعراق بعض الاقطار التي تمون بانتظام بصابون نابلس.<sup>(٥٧)</sup> وكان أصحاب هذه الصناعة يستخدمون في السابق مادة «القلي»<sup>(٥٨)</sup> إلا أنهم أدخلوا عليها تحسينات فاستبدلوا القلي بالصدودا الكاوية كما أضيف إليها أنواع أخرى من الروائح العطرية. وقد بلغ عدد مصانع نابلس في أواخر سني القرن التاسع عشر ٣٠٠ مصبنة. إلا أن هذه المصابن أخذت تتضاءل حتى بلغت سنة ١٩٠٤، ١٦ مصبنة ثم ١٥ مصبنة قدر انتاجها السنوي قبل الحرب العالمية الأولى ب ٥٠٠-١٠٠٠ طن. وفي ابان الحرب المذكورة كان فيها ٢٩ مصبنة منها ٢٣ مصبنة كبيرة و٦ مصابن صغيرة تنتج من ٨٠٠٠-٨١٠٠ قنطارا صابونا أو ما يعادل ٢٤٠٠-٢٦٤٠ طنا. وعندما أعلن الوطن القومي لليهود في نهاية الحرب العالمية الأولى كان يوجد فيها ما لا يقل عن خمسين مصنعا لصناعة الصابون تنتج ما يزيد عن تسعة آلاف طن سنويا.<sup>(٥٩)</sup> وفي سنة ١٩٣٦، كان فيها ٢٤ مصبنة. وقد استمر الفلسطينيون في اجراء تحسينات وتعديلات على صناعتهم هذه فاستقدموا الاختصاصيين لتأسيس هذه الصناعة على نسق حديث مما كان له أكبر الأثر في تعزيز تجارة البلاد الخارجية ومزاحمة الصابون الأوروبي والأجنبي من الصابون المعطر في اسواق الشرق الأوسط.

لقد احتلت مدينة نابلس بالفعل مركز الصدارة في صناعة الصابون حتى أصبحت مركزا رئيسيا لصناعته في منطقة الشرق الأوسط عموما. ولم تحتكر هذه الصناعة من قبل أية شركة معينة ذلك لأن صناعة الصابون في نابلس وفي غيرها من المدن والقرى الفلسطينية حتى قبل الحرب العالمية الأولى بمدة طويلة تم في المنازل. ومع ذلك فإن هذه الصناعة ساعدت على تكوين طبقة من الأثرياء تركزت في عائلات محددة مثل عائلات العامر وهدهد والمعاني ومرمش وطبيلة. فكانت هذه العائلات تملك معظم مصانع الصابون في مدينة نابلس. وكانوا يقومون مقام البنوك اليوم فيقرضون الفلاحين ويسلفونهم مبالغ من المال لقاء محصول الزيت في موسمها المحدد. وقد حصلت هذه العائلات بالاضافة الى ذلك على مكانة اجتماعية مرموقة

في نابلس مكنتها من اكتساب بعض الخصائص مثل الجاه والنفوذ والصيت الاجتماعي. ولم تقتصر مدينة نابلس على انتاج الصابون الأبيض ذي النوعية الممتازة بل أصبحت تنتج في الأيام الأخيرة أنواعا أخرى من الصابون. فظهرت في سنة ١٩٥٢-١٩٥٣، صناعة الصابون الأخضر وهو أقل جودة من الصابون الأبيض ورخص ثمنا. ويستخرج من زيت الجفت. والجفت هو المادة المتبقية من عصر الزيتون. وأصبح هذا الصابون يستعمل للغسيل في حين احتفظ الصابون الأبيض بقيمته كإداة أساسية للاغتسال. وهناك بعض المصانع التي أدخلت الشحوم الحيوانية والزيت النباتية الأخرى في صناعة الصابون وتضيف إليه الأصباغ لتعطيه اللون المناسب<sup>(٦٠)</sup>.

وقد وصف «أبا كاريوس»<sup>(٦١)</sup> تجارة الصابون بقوله «لقد نجحت هذه الصناعة في تأسيس سوق عالمي يصدر إليه الصابون الفلسطيني. وكانت مصر هي السوق الرئيسي لصابون نابلس. فقد كانت تستورد ما بين ٥-٦ آلاف طن سنويا من مجموع الانتاج الكلي أو ما قيمته ٢٥٠.٠٠٠ ر. ليرة فلسطينية تقريبا دون أن يكون لهذه الصناعة أية حملة من منافسة الصابون الأجنبي أو أي دعم من الحكومة في الوقت الذي كانت فيه صناعة الصابون اليهودي المصنوع من الأسيد والأقل جودة من الصابون النابلسي تتمتع بدعم الحكومة البريطانية وحمايتها وذلك عن طريق زيادة الضرائب التصاعدية على الصابون المستورد. وقد مارس اليهود اساليب شتى للحد من انتشار الصابون النابلسي ورواجه. ومن جملة هذه الأساليب رفع أسعار الصابون الذي ينتجه اليهود على التجار الذين يتعاملون مع العرب أو مع مصانع الصابون النابلسي. وكان من نتيجة ذلك أن هبطت كمية الصابون النابلسي المصدر الى حوالي ١٥٠٠ طن سنويا. وقد أدى دعم الصناعة اليهودية وحمايتها وزيادة التعرفة الجمركية على السلع المثيلة الى قتل الصناعة العربية عموما.

وقد اشتهرت القدس كذلك بصناعة الصابون لفترة تاريخية محدودة ثم تضعفت مع الزمن فقد كانت القدس فيما مضى مركزا من المراكز الهامة في الشرق في صناعة الصابون ويصدر منها الى مصر والبلاد المجاورة، اذ كان فيها وفيما حولها من الأراضي مساحات واسعة من أشجار الزيتون. غير أن هذه الصناعة تقلصت سنة ١٨٧٦، يوم اكتسح المدينة اسراب من الجراد وأتت على قسم كبير من أشجار الزيتون ثم أتى الأتراك على ما تبقى من تلك الأشجار استعملوها وقودا للتدفئة ولتسيير القطارات. وهكذا أصبحت القدس في المؤخرة، وليس فيها اليوم مصبنة واحدة بعد أن كانت في الطليعة<sup>(٦٢)</sup>.



ويصنع الصابون كذلك في بير زيت وفي الخليل. فقد عرف سكان الخليل صناعة الصابون على نحو بدائي منذ القرن الثامن عشر حيث كانوا يصنعون الصابون بأيديهم ويأتيهم البدو «بالقلي» الذي يدخل في طبخة وتتاجر به مع مصر والشام والحجاز وجزر بحر الروم. وقد انشئ في كل من حيفا ويافا عدة مصانع للصابون كان يصدر من موانئها الى مصر التي كانت تعتبر السوق الرئيسي لهذه الصناعة.

### ثالثا: صناعة الغزل والنسيج

كانت فلسطين فيما مضى مركزا بسيطا لحلج القطن وحيآكته. فقد حققت صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية في القرون الوسطى مستوى عالياً من الجودة على أيدي الصناع العرب. وفي الوقت الذي حققت فيه كل من سوريا ولبنان شهرة عالمية في صناعة المنسوجات الحريرية فقد ركزت فلسطين على صناعة المنسوجات القطنية باستخدام النول. وتعتبر مدينة القدس أقدم مدينة في فلسطين في صناعة المنسوجات القطنية ولا يزال فيها سوق رئيسي يدعى سوق القطانين. أسسه السلطان محمد بن قلاوون سنة ٥٧٣٧هـ. (٦٣) ومن أسواقها الرئيسية أيضا سوق الحلجين الذي يعمل فيه الحلجون والندافون وتجار القطن. (٦٤) وفي أبان الحرب العالمية الأولى أعيد بناء هذه الصناعة عن طريق جمعية الصليب الأحمر الامريكية اذ أسست هذه أنوالا لتشغيل اللاجئيين الى القدس من أبناء الطائفة الأرمنية بدلا من توزيع الهبات عليهم فراح هؤلاء يغزلون وينسجون. وهكذا انتعشت صناعة الغزل. ومن أجل الوصول الى تلك الغاية أنفقت مبلغا من المال على تعمير سوق القطانين التي أرادت جعلها مقرا لصناعة النسيج. إلا أن هذه الفكرة لم تنجح وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية عادت صناعة النسيج فانتعشت مرة أخرى. وقد بلغ عدد مصانع النسيج في القدس عام ١٩٤٧ (١٣٢) مصنعا (٦٥).

ويسبب تركيز الصناعات النسيجية في القدس واشتارها بها منذ القدم أصبحت ملابس السكان هناك مظهرا من مظاهر التمايز الطبقي. فنوع الملابس واسلوب حياكتها والمادة المصنوعة منها معيار أساسي من معايير التمييز بين الاغنياء والفقراء. فقد ذكر جاويش زاده «محمد باشا» مالك القدس سنة ١٦٧٠م أن أغنياءهم يلبسون السمرور والقنباذ المصنوع من الجوخ الممتاز والثياب المصنوعة من الصوف المعروف «بالجلابي» وفقراءهم يلبسون العباءة من النوع المعروف (بالاجه عبا) والقنباذ المصنوع من الجوخ العادي والثياب المصنوعة من الصوف الابيض (٦٦). وقد تأسست صناعة المنسوجات الحريرية والصوفية في

صعد على النمط الاسباني الحديث منذ القرن السادس عشر الميلادي، وبدأت بشكل نشط وقوي لكنها اقلقت بعد مائة سنة لأنها لم تقدر أن تنافس المصانع الأوروبية<sup>(٦٧)</sup>. ومنذ ذلك التاريخ انتشرت الصناعات النسيجية في معظم المدن الفلسطينية الكبرى. فقد اشتهرت مدينة الخليل بزراعة القطن وغزله وبيعه في القدس وغزة. وكان فيها حارة تعرف باسم حارة «قيطون» كانت تضم عمال القطن. وتقدمت صناعة النسيج أيضا في مدينة يافا. وقبيل النكبة أقيم في ضواحيها معمل لغزل القطن وتحويله خيوطا للنسيج. وكان يصدر من مينائها القطن المنسوج الى عكا ثم الى اوروبا.<sup>(٦٨)</sup> وقدر «فولني» Volney عدد مصانع حياكة القطن في غزة وحدها بـ ٥٠٠ مصنع.<sup>(٦٩)</sup> ويقول الاستاذ «محمود العابدي» كانت قرية المجدل التي تبعد أربعة كيلومترات الى الشمال من طبريا تغص بالنساجين والصباغين.<sup>(٧٠)</sup> وكانت حيفا كذلك مركزا لصناعة المغازل والمناسج. وفي مجال المنسوجات الحريرية أقام سكان يافا على نهر العوجا وفي مناطق أخرى حول المدينة مساحات واسعة من مزارع التوت لانتاج الحرير الخام تشكل جزءا هاما من الزراعة في يافا.<sup>(٧١)</sup> ثم اختفت هذه الصناعة فيما بعد أو أنها أصبحت على شكل جماعات صغيرة مبعثرة هنا وهناك حول بساتين البرتقال بسبب الضغط الصهيوني ووقوف المستعمر البريطاني في وجه هذه الصناعة النامية.

ويذكر «موشي ماز» Moshe Maoz أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين أصبحت فلسطين تزود مصانع النسيج في عدة أقطار أوروبية بالقطن الخام وبخاصة فرنسا بالإضافة الى ما كانت تصدره للسوق المحلية وللأسواق العربية المجاورة.<sup>(٧٢)</sup> وربما يكون الاستيلاء على مزارع القطن في سوريا وفلسطين والسيطرة على أسواقه في الخارج من بين الأسباب العديدة التي تفسر طمع فرنسا في كل من سوريا وفلسطين. غير أن بعض مصانع النسيج في بيت جالا ونابلس والقدس والخليل قد دمرت أو اختفت أو أنها تقلصت الى المستوى الذي أصبحت فيه صناعة ثانوية لا تكاد تشبع احتياجات الحرفي المسكين الذي يناضل من أجل معيشته وذلك على أثر تدفق الصناعات النسيجية الأوروبية ودعم صناعات النسيج التي كان يمتلكها اليهود. ولكن هنالك مراكز أخرى لصناعة النسيج مثل المجدل وغزة تغلبت على هذه الأزمة بتطوير اساليبها وطرقها الصناعية فأقاموا مصانع تقليدية تنتج أقماتا من اللباس تتناسب مع أذواق السكان المحليين وتتناسب مع دخل المستهلكين من الفلاحين الفقراء. وهذه الطريقة تغلبت على منافسة الصناعات الأجنبية.<sup>(٧٣)</sup>

## رابعاً: صناعة الزجاج والقاشاني

تركزت صناعة الزجاج في مدينة الخليل. وكان مصنع الزجاج فيها هو المصنع الوحيد في سوريا كلها. ويرجع تاريخه الى القرن السادس عشر الميلادي. وفي هذا المصنع يصنعون الخواتم الملونة واساور وخلاخل وشياء أخرى يبعثون بها الى الاستانة. وكان في الخليل حارة تسمى حارة القزازين نسبة الى عمال القزاز. وكان فيها بركة ماء تعرف ببركة القزازين طولها ١٢٨ ياردة وعرضها ١٨ ياردة وعمقها ٢٧ ونصف. ويبدو أن القرن الثامن عشر كان عصراً مرموقاً بالنسبة لمدينة الخليل فقد اشتهرت فيه بصناعة الصابون وغزل القطن وصنع الزجاج فتلك الصناعات جعلت للخليل مكانة ممتازة وكانت أقوى بلد صناعي في تلك الأرجاء.<sup>(٧٤)</sup> وما زالت الخليل في طليعة المدن الفلسطينية التي تصنع الزجاج. وأما صناعة القاشاني فقد اشتهرت بها مدينة القدس. وقد بقيت هذه الصناعة حتى الربع الأول من القرن العشرين منحصرة في رجل أرمني اسمه «داوود اوهانسيان». وعندما شعر المجلس الاسلامي الأعلى عام ١٩٢٧ بالحاجة لتعمير مسجد الصخرة بسبب تلف معظم القاشاني الموجودة في هذا البناء التي تعود الى القرن السادس عشر الميلادي استحضر الخبراء من استانبول، ودرّب هؤلاء عدداً من أبناء نيت المقدس فبنوا الأفران وصنعوا من البلاط قاشاني لا تقل جودة عما صنعه الاقدمون. أما صناعة الزجاج وان عرفتها القدس في الأزمنة العابرة إلا أنها لم تنتعش هنا انتعاشها في مدينة الخليل.<sup>(٧٥)</sup>

## خصائص الصناعة في فلسطين وأبعادها الاجتماعية

تميزت الصناعة في فلسطين منذ نشأتها وفي مختلف مراحل تطورها بمجموعة من الخصائص نحدددها على النحو التالي:-  
أولاً التنوع: والتنوع أكسب الصناعة الفلسطينية مقدره فريدة على الصمود والتحدي والاستمرار ويعود هذا التنوع في معظمه الى مجموعة من القوى والعوامل لعل أبرزها:-  
أ) الشروط الايكولوجية «البيئية» والعوامل الطبيعية التي عينت الى حد بعيد ملامح الصناعة في فلسطين، وطبعتها بطابع خاص مميز. فشجرة الزيتون التي لا تكاد تخلو منها بقعة من الأرض في فلسطين هي ثمرة الشروط البيئية والعوامل المناخية. وعلى أساس شجرة الزيتون قامت صناعة استخراج الزيت وصناعة الصابون ولهذا فان شجرة الزيتون تعتبر بحق الشجرة القومية لفلسطين.

- ( ب ) وتميزت الصناعة الفلسطينية في جزء منها بأنها صناعة تحويلية ومن أبرز هذه الصناعات صناعة المعلبات والمربيات والدبس والقطين وغيرها. وهذه الانواع من الصناعات تتمم النشاط الزراعي وتتكامل معه.
- ( ج ) وقد ساعد نوع التربة كذلك على انتعاش بعض الصناعات التقليدية وانتشارها على نطاق واسع في معظم المدن والقرى الفلسطينية وفي مقدمتها صناعة الفخار من التربة الصلصالية.
- ( د ) وقد هيأت الشروط الايكولوجية ( البيئية ) مناخاً ملائماً لتربة الحيوان الذي قام على أساس مشتقاته ومنتجاته بعض الصناعات مثل الأحزمة الجلدية والأكياس الشعرية والمنسوجات الصوفية بالإضافة الى صناعة السمن والجبن واللبن وغيرها.
- ( هـ ) وجود المدن الساحلية على البحر المتوسط مكنتها من الاشتغال بصناعة السفن والقوارب التي كانت تصنع من مادة النخيل وبخاصة في مدينة عكا. كما سهلت هذه الموانئ عملية تصدير المنتجات الصناعية مما ساعد على انتعاشها واستمرارها.

ثانيا: ومن خصائص الصناعة في فلسطين التخصص الاقليمي في صناعة واحدة بعينها أو في صناعتين. فكنت تجد قرية بكاملها أو مدينة بعينها تتخصص في صناعة الحصر أو البسط أو السجاد أو اللباد أو الزجاج.

ثالثا: وقد تلونت الصناعة في فلسطين بلون ديني بسبب ما تشتمل عليه من أماكن دينية مقدسة مثل صناعة الصدف والتحف الشرقية ذات الرموز الدينية. وقد درت هذه الصناعات على أصحابها أرباحاً طائلة.

رابعا: ومن خصائص الصناعة في فلسطين أنها تتميز بنوع من « الثنائية » فهناك صناعات يدوية تقليدية ما زالت قائمة وراسخة في وجدان الشعب الفلسطيني وما زالت تعيش جنباً الى جنب مع الصناعات الحديثة التي تعتمد على الآلة في الدرجة الأولى. وهذه الثنائية الصناعية ما زالت موجودة في بعض البلاد المتخلفة اقتصادياً. وفي البلاد النامية صناعياً لا تزال الصناعات اليدوية التقليدية تمثل جيوباً ضاربة في المناطق الريفية أو على هوامش الحضر.

خامسا: لعبت بعض الصناعات الفلسطينية دوراً واضحاً في تحديد نسب الأفراد وانتماءاتهم بحيث أصبح نوع الصناعة هو الذي يحدد نسب الأفراد بدلا من الصلات والروابط الدموية

والولاءات العشائرية. فنجد مثلا عائلة القطان نسبة الى صناعة القطن وعائلة الفخاخيري نسبة الى صناعة الفخار وعائلة الصوباني نسبة الى صناعة الصابون وهكذا.

سادسا: أثرت الصناعة على التوزيع السكاني لأهالي فلسطين بحيث نجد أن معظم السكان يتركزون في المناطق الصناعية والتجارية الكبرى مثل حيفا ويافا والقدس ونابلس.

## عوامل النهضة الصناعية في فلسطين

تفاعلت مجموعة من القوى والعوامل في احداث تأثيرات متباينة على الصناعة في فلسطين. وكان معظم هذه العوامل في جانب تنشيط الصناعة الفلسطينية وتطويرها. ولعل أبرز هذه العوامل وأخطرها شأننا على نمو الصناعة في فلسطين التفاعل مع التكنولوجيا الغربية. والاتصال مع الحضارة الغربية والهجرة بنوعها الداخلية والخارجية.

أولا: أثر التكنولوجيا الغربية: - بدأ أثر التكنولوجيا الغربية والثورة الصناعية المتقدمة يظهر بشكل واضح على الاقتصاد الفلسطيني بوجه عام منذ بداية القرن العشرين. وقد مر هذا التأثير بثلاث مراحل. (٧٦)

### المرحلة الأولى: وتمثل في غزو الصناعة الأوروبية لسوريا وفلسطين.

وقد تميزت الصناعة الأوروبية بجودتها ورخص ثمنها مما أدى الى انكماش الصناعة النسيجية في سوريا وانهارها وتدهورها أو تقلصها في فلسطين على نحو ما حدث لمراكز الصناعات النسيجية في بيت جالا ونابلس والخليل ومدن أخرى في فلسطين، مع أن هنالك مراكز صناعية أخرى مثل المجدل وغزة تغلبت على هذه الأزمة بتغير أساليبها وطرقها في انتاج مصنوعات. ولكن عندما ظهرت السفن البخارية نشطت حركة الصناعة والتجارة في فلسطين لأنها أصبحت قريبة من الأسواق العالمية فتكاملت معها. وقد بدأت هذه العملية على مستوى بسيط في سنة ١٨٤٠م. وفي عهد «محمد علي» في الفترة الواقعة ما بين ١٨٣٢-١٨٤٠م. قامت محاولات لبناء ميناء داخلي وطواحين هواء، كما بذلت محاولات لتوسيع قاعدة الطاقة من أجل تنشيط عمليات الانتاج الزراعي وفيما بعد استخدم المحراث الآلي وانشيء مصنع حديث لضغط القطن في حيفا واستخدمت طرق حديثة لاستخراج الزيت.

**المرحلة الثانية:** وبدأت هذه المرحلة بعد حرب القرم مباشرة. وفي هذه المرحلة شهدت فلسطين أعظم أزهار في قطاع الصناعة وبخاصة في نهاية عام ١٨٦٠ ومعظم عام ١٨٧٠. وتم في هذه المرحلة فتح قناة السويس التي جعلت فلسطين في موقع قريب جدًا من وسائل الاتصالات البحرية العالمية الرئيسية وأصبحت السلع تستورد وتصدر من وإلى أي مكان في العالم بسهولة أكثر وبأمان أفضل. وفي هذه المرحلة أيضا تناقصت صادرات فلسطين من القطن بسبب تصديره من مصر. ولكن فلسطين تقدمت في فن تعليب الفاكهة وتصديرها للخارج، وزادت صادراتها من الزيت الى فرنسا وحققت كذلك زيادة كبيرة في كمية الصابون المنتج الذي كان يعد للتصدير الى مصر وسوريا وإلى عدة مناطق في تركيا. وفي هذه الفترة تناقص استخدام زيت الزيتون للأضاءة الى أن توقف كلياً وحل محله مصابيح الزيت الجديدة، مما مكن فلسطين لأن تصدر معظم زيتها الى الخارج. وقد استخدمت في هذه المرحلة كذلك الطواحين البخارية والعجلات الحديدية بدلا من العجلات الخشبية.

**المرحلة الثالثة:** وهذه المرحلة تشكل الربع الأخير من القرن التاسع عشر. فقد أخذت التكنولوجيا الغربية المبكرة وبخاصة التكنولوجيا الزراعية تدخل الى فلسطين مكونة لها هناك جذورا وقواعد راسخة. وعلى وجه العموم فقد تميزت هذه المرحلة باستخدام الآلات الزراعية المتطورة مثل الحراث الآلي. وبدأت المطاحن التجارية تستخدم الخشب والفحم كوقود لها. وتزايد التركيز على استخراج الماء من باطن الأرض لأغراض زراعية. ومع اطلالة القرن العشرين أصبحت الصناعات الميكانيكية تتزايد بصورة مذهلة لقد أصبحت فلسطين تتمتع بالفعل في هذه المرحلة بمستوى عال من التصنيع وبخاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار مضخات المياه الميكانيكية. وقد رافق هذا التطور الصناعي نمو مماثل في المستويات التربوية والثقافية لعرب فلسطين يمكن اعتبارها من أعلى المستويات نسبيا في أية منطقة في الشرق الأوسط. وقد تميزت هذه الفترة كذلك بظهور مجموعة من الأفراد الأغنياء من بين طبقة الفلاحين كانت قادرة في بعض الأحيان على منافسة الطبقة الاقطاعية القديمة والتجار الجدد في احتلال المراكز الاقتصادية العليا في البلاد.

وعلى وجه العموم فيمكن القول أن الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر كانت فترة رفاه وانتعاش اقتصادي بالنسبة لفلسطين بسبب العملية الديالكتيكية المتواصلة بين الحضارة الفلسطينية والحضارة الغربية. ولم يعد الفلسطينيون قادرين على استيعاب التكنولوجيا الغربية وتمثل مبادئها وموضوعاتها فحسب بل زيادة على ذلك راحوا يكييفونها ويطوعونها وفقا للظروف والشروط المحلية. وكانوا قادرين كذلك على

الاسهام في التقدم التكنولوجي بشكل مستقل على نحو ما كانوا عليه في الماضي البعيد. وترتب على غزو التكنولوجيا الغربية وتدفق السلع الأوروبية الى فلسطين في خلال القرن التاسع عشر أن أخذت الحرف التقليدية تنهار الواحدة بعد الأخرى. ولكن صناعة الزيت والصابون والمشروبات الروحية لم تتأثر بذلك.

### ثانياً: اتصال الفلسطينيين بالحضارات المختلفة:-

تعد هجرة الفلسطينيين الى الخارج وبخاصة الى أوروبا وأمريكا من أقوى عوامل الاتصال بالعالم الخارجي. وتعد الهجرة التلحمية (بيت لحم) من أقوى تيارات الهجرة الفلسطينية الى الخارج وتليها تيارات الهجرة من بيت جالا ورام الله الى الأمريكتين. (٧٧) ويبدو أن نوعاً من الاندماج والتفاعل حصل بين سكان هذه المدن والحضارة الأوروبية يدل على ذلك كثرة ما فيها من مدارس المانية ممتازة، ونشء جديد يتكلم الفرنسية والألمانية والابطالية. وقد أدى هذا التفاعل الى اكتساب عادات ومهارات غربية لونت الحضارة الفلسطينية بلون غربي جديد. وفي هذا الصدد يقول بعض الكتاب الغربيين أن القوة الذهنية في الفنون التي ميزت سكان بيت لحم وطبيعة الحرف التي يمارسونها ترجع الى تأثير الدم الافرنجي، ذلك لأن الشرق على وجه العموم يميل الى العقليات يعكس الغرب الذي يميل الى المحسوسات (٧٨)

ثالثاً: الهجرة الأوروبية وهجرة اليهود الى فلسطين: فقد بينا في مواقع سابقة من هذا البحث كيف أن الأوروبيين، وبخاصة رجال الأعمال منهم، كانوا يتدفقون على فلسطين ليكونوا قريبين من اعمالهم التي تركزت في تجارة الصدف والتحف الشرقية. وأقام فيها الالمان مصانع حربية دمرها الانجليز فيما بعد.

وعلى الرغم من أن الهجرة اليهودية أسهمت في تطوير الصناعة في فلسطين إلا أن هذا الاسهام رافقه جانب سلبي تمثل في محاولات اليهود قتل الصناعة العربية النامية مما دفع العرب الى بذل جهود متواصلة لتحسين صناعاتهم التقليدية وتطويرها للوقوف في وجه الصناعات اليهودية التي تتمتع بدعم الحكومة البريطانية وحماتها. وقد أدت هذه المنافسة المستمرة التي تحمل الفلسطينيين ديوناً وأعباء لا طاقة لهم بها. ولكن المهم أن الصناعة الفلسطينية صمدت وتحسنت وتطورت.

رابعاً: وجود الموانئ على البحر المتوسط: وفي مقدمة هذه الموانئ ميناء حيفا ويافا وقد تحولت هذه الموانئ فيما بعد الى مراكز صناعية كبرى. فقد تطورت حيفا من كونها ميناء

رئيسياً على البحر المتوسط الى مركز صناعي متطور. (٧٩) وكان يرى فيها المرء مؤشرات لبداية صناعة متطورة تعتبر الأولى من نوعها في الشرق الأدنى وخاصة الصناعات الكيماوية وصناعة مواد البناء وصناعة الصابون الأحذية. فقد كانت حيفا بالفعل المدينة الصناعية المتقدمة في فلسطين. وتقدمت مدينة يافا في صناعتها كذلك بمثل ما تقدمت في تجارتها وزراعتها. فكان فيها معامل للسجاير وبلاط الشمنتو والقرميد وعدة معامل للصابون ومعمل لسكب الحديد ومعامل للنسيج والورق والزجاج وقبيل النكبة اقيم في احد ضواحيها مصنعا لغزل القطن وتحويله خيوطا للنسيج. ولا شك أن هنالك اعتبارات اقتصادية هامة في تركيز الصناعة في المدن الساحلية الكبرى لعل أهمها الزمن والكلفة. (٨٠)

### مستقبل الصناعة في فلسطين

أصبحت الصناعة ركنا أساسيا من أركان الاقتصاد القومي لأي مجتمع من المجتمعات وأصبحت قوة الدول تقاس بقوة صناعتها. وهذا ما يفسر اهتمام الدول والحكومات بالقطاع الصناعي والعمل بصورة متواصلة على تحسينه وتطويره. وقد حقق الفلسطينيون بالفعل نموا نسبيا في المجال الصناعي في الفترات التاريخية المتعاقبة ولم يكن يوقف من اضطراب عملية النمو هذه سوى الحروب التي كانت تتعرض لها المنطقة من حين لآخر والأحداث السياسية العنيفة والقوى الاستعمارية الطامعة فقد عملت هذه القوى على جعل مستعمراتها ومنها فلسطين مصادر أساسية لتزويدها بالمادة الخام وسوقا رئيسية لمنتجاتها الصناعية التي تصنع في الوطن الام. ولكن هذا الاتجاه قد تعدل في الوقت الحاضر لأن استغلال الشعوب أصبح اتجاها كريها وبغيضا. (٨١)

ويصف (لاديزلاس) Ladislav صمود الصناعة الفلسطينية وتعددتها ونموها بهذه العبارات «لقد كنت مندهشا بالفعل أن تنتج الصناعات الفلسطينية كل هذا» وقال «وكنت أعتقد أن الصناعة الفلسطينية لا يمكنها أن تستمر أو أن تقف على قدميها، وأنه من المشكوك فيه أن يصبح للفلسطينيين صناعة في المستقبل ولكن العملية الصناعية استمرت بالفعل في حركة دائمة». (٨٢)

غير أن الصناعة الفلسطينية ما زالت تفتقر الى أهم ركن في الصناعة وهو توفر المادة الخام. فاذا استثنينا مناجم الكبريت فان المناجم الوحيدة الموجودة فيها مثل مناجم النحاس فبالإضافة الى كونها محدودة فانها ذات قيمة تجارية مشكوك فيها وغير ثابتة. فعملية التصنيع



في بلد ما لا تعتمد فقط على مجرد توفر عمال من النساء والرجال يمتلكون مؤهلات ضرورية لإقامة المصانع أو العمل فيها بل ينبغي توفر المواد الأساسية اللازمة للصناعة كالحديد مثلا لإنتاج آلات الإنتاج. ثم ان اكتشاف المادة الخام الأولية بتكاليف قليلة شرط ضروري اذا ما أريد للصناعة أن تقف على قدميها بالفعل. وينبغي أن تكون تكلفة الإنتاج مساوية لتكلفة الإنتاج في البلدان الصناعية بالإضافة الى زيادة الضرائب التصاعديّة على السلع المستوردة لذلك فان النمو الصناعي في فلسطين ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار المنافسة الحادة مع البلدان الصناعية المتقدمة التي تزود الأسواق العالمية فعلا بالسلع المختلفة ولكي يتمكن الفلسطينيون من منافسة السلع الأجنبية ويكون لهم وجود في السوق العالمية ينبغي أن يستمروا في اجراء تحسينات على مصنوعاتهم لكي تضاهي السلع المستوردة. أما في حالة استيراد أدوات الإنتاج وعدم توفر المادة الخام الأولية فإن الصناعة الفلسطينية لن تكون أفضل مما هي عليه.

ومن ناحية أخرى ينبغي عدم تركيز المصانع في مناطق قليلة محدده لأن ذلك يجعل الاقتصاد القومي كله عرضة للخطر اذا ما تعرضت البلدة لأي عدوان خارجي. فقبل اندلاع حرب حزيران في عام ١٩٦٧ كانت الضفة الغربية من الأردن آخذة بنمو اقتصادي صناعي زراعي لم يشهد له مثيل في تاريخها منذ عام ١٩٤٨ ففي الجانب الصناعي كان هناك حوالي ٤٨٪ من المؤسسات الصناعية في الضفة الغربية بلغ عدد ٣٢٠٠ مؤسسة صناعية تستخدم حوالي ١٤٠٠ عامل أو ٣٧٪ من قوة العمل في الأردن. (٨٣)

وكان معظم المصانع متركزة في عمان ونابلس. ولذلك ضرب الاقتصاد الأردني بسبب فقدانه لهذه المصانع. (٨٤)

وإذا ما ألقينا نظرة فاحصة على الجدول المرفق نجد أن مدينة نابلس ما تزال تشكل مركز الثقل الصناعي وأنها تقود الحركة الصناعية في فلسطين ذلك لأن معظم الصناعات متركزة فيها. ولا شك أن لازدهار صناعة الصابون في هذه المدينة والمتاجرة به منذ القديم مع مصر بالدرجة الأولى ثم مع معظم الأقطار الآسيوية والأفريقية الواقعة على البحر المتوسط بشكل خاص كان له أثر كبير على انتعاش الصناعة فيها. ذلك لأن الأرباح التي كان يجنيها أصحاب هذه المصانع كانوا يوظفون جزءا منها على الأرجح في إقامة صناعات أخرى جديدة اسهمت فيما بعد في تكوين ميل لديهم لجمع المال وتراكم الثروة. وربما اكتسبوا هذا الميل من البلدان التي كان لهم معها علاقات تجارية.

وقد أسهم نمو الحركة الصناعية في مدينة نابلس في تشكيل نظام طبقي رأسمالي-عائلي على نحو متميز. ذلك لأن بعض الصناعات وبخاصة صناعة الصابون كانت تحتكر في الغالب من قبل عائلات معينة في مدينة نابلس أصبحت فيما بعد تشكل طبقة رأسمالية تسيطر على الحركة الاقتصادية في المدينة وعلى اقتصاد معظم المدن الفلسطينية القريبة منها.

ونلاحظ هنا ارتباط النظام الطبقي الرأسمالي بالقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع الفلسطيني وفي مقدمتها الاهتمام بالترابطات الدموية والعلاقات القرابية. فما زالت هذه القيم تشكل دعامة الطينة الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني، وتوجه المصالح والأهداف الجماعية المشتركة. وكان أصحاب هذه المصانع يلجأون في كثير من الأحيان الى اغراق الفلاحين وأصحاب مزارع الزيتون الكبيرة بالديون والأعباء المادية الضخمة عن طريق القروض والسلف لقاء محصول زيت الزيتون في موسم الحدد. وكان انتاج الفلاحين من زيت الزيتون لا يكفي في بعض السنين لسداد هذه الديون فتتراكم عليهم الديون سنة بعد الأخرى حتى تصبح هذه المزارع الضخمة التي يمتلكها الفلاحون وكأنها تابعة لأصحاب المصانع وأن الفلاحين ليسوا الا مجرد عمال في هذه المزارع. هذا بالإضافة الى الهيمنة الاجتماعية التي أصبح يتمتع بها أصحاب هذه المصانع وامتداد نفوذهم الاجتماعي ليشمل مختلف الأنشطة الاجتماعية في حياة الفرد ومعظم شؤون حياته اليومية. فقد تكون لدى هؤلاء الفلاحين قناعة من نوع معين مؤداها أن واحدا من أفراد هذه الطبقة قادر على حل معظم مشكلاتهم الاجتماعية لما تتمتع به هذه الطبقة من جاه وهيبة اجتماعية.

ويبين لنا الجدول المرفق كذلك اضطراد النمو في الصناعات النسيجية. فبعد أن كانت هذه الصناعة متركزة في مدن محددة أصبحت صناعة رائجة في معظم المدن الفلسطينية وربما يعود انتشار هذه الصناعة على نطاق واسع في معظم مدن الضفة الغربية اليوم الى التنافس الحر بين الأهالي، بعد أن تحققت عمليا من قيمة العوائد المادية المرجحة. ولا شك أن عملية التنافس هذه تشكل وجها آخر للصراع الحضاري الذي خاضه الشعب الفلسطيني ابان الانتداب البريطاني على فلسطين وابعان المحاولات الصهيونية لاغتصاب فلسطين. وقد أشرنا في مواقع سابقة من هذا البحث الى الجهود المتواصلة التي بذلها الشعب الفلسطيني في سبيل صمود صناعاته واستمرارها.

ويعكس جدول الصناعات أيضا التفاوت الحضاري في المدن الفلسطينية الذي يدل عليه تركز بعض الصناعات في مدن محددة لها اتصالات تاريخية مستمرة مع الحضارة الأوروبية

والامريكية مثل القدس وبيت ساحور وبيت جالا ورام الله وبيت لحم فهذه المدن تفوقت على المدن الفلسطينية الأخرى بالصناعات الخشبية على الطراز الغربي والصناعات الطبية والكيمياوية. ولا شك أن الصناعة الأخيرة مؤثر على التقدم النسبي في سلم التدرج الحضاري وربما يكون لانتعاش الحركة السياحية في هذه المدن وبخاصة في القدس ورام الله وبيت لحم والخليل أثر كبير في تركيز الصناعات الغازية فيها خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار أن بعض هذه المدن ذات أهمية دينية تجذب إليها السياح من مختلف الأقطار.

وعلى وجه العموم فيمكن القول أن الصناعات القائمة اليوم في فلسطين تشكل بداية واعدة لصناعات أكثر تطوراً في المستقبل.

## ملحق

### توزيع الصناعات في فلسطين وأماكن وجودها

(١١)

| صناعات                       | القدس | أريحا | نابلس | طركم | الخليل | قلقيلية | بيت لحم | قنيطرة | بيت جالا | بيت ساجور | رام الله | جنين | عجل |
|------------------------------|-------|-------|-------|------|--------|---------|---------|--------|----------|-----------|----------|------|-----|
| الالبان                      | ٣     | ١     | ٣     | ٢    | ٤      | ١       | ١       |        |          |           |          |      |     |
| المبات                       |       |       | ٢     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| الافنية                      |       |       |       |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| المطاحن                      |       |       | ٣     |      | ٢      |         |         | ١      |          |           |          |      |     |
| مطاحن اليد                   |       |       | ١     |      | ١      |         |         |        |          |           |          |      |     |
| السكاكر                      | ٩     |       | ٩     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| بوقة                         | ١     |       |       |      | ١      |         | ٤       |        |          |           |          |      |     |
| الاسكرو                      | ١     |       | ١     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| مكرونة                       |       |       |       |      |        |         | ١       |        |          | ٢         |          |      |     |
| البسكوت                      | ٢     |       | ٢     |      | ١      |         |         |        |          |           |          |      |     |
| تكرير الملح                  | ١     |       |       |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| المسل                        |       |       |       |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| الحلاوة والطحينة والسرورج    |       |       | ٣     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| زيت الخفوت                   |       |       | ٨     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| الزيت من البذور              |       |       | ١     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| المياه المعدنية              |       | ١     |       |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| الزيت من شجر الزيتون         | ١     |       | ١٨    | ٢    |        |         | ٢       |        |          |           | ٨        | ٣    | ١   |
| نسج الاقمشة                  |       | ٦     | ٥     | ٣    | ٩      |         | ٤       |        | ٣        | ٣         |          |      |     |
| نسج النايلون والصوف والسيجاد |       |       |       |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| نسج الفراش                   |       |       |       |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| القنب ونسج الخيط             |       |       | ١     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| الالبسة الخارجية             | ١     |       | ١١    |      |        |         | ١       |        |          |           | ١        |      |     |
| القمصان والبيجامات           | ٢     |       | ٨     |      |        |         |         |        |          |           |          |      |     |
| الاجريبات                    | ١     |       |       |      |        |         |         |        | ٦        |           |          |      |     |
| المجموع الكلي                | ٣٢    | ٧     | ٣٧    | ٧    | ٧٨     | ١       | ٣١      | ١      | ١١       | ٥         | ٨٣       | ٣    | ١   |

الصناعات الغذائية

الصناعات النسيجية



| رقم القيد | الاسم              | نوع النشاط | الرمز | القيمة | العدد | الرمز | القيمة | العدد | الرمز | القيمة | العدد | الرمز | القيمة | العدد | الرمز | القيمة | العدد | الرمز | القيمة | العدد |  |
|-----------|--------------------|------------|-------|--------|-------|-------|--------|-------|-------|--------|-------|-------|--------|-------|-------|--------|-------|-------|--------|-------|--|
| ١         | حديد البناء        |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢         | سكب الحديد         |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣         | سكب المعادن        |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤         | المسامير           |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٥         | المخمل والشبك      |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٦         | شعرات الخلاوة      |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٧         | شعرات الشبك        |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٨         | التجهيزات والآلات  |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٩         | المهني             |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٠        | المواد             |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١١        | غطية الزجاج        |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٢        | البنائفة الحديدية  |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٣        | المرازين والقضبان  |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٤        | صناعة الفانج       |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٥        | القصدير            |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٦        | تلاجات التبول      |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٧        | المسالات والطابعات |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٨        | الراديات           |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ١٩        | شكالات الورق       |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٠        | الاسمنت الأبيض     |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢١        | البلاط والاسمنت    |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٢        | الزجاج والبرمر     |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٣        | شغل الآلة والمطربز |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٤        | الصدف              |            | ٤     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٥        | الصياغة            |            | ٣     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٦        | الفتب والخط        |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٧        | الليف والاكمان     |            | ١     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٨        | صناعة الليف        |            | ٣     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٢٩        | الجل والقفز        |            | ٥     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٠        | صناعة الزجاج       |            | ٦     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣١        | الجموع الكلي       |            | ٣١    |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٢        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٣        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٤        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٥        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٦        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٧        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٨        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٣٩        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٠        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤١        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٢        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٣        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٤        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٥        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٦        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٧        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٨        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٤٩        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |
| ٥٠        | صناعة الزجاج       |            | ٢     |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |       |        |       |  |

المصنوعات المعدنية

(٤)

|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        |       |       |       |                        |                     |
|-----------|-----|------|----------|-----------|----------|--------|-----|-----|--------|--------|-------|-------|-------|------------------------|---------------------|
| بيت حنينا | عجل | حنين | رام الله | بيت ساحور | بيت جالا | قنادية | لحم | بيت | قنيطرة | الجليل | نابلس | أريحا | القدس |                        |                     |
|           |     |      | ١        |           |          |        | ٢   |     |        |        | ١     |       |       | المغور                 |                     |
|           |     |      | ٣        |           |          |        | ٢   |     | ١      |        | ٢     |       | ٣     | الكازوز                | الصناعات<br>الغابية |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        |       |       | ١     | الأون                  |                     |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        |       |       | ١     | الحصر الجذلة           |                     |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        | ٦     | ٣     | ١     | الحصر والجذلة          | الصناعات            |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        | ١     |       | ٢     | الكانس والفراش والسلال | القصية              |
|           |     |      |          |           |          |        | ١   |     |        |        | ١     |       | ٢     | صناعة البلاستيك        | صناعات              |
|           |     |      |          |           |          | ١      |     |     |        |        |       |       |       | صناعة الأزرار          | بلاستيكية           |
|           |     | ١    | ٢        |           | ٢        |        | ١   |     |        | ١      | ١٠    |       | ٦     | المشاغل                | المشاغل الميكانيكية |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     | ١      |        | ٣     |       | ١     | صناعة الطبع            | صناعة الطبع         |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     | ١      |        |       |       |       | صباغة                  | الصباغة             |
|           |     |      |          |           | ١        |        |     |     |        |        |       |       | ٣     | الكلس                  | الكلس               |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        |       |       | ٢     | صناعة الفخار           | صناعة الفخار        |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        | ١     |       |       | صناعة الخزفية          |                     |
|           |     |      |          |           |          |        |     |     |        |        |       |       |       | طوب من الجفت           | الطوب المصنوع       |
| صفر       | صفر | ١    | ٦        | ٤         | صفر      | صفر    | ٦   | صفر | ٣      | ١      | ٢٥    | ٣     | ٢٢    |                        | المجموع الكلي       |

## مصادر البحث

- ١ - الدباغ، مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الأول. القسم الأول. منشورات دار الطليعة بيروت ١٩٦٥. ص ٣٨٢.
- ٢ - الدباغ، مصطفى. المرجع السابق. ص ٣٨٤.
- ٣ - Montagu Ashley. "The concept of primitive. U.S.A. Free press. 1968. p.9
- ٤ - الدباغ، مصطفى بلادنا فلسطين. الجزء الثاني. القسم الثاني. دار الطليعة. بيروت ١٩٧٤، ص ٨٦
- ٥ - ابو طالب، محمود. آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة. وزارة الثقافة والشباب- عمّان ١٩٧٧، ص ص ٣٣-٣٤
- ٦ - ابو طالب، محمود. المرجع السابق ص ٣٤-٣٨
- ٧ - الدباغ مصطفى. المرجع السابق ص ٨٧.
- ٨ - العابدي: من تاريخنا ص ٧.
- ٩ - Kishtainy khalid. Palestine in Perspective. Palestine liberation research Center. Beirut. 1971.P55
- ١٠ - العابدي محمود-المرجع السابق ص ١٣٨
- ١١ - العابدي محمود-المرجع السابق ص ٩.
- ١٢ - Meoz Moshe: Studies on Palestine during the ottoman Period. The magness Press. The Hebrew university. 1975. P 43
- ١٣ - حمازنة، صالح: مقالة عن زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب المسلمين. بحث مقدم للندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب الذي عقد بجامعة حلب نيسان ١٩٧٦ ص ٥٢١
- ١٤ - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب. السفر الثامن. مطبعة دار الكتب ص ٢٧١
- ١٥ - Volney: M.R.F. Travels through Syria and Egypt Vol 11. Reprinted. London. 1972. P 334.
- ١٦ - Cohen Amnou: Palestine in the 18th Century. Jerusalem. 1973 P. 135.
- ١٧ - Maoz Moshe: oP. eit. P. 484.
- ١٨ - الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الأول. القسم الأول (مرجع سابق) ص ٣٦٣-٣٦٤
- ١٩ - العابدي، محمود. من تاريخنا ص ٥.
- ٢٠ - الدباغ، مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الثاني. (مرجع سابق) ص ٣٠٩-٣١٠
- ٢١ - Kenyou M. Kathleen. Archaeology in the holy land N.Y. 1960. P. 58
- ٢٢ - تصنع الأدوات الفخارية على اشكال مختلفة بحسب غرض الاستعمال وتشتق اسماءها من هذه الاستعمالات، ومن هذه الاسماء: القعادة، القوار، الجرن، المغطاس الجرة الكبيرة، معلاط، الموكدة، الزيدية، القلاية، السراج، الزير، الشرية، القدحية، العسلية. انظر مجلة الفنون الشعبية. دائرة الثقافة والفنون. العدد التاسع ١٩٧٦ ص ١١٨-عمّان
- ٢٣ - Kishtairy khalid. eit. P. 56
- ٢٤ - الاكالميم: كلمة فارسية تعني صناعة الحصر. وفي البلاد العربية تطلق على الاصناف الخشنة المتدنية من اللباس.



- ٢٥- البشوت كلمة فارسية تعني الظهر وتطلق على الرداء والعباءة. (انظر العابدي محمود صفد في التاريخ) جمعية عمال المطابع التعاونية. عمان ١٩٧٧ ص ٩٠.
- ٢٦- العابدي محمود. من تاريخنا ص ١٤٨.
- ٢٧- العابدي محمود. صفد في التاريخ (مرجع سابق) ص ٣٧٣.
- ٢٨- Freer A Godrich. Things seen in Palestine. London 1918. P. 82
- ٢٩- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الثاني. القسم الثاني (مرجع سابق) ٣٧٣
- ٣٠- نيوتن فرنسيس أملي. خمسون عاما في فلسطين. ترجمة وديع البستاني. جمعية عمال المطابع التعاونية ١٩٦٧. ص ٦١
- ٣١- النورج عبارة عن زحافة من شيف الخشب ركزت على بطنها الزاحف أضراس من الصوان الأسود ذات برائن حادة تزيد حدة وصلابة يستخدم لدرس المحصول من القمح والشعير. أما المذرة فهي أداة مستطيلة من الخشب في نهايتها خمسة اصابع تستخدم لفصل التبن عن القمح.
- ٣٢- نيوتن فرنسيس املي. المرجع السابق ص ٥٤-٥٥.
- ٣٣- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الثاني. القسم الثاني (مرجع سابق) ص ١٦٢. وانظر كذلك العابدي محمود. من تاريخنا ص ١٢١.
- ٣٤- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الخامس. القسم الثاني. دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت. (١٩٧٠) ص ١١٤.
- ٣٥- عارف العارف. تاريخ القدس. دار المعارف بمصر ١٩٥١. ص ٢١٣.
- ٣٦- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الثامن القسم الثاني. دار الطليعة ص ٤٢٦.
- ٣٧- تختلف طريقة صنع المسابح باختلاف انواعها. وفي الغالب تتطلب الصدف الواحدة الاعمال الآتية. مثل انجاز الصدف وعرضه للبيع يتقع الصدف أولا بالماء كي يلين ثم ينشرونه اسواط، وبعد ذلك يقطع قطعاً ثم تثقب تلك القطع فتعطي للمنجز ليزلها ويزيل ما فيها من جروف ثم توضع في برميل أو قربة تحتوي على ماء فتدلك وينعم نحتها لدى احتكاك بعضها البعض الآخر ثم تنظيم الحزرات في خيط وتغسل في ماء حار وصابون ومواد كيميائية ليصفو لونها ويشتد لمعانها وبعد ذلك تنشر على جبال لتتشف ثم تفرط وتنظم ثانية في اسلاك من ذهب وفضة أو معدن وتعرض للبيع. انظر الدباغ، مصطفى: المرجع السابق ص ٤٢٧.
- ٣٨- الدباغ، مصطفى: المرجع السابق ص ٤٢٨.
- ٣٩- العابدي، محمود. من تاريخنا ص ١٣٧.
- ٤٠- الدباغ مصطفى. المرجع السابق ص ٤٢٧.
- ٤١- عارف العارف. تاريخ القدس. المرجع السابق ص ٢١٠-٢١٢
- ٤٢- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء العاشر. القسم الثاني. دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٦ ص ٦٧.
- ٤٣- Kishtainy khalid. oP. eit. P. 78
- ٤٤- الدباغ، مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الثاني. القسم الثاني. ص ٤٦٦
- ٤٥- الدباغ، مصطفى. (نفس المرجع) ص ٤٧٧.
- ٤٦- عارف العارف. المرجع السابق ص ٢١١.
- ٤٧- زيادة نقولا: مدن عربية. منشورات دار الطليعة بيروت ١٩٦٥ ص ١٦٠.

- ٤٨- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء العاشر. القسم الثاني. دار الطليعة ١٩٧٦ ص ٥٤. أنظر كذلك فرنسيس املي نيوتن. في المرجع السابق ص ٦٦-٦٨. فقد وضعت صناعة البخور على النحو التالي: تتألف صناعة البخور من ميعة وأظفار وقتة عطره ولبانا نقياً بأقذار متساوية. والميعة مادة صمغية تخرج من العهر والأظفار نوع من العطر له نكهة جميلة وهو عبارة عن قلامات تشبه الأظافر يخرج من الأرض في أول المطر على شكل بزاقة. والقنة طينة صلصالية بلون الخردل موطنها بيرة سيناء وغيرها من البراري العربية تحفف على نور الشمس فان أصابته النار في الجمرة خرجت منه رائحة حادة. أما اللبان فهو صمغ عطري يقطر من شجرة صنوبرية.
- ٤٩- انتشرت البدود أيضا في بعض القرى الأردنية في محافظة اربد في شمالي الأردن ولكن هذه البدود اندثرت في الوقت الحاضر. (انظر الرابعة احمد: الهجرة والتغير الثقافي. رسالة دكتوراه غير منشوره. جامعة القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٠٥.
- ٥٠- من هذه القرى على سبيل المثال: مزارع النوباني، دير غانه، بيت زيت، المزرعة القبلية وكفر نعمه.
- ٥١- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الخامس، القسم الثاني. دار الطليعة ١٩٧٢. ص ١٦٢.
- ٥٢- عارف العارف. المرجع السابق ص ٢٧٨.
- ٥٣- الدباغ مصطفى: بلادنا فلسطين. الجزء الثاني القسم الثاني (مرجع سابق) ص ٢٠١-٢٠٢.
- ٥٤- الدباغ مصطفى. المرجع السابق ص ١٩٨.
- ٥٥- كان الناس في العصور التاريخية القديمة يستخدمون التراب أو الرماد مع الماء لغسل اجسامهم وملابسهم.
- ٥٦- Volney. oP cit. PP. 334-340.
- ٥٧- Kishtain khalid. oP. eit. P. 78.
- ٥٨- القلي: مادة قلووية من نبات يجمعه عرب البادية وهو أخضر يتخرج من رماده القلي المعروف وأعراب البلقاء في الأردن يأتون بكميات كبيرة من عيدان شجر الدردار ويحرقونها والرماد الناتج عن ذلك يسمى «القلي» وهناك من يستخلص القلي من عشبة الشمان التي تنبت في البلقاء. (أنظر الدباغ، مصطفى: المرجع السابق ص ١٩٨). وحول اسلوب الصناعة التقليدية للصابون في فلسطين انظر مجلة التراث والمجتمع العدد ٤ المجلد (كانون الثاني ١٩٧٥ ص ٩٤ وما بعدها).
- ٥٩- Kishtain khalid. oP. eit. P. 78.
- ٦٠- انظر مجلة التراث والمجتمع (مرجع سابق) ص ١٠٠.
- ٦١- Abacarius. M.F. Palestine. Hutchin, son and copublisher Ltd. London. P. 167.
- ٦٢- عارف العارف. تاريخ القدس. مرجع سابق. ص ٢٦٢.
- ٦٣- Kishtainy khalid. oP. cit. P. 155.
- ٦٤- Picturesque Palestine. Sinai and Egypt. Vol. 11. London J.S. virtue and co; Limited. 1886. P36.
- ٦٥- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الثاني. القسم الثاني (مرجع سابق ص ٢٠١-٢٠٢).
- ٦٦- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء العاشر. القسم الثاني. (مرجع سابق ص ٥٤-٥٥).
- ٦٧- Maoz Moshe. OP. eit. P. 485
- ٦٨- الدباغ مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الرابع. القسم الثاني. ص ٢٣١.
- ٦٩- Volney. OP. eit. P. 340

- ٧٠- العابدي محمود. مرجع سابق ص ١٢٦.
- ٧١- Toko wsky S. The gate way of Palestine. A history of Jaffa London. George Routledge and Sons Ltd 1924. P. 139
- ٧٢- Maoz Moshe; OP. cit.P. 486.
- ٧٣- Maoz Moshe. oP. cit. P. 486.
- ٧٤- الدباغ، مصطفى. بلادنا فلسطين. الجزء الخامس. القسم الثاني. دار الطليعة بيروت ١٩٧٢، ص ١٤٠.
- ٧٥- عارف العارف. المرجع السابق. ص ٢١١.
- ٧٦- Maoz Moshe: OP. cit. PP. 386-496
- ٧٧- بدأت حركة الهجرة الفلسطينية الى امريكا واوروبا مع منتصف القرن التاسع عشر واستمرت حتى العقود الثلاثة من القرن العشرين. ويؤرخ حسن حدة لعملية الهجرة الفلسطينية الى الولايات المتحدة بعام ١٨٧٨ وبلغت أوجها ما بين ١٨٩٩-١٩٢٤. ويقول (حدة) في عام ١٨٥١ هاجر حنا خليل مرقص من بيت لحم الى امريكا الشمالية وفي عام ١٨٧٠ هاجر من اسرة زخريا من بيت لحم الى البرازيل أيضا (وانظر، حدة حسن: من تاريخ المعتزين العرب في العالم دمشق ١٩٦٦ ص ٢٢.
- ٧٨- Picturesque Palestine. Sinai and Egypt. vl.11 London J.S. virtue and co; Limited. 1886.P 133
- ٧٩- Machover. J.M. Governing Palestine. London. 1936 P 50.
- ٨٠- Tolkosky. oP. cit. P. 137  
أنظر كذلك: الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين. الجزء الرابع. القسم الثاني ص ٢٣١.
- ٨١- A bacarius. M.F. OP. cit. P 162.
- ٨٢- Farago. Ladislas. Palestine on the eve. Putnom London. 1936. P. 225.
- ٨٣- Palestine Research Center. The Arabs under Israeli Occupation. Beirut. Lebanon. 1969. P. 81.
- ٨٤- Mansfield. Peter. The middle east. Fourth edition. Oxford University Press. 1975. P 395.

## فيلكس فابري في فلسطين

### د. نقولا زيادة

بدأ اهتمام الغرب المسيحي<sup>(١)</sup> بزيارة الاماكن المقدسة التي عاش فيها السيد المسيح في وقت مبكر. ومع أن الكنيسة لم تجعل الحج الى تلك الديار فريضة على المسحين، فان المسيحيين الاوروبيين كانوا لزاما عليهم ان يقوموا بزيارة الاراضي المقدسة. واقدام حاج مسيحي اوروبي خلف اثارا مكتوبة عن زيارته هو حاج من بورديو بفرنسة، جاء الارض المقدسة سنة ٣٣٣م. وقد خلف وصفا لفلسطين في ذلك العصر<sup>(٢)</sup>. وتولى الحجاج الذين خلفوا آثارهم مدونة فكان بينهم باولا وسيلفيا من القرن الرابع وجيروم ويوخيروس وداود من القرن الخامس وثيودوسيوس وانطونيوس من القرن السادس واركولف من القرن السابع. وهناك من القرن الثامن ولبولد، ومن القرن التاسع برنارد الحكيم<sup>(٣)</sup>. وقد وجدنا في الذي كتبه هؤلاء الكثير من المعلومات والمعارف المفيدة. على اننا يجب أن نذكر أن هؤلاء كانوا، في الغالب، ينظرون الى الاماكن نظرة دينية منتزعة من الكتاب المقدس وما يدور حوله من توضيحات وشروح.

في القرن العاشر اعتنق سكان الداينوب الاوسط (هنغاريا وما اليها) المسيحية. وهذا يسر للكثيرين ان ينتقلوا من غرب اوروية الى بنزطية برا، بحيث انهم لم ينفقوا على انفسهم في الطريق الا قليلا. كما ان عدد الفرسان، الذين اصبح باستطاعتهم القدوم عبر اوروية وارااضي الدولة البنزطية برا ازداد. وكذلك تكاثر عدد الحجاج. ومن الحجاج الذين زاروا الارض المقدسة في القرنين العاشر والحادي عشر: كونراد اسقف كونستانس وجيرو رئيس اساقفة كولون بالمانية والكونتس هدموند ويويو رئيس اساقفة تربية بفرنسة (وهذا وصل الى نهر الفرات) ورؤساء اساقفة ماينز وبامبرغ واترخت وريغشزبرغ.

وكان من الطبيعي ان يتكاثر الحجاج المسيحيون في زمن الحروب الصليبية. وهناك ما يزيد عن ثلاثين كتابا عن فلسطين تعود الى هذه الفترة، فضلا عن الرسائل والمذكرات. وفي الفترة الاولى كان الكتاب مسرعين وكانوا يعنون باثبات اسماء الاماكن المقدسة في فلسطين. لكن بعد ان اقاموا مدة في البلاد وبعد ان تعرفوا اليها اصبحت كتاباتهم اوسع افقا وادق وصفا وفيها بعض من الخريط(٣).

انتهى الوجود الصليبي في ديار الشام سنة ١٢٩١ (٥٦٩٠هـ)، ولو أنه استمر في قبرص. ومع ان عهد الحملات الصليبية الواسعة النطاق كان قد ولى، فقد كان ثمة افراد، رسميون وغير رسميين، صرفوا جهودهم ووجهوا اهتمامهم الى اثاره أوروبه للقيام بمحاولة جديدة لاحتلال بلاد الشام ومصر بشكل خاص، على اعتبار ان هذين القطرين مفتاح الطرق التجارية الى الشرق الغني.

وهذا الأدب المحرّض، اذا جازت التسمية، الذي وضع في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كان ينصرف الى امور اربعة: اولها البحث في اسباب فشل الصليبيين وتأخرهم وزوال ملكهم؛ وثانيهما البحث في الطرق المؤدية الى المشرق؛ وثالثهما درس الموارد الاقتصادية لامبراطورية المماليك وقوتهم العسكرية في مصر وسورية؛ وأخرها الاهتمام بالمغول والتحالف معهم(٤).

جندت اوروبه سنة ١٣٩٦ حملة كبيرة ضد الدولة العثمانية، وقد انكسرت الجيوش في نيكوبوليس، وكان اثر ذلك في اوروبه كبيرا. اذ ان الحملة فشلت في صد التقدم العثماني، ومن ثم لم تتمكن من استرداد بلاد المشرق. فقام عندها بعض الكتاب الاوروبيين يدعون الى اعداد حملات قوية كبيرة واسعة النطاق. ومن هؤلاء غيرت لا نوى وبرتراندون دولا بروكيبية وعمانول بيلوتي. ولسنا في سبيل التحدث عن هؤلاء ولا عن آثامهم، ولكننا نذكرهم الى جانب عدد من الحجاج والراجلين الذين لم يكونوا في عداد الدعاة وهم يوجنا بولونر وبيرو تفور ووليام واي وفيلكس فابري وبريتنباخ. بل ان واحداً منهم، وهو فيلكس فابري موضوع بحثنا، لم يكن يؤمن بإعداد حملة لاحتلال الارض المقدسة. بل كان من القائلين بان اهتمام مسيحي الغرب بالنسبة الى الاماكن المقدسة، لا يعدو ضمان الوصول اليها للزيارة والتبرك.

ونحن اذا اخذنا رحالي وحجاج القرن الخامس عشر مجتمعين ونقلنا الصور التي رسموها للمنطقة، لحصلنا على معلومات واخبار سياسية واقتصادية واجتماعية توضح لنا مجرى الحياة فيها. لكننا معنيون الساعة بواحد منهم، هو فيلكس فابري، وبجزء خاص من المجال الذي

شملته رحلاتهم، وهو فلسطين. الا اننا سنحاول الافادة من اشارات الى الرحالة والحجاج الذين عاصروه.

فيلكس فابري راهب من مدينة ألم بالمانية. زار فابري الاراضي المقدسة مرتين. كانت الاولى سنة ١٤٨٠ واقتصرت على زيارة القدس وضواحيها. اما الزيارة الثانية فقد كانت في سنتي ١٤٨٣-١٤٨٤. وفي هذه الرحلة زار القدس وارياضها وضواحيها، ووسع نشاطه في جنوب فلسطين بحيث زار اريحا ونهر الاردن والبحر الميت. ولما انتهى من زيارته لفلسطين الجنوبية اعتزم الذهاب الى سيناء لزيارة دير القديسة كاترينا (في جبل الطور تقليدياً) وهذا اتاح له الفرصة لزيارة اماكن كانت جديدة عليه.

بدأ فابري وصحبه، وهم جماعة من علية القوم واهل المعرفة، من البندقية ونزلوا الى الارض المقدسة في يافا. هذا كان طريقه في الرحلتين. وكان الطريق المؤلف من يافا الى الرملة فالقدس. ثم يعود القوم، بعد الزيارة المقررة، الى يافا من القدس، ومن ذلك الميناء كانوا يجرون الى بلادهم، كما جاءوا. وقد سار فابري في زيارته الثانية الطريق ذاته الى يافا فالرملة فالقدس. فكان بعد انقضاء الزيارة المقدسة ان انفصلت جماعة عن الرفاق وعادوا الى يافا، وظلت جماعة اخرى على خطتها القديمة اي القيام بزيارة الى دير القديسة كاترينا. وهذه الجماعة سارت من القدس الى بيت لحم فالخليل فقريه زحريا فغزة، ومن هناك دخل صحراء سيناء. وبعد الزيارة انتقل الى القاهرة التي قال عنها انها «اكبر مدينة في الدنيا» ومن هناك توجه الى الاسكندرية بالنيل. ومنها عاد الى بلاده<sup>(٥)</sup>.

ويترتب علينا، في بدء هذا البحث المقتضب، ان نضع بين ايدي القراء، بضع ملاحظات عامة، لعلها تيسر علينا فهم فابري.

(١) كان فابري من رجال الاكليروس الالماني، وكان يتوق الى زيارة القدس وما اليها. والزيارة الاولى لم تكفه، خصوصاً انه اراد ان يضيف دير القديسة كاترينا. ومعنى هذا ان فابري كان يهتم، وهذا امر طبيعي، بالبقاع المقدسة في فلسطين. وهذه البقاع والاماكن كان عددها قد تضاعف كثيرا في القرن الخامس عشر. لذلك حرص فابري لا على ان يزور هذه البقاع فحسب، ككنايس كانت أو بقايا اثرية او ما الى ذلك، بل ان بدون انطباعاته عنها. والاساس الذي يبنى علي زيارته وكتاباته هو الكتاب المقدس. لكن فيلكس فابري كان واسع الاطلاع بالنسبة الى تاريخ الاراضي المقدسة على الاقل. لذلك تجده، عندما يؤرخ للقدس مثلا بتناول هذا

التاريخ الوارد في العهد القديم ثم ينتقل الى الذين كتبوا عن المكان فينقل منهم من يوسيفوس الى ايامه. هذا واضح خاصة بالنسبة للاماكن التي زارها، كالقدس مثلا. اما الاماكن التي لم يزرها من فلسطين فانه يلخص تاريخها من المصادر المختلفة، مقرا بانه انما ينقل عن غيره دون التأكد من ذلك بالزيارة الشخصية.

( ٢ ) موقف فابري من الاماكن المقدسة التي يزورها هو موقف اي شخص من نوعه ومركزه وتكوينه الديني الى الاماكن المرتبطة بحياة السيد المسيح وامه واعتماده في نهر الاردن. هو موقف اجلال واحترام مشوب بالعاطفة القوية. وهو امر طبيعي.

( ٣ ) ومع ذلك فان فابري لم يحجم عن كتابة نحو عشرين صفحة، في تاريخه للقدس، حول كنيسة القيامة وموقعها وفيما اذا كانت تقوم هناك الامكنة المرتبطة بحياة المسيح في اسبوعه الاخير على الارض. فقد عرض للشكوك التي اوردها البعض، ومع انه لم يقطع برأي، لان القطع برأي نهائي غير متيسر، فانه ينتهي الى اسداء النصيحة التالية: قال « من جميع هذا الذي اتينا عليه بالنسبة الى كنيسة القبر المقدس، فانه يترتب على الحاج المؤمن الهادى ان يدرك الحقيقة التالية، وهي سواء أكان الكهف القائم الآن هو المكان بكامله الذي يذكر بالمسيح، أو أن جزءا منه فقط كان هناك، أو فيما اذا لم يقع الامر هناك بالمرّة، فان ذلك امر قليل الاهمية من أي جهة نظر اليه. ذلك بان الحقيقة الاصلية المرتبطة بالمكان التي لا يمكن انتزاعها أو القضاء عليها ... هي انه ثمة اثر عمراني اقيم للمسيح ... وان الناس قبلوه على انه كذلك» (٦).

وصل فابري واصحابه الى يافا في مطلع شهر ايار (مايو) سنة ١٤٨٣. ولما هموا بالنزول الى البركان عليهم ان ينتقلوا من السفينة الى الشاطيء (الميناء) في قوارب صغيرة، اذ لم يكن بوسع سفينة، أي سفينة، ان تدخل الميناء، بل يتحتم عليها ان تظل بعيدة. ويصف فابري الامواج التي كانت ترتفع في مياه بحر يافا(٧)، ويذكرنا باسم الصخور الاسطوري وهي صخور اندروميديا.

فلما وصلت الجماعة الميناء « كان ثمة جماعة كبيرة من الجنود المسلمين ... وكان هناك ثلاثة من حكام الجهة-حاكم القدس وحاكم الرملة وحاكم غزة(٨). فتقدم اليهم رابنة السفن حاملين الهدايا التي رأوا ان يسترضوهم بها... فتقبلها هؤلاء ووعدوا بتقديم المساعدة التامة. ولما سئلوا عن سبب ازدحام المكان بالجنود المسلح قالوا ان العربان قد هاجموا البلاد وعاثوا فيها

فسادا، وان القصد من وجود الجماعة المسلحة هو حماية الحجاج في تنقلهم في البلاد<sup>(٩)</sup>

ولما انتهينا من تقديم صلوات الشكر على وطننا بر الارض المقدسة، انتقلنا الى حيث كان رئيس دير جبل صهيون واقفا. مع حكام البلاد وشيوخ العرب والمسلمين ومعهم كاتب، وكان على الحجاج ان يمروا فرادى... وكانوا يفحصون كل واحد منا ويسجلون اسمه واسم ابيه... وبعد ذلك يحشر الحجاج في مكان مهتمم قدر الى ان يحين وقت ذهابنا الى القدس.

«وجاءنا بعض السكان الفقراء يحملون قشا وعساليج رطبة فابتغاهم منهم وجعلناها فراشا ننام عليه... ثم جاءنا تجار من الرملة والقدس ومعهم بضائع معطرة، واقاموا هناك سوقا... وكانوا يحملون ماء ورد في قوارير ثمينة جاءوا به من دمشق. وكان ثمن القارورة بنيا واحدا (؟) بندقيا... وكان البعض يحملون البلسم والمسك والصابون والحجارة الكريمة وقماش الموصلين الابيض...»

«وكان التجار ومرافقوهم معطرين بحيث انتشرت الروائح الذكية حولهم... ثم احرقوا البخور والصبغ العربي حول المكان الذي كنا نقيم فيه... ثم جاء آخرون كانوا يقلون البيض بالزيت كما كان غيرهم يحملون أرغفة الخبز والماء البارد والفواكه والكعك الطازج. وعند المساء استأجرنا اثنين من السكان ليقوما بحراستنا»<sup>(١٠)</sup>.

ويبدو ان مدينة يافا كانت يومها مهدمة خربة الى درجة كبيرة. وهذا ما ذكره بروكبيه، من رحالي القرن الخامس عشر ايضا، كما انه يؤكد اسراع موظفي السلطان نحو الحجاج ليستوثقوا من عددهم، وليقبضوا منهم ضريبة السلطان<sup>(١١)</sup>.

انتقل الحجاج من يافا الى الرملة تمهيدا لنقلهم الى القدس. ويصف فابري تجاربه في الرملة بقوله: «جاءنا الباعة يحملون الفراج المنضجة والحليب المطبوخ والمعجنات والارز المصنوع بالحليب وأرغفة الخبز الممتاز والبيض والعنب الحلو والرمان والتفاح والبرتقال والبطيخ والتين - الكبير منه والصغير - والمسكرات المصنوعة من اللوز والعسل والتين الناشف (القطين) والمسكرات المصنوعة من اللوز والسكر والماء البارد. وجاء بعضهم بقوارير جلدية فيها شراب طيب يغني المرء عن الخمر، وهو مما يشربه اشراف المسلمين. وبعد الغذاء زرنا اسواق الرملة التي تحتوي جميع المتاجر، ثم دخل بعضنا الحمام»<sup>(١٢)</sup>.

واخيرا وصلت الجماعة الى القدس. وقد قال فابري عن المدينة ما يلي: «بيوت القدس مبنية من الحجارة، هذا باستثناء مساكن الفقراء المبنية من الطين. وقد رأيت فيها بيوتا جميلة



كبيرة، لكن جزءاً كبيراً من المدينة مهتم مهجور... وفي المدينة نحو خمسمائة يهودي ونحو الف مسيحي من كل مذهب وقطر، واقلهم من اتباع الكنيسة اللاتينية. (١٣)

كان فابري وجماعته عندما يصلون الى مكان ما يقومون بتقديم صلاة شكر وعبادة. وبعد ان فعلت الجماعة ذلك، آن الوقت لترتيب اقامتهم في المدينة المقدسة. وقد ذكر فابري ذلك بقوله: « فلما انتبهنا من صلاتنا قادنا كالينوس الى نزل القديس يوحنا... والبناء القائم الآن هو فقط جزء من البناء الاصلي ويقم فيه عدد من الرهبان... وتوزع الحجاج في المكان. فانفرد النبلاء سيد سولمس وجماعته مع الفاهالو (الترجمان المساعد) ليقموا في بيته. اما في زيارتي الاولى للقدس فاننا لم نقم في نزل القديس يوحنا بل انني لم ازره، اذ اقمنا في بيت كبير يقع في حي ملو (يقع داخل باب الخليل الحالي). وما كاد الحجاج ليستقروا في اماكنهم حتى جاءهم الباعة من المسلمين والمسيحيين واليهود يحملون الخبز والماء والطعام والفواكه فابتعنا واكلنا... وعند ذلك جاءنا اثنان من الاخوان الاصاغر موفدين من قبل رئيس دير جبل صهيون واقتادا جميع الرهبان الموجودين في النزل الى دير جبل صهيون لنقيم هناك. لان هذه هي العادة المتبعة. وكنت بطبيعة الحال فيمن ذهب (١٤). اما الجماعة الذين ذهبوا مع الترجمان المساعد، فقد استأجروا داراً تخصه، تقع على مقربة من جبل صهيون. كان في الدار ثلاث غرف كبيرة، واخرى صغيرة، وباحة متوسطة السعة فيها كرمة وميضأة. فاجرهم صاحبها غرفتين، ووضع اثائه فيما تبقى من غرف الدار الا انه ترك العمارة هو واخوه فلم يقيموا فيها ابداً» (١٥).

في صباح يوم ٢٨ تموز (يوليو) زار فابري اسواق القدس. وقد قال عن ذلك: « زرت صباح اليوم (٢٨ تموز-يوليو) اسواق المدينة وشارع الطباخين، حيث رأيت اشياء كثيرة للبيع، وجماعات كبيرة تبتاع من المطابخ العديدة، ذلك لان القوم لا يطبخون في بيوتهم، كما نفعل نحن في بلادنا. انهم يبتاعون طعامهم جاهزاً من هذه المطابخ. والطهاة ماهرون نظيفون. ولا ترى امرأة قرب الموقد... ومن ثم فليس في الشرق كله امرأة تستطيع ان تصنع كعكة» (١٦).

وليس من شك في ان فابري، مثل عدد آخر من الرحالة الاجانب، اخطأ في هذه الناحية. ذلك لان خلط بين وجود الطباخين الذين يعدون الطعام للعمال وبين عدم وجود الطبخ في البيوت.

وقد تنبه فابري الى ان التجار الصغار كانوا يلحقون بالحجاج حيث يكونون، فقال

«وحيث يكون الحجاج يتجمع الباعة حولهم. فلما كنا في كنيسة القيامة جاء الباعة من المسيحيين الشرقيين... ودخلوا معنا. فلما اقلقت علينا الابواب عمد بعضنا الى المساومة. وقضوا في ذلك شطرا من الليل، ان لم يكن الليل كله... ولم تقتصر مساومتهم على المسابح والحجارة الكريمة بل تعدتها الى القماش الدمشقي (الدمقس) والحريز... واعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في اسواق بلادهم، لان مثل هذا هو دون مكانتهم الاجتماعية لم يتخرجوا عن الشراء والمساومة في مثل هذا المكان المقدس... ولم تكن غاية الجميع ان يبتاعوا أشياء لأنفسهم، بل كانوا يفكرون بنقل ما يبتاعون الى بلادهم جريا وراء الاتجار بالاشياء وتحقيق الارباح، حتى بعض رجال الدين اشتركوا في ذلك» (١٧).

وقد ترك لنا فابري وصفاً دقيقاً لتنظيم شؤون الحجاج في القدس. فقال في ذلك: «يعني بشؤون الحجاج في القدس رئيس ومساعد له. والاول يسمى كالينوس، والمساعد اسمه الفاهالو. ويقوم هذان بالترجمة والارشاد وحماية الحجاج وحراستهم. وفي كل مدينة نجد جماعة يمنحهم السلطان حق العناية بالحجاج وحمايتهم، ويعدون من موظفي الدولة. وثمة تراجمة يختصون بالحجاج اليهود. وفي كل مدينة كبيرة، مثل القدس والقاهرة، يوجد اثنان كما ذكرنا. والرئيس يتقاضى اجره من السياح والحجاج، اما المساعد فيتقاضى اجره من الرئيس. فاذا كان هذان نصوحين امينين، جرت الامور على خير ما يرغب الحجاج. وقد كان الرئيس في القدس رجلا طويل القامة متقدما في السن غنيا خلوقا، لكنه كان شديدا على الحجاج، يستعجلهم في تنقلهم، ويتقاضى منهم النقود في شيء من الجشع. ومع انه تقاعس في تنفيذ بعض شروط الاتفاقية، فقد حرسنا ودافع عنا بأمانة وصدق، ولما استوجدنا به جاء لنجدتنا. اما مساعده فقد كان في الثمانين من عمره، وقد كان مسلما تقيا... وكان يؤمن بان سبيل الخلاص الروحي متيسر لكل امرىء اذا اتبع اصول دينه، وحافظ على تعاليمه محافظة تامة، كان نقيا في سريره، مستقيما في معاملاته... كان يعرف الايطالية، لذلك كنا نتحدث كثيرا حول هذه المواضيع. وقد زار هذا الرجل فينا، ومثل امام الامبراطور فردريك الثالث، كما انه زار روما حيث مثل اما البابا نقولا الخامس» (١٨).

يحدثنا فابري عن زيارة كنيسة القبر المقدس (كنيسة القيامة) ويصف رسوم الدخول اليها. يذكر ان مفاتيح الكنيسة يحتفظ بها افراد اسرة من زعماء المسلمين (١٩).

وبحكم المؤسسة التي ينتمي اليها فان فابري اهم بالكنيسة والطوائف المختلفة التي تمتلك اجزاء منها ويحق لها ان تقيم القداس فيها في اجزاء منها. والطوائف او الكنائس التي يعدها

هي: الكاثوليكية (اللاتينية)، واليونانية (الارثوذكسية)، والجورجية واليعاقبة والسورية (السريانية) والارمنية.

الكاثوليك (اللاتين) يأتون عند فابري، بطبيعة الحال، في الطليعة. ويقول ان العرب المسلمين يسمونهم الافرنج، لانهم، في غالبيتهم، من اتباع الرهبنة. والرهبنة التي كانت معروفة يومها هي الاخوان الصغار، وديرهم كان في جبل صهيون وعددهم اربعة وعشرون راهبا. ورئيس الدير، كما مر بنا هو الذي كان يشرف على شؤون الحجاج، وخاصة على الوقفيات الدائمة مثل الذي وقفه عليهم دوق برغندية ودوق استريا. وهؤلاء الرهبان، الذين ينوبون عن المسيحيين الكاثوليك اللاتين، يمثلهم دوما ثلاثة من الرهبان يقيمون في كنيسة القبر المقدس (القيامة) ليلاً نهاراً، ويزودهم رهبان دير جبل صهيون بحاجاتهم. ولهم افضل مكان في الكنيسة اذ يحتفظون بمفاتيح القبر بالذات. فيقيمون الصلاة هناك متى شاءوا، ويفتحون الباب لمن يريدون، ولا تستطيع اي فئة اخرى من اقامة القداس هناك الا بأذنهم. وفي الواقع، يقول فابري، انه لامر غريب ان تكون هذه الطائفة هذه المنزلة، وهي طائفة عدد افرادها الموجودون في القدس قليل، حتى هؤلاء غرباء عن البلاد اصلاً في غالبهم. ولهذه الطائفة ثلاثة من القناديل التي تثار باستمرار في القبر<sup>(٢٠)</sup>.

المسيحيون اليونان (الارثوذكس ؟) لهم اكبر واهم جزء من الكنيسة. وبعد ان يتناول فابري هذه الطائفة بالتقد اللاذع، لانها في رأي الكنيسة اللاتينية البابوية، فقد انفصلت عنها، يعود فيقول انهم، اي اليونان يملكون رأس الكنيسة ولهم المذبح ويحتفظون بعدد كبير من القناديل المنارة هناك دوما. يضاف الى ذلك انهم يملكون حبس المسيح (هذا خارج كنيسة القيامة) واماكن اخرى في المدينة المقدسة<sup>(٢١)</sup>.

المسيحيون الجيورجيين-ويدخل فابري تحت هذه التسمية جماعات مسيحية متنوعة بينهم النوبيون. وليس من الواضح فيما اذا كان يقصد بعض الاحباش المسيحيين. لكن سبب تسميتهم بالجيورجيين غامض. وعلى كل فهو يعدهم في عداد اليونان من حيث خروجهم على الكنيسة اللاتينية. ويقول ان الاماكن التي تخصهم انما وهبها لهم سلطان مصر قبل خمس عشرة سنة فقط، وذلك لسبب الهدايا الثمينة التي قدموها له. فاقصى الارض عن الاماكن واعطاها لهم. والمكان الخاص بهم هو الجلجلة (الجلجثة)<sup>(٢٢)</sup>.

اليعاقبة-ويسميهم الهراطقة بالذات، ويشير الى الامور التي ابتعدوا فيها عن الكنيسة اللاتينية، وخاصة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية للمسيح. والذي لهم في تلك الكنيسة هو

هيكل صغير على مقربة من القبر (٢٣).

المسيحيون الهنود أو الاحباش (كذا) - هذا الخلط بين الجماعتين أو الاسمين غريب عند فابري. لكن يبدو أنه نقل الفكرة عن غيره دون تفحص معناها. وهو يصفهم ايضا بالهرطقة الامر الذي يغضب الكنيسة عليهم. ويقول عنهم انهم عندما يقيمون القداس يفنون ويقفزون ويصفقون بايديهم، خاصة في الليلة السابقة لأحد الفصح. ان فابري يعتبر هذا نوعاً غريباً في اظهار الايمان والتعبير عنه. ومعبدتهم في الكنيسة، وهم يفصلون هذا المكان عن بقية الكنيسة بالحصار والقماش اثناء اقامة القداس (٢٤).

المسيحيون السوريون (السريان ؟) لهم الاخطاء الشنيعة نفسها التي يقع فيها اليونان، اذ ان اولئك يقلدون هؤلاء، وهم هراطقة ومخالفون. ويمتلكون كنيسة القديسة هيلانة، (وهي ام قسطنطين الكبير)، وقيمون على غرار المسيحيين الهنود، منفصلين عن غيرهم بالحصار والقماش (٢٥).

المسيحيون الارمن، وهم اشد خصوم اليونان عداوة، ومع ذلك فانهم يقعون في اخطائهم. ولا يمتنعون عن اكل اللحم ايام الجمع، ويحافظون على عيد الغطاس (يوم اعتماد السيد المسيح في نهر الاردن) ويعتبرون هذا اليوم يوم الولادة الروحية للسيد المسيح. وقد اقصي هؤلاء عن مكانهم الاصيل الذي اعطي للمسيحيين الهنود (؟) قبل خمس عشرة سنة، ولذلك عمد الارمن الى شراء مكان آخر في الكنيسة من السلطان، حيث كرسوا مذبحاً لاقامة القداس هناك.

وقد عرف فابري جماعة من الارمن الكاثوليك، الذين يثني عليهم لانهم رجعوا الى حظيرة الكنيسة الام، والذين يقوم بخدمة القداس لهم رهبان من اخوة الدومنيكان. وهؤلاء كثيراً ما يزورون الرئيس العام للرهبنة الدومنيكانية. ويبدو ان فابري سمع عنهم بالتواتر ولكنه لم يعرف كل شيء عنهم مباشرة (٢٦).

ان اتباع الكنائس المختلفة، باستثناء اللاتين، ظلوا في القدس بعد استردادها من قبل صلاح الدين سنة ١١٨٧. اما اللاتين فقد عادوا الى كنيسة القيامة بعد مدة طويلة.

يعود فابري ليقول لنا ان القدس يقيم فيها جماعة من العرب المسلمين واليهود والاتراك والسامرة والمماليك لكنه يكتفي بذكر الاسماء دون الاهتمام بالتفاصيل (٢٧).

حرص فابري وجماعته على زيارة جميع الاماكن المقدسة في القدس وضواحيها والجوار. وثمة

اماكن زاروها اكثر من مرة. وتبدو الاماكن التي حول القدس واضحة الاثر في كتابات فابري وهي: جبل الزيتون ومادي قدرون وبيت لحم وخریطون واريحا ونهر الاردن والبحر الميت وجبل الاربعة. وليس في التفاصيل التي يعطيها فابري ما له قيمة خاصة الا للمهتمين بالتاريخ الاثري لهذه الاماكن. الا انه يخص اريحا بكلمات لطيفة. ويخيل اليها انه زار المنطقة هناك، ورأى ما هي عليه من جفاف وشعر بجرحها (فالزيارة كانت في الصيف) اخذ بالماء والزرع في اريحا، فقال عنها ما خلاصته: وعندها وقعت العين منا على بساتين رائعة الجمال، تغذيها جداول تنحدر مياهاها من النبع القريب... وقد وجدنا، كما اخبرنا، ان في هذه الاماكن تنمو الكرمة والتين والزهور والورد. فنعمنا بالماء العذب والثمار الطيبة وارجونا هناك (٢٨).

والطريق الذي اتبعه، بالنسبة الى الجزء منه الممتد في فلسطين، هو القدس، فبيت لحم، فالخليل فقريه زحريا فغزة.

ذكر فابري بيت لحم مرات عدة في معرض حديثه عن الاماكن المقدسة القربية من القدس، وتحدث عن تاريخها، وبخاصة الديني منه، ومثل ذلك يقال عن الخليل. فالرجل راهب واهتمامه منصرف اصلا الى الاماكن المرتبطة بحياة السيد المسيح والكتاب المقدس. لكنه عندما كان يرى شيئا خاصا في مكان ما، فقد كان يحرص على ذكره. ومن ذلك نزل الخليل كما يسميه، والزاوية كما يجب ان يكون.

قال فابري:

«وشاهدنا في الخليل نزلها الكبير، الكثير الغرف ورأينا المطبخ والفرن، وكانوا يعدون هناك طعاما كثيرا للحجاج المسلمين الذين يأتون جماعات كبيرة لزيارة قبور الانبياء ولهذا النزل واردات سنوية تبلغ قيمتها نحو من اربعة وعشرين الفا من الدويكات. ويخبز فيه كل يوم الف ومئتان من الارغفة توزع كلها على من يطلب. ولا يمنع اي حاج من هذا الاحسان، مهما كان مذهبه أو دينه أو جنسه. وكل من يطلب طعاما، يقدم له رغيف خبز وشيء من الزيت وبعض الحساء أو المعجنات. وقد اقطعت اراض كثيرة لهذا النزل... والمثرون من المسلمين الوطنيين والاتراك يهبونه اموالا كثيرة تنفق على راحة الحجاج... وعندما يحين وقت توزيع الخبز يضرب الطبل للفت نظر الناس... وقد أرسل القائمون على امر النزل سلة من الخبز الى الخان الذي كنا نقيم فيه، مع اننا لم نطلب منهم شيئا» (٢٩)

بعد مفارقتهم الخليل انحرف فابري وجماعته غرباً في جنوب في اتجاه غزة. وقد قضوا ليلة في خان في قرية (يمكن ان تكون اسمها) زخريا. وفي هذه الليلة في الخان يقول فابري:

«وصلنا الى قرية زخريا مع غروب الشمس، ودخلنا الخان القائم خارجها. فانزلنا الاحمال عن الدواب، واخذنا نستعد لقضاء الليلة هناك. وكان الخان كبيراً متسعاً كأنه قلعة، كثير الاسطبلات والغرف، ويدور به كله سور. ولم نجد فيه احداً. وبدأنا نعد طعام العشاء فاخذنا نجتمع الحطب من الجهات المجاورة وانتزعنا بعض قطع من الاسيجة والاسوار، فلحق بنا اصحابها وضرينا بالحجارة. ثم جاءنا جماعة من القرى القريبة يحملون الفراخ والطيور والخبز والماء. فابتعنا منهم حاجتنا ونعمنا بعشاء هنيء» (٣٠).

ولما وصل فابري وصحبه غزة، في صيف ١٤٨٣، وجد المدينة مزدحمة بالجنود. فقال عن ذلك: «جاءت من مصر جموع مكونة من بضعة الاف من المماليك واستقرت في غزة، في طريقها لمحاربة التركان (؟) في سورية. وضربت هذا الجموع خيامها حول المدينة حتى امتلأ بها السهل المحيط بالمدينة، وقيل ان عددهم كان نحو ثمانية الاف. وكان بين هؤلاء المماليك هنغاريون فجاءوا الى الخان عندنا يتقصون اخبار الحجاج الهنغاريين، فلم يجدوا سوى السيد يوحنا. فسروا به كثيراً واقاموا معنا يأكلون ويشربون (وقد شربوا الخمر سراً) ثم جاء غيرهم من الصقالبة والقطالونيين. وقد احنق هذا ترجماننا، كالينوس، لان اهل البلاد يمتنون المماليك الذين يحكمونهم ويستبدون بهم... وقد اقفلت المدينة اسواقها، واحتفظ السكان بمواشيهم في حظائرهم، خشية عسف المماليك ونهبهم الحاجيات دون مقابل او ثمن» (٣١).

ومما اذى شعور فابري واثاره حادثة جرت له مع اتباع الكنيسة اليونانية (الارثوذكسية؟) وقد وصفها بقوله: «وفي اليوم الحادي والثلاثين، وهو آخر يوم في شهر آب (اغسطس) وكان يوم أحد... لما ارتفعت الشمس فوق الافق، وكنا قد تلونا صلاة الصبح، فكرنا في خير طريقة يمكن بها اقامة القداس. اذ لم يكن (في مدينة غزة) كنيسة لاتينية، بل كانت هناك كنيسة يونانية فقط، وكانت على مقربة منا. ولذلك فقد حملنا الكأس والكتاب والثياب الكهنوتية والغطاء الخاص بالمدبح، وكنا قد حملنا هذه كلها وذهبنا الى الكنيسة اليونانية في نيتنا ان نقيم القداس الالهي هناك. وقد ارسلنا في طلب كهنة تلك الكنيسة، ورجوناهم بكل تواضع، ان يسمحوا لنا بالدخول، وان يختاروا لنا مذبحاً نقيم عليه القداس الالهي. ولكن اليونان، وقد ملأ قلوبهم الحقد الذي يضمرونه لابناء الكنيسة اللاتينية، رفضوا السماح لنا

بدخول كنيسةهم، ولم يعيروا طلبنا اي التفات كما لو كنا يهودا، وقد اعلنوا انهم لا يرغبون في ان تدنس كنيسةهم بخدمة قداسنا. وقد تقبل الحجاج جميعهم هذه الالهانة بكثير من الصبر، ومن ثم عدنا ادراجنا الى ساحتنا، والاضطراب يلفنا جميعا. وبعد ان نظرنا الى القضية من نواحيها المختلفة، اعتبرنا ان الامر كان نعمة الهية، اذ انه لم يرد لنا ان نقوم بخدمة القداس الالهي في كنيسة منشقة هرطقية... وعندما حملنا حجارة الى زاوية في الساحة، واقمنا مذبحا خاصا بنا... واقمنا خدمة القداس الالهي ليوم الاحد بسلام وطمأنينة... وقد قام بذلك ثلاثة كهنة هم: الاب باولوس من الاخوة الصغار، والارشيد يكون يوحنا والاخ فيلكس (فابري) الدومنيكاني» (٣٢).

هذه هي المعلومات الخاصة، وبعضها دقيق، التي نحصل عليها من مشاهدات فابري المباشر. اما اخباره عن الاماكن الاخرى في فلسطين التي لم يزرها، فقد نقلها عن المؤرخين والرحالين والحجاج الذين سبقوه.

ومن المهم أن نتنبه الى أن معاصريه من الرحالين الذين جاءوا الارض المقدسة يؤيدون الكثير مما ذهب اليه. ولولا خوف الاطالة لكننا نقلنا البعض مما ذكره هؤلاء (٣٣).

على اننا نرى لزاما ان نقل الى القارىء امورا اخرى ذكرها فابري واهتم بها مما له علاقة بالحج الى فلسطين في ذلك الوقت. وهي اما وصايا تعطي للحجاج أو اتفاقيات تعقد بين الحجاج وبين المسؤولين عنهم.

ينصح فابري المسافرين في البحر بما يلي:

« اذا رغب الحجاج في الحصول على شيء خاص من المطبخ، فعليهم أن يعطوا الطباخين نقودا. فانه يوجد هناك ثلاثة او اربعة من الطباخين الذين لا يقبلون بغير النقد، ولا يقيمون وزناً للوعد، وليس ثمة غرابة في ان يسوء خلق الطباخين اذا تذكرنا ضيق المطبخ، وتعدد الحلل، وتنوع المطبوخات وصغر الموقد وتعدد الاصوات وارتفاعها... واللحم الذي يقدمه الريان هو عادة لحم رديء، لانه يأمر بقتل الحيوانات المريضة التي يخشى عليها من الموت» (٣٤).

وقد اورد فابري نصا للاتفاقية التي وقعها الحجاج مع ريان المركب الذي سافر فيه فابري وجماعته من البندقية الى ميناء يافا. وهي في عشرين مادة، تنص على ان تكون السفينة جاهزة للاقلاع في مدة اسبوعين وان يكون ملاحوها ماهرين، وان تدنو من ميناء غريب (اي معاد) ويترتب على الريان ان يؤمن للحجاج وجبتين من الطعام والشراب يوميا، على

الخبز والبقسماط والخمر من النوع الجيد وان يكون الماء عذبا. ما يقبضه الريان من كل حاج، وهو اربعون دوكة جديدة، يشمل اجرة النقل بحرا وما يلزم للامان والركائب في فلسطين. ويتعهد الريان ان يحتفظ على ظهر المركب بمكان يحفظ فيه الحجاج الدجاج او الطيور الخاصة بهم، وعليه ان يسمح لطباخي الحجاج ان يستعملوا نار الموقد في مطبخ المركب لظهو طعام اسيادهم<sup>(٣٥)</sup>.

وينقل فابري النصائح التي تقدم بها رئيس دير جبل صهيون الى الحجاج ليتقيدوا بها اثناء اقامتهم في المدينة المقدسة. وجماعها سبع وعشرون نصيحة منها ان الحجاج الذين جاءوا دون ان ينالوا بركة البابا ان يتقدموا لنيل الغفران منها ان الحجاج الذين جاءوا دون ان ينالوا بركة البابا ان يتقدموا لنيل الغفران منها ان لا يتجول الحجاج في المدينة المقدسة دون ان يكون معهم دليل مسلم من ابناء المدينة، وعليهم ان تكون زياراتهم وتنقلاتهم منتظمة. ويتوجب على الحجاج ان يمتنعوا عن دخول المساجد والجمامع<sup>(٣٦)</sup>.

### ملحق مؤقت

|   |         |
|---|---------|
| N.E. Jewish Travellers (London 1930)  | Adler,  |
| Atiya, A.S. The Crusade in the Late Middle Ages (London, 1938)              |         |
| Rundreise des R. Petachja von Regeusherg (Jerusalim, 1904-5)                | Grunhut |
| of the Palestine Pilgrims Texts Society (P.P.T.) 13 vols, (London 1896 ff.) | Library |
| Th. (ed)  |         |
| Early Trads in Palestine (London, 1848)                                     | Wright, |



# مصادر البحث

- ١ - راجع نص اخبار حاج بورديو في P.P. T.; Vol. I
- ٢ - راجع نقولا زيادة رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٤٣) الفصل الثاني من القسم الأول (ص ٤٦-٥٥).
- ٣ - راجع نقولا زيادة، رواد الشرق العربي الفصل الخامس من القسم الأول (ص ٨١-٩٤)
- ٤ - راجع: نقولا زيادة، رواد الشرق العربي: الفصلان السادس والسابع من القسم الأول (ص ٩٥-١١٢).
- ٥ - اخبار فابري عن الاراضي المقدسة وسيناء منشورة في ترجمة انجليزية في المجلدات ٧-١٠ من كتابات الحاج الى فلسطين  
P.P. T. Vols. 7-10
- ٦ - يراجع ما كتبه فابري حول هذه النقطة بالذات في  
P.P. T. Vol. VIII, pp. 397-415
- ٧ - P.P. T. Vol. VII, pp 238-239
- ٨ - P.P.T. Vol. VII, P. 219
- ٩ - ونرجح ان فابري توهم ان الثلاثة كانوا حكاما ولعلمهم كانوا مندوبي الحكام.  
P.P.T. Vol, VII, p. 219
- ١٠ - P.P. T. Vol. VII, pp. 223-7
- ١١ - نقولا زيادة - رواد - ص ١٩٣.
- ١٢ - P.P. T. Vol. VII, p. 287
- ١٣ - P.P. T. Vol. IX, P. 226 يقول عبوديا، وهو سائح يهودي زار القدس في القرن الخامس عشر، عن القدس: «رغم ان القدس تهدمت فانه لا يزال فيها اربع اسواق جميلة طويلة.. كلها مسقوفة بالقباب، وتحتوي جميع انواع المتاجر وهي سوق التجار وسوق العطارين وسوق الخضار وسوق الاطعمة المطبوخة والحبز».  
راجع نقولا زيادة - رواد - ص ١٩٨.
- ١٤ - P.P.T. Vol. VII. P. 285-6
- ١٥ - P.P.T. Vol. IX, P. 110
- ١٦ - P. TT. Vol. IX, 111
- ١٧ - P.P. T. Vol. IX, 84
- ١٨ - P.TT. Vol. IX, 105-7
- ١٩ - من المتعارف عليه ان صلاح الدين هو الذي انشأ هذا التقليد لما استعاد القدس سنة ١١٨٧م.
- ٢٠ - P.P. T. Vol. VIII, 430-2

|  |     |
|--|-----|
| P.P. T. Vol. VIII, 433-4   | -٢١ |
| P.P. T. Vol. VIII, 435   | -٢٢ |
| P.P. T. Vol. VIII, 435   | -٢٣ |
| P.P. T. Vol. VIII, 436   | -٢٤ |
| P.P. T. Vol. VIII, 437-8   | -٢٥ |
| P.P.T. Vol. VIII, 437-8  | -٢٦ |
| P.P.T. Vol. VIII, 438-9  | -٢٧ |
| هذا المؤلف بالذات لم يصل إلينا. راجع نقولا زيادة - رواد - ص ١٢١ والمهامش رقم ١   |     |
| P.P.T. Vol. IX, 44-6   | -٢٨ |
| P.P.T. Vol. X, 417-8   | -٢٩ |
| P.P.T. Vol. X, 427   | -٣٠ |
| P.P. T. Vol. X, 442-3  | -٣١ |
| P.P.T. Vol. X, 432-3   | -٣٢ |
| راجع نقولا زيادة - رواد - القسم الأول، الفصل الثامن، والقسم الثاني الفصل السادس. |     |
| P.P.T. Vol. VII, 153-4   | -٣٤ |
| P.P.T. Vol. VII, 87-90   | -٣٥ |
| P.P.T. Vol. VII, 248 ff  | -٣٦ |

## الرواية في فلسطين في عهد الانتداب

د. ابراهيم السعافين  
جامعة اليرموك - اربد

مدخل:

لم تكن فلسطين بمعزل عن أقطار الأمة العربية، منذ أن عرفت الرواية بخصائصها التي ذكرها الباحثون وهم يؤرخون لتطور الرواية العربية<sup>(١)</sup>. ولعل ذلك يعود الى اسباب منها أن الوحدة الثقافية كانت أكثر بروزا في مصر وبلاد الشام والعراق التي عرفت فن الرواية في أواخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين. فلم يكن ظهور حركة ثقافية في اقليم معين، يعني أن هذه الحركة تتميز بخصوصية في الذوق، وفي الاتجاه، من غيرها في الاقطار العربية. ولقد ظهرت الرواية العربية على أيدي كل من سليم البستاني، وجورجي زيدان، ونعمان القساطلي، وفرنسيس المراس وغيرهم، في الوقت الذي كانت فيه فلسطين جزءا من الدولة العثمانية، قبل أن تعرف الحدود ترتبطعة فيما بعد. ومن الطبيعي أن يتأثر أدباء هذا القطر بما يتأثر به زملاؤهم في الاقطار العربية الأخرى.

ولعل المؤثرات المختلفة التي تعرض لها الأدب بعامة، والرواية بخاصة، قد أثرت في أدباء فلسطين تماما، كما أثرت في غيرهم من أدباء الأقطار العربية الأخرى. فاذا كانت العوامل المختلفة التي أثرت في الأدب بعامة، تتمثل في رافدين أساسيين هما: التراث العربي القديم-والصورة التي كان عليها آنذاك جزء منه-، والأدب الغربي بصوره ومذاهبه واتجاهاته المختلفة، فان هذه العوامل قد ظهرت آثارها في الأدب في فلسطين، بل ظهرت آثارها في الرواية بخاصة مثلما ظهرت في الرواية في الاقطار العربية الأخرى.

ولا يمكن لدارس الرواية العربية الحديثة، أن يغفل أثر الموروث فيها عند ظهور<sup>(٢)</sup> الرواية في فلسطين. فقد كان سوق الأدب الشعبي رائجا في ما قبل النهضة، اذ يذكر المؤرخون والباحثون أن الناس لم يكونوا يعرفون من أشكال التعبير الأدبي، غير الأدب الشعبي، وخاصة

السير الشعبية، التي كانت زادا للأمينين واشباه الأمينين، يتعلقون به تعلقا شديدا، يظهر في انفعالهم به، وتحمسهم لمضامينه، وانتصارهم لبعض شخصياته، يظهر أحيانا في صورة من صور العنف. فالهلالية وسيرة عنتر وغيرهما، كانت زادا فنيا أساسيا لجماهير الشعب، ألفوه وامتزج بعواطفهم وافكارهم. يقول الشيخ ابراهيم الدباغ المولود في يافا سنة ١٨٨٠: «وقد قرأت، وانا صغير، قصة «عنتر» ثلاث مرات لجدي السيد عبد القادر الدباغ رحمه الله، وقرأت «الظاهر بيبرس»، و «ألف ليلة وليلة» لجدي المرحوم سعيد الشراوي، فمررت بأعاجيبها واكاذيبها، وآمنت بخرافاتها واساطيرها، ولم أجد بعدها في عجائب الدنيا شيئا يذكر<sup>(٣)</sup>»، وقد أشار محمد رفيق التميمي الى ندرة الذين يعرفون الفصحى في «سلفيت»، و الى اهتمامهم بالحكايات الخرافية، والسير الشعبية، بلغ حدا جعل عواطفهم تتحيز الى موقف دون آخر، و الى شخصية دون أخرى، مثلما بدا ذلك في مواقفهم من أبطال الهلالية<sup>(٤)</sup>.

وإذا كانت الظروف الموضوعية قد أتاحت للرواية المتأثرة بالذوق الشعبي أن تسيطر في فترة ظهور الرواية العربية الحديثة، فإن الحديث عن ظهور رواية فلسطينية متميزة، في هذه الفترة، يتضمن قدرا من المبالغة. فقد كانت البيئة العربية تخضع لظروف تكاد تكون متشابهة سياسيا واجتماعيا وفكريا وثقافيا، فملاحظة خطوط التمايز والخصوصية - كما أشرنا - هو من قبيل الافتعال والتعسف.

ومع أن الرواية في فلسطين ظهرت متأخرة نسبيا عن مصر ولبنان وسوريا فإن هذه الملاحظة لاتعكس قضية ذات مغزى بالنسبة الى ظهور الرواية، ذلك أن سكان فلسطين كانوا يقرأون ما يظهر في الأفطار العربية من روايات، وهم يدركون أنها تعبر عن حاجاتهم وذواقهم، فضلا عن أن التقسيمات الادارية اللاحقة، لم تكن معروفة حتى ظهور فترة الانتداب. فقد كانت المنطقة الشمالية من فلسطين تابعة لولاية بيروت، على سبيل المثال<sup>(٥)</sup>.

ولا ينبغي أن نغفل الرواية المترجمة التي تتفق، الى حد كبير، مع طبيعة الرواية المتأثرة بالذوق الشعبي. فضلا عن أن المترجمين حاولوا في الأغلب الأعم أن يتصرفوا تصرفاً واسعاً بالترجمة، عن طريق التحوير والتغيير والتبديل والاضافة، حتى تستوي موافقة لأذواق القراء التي تربت على الأعمال الروائية والقصصية التي تتصل بالذوق الشعبي<sup>(٦)</sup>. وقد حاول المترجمون في فلسطين، فيما بعد، أن يصنعوا هذا الصنيع الا في النادر. ولا نميل الى أن ذلك كان من قبيل الأمانة في الترجمة<sup>(٧)</sup>. بقدر اصرار الكاتب على التعبير عن أفكاره من خلال ما يترجم.

ومن الأمور التي تجبه المؤرخ لظهور الرواية في فلسطين، مشكلة تحديد الروائي الفلسطيني فقد ذكّر أحد الروائيين<sup>(٨)</sup> على أنه من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، بسبب اقامته فترة طويلة فيها، مع أننا لا نطمئن الى تصنيف انتاجه على أنه يمثل الرواية الفلسطينية، بقدر ما يمثل ثقافة الكاتب ومعتقده، على نحو ما نرى عند المطران «جرمانوس معقد» في روايته «حسناى بيروت» التي صدرت في بيروت عام ١٨٩٨. فالكاتب من مواليد دمشق عام ١٨٥٠م وقضى شطرا من حياته في بيت المقدس في «منصب كنسي».

والرواية بعامة تدور حول علاقة بين فتاة كاثوليكية، وفتى كاثوليكي. اعتنق الفتى المذهب البروتستانتي اثر دخوله مدرسة بروتستانتية، فتتكر الفتاة له بعد موقفه هذا، ويتعرض هو لمشكلات عدة، تنتهي أخيرا بتويته التي تسعد ليلي كثيرا. فغاية القصة وعظيمة أخلاقية دينية قوامها الحماسة للمذهب الكاثوليكي، ونقد عادات الأجانب، والتقليد الضار، ومهاجمة الملاحدة، والفلاسفة، وشرب الخمر، وما يلاحظ على هذه الرواية أنها تتفق مع الأعمال الشعبية في عدد من السمات منها: فرض معلومات المؤلف على أحداث الرواية، وظهور الشعر بغزارة من أجل التمثيل في المواقف المناسبة<sup>(٩)</sup>. وفي استعارة الاسلوب البياني في الوصف على نحو ما نرى في قوله مثلا: «وكان على طول الطريق يذكر أيامه الأول، التي كان فيها مطمئن القلب، آمن السرب، أليف السكينة والدعة، ويأسف على فواتها، منشدا أبياتا لنايعة العصر.....»

فدخل الحديقة، وجلس على كرسي ازاء منحدر الماء متجها الى البحر، وحوله الاشجار والازهار وشرع يدخن، وهو متردد الوجه، لا تشتشه تلك المناظر البهيجة، ولا يبرد وجه كآبته ذلك النسيم العليل<sup>(١٠)</sup>».

وفي انتهاء الرواية نهاية سعيدة على عادة الأدب الشعبي حيث يقول: «وعند ذلك كتب الى ليلي رسالة ييشر بها باهتدائه وتويته، ويستغفرها بها عن زلته، طالبا منها بتدلل أن تصفح عما جرى منه بجهل وغرور، ملتمسا أن تصلي لأجله لكي يزداد رسوخا في الديانة والتقوى، فأجابته بكتاب يليق بشهامتها، وكرم أخلاقها، طافح بعبارات التهئة والتلطف، ووعدته أن تداوم الصلاة لأجله، فكان هذا الجواب تنمة لسعادته الجديدة الحقيقية<sup>(١١)</sup>».

ومن القضايا التي تحتاج الى حل، ما يرد في بعض المراجع عن ظهور روايات مبكرة أو متأخرة، لم يعثر عليها لأسباب مختلفة، فعلينا ألا نطمئن - على الرغم من عدم وضوح معالم الأشكال القصصية في هذه الفترة بدرجة كافية - الى طبيعة هذه الأعمال، من خلال ما

تذكره المراجع أو الفهارس أو المؤلفون أنفسهم، لعدم تحديد المصطلح تحديداً كافياً. فمن يطالع الأعمال التي وصفت بأنها «روايات» في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين يجد أن ثمة خلطاً بين التمثيلية والرواية والقصة القصيرة. ومن هنا فإننا لا نستطيع أن نحكم على جنس العمل القصصي دون الاطلاع عليه.

وهذا ما يدعونا إلى عدم الاطمئنان إلى ما روى عن كتابة محمد بن الشيخ أحمد التيمي رواية تدعى «أم حكيم» بمصطلح الرواية المتعارف عليه. فقد ورد أنه أول من أبرز رواية بالعربية وسماها «أم حكيم»<sup>(١٢)</sup>.

وربما يؤيد ذلك ما أشار إليه بعض الباحثين<sup>(١٣)</sup> حول عمل للاستاذ محمد عزة دروزة بعنوان «الملاك والسمسار» أو «سماسرة الأرض، أو الفلاح البائس» كما ذكر لي<sup>(١٤)</sup>، ووصفوه بأنه رواية، غير أن الأستاذ دروزة ذكر أنه «رواية تمثيلية». كما ترجمها الدكتور عدنان أبو غزالة في كتابه «Arab Cultural Nationalism in Palestine»<sup>(١٥)</sup>.

«الملاك والسمسار» بمعنى «المملك» «Angel» وهذا ما يشعر بعدم الدقة في ذكر العنوان نفسه. فقد جاء عنوان التمثيلية في الكتاب المذكور The Angel and the Land Broker

وما الأستاذ دروزة نفسه فذكر أنه كتب روايات أربعاً. ولما حاولت أن أتبين شكلها الدقيق ذكر لي أنها مثلت جميعاً، واطلعتني على نسخة وحيدة لرواية يحتفظ بها في خزانة كتبه عنوانها «وفود النعمان على كسرى أنوشروان»<sup>(١٦)</sup> كتب على غلافها «رواية»، ثم أتبعت بعبارة «هي رواية عربية تاريخية تمثيلية ذات خمسة فصول». فتبين حينئذ أنها جميعاً تمثيلات وليست روايات كما يتوهم القارئ أول وهلة.

وإذا كانت من دلالة لتلك المحاولات التي قام بها الأستاذ دروزة منذ عام ١٩١٢، فإنها تحاول أن تشير إلى اهتمام الكتاب المبكر في فلسطين، بقضايا أمتهم، وحماسهم لتاريخهم المجيد، ومحاولة استلهامه من أجل جني العبر والدروس. فالاستاذ دروزة نفسه أشار إلى أن هدفه من وراء هذه الأعمال هو التنبيه على ما في تاريخ العرب من دروس تعليمية تفيدهم في نهضتهم الحديثة - من حيث القدوة - وهم يواجهون التحديات المختلفة.

وإذا كانت بعض الأعمال قد صدرت فعلاً عن رغبة حقيقية لدى الكاتب في تعليم مواطنيه، وفي لغتهم إلى الدروس الوطنية التي يمكن أن تستفاد من الواقعة التاريخية المنوّه بها،

فان ذلك لا يجعلنا ننسى أثر الظروف الموضوعية في تبني الكتاب للأهداف الأخلاقية والاصلاحية، بغية اصفاء قيمة تعليمية على النصوص المؤلفة أو المترجمة، ذلك أن الواقع الاجتماعي كان يفرض على الكاتب أن يدعي الهدف التعليمي، حتى يتماشى ذلك مع الذوق السائد في ذلك الوقت.

فلو حاولنا أن ننظر في مجلة «الزهرة» التي كان يصدرها جميل البحري في حيفا، لوجدناه يصفها بأنها «مجلة أدبية روائية أخلاقية تاريخية فكاهية». فقد درج أصحاب المجلات منذ الجنان والهلل والضياء والمشرق المقتبس وغيرها، على كتابة ملاحق روائية يتسلسل معها القراء الذين تبدو غالبيتهم من أنصاف المتعلمين. فلكل عدد ملحق روائي كما تشير صفحة الغلاف. وصاحب المجلة يوقع اسمه «جميل» بعد عبارة مقدمة السنة الرابعة هي «الله حسبي وخدمة البلاد غايي»، وقد نوه أحد أعداد المجلة، بعد التعريف بالمجلة وبصاحبها ومحررها، ومديرها المسئول، أن «كل عدد يحتوي على روايتين» فالرواية الأولى التي نشرت في ١٥ تشرين أول ١٩٢١ هي «سيف النبي محمد» وهي «رواية أدبية أخلاقية اجتماعية بقلم السيد أديب الجدع. المطبعة الوطنية حيفا».

ولعل من المفيد أن نتعرف الى هذه الرواية القصيرة التي أعملت فيها يد المترجم «أديب الجدع» غير قليل من التحوير والتغيير والتلخيص حتى جاءت في تسع عشرة صفحة من القطع الصغيرة.

تدور أحداث الرواية حول سر «سيف النبي محمد» الذي يعرفه السر الانجليزي «جوليان كارمل». وهو سر يتحدث عنه الشرق من مراكش حتى الهند، ذلك أن الذي يستولي على هذا السيف يتمكن من اعادة السيطرة على العالم باسم الاسلام. كان لجوليان كارمل ابنة تدعى «سيلفيا» أحبها شاب انجليزي يدعى «روتفين» غير أن غريباً ألمانيا يدعى «الكونت ولنبرج» تصدى لهذين الحبيين، وبينما كان «روتفين» غائباً أو شك السر «جوليان» على الموت، فكان لا بد من إخبار سيلفيا بموضع السيف الذي كتب عليه «لا اله الا الله، محمد رسول الله» في الجبل.

وتمثل سيلفيا لرغبة والدها، فتغادر بغداد مع خادمها «تانا» الى الجبل، الا أنها تقع في أسر البدو، لتباع في سوق الرقيق. ويتمكن الخادم من اخبار المعتمد الذي أعلم بدوره «روتفين» بما حدث. فيشتري روتفين «سيلفيا» بعد أن عثرت على السيف بثمن باهظ. ولكن «الكونت ولنبرج» يظل لها بالمرصاد، فيصحب هذا الجاسوس الألماني أمير البدو،

لرؤية سيلفيا بعد أن عرف انها عثرت على السيف. ويرتفع صوت يردد « أن سيلفيا للأمير » بينما قام ولنبرج يستوجها ويهددها بالضرب، ولكن روتفين أشهر المسدس في وجهه - بينما كان الحقد يتقد في عينيه - وتمكن من حل وثاقها. غير أن «ولنبرج» لم ييأس فأطفأ الضوء، والقي بروتفين أرضا. وهنا تمكنت سيلفيا من اعطائه السيف الذي أجهز به على «ولنبرج». وهكذا انتهت هذه الرواية نهاية سعيدة بزواج روتفين من سيلفيا التي أوصته بالمحافظة على السيف، والحرص من أن تمتد اليه يد أخرى. وهذه النهاية تنسجم مع نهايات الروايات المتأثرة بالذوق الشعبي، والرواية الخيالية الغربية (الرومانس).

وقد نشر جميل البحري في مجلته « الزهرة » في عدد ١٥ أيلول ١٩٢١ « الرواية الأولى » للعدد، بعنوان « ظلم الوالد » وصفت بأنها « رواية أدبية اجتماعية أخلاقية » أيضا. وهي تصور قصة حب بطلتها « جوليا » ابنة « جيروم » البحار، وبطلها « وليم » وهو فتى أنقذه « جيروم » ولم يعد الى البحر منذ ذلك الحين، فأصبح راعيا. كان « جيروم » الذي بلغ الخمسين من عمره قد قطع لنوتي يعمل تحت امرته يدعى « كرفيال » وعدا ان يزوجه « جوليا ». غير أن جوليا رفضت أن تبر بوعدها، وتتزوج من « كرفيال ». وتخلفت عن مرافقة موكب الخروج الى البحر، مما جعل « كرفيال » يشعر بأن « جيروم » قد نكث بوعده، فقال له :

« انك تهزأ بي يا جيروم، ولا طاقة لي بعد الى تحمل هذه السخرية، فما وعدك لي الا عرقوبية، وما كانت ابنتك لتطيع أوامرك الغالية »<sup>(١٧)</sup>. فغضب جيروم غضبا شديدا، وهجم على ابنته يريد ضربها، لولا أن منعها الناس منه. وفي سبيل مرضاة « جيروم » وعده « وليم » حبيب ابنته أن يعمل في سفينة تحت امره « كرفيال ». فاغتنم كرفيال هذه الفرصة السانحة، ليتخلص من خصمه غدرا، فتمكن من أن يعمد خنجره في صدره، ويلقي بجثته في البحر. ولما علمت « جوليا » بالأمر، عزمت على الثأر، فتمكنت من قتل « كرفيال » بالخنجر الذي قتل به حبيبها ثم انتحرت.

ان هذه المأساة كانت بفعل نظرة « جيروم » المادية، فقد أدرك أن حبيب ابنته شاب فقير. وهذا ما حاولت أن تطرحه الرواية. ولعل العظة الأخلاقية تتمثل في تعليق المؤلف في ختام هذه الرواية التي بلغت عشرين صفحة: « وقد عرف جيروم أن هذا الحادث المؤلم لم يكن الا من قساوة قلبه، وظلمه، فندم على ما فرط منه، وندم ندامة عظيمة، وتمنى لو تعود ابنته الى الحياة، فيظهر بمظهر غير مظهره الأول، ويكون لها خير أب حنون ولكن «لات ساعة مندم»<sup>(١٨)</sup> ».



وما يلفت النظر حقا اصدار خليل بيدس لمجلة النفائس في حيفا عام ١٩٠٨، ووصفها بأنها «مجلة لطائف وفكاهات»<sup>(١٩)</sup>. مع أن صدور صحيفة تعني بالفن القصصي في فلسطين في هذا العام قد يبدو متوقعا، لا سيما اذا علمنا أن فلسطين لم تكن معزولة ثقافيا أو سياسيا عن أقطار بلاد الشام ومصر وغيرها. فقد كانت حيفا تابعة لولاية بيروت التي صدرت فيها معظم المجلات التي عنيت بالفن القصصي، واتخذت لها ملاحق «فكاهية» حتى تمكن القراء من متابعة ما يكتب فيها.

والمتأمل في حياة بيدس، وثقافته، يلاحظ أن الثقافة القصصية شكلت جانبا أساسيا من ثقافته العامة، وخاصة أنه تخرج في المدرسة الروسية الداخلية في مدينة الناصرة واستطاع أن يتعرف على الآثار الروائية الروسية لكتاب من مثل دستوفسكي وتولستوي<sup>(٢٠)</sup>.

والذي ينبغي أن يهتم به المؤرخون لتطور الرواية العربية هو ملاحظة طبيعة الأعمال المترجمة في أواخر القرن التاسع عشر، واولئل القرن العشرين. فلم تكن هذه الاعمال مجرد نقل امين لروايات تمثل تيارا، أو تيارات أدبية معينة، بل كانت تدل على ذوق العصر، وذوق المترجم نفسه الذي لا ينفصل كثيرا عن طبيعة الذوق السائد الذي كان خاضعا بصورة واضحة للذوق الشعبي الذي كان ما يزال يميل الى قراءة الآثار العربية الشعبية، وما ينسج على منوالها من آثار غربية تتلاءم معها، أو تحور عند ترجمتها حتى تستوي قريبة من أذواق القراء وفهامهم.

وهذا ما يجعلنا - كما أشرنا - ننظر الى الروايات والتمثيلات المترجمة من زاويتين: الأولى: أنها تمثل ذوقا معيناً. والثانية أنها تعكس تدخل المترجمين الذي يبدو أحيانا وكأنه أقرب الى التأليف منه الى الترجمة. وهذا وحده يعطي دليلا على طبيعة الترجمة فيما يتصل بالاعمال الروائية والقصصية.

## الروايات المؤلفة:

ليس من اليسير على الباحث أن يحيط بما صدر من روايات في فترة الانتداب، ذلك أن ظروف هذه الفترة القلقة، لم تتح المجال أمام عملية استمرار ثقافي معينة في دار وطنية للكتب والوثائق. كما أن ما حدث عام ١٩٤٨ زاد الأمر تعقيدا فقد فقد كثير من الكتب<sup>(٢١)</sup>. وما الذين يذكرون ما ألفوا فانهم قلما يحتفظون في مكباتهم الخاصة بما كتبوا على نحو ما رأينا عند الأستاذ محمد عزة دروزة. وقد حاولت أن أجد بعض الروايات التي

ذكرتها المصادر أو المعاجم فلم أتمكن من العثور على أي منها. غير أنني استطعت العثور على عدد من الروايات التي أشار الباحثون إلى أنها مفقودة. وربما كانت الصدفة المحضة في أثناء البحث المستقصي في دور الكتب والمكتبات المركزية، هي التي أتاحت لي فرصة العثور عليها.

وقد أتيت لي أخيراً أن اطّلع على مخطوطة لرواية بعنوان «رجاء» كتبها الشاعر الفلسطيني البحيري عام ١٩٣٩ ولما يبلغ العشرين من عمره. فكان الاطلاع عليها فرصة طيبة لمحاولة استحضار بعض الحلقات المفقودة من التأليف الروائي في فلسطين في عهد الانتداب.

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن الباحث لا يستطيع أن يصنف الأعمال حسب زمان كتابتها، إذ أن الزمن وحده ليس عاملاً حاسماً في تصنيف هذه الروايات فنياً، ومن هنا كان على الباحث أن يحاول تصنيف الروايات التي صدرت في عهد الانتداب تصنيفاً فنياً مع أنه يصعب أن نحدد تيارات فنية أيضاً، اللهم في رواية «صراخ في ليل طويل» لجبرا إبراهيم جبرا.

ويخيل إلي أن محاولة تصنيف المحاولات الروائية التي صدرت في فلسطين في عهد الانتداب، يمكن أن تتم ضمن أربعة اتجاهات:

الاتجاه الأول: ويمثل التيار المتأثر بالذوق الشعبي.

والاتجاه الثاني: اتجاه السيرة الذاتية ذو الملامح الرومانسية.

والاتجاه الثالث: ويتمثل في المنحنى الرمزي التقليدي.

والاتجاه الرابع: اتجاه ذو رؤية واقعية.

وإذا كانت دراسة الأعمال الفنية لا تفصل بين الشكل والمضمون، فإن ذلك لا يمنعنا من محاولة التعرف إلى المضامين التي طرحتها هذه الروايات. وخاصة ما يتصل بالقضية الفلسطينية في عهد الانتداب. وإذا كنا حراساً على التصنيف الفني الذي أشرنا إليه سابقاً، فإننا سنحاول أن نتحدث عن المضمون والشكل ضمن التصنيفات الفنية حتى تحتفظ حلقات التطور الفني بخصائصها الرئيسية.

## أولا: التيار المتأثر بالذوق الشعبي:

### أ - الموضوعات:

تميزت الموضوعات الأساسية لروايات هذا التيار بسمات يتضح فيها اثر التراث الروائي والقصصي الذي شكل الذوق الشعبي. فهني تحاول أن تقدم دروسا وعبرا يفيد منها القارئ، سواء أكان ذلك نابعا من موقف معين، أم كان مجارة للقيم الاجتماعية التي تدعو الى تقديم فوائد اجتماعية وخلاقية تعود بالنفع على الفرد والمجتمع.

فقد اصطنعت رواية «الوارث»<sup>(٢٢)</sup> لخليل بيدس قصة غرامية بين شاب عربي ثري، وفتاة يهودية لتصل الى الغاية التربوية الأخلاقية المنشودة.

هاجرت أسرة عزيز الحلبي من سورية الى مصر في أعقاب احداث عام ١٨٦٠ حيث اشتغلت بالتجارة. غير أن والد عزيز ما لبث أن مات، ولما يتجاوز عشر سنوات، فقام عمه نعمان على رعايته. وكانت لعمه ابنة تدعى نجلاء، اجتهدت والدتها في استرضاء عزيز وجلب وده، وكذلك فعلت نجلاء، ولكنها عبثا تنجحان في ذلك. فقد وقع في حب «استير» ذات العشرين ربيعا، التي كانت من أشهر ممثلات مسارح مصر وراقصاتها، لقد كانت «استير» رائعة الجمال، بديعة الرقص، متفردة في الغناء. فتحاول بكل وسائلها أن تحصل على مال عزيز فأغرته بالزواج من ابنة عمه، ما دام الزواج يضمن تدفق المال عليها. كما أغرته بسرقة أموال عمه عندما اشتد عليه المرض. بل لجأت أخيرا الى توظيف صيرفي يهودي مراب اسمه «ناثان» بوساطة عمتها العجوز «راحيل» يسهل لعزيز شراء الآت موسيقية من يهودي آخر الى اجل محدد، مقابل صكوك تسدد قيمتها في فترة معلومة. وظلت هي والصيرفي يستنزفان أمواله. ولم يحل اكتشافه أنها خليعة «كولونيل» دون توطيد هذه العلاقة، على الرغم من جهرها بذلك. بل كان كلما عنفها عاد الى استرضائها من جديد، الى أن كثر الدائنون. وخيرا جاء «ناثان» نفسه، يستوفي قيمة صكوكه فسقط مريضا، ولم ينقذه الا زوجته الطيبة المحبة فساعدته بما تملك حتى وقف على قدميه، واستطاع أن يستعيد عافيته واكتملت بهجته عندما رزق غلاما سماه «نعمان». فقام مقام عمه الذي اعتزل العمل، وتسلم أطيانه وعقاراته وتجارته جميعا فقام بها على أفضل وجه<sup>(٢٣)</sup>.

وقد حاولت رواية «الحياة بعد الموت»<sup>(٢٤)</sup> أيضا، أن تحقق غاية تربوية تعليمية اصلاحية، اذ يقول الكاتب حول الغرض من وضع هذه الرواية: «أما الغرض الأول الذي

ترمي اليه هذه الرواية، فهو ذم كل مبدأ من شأنه التعدي الاستثنائي، وتقبيح الخطط التي يبنى عليها أساس سلطاتهم، وشجب المبادئ التي يعززونها بالحيلة والقوة، ليبلغوا بها سعادتهم المرهومة التي تزيد في تعسفهم وشقائهم.

والغرض الثاني: الخض على ممارسة المبادئ الأساسية، المقومة عدل الحكومات، وخلاق الشعوب، والآئلة الى اصلاح الزواج والعائلة، والتي بدونها لا يجد شعب ناهض ضالته، وبسواها لن تبلغ يوما من الدهر هذه العائلة البشرية الشقية ما تنشده من الكمال الحقيقي والسلام النهائي. حقائق وعبر، وحوادث غريبة، لم تتجاوز حد الواقع، تقرآنها أيها القارئ والقارئة الكريمين في هذه الرواية بشوق وارتياح... أنا لكي ألبى دعوتكما، أحتاج الى القلم الذي هزته روح تولستوي في بعثه، وهو جوع في بؤسائه، وشيكسبير في عاصفته، أحتاج الى دواة أصاب منها قلم هؤلاء النابغين جميعا(٢٥)».

فالرواية تصور ما عاناه العرب في عهد الاتحاديين من عسف وطغيان، وما ألم بهم من جوع ومذلة وارهاب. فنجيب شاب ورث عن أبيه تجارة الأيقونات و «السيح»، وتعلم فيما بعد ما سمحت له الظروف أن يتعلم، ثم تزوج من «أديل» العفة الطاهرة التي أنجبت له صبيا ما لبث أن مات. وثمة تاجر حلبي يدعى «نجيب» أيضا. تركت له والدته ثروة تعادل خمسين ليرة ذهباً. له أخ مقيم في حلب يدعى «موسى» وابنة تدعى «سعاد» مخطوبة الى ابن أخيه «كامل».

وفي «بيت جالا» نتعرف الى شخص يدعى «سالم» يعيل زوجته والديه. يساق «سالم» الى التجنيد الاجباري، الا انه لم يجد بدا من الفرار ليعول أسرته. ولكن سوء حظه يؤدي الى وقوعه هو ونجيب في يد السلطات، فيشنق في باب الخليل، بينما تنطلق رصاصه جندي لتصرع نجيب التاجر الحلبي ظلما.

وتعتقد «أديل» أن القتل هو زوجها، فيشفق عليها كل من الضابط «سعيد» وخته سلوى ويواسيانه. أما نجيب زوج «أديل» فيسافر الى حلب حيث تقوم على خدمته «سعاد» ابنة موسى شقيق نجيب التاجر الحلبي القتل. ولما كانت سعاد تنظر الى خطيبها كامل نظرة كراهية فقد حاولت غواية «نجيب» ولكنها لم تفلح في أن تنتزع من قلبه تعلقه بزوجه. غير أن «أديل» تكتشف بوساطة رسالة من كامل أن زوجها ما يزال على قيد الحياة، ويثبت لكامل أن القتل هو عمه نجيب.

وفي أثناء وجود كامل في فلسطين يعتدي على مريم أرملة سالم، فتنجب منه طفلة. وبينما كان كل من موسى وسعاد وكامل يردون الأمانة، انبرت مريم تويخ كامل أشد التويخ، فما لبث كامل أن كفر عن خطيئته بالزواج من التي فقدت ابنتها جوعا.

أما سعيد ونجيب فيتعارفان اثر الانتصار على العدو في احدى المعارك، ويتطارحان السر في كراهية الأتراك، والانضمام الى الثوار العرب. ثم يقبض عليهما ويحاكمان بتهمة الانضمام الى جمعية الثوار، ويساقان الى السجن غير أنهما يتمكنان من الهرب. والرواية تزخر بالحديث عن مظالم الأتراك واستبدادهم، فتحدث مثلا عن اعدام جمال باشا لخيرة الوطنيين من رجالات العرب، وتشير الى ما بلاه الأهلون من ويلات الحرب، حتى تنتهي الرواية باندهار الأتراك.

وقد شاركت رواية «على سكة الحجاز» لجمال الحسيني الروائيتين السابقتين في الغاية التعليمية الاصلاحية، فهي تدعو الى الوحدة الوطنية، ونبد الشقاق الطائفي في وجه الصهيونية والاستعمار. تبدأ الرواية بعلاقة حب بين اميل بك، وبين زوجة محمد حسن الواسطي الذي يذهب الى الجندية وبعد شهرين من غياب زوجها تحمل زينب من «اميل بك» لتنجب «غريبة»، بعد أن أنجبت زوجته الشرعية طفلا سماه «ابراهيم» بفترة قصيرة. أدخلت «غريبة» دار الأيتام بحيفا بعد أن تحلى عنها أبوها، وقتلت والدتها «زينب» تحت سنابك خيله. وظلت هذه القصة سرا لم يعلم بها سوى «الحويطي» الذي تعهد «غريبة» فيما بعد.

يتخرج ابراهيم مهندسا معماريا في برلين، بينما تعرفت «غريبة» على كاتب السكة الحديد ابن عمها «أحمد الواسطي» الذي يجرح فيما بعد. وتنعقد صلة وثيقة بين ابراهيم وبين أحمد الذي أنقذه من الموت. وتؤدي هذه الصلة الى أن يقع ابراهيم في حب «غريبة» التي يحبها أحمد أيضا.

ويحاول «اميل» أن يعرقل زواج احمد من غريبة بوساطة فدوى التي حاولت أن تقنع غريبة بأن أحمد يجب ابنتها. الا أن الحيلة لم تؤت ثمارها. أما ابراهيم فيشهر اسلامه وتم خطبته الى «غريبة». ولكن الحويطي يكشف السر، فيتزوج أحمد من غريبة لينتهي المطاف بهم جميعا عند قبر زينب حيث رأوا «اميل» المعتوه يلقي مصيره القاتم جزاء وفاقا لجرمته، جثة هامدة عند قبر زينب الضحية. فضلا عن أنه كان قد باع أراضي قرية «سته» لليهود دون شعور بالمسؤولية الوطنية والاخلاقية.

وما روايته الثانية «ثرثيا» فهي تدور في أحداثها حول قضايا تربوية وخلقية تتصل بأوتق الأسباب بالمسائل الوطنية. اذ أن الصلة التي جمعت بين كل من بطلي الرواية «ثرثيا» ابنة مجدي بك الصالحى، وثابت حسين هي الاهتمام بالمبادئ والقيم التي تتجسد بوضوح في الرؤية المشتركة تجاه قضايا الوطن المصرية. لقد أعجبت «ثرثيا» بما كتبه «ثابت» في الصحيفة، وراق لها فكره ووطنيته. وقد اكتشفت أنه يملك صفات الزعيم الوطني الناجح فهو شاب يتمتع بأخلاق عالية فضلا عن أنه بارز وخطيب مفوه، حاز اعجاب زملائه فحملوه عند وداعه على الأعناق وسط الهتاف والتقدير. وكأنه زعيم وطني كبير، وليس مجرد طالب متفوق يتخرج في الجامعة. وتتأكد لثرثيا هذه المعاني في اثناء سفرها بصحبته من بيروت الى القدس مما جعل مواقفه تتحدد في ذهنها فيدخل الى قلبها بقوة. وبخاصة وهو يحلل التحديات التي تواجه القضية الفلسطينية، وما يهدد الوطن من أخطار بعد أن قطعت حكومة الانتداب ممثلة بوزير خارجيتها «بلفور» للصهيونية العالمية وعدا بتأسيس وطن قومي لليهود، وشرح ثابت تناقض هذا الوعد الظالم مع مبادئ عصبة الأمم، ومبادئ ولسون. وقد حاول المؤلف أن يبرز أثر هذه المبادئ في شخصية «البطل» الذي ضحت من أجله «ثرثيا» من خلال شخصية تمثل نقيضا، جعلها خصما له في حب «ثرثيا». وهي شخصية سهيل ذلك الشاب الثري الذي كان له رصيد وطني تخلى عنه واقتنع بأن المواقف المبدئية لا وجود لها في الواقع، وآمن - مثل غيره من الزعامات الأخرى - بأن المداهنة والملاينة هي السبيل الأمثل للعيش في جو الانتداب، وان التصلب في التمسك بالمبادئ هو نوع من البله والجنون. لقد كان موقف ثرثيا من الشاين يتحدد من خلال مواقفها الوطنية والمبدئية، وكانت الصفات الأخرى أقل قيمة. فسهيل شاب ناجح مثقف ثري يتمتع بوسامة ظاهرة وهي مؤهلات تغري الكثير من الفتيات، الا أن «ثرثيا» ليست فتاه عادية، فلا بد لها من الاقتران ان بشاب غير عادي. وقد حاول المؤلف أن يسوّغ صنيعه - وهو يشير بطبيعة الحال الى بعض الزعامات المزيفة - بأن يتهم سهيلا في وطنيته باصطناع علاقات مشبوهة مع ركائز الاستعمار في البلاد على نحو ما نرى في الحفلة الفخمة التي اقامها تكريما لرئيس تحرير مجلة التايمز اللندنية وهو من أدهى الشخصيات الاستعمارية آنذاك. ولم يكتب المؤلف بالاشارة الى هذه العلاقة، بل جعل الشخصيات الاستعمارية نفسها تصرح بطبيعة كل من شخصيتي «سهيل» و «ثابت» على نحو ما نرى في الحوار الذي دار بين رئيس التحرير ومراسل الصحيفة في البلاد: - ماذا ترى ؟

- لقد رأيت في هذا الشرق كثيرا من المعنوهين أمثال ثابت. غير أنه لا يخلو من بعض العقلاء أمثال سهيل !

- أما أنا فأرى أن هذين الشابين لو كانا في لندن لحمل ثابت الى مجلس العموم على الاكتاف ولشقق سهيل في ترافلغار سكوير (٢٦)». ولعل ثريا ترمز أيضا الى الارض والوطن مما حدا بالمؤلف الى أن يزوجها لثابت حسين الشاب الوطني العنيد، وان يطلقها من سهيل المغرور الخائن الذي تمرس بالنفاق وافساد الضمائر بالرشوات وغير ذلك طعما في أن يحقق مكانة لدى الاستعمار والصهيونية.

وتحاول رواية «بين الاسر والحرية» لقسطنطين ثيودري أن تعالج قصة اجتماعية، فقد عرّف بها مؤلفها بقوله انها قصة اجتماعية تحليلية. وهي تروي قصة علاقة غرامية بين شاب طموح يدعى فريد وبين فتاة تدعى ليلي. غير ان المأساة ما لبثت أن حلت بهذين الحبيين، إذ خطبت ليلي الى شاب ثري عائد من المهجر اسمه «استيفان» تربطه صلة بأستها.

الا أن ليلي تصر على الزواج من فريد. ويتدخل القدر في اللحظة المناسبة، فيموت الشاب المهجري القادم من أمريكا في بيروت، وتموت ليلي اثر مرض ألم بها في الاسكندرية، وتدفن في القدس. لبيكيها فريد الى كل من صديقه جميل، وصديقتها سلوى. وقد حاول المؤلف أن يثير على لسان كل من فريد، وصديقه جميل، عددا من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية في اثناء سياحتهما في بلاد الشام.

وعلى هذا النحو نلاحظ أن هذه الروايات عاجلت موضوعات اجتماعية واخلاقية وسياسية اتصلت بعدد من الجوانب التي كانت تهم المجتمع الفلسطيني بخاصة، والعربي بعامة في تلك الفترة. وكان الاطار العام لكل من هذه الروايات يتصل بقضايا كلية مثل طبيعة سمسرة الأرض ممثلة في «اميل بك» في رواية جمال الحسيني «على سكة الحجاز»، وموقف الاتراك من العرب في رواية «الحياة بعد الموت» لإسكندر الخوري البيتجالي، والحياة الاجتماعية والسياسية وما يتصل بأخلاق اليهود ومواقفهم في رواية «الوارث» لخليل بيدس التي حفلت بنماذج يهودية تشير الى اليهودي التقليدي الذي يفعل كل شيء من أجل الحصول على المال، والذي يتعامل بخسة مع من يقعون في شباكه، مما يعيد الى الازهان صورة شيلوخ ونظونيو في «تاجر البندقية». ولعل الصلة بين مضمون هذه الرواية وبين حياة المؤلف تجعل الزعم بأنه اراد أن يعبر عن مواقف معينة من اليهود في فلسطين امرا له وجاهته. اذ يروي أنه كان لخليل بيدس موقف خطابي مشهور بعد سنة من صدور روايته تقريبا «وذلك أثناء الحوادث التي وقعت سنة ١٩٢١، ففي موعد مهرجان النبي موسى، التقت الحشود الغفيرة في ساحة باب الخليل بالقدس، فثارت مشاعر خليل بيدس، فألقى

على الجماهير خطابا حماسيا، حرك نفوسهم وهيجهم، فهجموا على اليهود، والتحموا معهم، وقتلوا منهم عددا، فألقت السلطات عليه القبض، وسجنته في سجن عكا أربعة أشهر<sup>(٢٧)</sup>». ومن هنا نلاحظ أن أول رواية فلسطينية، بالمفهوم الواضح للرواية، قد ارتبطت بالقضية الفلسطينية، فالصورة التقليدية لليهود بخاصة الصهاينة أنهم مشهورون بحب المال وهم - كما تنص تعاليمهم - يبذلون الجنس في سبيله وفي سبيل اهدافهم الأخرى، إذ يغرون بالسدج من الناس غير عابئين بالقيم الأخلاقية.

لقد ارتبطت القصة الفلسطينية في نشأتها بالهموم العربية الكبرى، وحاولت أن تعالج الواقع من زوايا متعددة. غير أن هذا الارتباط بالواقع ظل بمعزل عن الاداة الفنية الناضجة. ولا بد لمحاولة التعرف الى تطور الشكل الروائي في فلسطين، من تحليل عناصر الفن الروائي لهذا الاتجاه المتأثر بالذوق الشعبي.

## ب - الأحداث والعقدة:

تميل هذه الروايات الى الاهتمام بالأحداث، على نحو ما نلاحظ في الرواية الخيالية الغربية «الرومانس» والأعمال الروائية الشعبية. فلم تول الشخصيات عناية تذكر، وإنما بدت الشخصيات وسائل لتتابع الأحداث وتعاقبها.

وإذا كان كتاب هذه الروايات - شأن كثير من كتاب هذه الفترة - يدعون أنها واقعية، توها أن الواقعية هي سرد أحداث وقعت بالفعل، مهما كانت مجافية للمنطق وقانون العلية، فان هذه الروايات اعتمدت كثيرا من سمات الرواية العربية في إبان النشأة في أواخر القرن التاسع عشر، ووائل القرن العشرين. ولعل مقدمة رواية «بين الأسر والحرية» لقسطنطين ثيودري توضح قدرا من التناقض، بين ما يرفضه الكاتب، وبين ما يدافع عنه، حيث يقول المؤلف في مقدمة الرواية:

«خير ما يخطه يراع الكاتب، حقائق ينتزعها من قلب بلاده، ويحملها الى الجمهور صافية مستساغة، فيطلع، ويفهم ما فيها، اذ يستشف مرآته منعكسة في كل سطر من سطورها... اعتاد الكثيرون من الكتاب أن ينقلوا لنا قصصا لا تلامس أرواحنا، ولا تمثل صورة جزئية أو كلية من أخلاقنا، وطرائق معيشتنا، وليس ما تستوعبه أكثر من حوادث مستغربة، ووقائع فجائية، وقد تضرر بنا من حيث لا ندري، اذ تبرز لنا صورا من الحياة ولوانها، لا تألفها أذواقنا ومشاربنا، ولا تتلاءم مع جونا ومحيطنا، لأن المرء انما هو ابن جوه ومحيطه، قبل أية



اعتبارات اخرى... والآن أزف الى الجمهور الفلسطيني خاصة والى الجمهور العربي عامة هذه القصة التي جرت حوادثها في ربوع فلسطين. وهي كما يراها القارئ الكريم غريبة في حوادثها، عجيبة في وقائعها، وقد يستغرب بها لبعض ما ورد فيها. وقد يخالجه الشك أيضا في حقيقتها، غير أنني أقول انها هي الحقيقة التي ان زيد عليها نقص منها، اذ ليس غريبا على بلاد الوحي والخيال، أن يقع فيها ما هو أغرب من الخيال، ثم يتكون في قصة تجمع بين سطورها جمال الحب وجمال الموت(٢٨)».

ومن هذه السمات ظهور الصدفة على نحو ما نرى في رواية «الحياة بعد الموت» حيث تتدخل الصدفة في مسار الاحداث تدخلا واضحا كما في اجتماع كل من سعيد ونجيب. وفي معرفة «أديل» مكان زوجها من قبل كامل، وفي علم كامل بمقتل عمه نجيب الى غير ذلك من الصدف. ويمكننا أن نلاحظ اثر الصدفة في رواية «ثرثيا» حيث تتمكن «ثرثيا» من الحصول على الطلاق عن طريق مرضعة تكشف عن علاقة رضاعة بين كل من ثريا وسهيل.

وتبدو الصدفة أيضا في رواية «على سكة الحجاز» في الاتفاق الغريب الذي جعل «غريبة» تتعرف الى ابن عمها - كما كانت تعتقد - أحمد الواسطي، وكذلك في انقاذ أحمد الواسطي لابراهيم، مما قد إلى حب ابراهيم لغريبة. وبوسعنا أن نلاحظ غرابة الاحداث أيضا في كل من رواية «على سكة الحجاز» و «الحياة بعد الموت» وهي تتصل في بعض مناحيها باعتمادها الصدفة على نحو ما أشرنا.

ويبدو كذلك أن الاحداث قد خضعت أحيانا لمنطق العظة والعبرة، على نحو ما نرى في قول نجلاء لعزیز: «دعنا منها، ولا تعد إلى ذكرها يا حبيبي، لأن كل أولئك الممثلات والراقصات على شاكلتها، ولم توجد هذه الفئة في العالم، الا لنصب حباثل الشر والغواية. ومسكين الرجل الذي يتعثر باحدى تلك الحباثل. ولكن الحمد لله لأنك نجوت منها وعدت الى رشدك(٢٩)»

كما تدخل اسكندر الخوري البيتجالي في روايته «الحياة بعد الموت» ليخاطب القارئ مباشرة، موضحا موقفه، ساردا الآراء المختلفة، معللا الوقائع ومفسرا لها، فهو ينتقد الأوضاع السائدة، ويدعو الى الاشتراكية والديموقراطية والقومية، مظهرا ظلم الاتراك للعرب بعامة، والمسيحيين منهم بخاصة. ثم يفرده عددا من الصفحات ليتحدث فيها عن النظم الاجتماعية وساليب الحكم ونحو ذلك.

ولعل رواية «على سكة الحجاز» حاولت أن تبرأ الى حد ما، من فرض الدروس والعبر، ولجأت الى تقديم العبرة بصورة غير مباشرة، عندما صورت عاقبة اميل بك تصويراً مأساوياً، حين لقي مصيره معتوهاً ثم جثة هامدة عند قبر زينب، جزاء جريمته تجاهها، وتجاه الأرض التي باعها لليهود. على عكس رواية «بين الأسر والحرية» التي حفلت بالوعظ الكثير الذي قدمه المؤلف بين يدي تعليقه على الاحداث (٣٠).

وحاولت هذه الروايات الاستشهاد بالشعر في المواقف التي تدعو الى ذلك، على عادة الأعمال الروائية المتأثرة بالذوق الشعبي. الا أن الشعر جاء قليلاً في بعض هذه الروايات، مما يدل على تطور واضح في هذه الروايات بالمقارنة الى الرواية في ابان النشأة، في كل من مصر وبلاد الشام. على نحو ما نجد في رواية «الحياة بعد الموت». ويلاحظ على بعض هذه الروايات ظهور حوادث الاغماء على عادة التراث الشعبي، اذ اغمي على ليل ليلة خطبتها (٣١) في رواية «بين الأسر والحرية».

وقد تنوعت نهايات هذه الروايات، فبينما نجد أحداثاً مأساوية تقع خلال سير أحداث بعض هذه الروايات، نفاجاً بأن الأمور عادت تسير كما يهوى المؤلف. فعلى الرغم من الحوادث المؤلمة التي ألمت بعزيز الحلبي وبأسرته في «الوارث» الا أن الأمور عادت الى السير في صالح الأسرة، عندما تأكدت لعزيز حقيقة الموقف. يقول بيدس في نهاية الرواية:

«وكان الشيخ نعمان قد تعافى من مرضه تماماً، ولكنه اعتزل الأعمال، وسلم جميع أطيانه وعقاراته وتجارته لعزيز فقام بها جميعاً على ما يرام... وبعد سنة من هذه الحوادث رزق عزيز ولداً ذكراً دعي باسم جده نعمان... وكان فرح الشيخ ومرم بالصغير أعظم من فرح عزيز ونجلاء به (٣٢)».

وتحاول رواية «على سكة الحجاز» أن تنتهي بأحداث الرواية نهاية سارة للعناصر الخيرة، ون تفرض على الأشرار نهاية مأساوية. فقد نعم كل من أحمد وغريبة بزواج سعيد، بينما انتهى اميل بك معتوها، ثم جثة هامدة. مع أن أحداثاً مأساوية كانت ألمت بالعناصر الخيرة في سياق أحداث الرواية.

وتنسحب الملاحظة السابقة على أحداث رواية «الحياة بعد الموت» فعلى الرغم من الأحداث المأساوية التي وقعت لعدد من أشخاص الرواية من اعدام واعتداء على الشرف، وتوهم موت زوج. الا أن النهاية تبدو سارة تتفق وطبيعة الذوق الشعبي الذي بدا مسيطراً

على الفن الروائي، وموجها لعناصره المختلفة اذ يحتم المؤلف روايته بقوله: «وما هو الا يوم أو بعض اليوم، حتى أقيمت الأفراح، واستحضر السيد موسى التاجر امرأته من حلب، لتشهد زفاف ابنتها سعاد على الضابط فؤاد ومريم على كامل، واتخذ كل فريق نزلا في المدينة المقدسة...» (٣٣).

ومع أن رواية «بين الأسر والحرية» حاولت أن تقدم نهاية مأساوية، فان هذه النهاية أقرب الى التراث الشعبي، أو الى الرومانسية السطحية التي تبدو واضحة في تراثنا العربي، على نحو ما نرى في قصص العذريين وغيرهم من العشاق. فقد حال موقف الأب دون حياة سعيدة لحبيين انتهى الحرمان بالحبيب الى الحزن المقيم، وبالحبيبة التي أكرهت على الزواج ممن لا تحب الى الموت، مع أن المؤلف ضحى بالشاب المهجري الذي تكره على أنه شخصية شريرة. وربما كانت رواية «الاجنحة المتكسرة» لجبران وغيرها من المترجمات الرومانسية ماثلة في ذهن الكاتب وهو يكتب روايته.

والتأمل في العقدة في كل من هذه الروايات يلاحظ أنها قد بنيت على قصة غرامية تراكمت من خلالها الأحداث. والعقدة في هذه الروايات بسيطة مألوفة، لم تكلف الكاتب جهدا في صياغتها، فالأحداث تسير على وتيرة واحدة، تقطع غير مرة بالوعظ والارشاد وسوق المعلومات، الى أن تبلغ العقدة ذروتها، ثم تنحل برتابة شديدة، نظرا لضعف أدوات الروائي الفنية في تلك الفترة التي نؤرخ لها. الا أن هذه العقدة كانت الوسيلة الممكنة للحفاظ على الشكل العام للرواية، اذ لولاها لكان من المتوقع ان تصبح هذه الروايات أجزاء مفككة تتصل بعدد من الموضوعات والأفكار والخواطر.

### ج - الشخصيات:

واذا كانت هذه الروايات قد اهتمت بالأحداث اهتماما أساسيا، فان الشخصيات لم تكن سوى تابع للأحداث، ووسيلة لوقوعها، فهي تصل بين الأحداث المختلفة دون أن يعبا المؤلف برسمها في الأغلب الأعم. فلا يعني المؤلف أن يتوقف قليلا ليحلل الشخصية، ويدرس جوانبها، ويبرز تناقضاتها، ويفيد من صراعاتها الداخلية، ليقدم بعدها الانساني الواقعي. ذلك أنه ينظر اليها من زاوية أخرى تختلف عن الفهم الواقعي أو الانساني للشخصية.

والشخصية قلما تتطور أو يتغير موقفها، فعزير الحلبي شخصية نمطية، لا يتبدل اقتناعه

على الرغم من وجود المسوغات لهذا التبديل. مما يحول دون اقتناعنا بشخصيته فهو عاجز كل العجز أمام سطوة «استير» التي لم تشمل ارادته فحسب، بل شلت تفكيره أيضا. وهو دائم الملاحقة لأستير مستمرى الخضوع لها، وهي ممعنة في صده وتعذيبه وفي ابتزاز ماله «وكان من اليسير الصبر على ذلك وتأويله، لو كانت محبوبته فتاة ذات تمنع وحياء تستر وراء عفتها وطهارتها، تحمل له من الحب مثل ما يحمل أو بعضه، ثم تتدلل تدلل العذارى، وتتأني تأتي الحرائر. ولكنها من بنات الهوى... موطأة لكل باذل، وعزيز يعلم من أمرها كل ذلك، ويعرف أنها تلتقي بعشاقها في بيته - بيته هو الذي دفع اجرتة - وتحتلي بهم، وتمنحهم من نفسها ما لم يستطع أن ينال بعضه، وتطلب منه دائما المال والأتاب والثياب والهدايا من فراء وعقود وغيرها، طلبا سافراً يدل على الجشع وعلى الاحتراف والامتحان، فلا يتنبه لخداعها في تظاهرها - على قلة - بحبه، ولا لتحايلها عليه في ابتزاز المال منه مستعينة على ذلك بصير في يهودي يغرقه في الديون بوسائل مكشوفة، يتنبه لها الساذج الغر، ولكن عزيزا لا يتنبه، وتطرده استير فيعود متذللا... ثم تطرده فيعود مرة أخرى<sup>(٣٤)</sup>».

فلم يترك المؤلف للشخصية أن تحيا وفق منطقها الخاص، فهي تصبر حين يعجز ذو الارادة عن الصبر، وتغفل حين تبدو الغفلة والسذاجة أقرب الى العته والبله، وتقسو حين تكون القسوة غير مسوغة البتة. لقد ذاق عزيز الحلبي من مكر اليهودية وبناء جلدتها، ومن جشعهم وقسوتهم ما جعلنا في كثير من المواقف نفقد احترامنا لشخصيته. الى أن وجد أن مصلحته في الانحياز الى الفريق الآخر بعد تجربة قاسية. ولعل ذلك يدفعنا الى السؤال: أبدو الشخصية ساذجة الى هذا الحد أم أن المؤلف ضمنها رمزا نضاليا من خلال تجربة انسانية، وبخاصة اذا علمنا أن خليل بيدس كان مشهورا بموافقة ضد مخططات اليهود في فلسطين؟ فلعله أراد أن يجعل «عزيز الحلبي» صورة للسذج من أبناء فلسطين الذين لا يتعظون بمكر اليهود وجشعهم ونانيتهم.

ولم يبد على الشخصيات في كل من «الحياة بعد الموت» و «بين الأسر والحرية»، شيء من التطور، بل ان الشخصية لم تلق عناية من المؤلف بقدر ما كانت وسيلة لتوالي الاحداث. فنلاحظ ان شخصية «فريد» بطل «بين الأسر والحرية» لم تتضح في الرواية. وإنما قدم الينا على أنه شاب مثقف طموح يخوض مع صديقه الأثير «جميل» في مختلف القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية، يجب فتاة حبا صادقا، غير أن الامور تنقلب فجأة فتحيل الحب الى شقاء. اذ يتقدم خاطب ثرى لخطبة ليلي فيوافق الوالد رغم معارضة الفتاة فننتهي الرواية بموت الخاطب الثري «استيفان» والحبيبة «ليلي» ليقف فريد ينعيا الى

صديقه جميل والى صديقتها سلوى نعيًا مطولاً<sup>(٣٥)</sup>. فالشخصية على هذا النحو وسيلة لوقوع الأحداث وتعاقبها. وقد فقدت الشخصيات دورها الرئيسي في «الحياة بعد الموت» التي تقوم على المغامرات والمخاطرات والصدف والمفاجآت. فلم تبد للشخصيات ملاح، بقدر ما وظفت من أجل تعاقب الأحداث. فلا تستقر في أذهاننا شخصية ذات ملاح، بقدر ما نعيش جواً من الترقب والتشويق والاثارة. وذلك ينسجم بوضوح مع طبيعة الرواية الخيالية الغربية، والأعمال الروائية الشعبية. وتتضح هذه الملاحظة في توظيفه شخصيتين، تحمل كل منهما اسم نجيب بغية الاثارة والتشويق. ويمكننا أن نلاحظ عناية نسبية برسم الشخصية في رواية «على سكة الحجاز» وذلك في رسم شخصية «أميل بك» بالذات. فأميل بك رجل ثري اقطاعي يملك المال والجاه، ويتحكم بمن حوله من منظور الاقطاعية الارستقراطية التي ميزت نفسها بميزات اجتماعية واقتصادية وسياسية تعرف بها. ولعل ابرز ما يتصل بـ «أميل بك» هو موقفه السياسي الذي يقوم على خيانة القضية بأبشع صور الخيانة وهي بيع قرية «سته» لليهود، وكذلك موقفه الاجتماعي الذي ادى الى الانحلال الخلقي المتمثل في اعتدائه على زينب ارملة الواسطي الذي قتل في الجندية. وانجابه «غريبة» سفاحاً. ولم يكتف بذلك بل ترك «غريبة» دون رعاية، لتتعهد لها دار اليتام في حيفا، وبلغت وحشيته مداها عندما قتلت «زينب» تحت سناك خيلة. فلعل المؤلف قد نجح جزئياً في تصوير شخصية اميل من خلال افعاله المتعاقبة، فانقل بالشخصية من موقف الصلف والغرطسة، الى موقف الغدر، الى اتخاذ الحيل الخسيسة الى موقف الذلة والمسكنة، الى العته والبله، حتى لقي حتفه على قبر زينب التي ذهبت غيلة وظلماً. ويمكننا أن نلاحظ هذه العناية أيضاً في رواية «ثرثيا» اذ لجأ الى محاولة تحليل الشخصيات الرئيسية<sup>(٣٦)</sup> واستبطانها، وبخاصة في تصوير الصراع الذي ألم بثرثيا بين انصياعها لرغبة والدها وبين الاستجابة لنداء قلبها، وفي تقديم المسوغات الضرورية لنمو هذا الصراع. وقد ربط المؤلف بين سمات الشخصية الخارجية، وبين ملاحظها النفسية ويتضح ذلك في شخصيات كل من سهيل وثابت وثرثيا وم ثابت. وان بدا هذا الربط في حاجة الى العمق مثلما نرى في حديثه عن «سهيل وكان سهيل ربع القامة انيق الملبس حسن الطلعة جميل الوجه، تدل ملاح وجهه على عدم المبالاة والاستخفاف في كل الامور، فهو يرى أن الحياة هزل لاجد، وكان دائماً يقول: وماذا يفيد الجد في حياة اخترتها عليك لا لك»...؟<sup>(٣٧)</sup>

ويظل رسم الشخصيات قائماً على الثنائية المطلقة بين الخير والشر الى حد كبير، فهي أما بيضاء ناصعة، أو سوداء قاتمة، من خلال وجهة نظر مثالية، تألى أن تنظر الى

الشخصية نظرة واقعية. وإذا حدث شيء من التغير فإن سببه هو الجزء الحتمي للمسيء، وليس التحول في طبيعة الشخصية من الداخل، فقد أرغمت الشخصية على ما وصلت اليه ارغاماً.

نلاحظ في رواية «الوارث» أن ثمة شخصيات نقية تتمثل في الشيخ وزوجته وابنته، بل انها تتمثل في الابنة بصورة مطلقة، فهي تحتل كل ما يختلف عليها من هموم برضا واستسلام مغبط، دون أن نحسّ ثمة صراعاً يتأجج في نفسها. كما أن ثمة شخصيات سوداء قائمة تتمثل في «استير» والعجوز «راحيل» و «ناتان» الصيرفي المرابي، وبائع الآلات الموسيقية.

وربما حاول البيتجالي أن يغير من موقف الشخصية تغييراً خارجياً، لم يقنعنا بصدقه، على نحو ما نرى في شخصية «كامل» الذي اغتصب أرملة سالم الذي شنقه الأتراك، وترك ابنته التي ولدت سفاحاً تموت جوعاً. فقد عاد المؤلف بكامل الذي تحلى عن ضحيته، وتنكر لها، ليقف أمامها يتلقى تقريرها وتوبيخها. وليتزوجها فيما بعد تكفيراً عن خطيئته. وقارىء الرواية لا يحس بصدق موقف كامل، بقدر ما يشعر أن المؤلف أراد أن يتخلص من كراهية سعاد لابن عمها كامل، ليتيح الفرصة أمام الضابط فؤاد ليقترن بها<sup>(٣٨)</sup>.

أما في رواية «بين الأسر والحرية» فقد أقام قسطنطين ثيودري مقابلة استقطابية بين كل من «استيفان» الشاب الثري، وبين فريد الشاب المثقف الطموح، وبدل أن يضحى المؤلف باستيفان، شاء أن يضحى أيضاً بالحبيبة المضطهدة. ولعل صورة الحل متأثرة بما صنعه جبران مع «سلمى كرامة» في «الأجنحة المتكسرة».

ولعل التغير الذي ظهر في شخصية «اميل بك» كان متصلاً بفكرة الجزء من جنس العمل، وليس التحول في طبيعة الشخصية من الداخل. الا ان جمال الحسيني يظل في هذه الرواية أقدر على تصور العلاقات الانسانية من زملائه، اذ حاول أن يربط بين المهندس ابراهيم وهو الذي يمثل «اميل بك» نسباً ومكانة اجتماعية، وطبقة، وبين غيره من الناس العاديين، مثل كاتب السكة الحديد أحمد الواسطي ابن أخي محمد حسن الواسطي زوج «زينب» وابن عم «غريبة» كما كانت تنوهم هي و ابراهيم. بل يرتبط بعلاقة حب مع «غريبة» فتاة الملجأ. ويحاول الكاتب أن يوحد بين أحمد و ابراهيم من خلال النضال المشترك، اذ يجرح أحمد في الثورة، ويحاول أن ينقذ ابراهيم. ولعل الكاتب قد وفق نسبياً في محاولة عدم التورط في الثنائية المطلقة. وفي تصويره لطبيعة الاصلاح الذي يبدأ من نقاط الضعف، ومن مكامن الخطيئة والانحراف.

ويبدو أن بعض صور الشخصيات في القصص الشعبي قد ظهرت في هذه الروايات، على نحو ما نرى في شخصية «راحيل» اليهودية عمه «استير» التي تولت اقناع «ناثان» الصيرفي بتدبير أمر «عزيز الحلبي»، وكذلك في شخصية «فدوى» التي لجأ إليها «اميل بك» لتسعى بالوشاية بين أحمد وغريبة، ولتقنع «غريبة» بأن أحمد يجب ابنتها لتحويل دون زواج أحمد من غريبة. وهذا ما يذكرنا بصورة «العجوز» في ألف ليلة وليلة، وفي غيرها من قصصنا الشعبي.

#### د - السرد والحوار:

اعتمدت هذه الروايات الأسلوب الملحمي في السرد، شأن الأعمال القصصية التراثية، وكثير من الأعمال الروائية التقليدية. فالروايات تروى بضمير الغائب، والأحداث تتوالى زمنياً، دون تركيب أو تداخل. وذلك ينسجم مع طبيعة الأدوات الفنية التي توسل بها كتاب هذه الروايات.

وقد بدا الحوار تقليدياً لا يفيد في البناء العام، ولا يساعد في الكشف عن طبيعة الشخصية، ولا يميز شخصية من أخرى سواء أكان ذلك من حيث النفسية أم الفكر أم الثقافة أم المستوى الاجتماعي، بل هو وسيلة تضاف الى أسلوب السرد الملحمي. وغالبا ما يأتي الحوار بمستوى المؤلف، وفي اطار لغته الخاصة.

وقد حاول الكتاب أن يفيدوا من استخدام علامات الحوار في القصة الحديثة، ون يتجاوزوا، الى حد ما، أسلوب الرواية في التراث من مثل «قال فلان وقال فلان» غير أن هذه الافادة ظلت شكلية بمنأى عن الهدف الأساسي الذي توظف من أجله. تقول استير لعزيز الحلبي وهو يشرق بدمعه:

- ولم البكاء أيها الطفل؟ ان عمك يريد أن يزف اليك ابنته فلا تمنع وليكن جوابك بالقبول.

- قال - ونت تقولين لي هذا ايضا؟

- قالت - نعم، لأنك اذا خالفت أمره يجرمك تركته كلها، وحينئذ فما فائدتي منك ونت صفر اليدين؟ (٣٩).

وقد مالت لغة هذه الروايات الى لغة الاعمال القصصية في التراث، وتكررت العبارات

التمطية التقليدية كما رأينا في خاتمة «الحياة بعد الموت». ويلاحظ الدكتور ناصر الدين الأسد<sup>(٤٠)</sup> على رواية «الوارث» وجود «عبارات محفوظة، احت دلالاتها لكثرة تكرارها، حتى اصبحت قوالب جامدة» مثل قوله يصف استير:

«وقد افرغ عليها الشباب أجمل حلله، فأصبحت ابهى طلعه من شمس الضحى، ورق لطفاً من نسيمات السحر» ومثل قوله يصف نجلاء: «كالخيزران قامة وكالبدر طلعة». وهي عبارات مألوفة في اساليب الوصف في التراث القصصي. ومن الملاحظ على هذه الاعمال الروائية بعامة أنها تميل الى الركافة، وتشكو من ضعف من مستويات التعبير اللغوي. ويمكننا أن نميز اسلوب جمال الحسيني في «ثريا» و «على سكة الحجاز» بقوته ووضوحه في الأغلب الاعم مع أنه لا يخلو من بعض الهنات التي أشرنا إليها. وقد ظهرت آثار ثقافته التراثية في أسلوبه، من الشعر العربي القديم والقرآن الكريم والحديث الشريف على نحو ما نرى في تصوير العلاقة بين سهيل وثابت:

«أما الآن وقد رآه رجلا تام الرجولة، يتقدم برصانة وتعقل فطر عليهما، لينتزع من بين يديه ايقونته الذهبية، فقد احسن بالكره الشديد يملاً قلبه، ويسري في جميع أعضائه وخذ يفكر! فماذا يصنع؟! يجب أن يصلية نارا حامية، ويعلن عليه حربا عوانا»<sup>(٤١)</sup>.

### ثانيا: اتجاه السيرة الذاتية:

يصعب علينا أن نجد في هذا الاتجاه رؤية واضحة للفن الروائي بعامة، أو لمذهب أدبي معين، غير أننا نجد اسلوبا روائيا معينا يميز هذا الاتجاه هو اسلوب السيرة الذاتية، ويمكننا أن نلاحظ أن العناية قد وجهت الى الشخصية، وهذا يعني امكانية بروز الذاتية التي تبدو من أهم اركان الرؤية الرومانسية للأفكار والشخصيات والاحداث. فقد ارتبطت الرؤية الرومانسية ابتداءً بالتحليلية، ومحاولة التعرف الى النفس البشرية.

وبوسعنا أن نزعم أن هذا الاتجاه، يقدم صورة لآلام النفس ومعاناتها، غير أنه لا يتعمقها، وربما كان القارئ قادرا بعد أن يأتي على العمل الروائي، أن يعيد تركيب الشخصية، وان يتعمق في تحليلها. فقد تمثل هذا الاتجاه بكاتبتين اتاحت لهما تجربتهما الشخصية أن يقدمتا تجربة روائية صادقة، على ما اعتور كلا من هاتين التجريبتين من ضعف في الأدوات الفنية، وفجاجة في العرض، ومباشرة في القص والتعبير. فحسن البحيري كتب روايته «رجاء» مستلهما حياته الشخصية التي حفلت - كما يشير هو - بألوان الآلام



والمصاعب والازمات والكوابيس المرعبة، فحاول أن يصور هذه الفترة - وخاصة فترة طفولته - دون تصور معين للفن الروائي، فلم يقرأ كتابا في فن القصة أو الرواية، ولم يتلمذ على أحد نقديا أو ابداعيا، وربما كان في ذهنه وهو يكتب هذا العمل بعض المترجمات الرومانسية. ثم إنه تأثر تأثرا مباشرا بكتاب الايام لطفه حسين، ويذكر البحيري أنه كتب روايته «رجاء» عام ١٩٣٩ وهو لم يتجاوز العشرين عاما<sup>(٤٢)</sup>. ولعل كتابته هذه الرواية وهو قريب عهد بأحداث طفولته قد جعل الملامح الرومانية فاقعة، تتسم بقدر من الفجاجة. ولو أنها كتبت في فترة متأخرة، لبدت أعمق، غير أنها كما يقول تجربة حقيقية أراد أن يقدمها للتاريخ دون زيادة أو نقصان<sup>(٤٣)</sup>. وقد ساعدت شاعريته ولغته الأنيقة في أن تزهر هذه الملامح الرومانسية.

وكتب محمد العدناني روايته «في السرير» كما يقول، اثر مرض أصابه عام ١٩٣٥ وشفي منه عام ١٩٣٨، وانتهى من كتابة هذه الرواية عام ١٩٤٦.

أ - الموضوعات:

تضمنت كل من هاتين الروايتين سيرة ذاتية للمؤلف، وان اختلفت كل منهما في طبيعة الزاوية التي تحدثت منها. فرواية حسن البحيري حاولت أن تتحدث عن حياته في فترة الطفولة والفتوة بصورة عامة. ومع ان مسيرة احداث الرواية لم تتعاقب تعاقبا زمنيا تاما الا انه يمكننا ان نعيد ترتيبها حتى نتعرف الى حياة «رجاء» بطل الرواية.

عرف «رجاء» الحياة في عام ١٩١٨ حيث توفي والده، ولم يتجاوز بضعة شهور في أحشاء أمه، عانى «رجاء» الحرمان في طفولته، وما زال يذكر كيف كانت أخته تُعنى به، تسليه بجبات العدس التي كانت تنتشر وسط قدر كبير، ويذكر بمرارة شديدة أيامه البائسة في بيت زوج أمه الذي كان يدعوه بأبيه في قرية «سلمة». فقد عاش في كنف زوج أمه عيشة قاسية، ذاق صنوف الآلام والأهوال، حتى كان يوم حفر في ذاكرته ذكرى أليمة. فقد اصطحبه زوج أمه خارج القرية. الرجل يركب أتانه وهو يعدو خلفه وفي الحقل حمله الرجل بين يديه وحاول أن يلقي به في جب مهجور، وجهد الطفل في محاولة الافلات منه، «أدناني من حافة البئر.. فصرخت صوتا هز تلك الأرجاء، ما رأيتني الا على فراش مبسوط على الأرض في بيت جازنا (أبي شاكر)» أما زوج الأم فقد صاح به أبو شاكر - لما تبينه يلوح بالطفل للاقائه بعزم الى غيابات البئر - «صيحة أرعدت فرائصه والزمته من ذلك اليوم فراش مرض ما عرف له طبيب دواء... ولا هان له ألم... الى أن أفضى الى ما

قدم...» (٤٤) لقد أصرت أمه اثر هذه الحادثة على الطلاق، لتعود الى المدينة تغسل الثياب من أجل اعالة طفلها.

ويلتحق «رجاء» بالمدرسة، فيكون مثال الطالب المتفوق الخلق. الا أن «رجاء» ظل - وهو في المدرسة - يحمل هم العيش فكان يعمل في مهن مهينة من أجل أن يسد رمقه ورمق امه. أتم رجاء السنة الرابعة الابتدائية ليعين أخيراً عاملاً مساحاً في قسم الجر بسبكة الحديد، براتب قدره ثلاثة جنيهات ونصف. عندئذ ابتسمت له الحياة، وراح يقضي أوقات الفراغ حالماً متأملاً، فأخذ يؤم حديقة وادي الأحلام التي تناسب شاعريته وحساسيته. وفي هذه الحديقة يلتقي «رجاء» بجمال الذي كان يكبره في المدرسة بخمس سنوات. وعرف أنه قد اتم السنة الثانوية الثانية وعمل كاتباً في البريد. وتتوطد بينهما صداقة متينة. وما يلبث جمال أن يفصل من عمله، ويطوف يبحث عن عمل يتصل بهويته وهي تصليح السيارات. فحاول «رجاء» أن يعين صديقه «جمال» دون أن يشعر فعندما أعيت جمالاً الحيل، وسدت في وجهه السبل تدخل «رجاء» بمثالية نادرة فيراسل محلاً لتصليح السيارات يقنع به صاحبه أن يعطي «جمال» خمسة قروش في اليوم مقابل عمله، على أن يدفع «رجاء» هذا المبلغ لصاحب المحل. ويستقر «جمال» في هذا العمل ويحصل على وظيفة، ويزداد مرتبه، وهو لا يعلم ماذا فعل من أجله «رجاء».

غير أن جمال تنكر له دون سبب معروف، وتقوده رجلاه الى بيت جمال فيهبأ به عاصم صديق «جمال» دون تفسير. ويمرض «رجاء» مرضاً خبيثاً يفصل على اثره من العمل دون مكافأة، وبهم هو ومه يتضوران جوعاً. ومما زاد الطين بلة أن أمه قد أصيبت بالعدوى هي الأخرى. فراحا ينسلان باتجاه القصر يتسولان، وداوماً على ذلك الى أن انقطع مصدر قوتهما برحيل سكانه، واشتد الخطب فداحة باصابة «رجاء» بفقد البصر. ثم باصابة الأم بجرح غائر في قدمها نتيجة شظية زجاجه. لم تستطع الأم أن تعالج جرحها، فطبيب الحكومة يعالج أعداداً غفيرة تحول دون الوصول اليه. الى أن حانت فرصتها الذهبية للعلاج عندما نفع أحد المحسنين «رجاء» عشرة قروش كاملة. وجاء الصيدلي الانسان بالدواء مجاناً على العكس من الطبيب الجشع الذي رفض أن يرد لهما قرشاً واحداً.

ويحاول حسن البحيري أن يفسر الأحداث السابقة تفسيراً جديداً باصطناع قصة جديدة تبدو فيما يلي: وعندما أحس «بشيء» من الراحة، يم شطر حديقة وادي الأحلام، ليستعيد ذكرى صفو الأيام الخالية، غير أنه يصدم بالحقيقة المرة، فيستمع الى قصته

الحقيقية من عصام صديق جمال وهو يرويه لفكري، بينما كان الاثنان ينتظر ان «جمال» ليقلهما بسيارته لسماع مطربة في احدى الملاهي قبل أن تغادر الى بلدها في الغد. وتعرف الى قصة عصام فقد كان أبواه خادمين في قصر البليك «وجدي» ابن أحد التجار الذين أنشأوا مراكز تجارية لهم في الهند. أرسله والده ليفتتح فرعاً، ولما كان «وجدي» عابثاً فقد أوقع بفتاة ثرية تدعى «وداد» بعد أن أغراها بمعسول الكلام في غابة خارج المدينة فأنجبت طفلاً في عيادة طبيب مختص بالولادة والأمراض النسائية. فطلب الى عاصم الذي كان يعمل «ميكانيكياً» في محل لتصليح السيارات أن يأخذ الطفل ويلقيه فيه الغابة. ألقى عاصم الطفل في نخب في جذع سنديانة فالتقطته امرأة حاطبة وتبعها حتى عرف بيتها. وانتقل عاصم مع وجدي بك الى دمشق طيلة ثمانية عشرة عاماً، ولما مات «وجدي بك» عاد عاصم ليعمل في الشركة التي يعمل فيها جمال، فانعقدت بينهما أواصر الصداقة وطلعه بالتفصيل على حياة «رجاء» فقطع جمال علاقته بصديقه رجاء بعد أن تبين أنه «ابن سفاح». وعندما يفاجيء «رجاء» أمه بذلك، تصارحه بحقيقة الأمر، فيكتشف أن ما كانت تقوله له غير صحيح، ويدرك سر تهربها من اجابة أسئلته حول والده وعائلته. وادرك أن اخته التي كانت تطبخ له العدس محض خرافة. ولا تقف الأمور عند هذا الحد. فالأم نفسها تدفن في أعماقها قصة شخصية هي الأخرى. فهي من أسرة لبنانية هاجرت الى القاهرة، وفي احد الايام قررت أسرتها أن تسافر الى لبنان للأصطياف الا أنها آثرت البقاء الى جوار أسرة عمها، حتى تعود أسرتها من المصيف. غير أن الأسرة لم تعد، حيث فقدت على ظهر باخرة محترقة. عندئذ خلا الجو لعمها الذي أثبت زورا أن ابنة أخيه غير متمتعة بقواها العقلية. فتغادر الاسكندرية الى اللاذقية ومنها الى هذا البلد لتعيش مشردة، حتى تأوى الى بيت عجوز تعطف عليها وتقاسمها فيه الحياة، لتستقر في هذا البيت بعد أن وهبته لها عندما أدركتها الوفاة. وما ذهابها الى القرية فكان بعرض من رجل أراد أن يؤويها الى جانب أسرته.

ولكن الرجل ما لبث أن رغب في الزواج منها فكانت تتعلل بحرصها على رجاء مما دفعه الى الانتقام منها. وتشتد وطأة المرض، كما تشتد وطأة الحاجة، الى أن تبعث العناية الالهية بممرضات متدربات ترأسهن ممرضة تدعى وداد، فيتعرفن الى ما كان يعانين من آلام، فتشرف الرئيسة بنفسها على علاج المريضين من مالها الخاص، وتشتري لهما الغذاء والدواء، ثم حرقت الأثاث وجددت ما في الغرفة الحقيرة. بل نقلتهما اخيراً الى المستشفى حيث فاضت روح الأم، ثم ما لبث «رجاء» أن ودع الحياة بين أحضان هذه الرئيسة الانسانية. بعد أن انعقدت بينهما أواصر قرى روحية. لقد كانت هذه الرئيسة هي أم «رجاء»

الحقيقية، التي راحت تتذكر وجدي الذي غرر بها حتى قادتهما الشهوة القاتلة الى هذه المأساة الرهيبة.

أما محمد العدناني فقد التزم في روايته « في السرير » جانباً من حياته الشخصية، ارتبطت بالفترة التي عانى فيها من مرض عضال، هو وجود أكياس طفيلية في رثته. وقد اتخذت الرواية الى جانب شكل السيرة الذاتية شكل الرحلة أيضاً. يغادر العدناني الذي يعمل معلماً في فلسطين تحت وطأة الألم الممض الى مصر، حيث يدخل مصحح حلوان للأمراض الصدرية، توها من الأطباء بأنه يعاني مرض السل. ولكن بعض الاطباء يقررون فيما بعد أنه بريء من هذا المرض. ويثبت لطبيبه في « قصر العينى » أنه يعاني من أكياس طفيلية في رثته، فيسافر الى ألمانيا حيث يقوم على تنفيذ العملية عميد الجراحين الألمان فتنجح العملية بعد انتكاسات اوشك فيها على الهلاك، ويغادر الى الاسكندرية حيث زوجته وولده، ثم يتابع سفره الى فلسطين حيث يحيط به الأهل والأحبة مستبشرين مرحبين، غير أن الألم يعاوده، فيحس أنه، هذه المرة، هالك لا محالة ولم يكن شعور مودعيه بأحسن حالا. ان رثته اليمنى تعطلت عن العمل بسبب العملية الأولى، فكيف اذا توقفت اليسرى. وعلى ظهر الباخرة يسعل سعالاً شديداً فيحس أن شيئاً قد انقذف خارج رثته، وفي برلين يقف بين يدي الجراح فيفحصه فاذا هو بريء من الأكياس الطفيلية التي أثبتتها صورة الأشعة المرسله من فلسطين الى برلين. لقد ثبت أنه قذف الأكياس الطفيلية خارج رثته فعلاً. فعاد الى بلده من جديد ليشفى من المرض نهائياً، فلا يعاوده بعد ذلك الحين.

## ب - الاحداث والعقدة:

ان من يتأمل أحداث رواية «رجاء» يلاحظ أن المؤلف قد نجح في تصوير الحياة الاجتماعية من خلال أسلوب السيرة الذاتية الذي اصطنعه. وقد جعل للاحداث مغزى واضحاً في الوصف وفي تحليل الشخصية. ولو أنه جعل الأحداث تتنامى من خلال الأحداث الحقيقية لحياة الشخصية، مع الافادة من منطق الفن الروائي، لأمكن له أن يقدم رواية متماسكة الى حد ما، مقنعة في أحداثها، متميزة بالحس الانساني في تحليل الأحداث، وما ترمز اليه من مبادئ وقيم انسانية. غير أن القفلة الشكلية التي اختارها للرواية جعلته يفتعل ويتمحل، حتى أفلت خيط الأحداث الرئيسي من بين يديه، وراحت المفاجآت والمغامرات والغرائب والصدف تسيطر على الاحداث، فبدأنا في نهاية الرواية نحسن بجو

التأليف الروائي في أواخر القرن التاسع عشر عند جيل الرواد يسيطر على أجواء الرواية. فقصه وجدي ووداد غاية في الغرابة؛ فما أن نتعرف الى بعد من أبعادها حتى نتعرف الى بعد جديد أكثر اغراقا في غرابته. فوداد أكثر من مجرد رئيسة ممرضات، انها فتاة أرستقراطية تملك المال وتنفقه في وجوه الاحسان، وتعيش في أعماقها مأساة مروعة. ووجدي ينتقل من فلسطين الى الهند ثم يعود من جديد ليرتحل الى دمشق حيث يموت. وخيرا قصة الأم «المتبينة» الغريبة العجيبة

لقد أدى حرج المؤلف أو رغبته في خلق عوالم خيالية اضافية للعوالم الحقيقية التي يعرفها، إلى أن يفلت زمام الأحداث من بين يديه، ليهم على وجهه دون غاية محدد، وليعتسف بأحداثه المسالك الفنية دون دليل، فوقع في مزالق خطيرة كان يمكن له لو افاد من القيم النقدية للاعمال الروائية أن يتجنب كثيرا منها، ون يبرأ عمله من مشاكل كثيرة تؤخذ عليه.

وقد حاول البحيري أن يقيم عقدة روايته حول حياة الشخصية على عادة الروايات التي تصطنع شكل السيرة الذاتية. فلم تقم عقدة الرواية على علاقة غرامية، بل جعل علاقته بصديقه تبدو بمثابة العقدة التي تتجمع في بؤرتها خيوط الأحداث المختلفة، وظلت هذه العلاقة هي التي تشد الأحداث بقوة حيناً، وبوهن حيناً آخر. فعلاقته بأمه وزوجها، وعلاقته بالمدرسة، وعلاقته بالسكة الحديد عاملا فيها، وعلاقته بصديقه «جمال» ثم مرضه ومرض امه واخيرا قصة العلاقة بين وجدي ووداد، دعت المؤلف الى محاولة تفسير الأحداث التي تتجه وجهة مختلفة، وهي الأحداث، الحقيقية التي تربط بالمؤلف نفسه. ان التزام الواقع ليس هو المعول عليه في كتابة قصة فنية، ترتبط أحداثها بمنطق السببية، وبوشيجة العلاقة الانسانية، وانما كان التزام الواقع في رواية البحيري «رجاء» عامل تسديد لخطاه عندما توشك خطاه أن تنتكب الطريق. وكنا نتوقع أن يكون البحيري أكثر توفيقا، لو انه أعاد تشكيل الواقع من خلال تخيل فني، يستند الى دراية بالاصول الفنية للرواية الجيدة. ولكن افتقاره الى مثل هذه الدراية جعلنا نتمنى لو أنه ظل ملتزما الى حد ما بأحداث الحياة الواقعية للشخصية.

أما العدناني فقد أقام عقدة روايته حول مرضه الخطير الذي استطاع أن يمثل عنصر التشويق بكفاءة. فنحن معه ازاء طموحه وشواقه وحب الحياة التي لم يذق منها ما يشعره بالرضا. فقد استطاع أن يربط بينه وبين الأحداث بعلاقات انسانية من خلال شخصيات

مختلفة من مختلف الطبقات الاجتماعية. فلم يجعل قضية المرض المحور الوحيد لاهتمامه، وان كانت المحور الرئيسي، فاستطاع أن يقدم شخصيات مختلفة، ولكنها، جميعا، تقدم أبعادا انسانية تلمس أوتار النفس الانسانية وتذكر مكامن أوجاعها. كما نجد في ربطه بين مرضه وبين عدد من المرضى الاشقياء الذين ما ان يتعرف اليهم وتصبح بينه وبينهم صداقة حقيقية، حتى يغييهم الثرى الواحد تلو الآخر، على نحو ما رأينا في مصحح حلوان، وفي قصر العيني.

وقد خضعت أحداث هاتين الروايتين لعدد من السمات على تفاوت بينهما في بروز سمة دون أخرى، وفي غلبة هذه السمات ووضوحها.

حاولت الروايتان أن تتحدثا الى القارئ مباشرة كما نرى في قول البحيري مثلا: «قص علي البائس المرحوم «رجاء» هذه القصة بحديث قطعته الزفرات، ووصلته العبرات، قال، ندى الله ثراه»<sup>(٤٥)</sup>. وفي مثل قوله موجها حديثه الى القارئ:

«ولعلها تحركت في نفسك رغبة في أن تعرف لماذا كتمت نبأ ما خبأت من نقود عنه وعن أمي، ثق أنني لم أكن أعلم لذلك سببا»<sup>(٤٦)</sup> ويقول أيضا: «قد تسألني قبل أن أنتقل بك الى حديث غير حديث المدير: ألم يرغب يوما في رؤيتك؟ فاجيب:...»<sup>(٤٦)</sup>

وقد ظهر تدخل المؤلف المباشر في رواية «في السرير» بصورة حادة، إذ أن المؤلف كثيرا ما ينسى أنه يكتب رواية فيتوجه بخطابه الى القارئ من مثل قوله: «وتمنى لو طال به الأجل عاما واحدا أو بضعة أشهر، ليوفي الحياة حقها من شعره ونثره، وليدعو بني قومه الى الارتشاف من كأسها بلذة دونها كل لذة، وليفهم مواطنيه أن موجة اليأس التي تكتسح نفوسهم، اذا لم يهاجموها بالعزم والايمان بحقهم في الحياة، ضاع وطنهم من أيديهم، وتلاشى كل أمل لهم في الحياة السعيدة»<sup>(٤٧)</sup>. وفي قوله مثلا: «يجب أن لا نلوم مصر الشقيقة، وعرين العروبة على ما يرى فيها من المبكيات، في عهد كان سيف الامتيازات الأجنبية مصلتنا فوق عنقها، ومعظم الأجانب يلبسون وجوها صفيقة من القنحة لا يمكن أن تنفذ خلالها أشعة الحياة»<sup>(٤٨)</sup>.

ويمكننا أن نلاحظ على أحداث الروايتين وجود الاستطراد، غير أنه يظل نادرا في «رجاء» وفي القسم الأول منها بخاصة. بخلاف «في السرير» التي يبدو فيها الاستطراد واضحا. على نحو ما نلاحظ في حديث البحيري عن أسرة صديقه البطل «جمال»<sup>(٤٩)</sup>، وفي تعليقه على الحالة الاجتماعية لكل منهما<sup>(٤٩)</sup>. وربما يبدو الاستطراد مقصودا دون أن يؤدي غاية فنية في الرواية مثل ما نراه في قصة «وجدي بك» وسرته، وما يتفرع عنها من

ذكريات وحدث. (٥٠) أما رواية العدناني - كما أشرنا - فقد حفلت بالكثير من الاستطرادات التي تقطع سياق الأحداث أحيانا من مثل حديثه عما دار بينه وبين نزلاء المستشفى من نكات. اذ يقول المؤلف عن أحد النزلاء: «ومن نكاته التي حدثت له على مرأى من طريف ومسمعه النكات الثلاثة الآتية:-... (٥١)».

وقد عقب المؤلف على هذه النكات بتعليق يشبه المقالة ضمنه قرابة صفحتين تناول فيه طبيعة كل من الشعب المصري والشعوب العربية الأخرى (٥٢)، وكما نلاحظ في حديثه عن مصحح حلوان اذ يقول: «هناك أمور في مصحح حلوان، لا يرى طريف بدا من ذكرها...» (٥٣)، أو في حديثه عن «الألقاب في مصر» (٥٤) حيث اشار في هامش الطبعة الثانية بقوله «حذفت اليوم في عهد اللواء محمد نجيب» وهكذا...

ويقترن بالاستطراد فرض المعلومات على الأحداث. ولعل البحيري لم يلجأ الى ذلك الا نادرا، ويبدو فرض المعلومات هنا أقل مباشرة من مثل حديثه عن اعجاب «رجاء» بشعر «ابن حمديس الصقلي» (٥٥) او روميات أبي فراس (٥٦). الا أن فرض المعلومات يبدو صارخا في رواية «في السرير» من مثل حديثه عن معاملة المصريين الطيبة لوافدي اليونان (٥٧). وحول ظاهرة (البقشيش) وتفسير أسبابها (٥٨)، أو حديثه عن معلومات طريف الطيبة (٥٩)، وفي حديثه عن الامجاد العربية وعن أحلامه باستعادتها (٦٠).

ولعل أظهر ما يبدو في رواية العدناني نقده لكل من هو أجنبي، وخاصة اليهود والانجليز، ولا يستثنى أحدا من الذين تواطأوا على تهويد بلاده، وعلى استعمار الأمة العربية من طليان وفرنسيين ولمان وغيرهم.

الا أن البحيري - وان كان من الناحية الشخصية ينطلق من الفكرة ذاتها - لم يأت على ذكر الأجنبي طويلا، ولعل لذلك صلة بالزمن الذي كتبت فيه الرواية فرؤية الكارثة ربما كانت أقل وضوحا امام عيني الكاتب، وهو في العشرين من عمره تقريبا، وربما كان ذلك يعود الى سبب فني كان يحسه الكاتب. الا أن ذكره العابر للتغلغل الأجنبي في السياق كان أوقع في نفس القارئ، من مثل حديثه عن محاولة كسب عيشه وهو تلميذ في المدرسة الابتدائية: «وكنت اثناء العطل، وخلال الفرص المدرسية، وبعد الانتهاء كل يوم من ساعات الدراسة، أحمل كيسا من الخيش، أضرم فمه بيدي الصغيرتين، والقي ببقيته الى ظهري، واجوب ازقة المدينة وشوارعها، ألأم من أوعية الزبالة، قطع الزجاج المكسور، أو أمضي الى احدى مزابل المدينة، فأجمع من عظم جيف الحيوانات ما أحظى بجمعه، ومن قطع الأواني

الزجاجية المكسورة ما أطبق جمعه وحمله، ثم أمضي الى مخزن يهودي فيشتري مني جهد يومي، وطاقه طفولتي بأجنس ثمن.. (٦١) ولله كم كنت أقاسي من جراح يدي الضعيفتين وقدمي العاريتين.. ايه انه العوز الملح والفقر المدقع والجوع القاتل» (٦٢) فقد أوحى اليها في حديثه السابق بما كان يتمتع به اليهود من مكانة تجارية يستطيعون بها أن يستغلوا كدح الاشقياء.

أما العدناني فقد أسهب في الحديث عن الامتيازات الأجنبية، وسياسة الاستعمار، وخطط الصهيونية، على نحو ما نرى في حديثه عن مديرة المستشفى الانجليزية (٦٣)، وعن اليونانيين المقيمين في مصر (٦٤)، وعن شراء اليهود للأراضي (٦٥)، وعن موقف ايطاليا من الحبشة وليبيا (٦٦)، وجشع اليهود ومحاولة حصولهم على المال بأحط الوسائل (٦٧)، وعن شح الغربيين والبولونيين بخاصة (٦٨)، ومحاولة بث اليهود الدعاية ضد العرب، فضلا عن امتهان النصب والاحتيال (٦٩)، وعن مضايقة الشعب الألماني لليهود ماديا وسياسيا (٧٠).

ومما يلاحظ عن الأحداث ظهور عنصر الصدفة. فالصدفة المحضة هي التي جعلت أحداث رواية البحيري «رجاء» تتجه وجهة أخرى. فلولا وجوده في حديقة وادي الاحلام، لما استطاع أن يعرف حقيقة شخصيته من فم «عاصم» (٧١).

ولعل محاولة العدناني «الالتزام بأحداث قصة مرضه» قد ساعدت على عدم بروز عنصر الصدفة في روايته، وان كان الالتزام بالواقع الفيزيائي لا يحول دون تسرب عنصر الصدفة فنيا.

وتبدو الغرابة في أحداث هاتين الروايتين من مثل حديث البحيري في «رجاء» على لسان وجدي بك لعاصم حول الطفل الذي ولد لتوه (٧٢):

« حاذر أن يراك أحد عند القائه  
لا تدع بك مجالا لشك أو لريبة  
لا تضطرب في سيرك  
لا تكثر التفاتك  
ناغة.. كأنك أخ يحمل أخاه الى امه  
اضحك له كأنك تداعبه

وهذا لا ينطبق الا على طفل بلغ عدة اشهر.



أو في حديث عاصم عن رغبته في أنه لو دق عنق «رجاء» عندما ألقاه في الغابة (٧٣). وفي تكرار ذلك لأنه ابن سفاح (٧٤). وظل التزام العدناني بأحداث مرضه يساعده على تجنب ما يمكن أن يقع فيه الذين يجنحون مع أخيلتهم دون تصور موضوعي لأحداث الواقع. ويمكننا أن نسجل ملاحظة على هاتين الروايتين أيضا تتصل بالتنبؤ بما سيكون، والايحاء بذلك على نحو ما نرى في حديث البحيري عما سيأتي من أحداث. يتحدث الراوي عن كل من رجاء والمرضة وداد: «وخرجت من الغرفة بعد ما أدت لي كرسيًا من سرير رجاء، فصافحته وجسست نبضه، فإذا به خير من الأمس، فارتحت لذلك، وما علمت آنذ - والوعتي عليه - أنها كانت ابلالة المريض وهو على وشك وداع الحياة (٧٥)».

غير أن التنبؤ في رواية العدناني أُلصق بالتخطيط الفني للرواية، مع ما في حديثه من إثارة الشفقة، واحساس بفداحة المأساة: «ثم ذهب مع المريض الألماني الى السوق، فقاس نفسه في تابوت خشبي دفع عنه عربونا، على أن يسترد اذا كتب له الشفاء. ثم ذهب الى مكتب للسياحة، اتفقا معه على ايصال التابوت الى ميناء حيفا خلال مدة لا تزيد عن أربعة أسابيع. فاذا قيص له الشفاء استرد المبلغ المدفوع، والا دفع صندوق المستشفى الذي أودع طريف لديه دراهمه، الأجرة الباقية...» (٧٦). وما يلاحظ على الروايتين أنهما استخدمتا الشعر في التعبير عن الشجو حينًا وعن الحكمة البالغة حينًا آخر (٧٧) ومن الملاحظ أن الشعر في كل منهما يبدو من نظم المؤلف حينًا ومن محفوظه حينًا آخر.

وإذا كانت الروايات الرومانسية تنتهي بفاجعة يموت اثرها الحبيبان أحيانًا، فإن النهاية في كل من هاتين الروايتين قد جاءت مختلفة عن الأخرى. فرواية البحيري انتهت بفاجعة مروعة إذ ماتت الأم «المتبينة»، والأم الحقيقية والفتى الشقي «رجاء». فجاءت النهاية خاتمة لأحداث مأساوية تتفق مع النظرة الرومانسية الى تطور الأحداث والى الحكمة معا في حين انتهت أحداث رواية العدناني «في السرير» نهاية سارة على الرغم من سير الأحداث في جو مأساوي حزين، تضخمت فيه الشخصية الاساسية، وطرحت مشاكلها طرحا حادا على نحو ما سنلاحظه في رسم الشخصيات.

### ج - الشخصيات:

إذا كانت رواية السيرة الذاتية تحتفل بالشخصية، وتحلها المقام الأرفع، فإن هاتين الروايتين قد دارت أحداثهما حول الشخصية الرئيسية فيهما، غير أنهما قد اختلفتا فيما

أولتاه من عناية الى تحليل الشخصية، على عادة الروايات التي تهتم بالشخصية، وتجعل الأحداث، في الأغلب الأعم، في خدمة الشخصية الرئيسية.

فقد حاول البحيري في الجزء الأول من الرواية أن يلتفت الى الشخصية «رجاء»، وان يحللها، ويبرز المؤثرات التي تحكم تصرفاتها، غير أن التأمل في طبيعة هذه الشخصية، يلاحظ أن المؤلف لم يهتم بابرز الآثار التي نجمت عن الأحداث التي ألمت بالشخصية، اذ يعجب القارئ وهو يرى الى الشخصية التي اختلفت عليها ألوان المتاعب، وصنوف المآسي، تنظر الى المسيء بعين المحبة، والى الحاقد بروح التسامح، والى ناكر المعروف بصبر أيوب، دون أن يكون لكل ذلك اثر واضح في نفسياتها. فرجاء يتعرض لأحداث مرعبة، وخاصة حادثة البئر المهجورة مع زوج أمه، فلا يملك تجاه المسيئين الا الصفع الجميل، والدعاء الى الله أن يغفر لظالميه. واذا ما تنكر له صديقه «جمال» بعد الذي قدمه له من تضحيات ونكران ذات، يتألم في داخله، ولكنه لا يشعر بأدنى تحول في عواطفه تجاهه. من اي شيء قد قلب هذه الشخصية «رجاء»؟

وعلى الرغم من ذلك فان الاحداث ترتبط بشخصية «رجاء» وتظل تلقي عليها الاضواء، كاشفة، مميزة، محللة - مع عدم ظهور تحول في الشخصية، وعلى الرغم من افتقارها إلى عناصر الصراع -، فننتهي من قراءة الرواية - وبخاصة الجزء الأول منها - ونحن أمام شخصية رومانسية تعاملت مع الواقع وتعالته عليه، مع أن الواقع ترك بصماته واضحة على حياتها.

ومما يلفت النظر في هذه الشخصية، أنها لم تتعامل مع الناس من حولها على أنها الضحية دائماً، فقد لقيت من صنوف الناس من هم أحسن من وحوش الغاب، على نحو ما نرى في شخصية الطبيب الذي أخذ عشرة القروش دون أن يرق لتوسلات «رجاء» و «أمه» المريضة في ارجاع شيء من أجل الدواء.

وعلى نحو ما نرى في شخصية زوج أمه الذي أرحبه بمحاولة القائه في جب مهجور. وفي غير ذلك من الأمثلة، الا أن المؤلف لم يترك البطل يعاني من وطأة المجتمع دون نسيب ضوء، بل انه يقيم مقابلة بين اصناف من الناس. فاذا كان الطبيب قد أثبت خسة حقيقية وجشعا نادرا، فان الصيدلي قد بدا مثال الانسان النبيل، ولم يكن «رجاء» يعدم - هو ومه - أناسا يجذبون عليهما، ويقدمون لهما بعض العزاء عندما تسود الدنيا أمام أعينهما. فكان بإمكانه أن يقيم هوة عاطفية بين سكان القصور، والأثرياء، وبين البائس المحروم «رجاء».

ولكن رؤية الواقع لم تكن رؤية طبقية على الرغم من الأبعاد المأساوية التي تكتنفها، وعلى الرغم من الجزئيات المتناثرة التي تقدم في النهاية انسانا، لا نعجب اذا جاء حاقدا ثائرا، لا يرضى بأقل من تغيير كل شيء، وتدمير كل القيم التي عاش بائسا في ظلها. ولا عجب - والحالة هذه - اذا رأينا الشخصيات الأخرى تنقسم - في ثنائية - قسمة تقابلية فهؤلاء طيبون خيرون، وولئك، قساة اشرار. فهو يعلق على تصرفات الناس وطبيعة شخصياتهم بقوله: (٧٨)

«وتلك قلوب الناس: بعضها أرق من وشل الدموع. يترك مر النسيم بها أعمق الأثر.. وبعضها أقسى من صم الصفا.. لا تحركها غير مطارق الحديد» واذا ظهرت براءة شرير، فهي لا تعني تغيرا، بقدر ما تعني انكشاف الحقيقة التي زيفت. على نحو ما نرى في شخصية «وداد» رئيسة المرضات التي أغواها «وجدي بك الشرير» فكانت غلطة العمر، غير أنها ليست مسئولة عنها في شرع المؤلف، واذا أصبحت في نظر المؤلف غير مكلفة فانها لن تقع بالتالي تحت طائلة النقد والمساءلة.

كما ان موقف «جمال» برغم جفائه وتنكره، ظل كما هو، لم نشعر ازاء تحليل شخصيته بأن هذه الشخصية قد نمت باتجاه مقابل يشي بشيء من الصراع.

أما رواية محمد العدناني «في السرير» فقد اختلفت الى حد ما في تصويرها لشخصية «طريف» عن رواية البحيري «رجاء». فاذا كان «رجاء» بدا وادعا مسالما، لا يحمل حقدا على أحد، ولا يحاول أن يسيء الى أحد، بل يرى الخير الى جانب الشر، على الرغم مما في الحياة من قسوة وظلم وحرمان فان «طريف» بدا اكثر ايجابية من «رجاء» في نظرتة الى الحياة. ولعل سببا من ذلك يعود الى وداعة «البحيري» نفسه وتسامحه، وعصبية «العدناني» - ان صح أن ما يرويها عن طريف ينطبق عليه - واندفاعه.

غير أن ملامح طريف العامة تظل ثابتة، فهو يتمتع بصفات نفسية مثالية مثل الوفاء والكرم والوطنية والتفاني من أجل المصلحة العامة، مع أنه نزق لا يقيم على أذى، أو ضيم. فنحن نرى الى طريف - طوال أحداث القصة - وهو يسلك السلوك ذاته. فهو في اعماقه مثالي، ولكنه يضطر أحيانا الى المعاملة بالمثل عندما لا يجد من ذلك بدأ. مع أنه لا يرى ما يحول دون النظر الى الشخصيات الأخرى، نظرة ساخرة حيناً، ونظرة استعلائية حيناً آخر. ويمكننا أن نضيف الى شخصية «طريف» ذلك البعد التحليلي الذي حاول الكاتب أن يضيفه إليها. فقد نجح الكاتب - الى حد ما - في دفع القارئ الى الاحساس بأزمة «طريف» مع المرض، وجعل من ذلك عنصر تشويق يحفظ على أحداث الرواية قدرا من

التماسك الذي لا بد منه. فالقارئ يشعر أن «طريف» يقف على «الحافة الحرجة» بين الحياة والموت، ولكن الأمل موجود، قد يبدو قويا حيناً، وقد يبدو واهياً حيناً آخر، وبين هذا وذلك نتعرف الى ما يدور في اعماق الشخصية من نظرة الى أشواقه وطماحه وحلامه في الحياة ممثلة في شبابه ومه وصدقائه وعمله، وفي مقدمة هؤلاء ولداه وزوجته. ولعل ربط حياته بولديه طيلة فترة مرضه يعطي احساساً مستمراً بالخوف على هذه الحياة سواء أكان بالنسبة ل «طريف» ذاته، أم بالنسبة للقارئ الذي يشفق باستمرار من النهاية الحزينة.

وإذا كانت الشخصيات الأخرى في رواية «رجاء» ذات صلة بالشخصية الرئيسية «رجاء» تمتد معها كلياً أو جزئياً وتؤثر فيها وتتأثر بها على نحو ما نرى في شخصيات كل من الأم وزوج الأم وجمال، فان الشخصيات في رواية العدناني «في السرير» عابرة، تفيد منها شخصية «طريف» في التعليق والتفسير وابداء الرأي، ونادراً ما نحس بأن الفائدة تتعدى ذلك الى اضافة ما الى اعماق الشخصية.

كما يمكننا أن نلاحظ أن نظرة «العدناني» الى الشخصيات الأخرى تقوم على «التسطيح» فقد تبدو الشخصيات خيرة، وقد تبدو شريرة، وربما يبدو ذلك بشكل حاد في رسمه لشخصية اليهودي الشاب الذي تخلص بحيلة بارعة من زوجته العجوز الثرية طمعا في الاستيلاء على مالها<sup>(٧٩)</sup>. ثم بإمكاننا أن نجد شخصيات نحت منحني الشر نتيجة ظروف اجتماعية واقتصادية من مثل شخصية «التومرجي»<sup>(٨٠)</sup> الذي يستولي على طعام المرضى غيره. وعلى أي حال، فقد نظر الى الشخصيات بعامة على أنها «مسطحة» ذات جانب واحد، وحرمتها من بعدها «المركب». وربما استطاع أحيانا أن ينجح في تحليل داخلي لبعض الشخصيات الثانوية التي تظهر قليلاً مثل شخصية «حميدة» الذي يهاب من طريف لسابقة مع مريض<sup>(٨١)</sup>.

#### د - السرد والحوار:

اتخذت هاتان الروايتان - على الرغم من انهما تشكلان ما يشبه السيرة الذاتية أسلوبين مختلفين في السرد، فقد سرد العدناني روايته بضمير الغائب، فثمة راوية يروي الأحداث مثلما فعل طه حسين في سرد «الايام».

أما البحيري فقد لجأ الى أسلوب السيرة الذاتية في السرد، فراح البطل يروي الأحداث بضمير المتكلم مع أن البحيري نفسه يعترف بأنه تأثر «الايام» في روايته.

كما أن السرد لم ينح المنحني ذاته في كل من الروائيتين، إذ لجأ البحيري في «رجاء» الى سرد الأحداث دون مراعاة التتابع الزمني بدقة متناهية. ولقد لجأ المؤلف الى اصطناع رواية اقتصرت مهمته على التعليق في بعض المواطن، مقدما «رجاء» ليتحدث عن حياته. فالراوي هنا يستمع الى قصة «رجاء» وهو على سرير مرضه، فيقطع «رجاء» روايته، ليتدخل الراوي بحديث مشابه لما نرى في التراث الشعبي. على عادة ألف ليلة وليلة، والسير الشعبية. استهل رجاء حديثه عن فترة عمله عقب خروجه من المدرسة، إذ عمل عاملا مساحا بقسم الجر في سكة الحديد، فتحدث عن هذه الفترة بأحلامها وصفائها، وقص حكاية صداقته لجمال، ثم عاد البحيري يبطله الى طفولته البائسة في قرية «سلمة» حيث تزوجت أمه. ويتحدث عن حياته منذ ولادته حتى التحق بالعمل، ويمضي بالرواية من خلال التتابع الزمني، غير أن ثمة عودة بالسياق الزمني الى الماضي عندما يحاول المؤلف أن ينهي الرواية بقفلة مفتعلة، فيفسر أحداث ولادته، وطبيعة علاقاته بأسرته تفسيرا آخر. ومن امثلة عبارات الرواية قول الراوي: «قص عليّ البائس المرحوم «رجاء» هذه القصة بحديث قطعته الزفرات، ووصلته العبرات، قال، ندى الله ثراه»<sup>(٨٢)</sup> وقوله «قال رجاء وهو يكفكف ذوب قلبه المنسكب على خديه: لقد طال الحديث، وتشعبت شجونته، ونسيت نفسي، فحدث بك عن مساق القصة...»<sup>(٨٣)</sup>.

«ولما استعاد رجاء جلده قال...»<sup>(٨٤)</sup>، «كان رجاء، رحمه الله، يقص عليّ قصة حياته البائسة بطرف دامع.. وقلب خاشع.. وهو على فراش المرض. بل على سرير الموت في المستشفى...»<sup>(٨٥)</sup>. حتى عندما تولى «رجاء» رواية القصة لصديقه جمال اتخذ السرد الطابع ذاته حيث يقول: «وما وصلت الى هذا الحد من قصة حياتي، حتى انتصف الليل، فغادرنا الحديقة الى بيت جمال...»<sup>(٨٦)</sup>

وإذا كان العدناني قد اصطنع أسلوب السرد الملحمي بدلا من أسلوب السيرة الذاتية الذي اتخذه البحيري فان سرد الأحداث ايضا قد التزم التتابع الزمني، دون أن تتفاوت عن طريق الاسترجاع أو التذكر، كما ظهر ذلك جزئيا في رواية «رجاء». ولعل اختياره لهذا الأسلوب في السرد لم يضطره - كما رأينا عند البحيري - أن يلجأ الى عبارات معينة لربط الأحداث، فضلا عن أنه يقص أحداثا عاشها دون أن يفتعل نهاية لها.

وأما الحوار فقد جاء عاديا لا يكشف عن طبيعة الشخصيات، ولا يساعد في بناء الرواية العام، وربما اقتصرته وظيفته على ربط الأحداث بصورة عامة. ويبدو الحوار أحيانا

معبرا عن شخصية المؤلف أكثر من تعبيره عن شخصية قائله، فمع أن كراهية ممرضة ألمانية لليهود أمر مسوغ في عهد ألمانيا النازية إلا أن هذه المباشرة ذات النغمة العالية تؤيد موقف المؤلف المبدئي. على نحو ما نرى في الحوار بين طريف والممرضة حول مهندس ألماني اسمه يعقوب أقام معه في غرفته، فطلب طريف من الممرضة أن تنقله من الغرفة لأنه حسب يعقوب يهودياً.

- لا يمكن أن يكون موظفا عندكم.

- ولمه؟

- لانه ليس مسيحا

- ومن قال لك ذلك؟

- اسمه

فضحكت ملء فيها، ثم رفعت عقيرتها موجهة الكلام الى الهر يعقوب:  
- يريد الأستاذ طريف الخروج من هذه الغرفة لأنه يظنك من اليهود أعداء الانسانية» (٨٧).

ولعل موقف المهندس يعقوب وثورته نتيجة هذه الالهانة، تصور موقف المؤلف نفسه، فقد اعتذر طريف وأفهمه « بعبارة لطيفة، أن اسمه يكاد يكون محصورا بطائفة الطفيليات البشرية، وطاعون الأمم، طائفة اليهود. فسرى عنه قليلا، وراح يذكر لصاحبنا أسماء آبائه وأجداده المسيحيين، ولولا علمه بأن سيدنا عيسى عليه السلام لم يتزوج، لجعل نفسه من سلالته» (٨٨).

وقد ظهرت في حوار العدناني وسرده، روح الفكاهة والسخرية التي تعد سمة غالبية على جو الرواية، على الرغم من تصويرها لمأساة مرض عضال. ولم يكن حظ الحوار عند البحيري أحسن منه عند «العدناني» فقد بدا قليلا الى حد ما، وربما أقل منه في رواية «في السرير» ولعل ذلك يعود الى سرد الأحداث بأسلوب السيرة الذاتية. ويلاحظ على حوار «البحيري» أحيانا ميله الى اصطناع لغة غير مألوفة الاستعمال، مما يضطره الى تفسيرها في الحاشية كما نرى في حديثه عن أمه وهي تنظر اليه والحمى تحاصره: «رأت بقايا الفرع ترعش أعصابي فوقفت بين فكيتها اللقمة التي كانت تلمظها:

كأن عصب ريقها

وجفت لهاتها

- ما بك يا ولدي؟
- لا شيء يا اماه
- أراك ترتعش؟
- هي الحمى المليلة التي تعرفينها
- أتاكل معي؟
- لا بل أريد أن انام...» (٨٩)
- وكان البحيري حريصا على انتقاء الأساليب التراثية الفصيحة في الحوار أحيانا:
- «- أجائعة يا أم؟
- أكلت الساعة يا بني» (٩٠)

وقد ظهر الحوار موحيا. يتحدث رجاء عن امه:

- « شربت وردت الاناء فأرجعته الى مكانه، وعادت الي فسألتها:
- لم لا تنامين يا اماه؟
- وكيف أنام وأنا ارقب بفارغ صبري يقظتك من أخذتك التي طالت
- ولماذا أطفأت السراج؟
- سألتها وأنا موقن أن جوابها سيكون بأن زيتها قد نفذ...» (٩١) وقد بدت في الحوار ومضات رائعة، من مثل ما نرى في الحديث عن الطبيب الجشع الذي لا يعبأ بالقيم:
- «- لو انني اعدت أجرة الكشف لكل مريض لما أكلت خبزاً
- أفلا تضحي بلون من ألوان طعام مائدتك لتخفف بعض ما ترى من بؤس وألم هذين المعذيين؟ أفلا تتحمل ساعة بعض الذي قاسيناه دهرًا طويلاً؟ ففتح الباب وهو يقول:
- لو تحملت جوع الجائعين، وبؤس البائسين جميعاً، لما بقيت الى اليوم حياً، ليس لدي وقت لجد لكما العقيم هاكماً الباب فدونكما...» (٩٢)

وقد ظهر في «رجاء» ميل الى الحوار الذاتي. إذ كان «رجاء» يتوقف ليناجي نفسه، ويتحدث اليها ويحلل بعض الأمور ويفسرها، غير أن هذا الحوار لا يرقى الى مستوى فني معقول على نحو ما نرى في حوارهِ مع نفسه حول نسيان صديقه جمال لصدقاتهما (٩٣)، او في حديثه الى نفسه عندما علم أنه ابن سفاح (٩٤).

وكان الحوار يأتي مصوراً للواقع بدقة في لغة مشحونة:

«وكنت اذا نلت درهما من محسن ابتعت به أداماً للخيزر.

- على الله...

- على الله؟

لا أدري لماذا تراءت أطياف الماضي لعين خيالي عندما قرع هذا الصوت  
أذني... (٩٥)»

وأما لغة الروائيتين فقد مالت بعامية الى الجزالة بخلاف روايات الاتجاه السابق التي غلبت على لغتها الركاكة الى حد ما. فكل من المؤلفين شاعر متمرس باللغة وأساليبيها في عصور الجزالة والازدهار. غير أن البحيري - وان أتى بالغريب حيناً، وبالجزل الفخم حيناً آخر - قد حرص على التأنق في لغته على عادة الرومانتيكيين. وهي لغة تمتح من جمال الطبيعة، بنخاريب الصخور، وزرقة السماء وخضرة السهول، وجمال الوديان، وأمواج البحر الفضية. ولعلي أحسن انه تأثر الأرنأؤوط فيما كتب من روايات. واذا لم يفعل فلعله اختط طريقه على قاعدة «قد يقع الخاطر على الخاطر..». يتحدث البحيري عن أيام رجاء الحلوة: «وكنت اقضي أيام عطفتي على سفوح الجبال، وفوق قممها، أمتع الطرف بالحقول الزاهرة، وأملأ الصدر بالأنسام العاطرة.. أو أجلس على ضفاف غدير القمر، فأسند ظهري الى جذع صنوبرة عتيقة، لا أعلم كم لها من السنين وهي واقفة تلك الوقفة، سابحة في جواء الخيال، قد أخذتها روعة السحر، وسبتها فتنة الجمال.. وأيم وجهي شطر الغدير، قبلتي الحبيبة، وكل ما حولي يطفح بالبشر، ويفيض بالسرور، وأنا غارق في لجج أوهام عذبة، وكأني على ضفاف الكوثر في جنة الفردوس.

تلك أيام خلت - لهف قلبي عليها - وما تركت لي غير هذه الأطياف التي تذوب لها النفس حشرات كلما مثلتها في خاطري.. لقد دفنها الابد في طواياه، ولم يبق لي منها سوى هذه الذكريات البواكي» (٩٦).

ويحاول البحيري أن يتفلسف من خلال لغة بطللة الرومانتيكية حيث يقول رجاء: «هذه الحياة التي ولجناها مجبرين، وصاحبناها مجبرين، ونحن مغادروها مجبرين، قد عرفنا أين جعلت مضاجع اجسادنا، يوم تسقيننا على الرغم منا ككوس الموت الزؤام، ويوم تسوقنا قسراً الى وادي المنايا السحيق أما تلك الأحلام التي جعلت لنا من صحراء الحياة ربيعاً ناضراً، وشعت حقله بأفواف الزهور، وملأت رحابه بشذى العبير، وتلك الأماني التي أنارت لنا أغلاس العمر، وبدت كالشمس في رونق الضحى، فبددت غيوم اليأس، واجتشت أشواك



الأسى، وفجرت ينابيع الأمل، وفتحت مسالك الرجاء.. أين سيكون مستقرها ومثواها بعدما تجذبنا يد الفناء الى وادي العدم؟ وهاتيك النوازع التي تصارع في صدورنا، تدفعنا فنقدم، وتجذبنا فنحجم، اين سيكون مضجعها ومأواها، ساعة يلفنا الردى في رداه؟» (٩٧)

ولم نلاحظ على العدناني هذا التأنق رغم فخامة لغته وفصاحتها. وما يلاحظ على كل من البحيري والعدناني أنهما تأثرا لغة القرآن الكريم وأسلوبه، فكثيرا ما تأتي الاساليب القرآنية واضحة أو خفية، مع أنها اكثر تمثلا في لغة البحيري. ويلاحظ على البحيري بخاصة أنه فسر كثيرا من الغريب في حواشي روايته (٩٨).

وما يسجل للبحيري أنه برع في الوصف والتحليل مما كان يضيف على شخوص روايته بعدا انسانيا، وعلى الأشياء صورة واقعية، من مثل تصويره لا بريق فخار «مهشوم الزنبوع، مسنن الفم. تكسرا وانشقاقا» (٩٩) وتصويره لفضلات الطعام التي كان يهرع اليها في أوعية الزبالة (١٠٠). أو في تحليله لنفسية كل من الابن والأم، عندما يتسا من الحياة تحت وطأة المرض والفقر وفكرا بالموت (١٠١). وفي مواضع أخرى كثيرة.

### ثالثا: الاتجاه الرمزي:

ويتمثل هذا الاتجاه في رواية «مذكرات دجاجة» غير أن الرمز فيها ليس عميقا، ولا يصدر عن تصور حديث للرمزية من حيث هي مذهب. وانما هو أقرب الى الرمز في التراث القصصي القديم، على نحو ما نرى في قصص الحيوان من مثل «كليلة ودمنة» الذي نقله الى العربية عبد الله بن المقفع و «منطق الطير» لفريد الدين العطار النيسابوري (١٠٢).

يقول المؤلف في مقدمة الرواية: أيها القارئ الكريم: هذه القصة تصف حياة دجاجة عاشت في بيتي، ووقع بيني وبينها ألفة ومحبة. فكنت أطعمها بيدي، وأرقب حياتها يوماً فيوماً، والأحداث التي تروها وقعت لها بالفعل، وهي لا تتجاوز المؤلف في حياة الدجاج، ولو قدر لصديقتي الدجاجة أن تتكلم بلغة الاناسي، لما قالت غير ما تقرأ. فأنا في الواقع - أترجم لك ما أوحى به الّهي. أما عنصر الخيال ففيها ضئيل، وهو لا يعدو أن يكون تعليقا على هامش الحياة، أو تحليقا في عالم المثل العليا» (١٠٣)

لقد أثارت مذكرات دجاجة تساؤلات كثيرة، كما استقبلها القراء بترحاب كبير (١٠٤). فقد رأى بعض الباحثين أنها جاءت على هذه الصورة نتيجة الواقع السياسي الذي يفرض

تكميم الأفواه، وأنه « اتخذ الرمز اطارا ليعرب عما لا يستطيع أن يعرب عنه، بحكم الظروف السياسية التي تكتم الأفواه.. ولكنه رمز طبيعي، ليس من ذلك النوع من الرمز الذي يسلمه صاحبه عن الحياة، ويتعد به عن التأثر بأي وضع من أوضاعها الاجتماعية...»<sup>(١٠٤)</sup>. كما تساءل أحد الباحثين فيما اذا كانت ترمز الى المخاطر التي كانت تهدد فلسطين في عهد الانتداب. فلم يميلوا الى مجازة كاتبها حول عدم مساس «مذكرات دجاجة» بالقضية الفلسطينية. «انه وهو يدون المذكرات لم تخطر له القضية ببال، ولم يردها فيما كتبه فيها على أننا لا نعتقد أنه لا يصح ظنه، وأن الحكم الذي نريده يصح في الحالين، بل هو يصح في حال الانكار بأكثر مما يصح في حال الاقرار»<sup>(١٠٥)</sup>.

وإذا كانت الرواية قد أثارت مثل هذا التصور لأن كاتبها مثقف فلسطيني واع ما يدور حوله وعيا كبيرا، فان مقدمة الدكتور طه حسين لهذه الرواية التي اثارت ضجة واسعة، ربما كانت السبب المباشر لهذه التفسيرات التي تتصل بالقضية فهو يقول في هذه المقدمة:

«هذه دجاجة عاقلة، جد عاقلة، ماذا أقول بل هي دجاجة مفلسفة، تدرس شعون الاجتماع في كثير من التعمق، وتدبر الرأي، فتصل الى استكشاف بعض الأدواء الاجتماعية، وتصف لها الدواء. ماذا أقول بل هي دجاجة شاعرة تجد ألم الحب ولذته، وعواطفه المختلفة التي تدق أحيانا حتى لا يهتدي اليها الا الشعراء الملهمون ولا يقدر على تصويرها الا الذين أوتوا حظاً من سحر البيان.» «وكأن الله علم صديقنا الدكتور الحسيني لغة الدجاج. فقد قرأ مذكرات هذه الدجاجة الفلسطينية، ففهم عنها أحسن الفهم وترجم عنها أحسن الترجمة، وقرأنا نحن ترجمته هذه، فشاركنا دجاجة فلسطين فيما أحست من حزن وفرح ومن لذة وألم... فليت شعري أيهما ترجم عن صاحبه ترجم الدكتور اسحق الحسيني عن الدجاجة، أم ترجمت الدجاجة عن اسحق الحسيني»<sup>(١٠٦)</sup>، ان نفي الدكتور الحسيني وجود صلة مباشرة بين هذه المذكرات وبين القضية لا يحول دون تأثره بصورة غير مباشرة أولاً واعية بالقضية. فهي - في ذاتها - قائمة على مجموعة من الحقائق المتشابكة، التي تتصل بالقضية نفسها.

ولعل الحديث عن مضمون الرواية يفيدنا في تصور مدى تأثر الكاتب - أيا كانت طبيعة هذا التأثر - بواقع القضية الفلسطينية.

تنتقل الدجاجة من بيئة ريفية، ألفتها كل الألفة، حيث يقوم على ترتيبها أناس طيبون، وتعيش في كنف زوج عطوف، وأتراب محبات، فيحزن الزوج العزيز كما تحزن أترابها المحبات،

وفي المدينة تسلمها يد الرفي، الى يد متحضرة حيث تجد حياة جديدة فيها نعومة العيش، وطراوة الحياة، ويسر الطعام والشراب، ونظافة المسكن والغذاء. وتجد زوجها الصالح الذي ما يلبث أن يهيم بها حبا، ويؤثرها على نساته أجمع على الرغم مما يكنه لها جميعا من الحب. فما أن يخلو بها ليحدثها حديث الواله المتيم، حتى تشتعل الغيرة في صدور أترابها الزوجات.

تشعر الدجاجة بسعادة غامرة في ظل زوجها الأثير، وتتمنى لو تفديه بأعز ما تملك: بعينها، بروحها، بدمها. ولا عجب فقد غمرها بسعادة حقيقية. غير أنها تشعر بحزن شديد لموقف أترابها اللواتي تنقد في عيونهن البغضاء والحسد. الا أن ثمة تريا عاقلة رشيدة كانت تواسيها وتخفف عنها آلامها وتطلب اليها أن تصفح، والا تعادي، وتحل الأمور بالسلم والمحبة. فالحب وحده يصنع المعجزات.

وتمضي الأيام، فيصاب الزوج العزيز في معركة بينه وبين عدو معتد استطاع أن يصصره. الا أنه لم يخرج من هذه المعركة دون أن تشخه الجراح، فيفقد العزم والشباب وتمن قوته، ويفتر نشاطه، ويخبو جمال شكله الأخاذ، ويختلط احمرار تاجه الرائع بالسواد. وتجتهد زوجاته في السهر على راحته. وتواصل الزوجات أخذ مقال الدجاجة مأخذ السوء، مهما كان القصد، ومهما كان التفسير. «فتعاهدن على مخالفة رأيي في كل ما أقول سواء أحقا كان أم باطلا، فإذا جاء وقت الطعام وقلت لها: تفضلن للطعام فقد حان وقته، قلن مستهزئات: يا للشره لقد صور لها شرها أن الزمن أسرع في خطاه، وما بعد هذا الشره شره. واذا قلت لها: أرى الصحة بادية على وجه زوجنا اليوم، قلن لي انك مغرورة تدعين ما لا تعرفين... فقولي لها: ان زوجنا بصحة جيدة حملته على أنه تهرب مما يجب عليّ نحوه من خدمة وعناية».

ولكن موقف أترابها لم يحل دون ما اعتزمته هي وتربها الرشيدة، من البدء باصلاح الأسرة، ثم التدرج حتى اصلاح بقية الهرم، مهما كانت المشقة. وتسوء صحة الزوج العزيز - وكم تبدو الصحة غالية عند المرض - ويموت بعد أن صارع الموت طويلا، وينهدم عمود البيت، وحامي الحمى، فتجتمع المصيبة شمل المصابين، وتنتهي من الاسرة المشاحنات.

ويطرأ حادث جديد في حياة الأسرة، عندما ترقد الدجاجة الرشيدة على بيضها، تعطي من دمها لصغارها، وهي صائمة لا تطعم شيئا، حتى يفرخ البيض، وتظل الدجاجة بعدئذ تعطي من قوتها لصغارها، ولذتها أنها تسهر على جيل جديد تمتد الحياة منها اليه.

ويقع حادث آخر، عندما تلوذ دجاجة وافدة بمسكن الأسرة فتتقد عينا الرشيدة دفاعا عن صغارها، بينما تشكو الوافدة الفقر، وتصف حال أسرتها وما هي عليه من تفكك

والخلال، ملتزمة أن تجد ملجأ آمينا، فتجد المأوى. وفي أثناء عيشها مع هذه الأسرة، تتعلم الوافدة الجديدة مبادئ الحياة الفاضلة، التي تقوم على الحب والتعاون والايثار. وتبرع «الدجاجة» الراوية، بزيارة أسرة الوافدة الجديدة بصحبة بعض أترابها، ويقدمون العون للأسرة التي لم تعتمد التعاون أو الايثار. فيعجب الزوج الزعيم لمعوتنهن، ويظن الأمر غير ذلك، وعندما يتيقن من جدية الأمر، يلجأ الى الهزل، ويغازل «الدجاجة» فلا تستجيب لغزله، لأنه يفتقر الى صفات الزوج الصالح.

وتظل الدجاجة الراشدة تعتني بأولادها، حتى بلوغهم اليوم الحادي والعشرين، ثم تركهم بعد ذلك لشأنهم يتعاركون ويتصارعون، لا تعباً بخصوصياتهم ليواجهوا الحياة معتمدين على أنفسهم، الا ان ما أثار استغراب «الدجاجة» نضوب الحنان من صدر الرشيدة، فتستأذنها أن تصبح أما للصغار بدلا منها، فتأذن لدجاجتنا لترضي عاطفة الأمومة التي تضح في صدرها.

وتروي «الدجاجة» كيف أن عملاقا «انسانا» حاول أن يلحق بها الشر، فتخدعه وتمعن في خداعه، وهو يحاول اقتناصها، ويعيد المحاولة، الا أنه يفشل فشلا ذريعا، ويكون ذلك مجالا لحديث طويل عن الانسان وصفاته وأخلاقه ومبادئه وصراعاته وحروبه.

ويأتي يوم حزين ينتزع فيه هذا العملاق أترابها فيقودهن الى المذبح.. لتعيش الأسرة بعد ذلك في هم وحزن مقيم.

أما الدجاجة الوافدة فتعود الى اسرتها، لتبذر فيها بذور الحب والتعاون والتضحية بعد أن تعلمت الأصول التي تبني عليها حياة الجماعة. كما قررت «الأم الجديدة» أن تحتفظ بأولادها في ظل التعاون وفي ظل المودة القائمة بينها وبين أحبائها الصغار، فقد تعلق قلبها بقلب الزعيم (زعيم الأبناء) فأحبهت حبا عميقا، غير انها ما فتئت تعيش في صراع بين عقلها وقلبا، حتى انتصر العقل في النهاية.

حاول الابناء أن ينتقموا من العمالقة ولكنها حالت بينهم وبين الانتقام - مع وجهة موقفهم بعامة - لأن معركتهم خاسرة، وأنها لن تجر عليهم سوى الامعان في الانتقام منهم ومحاولة تصفيتهم وافنائهم، وتعرض عليهم أن يتبنوا مبادئها كي يعم الحب العالم كله، فلا ينشب بين الناس صراع أو قتال. وحتى يسود العالم الوثام، فالطعام مكفول لكل انسان: غير أن الخوف من عدم الحصول عليه هو الذي يتسبب في نشوب الحروب الفظيعة.

وتودع أبناءها ليتفرقوا في اتجاهات شتى، وتطلب اليهم أن يوافوها في نهاية المطاف - في بيتهم هذا، فلن تغادر البيت الذي يضم رفات زوجها، وودعت الزعيم على كره منها وفي قلبها دموع.

- ٢ -

وعلى هذا النحو لاحظنا أن الدكتور اسحق الحسيني عالج من خلال هذه المذكرات قضايا متعددة تتصل بالأخلاق والمثل والمبادئ والحب والسلم والصراع، والأثرة والايثار، والفترة والعقل، والقلب والاشعاع، والوطنية والانانية، والصحة والمرض، والحياة والموت، واشواق الانسان وأطماعه، وصلفه وضعفه، وغروره وجبته.

وإذا كان بإمكاننا أن نقطع بأنه حاول أن يعالج مشكلات الانسان من نظرة أخلاقية مثالية تشخص الواقع، وتحاول الارتفاع عليه من خلال أسلوب وعظمي مستتر، فإن من الصعب علينا أن نقطع بأن الدكتور الحسيني رمز الى المشكلات التي تتصل بجوهر القضية الفلسطينية في هذه الرواية. اذ كيف يمكننا تفسير هذه التناقضات الواضحة في هذه الرموز المختلفة التي لا يمكن لمثقف واع في أوائل الأربعينات أن يقول بها، وهو مخلص لقضيته ومبادئه، مدرك لواقعه.

ويبدو لي أن الحسيني قد حاول أن يعالج المعضلة الانسانية ككل من منظوره المثالي الأخلاقي، الذي يرى أنه بالإمكان قيام «عالم فاضل» أو «مدينة فاضلة» تخلص الانسان من سلبياته وتناقضاته وتقوده الى وفاق مع نفسه، وإلى تصالح مع بني مجتمعه بل مع الانسانية بعامة.

ولا يحول ذلك دون دعوة بني قومه الى التعاون والتعاقد والتكامل، ونبذ الشقاق والانانية والحسد، والصراع وتوهم الخوف، وهم يجابهون قوى ظالمة وأوضاعا متخلفة. فالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية التي كانت تعيشها بلاده في ذلك الوقت تدعو الى كتابة مثل هذه المذكرات بأسلوب رمزي جميل، لتكون مرشدا محببا، وواعظا خفيا ينبه ويحذر من الركون الى الواقع الأليم.

ولو أننا حاولنا أن نلم شتات الجزئيات المختلفة في واحد، لتعسفنا ولحملنا فكر الرجل ما لا يطيق، ولقولناه مالا يجب أن يقوله. فكيف يدعو الى مولاة الوافد الجديد «اليهود» ومصافاته. وكيف له أن ينبذ الانتقام مثلا من العملاق «ربما الانجليز» بدعوى أن الثأر غير

مجد، وكيف له أن يقبل استضافة الوافدين الجدد (اليهود الذين يزعمون أنهم يعودون الى أرض الميعاد) بالحب والترحيب، وبتعليمهم القيم والمثل الأخلاقية العليا.

وعلى هذا النحو لا يمكننا أن نتعسف في وجهة نظر لا يرضاها المؤلف لنفسه ولا يقول بها. على أن ذلك لا يمنعنا من ملاحظة بعض الأفكار التي وردت في ثنايا الرواية، ويمكن أن تنطبق على الاستعمار وعلى كل القوى الغاشمة من مثل قول «الدجاجة»: «فقلت الترب: كيف تختلف الموازين باختلاف الأحوال؟ فقلت عندما يكونون في حالة توحش وعدوان يقومون بميزان القوة. وعندما يكونون في حالة غفلة عقلية وخلقية يقومون بالمال، وعندما يكونون في حالة المحلل واضمحلال يقومون بالردائل، وعندما يكونون في حالة سمو في الفكر والعقل يقومون بالعقل وهكذا...»<sup>(١٠٧)</sup>. وفي قولها حول فقدان الخلق: «ان العقل منحة عظيمة. ولكن العاقل ان تجرد من الخلق فعقله كالعدم. والعكس بالعكس... فالعاقل العظيم الخلق هو فاضل بنفسه ولنفسه، ولكنه يقاس في نظري باشاعاه<sup>(١٠٨)</sup>».

وربما نجد بعض الأقوال التي تشير الى احتلال الوافدين لبيوت المواطنين الأصليين، الا انها لا تستقيم مع السياق الا اذا أكرهنا الحسيني على مالا يجب ولا يريد على نحو ما نرى في الحديث بين الأولاد والدجاجة. اذ يقول الزعيم بعد نقاش مع الأولاد: «لا يمكن المأوى أن يتسع لنا جميعا. ويعز علي أن اغادر المأوى الذي نشأت فيه لأخليه لهذه الاسرة الطارئة. ونحن بين أمرين: اما أن نتنازل عن مأوانا، أو أن نتمسك به ونطرد الغريبات منه. فقال أحد الأولاد: لا يعقل أن نتنازل عن مأوانا الذي نشأنا فيه. والواجب يقضي أن تعود الاسرة من حيث أتت. فصاح الأولاد هذا حق. وليس فينا واحد يهون عليه أن يفرط في مسقط رأسه.

فقال الزعيم: اذن نحن متفقون، ويجب أن نعود حالا، وننفذ الخطة. فقلت: رويدكم أيها الأعراء: اتظنون أن الاسرة تخضع لرأيكم وتغادر المأوى؟ فقال الزعيم: ان لم تغادره طوعا غادرته كرها وقال أحد الأولاد: لقد امتنعنا عن الانتقام من العمالقة خشية أن يبيطشوا بنا، لأنهم أشد قوة منا، وليس الحال كذلك الآن.»<sup>(١٠٩)</sup>. فلو أن الحديث عن الوطن لما تردد في أن يدعو الى القوة مقابل استرداده وخاصة أن الزعيم يسوغ الدفاع بقوله: «فحن اولاً ندافع عن حق لا شبهة فيه، وثانيا نرد ظلما حل بنا، وثالثا نفعل ما يفعل غيرنا في مثل حالنا. ورأيت قوله مصيبا. ولكنه لا يحل الخلاف، ولا يلتئم مع المثل العليا التي تمسكت بها طوال حياتي. فأنا التي قاومت البغي وحكم القوة، وكرهب الكبرياء كيف اسلم الآن حل هذه القضية للقوة؟»<sup>(١١٠)</sup>

فلم يكن الحل الذي اقترحه الدجاجة التي تمثل صوت الخلق والعقل والاشعاع ليتسق مع النظرة الى القضية الفلسطينية، مما يعزز الرأي بان الحسيني حين كتب المذكرات، لم تكن القضية في وعيه المباشر.

- ٣ -

وأما الشكل الفني لهذه الرواية فقد بدا حبيسا للأفكار التي زخرت بها، وظهرت عناصر الرواية من أحداث وعقدة، وشخصيات، وسرد وحوار وغيرها، أقل تفاعلا وحركية في بناء الرواية الكلي.

فالأحداث تسير ببطء شديد، تلهث خلف الافكار والملاحظات والاستنتاجات والفلسفات التي حرص المؤلف أن يلفت النظر اليها: ممّا جعل العقدة تبدو باهتة، فضلا عن عدم وجود عقدة مركزية تلم الأحداث جميعا. حتى العلاقة بين الدجاجة وزوجها في بداية المذكرات لم تستطع أن تحفظ على الأحداث وحدتها وتماسكها، وعندما حاولت الرواية أن تصطنع عقدة أخرى فيما بعد، سواء باتجاه زعيم الأسرة الأخرى، أم من خلال زعيم الابناء فانها لم تنجح في تحقيق عقدة مقنعة، بل ظلت الأحداث تتوالى دون اتجاه نحو بؤرة مركزية واضحة. ولعلنا نحمل الرواية ما لا تطيق، ونلوي عنقها لتقبل ما لم تخطط له. وهذا يجعلنا ندرك أن شخصية «الدجاجة» بما تحمله من افكار وقيم وتصورات - وهي بطبيعة الحال تمثل المؤلف نفسه هي محور الأحداث ومركز عقدها. ولما كانت هذه الحلقات تحمل اكثر من وجهة نظر، وتبنى اكثر من موقف، فقد بدا نسيح الرواية مهلهلا، يكاد يتوزع الى أجزاء منفصلة.

ولما كانت الأحداث ترتبط بالشخصيات، فان الشخصيات شأنها شأن الأحداث وظفت من أجل الغاية المثالية التي أشرنا اليها. فجاءت شخصيات الرواية نماذج في الأغلب الأعم تنطبق عليها الأفكار وقد لا تنطبق. وربما ظهر التطور في شخصية «الدجاجة الرشيدة». وهو تطور فجائي غير مسوغ، اللهم الا اذا كانت الملاحظة تنصب على «عالم» الدجاج، دون أن يكون للرمز أية فعالية في عالم الانسان الذي اراد أن يجوس خلاله. ولم يكن تطور الموقف العام للأتراب بعد وفاة الزوج يمثل بعدا ناميا لشخصياتها، بقدر ما صور موقفا نمطيا، يحدث لمعظم الناس نتيجة كارثة معينة. وخاصة اذا زالت دواعي الحسد والعداوة. فدواعي العداوة زالت بزوال داعي الغيرة الذي تمثل بموت الزوج.

ولعل الرواية تحمل اسم الأسلوب السردى الذي اختاره المؤلف وهو أسلوب «المذكرات» غير أن العنوان ذاته ينبغي ألا يصرفنا عن حقيقة الأسلوب السردى الذي اصطنعته الرواية وهو أسلوب السيرة الذاتية، أو ترجمة الحياة. فهي أقرب الى أسلوب السيرة الذاتية منها الى المذكرات.

أما الحوار فقد استطاع أن يخدم الهدف الرئيسى للرواية، وهو المناقشة الفكرية والمحاورة الفلسفية حول القضايا التي اختار المؤلف الحديث حولها، فكان بإمكانه أن يفيد من حيوية الحوار ومرونته وتلقائيته لو أنه لم يقيد الشخصيات بقيود الأفكار المثالية التي تصطدم بالحياة الواقعية، التي ترفض الانصياع الى أفكار لا تأخذ بمعطيات الحياة وصراعاتها على نحو ما رأينا في موقف الدجاجة المتعسف من قرار الابناء تحدي الاسرة الطارئة التي طردت الاسرة واستوطنت بيتها غضبا وظلما.

وأما لغة الرواية فجاءت سليمة صافية، طيبة لاستيعاب ثقافة المؤلف الفكرية الواسعة، فضلا عن أنها رائعة تمتح من قوة البيان، وأناقة الشعر. تذكر بلغة طه حسين وأسلوبه، دون أن تطغى هذه اللغة على أسلوب المؤلف ذي الشخصية المميزة.

#### رابعا: الاتجاه ذو الرؤية الواقعية:

تعد رواية جبرا ابراهيم جبرا «صراخ في ليل طويل» رواية متميزة بالنسبة الى الرواية في فلسطين في فترة الانتداب، اذ لا مجال للمقارنة بينها وبين غيرها من الروايات من الناحية الفنية، كما تعد رؤيتها متقدمة على غيرها من الروايات، فقد حاولت أن تعالج مشاكل الواقع، وان تحلل فساد الارث الاستقراطي، وعبادة الماضي التي لا تقوم على تقويم أو تفسير.

فالرواية تتحدث عن عمل «أمين» في مخزن سليمان شنوب بعد أن نزع من قريته الى المدينة، قبل أن يلتحق بعمل في صحيفة تنشر له، ويشتهر ويذيع اسمه في الناس. ويتعرف الى «عنايت هانم» سليلة آل ياسر التي تعرض عليه أن يكتب تاريخ اسرتها مقابل مبلغ كبير من المال. ويتزوج أمين من ابنة سليمان شنوب فيما بعد على كره من والديها، غير أنها تهرب منه لمدة سنتين كاملتين، ظل خلالها يعاني من فراغ روحي، فراح يقسم وقته بين كتابة الرواية والتحرير في مقر الجريدة، والعمل لدى «عنايت هانم» وقد حاول المؤلف أن يقارن بين حياته القروية وكل من حياة «سمية» بنت سليمان شنوب، و «عنايت هانم» وأختها «ركزان» وما فيها من ترفع عن حياة الكادحين، وانفصال عن همومهم، وقد استطاع ببراعة



فنية أن يحلل التناقضات القائمة، وأن يفسر النفاق والسطحية في تصرفات الارستقراطيين على عكس البسطاء الذين لا ينجلون مما يفعلون، اذ توسل الكاتب بعدد من الشخصيات المهتكة التي تفهم الواقع فهما انتهازيا. ولعل الكاتب نجح في تقديم لقطات موحية عن حياة البؤساء في المدينة، وما يعانونه من شقاء وهم وفقر، بل حاول أن يشير الى ما تفرزه المدينة من ساقطات وقوادين دون أن يعبا أحد بالسؤال عن الاسباب والنتائج.

عادت اليه «سمية» بعد سنتين، فلم يملك بعد صراع الا أن يطردها لأنها خانتة-والخيانة هنا الانفصال عن واقعه، والعجز عن فهمه-، وأما «عنايت هانم» فقد ماتت موصية له بألفي جنيه مقابل كتابة تاريخ الأسرة في خمسة عشر ألف كلمة.

الا أن اختها الباحثة عن اللذة تعرض عليه أن يتزوجها في مقابل ارثها من المال والفدادين والقصور فيرفض، وفي اليوم التالي دمرت القصر، وعرضت عليه ان يصحبها فرفضها كما رفض سمية.

- ٢ -

تغلب على رواية جبرا «صراخ في ليل طويل» الصفة الدرامية، حيث تتجه الأحداث في سيرها اتجاهها معينا. فهذه الرواية، وأن اتخذت الشكل التقليدي في سرد الاحداث، لم تحاول التزام التتابع الزمني في تطور احداثها، بل لجأت الى عملية الاسترجاع (الفلاش باك). فقد تحدثت في بدايتها عن «عنايت هانم» سليلة آل ياسر أعرق حكام المدينة، وعن علاقة الأديب «أمين» بعنايت هانم وبأختها ركزان. بينما نلاحظ - من حيث التسلسل الزمني - أن «أمين» تعرف الى هذه الأسرة في فترة لاحقة في حياته، فنجد الرواية تتعرض فيما بعد لأكثر من موقف، ولأكثر من مرحلة في حياته، فهي تحدثنا عن طفولة أمين وعن صداقاته وعن علاقاته النسائية، وأهم علاقاته النسائية هو حبه لسمية ابنة سليمان شنوب صاحب المتجر يعمل به ثم زواجه منها على الرغم من معارضة أهلها، وهربها بعد ذلك ثم عودتها اليه لتقول له: لقد ظلمتك... كان يقبلها في الحلم، فاذا الحلم حقيقة فيطردها ويقول: «لا حاجة بي الى الهرب بعد اليوم. لقد عادت الي فنجوت منها»<sup>(١١)</sup> وفي الوقت الذي انتصرت فيه ارادة أمين على حبه لسمية، رفض أيضا عرض ركزان الزواج وهو ينظر الى جموع الناس في الشوارع قائلا: «كانوا هائمين على وجوههم، كما كنت هائما لسنتين مدينتين، يبحثون عن نهاية لليل الطويل، بداية لحياة جديدة»<sup>(١٢)</sup>. لقد انطلقت الرواية من قصتين: قصة آل ياسر الأسرة الاقطاعية بمباذها وعقليتها، وقصة سمية التي هربت منه ثم

عادت، وانعكاس موقف والديها على جو الرواية، لقد رفضه والدها - بسبب فقره وعدم عصريته وتواضع نسبه - فكان رده على والد سمية موحيا «أرجو الله يا سيدتي الا يمن علي بكبرياء مصدرها مخزن لمعجون الأسنان. وأرجو الله أن يجعل في سواقي الشوارع من الماء ما يكفي لغسل نفسي من رغبة صابونكم، منبع النبل والجاه»<sup>(١١٣)</sup> فمن خلال هاتين القصتين انطلقت أحداث الرواية، غير أنها لم تسرد سردا مباشرا، بل تداخلت الأحداث من خلال مختلف الأساليب السردية، لتتعرف على أحداث جزئية تشير الى موقف الطبقات الاقطاعية والبرجوازية من جماهير الشعب الكادحة يتمثل ذلك في المقارنة بين أسرة آل ياسر، وبين والد أمين البستاني الفقير، ذكرياته عن أيام المطر والبرد الشديد، وخوف والدته على الخراف الثلاثة التي كانت حياتها مرادفة لبقائه في المدرسة، وذكرياته عن البيوت الغارقة في مياه الأمطار، بينما تستنجد احدي الامهات لانقاذ طفلها الغريقين. وفي حديثه عن موقف آل ياسر من الفلاحين الذين أحرقوا أحد أسلافهم، فضلا عن مواقف المدينة الفاسدة من أولئك الذين لفظتهم على هامشها من القوادين والمومسات والزناة والجائعين والكادحين.

فقد كان هدم القصر، وحرق تاريخ آل ياسر، وطرد سمية، وموت عنایت هانم، هو موت التراث المحظ من الاقطاعية والارستقراطية والبورجوازية، ومولد حياة جديدة مقبلة للجماهير الذين يدفعون عجلة التقدم بكفاحهم - دون أن يتنكروا لقيمهم - الى الامام. ان تطور الاحداث لم يفرض من خارج الرواية، فقد سارت الأحداث وفق الحركة البداخلية للرواية، والتحمت بالشخصيات التحاما واضحا، كما اتصلت الجزئيات المتناثرة التي تبدو من الناحية الطولية في السياق الزمني، أو التي تبدو في المقاطع العرضية كالجزئيات التي تتعلق بقصص بعض معارفه، بصلة حميمة بالنسيج العام للرواية. ويمكننا أيضا أن نلاحظ التحام الأحداث بالأفكار فلا تبدو الأفكار أو المعلومات هي الموجهة للأحداث، كما أنها لا تبدو مفروضة عليها من الخارج فهي من صميمها.. لتصل الى النهاية التي تكشف كل شيء على نحو ما نرى في الرواية الدرامية. لقد عبرت رواية «صراخ في ليل طويل» عن فكرة التحول من الماضي الى المستقبل<sup>(١١٤)</sup>، وقد بدت هذه الفكرة صافية من خلال ابراز الخط الرئيسي للرواية.

وقد حاولت الرواية أن تحقق هذه الفكرة من خلال العديد من الأحداث الجزئية التي تساعد في جلاء كثير من المتناقضات، بين عالم مهترىء يوشك على الزوال، وبين عالم جديد ينمو ويزداد وضوحا يوما بعد يوم. وقدمت كذلك عشرات الجزئيات وعددا من اللوحات التي تصور بجلاء هذه المتناقضات التي تساعد على نمو اللوحة، وتحقيق اللمسات

الأخيرة فيها. وقد توسلت الفكرة المسيطرة بأحداث باللغة التوتري كما نرى في موقف سميا من أمين، ثم في موقفه ممثلا في هربها ثم في عودتها تائبة. وفي موقف ركزان التي أحرقت محتويات الصندوق التاريخية بل عندما دمرت القصر عقب موت «عنايت هانم» رمز العيش في محراب تاريخ الأسرة بما فيها من متناقضات.. الى أن تصل أحداث هذه القصة الى ذروتها فتتكشف أبعادها المختلفة عندما رفض أمين توبة زوجته سمية: «كنت أتحرق الى عناق امرأة هي اشهر نساء الأرض. ولكن انظري الى نفسك: صفراء كالموت، ذابلة كالموت ولست أريد الموت بعد اليوم»<sup>(١١٥)</sup> «وكذلك عندما رفض ركزان وأموالها وعقاراتها» لا، شكرا يا ركزان شكرا، ما أروع جرأتك نسفت قصرك فنجوت ونجيتني. ولكن عليك أن تبحتني عن حياتك الجديدة وحدك»<sup>(١١٦)</sup>.

وإذا كانت الرواية قد قامت على حدثين رئيسيين هما: التعرف الى بقيا أسرة آل ياسر، وزواج سمية بنت سليمان شنوب، فإن المتأمل في الأحداث يلاحظ أنها كشفت قوة العلاقة بين أمين من جهة وبين كل من سمية وسليتي آل ياسر من جهة أخرى، كما ظهرت الى جانب هاتين الحادثتين حوادث جزئية كثيرة تشكل خلفية واضحة للفكرة الأساسية التي تقوم عليها حبكة الرواية.

وإذا كانت الأحداث قد تطورت في بداية الرواية في صالح العلاقة بين أمين وبين الطرفين الآخرين، فإن النهاية جاءت لتؤكد حتمية انفصام العلاقة، لتتقلب من الايجابية الى التضاد، وكانت تلك النهاية قمة الحدث الدرامي الذي يمثل الفكرة الجوهرية. فالحبكة، على هذا النحو، لا ترتبط بقصة حب عاطفية أو قضية شعورية وانما بفكرة، استطاعت أن تتجسد في خلق فني اصيل.

- ٣ -

اهتم جبرا في هذه الرواية برسم شخصياته من الخارج ومن الداخل، فقد رسم كلا من «أمين» و «سمية» عن طريق التقابل. فسمية ابنة المدينة التي تعيش في كنف والدها التاجر الثري وأمين القروي ابن البستاني الفقير الذي لا يخجل من الفناء في الاعراس والشدو بالاغاني الشعبية.

ان مآسي الفلاحين وجو كفاحهم العنيد من أجل الحياة لم يكن يستثير في «سمية» غير شعور التسلية والطرافة، لأنها منفصلة شعوريا وواقعا عن هذا الجو، وكل ما يربطها به هو ما

تسمعه من حكايات لذيدة، على العكس من أمين الذي ذاق صنوف العذاب في حياته القاسية، فقد تتقف على والده ثقافة شعبية ساذجة عميقة، وعاش جو القرية بكدحها وشقاها وياحتفالاتها الشعبية.

عرف اليتيم مبكرا ونزح الى المدينة في رعاية أخيه الأكبر الذي يعمل «ميكانيكيا» حيث عرف حياة الكدح والشقاء، واستوعب المآسي المختلفة في أحياء المدينة الشعبية، فيرى مثلا أما تستنجد بالمارة وطفلاها يفرقان في مياه الأمطار في اعماق الليل، ويرى المتسولين يتضورون جوعا دون عون، كما يرى العاهرات والقوادين يتصيدون طلاب المتعة لقاء لقمة غير سائغة.

ولم يكتف الكاتب باظهار الملامح الخارجية الشخصية وما يؤثر فيها من عوامل خارجية بل حاول أن يفصل في هذه الملامح، كما نرى ذلك مثلا في وصف الوان الملابس التي ترتديها «سمية» فقد كانت تلبس بلوزا أصفر وتنورة خضراء وذلك ما كان يجبه أمين<sup>(١١٧)</sup> فكان لهذه التفاصيل الخارجية اثر في رسم الشخصية من الداخل ايضا.

غير أن العناية برسم الشخصيات من الداخل كانت اكثر وضوحا في الكشف عن المعاناة الداخلية لأمين الذي اثرت فيه عدة عوامل اجتماعية ونفسية لونت نظرتة الى الاشياء، فقد راح يحقد على المرأة بعد هروب «سمية» التي أوهمته بميوها الشعرية وطبيعتها الخيالية، وبعدم تعرفها على الشباب. حيث يقول عن تلك الفترة التي تعرف فيها الى «سمية» وراحت تشجعه على الكتابة والنشر: «فلو هاجم حينئذ رجل مثل رشيد الشباب اليائسين البرمين بالحياة والدنيا، لكنت اضفت صوتي الى صوته<sup>(١١٨)</sup>». فانعكست تجربته مع «سمية» على تفكيره، حتى أصبح يرى أن المرأة لا تعرف الا جسدها مهما تقدمت بها السن، على عكس الرجل الذي لا يستغرقه اهتمامه بالجسد. وقد حاول المؤلف أن يعمق من أزمة «أمين» النفسية، عندما اتهمه بالتشاؤم، لأنه أخفق في حبه، فيما احتضن زوجته «دانية» التي كانت على صلة جسدية بأمين، وقال: ان المرأة هي أعز شيء

ولقد اتضح التطور الدرامي للشخصيات بوضوح في هذه الرواية ومما ساعد على ذلك وجود التفاوت الاجتماعي بين البطلين كما هو الحال بين «أمين» و «سمية» فظهرت ثمة تحولات في شخصية أمين نتيجة لعدد من الأحداث والظروف التي أثرت في فكرة وفي سلوكه معا، منذ طفولته في القرية، وصباه في المدينة، حتى شهرته وتعرفه على «سمية» و «سليمتي آل ياسر». كان متفتحا متفائلا، غير أن هرب «سمية» أقض مضجعه، وأصابه بالضجر

والياس، فالشخصية والحدث متلازمان، وكان بوسع «امين» أن يقبل توبة «سمية» العائدة التي يتوق اليها بشدة، ولكنه يرفضها، بل يرفض كنوز ركزان ويستوي خلقا جديداً. فتطور الشخصية على هذه الصورة مسوغ، فقد اثر تكوين أمين والحوادث التي مرت به، على الكمال النهائي لشخصيته، حين تكشف أبعاد الشخصية تماماً.

- ٤ -

حاول جبرا ابراهيم جبرا في هذه الرواية أن ينتهج في سرده اسلوبا قريبا من الاسلوب التقليدي، مع اختلاف يسير. فقد ابتدأ الرواية من جزئها الأخير، بعد أن تعرف أمين على عنایت هانم، وخذ طريقه الى النشر. فيعرض لهرب سمية بعد زواج استمر سنتين، ثم يعرض أمين بعد ذلك قصة حبه لسمية بضمير المتكلم، لينتقل بين الحين والآخر فيسرد علينا من ذكرياته شرائح لحياته في الماضي. وقد تمكنت هذه الرواية أن تحقق هدفها - بتوسلها بضمير المتكلم - في الكشف عما يعاينه البطل. كما كانت الذكريات والحوار الداخلي والاستبطان وسائله في الكشف عن احساسه تجاه الشخصيات الاخرى وتجاه الاحداث، غير أن هذه الرواية لم تكشف عن ذاتية مسرقة، فشخصية «امين» طبيعية انسانية ليست مصابة - على الرغم من امتيازها العقلي - بداء التضخم أو النرجسية. كما أن أمين لم يقع في مزلق الدعائية والمباشرة والفردية على الرغم من سرده أحداث الرواية بالطرق المختلفة.

وقد بدا الحوار في هذه الرواية واضحا، وان كان أقل كثافة من الروايات التي تصطنع وسائل السرد العادية، لأنها رويت بضمير المتكلم، واستلهمت كثيرا من طرائق السرد الحديثة، ولعل تلك القصة التي رواها والد أمين له وهو صبي دون العاشرة، والتي تدور حول النساء والصدقة والمال<sup>(١٦)</sup>، تكشف بوضوح عن مستوى شخصية ذلك الرجل الفلاح. وما يتمتع به من بساطة وعمق، فضلا عن اثر هذه القصة بصورة عامة بما تحمل من دلالة رمزية تلتحم بتطور الأحداث والعقدة. ويمكننا أن نلاحظ ما يقوم به الحوار من دلالة جيدة في قول رشيد بطرس البرجوازي، المطمئن الى زوجته، ذات العلاقات الجنسية المتعددة: «أنتم تتغاضون عن كل ما يعجب به الانسان، فلا تنتهبون الا الى العيب والاعوجاج، ثم تزيدون الطين بلة بمنطقكم المعكوس، وبرفضكم القيم الصحيحة، وبخلقكم هذه الصورة كأنها الكوايس، لا ريب في ان اذهانكم مسرح للصرابير، واذا

تأملت في جسد امرأة، فلن تجدوا لذة في التنكيت الا على مؤخرتها. تعتقدون أن الناس أوغاد اذا كانوا أغنياء، وشحاذون اذا كانوا فقراء. تمقتون العفة، ولكن تهاجمون كل من لم يكن عفيفا، أما النساء عندكم فهن اما مومسات رخيصات، أو ماصات لدماء الرجال(١٢٠)، وتتفق هذه الافكار مع شخصية رشيد، الذي يرفض ما يزعمه الشباب من معاناة وضجر وضياح، وما يببالغون به في تحميل الأمور فوق طاقتها، كما تتفق أيضا مع غفلة رشيد وسذاجته. علاوة على دورها في ابراز التناقضات المختلفة التي يقوم عليها بناء الرواية.

ويمكننا أن نتابع وظيفة الدلالة الرمزية للحوار في اسهام التناقض في تحقيق توازن البناء الفني، في قول امين لسمية عندما عادت اليه من جديد(١٢١)، أو عندما يوجه حوار(١٢٢) الى ركران، اللذين أشرنا اليهما من قبل.

أما لغة الرواية فجاءت صافية نقية، تمتاز بقوة واضحة، وعفوية تدل على تمرس واقتدار.

## المصادر والمراجع

فيما يلي أهم المصادر والمراجع التي وردت في البحث:

- الأسد (د. ناصر الدين) محاضرات عن خليل بيدس معهد الدراسات العربية العالية القاهرة ١٩٦٣.
- الأشتر (د. عبد الكريم) دراسات في أدب النكبة (الرواية) دار الفكر دمشق ١٩٧٥.
- البحري (جميل مترجم) ظلم الوالد المطبعة الوطنية حيفا ملحق مجلة الزهرة ١٥ ايلول ١٩٢١.
- البحيري (حسن) (رجاء) رواية مخطوطة بمكتبة المؤلف الخاصة بدمشق كتبها ١٩٣٩.
- البيتجالي (اسكندر الخوري) أ - الحياة بعد الموت مطبعة الروم الأورثوذكس القدس ١٩٢٠.
- بيدس (خليل) ب - في الصميم: نشر مكتبة العرب بمصر ١٩٤٧.
- أ - الوارث مطبعة دار الايتام الاسلامية القدس ١٩٢٠.
- ب - مسارح الأذهان المطبعة العصرية القاهرة ١٩٢٤.
- التميمي (محمد رفيق) ولاية بيروت القسم الجنوبي بيروت ١٣٣٥.
- ثيودري (قسطنطين) بين الأسر والحرية دار الايتام الاسلامية القدس ١٩٢٩.
- جبرا (جبرا ابراهيم) صراخ في ليل طويل منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٤.
- الجدع (أديب) مترجم سيف النبي محمد المطبعة الوطنية حيفا ملحق مجلة الزهرة ١٥ تشرين أول ١٩٢١.
- الحسيني (د. اسحق موسى) مذكرات دجاجة سلسلة اقرأ رقم ٨ دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٥٣.
- الحسيني (جمال) أ - على سكة الحجاز مطبعة دار الايتام الاسلامية القدس د. ت. د.
- ب - ثريا مطبعة دار الأيتام الاسلامية القدس د. ت.

- دروزة (محمد عزة) (وفود النعمان على كسرى أنو شروان مطبعة صبرا بيروت ١٣٣١)
- السعافين (د. ابراهيم) تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام. وزارة الثقافة والاعلام بغداد ١٩٨٠
- العارف (عارف) مرقص العميان دار الفكر العربي القاهرة. ١٩٤٧.
- العدناني (محمد) في السرير مطبعة سعد حلب ط ٢ ١٩٥٣
- ابو مطر (د. أحمد) دراسات في الأدب الفلسطيني دار الطليعة الكويت ١٩٧٩
- معقد (جرمانوس) حسناء بيروت المطبعة العلمية بيروت ١٨٩٨.
- نجم (د. محمد يوسف) القصة في الأدب العربي الحديث دار الثقافة بيروت ط ٢ ١٩٦٦
- النيسابوري (فريد الدين العطار) منطق الطير دراسة وترجمة د. بديع محمد جمعة دار الأندلس بيروت ١٩٧٩.
- ياغي (د. عبد الرحمن) حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة منشورات المكتب التجاري بيروت ١٩٦٨.

Abu ghazaleh, Adnan: Arab culture of nationalism in Palestine P. 63 the institute for palestine Studies- Beirut 1973.

## الدوريات:

- ١ - الضياء بيروت ابريل عدد ١٦-١٩٠١
- ٢ - زهرة الجميل حيفا ١٥ تشرين أول ١٩٢١-١٥ أيلول ١٩٢١
- ٣ - عالم الفكر د. شكري عياد: مقالة حول الرواية العربية الحديثة المجلد الثالث الكويت ١٩٧٢.
- ٤ - النفائس حيفا ١٩٠٨



## مصادر البحث

- ١ - انظر مثلاً: د. ناصر الدين الأسد: محاضرات عن خليل بيدس ص ١١ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣ ود. عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص ٢٢٥، ٥٢٦ منشورات المكتب التجاري - بيروت.
- ٢ - انظر: ابراهيم السعافين: تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام: باب (الرواية العربية الكلاسيكية) وزارة الثقافة والأعلام بغداد ١٩٨٠.
- ٣ - ناصر الدين الأسد: محاضرات عن خليل بيدس ص ٦ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣ نقلاً عن حديث الصومعة.
- ٤ - المرجع السابق ص ٧ نقلاً عن ولاية بيروت - القسم الجنوبي .
- ٥ - محمد رفيق التميمي: ولاية بيروت - القسم الجنوبي - بيروت ١٣٣٥ هـ
- ٦ - تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ص ٥١ وما بعدها. وانظر كذلك: د. محمد يوسف نجم: القصة في الأدب العربي الحديث ص ٣١ وما بعدها، دار الثقافة بيروت و د. عبد المحسن بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ص ١٢٣ وما بعدها دار المعارف بمصر.
- ٧ - د. احمد ابو مطر: دراسات في الأدب الفلسطيني ص ٧٤-٧٥ دار الطليعة-الكويت حيث أشار الى أمانة أحد المترجمين.
- ٨ - يعقوب العودات: أعلام الفكر والأدب في فلسطين ص ٥٨٧-٥٨٩ عمان ١٩٧٦.
- ٩ - جرمانوس معقد: حسناء بيروت ص ٤، ١٢، ١٧، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٦٧، ١٠٥، ١٢٢، ١٦٤ على سبيل المثال لا الحصر، المطبعة العلمية بيروت ١٨٩٨.
- ١٠ - المصدر السابق ص ٤، ٥
- ١١ - المصدر السابق ص ٩٦.
- ١٢ - د. عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص ٤٣٧.
- ١٣ - د. أحمد مطر: دراسات في الأدب الفلسطيني ص ٩٨
- ١٤ - في مقابلة بمنزله بدمشق بتاريخ ١٠/٣/١٩٨٠.
- ١٥ - Abu-Ghazaleh, Adnan Arab Cultural Nationalism in Palestine P. 63 the institue for palestine studies Beirut 1973.
- ١٦ - مطبعة صبرا - بيروت ١٣٣١.
- ١٧ - مجلة الزهرة: ظلم الوالد ص ١٠.
- ١٨ - مجلة الرواية ص ٢٠.
- ١٩ - محاضرات عن خليل بيدس ص ٣٠.
- ٢٠ - المرجع السابق ص ١٨، ٢٩
- ٢١ - حياة الأدب الفلسطيني ص ٦، ٧، ٥٢٢.
- ٢٢ - أشار الدكتور عبد الرحمن ياغي في حياة الأدب الفلسطيني ص ٤٥٠. الى أن رواية «الوارث» من رواياته المعربة، ولعل ذلك يرجع الى نشر رواية مختصرة معربة بعنوان «الوارث» في مجلة الضياء (ج ١٦ ٣٠ ابريل ١٩٠١) مترجمة عن الانجليزية بقلم «نسيب أفندي المشعلاني». والرواية تدور حول ابن متبني مات متبنيه وراح يبحث

عن الوارث الحقيقي، فيتعرض للخديعة صديق غير وفي، وساقطة ولص، بينما يكاد يتنكر لحبيبه الوفية اميليا، ولكنه أخيراً يكتشف الخديعة، وينمي اليه خبر الوارث. وربما كانت قتيل والديه التي نشرت في المجلة نفسها «بقلم ابراهيم أفندي بركات» أقرب الى جو رواية الوارث وحبائل «استير». فقد وقع البطل في حبائل المرأة التي أدت به الى الموت. ولا شك أن هاتين الروائيتين كانتا تحت بصر خليل بيدس وزملائه.

- ٢٣- حاولنا أن نشير الى الخطوط الرئيسية للأحداث حتى تتضح الصورة في حديثنا عن الأحداث والعقدة فيما بعد، وهذا ما سنقوم به في الحديث عن غيرها من الروايات.
- ٢٤- لاسكندر الخوري البيتجالي رواية بعنوان «في الصميم» أقرب الى البحث وهي أقل قيمة من «الحياة بعد الموت» لذا فقد آثرنا عدم التعرض لها (نشرتها مكتبة العرب بمصر ١٩٤٧).
- ٢٥- اسكندر الخوري البيتجالي: الحياة بعد الموت المقدمة، مطبعة دير الروم الأثوذكس القدس ١٩٢٠.
- ٢٦- جمال الحسيني: ثريا ص ٤٢، مطبعة دار الأيتام الاسلامية بالقدس، بيت المقدس، فلسطين.
- ٢٧- محاضرات عن خليل بيدس ص ٢٣
- ٢٨- قسطنطين ثيودري: بين الأسر والحرية، المقدمة دار الأيتام الاسلامية القدس ١٩٢٩.
- ٢٩- محاضرات عن خليل بيدس ص ٧٥، ٧٦ نقلا عن الرواية ص ١٠١-١٠٢.
- ٣٠- بين الأسر والحرية ص ٨٠
- ٣١- المصدر السابق ص ٨٠
- ٣٢- محاضرات عن خليل بيدس ص ٧٣ نقلا عن الرواية ص ١٠٣، ١٠٤
- ٣٣- الحياة بعد الموت ص ٢١٥.
- ٣٤- محاضرات عن خليل بيدس ص ٧٥، ٧٦.
- ٣٥- بين الأسر والحرية من ص ٨٧-٩٢.
- ٣٦- انظر مثلا (ثريا) ص ٣٨-٤٩.
- ٣٧- ثريا ص ١٨.
- ٣٨- بين الأسر والحرية ص ٢١٥.
- ٣٩- محاضرات عن خليل بيدس ص ٦٨.
- ٤٠- محاضرات عن خليل بيدس ص ٧٧، ٧٨.
- ٤١- ثريا ص ١٨.
- ٤٢- من حديث لي مع المؤلف في ١/٢/ ١٩٨٠ بمنزله في دمشق.
- ٤٣- من حديث لي مع المؤلف في ١/٢/ ١٩٨٠ بمنزله في دمشق.
- ٤٤- حسن البحيري: رجاء ص (٢٠) مخطوطة.
- ٤٥- رجاء ص ٢ (المخطوطة)
- ٤٦- المصدر السابق ص ٣٥

- ٤٧- في السرير ص ٥٤ .
- ٤٨- المصدر السابق ص ٦١
- ٤٩- رجاء ص ٢٨ .
- ٥٠- المصدر السابق ص ٨٨
- ٥١- في السرير ص ٣٨
- ٥٢- المصدر السابق ص ٤٠
- ٥٣- المصدر السابق ص ٥٥
- ٥٤- المصدر السابق ص ٦٤
- ٥٥- رجاء ص ٤٢
- ٥٦- المصدر السابق ص ٤٣
- ٥٧- المصدر السابق ص ٦٢
- ٥٨- المصدر السابق ص ٦٧
- ٥٩- المصدر السابق ص ٧٣
- ٦٠- المصدر السابق ص ١٠٦
- ٦١- لعل رواية «رجاء» أجدر من «رغيف» توفيق يوسف عواد «يحمل اسم «الرغيف» لما فيها من حديث مطول عن اثر الرغيف في حياة الناس .
- ٦٢- رجاء ص ٢١-٢٢
- ٦٣- في السرير ص ١٢
- ٦٤- المصدر السابق ص ٥٨ ، ٥٢
- ٦٥- المصدر السابق ص ٦٢ ، ٦٣
- ٦٦- المصدر السابق ص ٧٠
- ٦٧- المصدر السابق ص ١١٢
- ٦٨- المصدر السابق ص ١٦٥
- ٦٩- المصدر السابق ص ١٧٤
- ٧٠- المصدر السابق ص ١٨٠
- ٧١- رجاء ص ٨٧
- ٧٢- المصدر السابق ص ٩
- ٧٣- المصدر السابق ص ٩٢
- ٧٤- المصدر السابق ص ٩٥
- ٧٥- المصدر السابق ص ٤٤
- ٧٦- في السرير ص ١٢٤
- ٧٧- انظر المصدر السابق ص ٢٣ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٦٨ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، وانظر رجاء (المخطوطة) ص ٤ ، ١١ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦ .

- ٧٨- رجاء ص ٨٢
- ٧٩- في السرير ص ١٦٥
- ٨٠- المصدر السابق ص ١٠١ وما بعدها
- ٨١- المصدر السابق ص ٤٢ .
- ٨٢- رجاء ص ٢
- ٨٣- المصدر السابق ص ٩
- ٨٤- المصدر السابق ص ٩
- ٨٥- المصدر السابق ص ٤١
- ٨٦- المصدر السابق ص ٢٦
- ٨٧- في السرير ص ١٤٣، ١٤٤
- ٨٨- المصدر السابق ص ١٤٤، ١٤٥
- ٨٩- رجاء ص ٦١، ٦٢
- ٩٠- المصدر السابق ص ٨١
- ٩١- رجاء ص ٦٤
- ٩٢- المصدر السابق ص ٨١-٨٢
- ٩٣- المصدر السابق ص ٥٤
- ٩٤- المصدر السابق ص ٩٨
- ٩٥- المصدر السابق ص ٧٨-٧٩ .
- ٩٦- رجاء ص ٧
- ٩٧- المصدر السابق ص ٨، ٩
- ٩٨- المصدر السابق انظر على سبيل المثال الصفحات التالية ٥، ٧، ٢٠، ٢٦، ٣٠، ٣١، ٣٧، ٣٩، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥٢، ٥٤، ٥٨، ٦٢، ... الخ.
- ٩٩- المصدر السابق ص ٦٤
- ١٠٠- المصدر السابق ص ٦٨
- ١٠١- المصدر السابق ص ٧٣
- ١٠٢- انظر الكتاب دراسة وترجمة د. بديع محمد جمعة - دار الاندلس بيروت ١٩٧٩
- ١٠٣- د. اسحق الحسيني: مذكرات دجاجة المقدمة سلسلة أقرأ دار المعارف ١٩٤٣
- ١٠٤- حياة الأدب الفلسطيني ص ٥١٩
- ١٠٥- د. عبد الكريم الأشر: دراسات في أدب النكبة ص ١٤٥ دار الفكر دمشق ١٩٧٥.
- ١٠٦- مذكرات دجاجة ص ٥ .
- ١٠٧- المصدر السابق ص ١١٥
- ١٠٨- المصدر السابق ص ١١٦
- ١٠٩- المصدر السابق ص ١٥١، ١٥٢

- ١١٠- المصدر السابق ص ١٥٢-١٥٣
- ١١١- صراخ في ليل طويل ص ٩٤ مطبعة العاني ١٩٥٤
- ١١٢- المصدر السابق ص ٩٥
- ١١٣- المصدر السابق ص ١٧
- ١١٤- د. شكري عياد: مجلة عالم الفكر الكويتية ص ٢٢ المجلد الثالث ١٩٧٢.
- ١١٥- صراخ في ليل طويل ص ٩٣
- ١١٦- المصدر السابق ص ٣
- ١١٧- المصدر السابق ص ١٣
- ١١٨- المصدر السابق ص ٤٦
- ١١٩- الرواية ص ٨٣.
- ١٢٠- الرواية ص ٤٣
- ١٢١- المصدر السابق ص ٨٠
- ١٢٢- المصدر السابق ص ٨١

## فلسطين

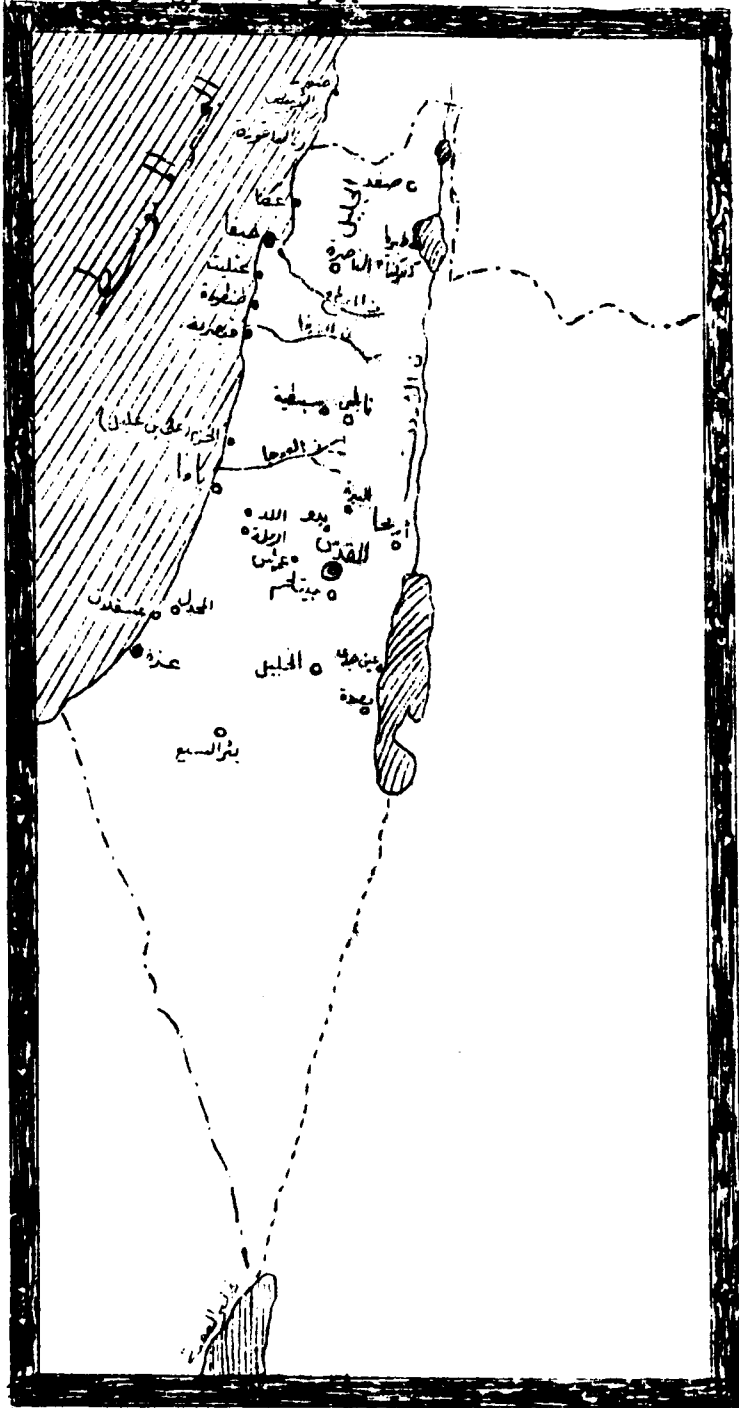
### في «مذكرات الفارس دارفيو» البنية الطبيعية والبشرية

د. ليلى الصباغ

جامعة دمشق

قد يقول باحث وما الجديد في موضوع كهذا؟ أليست «مذكرات الفارس دارفيو» نموذجاً من أدب الرحلات «الغزير، الذي دونه الرحالة الأوربيون أكانوا تجاراً، أو حجاجاً، أو مبعوثين سياسيين، أو سياحاً دفعهم حب الاطلاع وروح المغامرة - بعد زيارتهم لبلاد الشرق بعامة، ولفلسطين «الأرض المقدسة» بصفة خاصة، وكانوا يكررون في كثير من الحالات بعضهم، فينقلون ما جاء في الرحلات السابقة لهم، ولم لم يزوروا فعلاً بعض تلك الديار؟ أو ليست تلك المذكرات مصدراً مطروقاً عرفه كل الباحثين عن احوال البلاد الشامية والمغربية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة - السابع عشر للميلاد؟ قد يكون جزء من هذا التساؤل حقيقة، فمذكرات الفارس دارفيو «في خطوطها العريضة لا تخرج عن كونها في اجزاء منها، لا في كلها، من «أدب الرحلات» الذي نما وتألقت في اوربا اثر الكشوف الجغرافية بصفة خاصة، وما بعدها، نتيجة تزايد عدد المنتقلين من اوربا الى مختلف انحاء العالم، وبالذات الى بلاد «الدولة العثمانية»، في المشرق والمغرب على السواء، وذلك للأسباب العديدة المشار إليها آنفاً، مضافاً إليها اهتمام اوربا في تلك المرحلة من الزمن بالدولة العثمانية، التي كانت تهدد وجودها آنذاك بآسها وقوتها العسكرية من ناحية، وتثير جشعها وطمعها بخيرات البلاد التابعة لها في المشرق والمغرب العربيين فتعمل باحثة عن مواطء قدم

فلسطين في مذادات القاريين ارض



اقتصادية على ارضها، او تسعى لتثبيت القائمة فعلا. وفي الواقع، ان «ادب الرحلات» هذا لم ينم في بلاد اوربا فحسب، بل كان له ما يقابله في هذه الحقبة ذاتها، في بلاد المشرق والمغرب العربيين، وهو في جوهره ليس الا امتدادا لتقليد علمي سابق، سار عليه كثير من العلماء والرحالة العرب المسلمين، وان كان كثير منه لا يزال مخطوطا. ١ الا ان كون جزء كبير « من مذكرات الفارس دارفيو» من أدب الرحلات وكونها قد عرفت من كثيرين من الباحثين مصدرا لا ينفيان جودة الموضوع او أهميته فعلى الرغم من استخدام الباحثين لهذا المصدر، فانه لم يصل الى علمي تعريف مركزية، ولا سيما بالعربية، وللباحثين والقراء العرب، كما لم يخصص ما طرحته هذه المذكرات عن «فلسطين» دراسة خاصة. هذا وقد غدا الكتاب الذي يضمها، بحكم المخطوط، غير المتوافر في بعض البلاد العربية. فقد طبع عام ١٧٣٥، ولم تجدد طباعته، ولم يجر نشره مصورا. هذا بالإضافة الى هذه «المذكرات» وغيرها من رحلات الاوربيين وغير العرب، ولا سيما في هذه المرحلة من التاريخ العربي، التي لا يزال كثير من الضباب يحجب بعض جوانبها، وهي مرحلة القرن السابع عشر، تبقى مصدرا هاما لا بد من تعرفه، وموازنته مع المصادر الاخرى المعاصرة له، العربية والاجنبية، والاستفادة من المعطيات التي تقدمها، بعد فقد تلك المعطيات بالطبع، وتمحيصها «فأدب الرحلات» العربي والاجنبي، نبع ثر بمعلومات كثيرة، يقدمها شاهد عيان فهي مبدئيا مصدر اول، ولا سيما اذا كان صاحبها من العلماء، او المثقفين اصحاب الخبرة والدراية في الشؤون التي يتحدثون عنها ولا يجب ان ينسى، بأن ذلك الأدب لم يكن أدبا جغرافيا بحتا، وانما أدبا جامعا لفنون عديدة من جغرافيا، وتاريخ وسياسية، وآثار، ومعارف متنوعة. فهو مرآة تعكس احيانا للصورة التاريخ الكلي للمنطقة التي زارها الرحالة، في تلك الحقبة من الزمن وان اختلف صفاء هذه الصورة من مرآة الى أخرى، ومن جزء من المرآة الى آخر. بل ان الحالة التي تحيط بتلك الصورة احيانا، والتي تمثل انطباعات صاحبها وتعليقاته الخاصة ومشاعره، مهما كانت، تكون صورا هاما للباحث، يمكنه منه ان يستشف امور كثيرة، ويصل الى تفسيرات ذات قيمة.

وقد يكون من التوصيات التي يرجى ان يخرج بها مؤتمرا هذا هو جمع مكتبة عن «فلسطين» أدب الرحلات الاجنبية «عبر العصور المختلفة»، مهما كان نوع ذلك ونظرة صاحبه، وذلك في معلمة واسعة، تصنف بحسب القرون او العصور، او جنسيات اصحابها ولغاتهم. وأن تترجم نصوص تلك الرحلات، الخاصة بفلسطين، الى اللغة العربية، كما فعل مثلا المستشرق «غي لوسترانج» في كتابه «فلسطين تحت حكم المسلمين»<sup>٢</sup>، عندما جمع



النصوص الخاصة بفلسطين التي اوردها عديد من الجغرافيين العرب المسلمين عبر القرون المختلفة وحتى اواخر القرن الخامس عشر، وقام بترجمتها الى الانكليزية، على ان تشفع « بخرائط تاريخية» توضح سير تلك الرحلات والاسماء التي اطلقها اصحابها على مختلف الامكنة، مع بيان الاسم الحقيقي المقابل له بالعربية، وكما كان عليه في الواقع وان يسعى في الوقت نفسه لجمع كل الخرائط، التي رسمها الأوربيون وغيرهم من غير العرب لفلسطين، عبر العصور المختلفة ايضا. هذا بالاضافة، بالطبع، الى مكتبة خاصة بأدب الرحلات العربية عبر القرون، حتى الفترة المعاصرة.

ومن البديهي ان يقال ان «مذكرات الفارس دارفيو» تستقي قيمتها، كأية مذكرات اخرى او رحلة، او مؤلف، من شخصية مؤلفها، والحقبة التي عاشها، وبنيتها الثقافية، وقدراته الفكرية وفعالياته الحياتية المختلفة، واهتماماته، ومدى قربه من الاحداث التي يصورها وبعده عنها، ومدى استمرار ملاحظته لها، وغيرها من امور كثيرة تدخل في تركيب شخصيته، وتؤثر في انتاجه. كما تستمد المذكرات اهميتها ايضا، شأنها في ذلك شأن اي مؤلف، من مدى غناها بالمعلومات الصحيحة، والتفسيرات المنطقية السليمة، والنقد الصحيح، والعلقيات العميقة، البعيدة عن الهوى، فماذا عن «الفارس دارفيو»؟ ومذكراته؟

### سيرة المؤلف ٣

ان الاسم الاول «للفارس دارفيو» هو لوران LAURENT وقد ولد في ٢١ حزيران (يونيو) ١٩٣٥، في ريف مدينة مرسيليا، ميناء فرنسا الشهير على ساحل البحر المتوسط. وابوه هو «لويس» من أسرة «ارفيو» التي ترجع في اصلها الاولى الى مدينة الاسكندرية دوباى - A.DE Paille من مدن «لومبارديا»، في الشمال الغربي من ايطاليا، والى الشرق من «تورينو». وهي اسرة عريقة في نبالها، وقد انقسمت الى فروع عديدة، انتشرت في لومبارديا، واليه مون من الشمال غربي ايطالية، وفي المقاطعات الفرنسية الشرقية والجنوبية، القريبة من الحدود الايطالية، كمنطقة السافو (الشرق الجنوبي من فرنسا)، والبروفنس (اقصى الجنوب الشرقي من فرنسا على ساحل البحر المتوسط) واللانغدوق (غربي البروفنس)، وكذلك في انكلتره وجميع هذه الفروع اتخذت زكها اللون اللازوردي مع عقاب ذهبي اللون، من لسانه حتى يدا منقاره على شكل فم كلب، الا انه جرى بعض تحويل وتبديل في هذا الشعار من فرع الى آخر.

وكان اسم الاسرة الاول «ارفيو» ARVEI بالجمع وقد حوفظ على هذه الصيغة للاسم في ايطاليا، بينما تغير لفظه بحسب اللهجة البروفنسية في فرنسا الى «ارفيو» ARVIU، والى «هارفي» HARVEI في انكلترا وقد نشره عام ١٩٠٠. و«أراضي الخلافة الشرقية» The Lands of The Eastern Caliphate. وقد نشره عام ١٩٠٥.

وعرف مؤلفنا «لوران» في البلاط الفرنسي، اول ما عرف، تحت اسم «ارفيو Arvou» اي كما ينطقها «السيروفنسيون»، الا ان نهاية الكلمة بدت قاسية في المنطق، فاعتادوا تسميته ب «ارفيو ARVIEU» وعندما عين مبعوثا فوق العادة في القسطنطينية، اضيف حرف اكس X» الى آخر الكلمة مع وضع حرف التعريف «d'» في اولها. وهكذا عرف باسم «الفارس دارفيو» وثبت عليه.

وترجع نبالة الاسرة الى «قيصر ارفيو Qasar Arvio» الذي كان حيا عام ١٣١٠م وعمل «مرافق فارس». وقد تسلسل احد عشر جيلا حتى «لوران»، وكلهم اعترف بهم فرسانا ونبلاء، دون ان يحظ واحد منهم من قدر اسرته، او يتزوج زواجا غير لائق- على رأي «الاب لابا» ما عدا «توسان ارفيو Toussaint Arviou»، الذي كانت عائلته موجودة في الثلث الاول من القرن السابع عشر، في مرسيليا، تحت اسم «دارفيوا» ولكنها لم تعرف انها نبيلة<sup>٤</sup>. والفرع النبيل الذي كان «لوران دارفيو» رأسا له، قرض بموته، اذ توفي دون خلف عام ١٧٠٢، وله من العمر سبع وستون سنة، واربعة اشهر، وتسعة ايام.

وكان والد لوران «لويس» يعيش على ما يبدو حياة عادية بسيطة في اراضيه التي كان يملكها في ريف مرسيليا. وكان له من الاولاد الى جانب لوران، ولدان ذكران آخران، وبتتان<sup>٥</sup> ومع ان دخله كان متوسطا الا انه «كان فخورا بما يملك، ويسعى لادخال السرور الى قلوب جميع الناس» ومن ثم كان محبوبا ممن حوله، واستطاع ان يكتسب احترام وصدقاتهم. الا ان نزاعا دب بينه وبين جار له في الارض، عندما اراد هذا الجار شق طريق كان لا بد له من ان يمر عن اراضيه. وحاول التفاهم معه بالحسنى، الا او المفاوضات لم تثمر، فعمل اولاد جاره على قتله في السادس من آب عام ١٦٥٠، وهو في السادسة والخمسين من عمره. ويعلق «الاب ربا» على مقتله بقوله «الا انه كان رضي الاخلاق، سمح الطباع، حتى انه صفح عن قاتليه<sup>٦</sup>» قبل ان تأتيه الوفاة وحرم على زوجته واولاده ملاحقة المعتدين بالانتقام، والتأثر له بعد موته ويبدو أن لوران قد ربي في كنف جدته حتى سن الثانية، ولا يعرف السبب لم لم تكن والدته، ثم اخرجه والده من لدنها ليزوده بتعليمه الاول، وليلحقه بعد ذلك بكلية مرسيليا.

وفي هذه الكلية اظهر لوران تفوقا وانكبابا على العلم، وكان ميله للرياضيات وباللغات الاجنبية يشغل الجزء الأكبر من وقته، وكان على وشك الانغماس في دراسة «الفلسفة» لو أن الطاعون لم ينتشر في المدينة ويجبره على قطع دراسته في الكلية، ومغادرة مرسيليا الى الريف، حيث اسرته. ولم يتوقف انتشار الطاعون، الا ليعود ثانية، ولم تظهر المنطقة تماماً منه حتى تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٦٥١. وخلال هذه الفترة التي عاشها «لوران» في الريف درس الرياضيات بجد، واحسن برغبة جارفة لتعلم اللغات الاجنبية، والسياحية. وكان ابوه قد توفي عام ١٦٥٠، «كما اشرنا الى ذلك»، فقررت الاسرة تحميله مسؤولية العناية بأملأكها، على الرغم من انه لم يكن يتجاوز السادسة عشرة من عمره. الا انها رأّت حسبا ذكره «الاب لابا» ان حكمته وبصيرته كانتا تفوقان عمره<sup>٧</sup>.

ولكن ميوله كانت معارضة مع ما كلف به، فله تطلعات اخرى، وادارة الاملاك الريفية للاسرة لا يرضي تلك التطلعات، ولا ينسجم مع طموحه، ولا سيما انه كان يعرف انه سيقع حتما في خلاف مع والدته. التي نصبها ابوه، وصية على تلك الاملاك قبل وفاته، وهي المعروفة بتبذيرها، ففكر بطريق آخر يسلكه.

ووجد ان «تجارة الجملة التي كان يمارسها المرسيليون في «الليفانت»<sup>٨</sup> هي الباب الوحيد المفتوح للحصول على الرزق، ولارضاء رغباته الاستطلاعية، وحبه للسياحة والتنقل. فهذه التجارة كانت انذاك هي المنفذ لفئة النبلاء الفقراء، اذا ما أرادوا ترميم او ضاعهم المالية، واقامة اودهم واود اسرهم. وقد استعادت كثير من البيوت الكبيرة في مرسيليا، والبروفنس، نفوذها المالي، وعنوها السالف عن هذا الطريق، دون ان يسيء هذا الى نبالتها، فقد منح الملك هؤلاء النبلاء الصغار امتياز لمكان قيامهم بتلك التجارة في «الليفانت» كما سمح لهم بتوظيف امواهم في اسكالات<sup>٩</sup> الشرق، كما فعل نبلاء مدن البندقية، وجنوة، وفلورنسة، وليفورن<sup>١٠</sup>، وغيرها من مدن ايطاليا، وكذلك النبلاء في انكلترا، وفي كثير من البقاع الأوربية الأخرى.

فبلاد «البروفنس» منطقة جبلية، قليلة الخصوبة في كثير من اجزائها، ولم تكن تنتج في ذلك الوقت ما يكفي لاعالة سكانها، ولذا فليس امامهم سوى التجارة. وقد ساعدتهم اطلالتهم على البحر المتوسط في التوجه الى هذا المجال. وكانوا ينظرون الى «الليفانت» «الامبراطورية العثمانية» وكأنها بلاد الهند، التي تدر عليهم لبنا وعسلا، وثبت لديهم ان من يعمل بالتجارة في تلك البقاع بحب واخلاص وعقل ورضانة، فإنه قادر، ولا سيما اذا ما حالفه الحظ، على ان يجمع ثروة كافية تنعش اسرته، وتجعله يمتضي بقية ايامه في نعيم ورخاء.

فالى هذا الطريق اذا وجه «لوران دارفيو» نظره، احد اقربائه المدعو «برتانديه»، الذي عاد من «ازمير» ميناء الدولة العثمانية الرئيس على الساحل الغربي لآسيا الصغرى في تلك الفترة، وقد جمع ثروة كبيرة من التجارة، بالاشتراك مع آخرين كانا يساعده من مرسيليا.

وقد وافق «الاحوان» على اشراك «لوران دارفيو» معهم، وزوداه بالمعلومات الاولية والضرورية لممارسة العمل، وقبل ارساله الى الليفانت ليحرب حظه. وهكذا ابخر «لوران دارفيو» الى بلاد الشرق من ميناء «مرسيليا» في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٥٣ ووجهته ازمير. من هذا التاريخ تبدأ المذكرات التي دونها.

وصل «دارفيو» الى ازمير في الرابع من كانون الاول (ديسمبر) ١٦٥٤، واستقبله آل «برتانديه» استقبالا حسنا. وعاش في هذه المدينة عاملا في حقل التجارة خمس سنوات تغلغل خلالها في حياة ازمير، وسكانها، وعرف الدقائق من الامور والخفايا فيها<sup>١١</sup>. وكان يسعى لتعلم اللغتين التركية والعربية، بالاضافة الى الانكليزية واليونانية العامية اللتين اتقنهما. الا انه لم ينجح في تعلم اللغتين الاوليتين: فتعلم اللغة عبر قواميسها وقواعدها لا يجدي بحسب رأيه، بل لا بد من العيش في محيطها والتحدث مع اهلها، ومن ثم فلا بد من التكلم مع العرب والترك انفسهم لتعلمها ونطقها نطقا سليما، وهذا لن يتاح له الا اذا اضطر لذلك. وطالما هو في ازمير ويعيش وسط اخوان له يتكلمون لغته، او بين الجالية الانكليزية التي اتقن لغتها، فانه لن يشعر بذلك الاضطرار للتكلم بالعربية والتركية. ولذلك عندما طلب اليه «برتانديه» في آخر عام ١٦٥٧، الانتقال للعمل في اسكلة «صيدا» من بلاد الشام، فانه رحب بالامر. وكان «برتانديه» قد كون شركة تجارية مع «اليدسوريب» Sovaibe المقيم في صيدا لتصدير مادة «السنامكي»<sup>١٢</sup>. وكان باشا غزة قد اعطى السيد المذكور احتكار بيعها، لصداقة بينهما، ومنفعة متبادلة<sup>١٣</sup> وكان دارفيو بالاضافة الى كل ذلك، قد اخذ يميل من وجوده في ازمير، على الرغم من نجاحه في عمله، ومن وجود جميع انواع اللهو التي تتلاءم مع متطلبات شبابه<sup>١٤</sup>.

وهكذا ابخر من «أزمير» في السابع من شباط (فبراير) عام ١٦٥٨، ووجهته صيدا. وكانت الطريق البحرية التي عبرها المركب هي الذهاب الى مصر أولا. وهكذا فإنه عندما رسي المركب في «الاسكندرية» عمل على زيارتها، والاطلاع على أحوالها. ومن الاسكندرية أتجه الى «رشيد» فدمياط<sup>(١٥)</sup> ولعله كان يستشف الاحوال التجارية في المنطقة، بما يعود بالفائدة عليه وعلى شركائه.

ومن دمياط ركب البحر ثانية الى سورية. وبعد رحلة داهمت فيها العاصفة مركبة، قذفت به الأمواج الى قرب صور. ويبدو أن المعلومات قد وصلته بأن الجالية الفرنسية قد اضطرت لمغادرة «صيدا» الى «عكا»، لنزاع حدث بينها وبين الحاكم العثماني، بسبب أموال فرضها عليها ظلماً وتعسفاً،<sup>(١٦)</sup> ولذلك توجه «دارفيو» من «صور» الى «عكا»، حيث وصلها في ١٥ نيسان (أبريل) ١٦٥٨

الا أن الجالية الفرنسية التجارية قررت العودة الى «صيدا» مع قنصلها بعد أن سويت الأمور، فانتقل «دارفيو» معها، بعد أن قام ما يقارب أربعة أشهر في عكا.<sup>(١٧)</sup>

وفي «صيدا» عاش «دارفيو» كما عاش في أزمير ساعياً في ميدان الكسب التجاري، وفي حقل التعرف بالمدينة والمنطقة حولها، وبأهلها، وشخصياتها الرسمية والتجارية، وجادا في تعلم اللغتين العربية والتركية واتقانها. وبقي في صيدا سبع سنوات حقق خلالها أرباحاً تجارية طيبة، ولا سيما بين عامي ١٩٦٠-١٦٦٥، وكان له صلات واسعة وحسنة مع دمشق ومصر، ومع اهل صيدا وموظفيها، وتاجر بالحزير، والأقمشة المختلفة والقطن المغزول، والحبال<sup>(١٨)</sup>، واستدعى أخويه ليشاركاه بالعمل. واثناء السنوات السبع تلك قام بعدة رحلات في أنحاء بلاد الشام، أهمها رحلته الى غزة عام ١٦٥٩<sup>(١٩)</sup> ورحلته لزيارة الأماكن المقدسة ولتأدية مراسم الحج في عيد الفصح من عام ١٦٦٠<sup>(٢٠)</sup>، ورحلته الى بيروت، وطرابلس، وجبل لبنان. ودمشق في العام نفسه<sup>(٢١)</sup>، ثم رحلته ثانية الى جبل الكرمل للاحتفاء بأميرو «محمد بن أحمد طراباي» عام ١٦٦٤.<sup>(٢٢)</sup>

وفي عام ١٦٦٥ قرر «الفارس دارفيو» أن يعود الى وطنه فرنسا، بعد أن أصيبت التجارة الفرنسية في «صيدا» بالانحطاط، نتيجة ارتفاع أسعار الحرير والقطن في بلاد الشام، لمنافسة تجار حلب ودمشق، ومصر للفرنسيين في شراء تينك المادتين ونتيجة تراكم الديون على الجالية الفرنسية، واختلاف الشركاء الذين كونوا «شركة مرسيليا» فيما بينهم<sup>(٢٣)</sup>، ويضاف الى تلك العوامل العامة ضربات خاصة هزت مركزه التجاري، وأضعفته، كاستيلاء القراصنة على مركبين محملتين بسلع له<sup>(٢٤)</sup>، وافلاس تاجرين كان قد أقرضهما أموالاً<sup>(٢٥)</sup>، فصفى أعماله في صيدا، بعد أن كان يخطط للتوسع في مشروعاته التجارية، ومد نشاطه الى بيروت، والرلة، حيث يكون أخواه عميلين له فيهما<sup>(٢٦)</sup>. ومع كل ما أصابه من خيارات. فقد ثبت بعد تصفية أعماله بأنه لا يزال غنياً<sup>(٢٧)</sup> الا أنه بعد سفره وجد نفسه يتلقى (صفعة) جديدة حينما اعلم بخداع التاجر اليهودي المقيم في بيروت، الذي كلفه باجراء صفقة تجارية

لصالح شريكه برتاندية، واصطراه لتسديد ما أصاب شريكه من ماله الخاص، وكانت الصفقة أشد عندما أعلن ذلك التاجر افلاسه<sup>(٢٨)</sup>.

ووصل «دارفيو» الى «مرسيليا» بعد مغادرته «صيدا» في حزيران عام ١٦٦٥. وعاش بقية ذلك العام وجزء من عام ١٦٦٦ في قلق وضيق، متنقلا «بين مدينتي «مرسيليا» «وايكس» الى شمالها - ليحل القضايا التي خلقتها مشاكله المالية المشار اليها. ثم قرر الذهاب الى «باريس» أملا في إيجاد وسيلة تضع حداً للاضطراب المالي الذي كان يعانيه، الا أن بعض من تعرّف بهم من المسؤولين رشحته ليكون ممثل فرنسا في تنفيذ «معاهدة السلام» التي كان «الدوق ديوفور»<sup>(٢٩)</sup> قد وقعها مع الحكومة التونسية في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٦٥، والتي توضع حداً لهجوم السفن التونسية على المراكب التجارية الفرنسية، وسر ركابها، والاستيلاء على حمولتها. وفي الوقت نفسه تعمل على افتداء الأسرى المستعبدين من الركاب وتنظيم العلاقات بين تونس وفرنسا<sup>(٣٠)</sup> وكان الملك «لويس الرابع عشر» قد أصدر أمراً باختيار شخص لهذه المهمة من أهل البروفنس، الاكفيا والمخلصين للدين الكاثوليكي، وللملك.

وهكذا رحل الفارس «دارفيو» الى تونس برفقة مبعوث آخر هو «السيد مولان Moulin» في ٦ حزيران (يونيو) من عام ١٦٦٦. ووجد «دارفيو» صعوبات كبيرة في تنفيذ ما أوكل اليه، الا انه استطاع ان يوقع معاهدة مع السلطات التونسية لاعادة تجارة الفرنسيين في رأس نيغر<sup>(٣١)</sup> وطبرقة والاماكن المجاورة لها. وكان هذا أحد الاهداف الاساسية لمعاهدة السلام<sup>(٣٢)</sup> وعاد «الفارس دارفيو» الى «مرسيليا» بعد ان انهى مهمته في آب من عام ١٦٦٦.

وفتحت مهمة تونس أمام «دارفيو» باب التعرف «بكولبير» الذي أبلغه برضا الملك عنه وياب الاتصال، بولي العهد، والمشرفة على تربيته «السيدة المارشالية دولاموت La Marcchalle de La Motte» وأصبح معروفا في أواسط البلاط، وقدم للملك، ولكنه على الرغم من ذلك، فان أوضاعه المالية لم يطرأ عليها تحسن ما بدليل قوله الكل يعدني بالحماية والرعاية، ولا أحد يفكر بأن يعهد اليّ بعمل أخدم به الملك، وحسن وضعي<sup>(٣٣)</sup>. ولما فرغ صبره من الوعود، فكر في أن يرحل خارج فرنسا على حظه في البلاد الأجنبية يكون أفضل مما هو عليه في وطنه. الا أنه التقى بالسيد «ملشيسديش تيفنو Melchisedech Thovenot»، عم الرحالة الشهير، الذي عرفه «دارفيو» اثناء اقامته في تركيا وبلاد الشام.

وكان « تيفو » هذا من المهتمين باللغات الشرقية، وبالرحلات، ويملك بيتا قرب باريس، يضم مكتبة زاخرة بالمخطوطات الشرقية؛ وكان يعمل على ترجمة كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفداء، فرأى أن «الفارس دارفيو» سيكون مفيدا له في اللغة العربية، وفي تحديد الأماكن فعرض عليه الإقامة عنده ومشاركته في العمل العلمي. وبالفعل، فانه ترك البلاط، على الرغم من تحذير الأصدقاء، وانتقل اليه وعمل الاثنان معا سبعة شهور (من نيسان حتى تشرين الأول ١٦٦٧) أنبيا فيها ترجمة كتاب أبي الفداء<sup>(٣٤)</sup>، كما ألف وحده كتاب قواعد اللغة التركية، ومعجمًا، بالاضافة الى قاموس فارسي صغير<sup>(٣٥)</sup>.

وعندما علم «دارفيو» أن أستاذ الملك باللغة العربية قد توفي، وهو «فاتية ميدسان VATIER MEDECIN» فانه سعى للحلول مكانه، وكاد أن يتحقق له ذلك لولا أن عين شخص آخر غيره، كان مترجم الملك، ومدعوما من «كولبير»<sup>(٣٦)</sup>.

وفكر «دارفيو» على اثر ذلك، أن يسافر الى إنجلترا للبحث عن عمل هناك، الا أنه عرض عليه وهو يتأهب لمغادرة البلاد، أن يكون الفارس المرافق للسيدة «المارشالة دولاموت» مربية ولي العهد. وقبل العمل اعتقادا منه، أنه سيفتح أمامه أبوابا أوسع. وعندما انتقل الملك الى فرساي، فانه كان من مهمات «الفارس دارفيو» أن يحمل الى الملك والملكة يوميا أخبار ولي العهد والأمراء. وذلك قامت صلات وثيقة بينه وبين الملك، الذي أبدى اعجاباه به ومحدثه عن الرحلات ومشاهداته في بلاد الدولة العثمانية<sup>(٣٧)</sup>.

ولما أرسلت هذه الدولة مبعوثها «سليمان آغا» الى الملك «لويس الرابع عشر» للبحث في علاقاتها مع فرنسا، بعدما أظهرته من عدم الرضا عن السفير الفرنسي «دولاهة الابن De La Haye Ventelay»، وذلك في آب ١٦٦٩، فان «الفارس دارفيو» قام بترجمة الرسالة التي حملها ذلك المبعوث، وكان المترجم الوسيط في المقابلة التي تمت بين الطرفين، بل أذن له الملك بمقابلة سليمان آغا على انفراد، وتنبهه الى بعض التصرفات والأمور التي لم يكن راضيا عنها<sup>(٣٨)</sup>. وفي مطلع عام ١٦٧٠ قدم «الفارس دارفيو» الى الملك فذكره عن الأحوال والتجارة في القسطنطينية<sup>(٣٩)</sup>، كتوجيه خفي لأنظار الملك - على ما يبدو - نحو امكان تعيينه سفيرا لفرنسا في تلك العاصمة

ولكن عندما عينه الملك بالفعل، ليكون مبعوثه الى القسطنطينية بصفة «مقيم» رفضت غرفة تجارة مرسيليا ذلك، ورشحت «المركيز دو نوانتيل»، الذي تمت موافقة القصر عليه.<sup>(٤٠)</sup>

وعلى الرغم من خيبة أمل «الفارس دارفيو» فإنه لم ينفك عن خدمة الملك. فقد رافق «سليمان آغا» قبل سفره عند مقابته له، وعرفه بالأمرء، وأراه القصر الملكي وكل ما فيه من مكتبة، وملابس، وتاج ومجوهرات. بل أنه عندما طلب الملك منه أن يشترك مع «الأنيب موليير»، والموسيقى «لولى» في اعداد ملهاة «البوارجوازي النبير Le Bourgeois Gentilhomme»، وادخال شيء عن الأتراك وعاداتهم وملابسهم فيها، لتتسجم مع الجو الذي أوجدته زيارة «سليمان آغا»، فإنه تعاون تعاونًا مخلصًا، وبقي ثمانية أيام لدى الخياط الذي كلف بتهيئة الملابس والعمامات.<sup>(٤١)</sup>

ولكن لما تعثرت مفاوضات «الميركيز دونوانتيل» مع الباب العالي، حول تجديد الامتيازات، قرر الملك ارسال «الفارس دارفيو» في آب ١٦٧١، ليرفده في تلك المهمة الصعبة. ومع كل الجهود التي بذلها والسفير الفرنسي «دونوانتيل» مع السلطات العثمانية، وتنقلهما بين القسطنطينية وأدرنة فإنه - على ما يبدو - لم يحقق النجاح المطلوب<sup>(٤٢)</sup>. ومن ثم عاد الى باريس في ايلول ١٦٧٢، وقدم للملك مذكرة بما حدث<sup>(٤٣)</sup>. وعاود عمله السابق مرافقًا «للمارشالة دولاموت». الا أنه لم يلبث أن اعتذر عنه لترشيحه لمهمة في الخارج وعُد بها.

وخلال ذلك انتسب الى الطائفة التي وجد فيها الملك بين طائفتي «نوتردام جبل الكرمل» و «سان لازار القدس»<sup>(٤٤)</sup>. كما أنه نشط في ميدان العمل الفكري، فألف في عام ١٦٧٣ قاموسا تركيا لاتينيا، وانصرف الى ترتيب مذكرات عن رحلته الأولى الى «بلاد الليفانت» وحتى عودته من صيدا الى مرسيليا. وكذلك رحلته الى جبال الكرمل، وملاحظاته حول العرب فيه. وهذه الأخيرة أعدها في مدى شهر للنشر، وذلك تحت الحاح بعض من تحدث معهم فيها، كي يطلع الجمهور عليها «لأن قلة هم الذين كانوا يعرفون مثله أخلاق تلك الشعوب (أي العرب) وعاداتها» - بحسب قوله<sup>(٤٥)</sup> - ولم يلبث أن كلف بالذهاب الى الجزائر لمفاوضات السلطات فيها من أجل «باستيون فرنسا»<sup>(٤٦)</sup> والتجارة مع الجزائر، وقطع دابر القرصنة. وقد كان من المقرر أن يُرسل مبعوثًا للملك، الا أنه اكتفى بتعيينه قنصلا لفرنسا في تلك البلاد. ومع أنه نظر الى هذا التغيير في المهمة على أنه حط في مكانته، فإنه قام بما ندب له<sup>(٤٧)</sup>. وكان وصوله للجزائر في آب من عام ١٦٧٤، الا أن السلطات فيها لم ترض عنه، فقرر ترحيله في مايو عام ١٦٧٥.<sup>(٤٨)</sup>

وبعد عودة «دارفيو» من الجزائر، عُرضت عليه «قنصلية حلب الا أنه أبدى اعتراضه وبين لمدوب كولبير أن التجارة في «حلب» في تهقر، بسبب المصروفات الكبيرة التي



كانت تتحملها الجالية الفرنسية، نتيجة منافسة التجار الانجليز والهولانديين للتجارة الفرنسية وأنه لا يمكنه قبول ذلك المنصب ما لم يقدم له ما يدعمه ماليا ومعنويا. (٤٩)

وبقي « دارفيو » في باريس ثلاث سنوات، عمل فيها وكأنه خبير غير رسمي بشؤون التجارة في الليفانت، وكل ما يخص بلاد الدولة العثمانية. فقد كلف كولبير باعطاء أجوبته عن اسئلة طرحت حول تنظيم القنصليات في الليفانت (٥٠) وبادارسة مذكرة عن الاضطرابات في تجارة اسكالات الشرق وطلب اليه « مقيم » البرتغال في فرنسا باسم أميرة، أن يقدم له مذكرة عن الطريقة التي يمكن بها معاقبة « القرصنة الجزائرية » (٥١)، كما قام هو من نفسه بترجمة « الامتيازات » التي نالتها فرنسا من الدولة العثمانية عام ١٦٧٣ بعد مفاوضات « لوناتيل » الشاقة، من التركية الى الفرنسية وبعث بها الى المشرفين على تجارة الليفانت في مرسيليا، لتطبع وتعصم على جميع القنصليات ونيابات القنصليات. (٥٢) وعندما هوجمت بعض المراكب الفرنسية من قبل البحارة الطرابلسيين قد بعثت مرسيليا الى دارفيو تستشيريه فيما تفعل، وطلب اليه أن يتقدم بمذكرة بمقترحاته الى الملك: ففعل. (٥٤)

وفي عام ١٦٧٦ كان قد فكر بالانسحاب من البلاط، والاخلاد الى الراحة، الا أنه أقنع بأن يعمل مرافقا لأرملة المستشار SEQUIER (٥٥)، وكان لها من العمر خمسة وثمانون عاما، بالاضافة الى قيامه بتربية ولديها. وشعر بالراحة في عمله، وانصرف ثانية الى التأليف، فأنتهى كتاب صلوات كان قد ابتدأه في الجزائر، بعد أن أضاف اليه تعليقات أخلاقية، يمكن أن يستفيد منها العاملون في الفرق العسكرية، وأسس كتابه، « مهمة الفرسان office des Chevaliers زينة بمنمنات على نمط المخطوطات الشرقية، وأهداه الى الملك (٥٦)

الا أنه لم يبق في عمله ذلك، بل تلقى في شباط ١٦٧٧ رسائل من مرسيليا، ترجوه أن يقبل قنصلية حلب، لوضع حد لاضطرابات التجارة فيها، ومع كل الاعتراضات التي قدمها على تلك العروض، واستنكافه عن ذلك طويلا، فان كولبير « قرر اسناد هذا العمل اليه، وفي ٢٢ حزيران ١٦٧٩، صدر المرسوم الخاص بذلك (٥٧).

وفي ١٢ ايلول (سبتمبر) ١٦٧٩ غادر طولون الى الليفانت، ووصل « الاسكندرون » في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر)، ومنها انتقل الى حلب (٥٨).

وفي حلب « عاش » الفارس دارفيو « قنصلا سبع سنوات أي حتى نيسان ١٦٨٦، ولاقى مضايقات كثيرة من الجالية الفرنسية، وغيرها، وصيب بالمرض، مما دفعه الى المطالبة بالعودة الى وطنه. وعين بدلا منه « السيد جوليان » الذي أساء معاملته وسجنه (٥٩). الا أن

السلطات الفرنسية تدخلت في الأمر، وأمرت بالافراج عنه، فأبحر عائدا الى فرنسا في ١٨ نيسان (ابريل) ١٦٨٦.

وعند عودته الى فرنسا قرر انهاء أعماله في البلاط الفرنسي، ولكنه لم يستطع على ما يبدو أن ينجز ذلك بسرعة، اذ بقي في باريس حتى كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٦٨٩. وهنا استدعته أسرته - بحسب ما ذكر «الأب لبا» - لتقنعه بالزواج. وبالفعل جاء لهذا الغرض الى «مونبلييه»، حيث تزوج من «مرغريت دوفاير M. DE FABRE» وهي من أسرة نبيلة وعريقة جدا من مرسيليا، وتم الزواج في ١٢ أيار (مايو) ١٦٩٠. ولكنه لم يستقر في مونبلييه، بل انتقل الى باريس، والى البلاط، ليبقى هناك حتى ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٦٩١. (٦١)

ويبدو أن «الفارس دارفيو» بقي في ذهن البلاط الفرنسي، الخبير بشؤون التجارة في الشرق ومشاكلها، على الرغم من ابتعاده عن العمل الفعلي، والدليل على ذلك أنه عندما تعرضت بعض المراكب الفرنسية لهجوم قرصان انجليزي يدعى «بلومن» في ميناء «ليفون» الطوسكاني، وتأثرت تجارة مرسيليا بذلك، وبعد أن فشل عدة مبعوثين كلفوا بالتفاوض حول هذا الأمر مع «أمير طوسكانا»، فان البلاط الفرنسي كلف «الفارس دارفيو» في ١٣ حزيران (يونيو) ١٦٩٧ للقيام بهذه المهمة، لقطع دابر ذلك القرصان. وبالفعل فقد قام «بلومن» الذي تمكن دوق طوسكانا من القبض عليه. وقد اكتسب «الفارس دارفيو» من هذا العمل احترام دوق طوسكانا وتقديره، بدليل وجود بضع رسائل بهذا المعنى بعثها ذاك الدوق اليه بعد عودته الى بلاده (٦٢).

توفي «الفارس دارفيو» في ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١٧٠٢، دون أن يرزق بولد، وانقرض بوفاته فرع الأسرة الذي كان يمثل، ودفن في كنيسة أجداده، في كانه Cannet من أرض مرسيليا. وعلى شاهدة قبره، نقشت أرملته موجزاً من اللغات التي كان يتقنها، والمهمات التي كلف بها. (٦٣)

### مذكرات «الفارس دارفيو»

لم تنشر «مذكرات الفارس دارفيو» في حياته، وإنما بعد ثلاثة وثلاثين عاما من وفاته. فقد نشرت في باريس عام ١٧٣٥م، وفي ستة مجلدات تضم (٣٣٥٠) ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الصغير، موزعة توزيعاً متوازناً وعادلاً على المجلدات

الستة؛ وفي كل صفحة من الصفحات (٣١) واحد وثلاثون سطرا، وفي كل سطر بين ثماني كلمات وعشر.

والمجلد الأول هو أقل المجلدات صفحات، اذ يتضمن (٤٧٠) أربعمائة وسبعين صفحة، مضافا إليها: الاهداء وهو من أربع صفحات، والمقدمة من ست عشرة صفحة، وفهرس الفصول من صفحتين، والفهارس الأبجدية في نهاية الكتاب، من (١٩) تسع عشرة صفحة، ومرسوم امتياز النشر من (٣) ثلاث صفحات.

ويحتوي المجلد الأول (٢٢) اثنين وعشرين فصلاً، تلمّ برحلة «الفارس دارفيو» من مرسيليا الى بلاد الليفانت، وزيارته لمصر وما رآه فيها. واقامته في أزمير وأحوال تجارتها، وما جرى له خلالها، وما لاحظته فيها؛ ثم انتقاله الى صيدا واستقراره في هذه المدينة، وما شاهده وعايته فيها، وما وصل الى علمه من أبناء عن حكامها السابقين كفخر الدين المعني الثاني، وآل معن بصفة عامة، وما خبره من ولادتها وأحوالها. (٦٤)

والمجلد الثاني يتألف من (٥٢١) خمسمائة وواحد وعشرين صفحة، مضافاً إليها الفهارس: فهرس الفصول في مطلع الكتاب وهو من (٤) أربع صفحات، والفهارس الأبجدية في نهايته، وهي من (١٤) صفحة.

وفيه (٢٧) سبع وعشرون فصلاً، تحيط برحلات «الفارس دارفيو» في بلاد الشام، بين ١٦٥٩-١٦٦٠، وما شاهده فيها من طبيعة، ومدن، وسكان، وماض وحاضر، وحكام، واقتصاد، وما استقصاه من أخبار عن بعض أمرائها، كأسرة رضوان الحاكمة في غزة، وواليها في زمنه «حسين باشا»، والأمير محمد بن أحمد طرباي. (٦٥)

والمجلد الثالث ينطوي على (٢٩) تسعة وعشرين فصلاً، وردت في (٥٥٨) صفحة، يضاف إليها ثماني عشرة صفحة للفهارس: (٣) صفحات منها للفهرس العام و (١٥) صفحة للفهارس الأبجدية.

وقد تضمن هذا المجلد رحلة «دارفيو» الى جبل الكرمل، واحتمائه بأميرة محمد طرباي عام ١٦٦٤، وما لاحظته فيه من حياة العرب، وديانتهم، وأخلاقهم، وعاداتهم. وضم هذا المجلد بتصفيته لأعماله في صيدا وعودته الى فرنسا. وكذلك رحلته الى تونس، وأحداثها، وما رآه من مظاهر طبيعية وعمرانية فيها، وشخصيات حاكمة. (٦٦)

أما المجلد الرابع فقد حوى (٥٧٢) خمسمائة واثنين وسبعين صفحة مضافا إليها (٢٠)

عشرون صفحة دون ترقيم، خصصت للفهارس: (٤) صفات منها للفهرس العام، و (١٦) صفحة الفهارس الأبجدية. ويضم هذا المجلد في القسم الأول منه ستة فصول، مرتبة على النمط الذي اتبعه المؤلف في المجلدات الثلاثة السابقة. أي أنه أفرد لكل أمر مع توابعه فصلاً خاصاً. بينما في القسم المتبقي، فقد وردت الفقرات المختلفة متفرقة دون أن تنظمها وحدة فصل، مع أنه كان من المرتقب أن تدرج في وحدة تصنيفية واحدة. والفصول الخمسة الأولى هي تنمة رحلة «الفارس دارفيو» الى تونس، وما رآه فيها، ولاحظه عن حكومتها وعادات أهلها.

أما الفصل السادس فقد خصه: ما حدث له في باريس حتى سفره الى القسطنطينية، مبعوثاً فوق العادة. وتحدث فيه بصفة خاصة عن بعثة الدولة العثمانية الى فرنسا، ممثلة بـ «سليمان آغا»، وما قدمه هو من خدمات.

وفي الصفحات المتبقية دون المؤلف رحلته الى القسطنطينية، وما جرى من أمور خلالها: كما وصف القسطنطينية ودرنة، ونظام الحكم في الدولة العثمانية، وعادات البلاد. وخص السلطان «محمد الرابع» والوزيرين «محمد وأحمد من آل كوبرلي» بدراسة منفردة، ختم بها المجلد. (٦٧)

وضم المجلد الخامس (٦١٣) ستائة وثلاث عشرة صفحة مرقمة، و (١٩) تسع عشرة صفحة دون ترقيم للفهارس: (٤) أربع صفحات للفهرس العام في مقدمة الكتاب، و (١٥) خمس عشرة صفحة للفهارس الأبجدية.

وإذا ما نظر الى الفقرات التي تضمنها الكتاب على أنها فصول، كما أشار الى ذلك مرتب المذكرات في عنوان الفهرس العام، اذ أسماها «فهرس الفصول»، فانه يكون حاوياً «الفارس دارفيو» من القسطنطينية، وتقديره عنها، ومعلومات عن نشاطه في بلاط الملك قبل تعيينه قنصلاً في الجزائر؛ ثم رحلته الى الجزائر وما جرى له فيها، ومشاهداته وملاحظاته عن المدينة، وحكومتها، وأهلها، وعاداتهم المختلفة؛ وفعالياته في البلاط الفرنسي بعد عودته من الجزائر، ثم تعيينه قنصلاً في حلب، وسفره اليها. وألحق بهذا المجلد أيضاً نشاط «الفارس دارفيو» في بلاط طوسكانا عام ١٦٩٧، مع أن هنا قد جرى بعد أحد عشر عاماً من عودته من حلب، وكان الأحرى بمنظم المذكرات أن يأتي به في نهاية المجلد السادس، ليحافظ على السياق الزمني للمذكرات. (٦٨)

وجاء المجلد السادس في (٦١٥) ستائة وخمس عشرة صفحة، وبفهرس للفصول من (٣) ثلاث صفحات دون ترقيم في مقدمة الكتاب، وبفهرس أبجدي بـ (١٤) أربع عشرة صفحة في نهايته، وبنص مرسوم الملك بمنح امتياز نشر الكتاب لمن قام بنشره فعلا، وهو «جان باتيست دوليسبين J.B. de LESPINE»، بثلاث صفحات. وهو النص نفسه الذي ورد في (المجلد الأول)، وأشير اليه سابقا.

ويحتوي هذا المجلد (٢٢) اثنتين وعشرين فقرة رئيسية، لا تبدو مترابطة فيما بينها تماما. وهما تلك التي يتحدث فيها عن اقامته في حلب ومعلوماته التفصيلية عن المدينة، والقضايا التي عالجها فيها ومعطياته عن رجال الدين الفرنجة، ونشاط البعثات التبشيرية ونتائجه. والصفحات المائة الأخيرة من المجلد هي من عمل منظّم المذكرات، «الأب لابا»، فقد توقف «دافيو» عن متابعة تدوين مذكراته للمرض الذي أصابه<sup>(٦٩)</sup>.

ولا يتبين من هذه المذكرات من الذي دفعها للطباعة والنشر، اذ لا اشارة لذلك في نص الامتياز، الذي منح للناشر «قد وُضع بين يديه»<sup>(٧٠)</sup>. وقد يكون «الأبجان باتيست لابا»، جامع المذكرات ومرتبها<sup>(٧١)</sup> هو الذي فعل. أو قد يكون «الأمين كونتي»<sup>(٧٢)</sup> الفتى، الذي أهدى له «الأب لابا» تلك المذكرات هو الذي أوعز بذلك

ولم تسمح المصادر المتوفرة بين الأيدي في الواقع، للتعريف بالصلة التي كانت تربط «الأب لابا بالفارس دارفيو»، ولا كيف وصلت أوراق هذا الفارس اليه. فهل كان ذلك بتكليف من «الفارس دارفيو» نفسه في حياته، أم كان نتيجة وصية أوصى بها بعد وفاته؟ أم أن «الأب لابا»، وهو الذي عرف بحبه للرحلات، وكتابته لها، هو الذي تابع الأمر من نفسه، أو كلّف به من قبل أرملة «الفارس دارفيو»، أو من قبل أصدقائه ومحبيه؟

من العسير الاجابة على تلك التساؤلات، لأن «الأب لابا» لا يذكر شيئا ذابال بهذا الصدد، سوى ما يمكن أن يستنتج من صفحة اهدائه الكتاب الى «الأمير كونتي». فقد ورد في رسالة «الاهداء»: «ليست هذه المذكرات هدية أقدمها لسموكم، وانما هي دين يسدد له، وواجب يفي به المؤلف عن طريقي. ان هذه المذكرات هي ملك لكم، يا مولاي، لأنها لم تكتب الا اطاعة لأوامر أجدادكم، أسيادي، أمراء «كونتي» و «لاروش سور يون»، الذين كانوا دائما حماة الصريحين.»<sup>(٧٣)</sup>. فهل هذا يعني أن «أمير كونتي ولاروش سور يون»<sup>(٧٤)</sup> الأمير الذي تم الاهداء اليه، هو الذي حث «دارفيو» على تدوين مذكراته، وهو الذي كلّف بالتالي «الأب لابا» بإتمامها؟ قد يكون ذلك، والاحتمال كبير. الا ان هذا

يوجب أن يكون التكليف قد تم قبل عام ١٧٠٩م، وهو العام الذي توفي فيه الأمير. وبذلك يكون «الأب لابا» قد تأخر كثيرا في العمل الذي أوكل إليه، والذي لم يتم الحصول على امتياز نشره الا في ١١ ايلول (سبتمبر) ١٧٣٣م. ولكن قد يكون الذي تكفل بالأمر هو «لويس أومان الثاني دوبونون<sup>(٧٥)</sup> ابن الأمير السابق، وقد عاش حتى عام ١٧٢٧. أو أن «الأب لابا» لم يستطع الانصراف الى العمل مباشرة، وجاءت وفاة الأمير «كونتي» ودولاروش سور يون»، لتجعل العمل يتلكأ، فلا ينهي الا في عهد الحفيد الذي عرف بحبه للأدب.

مهما يكن فهناك حقيقة لا جدال فيها، وهي أن «الأب لابا» هو الذي رتبّ المذكرات، وأخرجها، وعلّق عليها، كما ذكرنا آنفا، ولكن ما مدى لمسات «الأب لابا» في تلك المذكرات؟

لقد ورد على لسان «الأب لابا» في المذكرات نفسها ما يلي: لقد أصيب «الفارس دارفيو» منذ مدة طويلة بنزلة على عيونه، وبارتجاج غير عادي في ذراعيه ويديه، حتى أنه لم يعد يستطيع القراءة والكتابة، فاضطر أن يتوقف عن تدوين مذكراته. وسأنيها أنا مع الأسف، وسأعطي للجمهور أشياء عديدة وجدتها ضمن أوراقه<sup>(٧٦)</sup>. وقد أورد هذه الفقرة قبل نهاية (المجلد السادس) بما يعادل سدسه، ولم يدون بعدها من معلومات سوى ما أصاب «دارفيو» من مهانة على يد «السيد جوليان»، الذي حلّ محله في قنصلية حلب، والقضية التي رفعها «دارفيو» عليه، والحكم الذي كسبه لصالحه، وبعض شذرات صغيرة من حياة «دارفيو» الخاصة، كزواجه، ثم وفاته. ومن هذا يتضح أن القسم الذي كتبه «الأب لابا» اكتمالاً للمذكرات، وتحدث فيه عن «دارفيو» بصيغة الغائب بالطبع، ليس بالكبير، ولا بالهام جدا، ها أنه يعتمد على وثائق ضمها الى ما كتب.

أما ما تبقى من المذكرات، وهو واسع وغزير، فيبدو أنه بأسلوب «الفارس دارفيو»، ومن تدوينه، وان كان من العسير تبين ذلك بوضوح، عندما يتعلق الأمر بوصف مدينة، أو رواية حديث، لا يدخل «دارفيو» فيه طرفا. فقد يكون «الأب لابا» هو الذي ربط بين الفقرات المدونة اختزالا، أو صاغها.

وإذا كان هناك صعوبة في معرفة ما «للأب لابا» ومال «دارفيو» في بعض نصوص، فقد يبدو الأمر أقل صعوبة في تمييز ما نظّمه «دارفيو» من المذكرات، وما رتبّه «الأب لابا». فقد ذكر «الفارس دارفيو» صراحة الأقسام التي قام باعدادها بنفسه من مذكراته،

فقال: لقد قررت العزلة ثانية لأنهي مذكرات رحلاتي، التي طالبني بها بالحاح، عدد من فضولي المعرفة، بل أن طابع الملك أصر عليّ كي أقبل منزله لهذا الفرض... فقبلته، وأقيمت فيه حتى نهاية ايلول (سبتمبر)، وتمكنت من تنظيم رحلتي الأولى في الليفانت، حتى عودتي من صيدا الى مرسيليا.. «ورجاني آخرون كي أقدم للجمهور ما لاحظته عند «عرب جبل الكرمل»، إذ أن قلّة من الناس عرفت ما عرفته عن أخلاق هذه الشعوب وعاداتهم. فقد بقيت مدة طويلة بين ظهرانيمهم حتى تعرفتهم، ووضعت مذكرات دقيقة بكل شيء كنت قد شاهدته. وبالفعل فقد انكببت على اخراج تلك المذكرات، وفي مدى شهر كانت جاهزة للطباعة تقريباً.» (٧٧)

ومن ذلك يستثنى أن المجلدين الأول والثاني، وقسما كبيرا من الثالث، هي حتما من تدوين «دارفيو» وترتيبه. ويمكن أن يلحق بذلك بقية المجلد الثالث، والقسم الأول من الرابع (أي كل ما يعود لرحلته الى تونس). لأن الروح المتبعة في بنية الفصول وتصنيفها، هي نفسها الملاحظة في الأجزاء التي ثبت انشاء «الفارس دارفيو» لها.

أما المجلدان (الخامس) و (السادس)، أو بالأحرى مند رحلته «دارفيو» الى القسطنطينية حتى نهاية المذكرات، فيظهر في ترتيب فقراتها بعض اختلاف عن السابق، وإن ظل أسلوب «دارفيو» في التنظيم هو السائد؛ ولا سيما طريقته في دعم ما يقدم، بالوثائق الأصلية المتوافرة لديه: من تقارير، ومذكرات، ورسائل، ومعاهدات، وفي محافظته على التسلسل الزمني السليم. ولكن هذا التسلسل لم يراع في بعض الفقرات، ومثل على ذلك ما أشير اليه آنفا، عن مهمة «الفارس دارفيو» في طوسكانا عام ١٦٦٧. فقد دخلها «الأب لوبا» ضمن الفترة الزمنية التي سافر فيها «الفارس دارفيو» الى حلب، أي في عام ١٦٧٩، مع أنها جرت أحداثها عام ١٦٩٧، أي بعد اعتزاله العمل في قنصلية حلب بأحد عشر عاما (٧٨). ولعلّ تقارب الأرقام في السنوات أوقع جامع المذكرات في اللبس، فوضعها في غير مكانها.

### قيمة «مذكرات الفارس دارفيو»

قد يكون الهدف الأول من جمع هذه المذكرات ونشرها في ذلك الزمن متعة الجمهور وتسليته، وارضاء فضول الرأي العام الفرنسي، وبصفة خاصة المثقف منه، عن بلاد كانت تثيره آنذاك، وهي بلاد الدولة العثمانية، شاغلة الفكر الأوروبي في القرن السابع عشر كما

كانت عليه في القرون التي سبقت، وحيث الشعوب تختلف عنه بالعادات، والتقاليد، والدين، وأنماط الحياة وفي الوقت ذاته تؤثر أحداث تلك الشعوب وتصرفاتها في مقدراته بطرق شتى. والدليل ما قاله «الفارس دارفيو» نفسه، عندما ابتداءً بتنظيم تلك المذكرات، عن الحاح الكثيرين من فضولي المعرفة عليه لتعريفهم بما رآه<sup>(٧٩)</sup>، وإشارته في أكثر من مناسبة، الى سرور الملك، وولي عهده، وكبار رجال القصر، بما كان يحدثهم به عن تلك البلاد، بل كانوا هم الذين يسألونه الكلام في ذلك.<sup>(٨٠)</sup> كما يتضح هذا الهدف في رسالة «الاهداء» التي وجهها «الأب لوبا» في مقدمة المذكرات الى الأمير «كونتي»، حيث قال: «ان الجمهور مدين لهؤلاء الأمراء العظام- ويقصد بهم أجداد الأمير كونتي- بمعارفه عن الامبراطورية العثمانية الواسعة، وثرواتها، وتجارها، والشعوب المختلفة المنتشرة في أرجائها، ودياناتهم، وعاداتهم... وسيرى سموك في هذه «المذكرات» ما يسليه في أوقات فراغه، وما يريحه من عناء مشاغله العظام.»<sup>(٨١)</sup>

ولكن هذه «المذكرات»، الى جانب امتاعها القارىء بما ورد فيها من معلومات مستجدة، ومدونة بعرض منطقي سليم، ومحكمة دقيقة، وأسلوب طلي وواضح، وروح نكتة محببة، وعفوية مشوقة، ونقد ذكي، وتعليقات هنا وهناك تدل على سعة اطلاع، وعمق ثقافة، هي في وقتنا الحاضر، مصدر تاريخي ثمين، ولا سيما للباحث في أحوال النصف الثاني من القرن السابع عشر، ولا سيما الباحث في عالم الدولة العثمانية، والبلاد العربية الشامية، والمصرية والتونسية، والجزائرية، بل الباحث في أحوال فرنسا والبلاط الفرنسي. فالمذكرات غنية جدا بالمعلومات المتنوعة، التي قدمها شاهد عيان، مثقف، وفضولي لمعرفة الحقيقة، ويتمتع بفكر الشك العلمي، الذي كان من معطيات أوروبا في القرن السابع عشر- وفي الوقت نفسه بالنظرة الواسعة والشاملة، التي لها اهتمامات عديدة: طبيعية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وفكرية، وعمرانية، وافية

ومن العسير هنا بيان ما قدمه «الفارس دارفيو» في مذكراته من معطيات، قد لا تهم اليوم علم التاريخ فحسب، وانما علوما كثيرة أخرى؛ كما «أفادت في زمنها - بحسب قول «الأب لوبا» - كثيرا من فئات الناس، كالرحالة، والتجار، والقناصل، ووزراء الملوك المسيحيين.»<sup>(٨٢)</sup> الا أنه يمكن تحديد الأطر الكبرى التي دارت المذكرات ضمنها. وفي هذا المجال، قد يكون العنوان التفصيلي الذي وضعه «الأب لوبا» لها، أفضل موجز عن مضموناتها العامة. فقد ورد في ذلك العنوان: «مذكرات الفارس دارفيو»، المبعوث فوق



العادة للملك الى الباب العالي، وقنصل حلب، والجزائر، وطرابلس، واسكالات الليفانت. وتحوي رحلاته في آسيا، وسورية، وفلسطين، ومصر، وبربريا (ويقصد بلاد المغرب)، ووصف تلك البلاد، وديانها، وأخلاق أهلها، وعاداتهم، وتجارة شعوبها، وحكوماتها، وتاريخها الطبيعي، والحوادث الهامة»

وفي الحقيقة، لقد مسحت «مذكرات الفارس دارفيو» رقعة مكانية واسعة. فبالإضافة الى تلك البلدان المعددة في العنوان، هناك جزر مرّ منها «دارفيو» في رحلته في البحر المتوسط، ووصف أحوالها، كجزيرة مالطة، وبضع موانئ في ايطاليا كميناء ليفورن مثلا. وتعرض لبعض أحوال البلاط الفرنسي، وللسياسة الفرنسية في البحر المتوسط، وبصفة خاصة منها سياستها التجارية ومطامعها. بل أنه تجاوز تلك الرقعة المحددة في العنوان، فألقى أضواء على بعض أحوال ايران عن طريق قضيته المذكرات بمراسلاته مع أسقف قيسارية - وكان صديقه وقد ذهب برحلة اليها.<sup>(٨٣)</sup> وكذلك عن الهند والمطامع الفرنسية والأوروبية بها، وذلك بتقديمه مذكرة فيها، وصلته من فارس عن أحوال التجارة في الهند<sup>(٨٤)</sup>

وفي حديث «الفارس دارفيو» عن تلك الرقعة المكانية التي غطاها برحلاته، فيض من المعلومات عن طبيعتها، من تضاريس، ومياه ومناخ، ونبات، وحيوان، وعن مدنها<sup>(٨٥)</sup> الأساسية، وتاريخها، وآثارها، وأسواقها، وخاناتها، وبيمارستاناتها اذا وجدت، ومساجدها، وكنائسها، وأحيانا زوايا المتصوفة أو «ال دراويش» كما أسماهم، بل أحوال موانئها اذا كانت على البحر. وكان يتابع بنظرة خبيرة، أحوال تلك البلاد الاقتصادية، من زراعة وصناعة وتجارة. وكان اهتمامه بالناحية الأخيرة واضحا، لأنه بطبيعة الحال، تاجر. ومن ثمّ فإنه طرح معلومات ضافية عنها، وبصفة خاصة عن تجارة الجاليات الأوروبية في اسكالات الليفانت، والمغرب، وفعاليتها، والسلع التي تتاجر بها، ووسائلها، والاسكالات التي تجري فيها، والنقد المستخدم، وحياتة الجاليات في تلك البلاد، ونظم ادارتها، وقضاياها مع نفسها، ومع سلطات الدولة العثمانية. وضمنّ المذكرات أيضا معطيات عن طريق القوافل التجارية البرية والبحرية، وما تتعرض له من غزو البدو، ومن القرصنة البحرية.

وتزخر «مذكرات دارفيو» بمادة غزيرة عن أهل تلك المناطق، ولغاتهم، ودياناتهم، وعاداتهم. وتجع بالمعطيات السياسية، عن نظم الحكم في الدولة العثمانية، وفي تونس، والجزائر، وبلاد الشام. ويقدم تحليلا لبعض الشخصيات السياسية التي التقى بها، من ولاة، وسلاطين، ووزراء، ودايات، وبايات، قد تكون المعلومات عنها غير متوافرة في المصادر

العربية، وإذا ما وجدت، فانها مصدر آخر يدعو للموازنة، واستخلاص الحقيقة أكثر نقاء.

وقد يكون من الأمور الهامة التي تعرّض لها «الفرس دارفيو» في مذكراته، هو النشاط التبشيري الكاثوليكي في بلاد الليفانت، وهو لا يزال في مراحل الأولى، وأحوال الجاليات الدينية، وأهدافها، والنتائج الناجمة عن نشاطها، ولا سيما في مجتمع بلاد الشام.

ولكن ما مدى جدة تلك المعلومات بالنسبة لمعلومات الرحالة الذين سبقوا «دارفيو»، أو عاصروه؟ وما مدى صحتها وقربها من الحقيقة؟

أما عن الأمر الأول، فالجواب عنه عسير بالمجموع، إذ لا بد من موازنة ما ذكره أولئك الرحالة مع ما طرحه «الفرس دارفيو»، عن كل منطقة وعن كل جزء. وهذا يكون من عمل المؤرخ الذي يبحث في قطاع محدد. إلا أن إشارة «دارفيو» بين حين وآخر، إلى معلومات بعض أولئك الرحالة، ونقده لها، أو تجاوزها، يدل على وجود اختلاف بين ما يقدم وبينها. بل إن «الأب لوبا» أجاب بصدق وموضوعية عن هذه الناحية، عندما قال في تقديمه «المذكرات» للجمهور: «إنها يوميات الرحلات المختلفة التي قام بها «الفرس دارفيو» في ممتلكات «السيد الكبير» (ويريد به السلطان العثماني). ومن المؤكد أن أولئك الذين سيقروونها، سيجدون فيها ومضات نور لا يرونها عند جميع من تحدث عن تلك البلاد دون استثناء... ومع ذلك، فإن بعض الأشخاص حكموا من مجرد تصفحهم لهذه المذكرات، بأنه لن يوجد فيها إلا تكرار لما قاله السياح الآخرون. ولكن هذا كان تحاملا مسبقا، وكانوا مخطئين. وقد اعترفوا هم أنفسهم بذلك، عندما عملوا على فحص هذه المذكرات فحصا تفصيليا دقيقا. فقد رأوا أن من دونها لم يكن تاجرا عاديا، مهتما بتجارته فحسب، ولا رحالة يسرع الخطأ، دون أن يحص فيما يرى، وليس سائحا يكتفي بما يرويه له هواة التحف والآثار القديمة الجاهلون، ليستدروا ما له، وإنما رأوا في تلك المذكرات بحوثا مثيرة، ومفصلة جدا، وأوصافا صادقة، ونقدا حقا، وملاحظات هامة، لا عن التجارة التي خبرها المؤلف حتى الأعماق، فحسب، وإنما عن الديانة أيضا، والعادات والأخلاق، للأتراك، والعرب، والتركان، والدروز، واليهود، وجميع المسيحيين الشرقيين، وكل الشعوب الأخرى في تلك البلاد الواسعة، التي لم تكن لثرتاد كثيرا، ومن ثم فالمعرفة عنها قليلة...» (٨٦)

فليس هناك أحد عرف بشكل كامل جمهوريات تونس والجزائر، كما عرفها «دارفيو». فما كتبه عنها يوضح أنه عرفها بعمق. إن مذكراته هي ينابيع لا تنضب من المعلومات التي تفيد أولئك القرصان (ويقصد الحاكمين والعاملين في البحر في تونس والجزائر). هذا

بالإضافة الى أن الأفاضل التي يقدمها عنهم تكشف كاشفا كاملا صفة تلك الشعوب وأخلاقها. «(٨٧)»

أما عن مدى صحة المعلومات التي طرحت في هذه «المذكرات»، فمما لا شك فيه، بأنه يجب أن توازن مع ما قدمته المصادر الأخرى المعاصرة لها، عن كل ناحية من النواحي المعروضة، والوثائق الرسمية منها بالذات. الا أنه يمكن القول بصفة عامة، أن الحس التاريخي النامي لدى مؤلفها، وثقافته المتنوعة، وتجاربه المختلفة في شتى الميادين، الاقتصادية والسياسية، وفكره المتابع والممحص، تضمنه كثيرا من الوثائق في تلك المذكرات، وثبوت كثير من المعلومات الواردة بعد أن تمت موازنتها بوثائق أخرى، وروح النقد الصحيح التي تسود في مجموعها، والقدرة على التعليل المنطقي والواقعي، التي تلاحظ في كل زاوية منها، كلها أمور تؤيد قرب أغلب المعلومات المعطاة الى الحقيقة. ولكن يجب ألا يغيب عن البال البتة، بأنه على الرغم من الروح الموضوعية والعقلانية التي تبرز في كثير من حنايا المذكرات، فان هناك أمورا هامة جدا جرى فيها «الفارس دارفيو» مع الهوى. فعواطفه المسيحية المتعصبة تجاه الدين الاسلامي جعلته لا يرى هذا الدين على حقيقته، بل يبدو أشبه بجاهل عند حديثه عنه. ويمكن القول، أن ثلاثة مشاعر رئيسية تتحكم في بعض نصوص هذه المذكرات، وتسيء أحيانا الى كثير من الوقائع الواردة فيها، وهي تعصبه للمسيحية الكاثوليكية، وبلبلده فرنسا، وكرهه للأتراك.

## فلسطين في المذكرات.

إذا كانت «مذكرات الفارس دارفيو» بمجموعها بذلك الثراء المشار اليه آنفا، فماذا فيها عن فلسطين بالذات؟

يمكن تصنيف ما كتبه «الفارس دارفيو» عن فلسطين، في زمرتين أساسيتين:

الزمرة الأولى، وتشمل الوصف المسهب الذي قدمه لمعظم أجزاء «الأرض المقدسة» التي زارها.

الزمرة الثانية، وهي ما ذكره عن «قضية الأماكن المقدسة»، والنزاع القائم حولها في عصره، بين رجال الدين اليونان ورجال الدين اللاتين، وموقف فرنسا منها بصفة خاصة.

وضمن الزمرة الأولى، تحصر الزيارات التي قام بها «الفارس دارفيو» بخمس كبرى،

تختلف في زمنها، وأهدافها، والأماكن المزارة خلالها، وان كانت خامستها رحلة الى منطقة سبقت له رؤيتها. وقد سعي في هذه الدراسة، الى طرح موجز لتلك الرحلات، بأسماء الأماكن كما قدمها بها «دارفيو»، علما بأنه لم يتم التوفيق بين جميع التسميات التي طرحها، والتسميات الحاضرة.

والرحلات الخمس الكبرى هي:

أولا، الرحلة الى القسم الساحلي، في أقصى الجزء الشمالي الغربي من فلسطين، أي من رأس الناقورة الى عكا. (٨٨)

وقد تنقل في هذه المنطقة، لأول مرة، عندما أتى الى بلاد الشام قادما من أزمير، عام ١٦٥٨م ليتسلم عمله التجاري في «صيدا»، حيث كانت تقيم الجالية الفرنسية، وحيث كوّن شريكه «السيد برتندية»، شركة مع أحد التجار الفرنسيين العاملين فيها وفي فلسطين، للتجار بمادة «السنا»، وكان والي غزة من آل رضوان، قد أعطى، امتياز التجارة بها دون غيره. وقد دفعت أمواج البحر المتوسط الهائج، مركب «دارفيو» الذي يحمله وشريكه مع من يحمل، الى ميناء «صور». ومن «صور» اتجها الى «عكا» برا، بدل صيدا لأن الجالية الفرنسية التجارية كانت قد انتقلت اليها، لسوء معاملة حاكم «صيدا» لها، وفرضه الغرامات المالية الكبيرة عليها، لأسباب تدرع بها. (٨٩)

وفي الطريق من «صور» الى «عكا»، وصف «دارفيو» البقاع التي مرّ بها. ومما لفت نظره: ممر الناقورة والجبل المطل عليه، والبرج في أعلاه، ونبع قربه، ثم بقايا حصن اسكندرانة - ثم بيت يدفع عنده المسيحيون رسوما: الأوروبيون منهم يدفون قرشا، ومسيحيو البلاد (١٨) فلسا. وبلي ذلك - بحسب ما ذكره «دارفيو» - الرأس الأبيض، ثم سهل كبير تناثرت في أرجائه عديد من القرى، على الساحل وفي الداخل (ولا بد أنه يقصد به سهل عكا) - وأخيرا «عكا»، التي أفرد المؤلف لوصفها فصلا خاصا. (٩٠)

ويبدو أن الأمر قد اختلط على «دارفيو» بين موقع رأس الناقورة والأبيض، فقدم الاول على الثاني، بينما الأمر على نقيض ذلك، في الاتجاه الذي اتبعه، وهو من الشمال الى الجنوب.

ثانيا - رحلته في المنطقة الساحلية من فلسطين ومن الشمال الى الجنوب، ثم العودة الى «صيدا» (٩١)

وكان ذلك عام ١٦٥٩. وقد قام بهذه الرحلة « لرؤية فلسطين، والتنقل فيها برا. كما قال (٩٢) وقد رافق في رحلته هذه، مندوبين عن الجالية التجارية الفرنسية في صيدا، بعثت بهم تلك الجالية الى والي حمزة » « حسين باشا»، ليردوا له ما كانت الجالية قد استدانته منه من مال، أثناء أزمته مع حاكم «صيدا»، وليشكروه باسمها، وقد خرج الجميع من «صيدا» ووجهتهم «غزة».

ومرّ «الفارس دارفيو» في هذه الرحلة من الأماكن التالية، وأعطى وصفا لها، دون أن يكرر ما كان قد ذكره سابقا في رحلته من «صور» الى «عكا».

وأول البقاع التي وصفها بعد خروجه من «عكا»، كان «الأكثبة الرملية» التي تكوّن مراً خطراً، يختبئ به عادة العربان الغزاة - ثم نهر حيفا (المقطّع)، فحيفا - فعتليت (وأسمائها أطلاق أو قلعة الحاج أو بلگران Pellegrin) - وطنطورة (وأسمائها طرطورة) - فمخيم الأمير طوباي القريب منها (ويبدو أنه كان الأمير زين بن أحمد) - فقيسرية - فقريّة يسميها (علي بن أعلام) بين قيسرية ويافا، Ali Ben Aalam. ويبدو أنها قرية (الحرم - سيدنا علي)، والاحتفال الذي شاهده فيها هو موسم زيارة ضريح الولي علي بن عليل «للتبرك به» (٩٣)، ولو أنه يضيف - أن هذا الولي قد ارتبط بأذهان الناس بأنه «يافث بن نوح.» (٩٤)

ومن تلك القرية انعطف «دارفيو» وزملاؤه في طريق عرضية أوصلتهم مباشرة الى «الرملة»، بعد أن مروا بـ «بحيرة التمساح» أو «مويت تمساح»، وهي التسمية القديمة لنهر الزرقاء. (٩٥)

وفي «الرملة»، التقوا بـ «حسين باشا» والي غزة، الذي كان عائداً من حملة قام بها على العربان. وقد وصف «دارفيو» مدينة «الرملة»، «واللد» الواقعة شمالها.

ثم رافق وجماعته باشا غزة الى «غزة». ولا يشير خلال طريقه هذا الى أمور ذات بال، سوى ما رآه من مظاهر استقبال أهالي القرى المجاورة للطريق، للباشا، وقرية «الشهداء الأربعين»، التي تم الاتفاق بينهم وبين الباشا، على الالتقاء بها، وقرية أخرى لا يذكر اسمها، وتقع في منتصف الطريق بين الرملة وغزة، وتجاوزوها دون أن يقفوا عندها، وزيتون حيم الباشا فيه للراحة والمبيت، وأخيراً، الوصول الى «غزة»، حيث أقام فيها «دارفيو» وجماعته ثمانية أيام، زاروا خلالها كل معالمها. حيث أقام فيها «دارفيو» وجماعته ثمانية أيام، زاروا خلالها كل معالمها، وحضروا فيها ولائم واحتفالات متنوعة.

وعند العودة من «غزة» الى «صيدا»، لم يسلك «الفارس دارفيو» وصحبه الطريق نفسها التي أتوا منها، فقد اختاروا طريقا أخرى ليروا «أكبر قسم من البلاد»<sup>(٦٩)</sup>. فحاذوا الساحل الفلسطيني الجنوبي حتى «عسقلان»، ومنها أخذوا طريق «الرملة» مارين ؛ «مجدل». ولم يقدم «دارفيو» كثيرا من المعلومات خلال رحلته هذه، بل اكتفى بوصف عسقلان، ومجدل، والريف الجميل بين عسقلان والرملة.

ومرة أخرى، قرر «الفارس دارفيو» ورفاقه الانتقال من «الرملة» الى «صيدا» بطريق برية غير التي أتوا منها، وكانت الطريق عبر جبال السامرية. وشجعهم على ذلك، مصاحبهم لعدد من الفرسان، كانوا في طريقهم الى «عكا»، مما يحميهم من مهاجمة الاعراب في هذه المنطقة. وقد أشار «الفارس دارفيو» أنهم مرّوا بمنطقة خصبة فيها كثير من القرى، دون أن يذكر اي اسم. ومنها الى قرية «البيرة» قرب رام الله، ف «نابلس». ومن «نابلس» اتجه لزيارة «سبسطية» وصحبه غربا الى سهل طنطورة، فقريبة في سفح جبل الكرمل، لم يذكر اسمها، فحيفا ثانية، فعكا، حيث مكث شهرا، فصور، فصيدا.<sup>(٩٧)</sup>

### ثالثا - رحلة «الفارس دارفيو» للأماكن المقدسة. (٩٨)

وهي تشغل قسما كبيرا من المذكرات، ويمكن النظر اليها على أنها أوسع الرحلات التي قام بها، بل هي رحلة مركبة من مجموعة من الزيارات لمناطق عديدة من الأرض الفلسطينية. وقد أتبع هذه الرحلة بدليل يوضح الأماكن التي يزورها الحجاج عادة في مثلها.<sup>(٩٩)</sup> كما أرفقها بالوثائق التي تثبت زيارته لتلك الأماكن، التي منحها له «الأب ورديان آباء الأرض المقدسة» في القدس، ونائب طائفة الكرملين في جبل الكرمل،<sup>(١٠٠)</sup> وقائمة بالنفقات.<sup>(١٠١)</sup>

وكان المؤلف قد فكر القيام بهذه الرحلة المقدسة مع زميل له، مذ كان في «الرملة»، أثناء عودته من غزة. فزميله هذا الذي كان قد أدنف في مرضه، نذر ليذهبن الى الأماكن المقدسة اذا ما شفي. فعندما عرض الأمر على «الفارس دارفيو»، رأى هذا الأخير، أن الفرصة لا تفوت، وقد لا تسنح له مرة أخرى؛ الا أنه وصديقه رأيا تأجيلها للعام التالي، لأسباب تخص أمنهم ومن الجالية الفرنسية.<sup>(١٠٢)</sup>

وهكذا حزم «الفارس دارفيو» أمره على الحج الى الأماكن المقدسة في آذار (مارس) عام ١٦٦٠، وخلال أعياد الفصح، وهو موسم الحج عند المسيحيين. ورحل برفقة بعض

التجار الفرنسيين والهولانديين، ورجال الدين من الأوربيين.

وتتضم هذه الرحلة حزمة من الرحلات، كما أسلفنا القول، تصنف كما يلي:

## ١- رحلة الذهاب من صيدا الى القدس

ويمكن تجزئتها الى مرحلتين:

صيда - يافا. وقد أخذ الحجاج الطريق البحرية، صيدا- عكا، فعكا- يافا. وفي هذا الجزء وصف «دارفيو» يافا، التي حط فيها.

والمرحلة الثانية هي يافا - القدس. ويذكر «دارفيو» أنهم مرّوا قرب بـ «جسير»<sup>(١٠٢)</sup> حيث شاهدوا مسجدا بقباب تسع ويقال ان تلك القرية هي مكان قبر «عاد» بن يعقوب. وليس بعيدا عنها تقع «جت»<sup>(١٠٤)</sup> موطن جالوت<sup>(١٠٥)</sup>. ثم وصلوا الرملة. وبعد الرملة مروا بسهل مزروع، فقريّة لارون الطيب<sup>(١٠٦)</sup>، فحصن خرب، فسهل يتلوه واد، فمجموعة من الجبال والتلال المؤدية الى القدس، فقريّة «عناوت»<sup>(١٠٧)</sup> وفيها خرائب دير وكنيسة. وقد لاحظوا كذلك من بعيد وعلى قمة الجبل آثار «مودان»<sup>(١٠٨)</sup>، ثم جبال ساكوت،<sup>(١٠٩)</sup> فوادي تربنت السيلي<sup>(١١٠)</sup> فقريّة «كولومي»<sup>(١١١)</sup> الى يسارهم وهم صاعدون الى الجبل، الذي أطلقوا منه على القدس.

وقد خص «الفارس دارفيو» المدينة المقدسة بوصف مسهب، وأفرد لها وللاحتفالات الدينية فيها ثمانية فصول.<sup>(١١٢)</sup>

٢- ومن «القدس» و «بيت لحم» قام «لوران دارفيو» وزملاؤه بعدة رحلات لزيارة بقية الأماكن المقدسة، التي لا تبعد كثيرا عن القدس. فهناك:

أ - الرحلة من القدس الى نهر الأردن، وجبل الأربعين، والبحر الميت.<sup>(١١٣)</sup>

وقد مروا خلالها على واد فيه نبع يطلقون عليه «نبع الحوارين» - فأودية جافة ومرتفعات ومنخفضات ثم طلعة الدم أو أدوميم - فحصن يحرس الممر الخطر الذي يجوسه العربان - فشعاب جبلية قاسية وصعبة المرتقى - ثم تبدى لهم نهر الاردن وهو يتلوى في «سهل أريحا»، فأريحا.

ومن «أريحا» انتقلوا الى نهر الأردن حيث عمّد المسيح - فسهل أريحا ثانية. ومنه انتقلوا

الى « جبل الأربعين » الذي يقال أنه الجبل الذي صام فيه المسيح أربعين يوما وأربعين ليلة. وقد ارتقوه حتى قمته، ثم عادوا أدراجهم الى سهل أريحا. وزاروا قريبا منه نبع « اليزة » (١١٤)، ومن « أريحا » أبوا الى القدس.

ب - الرحلة من القدس الى بيت لحم. (١١٥)

واجتازوا أولا واديا صغيرا، فريف جميل، فخرائب قيل أنها بيت سمعان العادل، فوادي العمالقة، فمكان شجرة البطم التي استراحت في ظلها مريم العذراء مع ابنها، فحوض ملوك النجمة، فدير للرهبان اليونان (مكان ميلاد النبي ايليا) - فمنزل النبي حبقوق (١١٦) - فحقل الحمص المتحجر - فبرج يعقوب - فقبر راحيل - فبقايا قرية الرملة الصغيرة حيث قتل هيروود الأبرياء - فقريه لا يذكر اسمها لا يسكنها سوى مسيحيين - فحوض ماء بيت لحم - فدير آباء القديس فرانسوا الذي ينزل فيه عادة الحجاج، فبيت لحم. ووصف فيها « دارفيو كنيسة المهدي.

ج - الرحلة من « بيت لحم » الى « الخليل » (حبرون) (١١٧)

ومرّ « دارفيو » وأخوانه من قرية « بوتيكالي، ويبدو أن المقصود بها « بيت الا » - فدير القديس جورج التابع لليونان - فالنبع المختوم FONS SICNATUS أو ينابيع سليمان التي يحمل الماء منها الى القديس بقناة (عين العروب) ثم حصن تركي - فينباع ماء فقريه مخربة - فحقل واسع. وبالانعطاف نحو اليسار وصلوا الى واد سعا « دارفيو » « وادي مامبرة » وقد يكون « ممرا شمالي الخليل (١١٨) - فأبار يعقوب - فمدينة الخليل. ووصف المدينة. وفي العودة مر بقرية أسماها بقرية العذراء المقدسة وفيها كنيسة لليونان.

د - الرحلة من « بيت لحم » الى صحراء القديس سابا (١١٩)

وكان اتجاه الحجاج نحو الشرق، نحو الجبال القائمة غرب البحر الميت. ويذكر « الفارس دارفيو » منها جبال « انغالدي » (وقد يكون الاسم عين جدي أو أم غادة) (١٢٠) ويحدد فيقول حيث تقع شرقه خرائب قلعة « مصدة » - والى الجنوب منه تل عال تقوم عليه خرائب حصن يسمى « بيت حولي » (وهو الذي يعتقد الفرنجة أن الصليبيين قد احتفظوا به لمدة أربعين عاما بعد استرداد المسلمين لجميع الأرض المقدسة. ومنه انتشروا فيما بعد الى جبل لبنان حيث كوّنوا أصول الدروز». وقد يكون هو جبل الفريديس الذي يطلق عليه أيضا « جبل الفرنج » (١٢١) وقد زار الحجاج « دير القديس سابا، ووصفه « دارفيو ».



ه - العودة من بيت لحم الى القدس بطريق صحراء القديس يوحنا. (١٢٢)

وقد مر الحجاج من المناطق الآتية. وادي سحريب - نبع القديس فيليب - كرم سورفيك - شعاب جبلية متعرجة - مدرجات زراعية - مغارة القديس يوحنا (أو صحراؤه) - فقريّة صغيرة قيل أنها القرية التي ولد فيها القديس يوحنا (١٢٣) - فمودان (المدينة) موطن المكابيين (١٢٤) فدير «الصليب المقدس» الذي يقيم فيه رهبان من اليونان - فالقدس.

٣ - رحلة الاياب من القدس الى عكا (١٢٥)

لم يتبع «الفارس دارفيو» والحجاج المرافقون له، عند عودتهم من القدس الى عكا، الطريق نفسها التي ساروا عليها في الذهاب، بل أرادوا أن يزوروا بقية الأماكن المقدسة على الأرض الفلسطينية، كالناصره، ومنطقة طبريا، وجبل الكرمل. ولذا فقد أجروا عدة رحلات في طريق العودة، يمكن ترتيبها على الشكل التالي:

أ - الرحلة من القدس الى يافا بطريق «عمواس» (١٢٦) مارين بنبع «جيهون» (١٢٦) سكر (عين ستي مريم) فعمواس - فنبع سلوان - فقريّة بدو - فسهل يوشع - فأثار «رامات حاييم سوفيم» فالرمله - فيافا.

ب - الرحلة من يافا الى عكا بطريق البحر (١٢٧) وهي الطريق نفسها التي اتبعت في طريق الذهاب.

ج - الرحلة من عكا الى الناصرة (١٢٨) ووصف «دارفيو» خلالها: سهل عكا الخصيب - ومراً في جبال الجليل يسميه «المربط» ويقول عنه ان العربان يرابطون فيه للمسافرين، ويرى أنه أخطر مكان في الجليل - وسهل «زبولون الكبير» (١٢٩) - فمنطقة صفورية - فالتل المطل على الناصرة - فالناصره (وفيها دير رهبان الأرض المقدسة الذي بني حسب ظنهم على بيت العذراء المقدسة) - فبقايا الكنيس الذي يدعى أن المسيح وعظ اليهودية.

د - الرحلة من الناصرة الى طبريا. (١٣٠) وجاب الفارس «دارفيو» فيها المواقع الآتية: قرية ربنه - تل خطوات النبي يونس - آباركتنا (كقركنا) حيث يعتقد أن المسيح بدل الماء الى نبيذ - فسهل جميل (حيث قطف الحواريون سنابل القمح يوم السبت) - فطبريا (خرائب برج، وكنيسة، ونبع معدني حار) - بحيرة طبريا.

ه - الرحلة من طبريا الى جبل الطابور (١٣١) ووصف رحالتنا خلالها المواقع التالية التي

اجتازها: سهل جميل - خان وحصن «عيون التجار» (الآن خربة سوق الخان) (١٣٢)،  
جبل الطابور (وصف الآثار فيه) - قرية موطن «ديبورا» (قرية دبورية) (١٣٣) في سفحه -  
وبقايا مدينة «طابور» - العودة الى الناصرة ومحاذاة سهل مرج ابن عامر (اسدرلون) -  
قرية فيها مسجد لا يذكر اسمها - فالناصرة.

و - الرحلة من الناصرة الى جبل الكرمل فعكا. (١٣٤) وقد أشار «الفارس دارفيو» الى  
الأماكن التالية، أو قام بوصفها: الطريق الى سفح جبل الكرمل ومحاذاة سهل مرج ابن  
عامر - جبل الكرمل أو جبال الكرمل - كما أسماها - وقد قدم له صورة متكاملة طبيعية  
وبشرية - وتحدث فيه عن دائرة أحجار الأسباط - وقرية أم زينات - وعن الغابات فيه -  
وعن الآثار فيه من عهد الصليبيين بصفة خاصة كقلعة القديس لويس، وديرة - وعن  
ضريح زوجة الاسكندر - ثم دير الكرمليين الحفاة - فمغارة الهنود - فحيفا، ثم عكا.

ان الرحلات الثلاث الأساسية ضمن «الرحلة المقدسة»، وما تفرع عنها، كانت  
تستهدف زيارة الأماكن المقدسة لدى المسيحيين - كما هو واضح - الى جانب المتعة  
والاطلاع. الا أن «الفارس دارفيو» تابع زيارته للأرض الفلسطينية لأهداف أخرى لا يمكن في  
الواقع تجريدها من حب الاستطلاع، بل أن رحلته الرابعة الآتية لا تدخل الا في هذا الباب.

#### رابعاً - الرحلة من عكا الى صفد (١٣٥)

رافق فيها «الفارس دارفيو» «صباشي عكا»، الذي دعاه ليكون في صحبته اليها، أثناء  
تأديته لمهمة فيها. وكان ذلك عام ١٦٦٠، أي بعد عودته من «الرحلة المقدسة» فقد بقي  
في عكا بضعة أيام بعد تفوق صحبه، ينتظر مركبا تنقله الى صيدا.

وبات «دارفيو» في مدينة «صفد» عاصمة الجليل - كما أسماها - ليلة واحدة وعاد في  
اليوم التالي. ولا يذكر رحالته شيئا عن الطريق اليها، الا أنه يصف المدينة، وقلعتها، ومنازلها،  
ومناخها، وفقر أهلها، واليهود فيها.

خامساً - العودة الى جبل الكرمل (١٣٦) وكانت هذه هي الرحلة الخامسة للفارس دارفيو  
على أرض فلسطين. وفي هذه المرة، لم يأت بهدف الحج الى مكان مقدس، تحدث عنه  
الكتاب المقدس، وربطه بنشاط النبي «إيليا»، ولا بهدف زيارة «دير الكرمليين» الذي  
كان وصحبه قد توسطوا لدى الأمير «زن بن أحمد طربلي» (١٣٧) لاعادة الكرمليين اليه بعد

ان طردهم منه، وذلك خلال رحلته الى غزة عام ١٦٥٩، وانما جاء هذه المرة لاجئا الى أمير جبل الكرمل «محمد بن أحمد طربلي». وكان هذا في ١٦ آب (أغسطس) عام ١٦٦٤، على اثر احتلال فرنسا لمدينة «جيجل» في الجزائر، التي يسميها «الفارس دارفيو» في مذكراته بـ «جيجري Gigy» في ٢٣ تموز (يوليو) ١٦٦٤. (١٣٨)

وقد يتساءل، وما دخل «دارفيو»، وهو في «صيدا» من بلاد الشام، بما حدث في «جيجل» على الساحل الجزائري؟ ان تصرف «الفارس دارفيو» هذا يعكس في الواقع، الترابط المكين، العاطفي والاقتصادي بين المشرق العربي والمغرب العربي، وتحسس كل طرف بما يجري في الطرف الآخر، وتعاطفه معه. فقد خشي التاجر الرحالة ومعه الفرنسيون في بلاد الدولة العثمانية، بعد تلك الحادثة - على حد قول دارفيو نفسه - انتقام الأتراك العثمانيين، وأهل البلاد المسلمين. فقد أعلن الأتراك - رواية دارفيو - «بأنه يجب ابادة الفرنجة الموجودين في الامبراطورية» (١٣٩). ويضيف «أن المصريين كانوا أكثر الناس جماعة، فعندما كانت مراكبهم الى «صيدا»، وموانيء سورية الأخرى فانهم كانوا يوسعون الفرنجة سباً وشتماً، ويهددون بصوت عال، بالانتقام من أشخاصنا، ومما نملك، للخسارة التي لحقت بهم من جراء احلال جيجري». (١٤٠)

ويبدو أن «دارفيو» والفرنسيين قد نُصحوا بالعودة الى فرنسا، الا أنهم خشوا أن يفقدوا تجارتهم في بلاد استام، وسيطر الأوروبيون الآخرون على تجارة الليفانت. وبعد التفكير بعدة حلول، رأى «الفارس دارفيو»، أن أقل الأخطار هو في البقاء شريطة حصوله على الوسيلة التي تحمي شخصه وأعماله. فقرر دون اعلام أحد، اللجوء الى حماية الأمير «محمد طربلي» «رئيس جميع الأمراء وأقواهم في جبل الكرمل» (١٤١) - بحسب وصف دارفيو - . وهكذا فعل، بعد أن رتب أموره، وأرسل واحدا من أخويه الى الرملة، وأبقى الثاني في صيدا؛ ثم أطلق لحيته ولبس لباس العرب، وحمل الهدايا، وتوجه الى مخيم الأمير طربلي في جبل الكرمل.

واستقبله الأمير «محمد طربلي» بالحفاوة والترحاب، وأعطاه تصريحاً خطياً بالحماية، وأفرد له خيمة للاقامة فيها، وعين له من يخدمه. وعاش بين ظهرائي «الأمير محمد» من ١٦ آب ١٦٦٤ وحتى ١٨ كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه. ولما لم يجد الأمير من يحل محل أمين سره وكتابه المتغيب، عمل الفارس دارفيو أمين سر له.

وهكذا عاش «دارفيو» أربعة أشهر وسط العرب الأعراب، وتجول في أنحاء المنطقة التابعة للأمير، واشترك في رحلات صيد وكنص، وفي حملة عسكرية شنتها الأمير على

الفلاحين الثائرين في نابلس، لصالح السلطة العثمانية. وبعد أن هدأت الأحوال، عاد «دارفيو» الى مقر عمله في صيدا. الا أنه تردد بعد ذلك مرتين على «الأمير محمد» في جبل الكرمل، وأحضر معه في المرة الاولى أخاه<sup>(١٤٢)</sup> وفي المرة الثانية كانت لوداعه قبل سفره الى فرنسا.<sup>(١٤٣)</sup>

وقد دوّن رحلته هذه، وحياته خلالها، وأحداثها، كما دوّن مشاهداته وملاحظاته حول «العرب» الذين أقام بينهم، وحول الأمير محمد، وأسرته، وحكومته. وقد خص رحلته هذه بعشرين فصلاً في المجلد الثالث منها، نجد فيها عن أصل العرب، ودينهم، وأخلاقهم، والقضاء عندهم، ومهنتهم، وضيافتهم في مخيماتهم، وطبهم، ووسائل الترفيه لديهم، وحيوتهم، واحترامهم للحياة، والموت والدفن عندهم.<sup>(١٤٤)</sup>

ويبدو أن هذه الرحلة، بالمعلومات الغزيرة والمستجدة التي تضمنتها بالنسبة للأوروبيين، قد أثارت الرأي العام الفرنسي في القرن السابع عشر، ولا سيما أن أى الفارس دارفيو «قد نصب نفسه منافحاً، وحرارة، عن العرب الذين عاش بينهم، تجاه الأفكار السيئة والمعرضة التي كانت للأوروبيين عنهم. وبالفعل قد لجّ عليه من حوله كي يجهزها للطباعة. ويظهر أنها كانت القسم الأول من المذكرات الذي نشر، اذ قام بهذه المهمة «السيد دولاروك De La Roque» عام ١٧١٧، وفي دار «كايو Cailleau للطباعة في باريس. واستقبلت بالترحاب من المثقفين الفرنسيين. وقد فكر «الأب لوبا» في الا يعيد طباعتها، بل يرد القارىء الى نشرة «دولاروك»، ولكنه نصح بأن يدخلها في سياق المذكرات، وهذا ما فعله.<sup>(١٤٥)</sup>

وقد قدم «الأب لوبا» هذا الجزء من «المذكرات» ضمن مقدمة الكتاب، فقال عنه «ان ما يذكره الفارس دارفيو عن جبل الكرمل، حيث قام بعدة رحلات اليه، وأقام فيه لمدد طويلة، هو شيء أصيل وجديد، ودقيق التفاصيل. ان الأضواء التي يسلطها على تلك الشعوب كانت خافنة جدا قبله، وقد سلطها بروح صادقة وجادة، وبدقة لا ترى الا عنده. لقد اكتسب صداقة أولئك الأمراء، واحترام رعاياهم، وعاش معهم وكأنه ولد بينهم، وتميز بفخامته وتحوره، وعاداته الحسنة، ودينه وتقواه، وفضائله الخفية الأخرى والسياسية»<sup>(١٤٦)</sup>

ان جميع ما ذكر آنفا عن رحلات «الفارس دارفيو» في فلسطين، كان ضمن (الزمرة الأولى) من حديثه عن فلسطين. أما (الزمرة الثانية) فهي - كما أسلفنا القول - ما ضمّنه مذكراته عن قضية «الأماكن المقدسة»، والصراع حولها بين الرهبان اللاتين، ووراءهم فرنسا بكل ثقلها، والرهبان اليونان، الذين ازداد نفوذهم في الدولة العثمانية في القرن السابع

عشر. (١٤٧) فقد استطاع بطاركة الروم الأرثوذكس من اليونان أن يؤكدوا أحقيتهم في كنيسة بيت لحم، والقيامة، بينما يعتقد رجال الدين اللاتين أن هذا الحق لهم دون غيرهم. لكن « دارفيو » يعرض هذه القضية في وقت شرعت تأخذ فيه طابعا دوليا، وتكوّن عنصراً أصيلاً في المفاوضات، التي كانت تجريها الدول مع الدولة العثمانية، من أجل تجديد الامتيازات.

ففرنسا في عهد الملك « لويس الرابع عشر »، وهو الذي عاصره « دارفيو »، أرادت أن تثبت الحماية الفرنسية للكاتوليك في الدولة العثمانية، أي أرادت أن تحول حالة الواقع الى حالة حق، وأن تضمن هذه الحالة الثبات الذي يكون عادة للتشريع السياسي. وبتعبير آخر، رغبت في أن يعترف لها رسمياً باحتكار النفوذ الكاثوليكي في الشرق. لقد أهل أسلاف « لويس الرابع عشر » نسبياً التفاوض مع الدولة العثمانية لهذا الغرض، وقبلوا حماية الكاثوليك، ورجال الدين اللاتين، والدفاع عن ملكيتهم للأماكن المقدسة ليبرروا به تحالفهم مع الأتراك العثمانيين، أمام البابا وأوروبا. فهم لم يطلبوا هذه الحماية كامتياز، وإنما كسلاح دفاع ديني. الا أن الأمر اختلف في عهد الملك « لويس الرابع عشر »، إذ أراد تحويله الى أداة سياسية ترضي طموحه للمجد والسيادة، وقد عم مركزه أمام الكاثوليك في أوروبا والعالم، وتثبت له النفوذ الأقوى في الامبراطورية العثمانية، كما كان وزيره « كولبير » من طرفه، يسعى لتكون لفرنسا السيادة الاقتصادية فيها. (١٤٨)

وبهذه المفهومات الجديدة قدم السفير الفرنسي في القسطنطينية « المركيز دو نوانتيل » مذكرته الى الباب العالي التي تلخص مخطط « لويس الرابع عشر » في الشرق. (١٤٩) وبمضمون مماثل أكد « دارفيو » في مذكرته التي قدمها للملك في ٢٤ ايلول (سبتمبر) ١٦٧٢ (١٥٠) ضرورة سعي الملك لرد « الأماكن المقدسة » الى أيدي رجال الدين اللاتين. (١٥١)

وقد ضمّن « دارفيو » مذكراته، تلك المفاوضات الطويلة بينه وبين نوانتيل من طرف، والباب العالي من طرف آخر. وأرفقها ببعض الوثائق عن ذلك النزاع، كالخط الشريف الذي أصدره السلطان، ويؤكد فيه أحقية الروم الأرثوذكس بكنيسة بيت لحم، والقيامة، مع كل ما يرتبط بهما من بساتين وملكيات، ومفاتيح، ويحرم على الرهبان اللاتين حيازة شيء منها، ويسمح لهم بزيارتها فقط، اذا ما طلبوا أذنا بذلك، ووافق عليه بطرك الروم. (١٥٢) ومن تلك الوثائق أيضاً، شهادة المترجمين الكاثوليك الذين حضروا مقابلة الصدر الأعظم مع بطرك الروم حول هذا الأمر، (١٥٣)، والامتيازات التي حصلت عليها فرنسا عام ١٦٧٣، وما ورد فيها بشأن هذه القضية، (١٥٤) والرسائل المرافقة لها

وبعد، ماذا يمكن أن ترسم لنا تلك المذكرات من صورة عن فلسطين خلال العقدين الأول والثاني من النصف الثاني من القرن السابع عشر؟

ان «مذكرات» الفارس دارفيو» تغص بالمعلومات المنوعة عن الأرض المقدسة، وان كانت لا تسلم من الانحرافات، والسير مع الهوى، والوهم والخطأ.

ويمكن تصنيف تلك المعلومات بحسب المصادر التي اعتمدها المؤلف ضمن المجموعتين التاليتين:

**المجموعة الأولى** ما شاهده المؤلف بنفسه مباشرة أثناء رحلاته، من مظاهر طبيعية، واقتصادية، وعمرانية، واجتماعية، وفكرية بل فنية. ويبدو «الفارس دارفيو» فيها باحثاً مستقصياً ودؤوباً، وشديد الفضول، ودقيق الملاحظة، وعلمي النظرة. ففضوله مثلاً كان أقوى من مرضه، فعندما أصيب بالحمى أثناء رحلته، أقنع مرافقيه بتأجيل سفرهم كي لا يحرم من زيارة الآثار القائمة في الطريق.<sup>(١٥٥)</sup> وكان أقوى من الأخطار التي تعرض لها وكادت تودي بحياته. فقد تسلق «جبل الأربعين حتى قمته، وهو من الجبال الصعبة المرتقى، على الرغم من أن أية خطوة في غير مكانها ابان الصعود والهبوط، كان يمكن أن تقضي عليه.<sup>(١٥٦)</sup> وزار مكاناً مقدساً للمسلمين بالقرب من «عين سلوان» عند القدس على الرغم من أن القِيم على المكان لاحقة بالشتيمة، ولقبه بالكافر الذي تجرأ على تدنيس ذلك المكان المقدس، بأحذيته المصنوعة من جلد الخنزير، بل وراه يمد يده الى خنجره.<sup>(١٥٧)</sup> وعرض نفسه لخطر الملاحقة، وفرض الغرامة المالية عندما سعى كي يرى، وبعد جهد كبير، بعض جوانب «مسجد الرملة». فالأتراك كانوا يمنعون دخوله على غير المسلمين، تحت طائلة أقسى العقوبات. ومن ثم كان عليه أن يبحث عن أصدقاء بين المسلمين، وأن يغدق الهدايا، حتى يقف لحظة على الباب. كما كان عليه أن يختار الوقت المناسب للتسلل الى داخله بحيث لا يراه أحد، اذ لو اشتكى واحد بأنه رآه، فانه يكون عرضة للموت أو البص.<sup>(١٥٨)</sup> بل ان فضول «دارفيو» كان أقوى حتى من الملل نفسه: فمع ملله، وتعبه، من رؤية مدن مخربة، وأسوار مهدمة - على حد قوله - فانه رضخ للحاح زملائه في مرافقهم لزيارة الناصرة وجبل الكرمل.<sup>(١٥٩)</sup>

الا أن «الفارس دارفيو» قد لا يكون عند وصفه تلك الأمور، ولا سيما المظاهر الطبيعية، والمواقع، معتمداً على مشاهداته فقط، وانما قد يكون دعم تلك المشاهدات بمصادر أخرى، كالرحلات السابقة له، أو ما كتبه مثلاً «أبو الفداء» في كتاب «تقويم البلدان»،

الذي قام مؤلفنا بترجمته، كما ذكرنا سابقا. ومهما يكن، فإنه يمكن النظر الى المعلومات المنبثقة عن معاينة مباشرة، كوصف الأمكنة والمدن، والآثار، والأديرة والكنائس على أنها معلومات قريبة من الحقيقة والواقع سعى صاحبها لملاحظتها بتتبع، حتى أنه لرؤية «المسجد الأقصى»، وهو الذي كان لا يسمح له بالدخول اليه، استخدم المنظار المقرب لمشاهدته من نافذة بيت القاضي المطل على الصحن. (١٦٠) الا أن هذا لا يمنع من القول بأنه كان متأثرا بعواطفه المسيحية: فقد أبدى اهتماما أكبر بالأماكن المسيحية، والكنائس والأديرة بشكل خاص، وأحاط تلك الأماكن بأجواء قاسية من الخراب، وكأنه يريد أن يحمل الدولة العثمانية كل مظاهر ذاك الخراب، كما سنشير اليه في حينه. ولذا فقد يكون هناك بعض المبالغة في طرحه هذه النقطة. هذا بالاضافة الى عدم تثبيته جميع أسماء الأمكنة بتسمياتها العربية السائدة، والاكتفاء بأسمائها التوراتية أو المسيحية الأوروبية.

**المجموعة الثانية** معلومات اعتمد فيها على مصادر أخرى غير مشاهداته المباشرة. وتدخل تحتها المعلومات ذات الطابع التاريخي، والديني، والمشاهدات التي لم يستطع اتمامها بنفسه، ومن الأمثلة على ذلك، حديثه عن تاريخ تأسيس المدن، والأديرة، والكنائس، والحصون، أو عن المشاهد الدينية، والزارات. ولا يبين المؤلف المصادر التي استقى منها معلوماته، ولكن من المؤكد أن مصدرا أولا من مصادره هو «الكتاب المقدس». لأنه يشير اليه في أكثر من مناسبة. ولا بد أنه استند الى مصادر لبعض المؤرخين القدماء، اذ يذكر هذا عبورا (١٦١)، الا أنه لا يحددها. ومما لا شك فيه أنه قرأ كتب بعض الرحلات الى الأرض المقدسة، وقد يكون أهمها ما صرح عنه: ككتاب «الأرض المقدسة» للأب «أوجين روجر E. Roger» (١٦٢) الذي نشر في باريس عام ١٦٦٤، ورحلات «تيفو J. Theveno» المعاصر له، الذي التقى به في أزمير وبلاد الشام، والتي نشرت كذلك في العام نفسه. (١٦٣)

ويضاف الى تلك المصادر المكتوبة، الرواية الشفوية، التي تناولها «دارفيو» من أفواه أهل البلاد، المسيحيين واليهود، والمسلمين، أو من الحكام، أو من أجنب عاصروه، وشاهدوا ما لم يستطع رؤيته لظروف أعاقته. ومثل على ذلك، ما قاله عند وصف «المسجد الأقصى»: ان القليل الذي سأقوله عنه هو كما لاحظته من جبل الزيتون بمنظار مقرب، من نافذة بيت القاضي المطل على الصحن، واستنادا الى ما ذكره لي رجال الدين الفرنسيون الثلاثة، الذين أدخلوا اليه ليصلحوا النوافذ، التي أصابها الريح الهوجاء بعطب. وبعد ذلك يمكن الرجوع الى رحلة الأرض المقدسة للأب «أوجين روجر» (١٦٣)

ولكن «الفارس دارفيو» لم يأخذ تلك الروايات الشفوية، بل الروايات المكتوبة، على علّاتها، ودون تمحيص ونقد، ومناقشة. فهو قد سجلها أولاً لا بحذر كبير، واستخدم من الصيغ ما ينبي عن ذلك، كقوله «يدّعي كذا». ثم أفصح عن شكه صراحة، منها القارىء الى ضرورة عدم الوثوق بكثير من الأقوال. فقال في بداية رحلته المقدسة مثلاً: «لا أعني الزام قرأني على تصديق ما سأقدمه عن نية طيبة، من روايات البلد. فأنا نفسي لم أصدقها، ولا أحاول الضغط على أحد لتصدقها. يجب أن يكون القارىء حراً. وما عليه سوى الاصغاء، دون البحث عن أسباب مقنعة، ودون جدل، والثقة بما يراه مناسباً منها.»<sup>(١٦٥)</sup> ويكرر هذا المعنى في أكثر من مكان، مؤكداً «أن البلد زاخر بالروايات، وبعضها صحيح، وأغلبها قليل الاحتمال، وبعيد عن العقلانية.. ومن الأدب ألا يقال بصراحة ما يجول في الخاطر، خشية الدخول في مناقشات تثير علك هجوم المسيحيين من كل المذاهب.»<sup>(١٦٦)</sup>

ويحاول «دارفيو» أن يجد تعليلاً واقعياً بل اقتصادياً لكثرة الروايات الشعبية الدينية، التي تحيط ببعض الأماكن أو بعض الاحتفالات، فيقول في رحلته الى «بيت لحم» و«الخليل»: «لقد أرضني تقاي في هذه الرحلة مثلما أرضني فضولي. ولكن لدي شكوك في كل ما أروني. ويبدو أن شكوكي تستند الى أساس صحيح، ولم أجد أحداً كي يبددها أو يفسرها. ان مصلحة الأتراك واليهود، أن يتحدثوا كما يتحدث المسيحيون، وذلك حتى يثيروا فضول هؤلاء الأخيرين، ويجذبونهم لزيارة بلادهم والاعجاب بها، وحمل المال اليها...»<sup>(١٦٧)</sup>

ويظهر نقد «الفارس دارفيو» للروايات الدينية، وتعليله الواقعي المادي، البعيد عن التأثير بالعاطفة الدينية، في كثير من فقرات رحلته الى الأماكن المقدسة. ومنه بالذات، ما نقد به احتفال الروم والأرمن بـ «النار المقدسة»، في كنيسة القيامة، حيث يدّعي رجال الدين هؤلاء، والحكام الأتراك أنفسهم يعرفون تماماً أن النار المقدسة لا تهب من السماء وأن رجال الدين يحددون بها الشعب. وهدفهم من ذلك - كما بين المؤلف - «لا ليوجهوا الشعب نحو دعم تقديسه للأماكن المقدسة، وتغذية ايمانه في كل سنة فحسب وإنما ليجمعوا من صدقاته ما يدفعون به الضرائب والرسوم المفروضة عليهم من السلطان وموظفيه. وهذا السبب لامراء فيه، وهو الذي يقنع الأتراك بهذا الاحتفال، ولا سيما اذا أكد ببضعة آلاف من القروش. فعندها لا يجدون أن يضاف أيضاً، أن مدينة القدس والضواحي، تجد في هذا الاحتفال فوائد خاصة، بسبب زيادة الاستهلاك لجميع أنواع المواد الغذائية. اذ يجتمع أثناء



ذلك الاحتفال ما ينيف عن ستة آلاف نسمة. هذا بالإضافة الى أن دخل الباشا المالي يتزايد عن طريق الرسوم التي يتم استيفاؤها من الزائرين لكنيسة القيامة. والأمر نفسه يسري على الأساقفة، لأن هؤلاء الحجاج الأتقياء يقدون عليهم الهدايا، التي هي أفضل وارداتهم، وأكثرها ضمانا. فالجميع اذاً يستفيدون من هذه الأسطورة الخرافية.» (١٦٨)

ومع ثقة رحالتنا المبدئية بأحوال المؤرخين القدماء - التي تتبدى في نقده لاحدى الروايات المتداولة عن قدسية مكان قرب نابلس، قيل أن المسيح قد استراح فيه فترك انطباع جسمه على الصخر، بقوله. «فما كان لا يرى شيء من هذا في الكتاب المقدس ولا لدى المؤرخين القدماء، فانه يمكن وضع هذه القصة في زمرة الأشياء المشكوك بها، وغير الصحيحة في هذا البلد. (١٦٩) فانه لا يفهم من نقده وشكوكه، وبصفة خاصة ما يقولونه عن معظم الكنائس والأديرة، والحصون على الأرض المقدسة، هي من بناء «القديسة هيلانة» (١٧٠). وفي ذلك يقول: «ان هذه الامبراطورة القديسة كانت تحب البناء كثيرا، اذا فرض أن جميع الأبنية التي تنسب اليها هي من عملها حقا، ويمكن على ما يبدو لي، الشك بهذا الأمر، كما يشك بقسم كبير من تلك التي ينسبها المصريون الى يوسف.» (١٧١)

ولا بد أن يضاف الى المعلومات التي طرحها «دارفيو» عبر مشاهداته الخاصة، وأخذاً عن غيره، تعليقاته المتنوعة، المنبثقة من عقل ناقد ومحصص، وثقافة واسعة ومحيطة بالنسبة لعصره، وان كانت في بعض الأحيان ناقصة أو مغلوبة أو مشوهة بالأهواء الخاصة، كما ذكرنا أكثر من مرة. وقد قدم تلك التعليمات بروح جادة أحيانا، وبروح تهكمية مرحة أخرى.

ومن تعليقاته النقدية الكثيرة ما قاله مثلا، عند حديثه عن «برج يعقوب» (في الطريق بين القدس وبيت لحم): «يَدْعُونَ أن هذا البطريك (ويقصد يعقوب)، بناه ليراقب منه قطعانه التي كانت ترعى في الجوار. وهذا لا يتفق كثيرا مع ما يذكره الكتاب المقدس عن هذا البطريك، بأنه لا منزل ثابت له، وأنه كان يتنقل مع قطعانه، مع توافر الكلاً والمرعى. فمن غير الطبيعي اذاً، أن يكون قد بنى أبراجا في كل محطة توقف فيها، والا لشوهد عدد كبير منها. وقد يكون بنى بالأحرى، مرقبا من الخشب، كان ينقله بسهولة من مكان الى آخر بعد فكه. كيف يمكن الاعتقاد أن انسانا قضى طيلة حياته تحت الخيام، بنى برجامن الحجر، لمجرد التمتع برؤية قطعانه؟» (١٧٢)

ومن أمثلة التعليقات الجادة - التهكمية، ما علق به على «الكرمليين» اثناء حديثه عن «دير النبي ايليا» الذي أقامه الروم بين القدس وبيت لحم، على انقاض البيت الذي ولد فيه ايليا(١٧٣) - على زعمهم - ومن الغريب بأن الكرمليين الذين يقولون عن أنفسهم بأنهم ابناء هذا النبي الكبير، لا يطالبون ببيت أبيهم، مع العلم بأنه لن يرفض طلبهم، اذا ما ضموا الى حججهم المقنعة بعض المال. ففي هذه الحالة سيطرده الباشا والقاضي الروم (اليونان) الذين هم ليسوا سوى مغتصبين له -، وستكم هذه الملكية أفواه أولئك الذين يشكون في أصلهم. اذ حينما يراهم الناس بأنهم يملكون ما كان ملكاً لأبيهم، فان الشك لن يراودهم أبداً بأنهم من أبنائه.» (١٧٤)

ذاك كان تصنيف المعلومات بحسب مصادر المؤلف. أما تصنيفها بحسب طبيعتها، فهي مع غزارتها - كما أشرنا أكثر من مرة - كثيرة التنوع، وتحيط بمختلف مظاهر الحياة في فلسطين، في بدايات النصف الثاني من القرن السابع عشر. «فمذكرات الفارس دارفيو» تقدم في الواقع، قطاعاً من «الجغرافيا التاريخية» لفلسطين، ترتسم فيه الملامح الطبيعية والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، بل والفكرية. ولن يُقدّم في هذه الدراسة سوى البنية الطبيعية، والبشرية لفلسطين كما ارتسمت في ذهنية رحالتنا. لسعة الموضوع وتشعبه.

### البنية الطبيعية

لم يرسم «الفارس دارفيو» حدوداً سياسية، ولا طبيعية لفلسطين، وهذا أمر بدهي وواقعي في تلك العصر، لأنه من المعروف ألا حدود تفصلها عن بلاد الشام، وانما هي بتعبير أصح، جزء من تلك البلاد. بل أن كلمة (فلسطين) لم تكن لتحمل في ذهنه أي مدلول من تلك المدلولات التي أعطاها لها العرب المسلمون، أو الرومان قبلهم، (١٧٥) ونحن اليوم. فكل ما كانت تعنيه هذه الكلمة له، أنها جزء من «الأرض المقدسة» (١٧٦)، وهو القسم السهلي الممتد الى الغرب على ساحل البحر المتوسط، والذي يطلق عليه الجغرافيون المعاصرون اسم «سهل فلسطين» أو سهل الفلسطينيين» (١٧٧). بل أن «سورية SOURIE» نفسها في مفهومه هي جزء من الأرض المقدسة. (١٧٨)

ومع أن الفارس «دارفيو» عندما تحدث عن «طبيعة الأرض المقدسة»، لم يقسمها الى مناطق طبيعية متميزة تضاريساً، أو مناخياً، كما يفعل الجغرافيون اليوم، وانما اكتفى بوصف المناطق كما أتته اثناء زيارته، فانه بالمقابل كوّن، أو كان متكوّنًا عنده، مفهومًا صحيحاً الى حد كبير عن الأقسام التضاريسية الكبرى للأرض المقدسة. والدليل على ذلك أنه قفل

حديثه عن «الأرض المقدسة» ورحلاته العديدة في أرجائها، بتقسيمها الى أربع مناطق تضاريسية، تشبه الى حد ما ومع بعض الشيء المناطق المتعارف عليها عند الجغرافيين، ولا سيما عند اليونان القدماء<sup>(١٧٩)</sup> وهذه الاقسام هي: (١٨٠)

١ - منطقة الجليل، وقد وصفها بقوله: «أنها أجمل الاقاليم الاربعة، وأمتعها منظرا، وأخصبها أرضا. وان ما قلته عن سهولها الواسعة، وجبالها، وتلالها يكفي لاقناع القاريء.»

٢ - السامرة، وهي تشبه الجليل كثيرا، الا أنها أقل جبالا، وأفضل زراعة

٣ - فلسطين، ليس فيها جبال البتة تقريبا، فالبلاد منبسطة، كما أنه ليس فيها أشجار أبدًا

٤ - اليهودية، وكلها جبال وأودية غير مزروعة، كريمة المنظر، وقاحلة، وبصفة خاصة حول القدس والبحر الميت. ولا يمكن أن يستثنى من ذلك سوى «صحراء القديس يوحنا والضواحي، كما رأينا في الوصف الذي ذكرت.»

ومع أن الفارس «دارفيو» أسقط منطقتين هامتين وهما منطقة الغور، وصحراء النقب، علما أن الغور الفلسطيني قد زار معظم أرجائه، فان ما قدمه آنفا كان جمعا موفقا لمعلوماته التفصيلية المتناثرة للطبيعة الفلسطينية، وخاتمة موجزة بليغة، توضح المناطق الطبيعية الرئيسية من الخريطة الفلسطينية التي بابها وفي الحقيقة، قدم الرحالة وصفا للطبيعة الفلسطينية في مختلف مظاهرها، وأحاول بمعظم تضاريسها من جبال، وسهول، وتلال وأودية، وسواحل. كما بين هنا وهناك مناخ بعض أجزائها، ولا سيما خلال الفترة الزمنية التي كان هو فيها، والمم بأهم أنهارها، وبحيراتها وينابيعها حلوة والمالحة، والعادية والمعدنية الحارة. وبعض نباتها الطبيعي وحيوانها، وكان في وصفه لتلك المظاهر ليس اتجاه عاديا، وإنما أشبه بجغرافي، شديد الملاحظة وعلمي النظرة، فقد سعى لتقديم كل ما يشرح تلك الظواهر للقاريء. من معلومات قياسية عن أبعاد الأمكنة التي توقف عندها، كمحيط بعضها مثلا، أو مساحته، والمسافات التي تفصل بينها، وارتفاع الجبال، وطول الحيرات وعرضها. وقد اتخذ وحدات للقياس تلك المعروفة في فرنسا في زمنه، كالخطوة «Pas»<sup>(١٨١)</sup> للمسافات القريبة نسبيا وللأطوال المحدودة، والفرسخ Lieue<sup>(١٨٢)</sup> للمسافات البعيدة، والقدم Pied<sup>(١٨٣)</sup> للارتفاع والعمق، و «الأرن arpent»<sup>(١٨٤)</sup> للمساحة، وأحيانا «التواز Toise»<sup>(١٨٥)</sup> للأطوال أيضا. ومع أن المقاسات التي طرحها في مذكراته تقريبية جدا اذ اعتمد فيها على ما يبدو النظر دون أداة معينة، أو مصادر أخرى الا أنها تدل على فكر يتوخى الدقة. فقد قدر طول البحر الميت بـ (٣٦) فرسخا وعرضه بـ (١٠) فراسخ في وسطه، أي بـ (٤٤ كم) طولاً، و (٤٠) كم عرضاً، وهذا مغاير

للحقيقة مغايرة كبيرة لأن طول البحر الميت لا يتجاوز «ال (٧٦) كم، وعرضه ال (١٢) كم. وقد دفعه فكره العلمي الى تجريب قياس عمق «البحر الميت» في البقعة القريبة منه، بوسائله البدائية، فطلب من الأعراب المرافقين له أن يدخلوا الماء بخيولهم، وأن يسيروا العمق برماحهم. (١٨٦) ووجهه ذلك الفكر أيضا الى تذوق ماء ذاك البحر، لتقدير مدى الملوحة فيه. ومن ثم فانه عندما وصف تلك الملوحة بأنها «شديدة وقارصة، حتى أنه من الصعب تحملها على الشفاه دون الشعور بالألم، ودون أن تترك أثرا، وأنها تلذع أكثر مما يفعل النظر، وفيها بعض المرارة» (١٨٧) فان وصفه كان منبثقا من واقع عانا. وفي الحقيقة، ان ما ذكره من معلومات عن هذا البحر، والأملاح التي يطرحها، وامكانية ظاهرة المد والجزر فيه، لتدل على استقصاء وتتبع محكمين، ولا سيما أنه لم يمكث طويلا في تلك البقعة. ولم يكتف الرحالة بالقياس، بل سعى الى شرح الأمور وتفسيرها تفسيراً عقلانيا علميا. فعندما يتحدث عن نبات غير معروف في أوروبا، فانه يشرح صفاته وكأنه عالم نبات. كحديثه عما أسماه بشجرة الرقوم (١٨٨) التي تنبت في سهل أريحا، وعن ورد أريحا، (١٨٩) وعن شجر الخروب (١٩٠) وعندما كان يصف الجبال، فانه كان يبين شكلها، ومنحدراتها، وصخورها أحيانا، ومدى التشجير، والوديان فيها، اضافة الى ارتفاعها، والمسالك بها. وقد يكون أفضل وصف قدمه من هذا القبيل هو وصفه لجبل الكرمل

وسمى «الفارس دارفيو» الأماكن التي زارها بأسمائها العربية أحيانا، مع الإشارة الى تسمياتها القديمة. الا أنه في أكثر الأحوال كان يعطيها أسماءها التوراتية، أو ما تمثل بالنسبة لما ورد في التوراة من أقاصيص دينية، أو على لسان أهل البلاد من روايات. وفي بعض الأحيان كان يترك الأماكن دون أسماء. ولذا من الصعب تثبيت رحلاته والطرق التي اتبعها بدقة على خريطة معاصرة، ولا سيما أنه لم يرفق برحلاته خريطة، تبين خطوط سيره، أو الأماكن التي زارها، ومواقعها؛ كما أن عنصر تحديد الجهات ضعيف عنده نسبيا.

واهتم «الفارس دارفيو» بأن يمزج الوصف الطبيعي البحت للمكان بالحديث عن قيمته الدينية، بالنسبة للمسيحيين بالدرجة الأولى، ثم للمسلمين واليهود، اذا كانت مقدسة منهم. الا أنه - كما ذكرنا سابقا - لم يكن لينساق مع التعليقات الدينية، بل كان ينقدها بشدة حينما لا تنسجم مع العقل والمنطق، بل ويتهم عليها. ومن ذلك مثلا ما قاله عن «جبل نابلس» الذي يقوم نصفها على سفحه - على حد تعبير الرحالة - «هناك شيء غريب في هذا الجبل، وهو أن نصفه تغطية الأشجار والشجيرات والخضرة، بينما نصفه الثاني

أجرد وقاحل. وقد لا يكون هذا الأمر غريبا لو أن القسم الأجرد وحده كان يتجه نحو الشمال، فهناك كثير من أمثاله، ولكن النصفين من الجبل يتقاسمان الشمال بالتساوي. ويرجع مسيحيو البلدة ذلك الى لعنة السماء التي صبت عليه، لأن رأس «القدّيس يوحنا» قطعت في هذه المدينة». ويعلّق «دارفيو» على ذلك بقوله متهمّكا: «ولكن يبدو لي أن ذنب هيرود كان كبيرا جدا، بحيث يستدعي اللعنة على كل الجبل لا على صفة.» (١٩١)

وأدخل رحالتنا في وصف الظاهرات الطبيعية نشاط الانسان فيها، في القديم وفي وقته، كالزراعة، ووسائل الري، والآبار، والجسور، والقرى، والمدن، والقلاع والكنائس، والأديرة، والمساجد وغيرها. بل لم ينس حتى المغاور، واستخدام الانسان لها، وخلوات المتعبدين. وبذلك يكون «دارفيو» قد قدم «دراسة اقليمية» متكاملة عن عديد من مناطق الأرض المقدسة.

ومن الجبال التي وصفها، «جبل الكرمل» - كما أسلفنا القول -، أو «جبال الكرمل» كما شرحها. (١٩٢) و «جبل الطابور» (١٩٤)، وجبل الأربعين (١٩٨). ومن الأنهار التي ركز عليها، نهر الأردن (١٩٩)، وقد ميّز بينه وبين الأنهار السيلية، التي أطلق عليها اسم «سيل Torrent»، كسيل المقطّع مثلا. (٢٠٠) ومن البحيرات التي تتبعها بحيرة طبريا (٢٠١)، وبيننا سابقا اهتمامه بالبحر الميت (٢٠٢). وأشار الى بحيرة تدعى بـ «بحيرة التمساح» أو «موت تمساح» بين قيصرية ويافا، وعند الانعطاف نحو الداخل لملاقاة طريق الرملة (١٠٣) وهي على ما يبدو، مصب نهر الزرقاء الذي كان يدعى أيام الرومان بنهر التمساح، والتسمية لا زالت دارجة الى اليوم. (٢٠٤) لا أن تحديد «دارفيو» للموقع لا يبدو دقيقا، فالنهر الأقرب الى قرية «علي بن عليم» أو «الحرم» اليوم، التي جعل بحيرة التمساح قريبة منها هو «نهر العوجا» (يركون)، (٢٠٥) وهو الذي يمكن أن يكون دارفيو قد مر به أثناء طريقه الى الرملة. الا اذا كان الطريق أيامه يتجه شمالا أولا فجنوبا، وهذا قليل الاحتمال.

وقد وصف عددا من الينابيع أو العيون، ومنها نبع سلوان قرب القدس (٢٠٦) وينايبع سليمان (عين العروب) بيت لحم والخليل (٢٠٧)، وهي العين التي جرّت مياهها الى القدس. وقد أسماها بالنبع المختوم (٢٠٨)، لأن النبي سليمان - حسب زعمه - كان قد ختم مدخله حتى لا يدخله أحد دون اذن. و «عيون التجار» (٢٠٩) في سفح جبل طابور، وعلى طريق القوافل التجارية بين دمشق ومصر. والنبع المعدني الحار عند طبريا، حيث كان المرضى يستشفون (٢١٠)

ومن النباتات الطبيعية التي وردت في أوصاف الرحالة، الزهور الطبيعية في الأودية، والأعشاب العطرية في الجبال<sup>(٢١١)</sup>، وأشجار الزيتون، والتين، والبلوط والصنوبر والخروب، واللوز، والزقوم، والبطم<sup>(٢١٢)</sup>. وبعض تلك الأشجار قد استئس بالطبع وغدا من الأشجار المزروعة. ومن النباتات المزروعة، إضافة الى ما سبق، أشجار البرتقال والليمون، وبعض النخيل، وشجيرات الكرمة والرمان، وأشجار مثمرة أخرى لا يحدد نوعها. وقد أبرز من النباتات المزروعة أيضا، الجوب، والخضر، والقطن، والبطيخ الأخضر والأصفر.<sup>(٢١٣) مكر</sup>

ومن النباتات الطبيعية التي كان بها قيمة صناعية آنذاك أعشاب القلي، وكان يستخرج منها بعد احراقها، مادة (الأشنان)، المستخدمة في صناعة الزجاج والصابون.<sup>(٢١٣)</sup>

ومن الحيوانات الطبيعية والمستأنسة التي أشار الفارس دارفيو الى وجودها، الثيران والأغنام، والماعز، والخنازير البرية، والغزلان، والأرانب.<sup>(٢١٤)</sup> وهناك بالطبع الخيول التي كان يعكف على تربيتها العرب البدو. وقد أفرد «الفارس دارفيو» للحديث عنها فضلا خاصا.<sup>(٢١٥)</sup> ناهيك عن الحمير، والبغال، والجمال، كمطيا للانتقال والتحميل.

ومن ففة الطيور، يذكر «دارفيو» طيور البحر دون تحديد، والحجل، وأنواعا من الحمام، هذا بالإضافة الى المستأنس منها كالدجاج.<sup>(٢١٦)</sup>

ولا ينسى في عرضه واستقصائه، الأسماك، ويشير الى وجودها في نهر الأردن، وطبريا، وفي البحر المتوسط بالطبع.<sup>(٢١٧)</sup> وبعض الحشرات، كالجراد، والنحل.<sup>(٢١٨)</sup>

وخلاصة القول ان ما قدمه «الفارس دارفيو» في مذكراته من أوصاف طبيعية لجزء كبير من الأرض الفلسطينية، مع كل ما قد يكون فيه من أغلاط في تحديد بعض المواقع، ومن نواقص، يرسم صورة حيّة ومخضوضرة لتلك الأرض في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر. ويمكن لتلك الصورة أن توازن مع غيرها من الصور التي تطرحها المصادر المعاصرة لها، والمصادر قبلها وبعدها، ليتضح التطور الذي يكون طراً على تلك الطبيعة، نتيجة عوامل طبيعية أو بشرية. كما يمكنها، شأنها شأن كل مصدر، أن تدعم أو تنفي معلومات أتت بها مصادر أخرى، ومن ثم فهي عون كبير للباحث الجغرافي والتاريخي على حد سواء. هذا ويجب ألا ينسى قيمة تثبيتها مظاهر الأرض السابقة، ولو على الورق، وفي الفكر، بيناً أخذت تلك المظاهر وأسمائها تتغير جذريا في الوقت الحاضر، نتيجة فعاليات العدو الاسرائيلي على الأرض المقدسة. ويضاف الى ذلك أن تلك الصورة للمظاهر الطبيعية، تكون خلفية هامة وأساسية لدراسة الأحوال الاقتصادية وبصفة خاصة الزراعة.

## البنية البشرية لفلسطين في «مذكرات دارفيو»

ومثلما تمكّن «الفارس دارفيو» أن يرسم صورة حية عن طبيعة الأرض الفلسطينية - عدا صحراء النقب -، فإنه طرح ملامح الصورة البشرية للأرض المقدسة، كما رآها وتمثلت في خاطره في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر. وفي الواقع، لم يعكس تلك الصورة في فصل قائم بذاته، وإنما هنا وهناك، عند زيارته للقرى والأرياف والمدن، فقد كان يبين نوع سكانها، ما عدا منطقة جبل الكرمل وما حولها، التي أفرد لعربها عدة فصول.

ويتضح ما ذكره من معلومات حول السكان، أنه لم يميّز بينهم بحسب دياناتهم فحسب، كما كان همّ كثير من الحجاج المسيحيين عادة، وإنما أدخل العنصر أيضاً. فبشر الأرض المقدسة يتألفون، بحسب نظرتهم، من العرب، والأتراك، ومن يسميهم بـ «المور Maures»، ومن التركان، ومن المسيحيين، واليهود.

أما العرب، فقد تحدث عنهم طويلاً في مذكراته، ودافع عنهم بحجرات غريبة بالنسبة لأوربي في ذلك العصر، وبنكر موضوعي ومنطقي. فقد قال في مطلع فصله عن «أخلاق العرب»: «لقد أشرت سابقاً أن الأوروبيين يخطون كثيراً عندما ينظرون إلى العرب على أنهم أناس غير مهذبين، وأنهم متوحشون، وعوام، وظالمون، وعنيفون، ولا إخلاص لديهم ولا عواطف. إن ما سأقوله عنهم، وأنا متوخ الحقيقة الدقيقة، ودون أي تملق، يجب أن يهدد الأفكار السيئة المسبقة عن هذه الشعوب».

«أن كبرياء الرومان جعلتهم ينظرون إلى جميع الشعوب الأخرى في العالم، على أنهم «بربر»، وأنه لا بد أن يكون الواحد رومانياً، أو على الأقل، له حق المواطنة الرومانية، حتى لا يضيع وسط تلك الجماهير البربرية. هل كانوا محقين في نظرهم تلك؟ أبدأً؛ فهناك شعوب مهذبة مثلهم، بل وربما أكثر مدينة منهم. إننا اليوم نسخر من زهوهم، وفي الوقت نفسه نقع بالخطأ ذاته عننا نحكم على العرب كما نحكم الآن».

«ولكنهم يقولون أن اسم «عربي» يجرح الأذن. إنه ليس الاسم، وإنما الفكرة التي ربطت به. فالكلمة نفسها ليس فيها ما يزعج، فهي ككلمة «النورمان»، و «البيكار»، و «الغسكون». فالأفكار التي ارتبطت بتلك الأسماء، حسنة كانت أم سيئة، هي التي يمكن أن تفسر بعدنا عن تلك الشعوب. فعندما تتصور أن النورمان خونة، ولا دين صحيح لهم، وأن «البيكار» عنيدون، ومتسرعون، وغالباً دون تفكير، دائماً فظو القلوب، وغير متمدنين؛

وأن «العسكون» متعجرفون، ومتعصبون، وسريعو الغضب، فإن أفكارنا هذه، المستندة الى أسس غير صحيحة، هي التي تجعلنا نطلق أحكاما متسرعة، ومشكوكا بها، وفي أغلب الأحيان مغلوطة. والشيء ذاته يقال عن العرب. فقد احتضنت عنهم أفكار سيئة سابقة، ولم يبذل جهد ما للتحقق فيما اذا كانت تلك الأفكار ذات أساس صحيح أم لا. فكل يقضي حياته دون أن يستخدم عقله لايضاح هذا الأمر، ودون أن ينصف شعبا من أكبر الشعوب القديمة جدا، والعديدة جدا، وندين له. بأفضل ما لدينا في الفلك، والطب، وعلوم أخرى. من الصحيح أن العلوم لا تزدهر عندهم في الوقت الحاضر، ولكن هل هو خطوهم؟ لا، انه طغيان الأتراك عليهم... فهؤلاء الغزاة الوقحون جعلوهم في حالة لا تسمح لهم بالانكباب على تلك العلوم، على الرغم من الامكانيات التي وهبتهم اياها الطبيعة ليكون تقدمهم لا نهائيا. لأن لديهم بصورة عامة، الفكر الذكي اللماح، والنظرة الثاقبة، والمحكمة المنطقية المتينة، والصحة في الأفكار والأجسام، فهم يتمتعون ببنية قوية.» (٢١٩)

وقد يتبادر الى الذهن بأنه قصد بالعرب الذين تحدث عنهم، العرب الأعراب، أو البدو الرحل، الذين عاشهم وعاش بينهم في نخيم الامير «محمد طرباي»، في جبل الكرمل، ولكن القاريء للفصل الأول الذي تكلم فيه عن (العرب عامة) (٢٢٠)، يرى أنه قد جعل العرب ثلاث فئات: «العرب» (أي البدو منهم)، و «المور Maures» والتركان. ويرد أصلهم المكاني الى «بلاد العرب الثلاث» (٢٢١)، أما أصولهم الانسانية فيرجعها الى «اسماعيل بن ابراهيم». ويؤكد كثرة عددهم، وانتشارهم في كثير من بقاع الأرض. الا أنه يعزو وذلك الانتشار الى واقعة غريبة جدا، يظهر من خلالها أن «دارفيو» كان جاهلا بتاريخ العرب والاسلام. فقد ردّ ذلك الانتشار الى «اضطهاد الأتراك الذين فتحوا بلادهم، أي بلاد العرب، و «غيروا الحكومة، والعادات، والسكان، والتقسيم الاداري»، مما دفع هؤلاء العرب الى الهجرة حتى الى أفريقيا والنيجر، حيث هناك عدد كبير منهم. (٢٢٢) ولا يُعرف المصدر الذي استقى منه فارسنا هذه المعلومة المغلوطة، والمشوهة للتاريخ العربي الاسلامي، فكأنه بها لا يعرف شيئا عن الفتوحات العربية الاسلامية. أو كأنه أراد أن يتجاوزها بعصبية المسيحية الأوروبية، وأن يؤكد مرة أخرى، «اضطهاد الأتراك» للعرب، فيرضي كرهه للأتراك العثمانيين - وهذا واضح في سياق مذكراته كله -، ويخفف بالتالي، بعض التناقض النفسي الذي كان يشعر به، بين اعجابه بالعرب، وضيقة ذرعا بدينهم الاسلامي.

ومهما يكن مفهوم «دارفيو» عن انتشار العرب في الأرض مغلوطا ومشوها، وفكرته عن أصل العرب توراتية ومنقوصة، الا أنه يؤكد أن العرب الذين يشاهدون اليوم في فلسطين



وسورية، والعربيات الثلاث، وأفريقيا، هم أحفاد اسماعيل. (٢٢٣) وبذلك ثبت صادقاً «الوحدة العنصرية» لسكان هذه البقاع.

ويضيف الى تلك المعلومات، أن العرب منقسمون الى عدة «أسر»، ولا بد أنه يقصد قبائل - جعلتها مصالحتها الخاصة، وخصوماتها القديمة، أعداء لا يمكن مصالحتهم. (٢٢٤)

أما من يسميهم بـ «المور Maures»، وهو الاسم الذي يطلقه الأوروبيون عادة على سكان المغرب العربي والأندلس، فهم - بحسب تفسيره - «عرب، أعطوا هذا الاسم لا لأن أصلهم من «موريتانيا»، مملكة في أفريقيا، وإنما لأن العرب الحقيقيين (أي البدو في ذهنه) يزدرونهم، وينظرون اليهم على أنهم أناس تدنوا بفضائل أجدادهم عندما أقاموا في المدن، وعملوا في الأرض، ومارسوا الحرف والفنون، وكلها أمور لا تليق بنبالة العرب الحقيقية، المتمثلة في عرب جبل لبنان وغيره من الأمكنة، حيث لا يزال هؤلاء على خطى أجدادهم، ينفرون من المدن، ويعيشون تحت الخيام، ولا عمل لهم سوى التدريب على القتال.» (٢٢٥)

ولا يعرف في الواقع، لماذا أعطى «الفارس دارفيو» سكان القرى والمدن من العرب اسم (المور)، ولا من أين أتى بها. فهو يشير فقط الى «أنهم يسمونهم بهذا الاسم» دون تحديد من هم الذين يسمون. إذ أن هذا الاسم لم يعرف عند العرب. ولو كانت المذكرات بالعربية، لقليل أن محققها وناشرها قد صحف الكلمة، ونها في الأصل «مدر». فالعرب يطلقون في الواقع على سكان القرى «أهل المدر» (٢٢٦). وقد تكون الكلمة، بالمعنى نفسه الذي طرحه «دارفيو»، مشتقة أو محرفة عامياً، من ميلازة» ومعناها بالعربية «الرفقة التي تنهض من البادية الى القرى لتتار» (٢٢٧)

الا أن «الفارس دارفيو» في موضع آخر من مذكراته، يربط بين هذه التسمية ولون بشرة أصحابها، حين يقول: «ان المسلمين من رعايا محمد طرباي (أمير عرب جبل الكرمل) يُطلق عليهم اسم «المور»، على الرغم من كونهم بيض البشرة أو بالأحرى ذوي بشرة لوحتها الشمس» (٢٢٨). وفي الواقع ان كلمة «مور» تعني بالتركية، اللون الكستناوي، أو أصحاب البشرة الداكنة اللون (٢٢٩). وبذلك لا يكون التمييز بين «العرب» و «المور» مستندا الى اختلاف في مهنة، وعمل كل فئة - كما بين «دارفيو» - وإنما الى تمييز لوني، قد يكون الأتراك هم الذين أوجدوه لأول مرة، تمييزاً بينهم - وهم على الأغلب ذوي بشرة أقرب الى البياض - وبين العرب من سكان البلاد وهم أميل الى السمرة.

وإذا كان «الفارس دارفيو» لا يوزع العرب الأعراب في أنحاء فلسطين، وإنما يصب جلّ اهتمامه على عرب «محمد طرباي»، في جبل الكرمل وضواحيه، ويشير عبورا الى عرب «الشيخ ناصر» في سهل مرج ابن عامر، فإنه قد ألمح كثيرا الى وجودهم غزاة وقطاع طرق، في أماكن كثيرة. بل يشعر من خلال كتاباته أنهم هم المتحكمون بكثير من الطرقات والممرات الرئيسية. كما يبيّن في كثير من الأحوال، توزع هؤلاء العرب المسلمين الذين أسماهم «المور». كوجودهم في بيت لحم، وقرى الخليل، وصفورية، وصفد، وجبل الكرمل وتوابعه من امارة آل طرباي، وفي منطقة اليهودية حوالي القدس. (٢٣٠)

ويصف «دارفيو» العرب، وفي ذهنه البدو منهم - «بأنهم رعايا «السيد الكبير»، (أي السلطان)، ولكنهم مستعدون دائما للثورة». ويعلق على ذلك بقوله، «وانه ليكنهم أن يقفوا في وجه الأتراك، وأن يطرحوا نيرهم، اذا ما اتفقوا، ونسوا عداواتهم الخاصة وتجمعوا تحت لواء رئيس واحد. ولكن الأتراك يعملون باستمرار على اثاره الغيرة بينهم، والتنافسات، لأنهم اذا انقسموا فانهم يستطيعون التغلب على كل فريق منهم على حدة. ومع ذلك، فان الموظفين الأتراك والسلطان يخافونهم، ويعاملونهم معاملة تختلف عن تلك التي يعاملون بها رعاياهم الآخرين...» (٢٣١)

ويظهر أن ذاك الوصف لا ينطبق على العرب البدو فحسب، بل على من أسماهم بـ «المور» من العرب أيضا. ويربطنا حديثه عن ثورات سكان الخليل وقراها، وهم منهم، بالموقف الثائر والصامد الذي يقفه عرب الخليل وضواحيها اليوم من المد الصهيوني الاستيطاني الزاحف اليهم، فقد وصف «دارفيو» سكان تلك البقعة المقدسة بقوله: «ان المدينة وضواحيها تتبع حاكم القدس، الذي يعين فيها صباشيا، وبعض الجند، لجباية ما يخصه من الضرائب. ولكن هذا الشعب ثائر جدا، ولذا من النادر أن يدفع تلك الرسوم دون قسر. وكمن مرة اضطر الصباشي لطلب النجدة من صنحج القدس حتى يلزمهم على الدفع، وكان أحيانا لا ينجح. لأن هذا الشعب شجاع وباسل، فعندما يثور ويدخل المعركة، فإنه يتقدم ويغزو حتى بيت لحم. وكان يعرف جيدا شعاب الجبال، وكيف يتوضع فيها بشكل مفيد، بحيث يغلق كل الممرات في وجه النجدات التي ينتظرها الصباشي، مما كان يلزمه على الاتفاق معهم.» (٢٣٢) وقد يدعم هذا القول ويؤيده مما ورد في فرمان من فرمانات السلطان العثماني في القرن السادس عنها، حول اعفاء الخليل من النزول» التي كانت تفرض على المناطق الأخرى. (٢٣٣)

ويضيف « الفارس دارفيو » صنفا ثالثا للعرب، وهم « التركان ». ومن الواضح أنه يقع هنا في خطأ كبير. ولعل عديد من التركان تحت الخيام، وممارسة بعضهم حياة البداوة، وتكلمهم اللغة العربية، كان السبب في وقوع « دارفيو » في هذا الالتباس. ومع ذلك، فإن وجود بعض التركان بين سكان البلاد، حقيقة. ويشير الى أنهم كانوا يقيمون في الريف، دون تحديد لأماكنهم، ويعيشون بشكل مختلف عن العرب، وخيامهم بيضاء، ويقومون بتجارة بكل أنواع المواشي، وهذا يثرهم. ولا يسعون للبحث عن أصلهم كما يفعل العرب. (٢٣٤)

والفئة الرابعة من السكان في « الأرض المقدسة » - بحسب ما ورد في مذكرات دارفيو - هي « الأتراك ». ويبدو من استخدامه لهذه الكلمة، أنه لا يقصد منها دائما العناصر التركية فعلا، ولا تلك التي تتحدث باللغة التركية، وإنما يريد منها أحيانا « المسلمين » بالمجموع. (٢٣٥) إلا ان هذا لا يمنع من أنه كان يميز في بعض النصوص بين « الأتراك » و «المور»، والفتتان مسلمتان. (٢٣٦) ولعل ذلك التمييز انبثق من كون الأتراك يمثلون السلطة الحاكمة، و «المور» أهل البلاد المحكومين، اذ من العسير التمييز بين الفئتين، وإقامة الفارس « دارفيو » لم تتعد في بعض المناطق اليوم أو بضعة أيام. ومع ذلك فمن المعروف أن بعض أفراد من قبيلة « شيبيني » التركية، ومقرها في الأناضول، قد استقروا في منطقة اللجون (٢٣٧)، وقد يكون هناك غيرهم في البقاع الأخرى.

وتقودنا هذه المسألة الى تعرف الأديان كما أتت في مذكرات الرحالة. من الواضح أن « دارفيو » يؤكد وجود مسلمين، ومسيحيين، ويهود على الأرض المقدسة، ولو أن لفظة « مسلمين » لا تتردد في كتاباته، بل يحل محلها لفظة « محمديين » أو « أتراك »، وينعت دين العرب في جبل الكرمل بـ «المحمدي» أيضا. (٢٣٨) ويبدو « دارفيو » في أحكامه عن الدين الاسلامي، صليبي التفكير ولا موضوعا. (٢٣٩)، بل ومتناقضا مع ذاته في دفاعه عن العرب، وسوء فهمه لشخصية نبيهم، ولدينهم. ويظهر من خلال ثنائه عليهم، واطرائه لحضارتهم وعطائهم في ميدان الطب والفلك والعلوم الأخرى، وكأنه يسعى الى تجريد ذلك العطاء عن الدين وأثره في حياتهم. ولما كان المجال غير متسع هنا لمناقشة أفكاره تلك، فانه يكتفي بالقول، بأنه أكد وجود المسلمين في مختلف البقاع التي زارها، وأشار الى أن عددهم في القدس، مع اليهود فيها، أكبر من عدد المسيحيين بكل فئاتهم. (٢٤٠)

ولا يتعرض « دارفيو » في حديثه عن فلسطين الى وجود بعض الفرق الدينية الاسلامية كالدروز مثلا، وان كان قد أفرد لهم دراسة خاصة في الجزء الأول من مذكراته، عندما بحث

في « الأمير فخر الدين المعني الثاني »، مع أنه من المعروف وجودهم في المناطق الشمالية وفي جبال الجليل. (٢٤١)

أما « المسيحيون »، فيوضح « دارفيو » فئاتهم المذهبية عند وصفه « القدس » فذكر أنه يسكنها « مسيحيون من جميع الأنواع »: اذ يشاهد فيها فرنجة، ويونان، وأرمن، وموارنة، وجيورجيون، وأقباط وأحباش، وكلدانيون « (٢٤٢) وقد يكون مرسوما في ذهنه في الدرجة الأولى، الحجاج الوافدين من كل صقع، هذا بالإضافة الى من كان مستقرا فيها لقدسيتها. ويميز بين « المسيحيين الشرقيين (٢٤٣)، والمسيحيين من الفرنجة » تمييزا واضحا (٢٤٤). ويقصد بالشرقيين بالطبع، اليونان (الروم الأرثوذكس)، والارمن والموارنة، والجورجيين، والأقباط، والكلدان، والاحباش، أي جميع المنشقين عن الكنيسة البابوية. ولا يظهر « دارفيو » تعاطفا معهم، على الرغم من اقراره بالتشابه الكبير بالمعتقد بينهم وبين الفرنجة، وإيمانه بضرورة العودة الى وحدة الكنيسة المسيحية (٢٤٥)، وسعيه لتحقيق ذلك، لدى ملكية « لويس الرابع عشر ». (٢٤٦) فقد أزعجه أن يخلط الأتراك (ويريد هنا المسلمين) واليهود، بين الفرنجة المسيحيين والمسيحيين الشرقيين. لأن ما رآه من تصرفاتهم العامية والهوجاء - على حد زعمه -، أثناء احتفالهم بالنار المقدسة جعله يمجّهم ويحكم بأن كثيرا من الخرافات تشوب عباداتهم. (٢٤٨) وقد خصّ « دارفيو » بهذه الأفكار اليونان والأرمن أكثر من غيرهم، لأنهم هم الذين كانوا يسيرون تلك الاحتفالات.

أما « اليونان » من المسيحيين، فلا يستطيع القارىء أن يبتّ تماما فيمن أزاده « الفارس دارفيو » بهم، أهم يونان حقا، أم المسيحيون من الروم الأرثوذكس الذين يتبعون البطريك الأرثوذكسي اليوناني. فاذا ما تمّ تتبع اللفظ بمدلوله الحقيقي، وهو « اليونان » فعلا، فيلاحظ أن هناك فريقين منهم على أرض فلسطين:

« رجال الدين اليونان » وهم في الواقع الذين يديرون الكنائس والأديرة، بعد أن حصرها هذا الأمر فيهم دون سكان البلاد من المسيحيين العرب (٢٤٩). و « اليونان » العاديون المقيمون في المدن والقرى. أما الأول فكان منهم في غزة، حيث لهم كنيسة (٢٥٠) وفي اللد (٢٥١)، والقدس (٢٥٢)، حيث يلح « الفارس دارفيو » على ابراز استيلائهم على الأماكن الرئيسية في « كنيسة القيامة »، من يد رجال الدين اللاتين، على اثر معركة ليبانتو « عام ١٥٧١، وقبض السلطات العثمانية على رجال الدين الفرنجة، وحملهم الى دمشق، وكيف استطاع ملك فرنسا بجهوده لدى السلطان أن يعيد لهم « الضريح المقدس » (٢٥٣). كما كان لرجال الدين

اليونان مصلاهم في كنيسة بيت لحم (٢٥٤)، ودير في الطريق من القدس إليها، وهو الذي يقولون أنهم بنوه على أنقاض البيت الذي ولد فيه النبي ايليا. (٢٥٥) ولهم أيضا دير «القدوس جورج» الشهير بسلسلته وأغلاله التي يتمسح بها المسيحيون والمسلمون على حد سواء للشفاء من أمراضهم. (٢٥٦) ودير «الصليب المقدس» قرب القدس (٢٥٧)، و «دير القدوس سابا» في صحراء اليهودية، وقد قام رحالتنا بزيارته (٢٥٨). ويشير «دارفيو» أيضا الى كنيسة قرب الخليل في قرية «العدراء المقدسة». (٢٥٩)

أما اليونان المقيمون في المدن والقرى، والذين يشك في أن يكونوا من اليونان حقا، فيذكر «دارفيو» وجودهم في القدس، وفي بيت لحم، والناصره، بأعداد قليلة، (٢٦٠) ويؤكد أن سكان قرية «بيت جالا» - أو بوتيكالتي كما يسميها - كلهم من اليونان، حتى أن الأتراك لا يجروون على سكنها. وهم يزرعون الأرض المجاورة، وأغنياء. (٢٦١)

ويبدو «دارفيو» ناقما على رجال الدين اليونان، لاغتصابهم - على حد قوله - حقوق اللاتين في الأماكن المقدسة. ولذا يلاحظ تحيزه في عرض مضايقاتهم للحجاج الكاثوليك في داخل كنيسة القيامة، ويبرز في احتفالاتهم عنصر الخرافة، والبلبله والضجيج. بل أنه يتهمهم بالتقصير في صيانة الأماكن المقدسة الموكلة اليهم، فيبين على سبيل المثال: «أن الجانب الأيسر التابع لهم من كنيسة المهد في بيت لحم مخرب جدا»، ويعلق بأن سبب ذلك «خبث هؤلاء الانشاقيين، واهمالهم، وربما فقرهم، فهم لا يريدون أن يرموه ولا يطيقون أن يرمه غيرهم». (٢٦٢) وينساق انسياقا أكبر مع عواطفه عندما يحرض «الآباء الكرمليين»، بطريق غير مباشر، على انتزاع «دير النبي ايليا» من أيديهم، لأن مكانه كان بيت النبي الذي يدعي الكرمليون نسبتهم اليه. (٢٦٣) ومع كل نقمته على رجال الدين من اليونان، فانه عندما زار دير القدوس سابا (مارسابا) فانه وصف القائمين فيه وعليه بالطيبة. (٢٦٤)

وحول «المسيحيين من أهل البلاد»، أو بتعبير أصح الذين لا يشير اليهم «دارفيو» بلفظة يونان (روم)، فان «دارفيو» يثبت وجودهم الى جانب المسلمين في حيفا، وسبسطية، وغزة، واقليم صفورية، والناصره، وفي قرى جبل الكرمل، وامارة آل طرباي كلها، وقرية أم زينات، وفي القدس بالطبع. (٢٦٥) ويؤكد أن هناك بضع قرى يسكنها مسيحيون فقط، بين القدس وبيت لحم، وبيت لحم والخليل. (٢٦٦)

ولا يشير «دارفيو» الى أي صراع بين المسلمين والمسيحيين من سكان البلاد أو غيرهم، بل يبرز في أكثر من مناسبة واقعا قائما، وهو تقديس مشترك بين الطرفين لبعض الأمكنة

كجبل الكرمل مثلا: ويؤكد أن الأتراك والعرب المسلمين، والأعراب، عند مرورهم منه يحيونه بخص الرأس والمخاطبة قائلين: «دستوريا ست مريم، دستور يا خضر الياس». ويعلق «دارفيو» على ذلك بقوله: «هذا هو الاحترام الذي تحمله هذه الشعوب الكافرة (كذا) للقديسة العذراء والنبى ايليا (الياس) (٢٦٧) ومثل على ذلك أيضا تقديس الطرفين للناصره واعمدتها المعلقة؛ (٢٦٨)، وغيرها من أماكن، كقبر راحيل، والعذراء المقدسة، ومقام «علي بن عليل» في الحرم. (٢٦٩) هذا بالإضافة الى احترام المسلمين لمريم العذراء ولبعض القديسين كالقديس جورج مثلا. بل كان المسلمون والمسيحيون يتجاورون في مكان العبادة، أو بالأحرى يقتسمونه دون أي نزاع. (٢٧٠)، كما كانوا يفعلون في الحياة المشتركة في القرى، والفلاحة (٢٧١)؛ ويوضح «دارفيو» هذا الأمر بأمانة عندما يثبت أن «المسيحيين في القرى التابعة للعرب يعاملون برقة، ويعيشون بحرية كاملة، ولا يزعجهم أحد أبدا في دينهم وفي ممارستهم لشعائره.» (٢٧٢) و «أن الأمير محمد طرباي لا يميز بين المسلم من رعاياه والمسيحي، فالجميع يعيشون سعداء وهانئي البال، ويدفعون لأسيادهم ضريبة معتدلة. (٢٧٣)

ومع أن تلك المعاملة نفسها يطبقها باشا غزة على رعاياه أيضا (٢٧٤)، وهو ممثل السلطة العثمانية التركية، فان «دارفيو» يقرر بأن الأتراك يختلفون عن العرب في معاملتهم للمسيحيين، ويخضعونهم للغرامات المالية بحجة أنهم قد تحدثوا بسوء عن النبي محمد (ص)، أو عن شريعته. (٢٧٥) ومع ذلك، لا ينسى أن يشير الى أن هؤلاء الأتراك أنفسهم، يسهلون لهم سبيل الاحتفال في كنيسة القيامة، بشق الطريق لهم وسط الزحام، ويحفظ الأمن. (٢٧٦)

ويتضح من أقوال «دارفيو» عن المسيحيين من «الأرمن»، أن هناك عددا منهم في القدس، وأن لهم مصلاهم في كنيسة القيامة كغيرهم من المسيحيين الآخرين، (٢٧٧) وكنيستهم الخاصة (٢٧٨)، ومقبرتهم في «وادي يوسفات» (٢٧٩) ويشير الى أن لهم كنيسة في مدينة غزة (٢٨٠)، ولا يذكر شيئا عن وجودهم في المدن أو الريف، وان كان وجود الكنائس دليل على وجودهم في أماكنها. ويلمح الى نزاعهم مع اليونان، والى ضرورة توافقهم أثناء الاحتفال بالنار المقدسة، لأن هذه النار لا تظهر بحسب زعمهم، الا اذا كان الطرفان على وئام. (٢٨١)

أما «الأحباش»، فيظهر أن عددهم ضئيل، وقد لا يأتون الا وقت الحج، الا أن لهم مصلى خاصا في كنيسة القيامة، زينوه بلوحة أثارت انتباه «الفارس دارفيو» وتعليقه. لأنها تمثل المسيح وأمه، والقديس يوحنا زnojجا، والشيطان المربوط بقدم الصليب، رجلا أبيض،

ليس فيه من أسود سوى العيون والأسنان. ويعلل رحالتنا تلك الظاهرة تعليلا نفسيا منطقيًا، وهو أن جميع سكان أفريقيا، ينظرون الى اللون الأسود على أنه أكثر جمالا والأبيض أشد قبحا. (٢٨٢)

وفيما يخص بقية الطوائف المسيحية الشرقية فإنه لم يشر الى وجودها على الأرض الفلسطينية، الا في القدس. (٢٨٣)

وحول «المسيحيين من الفرنجة»، وهم بتعبير آخر، «الجاليات الأوروبية الغربية الدينية والتجارية، فإنه يتضح من «المدكرات» أن عدد ما لم يكن كبيرا. فهناك قلة من التجار الفرنسيين في عكا، لا يتجاوز عددهم العشرة (٢٨٤)، وقد انتقلو فيما بعد الى صيدا. وهناك اثنان في الرملة (٢٨٥)، وواحد في غزة (٢٨٦) يعمل بستانيا لواليتها. أما في المدن الأخرى فلا يشير «دارفيو» الى وجود أحد فيها من الفرنسيين أو غيرهم.

وقد تكون الجاليات الدينية أوفر عددا: فهناك «آباء الأرض المقدسة» من رهبنة الفرنسييسكان (٢٨٧). وكان لهم متوصف في خان عكا (٢٨٨)، ودير في يافا (٢٨٩) وآخر في الرملة، (٢٩٠) ورابع في بيت لحم (٢٩١) وخامس في الناصرة (٢٩٢). وكانوا في هذه الأديرة، يستقبلون عادة الحجيج المسيحي. كما سمح لهم باشا غزة باقامة بيت لهم فيها. (٢٩٣) واذا كان «الفارس دارفيو» قد قدر وجود ثلاثين منهم في دير القدس (٢٩٤)، وثلاثة في الرملة (٢٩٥)، فإنه لم يحدد عددهم في الأماكن الأخرى، وقد يصل مجموعهم الى الخمسين تقريبا. وقد تحدث «دارفيو» طويلا عن تنظيمهم، ونشاطهم في ميدان استقبال الحجاج الأوروبيين، والسهر على شؤونهم، كما وصف نوع الحياة التي كانوا يعيشونها في ديرهم، وعلاقتهم مع السلطة الحاكمة. وأوضح أنهم كانوا لينتمون الى عدة شعوب، فمنهم اسبان ومنهم فرنسيون وايطاليون.

وثاني فئة من رجال الدين الفرنجة، «الرهبنة الكرملية». وديرهم الرئيسي في جبل الكرمل. ويبدو أن الأمير «زين» شقيق الامير محمد، وحكم جبل الكرمل قبله، قد اشترط عليهم ضيافة المائة بديرهم، وزيادة المفروض عليهم من المال. ولما لم يستجيبوا لطلباته خشوا على أنفسهم، ونصحوا بالانسحاب من الدير دون ضجة، الى عكا، ثم الى حيفا. وبقي ديرهم مهجورا ستة أشهر حتى توسط «الفارس دارفيو» وزملاؤه لهم، عند الأمير عام ١٦٥٩، فسمح لهم بالعودة، بعد أن دفعوا الجزية المترتبة عليهم. (٢٩٦) وكان لهم بيت في خان عكا، يأتون اليه بين الحين والحين. (٢٩٧) كما كان لهم دير في حيفا، وغرفة يحتفظون بمؤنهم

فيها. (٢٩٨) ويبدو أن عددهم لم يكن يزيد عن الثلاثة. (٢٩٩) ولا يظهر «دارفيو» أنه كان متعاطفا معهم، فهو ينقد ربطهم بأنفسهم بالنبي ايليا (الياس)، ويشير بطرف خفي الى ضعف نشاطهم التبشيري. (٣٠٠)

ومن الفئات السكانية القليلة العدد جدا التي يذكرها «دارفيو» «الهنود». فهناك بعض منهم لا يزيدون عن ستة عشر، يعيشون في احدى كهوف جبل الكرمل، ويعملون في صناعة الحصر والسلال، ويحيون حياة بسيطة ومتقشفة جدا أشبه بحياة النساك. ويحث الكرمليين على التبشير بالدين المسيحي بينهم، لأن لديهم الاستعداد النفسي لذلك (٣٠١) وهكذا يلاحظ من حديث «الفارس دارفيو» عن المسيحيين، بأنه قد خصهم بقسط واف منه، وبذلك يكون قد طرح أضواء على أحوالهم، قد لا يبدو نيرة في المصادر العربية الاسلامية، ولا سيما الجاليات الأوروبية منهم.

ولم يغفل «الفارس دارفيو» الفئة الدينية الثالثة في المجتمع الفلسطيني آنذاك وهي فئة «اليهود». فقد عمل على تتبع أخبارهم حيثما وجدوا في المناطق التي زارها. ويمكن تصنيف حديث الرحالة عنهم في أمرين، الأول، حديثه عن بعض من تاريخهم التوراتي، وذلك عند وصفه لبعض المواقع، كمعبد سليمان في القدس، ووادي يوسفات، وقبور ملوك يهودا، وغير ذلك. وثانيهما عن واقعهم القائم في عصره.

وفي كلي الأمرين كان حديثه لا يخلو من النقد والتهكم. فمن أمثلة ذلك النقد، أنه أثناء جولته في «وادي يوسفات» أراه الأدلاء بئرا قديمة، ادعى أن نبي اليهود «نيحميا» قد أخفى الحراقة المقدسة فيها عندما تم نفي اليهود الى بابل، ولما عادوا، وجد في تلك البئر ماء طينياً، ولكن بمجرد أن خلّص حطب الحراقة منه، عادت الى الاشتعال. ويعلّق «دارفيو» بقوله: «لا يمكن الشك بالحادثة لأن الكتاب المقدس يعلمنا بها. ولكن لا بد من التأكد فيما اذا كانت هذه هي البئر التي خبئت بها الحراقة المقدسة. وهذا يمكن الشك به دون أن يكون الواحد مهرطقاً؛ ومع ذلك فيجب الفرض أن هذه البئر كانت دون ماء، والا يمكن القول عندها أن النبي أراد اطفاءها برميها في الماء بدل الاحتفاظ بها» (٣٠٢)

ومن نماذج النقد أيضاً، أنه شاهد شجرة ضخمة على بعد خطوتين من البئر السابقة محاطة بتل من الأحجار، وبقايا كنيسة، فقيل له أنه المكان الذي قتل فيه النبي اشعيا ودفن، وأن اليهود الأتقياء هم الذين وضعوا ذاك التل من الأحجار تقديساً لنبيهم. ويعلّق على هذا



قائلا: «أنا لا أفهم من أي نوع هو تقى هؤلاء الناس. فالأحجار لا ترمي عادة على الأمكنة المقدسة، وإنما على الأمكنة الممجوجة، أو التي حدث فيها جرم، ويكون ذلك تعبيرا عن شجب الجرم ورجماً له، لا لتشريف أولئك الذين ذهبوا ضحيتهم، أو لدفع المارة للصلاة من أجلهم.» (٣٠٣)

ولم يستطع «الفارس دارفيو» أن يخفي مشاعره الدينية الناقمة على اليهود، فعندما وصل الى المكان الذي قيل له أن المسيح قد وعظ فيه يهود الناصرة، فانه لم يتالك نفسه من تلقيهم ؛ «العميان الاراديين»، وتذكر كيف كانوا ينون دفع المسيح في الهاوية المجاورة. (٣٠٤) وتبدت عاطفته هذه أيضا عندما تحدث عن قرية يعيش فيها المسيحيون وحدهم، ويتناقلون أنه اذا حاول المسلمون سكنها فانهم يموتون في اليوم الثامن. فعلق على ذلك متهمكا، «لقد دهشت كيف أن اللعنة التي جرّها هيرود على هذه الأمكنة لا تصيب غير المسلمين (الأتراك كما وردت عنده)، مع أنها كان يمكن أن تمتد على المسلمين واليهود، الذين، دون مجال للمقارنة، يبدو أنهم يستحقونها أكثر من غيرهم.» (٣٠٥)

أما عن اليهود في فلسطين في زمنه، فقد أشار الى وجود عدد منهم في بعض المدن: كعكا، «حيث كانوا يقيمون في أكواخ حقيرة وقذرة، ويدسون أنوفهم في كل شيء، ويعملون وسطاء تجارين وسماسرة، ويسرقون اولئك التجار عندما يستطيعون.» (٣٠٦)

ووجدوا أيضا في «القدس» (٣٠٧) ويبدو أن بعض المتعصبين الدينيين منهم، لا يزال يحمل رؤى معبد سليمان، حتى أن الأغنياء منهم - كما يشير دارفيو - استطاعوا أن يرشوا بيك الصنجق، فحصلوا منه على أذن بالتعبد في صحن المسجد الأقصى، بعد أن كانوا يتنكرون بزى تركي. ولما اكتشفت السلطات العثمانية هذا الأمر بعد بضع سنوات، ولما أراد الصنجق الجديد أن يحمل مسؤوليته لجميع اليهود في المدينة، وفرض عليهم غرامة مالية كبيرة جدا، عجزوا عن نفعها، فانهم اضطروا للهرب ومغادرة المدينة، مما كان درسا لمن أتى بعدهم من اليهود.» (٣٠٨)

وكان لهم في وادي يوسفات مقبرة في احدى المغاور، ويبدو أنها كانت خاصة باولئك الذين يملكون وسيلة شراء حق دفنهم فيها. (٣٠٩)

وفي أطراف القدس، وقرب نبع سلوان، كان لهم قرية صغيرة فقيرة، تدعى «جهنم». ويوتها - حسب وصف دارفيو - محفورة في الصخر الطري. ويعلق «دارفيو» على وجودهم

هذا بروح النكتة قائلا: «ان تقوى هؤلاء اليهود تدفعهم كي يدفنوا في « جهنم»، حتى يكون الطريق الذي عليهم أن يقطعوه الى الجحيم طريقاً أقصر.» (٣١٠)

ويذكر « دارفيو » وجود يهود في حيفا أيضاً، دون أن يضيف شيئاً عنهم (٣١١) وكذا في الخليل وان كان يبدو أنهم أفراد قلائل جداً. (٣١٢) فهو يؤكد أن سكان مدينة الخليل كلهم من المسلمين، ولا يهتمون الا بصعوبة كبيرة، تسرب ندره منهم. ويكون ذلك عادة، نتيجة ما يرشون به الحكام، وما يقدمونه لهم من مال. ويضيف، أنه كان على هذا النذر اليسير منهم أن يتحمل بالمقابل، الكثير من مضايقات الأتراك وملاحقاتهم المالية. ويبدو أنه اتصل بواحد من هؤلاء في الخليل، وكان يحمل له رسالة توصية من أبيه المقيم في صيدا. وهو الذي أعطاه بعض معلومات عمّا في داخل الحرم الابراهيمي، اذ لم يكن يسمح للمسيحيين ولا لليهود بدخوله. واذا كان ذلك اليهودي على بعض اطلاع، فلأنه استقى معلوماته - بحسب ادعائه -، مما رواه أحد حاخاماتهم، الذي وجد وسيلة للدخول الى الكهف، ومشاهدة القبور الستة. ولم يخف دارفيو شكوكه عن محدثه، وأربكه بعدد من الأسئلة، حول كيفية تعرف ذلك الحاخام على القبور، والكتابة التي عليها. (٣١٣)

وقد يكون أهم ما طرحه « دارفيو » عن يهود « فلسطين » في عصره، هو نشاط اليهود في مدينة صفد، وطبرية. ففي وصفه لمدينة صفد يذكر أن عدداً من اليهود كانوا يقيمون فيها، الى جانب المسلمين. وأن أولئك اليهود كانوا يكتنون تقديساً غريباً للمدينة، أو بالأحرى عنادا وهوساً، يدفعهم لترك كل شيء والمجيء اليها ليموتوا فيها. فهم يقصدون القدس والخليل، الا أن تقديسهم للمدينتين لا يعادل ذلك الذي يظهره لصفد. ويعلق « دارفيو » ذلك بعدة أسباب:

أولهما أن عدداً من ربابنتهم وأشهر قديسيهم أتى ليموت ويدفن فيها. وثانيها، أقنعهم ربابنتهم بأن المسيح المنتظر لا بد أنه سيولد في الخليل، وسيتخذ عاصمة للملكة الجديدة التي سيقمها على الأرض، مدينة صفد. وأنهم بوجودهم أثناء ذلك الحدث السعيد المرتقب، أحياء أو أمواتاً، فيها، سيكون من دواعي راحتهم. فعليهم اذاً أن ينتظروا في المكان نفسه ذلك الظرف السعيد.

ويعلق « دارفيو » على ذلك كعادته قائلا: ان رؤوس حاخاماتهم (خالكاناتهم) كما أسماهم) مملوءة برؤى متعصبة، وخرافات، مما حوّل اليهود المساكين الذين يصغون اليها، لا يعرفون أين هم منها. فهم ينتظرون في صفد، المسيح الذي ظهر، والذي صلبوه بأيديهم منذ

سنة عشر قرنا. ان جميع تنبؤاتهم قد أنجزت، وهم الآن لا يعرفون بما يجيئون عندما يلح عليهم بالسؤال، وانه لتقديس وتقى أحمق ذاك الذي يحملهم على تفضيل هذا المكان على غيره من الأمكنة الأخرى، لأنهم يعيشون فيه تعساء، ويموتون وقد فاتهم ما ينتظرون. «(٣١٤)»

ويتابع «دارفيو» تعليقه بحملة جديدة يشنها على سياسة الأتراك، دون أن يستطيع استشفاف نوايا اليهود البعيدة، التي قد يكون الأتراك قد تعرفوها؛ وفي الوقت ذاته يكشف التعاطف الفكري بين الصليبية الأوروبية وبين أية فئة تعاكس الأتراك أو المسلمين، حتى ولو كانت تلك الفئة هي اليهود، الذين صلبوا المسيح، كما أفصح عن ذلك «دارفيو» نفسه حماسهم تلك، وعنادهم، فهم يبيعونهم غالبا جدا التصريح للاقامة في هذه المدينة، ويكلفونهم بتقديم رسوم وضرائب وغرامات، فعليهم أن يشتروا حتى الهواء الذي يتنفسونه. واذا ألزم الفقر الدقع واحداهم على الفرار، فان الباشا لا يسقط شيئا من الضريبة المفروضة على المجموع، بل يوزع حقه على الآخرين، وغالبا ما يُفترض أن الفار قد حمل معه ثروة كبيرة، فالباشا يحدد باسم السلطان المبلغ الذي يراه مناسبا، ويطلبه من أولئك البؤساء، الذين يعيشون أفقر حياة يمكن تصورها، وأشدّها تعاسة. «(٣١٥)» ان سلواهم الوحيدة هو أن لهم كنيسا، حصلوا عليه بفضل ما دفعوه من مال، وسمح لهم بالتعبد فيه الوقت الذي يريدون، والاستماع فيه الى المواعظ المتزمتة لربابتهم. «(٣١٦)»

ويقدم «دارفيو» بطريقة غير مباشرة معلومات عن نشاط اليهود في بعض أجزاء من العالم لتثبيت وجودهم في فلسطين، منذ ذلك الوقت، فيضيف الى تعليقه السابق قوله: «انهم يرسلون أمهر أولئك الربانة، وأقلهم خداعا، لجمع أموال من القسطنطينية، وأزمير، والمدن التجارية الأخرى في الامبراطورية العثمانية، حيث اليهود أثرياء. بل يذهبون حتى لألمانيا، وهولاندا وانجلترا، وجميع الأماكن الأخرى التي لا تلاحقهم فيها دواوين التحقيق، ويجمعون كميات كبيرة من المال يوزعونها بين يهود القدس، والخليل، وصفد. وتكون حصة الآخرين حصة الأسد، اما لأن بؤسهم أشد من بؤس الآخرين، أو لأن سعادتهم في الاقامة في مكان مقدس كهذا، أقنع الآخرين بأن لصلواتهم فضلا أكبر وتأثيرا أجدى. «(٣١٧)»

ويسوق «دارفيو» أثناء حديثه عن «طبرية» واقعة هامة عنهم تبين أبعاد الرؤى اليهودية آنذاك. ولو ربطت بما قاله عن نشاطهم في الاوساط اليهودية الثرية في العالم، لظهر واضحا دون أي لبس، مخططهم للاقامة على الأرض الفلسطينية، وانشاء المستوطنات، والتجمع فيها. فقد ذكر «أن امرأة يهودية ثرية جدا أقامت في طبرية مكانا مسورا لتسكن فيه رجال ملتها.

الا ان الاتراك وجدوا في هذا الأمر شرا وسوءا، فطردهم منه منذ خمس عشرة سنة (أي حوالي ١٦٤٥ تقريبا)» ويضيف بأنه «لا يزال يشاهد بعض نخلات ضخمة في المكان وحواليه» (٣١٨)

وإذا كان «الفارس دارفيو» قد بين هنا وهناك الفئات الدينية على الأرض المقدسة، فإنه لم يشر الا الى لغة واحدة سائدة يتكلمها جميع السكان، وهي اللغة العربية. وقد قال عنها، بأنها «أم اللغات في الشرق. كل الناس يعرفونها، ويتكلمونها، ويفهمونها. والعرب مجبرون على ذلك، لأنها لغة القرآن الكريم، وقد حرمت ترجمته الى لغة أخرى. وهي لغة جميلة، وجديه، وقوية، وليست صعبة كما يظن. وبمجرد أن يعتاد على نطقها يسهل أمر تعلمها. فأحرفها ليست أكثر حلقيه من البرتغالية والاسبانية، وحتى الايطالية». ويضيف الى ذلك قوله: «يفيد استخدام اللغة العربية كثيرا، ويجب أن ينتبه علماءنا في أوروبا، الذين يدعون أن العربية التي يتحدث بها في الشرق مختلفة عن تلك التي ترى في الكتابات، فهي في الواقع نفسها، والنطق هو ذاته في كل شيء. فاذا كانوا لا يفهمونها فلجهلهم، وقلة استخدامهم لها.» (٣١٩)

الا أن سيادة اللغة العربية - كما يؤكد دارفيو - لا يمنع من وجود قلة من لغات أخرى يتكلمها أفراد الحاكمة. ويبدو أن اليونانية العامية كان يتكلمها أيضا بعض المسيحيين من الروم، بدليل استفادة «دارفيو» من معرفته لها عندما كان في غزة، مثلما استفاد من معرفته للعربية والتركية. (٣٢٠)

وأخيرا، ان ما طرحه «الفارس دارفيو» من متناثرات كثيرة عن البنية البشرية سكان فلسطين في عهده تبين السيادة التامة للعرب فيها، عرقا ولغة، ومنذ القديم. وأن سكانها، بمختلف فئاتهم الدينية كانوا يعيشون بسلام فيما بينهم، ولكل فئة معابدها، وحرية ممارسة شعائرها الدينية، حتى اليهود أنفسهم، الذين كانت أوروبا آنذاك تلاحقهم بدواوين التحقيق، وتطردهم من أراضيها. وان صدامات أولئك السكان مع السلطة الحاكمة، كانت تتبع في الواقع من سوء استخدام فردي للسلطة، يمارسه بعض الحكام دون الآخرين، أكثر مما تتبع من مفهوم أصيل في بنية الدولة العثمانية الحاكمة متمثل، بالرغبة في التسلط وفرض الذات، والتحكم بالرعايا. والدليل هو ما كانت تصدره الدولة من فرمانات الى ممثلها، من قضاة وحكام، بين حين وآخر، تطلب اليهم فيها، ازالة الحيف عن الرعية بجميع فئاتها

الدينية، المسلمة، والمسيحية، واليهودية. وبدليل ازلتها المستوطنة اليهودية الأولى، عندما تبين لها مراميها السيئة.

وخلاصة القول، يتضح لقارىء مذكرات «الفارس دارفيو»، وللمنقب فيها عن معطيات، أن تلك المذكرات قد عرضت الحياة بجملتها، كما كان يعيشها أناس ذلك العصر. فقد طرحت الواقع الاقتصادي مثلا، الذي لن نتطرق اليه في هذه الدراسة لأنها ستفيض وتستفيض، حيا متحركا، لا سكانا صامتا، وذلك بربطه بالخلفية الجغرافية الطبيعية من ناحية، وبالواقع البشري وزواياه الاجتماعية والسياسية والفكرية، بل والفنية. وفي كل مجال من تلك المجالات أدلى «الفارس دارفيو» بدلوه، وأحيانا بأسهاب، مما سيتابع الحديث عنه في دراسات مقبلة.

## الخاتمة

طرحت هذه الدراسة بعض صور، ملتقطة من صور، رسمت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر للميلاد، بفكر الغرب الأوروبي وريشته، وقد رسمها صاحبها من الواقع، وفي ذهنه ما زال حيا، ما بعد عنه في الزمن ثلاثة قرون ونصف ونيف، ألا وهو ماضي الوجود الأوروبي الصليبي على الأرض المقدسة. ف «الفارس دارفيو» جاء الى فلسطين، وهو لا يزال يحمل كل الأجيح الصليبي، على الرغم من كل ما سعى أن يبيده من فكر القرن السابع عشر الأوروبي الموضوعي. ولذا، فإنه كان، وهو يجوس في أرضها، يتلمس ذلك الماضي في كل حناياها وبقدسية. ولقد أثارت رؤيته لسندسها الأخضر، ولخصوبتها، وجبالها المشرفة، والصعبة المرتقى، وخلواتها الصوفية الرائعة، وأماكنها المقدسة، وفعاليات أهلها المختلفة، بل وعيشه بين ظهرانيم محبا وصديقا، أسى عميقا في نفسه عبّر عنه بموقفين واضحين، أحدها تجاه الماضي، وثانيهما تجاه الحاضر والمستقبل.

أما ما هو تجاه الماضي، فكان موقف عتاب فارس وصارم، وجهة الى أجداده الصليبيين، الذين أقاموا على الأرض المقدسة ردحا من الزمن، ثم طردوا منها، وذلك عند زيارته لمدينة «عموس»، حيث قال: «لقد رمها المسيحيون، أسياد الأرض المقدسة (هكذا)، وبنوا فيها عدة كنائس وكان هذا النوع من العمران هو هم ذلك الزمن. ولا ينكر أن عملهم هذا كان

عملا طيبا. ولكن لا يمكن الانكار أيضا، أنهم لو استخدموا قسما من تلك النفقات في تحسين أمكنتهم، والاعتناء بتكوين جيوش مدربة تدريبا حسنا على القتال، بدل انتظارهم تلك السُرْب من الحملات الصليبية، التي كانت تطير اليهم بين حين وحين، لكان عملهم هذا طيبا أيضا. لقد كان من نتائج تقديساتهم التي أسيء فهمها، ومشاحناتهم، وخصوماتهم الشخصية، والحكومات السيئة التي كان على رأسها غالبا، مبعوثون دينيون، وقساوسة، أن طردوا من الأرض المقدسة، أمل في عودة قريية. «(٣٢١)»

أما موقفه تجاه الحاضر والمستقبل، فقد كان نقمة عارمة على الأتراك الحكام، وتخطيطا فكريا ومبدئيا للعودة. وتبدى ذلك في أمرين: أولهما تنصيب نفسه عضوا في طائفة القبر المقدس الكاثوليكية، ومن واجبات أعضائها أن يقدموا أملاكهم وحياتهم لاستعادة الأرض المقدسة، وإذا لم يكونوا قادرين، فعليهم ان يبعثوا من يجل محلهم في هذا العمل. «(٣٢٢)» وثانيهما البحث عن حلفاء على الأرض المقدسة نفسها للعودة إليها وطرد الأتراك المسلمين منها. وتبدى، له، في حلم المستقبل أن هؤلاء الحلفاء يمكن أن يكونوا العرب. وفي ذلك قال: «ان الأتراك غير محبوبين البتة في جميع البلاد، بل أن وصف المشاعر السائدة بعدم الحب فقط قليل جدا، لأن العرب ييغضونهم بغضا شديدا، وينظرون اليهم على أنهم غاضبون وطغاة، ويودون سحقهم. فمن المؤكد، أنه لو اتحد الأمراء المسيحيون لطردهم، فان العرب سينصرونهم ويساعدونهم مساعدة كبيرة. «(٣٢٣)»

لن نقف عند مناقشة مدى تحقق تلك الرؤيا المستقبلية لدارفيو، وانما قد يقال فقط: كانت تلك رؤى «الفارس دارفيو»، الماضية والمستقبل عن فلسطين، وهو فرد غريب عنها، اغتصب أجداده الأرض لقرنين من الزمن، فما هي رؤياك أخي العربي، الماضية والحاضرة، والمستقبل، ونحن الذين أقمنا على هذه الأرض منذ زمن سحيق في القدم يتناول الى آلاف آلاف السنين، ونحن نرى عالمنا الماضي والحاضر يتهاوى بأيدي المغتصبين من الصهيونيين، لتدفنة جرافاتهم في التراب، ولتزييل معالمهم الكتب، والأذهان؟؟؟ فهل تعود يوما، أو يعود أحفادنا، ليجوسوا حقول القمح الخضراء، ويهبطوا الوديان، ويصعدوا الجبال ويزوروا الأماكن المقدسة، ومواقع البطولات العربية، ويقفوا عند المدن الخربة، كما فعل هذا الرحالة، وليقولوا باصرار هذه لنا، ولا بد تكون لنا، وتبقى لنا، ثم ينهكون في تخطيط عملي، وفعل، لتحقيق رؤاهم هذه؟؟؟

# مصادر البحث

١ - انظر حول ذلك:  
جرحي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية. ٤ اجزاء في «مجلدين بيروت ١٩٦٨. ج ٣ ص ٣٣٨-٣٤١. ومن بعض المطبوع عن الرحلات في القرن الحادي عشر للهجرة /السابع عشر للميلاد- رحلة الشتاء والضيف محمد عبد الله الحسيني الموسوي الشهير بكريت (المتوفي ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م). وقد طبعت مرتين احدهما في القاهرة ١٢٩٣هـ/١٨٧٥م والثانية في بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥ وتحفة الأدياء وسلوة الغبراء لابراهيم بن عبد الرحمن الخياري (المتوفي ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م. حق الجزء الاول من قبل رجاء محمود المغربي ونشر في بغداد. (نشر وزارة الثقافة والاعلام د.ت)

٢ - CUY LE STRANKGE, Palestine under the Moslems.

وقد طبع الكتاب ثانية في بيروت، في دار خياط عام ١٩٦٥، وقدم له «الدكتور وليد خالدي». «وفي لوستراخج» ولد في هنستانتن Hunstanton في انكلتره عام ١٨٥٩ من اسرة نبيلة ودرس العربية والفارسية في «كلية فرنسا» في باريس، وعاش فترة في بلاد فارس، وفلسطين وفلورنسه، واستقر في عام ١٩٠٧ في «كامبريدج» وتوفي ١٩٣٣ وله عن المؤلفات الشهيرة «بغداد تحت حكم الخلافة العباسية» "Baghdad under the Abbssid Caliphate"

٣ - ان المعلومات الواردة عن حياة المؤلف واسرته مستقاة من «المقدمة» التي افنتحتها المذكرات، والتي دونها «الاب جان بابتيست لبا J.Baptiste Labat الذي قام بحسب ما ورد في صفحة عنوان الكتاب بترتيب تلك المذكرات والتعليق عليها. كما انها مستمدة من المذكرات «نفسها». وقد تكون هناك مؤلفات اخرى كتبت عن حياة «دارفيو» واقتبست معلوماتها من مصادر اخرى، ولكن لم تصل الى علمنا.

و«الاب لبا» هو من الدومينكان، ومن المبشرين السيئين الفرنسيين (١٦٦٣-١٧٣٨) ولا تعرف الصلة التي كانت تربطه بالفارس دارفيو، الا انه يبدو على صلة لصيقة به حتى استطاع الحصول على الاصول الاولى للمذكراته. وقد عرف عنه انه كان من الرحالة، وقد قام بالنبشير الديني في الأنتيل (١٦٩٣)، وكون جيشاً من الزنوج لمحاربة الانكليز (١٧٠٢-١٧٠٣)، وعاد الى اوربا عام ١٧٠٥. وكتب عدة مؤلفات عن المستعمرات منها، «رحلة جديدة الى جزر امريكا» (١٧٢٢) Nouveau Voyage aux iles de l'Amerique Grand Larousse Encyclopedique. 10 vols avec deux supplements.

Paris 1960-1975 (vol 6.p.525.(art. Latat) C.L.E.

(يسيار اليه في الصفحات التالية باختصر:

٤ - مذكرات الفارس دارفيو. ٦ مجلدات. باريس ١٧٣٥. ١م. المقدمة. ص ٤  
M moires du Chevalier d'Arvieux. 6. Tomes. paris 1735. preface. p.IV.

اشار «دارفيو» الى وجود اختين له ضمن مذكراته، عندما اشار الى انه يسعى بعد عودته من صيدا الى فرنسا عام ١٦٦٥، الى وضعهما في دير ليتعلما. (م ٣. ص ٣٨٩) اما اخواه فقد ذكرهما في اكثر من مناسبة، وكانا يساعده في عمله التجاري في بلاد الشام. (المصدر السابق. ص ٨، ١٢٤، ٣٦٣، ٣٨٩)

٦ - المصدر السابق. ص (٦٠) من المقدمة.

٧ - المصدر السابق. المقدمة. ص ٩

المصدر السابق. ص ٢٩١-٢٩٢

٨ - أي «الشرق». وهو اسم اعطي للجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط وكانوا احيانا يدخلون في نطاقه «مصر»، و احيانا اخرى يخرجونها منه.

٩ - مفردها « اسكله» وهي كلمة ايطالية، واصلها «سكالا SCALA»، وقد دخلت اللغة الإيطالية من اليونانية. وتعني السلم «الذي كان يجري عليه تحميل السلع والبضائع من الميناء الى السفن، او تنزلها منه الى الميناء، ثم اخذت تطلق على الميناء نفسها التي يجري فيها ذلك التحميل والتفريع. وقد اخذها العرب على ما يبدو منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، اذ وردت في كتاباتهم، نتيجة احتكاكهم بالاطالين. كما دخلت هذه الكلمة الى اللغة التركية ايضا. الا انها في العربية اخذت معنى «الميناء» ومعناها الاصلى ايضا، وهو السلم. ولا تزال كلمة «الصقالة» تستخدم في اللغة العربية العامية بهذا المعنى، وتطلق بصفة خاصة على «الاشخاش التي يصعد عليها البناء للبناء ونحوه ويبدو ان كلمة «سكله» قد عمت مع الزمن فأصبحت تطلق على «مكان شحن البضائع وتفريغها» اكان ذلك على الساحل ام في الداخل. ومن ثم فإنه لم يعد يقصد من «اسكالات الشرق» الموانئ على ساحل البحر المتوسط فحسب، وانما جميع المراكز والمدن التي كانت تشحن منها البضائع او تفرغ فيها، ولا سيما تلك التي كان يقيم فيها الاجانب ويمارسون التجارة.

انظر

- R.DOZY, Supplément aux Dictionnaires Arabes. 2 vols. Brill-leiden 1881. p.23

H.KAHANE A.TLATZA, The Lingue Franca in The Lovant. Turkish Nautical Terms of Italian and Greek origin. Urban 1953.pp. 568-572.

Ancien Diplome, Le Rogime des Capitulations. 2 vols. paris 1898 vol.I. p.68-

عيسى اسكندر المعلوف تاريخ الامير فخر الدين المعنى الثاني. لنان ١٩٣٤. ص ١٨٨. حاشية ١  
ليلي الصباغ. الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. رسالة دكتوراه قدمت الى جامعة القاهرة(مصر) عام ١٩٦٦، وتمت الموافقة عليها، وما تطبع بعد ص ١٤٦ (١٠١) «ليفورنو» بالاطالية و«ليغورن» بالانكليزية(LECHORN). مدينة ايطالية في طوسكانا على البحر التيريني. وكانت في بادى امرها قرية صيادين صغيرة، ثم حسننها الجويون الذين امتلكوها وباعوها عام ١٤٢١ للفيلورنسيين. وقد جعل آل مدينته منها عام ٥٣٠ ميناء كبيرا. وقد نشط التبادل التجاري فيها، وعرفت رخاء كبيرا اكتسبت شهرة عالمية في القرن السابع عشر.

انظر تفصيلا عنها في «مذكرات دارفيو» م ١ ص ٥-١٩

١١- انظر وصف «دار فيو» لمدينة «ازمير» وما عرف عنها، وتجربته فيها، في المصدر السابق ص ٣٦-٤٦

١٢- شجرة بارتفاع متر تقريبا، تنمو بشكل طبيعي في عدة أماكن من الهند، وجزر الهند الشرقية وفي مصر، وسورية، وشبه الجزيرة العربية، وتستخدم أوراقها دواء ضد الامسك.

انظر وصفه التفصيلي في «مذكرات دارفيو». م ١. ص ٣٤١-٣٤٢

١٣- المصدر السابق. ص ١٤٦، ٣٤١

١٤- المصدر السابق. ص ١٤٧

١٥- انظر زيارته لمصر، ووصفه للاسكندرية، ورشيد، ودمياط في المصدر السابق. ص ١٤٨-٢٤٠

١٦- انظر حول ذلك النزاع وأسبابه. المصدر السابق. ص ٢٦٢-٢٦٩

١٧- المصدر السابق. ٢٩٣-٢٩٤



- ١٨- المصدر السابق م٣ ص ٣٤١
- ١٩- المصدر السابق. م٢ ص ٨٨-١
- ٢٠- المصدر السابق. ص ٣٢٣-٨٨
- ٢١- المصدر السابق. ص ٤٧١-٣٢٣
- ٢٢- المصدر السابق. م٣. ص ١٤٣-١
- ٢٣- المصدر السابق. ص ٣٥٨-٣٥١
- ٢٤- المصدر السابق. ص ٣٦٣
- ٢٥- المصدر السابق. ص ٣٦٣-٣٥٨
- ٢٦- المصدر السابق ص ٢٩٤-٢٩٣
- ٢٧- المصدر السابق. ص ٣٧١
- ٢٨- المصدر السابق. ص ٣٧٣-٣٧٢
- ٢٩- هو «فرانسوا دوبوربون»، حفيد ملك فرنسا «هنري الرابع». وقد قضى أيام ريشليو، ولعب دورا بارزا اثناء «حروب الفوندد». وقد أظهر خضوعه للملك «لويس الرابع عشر» الذي وضعه على رأس البحرية الفرنسية. وقد اشتهر اسمه في الحملة التي قادها ضد «جيجل» في الجزائر عام ١٦٦٤، وفي المفاوضات مع الحكومة التونسية. وقد قتل في حربه ضد الأتراك العثمانيين اثناء حصار «كاندية» في جزيرة كبريت، عام ١٦٦٩.
- ٣٠- انظر نص تلك الاتفاقية في «مذكرات دارفيو»، م٣. ص ٥٢٤-٥٤٥
- ٣١- ان رأس «نيغر» هو ميناء صغير على حدود تونس الغربية، وقريب من جزيرة «طبرقة» الميناء التونسية حيث كان الجنويون دائما هم المقابضين على تجارة القمح والخضر فيها، بالإضافة الى استثمار المرجان.
- ٣٢- المصدر السابق. ص ٥٤٧
- ٣٣- المصدر السابق. ص ٤م ص ١٠١
- ٣٤- المصدر السابق. ص ١٠٢-١٠٤
- ٣٥- المصدر السابق. ص ١٠٤
- ٣٦- المصدر السابق ص ١٠٥
- ٣٧- المصدر السابق. ص ١٠٦-١١٠
- ٣٨- انظر حول رحلة سليمان آغا المصدر السابق ص ١٢٤-٢٠٧
- ٣٩- المصدر السابق. ص ٢٣٩-٢٠٧
- ٤٠- المصدر السابق. ص ٢٤٣-٢٤٠
- ٤١- المصدر السابق م٤. ص ٢٥٢-٢٥٣
- ٤٢- انظر رحلته الى القسطنطينية ودرته، وتقريره عن المدينتين وأحوال الدولة العثمانية والمفاوضات. المصدر السابق. ص ٥٧٢-٣٠١
- ٤٣- المصدر السابق. م٥ ص ١٠-٢٥
- ٤٤- قام الملك لويس الرابع عشر بربط الطائفتين ببعضهما، بعد أن بعثهما وجدد فيها، مقلدا بذلك ملوك فرنسا السابقين كهنري الرابع «مثلا، الذي كان قد أسس الطائفة الأولى، وذلك حتى يظهر خدمته للكنيسة والدولة في آن واحد.
- المصدر السابق. ص ٢٨

- ٤٥- المصدر السابق. ص ٣٩-٤٠
- ٤٦- منذ ١٥٦٧/١٥٦٠م، حصل مواطن مرسيلي يدعى «توماس لنش Thomas Linch» على امتياز صيد المرجان بين «رأس رو» و «بجاية» وحق انشاء مركز محصن في «حصن فرنسا» أو «باستيون فرنسا»، الى الغرب من القل La Calle ولكن سكان الجزائر استولوا عليه عام ١٥٦٨. ثم استعادته الفرنسيون، وعادوا ففقدوه عام ١٦٠٤. ونجح كورسيكي من مارسيليا «يدعى سانسون نابولون Sanson Napollon» في ١٦٢٨/١٦٠٣٧ بعقد اتفاق مع الجزائر، أعطاه حق امتياز يد المرجان، واستخدام «الباستيون» بصفة خاصة للقيام بتجارة تهريب القمح. وتلا وفاته عام ١٦٣٣/١٥٤٢ تخريب الباستيون. وفي عام ١٦٤٠/١٥٥٠ عقد اتفاق جديد لترميم الباستيون واقامة مراكز مسلحة في كل من عنابة وقلو Callo وتكونت شركة من تجار أغنياء في مارسيليا، للقيام بالمهمة. الا أن النزاع دب بين الشركاء، وأراد بعضهم عزل ممثلهم في الباستيون، الذي رفض الانصياع لأوامرهم، وأيده في ذلك رأي الجزائر وأوجاقها
- ٤٧- ولما تعقدت القضية اقترح اسم دارفيو للقيام بجلها، عن طريق التفاوض مع سلطات الجزائر ومع ممثل الشركة في الباستيون  
انظر حول «باستيون فرنسا»:
- R. NANTRAN, North Africa in the sixteenth and seventeenth centuries, in the Cambridge History of Islam. 2vols. Cambridge University Press. 1970. vol. II. P. 257
- ومذكرات دارفيو نفسها م ٥٧-٧١
- ٤٨- المصدر السابق. ص ٧٢-٧٥
- ٤٩- انظر حول رحلته الى الجزائر، وعمله هناك، ومعاهدة الدوق دوفوفور مع الجزائر عام ١٦٦٦، المصدر السابق. ص ٧٩-٢٨٩
- ٥٠- المصدر السابق. ص ٣٠١-٣٠٠
- ٥١- المصدر السابق. ص ٣٤٠-٣١٩
- ٥٢- المصدر السابق. ص ٣٦٢-٣٤١
- ٥٣- المصدر السابق. ص ٣٧١-٣٦٣
- ٥٤- المصدر السابق. ص ٣٩٨-٣٧٢
- ٥٥- المصدر السابق. ص ٤١٩-٤١٠
- ٥٦- بير سيفية P. Segurier، دوق دوفيلمور (١٥٨٨-١٦٧٢). نقلد مناصب جديدة وكان له نشاطه السياسي. وآخر تلك المناصب منصب المستشارية. كان رجل فكر (C.L.E. vol. 9.P. 716. (art. Segurer)
- ٥٧- المصدر السابق. ص ٤٢٢-٤٢١
- ٥٨- المصدر السابق. ص ٤٣٨-٤٢٢
- ٥٩- المصدر السابق. ٤٩٣ فما بعد.
- ٦٠- ان اقامة «الفارس دارفيو» في حلب، وملاحظاته عنها، وما جرى له فيها، تملأ «الجزء السادس» من مذكراته.
- ٦١- المصدر السابق. م ٦٠ ص ٦١٣
- ٦٢- المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
- ٦٣- أورد «الأب لابا» هذا النبأ عن «دارفيو» في آخر الجزء الخامس» من المذكرات، متجاوزا التسلسل الزمني الذي اتبعه «دارفيو» في مذكراته.

- انظر. المصدر السابق. م ٥٨٧-٦١٣
- ٦٤- المصدر السابق. م ٦١٤-٦١٥
- ٦٥-، ٦٦-، ٦٧-، انظر الفهارس التفصيلية للمجلدات الثلاثة في «قسم الملاحق» في نهاية هذه الدراسة.
- ٦٨-، ٦٩-، انظر الفهرسين التفصيليين للمجلدين، في قسم الملاحق، في نهاية هذه الدراسة.
- ٧٠- انظر الفهرس التفصيلي للمجلد في قسم الملاحق في نهاية هذه الدراسة.
- ٧١- انظر «امتياز النشر» في آخر المجلد الأول، والمجلد السادس.
- ٧٢- انظر ذلك في «عنوان الكتاب»، في المجلدات الستة، وفي الصفحة الاولى من امتياز النشر الآنف الذكر، وفي المجلد السادس، الصفحات ٤٨٢-٤٨٣.
- ٧٣- ان بيت «كونتي» Conti ou Conty، فرع ثان من بيت «كوندة Conde» وقد تكوّن لأول مرة في القرن السادس عشر. وقد ظهر منه عدة أمراء لعبوا دورهم في الحياة السياسية والعسكرية لفرنسا. ويبدو أن الأمير الذي أهديت له المذكرات هو «لويس فرانسوا دوبوربون» (١٧١٧-١٧٧٦)، ابن «لويس أرمان الثاني دوبوربون» (١٦٩٦-١٧٢٧). وقد تميز بمقدرته الحربية وشرح نفسه لعرش بولونيا. وكان عدو لتورفو، ومن حماة الأدب والعلم.
- G.L.E. vol. 3.P. 446. (art. Conti)
- Les Memoires du Chevalier d'Arviex. T.l'Epistre. PII
- ٧٤- «فرانسوا لويس دو بوربون أمير» لاروش سور يون وأمير كونتي (١١٦٤-١٧٠٩). قاتل العثمانيين في هنغاريا، واختير ملكا لبولونيا عام ١٦٩٧، ولكن عندما وصل، كان منتخب ساكونيا قد احتل مكانه.
- ٧٦- ابن الأمير «فرانسوا لويس دو بوربون» (١٦٩٦-١٧٢٧). كان مقربا من لويس الرابع عشر الا أنه لم يلعب دوراً ذا بال.
- ٧٧- مذكرات دارفيو المجلد السادس. ص ٤٨٢-٤٨٣
- ٧٨- المصدر السابق. المجلد الخامس. ص ٤٠
- ٧٩- المصدر السابق ص ٥٨٧ فيما بعد.
- ٨٠- المصدر السابق. ص ٢٢-٤٠
- ٨١- المصدر السابق. م ٤ ص ١٠١، ٩٨
- ٨٢- المصدر السابق. المجلد الأول الاهداء
- ٨٣- المصدر السابق. المقدمة ص ١٦
- ٨٤- المصدر السابق. م ٦ ص ١٣٣-١٥٨
- ٨٥- المصدر السابق. ص ٣٠١-٣٠٧
- ٨٦- لقد وصف معظم مدن بلاد الشام الشمالية، كدمشق، وصيدا، وصور، وبيبلك، وبيروت وطرابلس، وحلب، والاسكندرون. وكذلك تونس والجزائر، والاسكندرية، ورشيد، ودمياط. ناهيك عن مدن فلسطين، كما سيبين في حينه.
- ٨٧- المصدر السابق. م ١٠. المقدمة. ص ١٢-١٣
- ٨٨- المصدر السابق. ص ١٦
- ٨٩- انظر مجموع الرحلة في المجلد الأول ص ٢٤١-٢٥٠، ٢٥٧-٢٩٤.

- ٩٠- انظر أسباب ذلك الخلاف في المصدر نفسه. ص ٢٦٦-٢٦٩.
- ٩١- الفصل الثاني عشر! ص ٢٦٩-٢٩٤.
- ٩٢- انظر مجموع الرحلة في المجلد الثاني. ص ١-٨٨.
- ٩٣- المصدر نفسه ص ٣٠.
- ٩٤- وهو من أحفاد عمر بن الخطاب، وقد توفي عام ٥٧٤هـ/١٠٨١م. وقد اشتهر عند الناس باسم «علي بن علم». وبذلك لا يكون «دارفيو» بعيدا جدا عن النطق الصحيح للاسم. وقد عمّر مشهده سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م.
- انظر: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين. خمسة أجزاء. كل جزء يقسمين. بيروت ١٩٦٥ - ١٩٧٢، ج ١ ق ١ ص ٢٧٥-٢٧٦، ج ٤ ق ٢ ص ٣٤٩-٣٥٠، ج ١ ق ٢ ص ٧٥
- ٩٥- مذكرات دارفيو، المجلد الثاني. ص ٢١
- ٩٦- قسطنطين حمار. موسوعة فلسطين الجغرافية. منظمة التحرير الفلسطينية. مركز الأبحاث. شباط (فبراير) ١٩٦٩. ص ٢٤
- ٩٧- المجلد الثاني. ص ٧١
- ٩٨- انظر تلك الرحلة. م ٢. ص ٧١-٨٨
- ٩٩- وردت في الفصول (٧-٢٠) من المجلد الثاني. ص ٨٨-٣١٨
- ١٠٠- م ٢ ص ٥٠٠-٥١١
- ١٠١- م ٢ ص ٥١٢-٥١٥
- ١٠٢- المصدر نفسه. ص ٤٩٩-٥٠٠
- ١٠٣- لقد أبلغ «مدعي الأرض المقدسة» «دارفيو» وزملاءه، بأن الأخبار وصلت لباشا القدس وقاضيا بأن ثلاثة من أبناء ملوك أوروبا قد وفدوا الى الرملة مع حاشية صغيرة، وهم ابن ملك فرنسا، وابن ملك اسبانيا، وابن ملك إنجلترا. وقد جاءوا للحج متنكرين، وقدموا لباشا غزة هدايا ثمينة. وقد استضافهم الباشا في غزة بكرم. وان باشا القدس وقاضيا يعدان العدة لاستقبالهم بالسخاء نفسه حتى ينالا هدايا نفيسة كالتى حصل عليها باشا غزة. ويبدو أن الأمر قد التبس على الناس والحكام فظنوا أن «دارفيو» وزملاءه هم الامراء الأوروبيون. ولذا كانت نصيحة «المدعي العام» بتأجيل زيارتهم للقدس خشية سوء العاقبة.. المصدر نفسه. ص ٧٣-٧٤
- ١٠٤- تذكر بعض المصادر أنها كانت محطة للحجاج، وتبعد (٤٦ كم) شمال شرقي غزة. الدباغ. المصدر نفسه. ج ١ ق ٢ ص ٢٢١-٢٢٢
- ١٠٥- هي «عراق المنشية» شمال شرقي غزة، وعلى بعد ٤٩ كم منها، وغرب بيت جبرين وعلى بعد ١٠ كم منها. المصدر السابق. ج ١ ق ٢ ص ٢٣٠.
- ١٠٦- هو العملاق الفلسطيني الذي قتله «داوود» بضربة حجر على جبينه.
- ١٠٧- قد تكون قرية اللطرون الى الغرب من القدس. و «لازون الطيب» هو أحد اللصين اللذين صلبا مع المسيح، وقد آمن به قبل صلبه. (انظر حول اللطرون الدباغ. ج ٤ ق ٢ ص ٥١٤)
- ١٠٨- هي «عناتا» وتبعد ٤ أميال شمالي شرقي القدس. أما «جرميا» فهو أحد أنبياء اسرائيل الأربعة الكبار. عاش حوالي (٦٥٠-٥٩٠ ق.م). اشتهر بتنبؤاته عن خراب القدس وندبه لها.
- ١٠٩- هي قرية «المدية» قرب اللد. (انظر الدباغ. ج ٤ ق ٢ ص ٥٥٨)
- ١١٠- لعله جبل «سكوبس».

- ١١١ - لعله «وادي جريوت» الذي يصل جبال القدس بالسهل الساحلي، ويمر بقرى المدينة، وكفر عانة، ويعرف مجراه الأوسط بوادي الناطوط، والأذن بالكبير. (موسوعة فلسطين الجغرافية ص ١٦ أما «ترينت أو ترينتس» فيقصد بهذا الاسم عادة مدينة قديمة مكان «رامة الخليل» شمالي الخليل. (الدباغ. ج ٥ ق ٢. ص ١٦٣). يؤكد الأطلس الكبير للكتاب المقدس «ان وادي ترينت» «ووالي السنط» (د هرس. ص ١٦). انظر حول ولد السنط. موسوعة فلسطين الجغرافية. ص ٢٦
- ١١٢ - قد تكون «قادلونيا» وتبعد ٧ كم شمالي القدس (الدباغ. ج ١ ق ١ ص ١٦)
- ١١٣ - وهذه الفصول هي: الفصل التاسع ووصف فيه بنية مدينة القدس (ص ١٠٦-١١٠) والعاشر وصور فيه «دير القديس المخلص» الذي نزلوا فيه - (ص ١١٠-١١٧)
- الحادي عشر تم فيه وصف كنيسة الضريح المقدس (القيامة) (ص ١١٧-١٣١) - الثاني عشر الاحتفالات التي تجرى في كنيسة القيامة - (ص ١٣١-١٣٩) - الثالث عشر وصف احتفال الروم والأرمن بالنار المقدسة (ص ١٣٩-١٥٦) - الرابع عشر حديث عن «طائفة الضريح المقدس» التي انتسب اليها «دارفيو»، والاحتفالات التي تجرى عند تنصيب فارس فيها. (ص ١٥٦-١٦٨) الفصل الخامس عشر ملاحظات خاصة عن مدينة القدس وضواحيها (ص ١٦٨-١٨٥) - الفصل السابع عشر ملاحظات أخرى عن مدينة القدس (٢٠٦-٢١٧).
- ١١٤ - انظر الفصل السادس عشر من المجلد الثاني. ص ١٨٥-٢٠٥
- ١١٥ - البرزة نبي يهودي، وتلميذ النبي ايليا، وقد عرف الاثنان بمعجزاتهما.
- ١١٦ - انظر حولها ٢م ص ٢١٨-٢٣
- ١١٧ - أحد أنبياء اليهود الصغار. عاش بين (٦٥٠-٦٢٧ ق.م).
- ١١٨ - انظر حولها ٢م ص ٢٣١-٢٤٢
- ١١٩ - الدباغ. ج ٥ ق ٢. ص ٤٩
- ١٢٠ - انظر حولها، ٢م ص ٢٤٢-٢٤٥
- ١٢١ - موسوعة فلسطين الجغرافية. ص ٨٦. ويؤكد «الاطلس الكبير للكتاب المقدس» الاسم الأول. ص Grand Atlas de to Bible II.H Gropperbeng, tr g.p. Chara'l paris 1962١٤١
- ١٢٢ - المصدر السابق. ص ٩٥
- ١٢٣ - ٢م ص ٢٤٥-٢٥٥
- ١٢٤ - يقال أن يوحنا المعمدان (النبي يحيى) قد ولد في بيت كارم على بعد كم غربي القدس (الدباغ ج ١ ق ١. ص ٦٣٢ هامش) وقد تكون هي نفسها التي أشار اليها الرحالة.
- ١٢٥ - هم الأخوة اليهود السبعة الذين قتلوا في حربهم مع «أنطيوخوس ايفانوس» عام ١٦٨ ق.م. وهم الذين ثاروا على الحكم السليوقي.
- ١٢٦ - انظر حولها المجلد الثاني ص ٢٥٦-٣٢٣
- ١٢٧ - ٢م ص ٢٥٦-٢٦٢ (١٢٦) مكرر
- ١٢٨ - ٢م ص. ٢٦٣-٢٧٣
- ١٢٩ - يطلق عادة على سهل عكا اسم «زفولون»، وهو الممتد من رأس الناقورة حتى حيفا. ولكن يبدو ومن وصف دارفيو، وموقعه أنه يقصد «سهل البطوف»، الممتد بين قضاء عكا وقرية صفورية. (موسوعة فلسطين. ص ١٢٨، ١٣٠)

- ٢٨٠-١٧٣ ص ٢م -١٣٠
- ٢٨٥-٢٨٠ ص ٢م -١٣١
- موسوعة فلسطين الجغرافية. ص ١٥٣ -١٣٢
- الدباغ. ج ١ ق ١ ص ٤٤٠ -١٣٣
- ٢٨٦-٣١٨ ص ٢م -١٣٤
- المصدر نفسه. ص ٣١٨-٣٢٣ -١٣٥
- انظر حولها المجلد الثالث. ص ٣-٩٧ -١٣٦
- انظر حول آل طرطلي: المحبي - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٤٠ أجزاء القاهرة ١٢٨٤. ج ١ ص ٢٢٠-٢٢١. «ومذكرات دارفيو» ٣م. ص ١٥٦-١٧٨. وكذلك محمد عدنان بحيث. الأسرة الحارثية في مرج بني عامر (٨٨٥-٨١٠هـ/١٤٨٠-١٦٧٧م، بحث قدم الى سننار عين شمس القاهرة (٧-١٢ أيار ١٩٧٧) -١٣٧
- جيجل مدينة على ساحل الجزائر، وعلى بعد ٥٠ ميلا غربي بجاية. كانت في القرن السابع عشر عرينا لبحارة الجزائر، يهاجمون منه سفن الأوروبيين في البحر المتوسط. وقد نفع هذا الدول الأوروبية الى شن غارات بحرية عليها. وفي عام ١٦٦٣ رأّت فرنسا اتخاذ «جيجل» قاعدة بحرية دائمة لها، تكمن فيها طراداتها البحرية لملاحقة البحارة الجزائريين عند خروجهم من موانئهم، أو عندما يعودون اليها مع أسلابهم؛ وفي الوقت نفسه تكون محطة آمنة للمراكب التجارية الفرنسية. وفي ٢٣ تموز (يوليو) عام ١٦٦٤ أنزلت فرنسا ثمانية آلاف جندي واحتلتها. الا أن الجزائريين استطاعوا ضرب الفرنسيين واخراجهم منها في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) ١٦٦٤. انظر ج. ايفر G.Yver: جيجل. بحث مترجم في دائرة المعارف الاسلامية (ترجمة خورشيد - يونس - جلال - ومراجعة وزارة المعارف العمومية) القاهرة. د.ت المجلد السابع ص ٢٠١-٢٠٤ - ومذكرات «دارفيو». ٣م ص ٣-٤ -١٣٨
- ٣م ص ٤ -١٣٩
- بين «دارفيو» أيضاً الخسارة التي ستصيب الجزائريين، بقوله ان استيلاء فرنسا على جيجل، ومطاردتها البحارة سيحطّم تجارتهم مع مصر وسورية وشواطئ الأناضول ٣م. ص ٤ -١٤٠
- ٣م ص ٦ -١٤١
- ٣م ص -١٤٢
- المصدر السابق ص ٣٣٦ -١٤٣
- المصدر السابق ص ٣٢٦ -١٤٤
- ٣م ص ١-٣ -١٤٥
- ١م المقدمة ص ١٤ -١٤٦
- انظر حول «حماية الأماكن المقدسة» والاشراف عليها والصراعات الدينية حولها: ليلي الصباغ. الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر (ذكر سابقاً) ص ٤٢٩-٤٣٨ -١٤٧
- U.HEYD, Ottoman Documents on Palestine. 1552-1615 Oxford 1960. p. 180-181 (Firmans 122, 123)
- Castellani (E) , Catalogo dei Firmani ed altri Documenti, emanti in 'lingua Arabe e Turco concernati 'i Sanctuari i prop rieta diritti della custovio di Terra Santa. Gerusalemme. 1928.
- Collin (B), Les Lieux-Saints. Paris 1948

- Pelissie De Rausas (G), Le Regime des Capitulations dans l'Empire Ottoman. 2 vols. paris 1902-1905. voll. P. 62 -١٤٨
- Ibid. -١٤٩
- انظر المجلد الخامس من المذكرات ص ١٠-٢٧ -١٥٠
- المصدر السابق ص ١٢-١٣ -١٥١
- المصدر السابق. ٣٠٣-٣٠٩ -١٥٢
- المصدر السابق. ص ٣٠٩-٣١٨ -١٥٣
- المصدر السابق. ص ٣٧٢-٤٠٢ -١٥٤
- المصدر السابق. ٢م ص ٧٩ -١٥٥
- المصدر السابق ص ١٩٩-٢٠٣ -١٥٦
- المصدر السابق. ص ١٧٣-١٧٤ -١٥٧
- المصدر السابق. ص ٢٧ -١٥٨
- المصدر السابق. ص ٢٦٤ -١٥٩
- المصدر السابق. ص ٢٠٨ -١٦٠
- المصدر السابق. ص ٨١ -١٦١
- المصدر السابق. ص ٢٠٨ -١٦٢
- Voyages de M.Thevenot tant en Europe qu'en Asie et en Aftique. ٢٣٠. المصدر السابق. ص -١٦٣
- المصدر السابق. ص ٢٠٨ -١٦٤
- المصدر السابق. ص ٩٦ -١٦٥
- المصدر السابق. ص ١٦٩ وشبيه بذلك ما ورد في الصفحات التالية: ٢١٨، ٢٣٤، وغيرها. -١٦٦
- المصدر السابق. ص ٢١٧-٢١٨ -١٦٧
- المصدر السابق. ص ١٤٠-١٤١ -١٦٨
- المصدر السابق. ص ٨١ -١٦٩
- والدة الامبراطور قسطنطين (توفيت حوالي ٣٣٠م). دانت بالمسيحية، وقامت برحلة تفتيشية الى الشرق، بحثا عن الصليب الحقيقي. وكانت زيارتها للأماكن المقدسة أهم ما في تلك الرحلة -١٧٠
- المصدر السابق. ص ١٧٥ -١٧١
- المصدر السابق. ص ٢٢٤ -١٧٢
- أحد الانبياء اليهود. مارس نشاطه في القرن التاسع ق.م، وأوقف لفترة تقدم عبادة الاله بعل بين الاسرائيليين. وقيد نسبت اليه عدد من المعجزات وكان أحد مراكز نشاطه الأساسية جبل الكرمل. -١٧٣
- المصدر السابق. ص ٢٢٢ -١٧٤
- انظر حول مضمون فلسطين، وأقسامها، عند الرومان والبيزنطيين، والعرب المسلمين: -١٧٥
- C. LE STRANGE, Op. cit. P.24-32
- مذكرات دارفيو. ٢م ص ٣٢٣ -١٧٦

- R. Blanchard, Geographie Universelle. Asi E Occdentale. T. VIII Paris 1929. P. 188 -١٧٧
- ويسام كرد علي - داود صليبا - مصطفى الحاج ابراهيم. الجغرافيا الاقتصادية والاقليمية لسورية الجنوبية، العراق، ومصر، والدول العظمى. دمشق ١٣٧٣هـ/١٩٥٣ م. ص ٩٣
- مذكرات دارفيو. ١م. ص. ٢٧ -١٧٨
- استخدم الناس القدماء كلمة « فلسطين » ليحددوا في بادىء الأمر المنطقة الساحلية وجمعها مع كلمة سورية فكانت « سورية - فلسطين ». وقد طغت هذه التسمية على التسمية الأصلية وهي « بلاد كنعان ». وكانت تضم في القديم، الجليل، والسامرة، واليهودية، مؤب وعمون. -١٧٩
- G.L.E vol 8-P 104. (art. Palestine)
- مذكرات دارفيو. ٢م ص ٣٢٣ -١٨٠
- الخطوة، وحدة طول رومانية قديمة تعادل ٤٨١، ٤م، وكانت تعادل خمسة أقدام الفرنج، وحدة قياس لم تحدد مساقنتها بشكل ثابت، وإنما قدرت ب (٤) كم. -١٨١
- القدم، وحدة طول قديمة في فرنسا، وكانوا يسمونها « قدم الملك » وهي (١٢) بوصة، وتعادل ١٤٨. من المتر. وتختلف عن طول القدم الانجليزية اذ تعادل هذه الأخيرة ٧٤/٧١٩/٣٠٤ سم -١٨٢
- الأرن. قياس مساحة قديم، ويختلف حسب الأماكن، ويتراوح بين ٣٤/١٩ آر، و ٥١/٠٧ من الآرات. -١٨٣
- التواز. وحدة طول فرنسية كانت تستخدم قبل اتباع النظام المتري. وكان يعادل في باريس ١/٩٤٩ م أو (٩) أقدام. -١٨٤
- مذكرات دارفيو. ٢م. ص ١٩٣ -١٨٥
- المصدر السابق. ص ١٩٢-١٩٣ -١٨٦
- ص ١٨٨ -١٨٧
- يثبت « دارفيو » بأنه لم ير لها أثراً في أريحا. ويصف ذلك الورد، ويشير الى أنه ينمو في صحراء الجزيرة العربية وعلى شاطئ البحر الأحمر. ٢م ص ١٨٩ -١٨٨
- ٢م. ص ٢٥٠ -١٨٩
- ٢م. ص ٧٩-٧٨ -١٩٠
- ٢م. ص ٢٨٦ فما بعد. -١٩١
- ٢م. ص ٢٨١-٢٨٠ -١٩٢
- ٢م ص ١٧٥ فما بعد -١٩٣
- ٢م. ص ٢٠٣-١٩٨ -١٩٤
- ١م. ص ٢٦٥ -١٩٥
- ٢م. ص ٢٦٧ -١٩٦
- ٢م. ص ١٩٢-١٩٠ -١٩٧
- ٢م. ص ٢٨٣، ٢٨ -١٩٨
- ٢م. ص ٢٧٧، ٢٧٥ -١٩٩
- ٢م. ص ١٩٧-١٩٢ -٢٠٠
- ٢م. ص ٢٢ -٢٠١
- موسوعة فلسطين الجغرافية. ص ٢٤ - الدباغ. المصدر نفسه. ج ١. ق ١ ص ٣٢ -٢٠٢



- ٢٠٤ - المصدران السابقان. (الأول) ص ٣٣-٣٤. (الثاني) ص ٣٠-٣١
- ٢٠٥ - مذكرات دارفيو. ٢م. ص ١٧٤
- ٢٠٦ - المصدر السابق. ٢م. ص ٢٣٢
- ٢٠٧ - انظر حول عناية العثمانيين واهتمامهم بها في القرن السادس عشر:
- U. HEYD, op. cit. p. 140, 146-146
- ٢٠٨ - مذكرات دارفيو، ٢م. ص ٢٨٠
- ٢٠٩ - المصدر السابق. ص ٢٧٧
- ٢١٠ - المصدر السابق. ص ٢٤٧
- ٢١١ - المصدر السابق. ص ١٨٨، ٢٠٤، ٢١٩-٢٢٠، ٢٥٠، ٢٨٩، ٢٩٥
- ٢١٢ - مكرر. ان البحث فيها، وفي توزيعها، يأتي ضمن دراسة «الحياة الاقتصادية».
- ٢١٣ - المصدر السابق. ص ١٩٧. و ١م ص ٢٧٧.
- ٢١٤ - المصدر السابق. ٢م. ص ٢٨٢، ٢٨٩-٢٩٠. و ٣م. ص ٩٧، ١٣٩
- ٢١٥ - المصدر السابق. ٣م. ص ٢٣٩-٢٥٤
- ٢١٦ - المصدر السابق. ٢م. ص ٢٩٠. ٣م. ص ١٣٩
- ٢١٧ - المصدر السابق. ص ٢٥٠-٢٥١، ٣م ص ٩٩
- ٢١٨ - مذكرات دارفيو. ٣م ص ١٨٨-١٩٠
- ٢١٩ - المصدر السابق. ص ١٤٤-١٥٥
- ٢٢٠ - يقصد بها «الأقسام الثلاثة» التي قسم اليها اليونان والرومان بلاد العرب، وهي «بلاد العرب السعيدة»، وهي أكبر الأقسام مساحة، وتحتوي شبه الجزيرة العربية كلها - بحسب خريطة بطليموس -، لا بلاد اليمن فحسب. و «بلاد العرب الصحيرية»، وتشمل البلاد التي كان يسكنها الأنباط (شرقي الأردن). و «بلاد العرب الصحراوية» وهي البادية الفاصلة بين العراق والشام، ويكوّن نهر الفرات حدها الشرقي.
- ٢٢١ - مذكرات دارفيو. ٣م. ص ١٤٤
- ٢٢٢ - المصدر السابق. ص ١٤٦
- ٢٢٣ - المصدر السابق. الصفحة ذاتها.
- ٢٢٤ - المصدر السابق. ص ١٤٧
- ٢٢٥ - ابن منظور. لسان العرب. ٦٠ مجدة صغيرة. دار صادر. بيروت ١٩٥٧. المجلدة ٢٢. ص ١٦٤. (بند. مدر).
- ٢٢٦ - المصدر السابق. ص ١٨٨ (مادة. مير).
- ٢٢٧ - مذكرات دارفيو. ٢م. ص ٢٩٠
- ٢٢٨ - DOAY, Supplement aux Dictionnaires Arabes. vol. I. P. 631
- ٢٢٩ - أرقام الصفحات بحسب تتابع المناطق في المتن.
- ٢٣٠ - مذكرات. ٢م. ٢٢٦، ٢٤١، ٢٦٧، ٣١٩، ٢٩٠، ٢٤٧
- ٢٣١ - مذكرات دارفيو. ٣م. ص ١٤٧-١٤٨
- ٢٣٢ - المصدر السابق. ٢م. ص ٢٤١-٢٤٢
- ٢٣٣ - U. HEYD? Op. cit. P. 71

- ٢٣٤- مذكرات دارفيو. ٣م ص ١٥٤-١٥٥
- ٢٣٥- ويظهر هذا عند حديثه عن المساجد، وعن تقديس المسلمين والمسيحيين لبعض الأماكن. انظر ٢م. ص ٨٠، ٨٢، ٣٢، ٣٣، ٥٠، ٢٢٥، ١٤٨
- ٢٣٦- على سبيل المثال انظر ٢م ص ٢٣١، وم ٣. ص ١٧٦
- ٢٣٧- U. HEYD. Loc. cit. p. 57
- ٢٣٨- مذكرات دارفيو. ٣م. ص ١٧٠
- ٢٣٩- المصدر السابق. ص ١٤٧
- ٢٤٠- المصدر السابق. ٢م ص ١٠٩
- ٢٤١- U. HEYD. op. Cit. p82
- ٢٤٢- مذكرات. ٢م ص ١٠٩
- ٢٤٣- المصدر السابق ص ١٤٢
- ٢٤٤- المصدر السابق. ص ١٤٨
- ٢٤٥- المصدر السابق. ص ١٣٣
- ٢٤٦- المصدر السابق. ٥م. ص ٩ وما بعدها.
- ٢٤٧- المصدر السابق. ٢م. ص ١٤٨
- ٢٤٨- المصدر السابق. ص ١٣٣
- ٢٤٩- انظر حول هذا الأمر، وحول حصر الأسقفية الكبرى، والحياة الديرية باليونان دون أهل البلاد: ليلي الصباغ. المجاليات الأوروبية. ص ٤٣١
- CIBB & BOWEN, Islamic Society and the West. 2parts. Oxford university Press. 1957. PartII.  
P 225 .N.I
- وحول حصر اختيار رجال الدين الأرثوذكس في فلسطين من «أخوة القبر المقدس» المحتكرة من اليونان، انظر:  
G. GRAF, Geschichte der Christlichen arabischen Litteratur. 4 vol and index. Vatican City.  
1944-1953. vol. III. P. 28
- وهذه الأخوة غير «الأخوة الكاثوليكية التي تحمل نفس الاسم، والتي انتسب إليها «دارفيو» وانظر حولها المذكرات. ٢م ص ١٥٦-١٦٧
- ٢٥٠- مذكرات دارفيو. ٢م ص ٥٠
- ٢٥١- المصدر السابق. ص ٣٢
- ٢٥٢- المصدر السابق. ص ١٢١، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٨، ١٨٠
- ٢٥٣- المصدر السابق. ص ١٢١
- ٢٥٤- المصدر السابق. ص ٢٢٩
- ٢٥٥- المصدر السابق. ص ٢٢٦
- ٢٥٦- المصدر السابق. ص ٢٣١
- ٢٥٧- المصدر السابق. ص ٢٥٤-٢٥٥
- ٢٥٨- المصدر السابق. ص ٢٤٣
- ٢٥٩- المصدر السابق. ص ٢٤٢
- ٢٦٠- المصدر السابق. ص ١٠٩، ٢٢٦، ٢٦٨

- ٢٦١- المصدر السابق. ص ٢٣١
- ٢٦٢- المصدر السابق. ص ٢٢٩
- ٢٦٣- المصدر السابق. ص ٢٢١
- ٢٦٤- المصدر السابق. ص ٢٤٥
- ٢٦٥- المصدر السابق. ص ١٠، ٨٢، ٤٣، ٥٠، ٥٤، ٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٥. ص ٣م. ١٦٤
- ٢٦٦- المصدر السابق. ٢م. ص ٢١٦، ٢٤٢
- ٢٦٧- ويضيف « دارفيو » الى ما ذكر آنفا أن أم الأمير « محمد » كانت تأتي الى دير الكرملين، لتقف أمام لوحة مريم العذراء، وتتوسل اليها طويلا. ص ٣١٥
- ٢٦٨- يذكر « دارفيو » ما كان يقوله المسيحيون والمسلمون عند تمسحهم بتلك الأعمدة باللغة العربية، وهو: « يا مريم العذراء، يا بتول البتلات، صلّي لأجلنا، وأعطنا العافية.
- المصدر السابق. ٢م. ص. ٢٧٠
- ٢٦٩- المصدر السابق. ص ٢١، ١٧٩، ٢٢٥
- ٢٧٠- المصدر السابق. ص ٨٢-٨٣ (سبسطية)
- ٢٧١- المصدر السابق. ص ٢٦٧، ٢٨٨، ٢٩٠
- ٢٧٢- المصدر السابق. ٣م. ص ١٧٧
- ٢٧٣- المصدر السابق. ٢م. ص ٢٩١
- ٢٧٤- المصدر السابق. ص ٤٩، ٦٤
- ٢٧٥- المصدر السابق. ٣م. ص ١٧٧
- ٢٧٦- المصدر السابق. ٢م. ص ١٢٠
- ٢٧٧- المصدر السابق. ص ١٢٠
- ٢٧٨- المصدر السابق. ص ١٧٠
- ٢٧٩- المصدر السابق. ص ١٧٠-١٧١
- ٢٨٠- المصدر السابق. ص ٥٠
- ٢٨١- المصدر السابق. ص ١٣٩
- ٢٨٢- المصدر السابق. ص ١٢٦
- ٢٨٣- المصدر السابق. ص ١٠٩
- ٢٨٤- المصدر السابق. ١م. ص ٢٧٨
- ٢٨٥- انظرُ تزايد هذا العدد في الفترة التالية، في: ليلي الصباغ. الجاليات الأوروبية. ص ١٨٥-١٨٨
- المصدر السابق. ٢م. ص ٢٢. لقد نما هذا العدد فيما بعد، وتحولت الرملة بالنسبة للفرنسيين الى « اسكله فلسطين » كلها. انظر ذلك في، الجاليات الأوروبية. ص ٢١٢-٢١٣
- ٢٨٦- مذكرات دارفيو. ٢م. ص ٤٧
- ٢٨٧- راجع حول نشاطها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتنظيمها. ليلي صباغ. المصدر نفسه. ص ٤٢٧-٤٤٧
- ٢٨٨- مذكرات دارفيو. ٢م ١م ص ٢٧٩
- ٢٨٩- المصدر السابق. ٢م. ص ٩٨
- ٢٩٠- مكرر المصدر السابق. ص ١١٠-١١٦

- ٢٩١-١ المصدر السابق. ص ٢٦
- ٢٩٢- المصدر السابق ص ٢٢٦
- ٢٩٣- المصدر السابق ص ٢٦٨
- ٢٩٤- المصدر السابق ص ٦٧
- ٢٩٥- المصدر السابق. ص ١١٥
- ٢٩٦- ص ٢٦
- ٢٩٧- المصدر السابق. ص ١١٥
- ٢٩٨- المصدر السابق. ص ١٣ ص ٣١١-٣١٤
- ٢٩٩- المصدر السابق. ص ١٤
- ٣٠٠- المصدر السابق.
- ٣٠١- المصدر السابق. ص ٣١٣ دبرهم في حيفا قد سمح لهم عام ١٠٤١ هـ
- ٣٠٢- جميل البحري. تاريخ حيفا الوطنية ١٩٢٢. ص ٥٠
- ٣٠٣- مذكرات دارفيو. ٢٤ ص ٢٩٧
- ٣٠٤- المصدر السابق. ص ٣٠٨-٣١٢
- ٣٠٥- المصدر السابق ص ١٧١-١٧٢
- ٣٠٦- المصدر السابق ص ١٧٢-١٧٣
- ٣٠٧- المصدر السابق. ص ٢٧٣
- ٣٠٨- المصدر السابق ص ٢٢٦
- ٣٠٩- المصدر السابق. ص ١٤. ص ٢٧٨
- ٣١٠- المصدر السابق. ص ١٠٩
- ٣١١- المصدر السابق. ص ٢١٢
- ٣١٢- المصدر السابق. ص ١٧١
- ٣١٣- المصدر السابق. ص ١٧٥
- ٣١٤- المصدر السابق. ص ١٠
- ٣١٥- المصدر السابق. ص ٢٣٨
- ٣١٦- المصدر السابق. ٢٤-٢٣٨
- ٣١٧- المصدر السابق ص ٣١٩-٣٢٠
- ٣١٨- المصدر السابق. ص ٣٢٠.

ان هناك بعض النقاط كانت خافية على «دارفيو» في سبب فرض الأتراك أموالا اضافية على اليهود في صفد، وهي أن اليهود كانوا في أواخر القرن السادس عشر يدفعون مبلغا مقطوعا كجزية. ولكن لما تزايد عددهم نتيجة الهجرة من أنحاء مختلفة من أوروبا، لاضطهادهم فيها، فقد وجدت الدولة أن المبلغ لم يعد متناسبا مع العدد الجديد، فصدر فرمان بضرورة تسجيل أسماء الوافدين الجدد ومتابعتهم بما يستحق عليهم. انظر.

U. HEYD. op. cit. P. 121-122

- ٣١٩- المصدر السابق. ص ٣٢٠
- تذكر الوثائق الرسمية العثمانية أنه كان لليهود في صفد في الربع الأخير من القرن السادس عشر (١٥٨٤) (٣٢)

كنيسيا، بينما لم يكن لهم في القديم سوى ثلاثة. وقد اشتكى المسلمون للسلطات من هذه الزيادة بالنسبة لمساجد المسلمين. فكيف اقتصر العدد على واحد بحسب وصف دارفيو؟

U. HEYD. op. cit. P 169

٣٢٠- مذكرات دارفيو. ٢م. ص ٣٢١

٣٢١- المصدر السابق. ص ٢٧٦

يرجع «هيد» تكوين تلك المستوطنة الى عام (١٥٦٠) بفضل جيود «جوزيف ناسي» اليهودي كان له نفوذ واسع في بلاط السلطان، وبجهود عمته وحماته «دوناغارسيا». ويبين أن الجماعة التي طلبت من السلطان، التزام ضرائب المنطقة قرب طبرية والنبع المعدني الحر عام ١٥٦٠، وكذلك مصائد الأسماك، والتي على ما يبدو أو صحت له امكانيات المنطقة في انتاج الحرير وقصب السكر، هم تلك الجماعة اليهودية نفسها، التي أنشأت المستوطنة، التي ذكرها «دارفيو»، ويبدو من فرمان الصادر عن السلطان بهذا الشأن، أن تلك الجماعة قدمت عروضاً مغرية لالتزام تلك البقعة، وهي ما يجمع من المسيحيين واليهود الوافدين اليها للحج أو الاستشفاء (بارتان من كل واحد»، و (١٥٠٠٠ أقة) مقابل مصائد الاسماك. وبعد عشر سنوات، تدفع الجماعة (١٠) عشر أقيجات مقابل كل أقة كانت تدفع، أي عشرة أضعاف ما كان يدفع. ويعلق «هيد» على ذلك، بأن الجماعة كانت تنتظر الأدهار والتوفيق في مشروعها.

U. HEUD. loc. cit. P. 139, 140-142

٣٢٢- مذكرات دارفيو. ٣م ص ١٨٧

(٣٢٣) المصدر السابق. ٢م ص ٥٥-٥٦

٣٢٤- المصدر السابق. ٢م. ص ٢٦٠

٣٢٥- المصدر السابق. ص ١٦٠-١٦١

ملحق  
الصفحة

## الفهرس العام لمذكرات الفارس دارفيو

ملحق  
المجلد الأول

- الاهداء
- المقدمة
- الفصل الأول - الرحلة من مرسيليا الى أزميز ..... ١
- الفصل الثاني - مدينة ازميز وكل ما جرى فيها أثناء اقامتي ..... ٣٦
- الفصل الثالث متابعة وصف ازميز ..... ٧٧
- الفصل الرابع - متابعة الموضوع نفسه ..... ١١٤
- الفصل الخامس - رحلة « الفارس دارفيو » الى مصر عام ١٦٥٨ ..... ١٤٨
- الفصل السادس - وصف الاسكندرية ..... ١٧٤
- الفصل السابع - رحلة رشيد ودمياط ..... ٢١٤
- الفصل الثامن - مدينة دمياط ..... ٢٣١
- الفصل التاسع - رحلة فلسطين ..... ٢٤١
- الفصل العاشر - مدينة صور ..... ٢٥٠
- الفصل الحادي عشر - حول عكا ( بطولثيد ) وما جرى فيها للقنصل .....  
والامة الفرنسية ..... ٢٦١
- الفصل الثاني عشر - المدينة التي يسميها أهلها عكا وكان اسمها ( بطولثيد ) ... ٢٦٩
- الفصل الثالث عشر - مدينة صيدا ..... ٢٩٤
- الفصل الرابع عشر - حول تجارة صيدا وسلعها ..... ٣٣١
- الفصل الخامس عشر - استقبال السيد ( أنطون برتاندية ) في صيدا ..... ٣٤٤
- الفصل السادس عشر - قصة الأمير فخر الدين أمير الدرروز من آل معن ..... ٣٥٧
- الفصل السابع عشر - الأمير ملححم معن وخلفاؤه ..... ٣٧٩
- الفصل الثامن عشر - ما جرى بين الأمراء أحمد وقرقاز ومحمد آغا حاكم صيدا .. ٣٨٦
- الفصل التاسع عشر - علي أفندي الباشا الأول لصيدا وحكومته ..... ٣٩٧
- الفصل العشرون - محمد باشا حاكم صيدا او حكومته ..... ٤٠٣
- الفصل الحادي والعشرون - جيش الباشوات - محمود افندي قاضي صيدا .....  
وسبب طغيان الحكم ..... ٤٣٨

- ٤٦٣ ..... - الفصل الثاني والعشرون - التجارة الخاصة بصيدا وضواحيها  
 - الفهرس الأبجدي  
 - مرسوم امتياز النشر.

## الصفحة

## المجلد الثاني

- ٠١ ..... الفصل الأول - الرحلة الى غزة.....  
 ٢٣ ..... الفصل الثاني - وصف الرحلة.....  
 ٤٦ ..... الفصل الثالث - وصف غزة.....  
 ٦٢ ..... الفصل الرابع - تاريخ حسين باشا والي غزة.....  
 ٧١ ..... الفصل الخامس - مدينة عسقلان والعودة الى الرملة.....  
 ٧٥ ..... الفصل السادس - طريق الرملة - صيدا عن طريق السامرية.....  
 ٨٨ ..... الفصل السابع - رحلة المؤلف الى الأماكن المقدسة.....  
 ٩٦ ..... الفصل الثامن - الطريق من يافا الى القدس.....  
 ١٠٦ ..... الفصل التاسع - مدينة القدس.....  
 ١١٠ ..... الفصل العاشر - كنيسة القديس المخلص وديره.....  
 ١١٧ ..... الفصل الحادي عشر - كنيسة الضريح المقدس.....  
 ١٣١ ..... الفصل الثاني عشر - الشعائر والاحتفالات التي تجري في كنيسة المقدس.....  
 ١٣٩ ..... الفصل الثالث عشر - الاحتفال بالنار المقدسة المدعاة.....  
 ١٥٦ ..... الفصل الرابع عشر - طائفة الضريح المقدس - احتفالاتها عند استقبال الفرسان..  
 ١٦٨ ..... الفصل الخامس عشر - ملاحظات خاصة عن مدينة القدس وضواحيها.....  
 ١٨٥ ..... الفصل السادس عشر - نهر الأردن وجبل الأربعين، والبحر الميت.....  
 ٢٠٦ ..... الفصل السابع عشر - ملاحظات عن مدينة القدس.....  
 ..... الفصل الثامن عشر - الرحلة الى بيت لحم - الخليل - صحراء القديس سابا  
 ٢١٧ ..... وصحراء القديس يوحنا.....  
 ٢٥٦ ..... الفصل التاسع عشر - السفر من القدس، والرحلة الى عكا بطريق عمواس.....  
 ٢٦٤ ..... الفصل العشرون - الرحلة الى الناصرة وجبل الكرمل.....  
 ٣١٨ ..... الفصل الحادي والعشرون - الرحلة الى صنفد.....

|     |  |
|-----|--|
| ٣٢٤ | ..... الفصل الثاني والعشرون - الرحلة من صيدا الى بيروت         |
| ٣٧٣ | ..... الفصل الثالث والعشرون - الرحلة من بيروت الى طرابلس سورية |
| ٣٩٨ | ..... الفصل الرابع والعشرون - وصف عام لجبل لبنان               |
| ٤٣٦ | ..... الفصل الخامس والعشرون - الرحلة من جبل لبنان الى دمشق     |
| ٤٤٥ | ..... الفصل السادس والعشرون - وصف مدينة دمشق                   |
| ٤٦٥ | ..... الفصل السادس والعشرون - من دمشق الى صيدا                 |
| ٤٧١ | ..... - الترجمة الفرنسية لرسائل فروسية طائفة الضريح المقدس     |
| ٤٧٦ | ..... - امتيازات فرسان طائفة الضريح المقدس                     |
| ٤٧٨ | ..... - أوامر ملك القدس  |
|     | - نفقات رحلة الأرض المقدسة، ودليل بالأمكنة المقدسة، والشهادات  |
| ٤٩٩ | ..... المحطة للحجاج - ومهمات « مدّعي الأرض المقدسة »           |

- الفهارس الأبجدية

### المجلد الثالث

|     |  |
|-----|--|
| ١   | ..... مقدمة  |
| ٣   | ..... الفصل الأول - الرحلة الى عرب جبل الكرمل وأسبابها                       |
| ٤٣  | ..... الفصل الثاني - قصة حسن المقلب بالفرنحي                                 |
| ٥٧  | ..... الفصل الثالث - قصة بند في شاب أراد الدخول في الاسلام                   |
| ٦٤  | ..... الفصل الرابع - علاقات المؤلف مع الامير طرباي وحفاوة الامراء الآخرين به |
| ٨٨  | ..... الفصل الخامس - الرحلة الى (طنطورة)                                     |
| ٩٧  | ..... الفصل السادس - حملة الأعراب ضد ثوار نابلس                              |
| ١٤٤ | ..... الفصل السابع - عن العرب بصفة عامة                                      |
| ١٥٦ | ..... الفصل الثامن - الأمير طرباي أمير عرب جبل الكرمل وعائلته وحكومته        |
| ١٧٠ | ..... الفصل التاسع - دين العرب   |
| ١٧٩ | ..... الفصل العاشر - ضيافة العرب في مخيماتهم، وضيافة أتباعهم في القرى        |
| ١٨٨ | ..... الفصل الحادي عشر - أخلاق العرب   |



|     |   |
|-----|---|
| ٢٠٤ | الفصل الثاني عشر - احترام العرب للحسبة.....                                   |
| ٢٢٣ | الفصل الثالث عشر - عواطف العرب تجاه القطط والكلاب.....                        |
| ٢٢٨ | الفصل الرابع عشر - القضاء عند المحمدين وبصفة خاصة عند العرب.....              |
| ٢٣٩ | الفصل الخامس عشر - خيول العرب.....  |
|     | الفصل السادس عشر - مساكن العرب وطريقتهم في نصب مخيماتهم                       |
| ٢٥٤ | وتقويضها.....   |
| ٢٦٢ | الفصل السابع عشر - مهن العرب.....   |
| ٢٨٦ | الفصل الثامن عشر - ملابس العرب.....   |
| ٣٢٠ | الفصل التاسع عشر - وسائل اللهو عند العرب.....                                 |
| ٣٢٩ | الفصل العشرون - الطب عند العرب.....   |
|     | الفصل الحادي والعشرون - الرحلة الى فرنسا وبربريا - حالة تجارة صيدا وبصفة خاصة |
| ٣٤١ | تجارة المؤلف.....   |
| ٣٥١ | الفصل الثاني والعشرون - الاضطراب في تجارة صيدا ونتائجها.....                  |
| ٣٧٠ | الفصل الثالث والعشرون - الرحلة من صيدا الى مرسيليا.....                       |
| ٣٩١ | الفصل الرابع والعشرون - رحلة «دارفيو» الى تونس.....                           |
|     | الفصل الخامس والعشرون - عن أسرة محمد بن حمودة باي، باشا تونس، قصة الداوي      |
| ٤٨٩ | حجي مصطفى كاراغوز.....  |
| ٥٠٥ | الفصل السادس والعشرون - قصة محمد شلبي المسمى بـ «دوم فيليب».....              |
|     | الفصل السابع والعشرون - معاهدة الصلح بين الدوق وبوفرر والباشا،                |
| ٥٢٤ | والداوي.....  |
| ٥٤٧ | الفصل الثامن والعشرون - حالة العبيد الذين افتدوا من تونس.....                 |
| ٥٥١ | معاهدة التجارة مع رأس نيغر وطبرقة وأمكنة أخرى.....                            |
|     | مترجمة من العربية.  |

الفهرس الأجدية

## المجلد الرابع

### الصفحة

- الفصل الأول - وصف مدينة تونس وضواحيها ..... ١
- الفصل الثاني - وصف مستنقع حلق الواد، وقرطاجة، وضواحي تونس ..... ٢٤
- الفصل الثالث - بيوت النزهة في ضواحي تونس ..... ٤١
- الفصل الرابع - حكومة تونس، وتقاليدها ..... ٤٩
- الفصل الخامس - شراء الخيول لحرس الملك، وأشياء أخرى سبقت سفرنا ..... ٤٩
- رسالة السيد «أمبروزان» القنصل الفرنسي في تونس بعدة عودة المؤلف.....
- ورسالة مصطفى الاسباني، ترجمان قنصلية تونس.....
- الفصل السادس - ما حدث أثناء سفر المؤلف الى باريس، وحتى سفره الى.....
- القسطنطينية بأمر الملك ..... ٩٥
- قصة أمور القسطنطينية، منذ عودة السيد «دولاحة فنتلي، وحتى ..... ٩٥
- ارسال «المركيز دونوانتيل» سفيرا اليها ..... ١١٠
- قصة المقابلة التي تمت بين السيد «دوليون» سكرتير الدولة وسليما آغا.....
- مبعوث السلطان ..... ١٣٣
- ترجمة رسالة قائم مقام القسطنطينية الى السيد ليون سكرتير الدولة ..... ١٤١
- قصة مقابلة الملك لويس الرابع عشر لسليما آغا ..... ١٥٧
- ترجمة رسالة «السيد الكبير» (السلطان)، التي قدمها مبعوثه للملك.....
- في ٥ ديسمبر ١٦٦٩ ..... ١٦٦
- ترجمة طلب سليمان آغا من السيد ليون، وفيه شكواؤه. وقد ترجم كلمة كلمة،
- لابراز كيفية تعبير الأتراك عن أنفسهم ..... ١٩٦
- مذكرة للملك عن أحوال القسطنطينية والتجارة ..... ٢٠٧
- قصة دخول نوانتيل سفير فرنسا الى القسطنطينية ..... ٢٥٤
- رسالة السيد ليون للصدر الأعظم ..... ٣٠٠
- سفر المؤلف الى القسطنطينية وأدرنة ..... ٣٠١
- رسالة السيد نوانتيل للصدر الأعظم ..... ٣٦٣
- رسالة بطرك اليونان للسيد بانايوتي، الترجمان الأول للسلطان ..... ٣٦٧
- ترجمة رسالة الصدر الأعظم للسيد نوانتيل ..... ٣٧٠

- ٤٢١ ..... رسالة السيد نوانتيل للصدر الأعظم  
 - قضية السيد « جوزيف دوسان جاك من مرسيليا، ضد غاسبارو .....  
 ٤٢٤ ..... شانفاردى الأرمنين  
 ٤٣٦ ..... وصف خاص للقسطنطينية وضواحيها، من الدردنيل وحتى البحر الاسود  
 ٤٩٨ ..... وصف مدينة أدرنة  
 - عيد الأضحى عند الأتراك، أو ما يقابل عيد الفصح ومركب السلطان .....  
 ٥٠٣ ..... عند ذهابه للمسجد الجامع لتأدية صلاة العيد  
 - معسكر السلطان، وطريقته في اقامة المعسكر خارج المدينة قبل ذهابه .....  
 ٥١٦ ..... الى المعركة  
 ٥٢٣ ..... خروج السلطان وعسكرته خارج مدينة أدرنة  
 ٥٥٣ ..... وصف السلطان محمد الرابع، امبراطور التبت  
 ٥٥٦ ..... قصة محمد وأحمد كوبرلي الصدران الأعظمان  
 ..... الفهارس الأبجدية -

### المجلد الخامس

- ١ ..... الفصل الأول - عودة دارفيو من القسطنطينية الى فرنسا، وصحيفة رحلته  
 ٦ ..... الفصل الثاني - الصحيفة الثانية للفارس دارفيو من باريس  
 ..... الفصل الثالث - مذكرته الى الملك عند عودته الى القسطنطينية في ٢٤ سبتمبر  
 ١٠ ..... ١٦٧٢  
 ..... الفصل الرابع - احياء طائفتي «توتردام جبل الكرمل» و «القديس لازار  
 ٢٨ ..... المقدسي»  
 ..... الفصل الخامس - قصة رفائيل ليفي اليهودي الذي تنصر تحت اسم «لويس  
 ٤١ ..... دوبيزانس»  
 ٥٧ ..... الفصل السادس - صحيفة رحلة الفارس دارفيو الى الجزائر  
 ..... الفصل السابع - ترجمة رسائل الباشا والداي، والديوان، وعسكر الجزائر وقد كتب  
 ١٠٤ ..... للملك في ٢٣ سبتمبر ١٦٧٤  
 ١٦٦ ..... الفصل الثامن - نسخة من رسالة الملك الى داي الجزائر

|     |  |
|-----|--|
| ٢٠٩ | ..... الفصل التاسع - معاهدة السلام بين مملكة فرنسا ومدينة الجزائر ومملكتها       |
|     | ..... الفصل العاشر - وصف مدينة الجزائر، وحكومتها، وأحداثها من                    |
| ٢١٧ | ..... ١٦٦٠-١٦٧٥  |
| ٢١٩ | ..... الفصل الحادي عشر - مدينة الجزائر وولايتها                                  |
| ٢٣٦ | ..... الفصل الثاني عشر - مدينة بجاية   |
| ٢٤٢ | ..... الفصل الثالث عشر - حكومة الجزائر   |
| ٢٤٩ | ..... الفصل الرابع عشر - عسكر الجزائر، والمجلس فيها. عدد موظفي الجمهورية         |
|     | ..... الفصل الخامس عشر - طريقة القرصنة الجزائرية - الأقسام - الأسلاب - افتداء    |
| ٢٦٢ | ..... العبيد   |
| ٢٧٢ | ..... الفصل السادس عشر - أنواع التعذيب في الجزائر                                |
| ٢٨٠ | ..... الفصل السابع عشر - ملابس الرجال والنساء في الجزائر، وزينة العرائس          |
| ٢٨٩ | ..... الفصل الثامن عشر - الوصول الى مرسيليا                                      |
| ٢٩٩ | ..... الفصل التاسع عشر الصحيفة الثالثة من باريس                                  |
|     | ..... الفصل العشرون - ترجمة الخط الشريف الصادر من السلطان (السيد الكبير)         |
|     | ..... لصالح اليونان، وضد رجال الدين اللاتين المالكين للأماكن المقدسة، وغيرها     |
| ٣٠٣ | ..... من الأرض المقدسة   |
|     | ..... الفصل الحادي والعشرون - ترجمة شهادة المترجمين الكاثوليك الذين حضروا مقابلة |
| ٣٠٩ | ..... الصدر الأعظم مع بطرك اليونان (الروم)، عن شؤون الأرض المقدسة                |
| ٣١٩ | ..... الفصل الثاني والعشرون - مذكرة حول قنصليات الأمة الفرنسية في الليفانت       |
|     | ..... الفصل الثالث والعشرون - مذكرة كولبير عن الاضطرابات في سلام الليفانت        |
| ٣٤١ | ..... مع اجوبة المؤلف  |
| ٣٥٢ | ..... الفصل الرابع والعشرون - رسالة الى داي الجزائر محمد تريك أوغلي              |
|     | ..... الفصل الخامس والعشرون - ترجمة مذكرة عن خسائر الأتراك ونفقاتهم في حصار      |
| ٣٥٨ | ..... كاندية   |
|     | ..... الفصل السادس والعشرون - مذكرة الى الامير الوصي على عرش البرتغال لمعاقبة    |
| ٣٦٣ | ..... قراصنة الجزائر وتخريب جمهوريتهم  |
| ٣٧٢ | ..... الفصل السابع والعشرون - الامتيازات بين امبراطور فرنسا والسلطان             |
|     | ..... الفصل الثامن والعشرون - ترجمة الرسالة المرسلة من السلطان الى الملك مع      |

|     |   |
|-----|---|
| ٣٩٩ | ..... الامتيازات  |
|     | الفصل التاسع والعشرون - رسالة الصدر الأعظم الى الملك عن الامتيازات      |
| ٤٠٢ | ..... الجديدة   |
|     | الفصل الثلاثون - مذكرة الى الملك لاجبار قراصنة طرابلس الغرب على سلام    |
| ٤١٣ | ..... مفيد  |
| ٤٢٤ | ..... الفصل الواحد والثلاثون - صحيفة الرحلة الى حلب                     |
|     | الفصل الثاني والثلاثون - مرسوم تكليف الملك لدارفيو بممارسة عمل قنصلية   |
| ٤٣٨ | ..... حلب   |
|     | الفصل الثالث والثلاثون - مفاوضات دارفيو مع دوق طوسكانا بتكليف من عرفة   |
| ٥٨٧ | ..... مرسيليا   |
|     | الفصل الرابع والثلاثون - تعليمات غرفة تجارة مرسيليا لدارفيو في مهمته في |
|     | فلورنسة ومتابعته قضية تصفية أسلاب المراكب الفرنسية التي استولى عليها    |
| ٥٨٨ | ..... القرصان « بلومن »   |
|     | الفصل الخامس والثلاثون - ترجمة حكم دوق طوسكانا على بلومن - ثلاث رسائل   |
|     | من دوق طوسكانا الى دارفيو.  |
|     | ..... الفهارس الأبجدية  |

## المجلد السادس

|     |  |
|-----|--|
| ١   | الفصل الأول - قصة الصعوبات في حلب التي نجمت عن الكنيسة القنصلية فيها     |
|     | الفصل الثاني - قصة السيد « فرانسوا بيكة » أسقف قيصرية ونائب بابل الرسولي |
| ٨١  | ..... والمبعوث العام من قبل البابا لزيارة الشرق                          |
|     | الفصل الثالث - عدة رسائل من أسقف قيصرية للفرانس دارفيو وفيها رحلته الى   |
| ٩١  | ..... فارس   |
|     | الفصل الرابع - الاعلان الذي كان الملك لويس الثالث عشر قد وضع فيه مملكته  |
| ١٧٣ | ..... تحت الحماية الخاصة للعدراء المقدسة                                 |
| ١٩٧ | ..... الفصل الخامس - معركة السيد دو كين ضد مراكب طرابلسية في ميناء خيو   |
|     | الفصل السادس - قصة هزيمة الامير ملحم أمير أمراء الصحراء وأسر الوزير قره  |

|     |   |
|-----|---|
| ٢٥٥ | ..... محمد باشا له  |
| ٢٨٥ | ..... الفصل السابع - تقرير عما حدث في القسطنطينية منذ وصول السيد كين                  |
| ٣٠١ | ..... الفصل الثامن - آراء، ومذكرة حول تجارة فرنسا في بلاد الهند الشرقية               |
| ٣٠٥ | ..... الفصل التاسع - ما يمكن أن يخرب تجارة الفرنسيين في الهند الشرقية                 |
|     | ..... الفصل العاشر - رسالة « الأب نو » الى السيد « فيرجوس »، مدّعي البعثات التبشيرية  |
| ٣٧٠ | ..... في الليفانت، والمقيم في باريس   |
|     | ..... الفصل الحادي عشر - مقتطف من رسالة الأب « لاسترانجان » الجنرال الأعلى            |
|     | ..... لبعثات جمعية يسوع في بلاد اليونان، الى « فيرجوس » المدعي العام للبعثات اليسوعية |
| ٣٧٣ | ..... في الشرق  |
| ٤١١ | ..... الفصل الثاني عشر - وصف مدينة حلب  |
| ٤٣٤ | ..... الفصل الثالث عشر - الاثنان والعشرون حيا في مدينة حلب وأسمائها                   |
| ٤٦٩ | ..... الفصل الرابع عشر - قصة جزائري تزوج فلامانية                                     |
|     | ..... الفصل الخامس عشر - ترجمة أمر قدم بالاطالية الى السيد « جان فان بابار            |
|     | ..... الهولاندي حول اغتصاب القنصل الانجليزي للقنصلية الهولاندية (مقتبسات من           |
| ٥٠٤ | ..... سجلات مستشارية قنصلية فرنسا في حلب)   |
|     | ..... الفصل السادس عشر - دعوى محاولة قنصل إنجلترا في حلب خطف القبطان                  |
| ٥١٢ | ..... الفرسي  |
|     | ..... الفصل السابع عشر - أمر من فرنسا في القسطنطينية الى السيد « دارفيو » ضد          |
| ٥٤٧ | ..... « السيد جوليان قنصل حلب »   |
|     | ..... الفصل الثامن عشر - أمر « السيد جيراردان » السفير في القسطنطينية، ضد             |
| ٥٦٧ | ..... فرانسوا جوليان قنصل حلب   |
|     | ..... الفصل التاسع عشر - حكم « السيد موران » حاكم البروفنس لصالح « اليد دارفيو        |
| ٥٧٤ | ..... ضد فرانسوا جوليان » قنصل حلب في ٢٨ أبريل (نيسان) عام ١٦٨٧                       |
|     | ..... الفصل العشرون - قرار مجلس الدولة الملكي الخاص، الذي أكد حكم السيد               |
| ٦٠٨ | ..... « موران ناظر القضاء في البروفنس   |
| ٦١١ | ..... الفصل الحادي والعشرون - قرار المجلس للفرانس دارفيو                              |
| ٦١٣ | ..... الفصل الثاني والعشرون - زواج الفرانس دارفيو، ووفاته                             |
|     | ..... الفهارس الأبجدية  |

## الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين: الرابع والخامس

د. احسان عباس  
الجامعة الامريكية - بيروت

- ١ -

تمثل فلسطين لدى المقدسي - جغرافي القرن الرابع - إحدى كُورِ ستِ يتألف منها الاقليم الشامي كله، وتنحصر في منطقة قصبها الرملية وتضم بيت المقدس وبيت جبريل وغزة وميماس وعسقلان ويافة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمّان. ويدخل معظم ما تبقى من فلسطين بالمفهوم الحديث - أعني شمال الغور حتى طبرية والقسم الشمالي من المنطقة الساحلية - في كورة أخرى بحسب تقسيمات المقدسي هي الأردن. (١) وهذه القسمة تطابق مفهوم «الجند» بمعناه القديم، إلى حدّ كبير (٢)، وعليها جرى الجغرافيون العرب قبل القرن الرابع وبعده (٣) إذ ظلت هذه القسمة تطابق القسمة الادارية مع شيء من التفاوت النسبي. وأوضح تغيير إداري إنما تمّ في عهد الفاطميين، إذ الى جانب بقاء الرملة وطبرية قصبتي لكورتيين متميزتين، فصلت المدن الساحلية التابعة لهاتين الكورتين وأفردت كل مدينة ساحلية بوالٍ يحكمها، ففي زمن العزيز الفاطمي مثلاً (٣٦٥-٣٨٦ / ٩٧٥-٩٩٦) كان بشارة الخادم الأخشيدي والياً على طبرية وما يتبعها (وله نواب في مدن الكورة) وابن الجراح والياً على الرملة وما يتبعها، ورخا (أو رقي أورفا) الصقلي على عكا، ورياح على قيسارية. (٤) ويقول ابن شداد في هذا الصدد: «ولم تزل ثغور الشام يتصرف فيها نواب من يلي الأجناد الشامية... إلى أن مَلَكَ العبيديون الشام فاعتنوا بالثغور، فأفردوها وولوا كل ثغر منها والياً من مصر ورتبوا معه جنداً لحفظه من عدو يقصده». (٥) فأفرداً الساحل إدارياً إنما تمّ لمواجهة الاخطار الخارجية - وخاصة من جهة الروم - ولضمان سرعة التعاون بين الجيش البري والأسطول. وتتضح العناية - منذ بداية الدولة الفاطمية بمصر - بتقوية الاسطول حتى انه بلغ في عهد المعز ستائة قطعة من شواني ومسطحات وحمالات ومراكب نيلية (٦)، وأصبحت عسقلان وعكا وصور من مدن الساحل الشامي مزودة بقطع منه (٧). ويبدو ان اليقظة

الدفاعية كانت على أتمها في القرن الرابع الهجري إذ نرى أكثر مدن الساحل الفلسطيني قد غدت أربطة فيها فتيان مستعدون لمواجهة الأخطار، وكان من أهم تلك الأربطة غزة وميلاس وعسقلان وأزدود وبيننا ويافة وأرسوف، وكانت هذه الرباطات تتناذر بايقاد النار ليلاً أو بالتدخين نهراً في المنائر الشاهقة، إذا شوهدت سفن بيزنطة في البحر. وكثيراً ما كانت هذه الأهبة تتخذ في استقبال السفن المحملة بأسرى المسلمين رغبةً في المفاداة، فإذا تناذر الناس لاستقبالها خرجوا بالسلح والقوة واجتمع «أحداث الرساتيق» (يعني شبان الأرياف) وتم الفداء، فمن كان قادراً على دفع فدية كاملة دفعها، والا جرى التبرع: هذا يدفع درهماً وهذا يدفع خاتماً حتى يفدوا الأسرى كل ثلاثة بمائة دينار. وقد كان في تلك الرباطات أناس مرتبون يعرفون لسان الروم كي يسهلوا التفاهم بين الفريقين.<sup>(٨)</sup> واكبر الظن ان هذا الاجراء كان تطوعاً لا دخل للدولة فيه، وهو يدل على روح عميقة من التضامن الجماعي القائم على البذل والغيرة الدينية، ولا بد أن يكون مثل هذا التنظيم قد استحدث في اوائل العقد الرابع من القرن، بعد فترة من الفوضى يصفها ابن حوقل بتفجع، حين يصور تكالب الروم على سواحل الشام ومصر، يختطفون المراكب ويأسرون، ويجرئهم على ذلك إهمال الحكام وفساد حال العلماء والفقهاء والتجار.<sup>(٩)</sup>

وإذا نحن استثنينا عمّان من جند فلسطين، وصُور من جند الأردن، وجدنا أن ما يستحق اسم «مدينة» في الكورتين اللتين تملان معا «فلسطين» بمفهوما العربي المعاصر، حسب تعداد المقدسي، يشمل ثماني عشرة مدينة، ولكن إذا كانت المدينة هي ما يحوي منبراً، فإن هذا العدد يبدو قليلاً جداً.<sup>(١٠)</sup> ذلك أن أبرز شيء في الناحية العمرانية بفلسطين في القرن الرابع - وربما القرن التالي - هو نمو قرى أصبحت تقارب المدن، وتفوق في حجمها ما يعد مدناً في أقاليم أخرى، ومن تلك القرى النامية: لد وكفر سابا وعافر وبيننا وعمواس وكفر سلام،<sup>(١١)</sup> وكانت هذه القرى الكبيرة ذات منابر أيضاً وتلك حقيقة تمنح الناحية العمرانية بفلسطين بُعداً كبيراً، إذ أن الحاق هذه القرى بالمدن كان - ولا بد - نتيجة التضخم في عدد السكان، وما يترتب على ذلك من حيوية اقتصادية عامة. ولست أعتقد أن هذا التضخم كان على حساب الهجرة من الريف، إذ رغم أننا لا نملك معلومات دقيقة عن وضع الريف الفلسطيني حينئذ، فإن الصورة العامة تفيد أنه كان ما يزال يتمتع بحيوية وازدهار، فلدى المقدسي حديث عام من قرى ورساتيق تحيط بالرملة وتوصف بأنها جليلة نفيسة<sup>(١٢)</sup>، وعن قرى كثيرة ذات كروم وأعناب وتفتح في منطقة الخليل<sup>(١٣)</sup>، وعن مقاطع الرخام في الداروم والضياح «الجليلة» من حوطة<sup>(١٤)</sup>. أما ناصر خسرو الذي زار منطقة



الجليل فقد ذكر أسماء عدة قرى زارها مثل البروة والدامون واعبلين وكفركنة، ولكنه كان معنياً بالمزارات في تلك المنطقة فلم يحدثنا بشيء عما كانت تتمتع به تلك القرى من عمران<sup>(١٥)</sup>، غير انه حين زار منطقة القدس لاحظ أن قرية سلوان ذات عمارات وبساتين كثيرة<sup>(١٦)</sup> ورأى في طريقه الى الخليل قرى كثيرة ذات زرع وحدائق وشجر لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق، كما شاهد على فرسخين من القدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة تسمى الفراديس<sup>(١٧)</sup>

وكانت الرملة - في القرن الرابع - أكبر مدينة في فلسطين، يليه في الكبر بيت المقدسي<sup>(١٨)</sup>، الذي كان عدد سكانه من الرجال ايام ناصر خسرو عشرين الفا<sup>(١٩)</sup>. وكان للرملة سور حصين من حجر وجص ذو ابواب من حديد، وبيوت المدينة من حجارة وطوب، وقد زينت معظم بيوتها بالرخام المزخرف ذي الالوان، ولها مسجد جامع كبير يعرف بالجامع الأبيض ليس لجامع آخر محراب كمحرابه في الكبر ومساحته ثلاثمائة قدم في مائتين، الى جوامع أخرى كثيرة، وتتميز المدينة بكثرة الحمامات والفنادق والشوارع الواسعة والاسواق التي تزرع بمحاصلات المدينة والريف من حولها، وخاصة من التمر والتين الذي رأى منه ناصر خسرو صنفاً ليس أحسن منه في أي مكان، يصدر منها الى جميع البلاد<sup>(٢٠)</sup> وينوه المقدسي بخبزها الحواري ويقول: «ولو كان للرملة ماء جار لما استثنينا انها أطيب بلد في الاسلام، لانها ظريفة خفيفة بين قدس وثغور، وغور وبحور، معتدلة الهواء لذيدة الثمار سرية الاهل»<sup>(٢١)</sup>.

وقد احتفظ لنا مؤلف متأخر بوصف تفصيلي لما كانت عليه حال الرملة عمرانياً، ويبدو ان ذلك الوصف مستمد من مصدر ينتمي إلى أواخر القرن الثالث، فيقول: «وهي مدينة مسورة ولها اثنا عشر باباً \* منها باب القدس وباب عسقلان وباب يافا وباب يازور وباب نابلس، ولها أربعة أسواق متصلة من هذه الأبواب إلى وسطها، وهناك مسجد جامعها، فمن باب يافا يدخل في سوق القماحين... وهي سوق حسنة يباع فيها انواع السلع، ويتصل بباب القدس سوق القطانين الى سوق المشاطين الكبار الى العطارين الى المسجد الجامع، ويتصل سوق الخشابين من باب يازور ثم سوق البزازين ثم السقائين الى المسجد الجامع، ويتصل سوق الخشابين من باب يازور بأخر من اسواقها: سوق الاكافين وسوق الصياقلة وسوق السراجين الى المسجد الجامع»<sup>(٢٢)</sup>. غير ان هذا العمران تأثر بزلزلة حدثت سنة ٤٢٥ وأخرت عمارات كثيرة<sup>(٢٣)</sup>، ثم بزلزلة أخرى عام ٤٦٠ تهدم فيها سور المدينة

وتضعف جامعها عدا ما أصيب من دورها<sup>(٢٤)</sup>، ويقدر عدد من هلك من سكانها بخمس وعشرين ألفاً<sup>(٢٥)</sup>، ويقول المقرئ في وصف أثر ذلك الزلزال: «وخرت الرملة خراباً لم تعمر بعده»<sup>(٢٦)</sup>.

ويستشف من خلال الاعجاب الكثيف الذي غلف به المقدسي مسقط رأسه - أعني بيت المقدس - حقائق موضوعية تشير الى أن المدينة كانت حقاً حسنة المباني نظيفة ذات أسواق جميلة للباعة والصناع، ولكل أهل حرفة سوق خاصة، وتجتمع فيها خيرات متنوعة من حاصلات المناطق المختلفة حولها كالاترح واللوز والرطب والجوز والتين والموز، وانها كانت لكثرة مشاهدتها الدينية مقصد الزوار من شتى البقاع<sup>(٢٧)</sup>. وقد قدر ناصر خسرو من يقصدها من المسلمين ممن لا يستطيعون الحج الى مكة بأكثر من عشرين الف شخص، كما كان يؤمها كثير من النصارى واليهود، ولهذا كثرت فيها الفنادق، كما كان فيها مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، تصرف لمرضاه الأدوية، وبه أطباء يتقاضون مرتباتهم من الأوقاف<sup>(٢٨)</sup>.

وليس في وسعي أن أعرض لذكر المدن الفلسطينية والقرى اللاحقة بالمدن واحدة اثر واحدة، ولكن يمكن القول - بوجه عام - إن عمران البلاد في القرنين الرابع والخامس كان عماده الزراعة: فكان القطن يزرع في منطقة الحولة، كما كان الارز يزرع في بيسان، والنخيل والموز في سائر منطقة الغور، وقصب السكر في كابل حيث كان يستخرج السكر الفائق، ويحضر النيل في أريحا وبيسان، وتنتشر أشجار الزيتون والتين والخروب في كل المناطق، جبلية كانت او سهلية، وتكثر اشجار النارج والترنج حول قيسارية، والكروم في منطقة القدس والخليل وبعض الجهات الشمالية مثل الفرازية<sup>(٢٩)</sup>، والجميز بغزة وعسقلان والرملة وما حولها من الساحل، ولبعض هذه الثمار أنواع مميزة منسوبة مشهورة بنسبتها، فالجميز نوعان، نوع صغير جداً في مقدار البندق رقيق القشر شديد الحلاوة كثير الماء يسمونه «البلمي» ومنه يتخذ لعرق الجميز، ونوع يبلغ حجمه ضعف حجم البلمي وهو اشد حمرة وتوريداً وأشد حلاوة وأقل ماء، وهذا الثاني هو الغالب على جميع منطقة غزة<sup>(٣٠)</sup> والعنب على أنواع منها: العينوني والدوري والعاصمي، والتين منه السباعي والدمشقي والتمري<sup>(٣١)</sup>، والاضافة الى هذه الأنواع ممكنة، لان ما ذكر منها مقصور على ما عرفه المقدسي في منطقة القدس والخليل.

وتمثل هذه الصورة في مجموعها انصرافاً كبيراً الى زراعة الاشجار، بحيث تحجب الاهتمام بزراعة الحبوب - وخاصة القمح - وهي معادلة اختفى أحد طرفيها وأحسبها خاطئة، ولعل المقدسي - وهو المعتمد في وصف الحياة الزراعية - لم يتنبه لها، او عدّها أمراً مأخوذاً

بالتسليم لا يوقف عنده، ولهذا نجدّه يقتصر على ذكر القمح مقترنا بمنطقة البلقاء وقصبتها عمان. (٣٢) وقد تنبه ناصر خسرو الى شيوع زراعة الشعير وقلة القمح في منطقة الخليل، (٣٣) ولكن ليس من السهل ان يقال ان الحال كانت كذلك في جميع ارجاء البلاد. على أن كثرة الفواكه والتين المحفف والزبيب والتمرس المملح والفول المنبوت المقلّي او المصلوق وما اشبه كانت عناصر هامة في التغذية وتقليل الاعتماد نسبياً على الخبز، ولكن من المستبعد أن نقدر بأن البلاد حينئذ كانت تستورد كلّ ما تحتاجه من قمح وذرة ولحوم، رغم سكوت المصادر المتيسرة عن ذكر هذه المواد الهامة.

وفي هذا كله دلالة على أن الحضارة الغالبة كانت ريفية في طابعها، رغم نمو المدن على نحو لافت للنظر، وكانت الفروق القائمة بين المدينة والريف من حيث المظاهر الاجتماعية تتمثل - كما هي الحال في مختلف العصور - في الرّي ، فأهل المدينة - كالقدس مثلاً - يلبسون الأردية، يستوي في ذلك العالم وغير العالم، ولا يلبسون الخفاف في الصيف وانما يستعملون نعال الطاق، وأهل القرى - والكتبة من أهل المدن (ومعظمهم نصارى) - يلبسون الدراريع، ويغلب أن يكون لباس أهل القرى - او القرىتين كما يسميهم المقدسي - برستاق القدس ونابلس كساء واحداً دون سراويل (٣٤)، كذلك كان الفرن في المدينة يقابله الطابون في الضياع (٣٥)، ويبدو الفرق واضحاً أيضاً في تحجب نساء المدن وسفور القرويات. ولما زار الفقيه ابو بكر ابن العربي نابلس أدرجها في عداد القرى، وأثنى على نساؤها ثناء بالغاً لانهن دون سائر نساء القرى الأخرى التي زارها لا يظهرن في الشارع الا يوم الجمعة حين يذهبن للصلاة، قال: «ولقد دخلت نيفا على الف قرية من برية فما رأيت نساء اصون عيالا ولا اعف نساء من نساء نابلس... فاني أقمت فيها أشهراً فما رأيت امرأة في طريق نهاراً الا يوم الجمعة، فانهن يخرجن حتى يمتلئ المسجد منهن، فاذا قضيت الصلاة وانقلبن الى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن الى الجمعة الأخرى...» (٣٦) كذلك كانت المدن نفسها تتفاوت في مكابيلها، فكانت الرملة تستعمل القفيز والويبة والمكوك والكيلجة، كما كان أهل القدس ينفردون باستعمال المدى، وهو ثلثا القفيز، وتميزت عكا بزيادة في الرطل على غيرها من البلدان. (٣٧)

ومن الطبيعي في بيئة زراعية عريقة ان يكتسب الناس خبرات تصبح مع الزمن قواعد ثابتة او متطورة حسب الحاجة (٣٨) فاذا قرأنا أن المزارعين كانوا يلحقون كرومهم كما تلحق النخل بالطلع الذكر قدرنا ان في ذلك اشارة الى تقنية خاصة في تقليم اشجار العنب.

كذلك نسمع بما يسمّى «تخمير الكروم» وذلك ان الناس كانوا يستخرجون من جانب البحر الميت - او من البحر نفسه - مادة يسمونها قفر اليهود (ويدعونها ايضا الحمر) (٣٩) ويحلون تلك المادة في الزيت، فاذا هم قلموا كرومهم عندما تبرز عيون الكرم أخذوا هذا المحلول ثم جاءوا الى كل عين من عيون الكرم وحكوا تحتها بعود في غلظ الخنصر مغموس في القفر المحلول بحيث يرسمون دائرة على ساق الغصن ليمنع الدود من الرقي الى عيون الكرم. فأما القفر المستخرج بالحفر فيسمى أبو طامون (Bitumen) الا أنه أقل جودة من النوع الذي تقذف به البحيرة أيام الشتاء. (٤٠) ويقال ان تلك المادة دعيت «قفر اليهود» او «كفر اليهود» نسبة الى موضع بغور أريحا كان يقال له في القديم «كفر يهوذا». وقد أعان علم النبات (ومن ثم علم العقاقير) على رصد خواص البقول وغيرها من النباتات في التغذية وفي التداوي أو فيهما معا. فكان الناس مثلا يجعلون من العكوب ألواناً مختلفة، فهم يأخذون ثمرته المستديرة ويقلون ويثقلون بها على النبيذ، أو يتناولونها وهي رطبة وينقونها من شوكتها، ثم يسلقونها سلقاً خفيفة، ويهرقون ماءها، يمرغونها في دقيق حواري مع ملح مسحوق وزعفران، ويقلون بزيت الانفاق - وهو زيت الزيتون الفج - مثلما يقلى السمك، ويكثر النصارى من أكلها في أيام صومهم وتحريمهم اللحم، كما كان يأكلها كثير من المسلمين. (٤١) وكان محضرو العقاقير يستخرجون من نوار القندول (وهو شجر شائك ينبت في كثير من أنحاء فلسطين ويزهر نواراً أصفر في آذار) دهناً يقدرّون أن له منافع كثيرة، (٤٢) كما يستحضرون من لب نوى ثمرة تسمى الزقوم تنبت في غور أريحا دهناً آخر (٤٣)، ويأخذون بقلّة تسمى «رحلة الغراب» أو «رجل الزاغ تنبت في جهات أبو ديس» (٤٤) شرقي القدس ويأكلون ورقها في القدس وفي الريف والضياع مسلوفاً بزيت الانفاق والملح لاعتقادهم أن لها نفعاً غذائياً طبياً معاً. (٤٥)

وعلى هذا الاساس الزراعي تقوم اكثر التجارة الداخلية والخارجية، او على صناعات تعتمد - في الاغلب - المنتج الزراعي أيضاً: فكانت السلع هي الفواكه والخضروات والبقول والزيت والزبيب والتمر والارز والقطين وناطف الخروب الذي يسمى «القيبط» والسكر والصابون والنيل وشقاق المطارح والقوط والبز والقز (وخاصة من عسقلان) والحبال والكاغد والحصر (وخاصة من طبرية، وكانت الحصيرة الواحدة تباع بخمسة دنانير مغربية) والسبع (من بيت المقدس) الى صناعات اخرى مثل القناديل والابر والمرايا. (٤٦)

ولعلّ هذا الطابع الريفي هو الذي حفظ للمدينة والريف مستوى متقارباً في المعيشة بحيث لا يكون هناك ثراء فاحش يقابله فقر مدقع. ومع أن ناصر خسرو يذكر أن بالقدس

أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من زيت الزيتون تحفظ في الآبار وتصدر الى أنحاء العالم<sup>(٤٧)</sup> الا أنه يقرب ذلك بكثرة الخيرات ورخص الأسعار جملة. ولذلك لا أرى هذا اليسار الذي يصفه يفترق عما كانت عليه الحال قبل حوالي نصف قرن حين نوه المقدسي بان بيت المقدس فيه «قلة يسار»<sup>(٤٨)</sup> فاذا قرن المقدسي ذلك بذكر العفاف (وهو هنا نقيض الجشع) قدّرنا أن المستوى الأعلى للثراء ظل متواضعاً نسبياً. وحين يحاول تجار البز في الرملة أن يستغلوا ثراءهم فانهم يقتنون لركوبهم حُمراً مصرية مزودة بسروح، فاما الخيل فلم تكن من مراكب الناس الا ان يكون المرء رئيساً او أميراً.<sup>(٤٩)</sup> واذا تذكرنا في هذا السياق خفة الضرائب المحصلة (الا على الفنادق فانها كانت ثقيلة)<sup>(٥٠)</sup> تبين لنا ان حالة من القدرة على توفر الحد الأدنى من الحاجيات كانت ميسرة للغالبية العظمى من الناس، فقد كان أقصى ما حصلته الدولة من جندي فلسطين والاردن في القرن الرابع خمسمائة الف دينار منها مائتا الف تحصل من جند الاردن والباقي من جند فلسطين.<sup>(٥١)</sup> ولكن مثل هذا التقدير يجب ان يؤخذ بحذر لأسباب منها: ان الخراج كان يُعقدُ لمتقبلين، وكان هؤلاء يستخرجون أحياناً لأنفسهم مثل ما يتعهدون بدفعة للدولة، ومنها أن هذا التصور لنوع من الرخاء النسبي لا يصحّ إلا في حال الطمأنينة والأمن وغياب الكوارث الطبيعية، وقد تعرضت البلاد طوال الفترة التي أتحدث عنها لضروب من الصراع بين الفئات المتنازعة مما كان يعطل كثيراً من انتظام الانتاج الزراعي والصناعي والحركة التجارية بعامه، ومنها أننا يجب ألا نتصور الولاة المحليين وأتباعهم دائماً أعفاء مكفوفي الاطماع فذلك ضرب من التصور يخالف الواقع العملي في معظم الاحيان.

ورغم ان تضخم القرى حتى تلحق بالمدن يشير الى زيادة في عدد السكان، كما قدمت القول، فليس لدينا وسائل تمكنا من تقدير تقريبي لاعدادهم (الا في حالة القدس والرملة على نحو تقريبي أيضاً) كما لا نعرف النسبة العددية بين المسلمين والنصارى واليهود والسامرة، او النسبة العددية بين المدن والارياف. والمعلومات القليلة التي لدينا تنبئ ان السامرة لم يكونوا يقطنون في نابلس وحسب، وانما كان منهم نحو خمسمائة في الرملة وعدد آخر في بينا<sup>(٥٢)</sup>، وان النصارى واليهود - في عصر المقدسي - كانوا قد غلبوا على بيت المقدس<sup>(٥٣)</sup>، واغلب الظن ان هذه الغلبة لم تكن عددية وانما تعني السيطرة على مقاليد الأمور، لأن النصارى كانوا قد استولوا على وظائف هامة اذ كان الكتبة في جميع أرجاء البلاد (ما عدا طبرية) كما كان منهم الأطباء<sup>(٥٤)</sup>، فاذا وصفهم المقدسي بالكثرة فتلك الكثرة أيضاً نسبية لانها في أغلب الظن لم تكن تروقه. أما اليهود فكانوا هم المستولون على بعض الصناعات

الحويّة كالصيرفة والصبغة والجهيزة<sup>(٥٥)</sup>. كذلك كانت للنصارى غلبة من نوع آخر وصل أثرها إلى الزيف، فاتسمت بعض شؤون الحياة بطابع نصراني، إذ كانت أعيادهم كالفصح والعنصرة والبربارة هي التي تُقَرَّبُ بها الفصول ومواعيد القطاف والحصاد، وامتزج ذلك الفولكلور الشعبي، إذ كان الناس يقولون في امثالهم: إذا جاء عيد البربارة فليتخذ البناء زمارة (أي ليجلس في بيته) ويقولون: إذا جاء القلندس فتدفاً واحتبس<sup>(٥٦)</sup>، ومن اللافت للنظر أن تظل القدس ومنطقتها حتى مجيء ابن العربي الى فلسطين (٤٨٧/ ١٠٩٤) حاملة لهذه الصبغة، إذ يقول في وصف تلك الحال: «وكانت البلاد لهم يأكرون ضياعها ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها»<sup>(٥٧)</sup>.

أما المسلمون فكانوا - على العموم - أهل جماعة وسنة، يغلب عليهم مذهب الشافعي، وفيهم بعض أتباع المذهب الحنفي والحنبلي، وفي بيت المقدس خلق من الكرامية له خواتق ومجالس، وهم يقرأون في خواتقهم<sup>(٥٨)</sup> وكل أهل طبرية ونصف أهل نابلس كانوا في عهد المقدسي ينتمون الى المذهب الشيعي<sup>(٥٩)</sup> وعندما استولى الفاطميون على معظم البلاد اصبح «أكثر العمل على مذهب الفاطمي»<sup>(٦٠)</sup> «وأكبر الظن ان كلمة «العمل» هنا تعني القضاء واجراء الاحكام، إذ على كثرة الدعاة الذين بثهم الفاطميون - فيما اقدر - لم يستطيعوا كسب الكثيرين الى مذهبهم اول الامر، ولا ريب في ان المذهب الفاطمي قد لقي مقاومة او - على الاقل - تحفظاً شديداً، إذ لست اعتقد أن موقف أبي بكر ابن النابلسي كان فردياً، فقد كان مجاهراً في التحريض على الفاطميين ومن أقواله: لو أن معي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة (يريد الفاطميين) وواحد في الروم». وكان مصرعه يراد به أن يكون درساً قاسياً لمن تحدّثه نفسه بمناوأة السادة الجدد، ولما هرب من الرملة الى دمشق قبض عليه وأرسل إلى مصر في قفص وطيّف به مقيداً على جمل والناس يسبونهم ويشتمونه ثم سلخ وحشي جلده تبناً وصلب (سنة ٣٦٣/ ٩٧٣).<sup>(٦١)</sup>

ومع روح المحافظة على السنة والجماعة سارت بجانب البدع، ولكن الامر تغير بعض الشيء في القرن الخامس بعد إذ تغيرت خريطة التوزع المذهبي، فانتشر المذهب الاسماعيلي وكثر أتباعه وخاصة في منطقة الساحل الفلسطيني، وامتدت مراكز الامامية الى عكا وعسقلان، وأصبح للمعتزلة حلقات تعقد في غير موضع، وأصبح أحبار الملل الأخرى من نصارى ويهود وسامرة يعقدون حلقات للمناظرة.<sup>(٦٢)</sup> في مثل هذا الجوّ ظهرت بعض البدع التي تشير الى الامعان في المحافظة على الجماعة ووحدها ازاء هذه الحرية، من ذلك استحداث صلاة

الغائب في شعبان ابتداء من سنة ١٠٥٦/٤٤٨ وفي رجب ابتداء من سنة ١٠٨٧/٤٨٠. ولندع الطرطوشي يحدثنا عن هذه البدعة فيقول: واخبرني ابو محمد المقدسي قال: لم يكن عندنا ببيت المقدس قط صلاة الرغائب هذه التي تُصَلَّى في رجب وشعبان، وأول ما حدثت في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، قدم علينا في بيت المقدس رجل من نابلس يعرف بابن أبي الحمراء، وكان حسن التلاوة، فقام فصلى في المسجد الاقصى ليلة النصف من شعبان، فأحرم خلفه رجل ثم انضاف اليهما ثالث ورابع، فما ختمها إلا وهم في جماعة كثيرة، ثم جاء في العام القابل فصلى معه خلق كثير، وشاعت في المسجد، وانتشرت الصلاة في المسجد الاقصى وبيوت الناس ومنازلهم، ثم استقرت كأنها سنة الى يومنا هذا، فقلت له: فاني رأيتك تصلبها في جماعة، قال: نعم وأستغفر الله منها. قال «أبو محمد المقدسي\*»: واما صلاة رجب فلم تحدث عندنا في بيت المقدس إلا بعد سنة ثمانين وأربعمائة، وما كنا رأيناها ولا سمعنا بها قبل ذلك». (٦٣) وهنالك بدعة اخرى تطورت على نحو أخطر من السابقة، ولكنها مثلها نشأت - فيما أقدر - بداعي المشاركة الجماعية، والحرص على وحدة الجماعة، وأعني بها قيام أهل قرى القدس وكثير من أهل المدينة نفسها يوم عرفة مستقبلين القبلة، رافعين أصواتهم بالدعاء كأنه موطن عرفة، ولكن ذلك المظهر الجماعي لم يلبث ان تحول الى الاعتقاد بأن من وقف ببيت المقدس أربع وقفات فذلك يعدل حجة ويغني عن أداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام. (٦٤)

## -٢-

في حديث المقدسي عن الوضع الثقافي ببيت المقدس - في عصره - أمور متفاوتة، لا بدّ من تسليط الضوء عليها مجتمعة، فالمدينة حسب قوله قليلة العلماء، ومسجدها قد خلا من الجماعات والمجالس (٦٥) ولكن فيها كل حاذق وطبيب. (٦٦) ثم يذكر في مواضع اخرى جماعات المذكورين في المسجد وأنهم قصاص (٦٧)، وان للقراء مجالس فيه وفي سائر الجوامع (٦٨)، ويتحدث عن فقهاء - بصيغة الجمع - ويشير الى قلة البدعة فيهم (٦٩)، ويقول ان اصحاب أبي حنيفة يعقدون لهم مجلس ذكر في الجامع الاقصى (٧٠) فهل ثمة تناقض بين هذه الاقوال حين تؤخذ معاً؟ يبدو لي أن لا تناقض هنالك، فالصبغة التي رآها المقدسي غالبية على طبيعة الحياة الثقافية في بلده هي الصبغة التبعديّة من تذكير وقصص وذكر وقراءة من أجل الثواب، ولكن المقدسي الجدل الشغوف بالمناظرات افتقد في بلده ما رآه في البلدان

الأخرى من حلقات للمناظرة والدرس والبحث، أما من سماهم «فقهاء» فقد كانوا من ذوي الثقافة الدينية المحافظة التي تنأى بأصحابها عن الخوض في دقائق الأمور. غير أن المقدسي أكد من ناحية أخرى كثرة الحذاق والأطباء، أي أكد جانب الثقافة المهنية، وإذا صحَّ هذا الذي يقوله - وهو يبدو صحيحاً - فإنه يرسم الوجهة الثقافية التي اختارها معظم المثقفين في القدس حينئذ، وهذا يرتبط - إلى جانب رسوخ التراث الطبّي - بمهارة صناعية متميزة، أي يمثل انتصاراً للجانب التقني في حقبة معينة، ذلك لأن قوله «وخلا المسجد من الجماعات والمجالس» دليل على أن تلك المجالس والجماعات كانت موجودة في حقبة سابقة. وهذه الصورة التي يرسمها المقدسي لا تعني وحسب أن قلة العلماء كانت موجودة في حقبة أهل البلد، بل تدل أيضاً على أن زواره من العلماء الغريباء كانوا قد أصبحوا قلة، وهو أمر ربما كانت أسبابه مقترنة بالاضعاع السياسية.

إلا أن حديث المقدسي مقصور على بيت المقدس نفسه، فهو لا يذكر شيئاً عن حال العلم والعلماء، وعن الحياة الثقافية جملة، في سائر المدن الفلسطينية، ونكاد لا نجد مصدراً آخر يكمل ما أهمله فيحدثنا عن الحياة الثقافية في الرملة التي كانت أشدَّ عمراناً من القدس أو في نابلس وغزة، هذا إذا اقتصرنا على ذكر أكبر المدن الفلسطينية حينئذ، ويؤيد العليمي هذه الصورة التي رسمها المقدسي حين لا يذكر من العلماء في القدس إثناء القرن الرابع إلا واحداً من الغريباء هو أحمد بن يحيى البزاز البغدادي (٧١). ويدخل ابن عساكر في تعديلات طفيفة على جوانب من تلك الصورة حين يتحدث عن طلاب الحديث وهم ينتقلون في المدن الفلسطينية، فينزلون بيت المقدس والرملة وطبريا وعسقلان وقيسارية لسماع الحديث فيها، وهذا نفسه يدل على أن تلك المدن لم تكن خلواً من المحدثين (٧٢)، وتتميز نسبة الطبراني بين أولئك المحدثين (٧٣) مما قد يشير إلى ما كانت تتمتع به طبريا على وجه الخصوص من بيئة حديثة، قد تفسر ما حققه الطبراني الكبير سليمان بن أحمد الحافظ (٩٧٠/٣٦٠) من شهرة في هذا المضمار، فالطبراني ولد في طبريا - وقيل في عكا، ومن المقطوع به أن أمه كانت عكاوية، وكان أوّل طلبه للحديث سنة ٢٧٣/٨٨٦ بمدينة طبريا نفسها، وفي السنة التالية رحل إلى القدس، وفي التي تليها إلى قيسارية ثم إلى سائر مدن الشام، حتى أصبح في عصره من أكابر الحفاظ وكتب عشرات المؤلفات (٧٤). ولكن المصير الذي انتهى إليه الطبراني كان نموذجياً، فإنه لم يعد إلى وطنه وسكن أصفهان وتوفي بها. وهذه الظاهرة أعني هجرة العلماء من فلسطين - تكاد تكون على مرّ الزمن، وهي



متصلة بأسباب مختلفة منها قيام الحياة الثقافية- وخاصة الحديث- على الرحلة، وانعدام الحدود الثقافية الفاصلة بين قطر وآخر، وعدم تبلور كيان سياسي في فلسطين يرمى العلم والعلماء، فكانت الكيانات السياسية الواضحة أقدر على استقطاب أهل العلم والأدب. وقد كانت فلسطين- لمكانة بيت المقدس- قادرة على التعويض عن تلك الهجرة باجتذاب كثير من العلماء إليها، وذلك أمر كان يخضع أيضاً للظروف المحلية.

وعلى كل ما يقال عن فقر ثقافي عام في القرن الرابع فان فلسطين- في ذلك القرن نفسه- أنجبت أكبر علمائها في حقل «الحداقة» اذا استعرنا مفهوم المقدسي للبراعة في ميدان التجربة، وهما المقدسي نفسه والتميمي الطيب. وقد افردت لكل من هذين العالمين الجليلين دراسة تفصيلية، ولكن لا بد هنا من كلمة فيهما تتفق والسياق العام لهذا البحث، ففي منتمى كل منهما ما يشير الى عراقة التقاليد التقنية لدى أسرتهما: أما التميمي فقد درس الطب في بيئة نصرانية معروفة بتميزها في تلك الصناعة، وكان أستاذه ببيت المقدس راهباً يدعى الينا زخريا بن ثوابة<sup>(٧٥)</sup>، ولكن يجب الانسى ان جده سعيدا كان أيضاً طبيباً، وكان [الجد] على علاقة وثيقة باليعقوبي المؤرخ وعنه اخذ كثيراً من المعلومات عن أصناف الطيب والبخورات والمستطورات والادهان<sup>(٧٦)</sup>. ومع ان أحمد والد التميمي لم يشتهر في الطب، فانه كان واسطة في نقل كثير من المعلومات العلمية الى ابنه<sup>(٧٧)</sup>. أما المقدسي فكان جده أبو بكر بناء مهندساً، واليه الفضل في القيام بأعمال هندسية هامة في ميناء عكا أيام أحمد بن طولون<sup>(٧٨)</sup>. وقد أضاف الحفيد الى شغفه بمعرفة طبائع الاقاليم اطلاعاً واسعاً على الفقه، واكبر الظن ان والده أحمد كان قد ضرب بسهم في هذا الاتجاه، وفي محاورته لعمه حسن<sup>(٧٩)</sup> ما يشير الى تضلع ذاك العمّ في نواح من الثقافة الاسلامية. وكل من الرجلين- أعني التميمي والمقدسي- قد بنى علمه على الدأب والتطواف والتنقيب، وتلك شركة بين النباتي والجغرافي، ولكن كلا منهما قبل ان يلتم بما في العالم الخارجي من حقائق قد «حرت» وطنه استطلاعاً، فالتميمي النباتي لم يترك بقعة من أرض فلسطين الا وتعرف إليها والى نباتاتها، وحياناً الى طبيعة ارضها، واستغل هذه المعرفة في وصف الأدوية المفردة والمركبة وفي صنعها، والمقدسي الجغرافي فعل مثل ذلك وتوقف عند معظم مظاهر الحياة العمرانية والاقتصادية في وطنه. ومن خلال ذلك كله أحسّ الرجلان بحقيقة الانتماء الى وطن يعرفان الكثير من أسرار وخوافيه، ولم تحجب النقلة بعد ذلك- نقلة التميمي الى مصر ونقله المقدسي الى بلدان المشرق والمغرب- الاعتزاز الضمني او المعلن بذلك الانتماء، فالتميمي

يعرف الكثير عن طريق الثقافة ولكنه اذا تحدث عما يتعلق بفلسطين فهناك الدقة البالغة التي تنقل تعلقه بوطنه ضمناً، والمقدسي لايفتأ يصرح في كل موطن حلة بفضائل وطنه<sup>(٨٠)</sup> على نحو يشعر بالعصبية المعللة التي تضطر الآخرين للتسليم بها، لشدة ايمان صاحبها بما يقول.

هذا المنحنى العلمي الذي يمثله التميمي والمقدسي يستقل بالتفرد، ولكنه يقف وحده في القرن الرابع دون أن يتصافر بقوة مع دراسات دينية أو تمييز أدبي. ولو تساءلنا كيف كان دور فلسطين في الاتجاهات الادبية اثناء القرن الرابع لما استطعنا ان نقدم نماذج تستوقف النظر: قد نذكر كشاجم وابنه ابا نصر الذي كان في خدمة الحسن القرمطي حين دخل الرملة سنة ٩٦٦/٣٥٦<sup>(٨١)</sup> والحسين بن بشر الرملي الشاعر<sup>(٨٢)</sup> وغيرهم (واكثرهم رمليون لما كانت تتمتع الرملة من مركزية رغم تقلب السيادة فيها)، ولكن كل ذلك لا يمنح فلسطين أي تمييز في النواحي الادبية، لا لأن هؤلاء الشعراء لم يكونوا في شعرهم على المستوى الذي حصله بعلمه كل من التميمي، بل لأن صلتهم بفلسطين لاتعدو النسبة البلدانية، ثم هم وراء كل بارق جديد خارج وطنهم.

وتتغير الصورة الثقافية في القرن الخامس تغيراً جذرياً، إذ تعود الثقافة الدينية ممثلة - على الخصوص - في الحديث والفقهاء الى التصدر على يد أبنا البلاد أنفسهم، كما تصبح فلسطين قبلة للمحدثين والفقهاء الوافدين، وتنتعش حلقات الدرس والمناظرة لا في القدس وحسب، بل في معظم المدن الفلسطينية.

وقد كان من أعظم الوافدين أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي الفقيه الحنبلي (١٠٩٣/٤٨٦) اذ انه سكن بيت المقدس ونشر فيه ما حوله مذهب الامام احمد بن حنبل، ولما ورد فلسطين تقاطر الناس من جهاتها المختلفة لزيارته واقتباس علمه، وكان فيمن زاره جد بني قدامة المقدسيين الذين ظهر منهم على مرّ الزمن علماء ملاموقون في المذهب الحنبلي، وقد سأله قدامة ان يدعو له بأن يرزقه الله حفظ القرآن، وكان بنو قدامة من بعد يعتقدون ان الخير فيهم انما كان ببركات ذلك الشيخ<sup>(٨٣)</sup>، ويمكننا ان نتصور أثر أبي الفرج في البيئة الفلسطينية حين نجد ان الحنابلة بفلسطين قد اصبحوا قوة لا يستهان بها وكان لهم دور بارز في الوقوف ضد الاشاعرة وكان من رؤسائهم ابن الرميلي ببيت المقدس والقطرواني بنواحي نابلس، ولكل منهما اتباع كثيرة من العوام<sup>(٨٤)</sup>. ولكن يجب أن نذكر من قبول هذه الشهادة على علاقتها لأن نار العداء بين الأشاعرة والحنابلة (وابن العربي أشعري) كانت متأججة يومئذ.

وقبيل احتلال الفرنجة للقدس ببضع سنوات كانت المدينة تعجّ بالوافدين إليها من المشرق والمغرب، ومن أشهرهم أبو بكر الطرطوشي الاندلسي الذي كان ينزل في موضع يقال له الغوير بين باب أسباط ومحراب زكريا (المهد)<sup>(٨٥)</sup> ومجلى بن جميع الفقيه المصري<sup>(٨٦)</sup>، ومن علماء خرسان: الزوزني والصاغاني وأبو سعيد الزنجاني والقاضي الريحاني ومن الطلبة البسكري وساتكين التركي<sup>(٨٧)</sup>. وقد كان هؤلاء - على تفاوت في مدد إقامتهم - ينتصبون للتدريس ويعقدون المناظرات فيما بينهم وبين علماء من أهل البلاد. وقد سجل ابن العربي مناظرة وقعت بين القاضي الريحاني والصاغاني - حين وفد الثاني على مجلس الأول في زي راع بعد أن سلبه الشطار ما معه - حول مسألة الكافر إذا التجأ الى الحرم: هل يقتل فيه اولاً<sup>(٨٨)</sup>، كما سجل طرفاً من مناظرة أخرى بين الزوزني الحنفي وعطاء المقدسي الشافعي حول مسألة قتل المسلم بالكافر<sup>(٨٩)</sup> وحول هذه المسألة الثانية يقول ابن العربي «وجرت في ذلك مناظرة عظيمة حصلنا منها فوائد جمة اثبتناها في نزهة الناظر<sup>(٩٠)</sup>.

أما العلماء من أهل ألبلد فكان في طليعتهم نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي أبو الفتح العالم الزاهد (١٠٩٦/٤٩٠) فبعد ان طلب نصر العلم على علماء بلده وغيرهم عاد الى بيت المقدس ومكث ينشر العالم فيه عدة سنين حتى تخرج على يديه عدد كبير من التلامذة من أهل البلاد يسميهم ابن العربي «أصحابنا النصرانية»<sup>(٩١)</sup> ثم غادر القدس وقضى فيها بقية حياته متقشفاً متجنباً الولاية قانعاً باليسير من غلة أرض له كانت بنابلس<sup>(٩٢)</sup>. ولما ارتحل عن القدس خلف على تخرج الطلبة أحد كبار تلامذته وهو القاضي الرشيد يحيى بن مفرح المقدسي<sup>(٩٣)</sup>، وكا من علماء الشافعية الى جانب القاضي الرشيد: فقيهان آخران هما عطاء المقدسي<sup>(٩٤)</sup> ومكي بن عبد السلام ابو القاسم ابن الرميلى الحافظ (٤٣١-٤٩٢) وهذا الأخير طلب الحديث في بلده على عدة علماء<sup>(٩٥)</sup> ودخل عسقلان ومصر وبغداد ومدنا كثيرة في المشرق، وعاد إلى بلده وتصدر لتدريس الحديث واجابة الفتاوى التي كانت ترده من مصر ودمشق والساحل، ولما دخل الفرنج بيت المقدس أسروه، وحين عرفوا أنه من العلماء نودي عليه ليفتدى بالف مئقال فلم يوجد من يدفع عنه ذلك المبلغ، فقتلوه مثلما قتلوا كثيراً من العلماء يعزّون على الحصر<sup>(٩٦)</sup>.

وقد ترافقت هذه الحيوية العالمية مع مظهرين آخرين اولهما ظهور المدارس وخاصة في بيت المقدس، ويتحدث ابن العربي عن دخوله الى «مدارس» الحنفية والشافعية<sup>(٩٧)</sup>. ويميز منها مدرستين: مدرسة لشافعية بباب الأسباط<sup>(٩٨)</sup> ومدرسة ابي عقبة الحنفية بازاء

كنيسة القيامة<sup>(٩٩)</sup>، والثاني انتشار حلقات الدرس والمناظرة لا بين المذاهب السنية، او بين هؤلاء وبين الكرامية والمعتزلة والمشبهة وحسب، بل بين أهل الملل جميعاً، وقد عدّ ابن العربي في القدس حين دخلها ثمانين وعشرين حلقة<sup>(١٠٠)</sup>، وخبرنا أنه أنه حضر يوماً مجلساً عظيماً في الطوائف، وتكلم التستري وهو حبر يهودي لقن ذكي عن نبوة موسى فقال:

اتفقنا على ان موسى نبي مؤيد بالمعجزات، معلم بالكلمات، فمن ادعى ان غيره نبي فعليه الدليل..... فتصدى له الطرطوشي قائلاً: ان اردت بموسى الذي ايد بالمعجزات وعلم بالكلمات وبشّر بأحمد فقد اتفقنا عليه معكم وآمنا به وصدّقناه، وان اردت به موسى آخر فلا نعلم ما هو، فهبت التستري وانفض المجلس<sup>(١٠١)</sup>.

إن إقامة ابن العربي في القدس لا لشيء إلا للدرس المتواصل مدة ثلاث سنوات لدليل على تنوع في العطاء العلمي، وقد أقرّ هو نفسه ان التركيز كان يدور حول ثلاثة علوم: علم الكلام واصول الفقه ومسائل الخلاف<sup>(١٠٢)</sup>. وان القدس بحكم توسطها بين المشرق والمغرب كانت تجمع في التعليم بين الطريقتين: القيروانية والعراقية، اما الاولى فتقوم على التنظير والتمثيل، وأما الثانية فتقوم على طلب الدليل<sup>(١٠٣)</sup>، لكن ابن العربي لم يقتصر على طلب العلم في القدس وانما أتيح له ان يزور مدناً فلسطينية أخرى فأقام بنابلس اشهرًا، وذهب الى عسقلان ساحلاً فمكث فيها ستة أشهر، ووجد فيها حسب قوله: «بحر أدبٍ يعبُّ عبابه»<sup>(١٠٤)</sup> وقد مشى في تلك المدينة ذات يوم الى محرس باب غزة، وهناك لقي القاضي حامداً المعتزلي الحنفي الذي كان قد تعرف اليه في القدس، ووجد الشيعة والقدرية وأهل السنة يتوافدون الى لقائه والاخذ عنه «على طريقتهم في قصد الواردين المتحلين بالعالم والمنتسبين اليه»<sup>(١٠٥)</sup>. ويذكر الفقيه الاندلسي ان منطقة الساحل كانت مملوءة بالنحل الملحدية والمذاهب الباطنية والامامية وانه طوف في تلك المدن نحواً من خمسة أشهر الا ان حطّ رحاله في عكا، ورأس الامامية فيها يومئذ أبو الفتح العكبي وبها من اهل السنة شيخ يقال له الفلقية الديبقي<sup>(١٠٦)</sup>، وقد توثقت الصلة بينه وبين رأس الامامية، بعد مناظرات كثيرة جرت بينهما تمخضت عن احترام متبادل، مما حدا برأس الاسماعيلية في عكا الى ان يطلب الاجتماع به، ويصور ابن العربي - على نحو درامي - كيف ذهب الى محرس الطبرانيين بعكا وقابل ذلك الرئيس في مسجد في قصر على البحر، وكيف استبد به الخوف حتى لم يعد يرجو الخروج سالماً، وعمد في محاورته للاسماعيلي الى نوع من الحجّة المسكتة بعد مقدمة قائمة على المدارة وكيف فرّ بنفسه حافياً، ثم سلّم اليه حداؤه<sup>(١٠٧)</sup>، قال: «ولولا

مكاننا من رفعة الدولة (١٠٨) ملك الشام، وان والي عكا كان يُحْكَمنا لأننا جلبنا اليه كتابه (أي كتاب رفعة الدولة) بان يبلغ في برنا، وينتهي الى الغاية في مكارمتنا ما خلصت منهم في العادة أباً (١٠٩). وفيما كان ابن العربي يهيم بمغادرة عكا الى طبرية عرض له أمير من امراء الشيعة بعكا ذو ميل الى الاعتزال يريد مناظرته، فتخلص منه بشيء من المداورة، وأعجل ذلك الامير عن الاسترسال حضور الاجناد والعسكرية وتأهب القافلة للانطلاق الى طبرية. ولا ينسى ابن العربي ان يذكر كيف أوصى الاميرُ صاحبَ القافلة به خيراً، وهو على الجملة منصف حين يقول في خصومة هؤلاء: «وفي القوم بشهادة الله وان خالفونا في العقيدة برّ في اللقاء وحلاوة في المنطق واحتمال كثير» (١١٠).

وما لبثت هذه الحيوية العلمية ان خمدت تحت ضربات الحروب المسماة بالحروب الصليبية، ولعلّ مما يصوّر فداحة الفاجعة ما قاله ابن العربي نفسه في المصير الذي انتهت اليه الحياة الثقافية في فلسطين - والشام جملة - قال: «ولو شاهدتم الشام والعراق في عشر تسعين واربعمائة لرأيتم ديناً ظاهراً وعلماً وافرأ وأمنأ متمسقاً وشمالاً منتظماً لا تكمن عبارة عنه لبهرة حاله، وزهرة كما له، فهبت عليه من المقادير حرجف من شمائل وجنائب، فتركتن الشام كأمس الذهب، ومحت كلمة الاسلام عن المسجد الاقصى، وقتل فيه في غداة الجمعة لاثنتي عشرة بقيت لشعبان سنة اثنتين وتسعين واربعمائة وثلاثة آلاف ما بين عابد وعالم ذكر وانثى، ومعتكف من مشهور الحالة ومذكور بالديانة، وفيها قتلت العاملة الشيرازية بقبة السلسلة في جملة النساء» (١١١).

## مصادر البحث

- ١ - المقدسي المعروف بالبشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ط. بريل ١٩٠٦): ١٥٤-١٥٥.
- ٢ - قارن باليعقوبي: مختصر كتاب البلدان (لیدن ١٨٩٢): ٣٢٨-٣٢٩ وابن حوقل: صورة الأرض (دار الحياة - بيروت): ١٥٧ وما بعدها.
- ٣ - قارن بابن شداد: الاعلاق الخطيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، تحقيق سامي الدهان (دمشق ١٩٦٢) ١٢٣، ١٨١.
- ٤ - ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (بيروت: ١٩٠٨) ٣٩ والمقريري: اتعاظ الحنفا، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٦٧) ٢٥٥، ١.
- ٥ - الاعلاق الخطيرة: ٩٣.
- ٦ - المقريري: المواعظ والاعتبار (ط. بولاق) ٣٧٨:٢.
- ٧ - القلقشندي: صبح الاعشى (ط. القاهرة) ٥١٩:٣.
- ٨ - المقدسي: ١٧٧.
- ٩ - ابن حوقل: ١٨٥-١٨٦.
- ١٠ - يقول ابن حوقل: ١٥٩ وبفلسطين (أي جند فلسطين) نحو عشرين منيراً على صغر موقعها، ولا احيط باجمعها، وهذا يعني انه يعدّ المنابر في المدن والقرى الكبيرة، وقوله «ولا احيط باجمعها» احتراز ضروري.
- ١١ - المقدسي: ١٥٥، ١٧٦.
- ١٢ - المقدسي: ١٦٤.
- ١٣ - المقدسي: ١٧٢.
- ١٤ - المقدسي: ١٧٤، ومن الضروري أن نلاحظ أن المقدسي يخلط بين مدلولي قرية ومدينة لانه يسمي داجون مدينة (١٦٤).
- ١٥ - ناصر خسرو: سفرنامه (ط. القاهرة ١٩٤٥): ١٦-١٨.
- ١٦ - سفرنامه: ٢١.
- ١٧ - سفرنامه: ٣٢-٣٣.
- ١٨ - ابن حوقل: ١٥٨.
- ١٩ - سفرنامه: ٢٠.
- ٢٠ - سفرنامه: ١٩ وانظر ايضا المقدسي: ١٦٤.
- ٢١ - المقدسي: ٣٦.
- ٢٢ - ابن عبد النعم الحميري: الروض المعطار، تحقيق الدكتور احسان عباس (بيروت ١٩٧٥): (مادة: الرملة) ويبدو ان العلمي اطلع على هذا النص عن طريق الروض المعطار او غيره انظر: الانس الجليل (ط. الأردن ١٩٧٣) ٦٨:٢ والنص مضطرب في المصدرين، ويتطلب تدقيقاً. وراجع المقدسي: ١٦٤-١٦٥ حيث يعد ثمانية من الدروب، يتطابق بعضها مع الابواب المذكورة.
- ٢٣ - سفرنامه: ١٩.
- ٢٤ - ابن القلانسي: ٩٤.
- ٢٥ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ (ط. بيروت ١٩٦٥) ١٠، ٥٧.

- ٢٦- اتعاط الحنفا ٢: ٢٧٧
- ٢٧- المقدسي: ١٦٦
- ٢٨- سفرنامه: ٢٠-٢١
- ٢٩- المقدسي: ١٦٠، ١٦٢، ١٨٠، ١٧٥، وسفرنامه: ١٨
- ٣٠- ابن البيطار: الجامع لمفردات الادوية والاعذية (بولاق: ١٢٩١) ١: ١٦٧
- ٣١- المقدسي: ١٨١
- ٣٢- المقدسي: ١٧٥، وقد اضاف المقدسي في حديثه عن الجوانب الاقتصادية في ديار الشام ان معادن القمح ايضا حوران والبشنة: ١٦٠
- ٣٣- سفرنامه: ٣٥
- ٣٤- المقدسي: ١٨٣
- ٣٥- المصدر السابق نفسه.
- ٣٦- ابن العربي، احكام القرآن، تحقيق علي محمد البحايوي (القاهرة، ١٩٥٧): ١٥٢٣
- ٣٧- المقدسي: ١٨١-١٨٢
- ٣٨- ابن حوقل: ١٦٩
- ٣٩- عند ابن حوقل (١٦٩) ان البحيرة الميتة تقذف بالحمرية، وانظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩): ٧٩ «الحمرة»، واليعقوبي: ٣٢٩، واللفظة جاءت بالخاء المنقوطة عند ابن البيطار.
- ٤٠- ابن البيطار ٤: ٢٧، وانظر حديث ناصر خسرو عن هذا القفر (ص: ١٧) وسيستمر الحديث عنه عند الرحالين من عرب واجانب.
- ٤١- ابن البيطار ٣: ١٢٩
- ٤٢- ابن البيطار ٢: ١٠٩
- ٤٣- ابن البيطار ٢: ١٠٩
- ٤٤- وردت في ابن البيطار: ابو ريس، وهو خطأ.
- ٤٥- ابن البيطار ٢: ١٣٦
- ٤٦- انظر المقدسي ١٧٤، ١٨١، وسفرنامه: ١٧-١٨
- ٤٧- سفرنامه: ٢٠
- ٤٨- المقدسي: ١٦٧
- ٤٩- المقدسي: ١٨٣
- ٥٠- المقدسي: ١٨٩
- ٥١- ابن حوقل: ١٥٩، وقارن بما عند اليعقوبي حيث تكون الأرقام اعلى، وعند المقدسي: ١٨٩ حيث ما يحصل من فلسطين بلغ ٢٥٩.٠٠٠ دينار ومن الأردن ١٧٠.٠٠٠ دينار، وانظر كتاب الخراج لقدامة (المطبوع مع ابن خرداذبة): ٢٤٧
- ٥٢- ابن حوقل: ١٥٩ واليعقوبي: ٣٢٩، ويذكر المقدسي: ١٧٩ ان السامرة في إقليم الشام يسكنون من فلسطين الى طبرية ولكن هذا غامض.
- ٥٣- المقدسي: ١٦٧

- ٥٤- المقدسي: ١٨٣
- ٥٥- المصدر نفسه.
- ٥٦- المقدسي: ١٨٢-١٨٣
- ٥٧- ابن العربي: آراء ابي بكر ابن العربي الكلامية (العواصم من القواصم) تحقيق الدكتور عمار الطالبي (الجزائر: ١٩٧٤) ط: ٨١
- ٥٨- المقدسي: ١٧٩
- ٥٩- المصدر نفسه.
- ٦٠- المقدسي: ١٨٠
- ٦١- أبو بكر ابن النابلسي هو محمد بن احمد بن سهل الشهيد، انظر ترجمته في ترتيب المدارك للقاضي عياض تحقيق الدكتور محمد بنشريفة (ط. المغرب) ٢٨٤:٥ والوادي للصفدي ٤٤:٢ والنجوم الزاهرة ٤:١٠٦ واتعاظ الخنفا ١: ١٢٠ (وقد افردت له ترجمة مستقلة).
- ٦٢- العواصم من القواصم ٢: ٤٢، ٦١
- ٦٣- ابو بكر الطرطوشي: الحوادث والبدع، تحقيق الدكتور محمد الطالبي ١٢١-١٢٢.
- ٦٤- المصدر السابق ١١٦-١١٧
- ٦٥- المقدسي: ١٦٧
- ٦٦- المقدسي: ١٦٦
- ٦٧- المقدسي: ١٨٢
- ٦٨- المصدر نفسه.
- ٦٩- المقدسي: ١٨٣
- ٧٠- المقدسي: ١٨٢
- ٧١- الانس الجليل ١: ٢٩٧
- ٧٢- تهذيب ابن عساكر ١: ٤٥٢، ٢: ١٥٦، ١٥٧، ٢٩٢
- ٧٣- تهذيب ابن عساكر ٤: ٢٣٦، ٧: ٥١
- ٧٤- في ترجمة الطبراني، أنظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور احسان عباس (ط. بيروت ١٩٦٩) ط: ٤٠٧ وتهذيب ابن عساكر ٦: ٢٤٠ والنجوم الزاهرة ٤: ٥٩، والذهبي: تذكرة الحفاظ (ط. حيدر آباد الدكن): ٩١٢
- ٧٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الانباء في طبقات الاطباء (مصر: ١٨٨٢) ٢: ٨٧
- ٧٦- يبدو هذا واضحاً في كتابه: «جيب العروس وريحان النفوس» وقد استمد منه كثيراً النويري في نهاية الارب (ط. دار الكتب المصرية) ١: ١٢ وما بعدها.
- ٧٧- انظر المصدر السابق: ١٦ حيث يقول التميمي «حدثني ابي عن ابيه عن احمد بن ابي يعقوب (اي اليعقوبي) وكذلك يكرر هذا السند في مواطن اخرى.
- ٧٨- المقدسي: ١٦٣



- ٧٩- المقدسي: ١٥٩
- ٨٠- انظر مثلاً على ذلك في احسن التقاسيم: ١٦٦
- ٨١- تهذيب ابن عساكر ٤: ١٥١ وأنظر أيضاً تاريخ أخبار القرامطة تحقيق الدكتور سهيل زكار (بيروت ١٩٧١): ١١١-١١٠
- ٨٢- الثعالبي: تنمة اليتيمة، تحقيق عباس اقبال (طهران: ١٣٥٣) ١: ٣٣
- ٨٣- ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق حامد الفقي (القاهرة ١٩٥٢) ١: ٧١، وأنظر الانس الجليل ١: ٢٩٧
- ٨٤- العواصم من القواصم ٢: ٢٨٤، وقد يكون ابن الرميلى هو مكى بن عبد السلام الذي سيأتي الحديث عنه فيما يلي، لكنه كان محدثاً شافعيّاً، وهذا يعني ان المشبهة لم يكونوا من الحنابلة وحسب، بل ربما كان مع الحنابلة أيضاً بعض «المحدثين» من مذاهب اخرى.
- ٨٥- ابن العربي: قانون التأويل مخطوطة سليم آغا باسكودار رقم: ٤٩٩ والقسم الخاص برحلة ابن العربي منشور في مجلة الأبحاث (الجامعة الاميركية- بيروت ١٩٦٨) ٥٩-٩١، وأنظر بخاصة ص: ٨٠
- ٨٦- الأبحاث: ٨٠ ولجلي ترجمة في ابن خلكان ٤: ١٥٤ وفي الحاشية ذكر لمصار اخرى.
- ٨٧- الأبحاث: ٨٢ والعواصم من القواصم صم ٢: ٣٥.
- ٨٨- الابحاث: ٨٢-٨٣ واحكام القرآن: ١٠٧، وقد شارك فيها الفقيه مجلي بن جميع أيضاً.
- ٨٩- الأبحاث: ٨٣، واحكام القرآن: ٦١
- ٩٠- احكام القرآن: ٦٢
- ٩١- العواصم من القواصم ٢: ٧١
- ٩٢- السبكي: طبقات الشافعية (طبعة الحسينية) ٤: ٣٢٤ والابحاث: ٨٥.
- ٩٣- الابحاث: ٨٠ والسبكي ٤: ٣٢٤ (دون ذكر لاية معلومات) والعواصم ٢: ٤٩٩
- ٩٤- الابحاث: ٨١
- ٩٥- السبكي: ٤: ٢٠ وقد ذكر منهم: محمد بن يحيى بن سلوان المازني وابا عثمان بن ورقاء وعبد العزيز بن احمد النصيبي، واما استاذة بعسقلان فهو: احمد بن الحسين الشماع
- ٩٦- السبكي ٤: ٢٠، وانظر أيضاً عبر الذهبي ٣: ٣٣٤ في ترجمة ابن الرميلى.
- ٩٧- الابحاث:
- ٩٨- الابحاث: ٨١ والعواصم من القواصم ٢: ٤٩٩
- ٩٩- الابحاث: ٨٣ والعواصم من القواصم ٢: ٦١
- ١٠٠- العواصم من القواصم ٢: ٦١
- ١٠١- الابحاث: ٨١-٨٢
- ١٠٢- الابحاث: ٨٢
- ١٠٣- الابحاث: ٨٢

- ١٠٤- الأبحاث : ٨٤
- ١٠٥- العواصم من القواصم ٢:٤٢-٤٣
- ١٠٦- العواصم من القواصم ٢:٦١
- ١٠٧- العواصم من القواصم: ٦٤-٧١
- ١٠٨- لم اجد في ولاة الشام شخصا بهذا اللقب في الفترة التي يتحدث عنها ابن العربي.
- ١٠٩- العواصم من القواصم ٢:٧٠
- ١١٠- المصدر السابق: ٧٣
- ١١١- العواصم من القواصم ٢:٤٩٨-٤٩٩

## غزة في نقوش جنوب جزيرة العرب

محمود علي الغول/جامعة اليرموك

كانت غزة زمنا طويلا قبل الاسلام سوقا لتجار جزيرة العرب الوافدين اليها للتجارة مع بلدان الشام ومع مصر على حد سواء، يشهد على ذلك في فترة ما قبيل الاسلام، أن هاشما ابن عبد مناف، الجد الأعلى لرسول الله ﷺ، مات فيها في حدود منتصف القرن السادس الميلادي وأن عمر بن الخطاب كان يعمل فيها بالتجارة في مطلع القرن السابع الميلادي، وكان يعمل فيها مبرطشاً يكتري للناس الابل والحمير ويأخذ على ذلك جعلاً على تفسير اللفظة في تاج العروس أو مبرطسا بالسین أيضاً وهو الساعي بين البائع والمشتري شبه الدال على رواية ابن الأثير في النهاية.

ولفظه مبرطش أو مبرطس في حد ذاتها شاهد على علاقته بغزة فاللفظة مأخوذة من اليونانية TTPaTNS معناها بائع أو دلال ومن مادتها نجد في اليونانية TTPaTLóv وهي الجعل أو العمولة على البيع أو الدلالة. والأخبار مستفيضة عن غزة من الصحابة ممن كان يتاجر في غزة قبل الاسلام أو يزورها زيارات متكررة كعمر بن العاص وأبي سفيان بن حرب وغيرهم.

أما اذا رجعنا الى نقوش جنوب جزيرة العرب قبل الاسلام فاننا نجد غزة تذكر في النقوش المعينية منها في معرضين. وقبل الدخول في ما يتعلق بغزة في هذه النقوش أود أن انبه على أشياء معينة تتعلق بالمعنيين أصحاب تلك النقوش.

كانت لمعين دولة في جنوب جزيرة العرب امتد وجودها من فترة قد تصل الى آخر القرن الخامس قبل الميلاد حتى نهاية القرن الثاني أو بداية القرن الأول قبل الميلاد. وكانت بلاد معين في شمال شرق اليمن الحالية في منطقة الجوف اليوم. وكان للمعنيين عدد من المدن أو الأهرج - جمع هجر بلغتهم - منها مدينتهم الكبرى كمناهو - خربة معين اليوم، ويشيل - خربة براقش اليوم - ونشان ونشق وغيرها، وخرائبها كلها ما تزال معروفة. وكان المعينيون يكادون يحتكرون تجارة جنوب جزيرة العرب مع البلاد الشمالية في تحطين للتجارة البرية

يفترقان عند نجران فيسير أحدهما الى الشمال حتى يمر بمستوطنتهم أو جالياتهم التجارية في ديدان (خريبة العلا على سكة حديد الحجاز يفترق بهم الطريق بعد ذلك أما جنوبا الى مصر واما شمالا الى سوريا، ويمضي الطريق الثاني من نجران الى شرق الجزيرة العربية حتى ينتهي الى جرها- وهي مدينة كانت فرضة عظمى على سيف شرق الجزيرة اختفت آثارها اليوم ولعلها كانت على ساحل الأحساء قرب قطر.

وكان للمعنيين في مختلف مدنهم ومواطنهم، بل وفي قوافلهم وحلهم وترحالهم، صفة خاصة هي أنهم كانوا يعتبرون دوما شعبا واحدا وينتسبون دوما الى «شعبهم» معين، فكأن استعمال شعب في هذه الصيغة كان دلالة على رابطة «نسب قبلي» واحد منه ينبع الولاء القبلي السياسي الواحد.

وسنرى لجميع هذه الخصائص والمزايا التي اوردناها على المعنيين صدى في علاقاتهم مع غزة.

قلت نجد غزّة تذكر في نقوش غزّة في معرضين. والمعرض الأول هو كونها سوقا للتجارة. فقد ورد في نقش RES 2771 أن اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلا من أهل جبان، وهم من أعظم بيوت معين في التجارة وفي المقام، اذ ينعتهم النقش بأنهم أهل مودة ملكي اليفع ريام وابنه هوفعت- وفوا لعثار الاله بناء أحد أبراج المدينة وتحملوا النفقات من ضرائب وتكاليف التزامها كبير هذه الجماعة من التجار، وكان ذلك كله بعد أن رحل الى مصر وغزة وآشور وسلم.

ويدل طول النقش وما فيه من تعدد النذور التي وفوها والالتزامات والديون التي سددها، وما فيه من ذكر للثناء والتكريم اللذين اسبغهما عليهم ملك معين ومجلس دولة معين، على أن تلك الرحلة كانت عملية تجارية كبرى. وهذا يذكر بعير قريش التي كانت ألف بعير وفيها جل أموال قريش وكان يقودها ابو سفيان حين أراد المسلمون أن يتعرضوا لها فأقلت بها أبو سفيان ونجحت ولكن قريشا كانت نفرت حين استنفرها رسول أبو سفيان فلما بلغها أن لا حاجة بهم الى التعرض الى محمد وأهل يثرب أبوا وقالوا: لندعن محمدا وصبأته لا يعودون الى التعرض لاموالنا وتجارنا بعدها (البلاذري، أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٩١)، فصار هؤلاء اصحاب النفير وجرى بعدها مثلهم فيمن لا يسد ثغرة ولا ينفع قومه بأنه لا في العير ولا في النفير.

أما المعرض الثاني الذي يرد فيه لغزة ذكر تسعا وعشرين مرة فهو سياق يحتاج توضيحا وذلك لما في تفسير عبارته وتأويل مدلولها من خلاف وتباين وجهات نظر.

عثر هاليفي ثم جلازر على نقش متسلسل أو، بعبارة أخرى لعلها ادق، على سلسلة متصلة من نقوش متشابهة الصيغة الأساسية في خربة معين، موقع عاصمة المعينيين القديمة. فالصيغة تبدأ عادة بذكر اسم شخص يتلوه اسم أبيه ثم اسم أسرته ثم اسم عشيرته من بين أهل معين، ويتلو ذلك في نيف وسبعين حالة فعلاّن هما «سكرب وخسر» الا في حالة واحدة ورد فيها الفعل «خسر» وحده، ثم يتلو ذلك اسم انثى ويتلو ذلك اسم مكان يقال أنها منه. أي أن الصيغة تجري هكذا:

أ - (شخص من معين) سكرب وخسر ب - (فلانة) من ج - (بلد أو مكان).

وقد لاحظ الدارسون أن الأماكن أو البلدان المذكورة يغلب أن تكون من بلدان واقعة شمال معين القديمة، الا في حالات قليلة مفردة فيها ذكر اناث من قتيان، مرتين، وأوسان وحضرموت مرة واحدة في كل حالة، وهذه مواقع أو بلدان في جنوب الجزيرة العربية القديمة ليست شمال معين. وغلبة أسماء المواقع الشمالية تعني أن هؤلاء الاناث جئن أو جيء بهن من الديار التي كانت قوافل المعينيين تمر بها أو تقف فيها أو تنتهي إليها. وقد ورد ذكر غزة تسعا وعشرين مرة، وديدان، وهي العلا اليوم شمالي المدينة المنورة وكانت فيها مستوطنة معينة، تسع مرات ومصر ثماني مرات ويثرب مرة واحدة، الى جانب مواضع أخرى لا حاجة لذكرها الآن.

وقد ذهب الباحثون الأوربيون<sup>(1)</sup> الى اعتبار هذه الصيغة عبارة هبة تدل على ان صاحب النقش وهب الى الاله الأنثى أو جاء هو بها من البلد المذكور بعد اسمها وفسروا هذه الهبة بأنها هبة خادمت للمعابد أو بعبارة أخرى أوفى وأدق خادمت يكن بغايا في المعبد تعود أجور بغائهن الى المعبد أو سدنته. واستشهدوا على امكان ذلك بما كان معروفا في الحضارات القديمة من مثل هؤلاء البغايا الملحقات بالمعابد.

وفسروا الفعل «سكرب»، - وهو على صيغة سفعل المعينية المقابلة للسبعية هفعل وللعربية أفعل-، بأنه يعني وهب، وفسر بعضهم الفعل خسر بمعنى عوض أو دفع قيمة (الأنثى للمعبد أو الاله)، وفسره غيره بأنه بمعنى أوقف أو خصص (الانثى للاله).

وفي هذا التفسير وهذا التأويل اشكالان. أولهما أنه ليس في السلسلة كلها ذكر اطلاقا للاله أو معبد أو أي شيء له صلة بذلك

وثانيهما أن القول بأن هؤلاء النسوة كن يوهبن ليصرن خادمت وبغايا معبد يبدو متعارضا مع خمس حالات يذكر فيها صاحب كل نقش أن المرأة هي زوجة، ويزيد ثلاث منها أنها زوجة الحرة. وهذه هي:

- ١ - جلازر ١٢٥٣ = ٩٧٣  
سلم بن شكر ذو بدر ذو أهل يلقظ «سكرب وخسر» زوجه تودد من حضرموت.
- ٢ - جلازر ١٢٥٤  
حوهم بن وهبل ذو قلقل ذو أهل جبان «سكرب وخسر» زوجه ملكة من غزة.
- ٣ - جلازر ١٢٧٨ = ٩٤٣  
حيو (حيي) بن أويس ذو حزمن ذو أهل نسور «سكرب وخسر» زوجه مسقى حرة لحيان.
- ٤ - جلازر ٩٧٤  
مرد (مراد) بن .... ذو فأمان ذو أهل عليئل «سكرب وخسر» زوجه غني (غناء) من تيماء الديدانية حرة من ديدان.
- ٥ - جلازر ١٠١٨  
... بن جسمعل ذو ... ذو أهل حطط «سكرب وخسر» زوجه سبحان بنت... بنت تد حرة من...

ومن الصعب أن يتصور الانسان كيف يهب الانسان ذو النسب والحسب- كما هو حال هؤلاء المعينين التجار- من كانت زوجته ومن كانت حرة- ولو كانت غريبة من بلد بعيد- لتكون خادما لاله وبغيا في معبده.

ثم لقد فات أولئك الباحثين دلالة الاصرار على ذكر بلد الأنثى في كل حالة فليس منهن واحدة من معين، أي أنهن جميعا غريبات ولا بد أن ذكر البلد الذي جاءت منه المرأة، في هذه الصيغة الشديدة الایجاز الرتيبة، كان عنصراً أساسياً في الصيغة.

انني أرى أن هذه النقوش هي اشهادات على أن صاحب كل نقش قد فعل شيئاً استوجبه كون المرأة غير معينة، سواء أكانت زوجته الحرة أو غير الحرة أم كانت غير زوجة له.

لقد نهبت من قبل ان المعينين في سائر مدنهم وفي حلهم وترحالهم كانوا يستعملون صيغة «شعبهم معين» حين ينتسبون، مما يدل على أن الانتساب الى معين كان أساسا لوضعهم الاجتماعي والسياسي ضمن الكيان المعيني، وهم في حالهم هذه كاليهود الذين

يعتبرون أنفسهم شعبا واحدا متميزا عن غيرهم ولا بد لهم أن يحافظوا على انتسابهم اليه. واليهود يجعلون اثبات نسبهم في شعبهم عن طريق نسب الامهات، اذ اليهودي عندهم هو من ولدته يهودية، ذلك ان نسب الأمهات لا تدخله الريبة. ولكن قد يتزوج اليهودي غير يهودية، وعليه عندئذ أن يهودها، وهذا التهويد له أصول وشعائر معينة مؤداها أن تخرج المرأة عن «اميتها» وتدخل في «الشعب» اليهودي.

ويبدو أن الحال في معين كان شيئا من هذا، فاذا جاءت الى معين امرأة غربية، زوجة لمعيني أو أمة ملك يمين أو أيماً قد ينكحها أو يستولدها معيني كان لا بد من اجراء يجعلها معينة، وتصير معين شعبها ويكون اولادها معينين.

والتأويل الذي أقترحه لهذه النقوش هو أنها تشهد بأن صاحب كل نقش فعل ما هو ضروري كي تصبح المرأة الغربية عن معين لها حكم المرأة المعينية.

وييسر هذا التأويل أن الفعلين «سكرب وخسر» يؤديان معنى يؤيد هذا لاقول فالفعل سكرب هو سفعل من كرب وتقابل صيغته هفعل في السبئية وأفعل في العربية كما سبق ان قلنا. وفي المعينية أيضاً فعل كترب (على صيغة افتعل العربية) يرد في سياق يجعل معناه «التزم، سدّد (شيئاً) عن التزام سابق» وهو معنى ليس بعيدا عن معنى كرب العربية بمعنى شد وقيد. وعلى هذا يكون معنى «سكرب» - اذا كان متعديا مفعوله المرأة المذكورة بعده - وثق وألصق المرأة أي الحقها (بشعب معين). أو التزم بالمرأة وسدّد التزامه عنها - ان كانت الاشارة الى تعهد منه بضمائها وكفالتها أو اشارة الى دفع عوض عنها.

أما فعل خسر فلعله بصيغة خسرّ ويكون معناه ازال الخسران أي النقص - عن المرأة بأن أزال عنها كيان الغربية فصار لها كيان المعينية، أو بصيغة خسر المجردة بمعنى خسر عن المرأة أو خسر لأجلها أي بمعنى غرم عنها أو دفع الغرامة أو الفدية عنها، أو أي غرم يكون شرطا لادخال المرأة الغربية في شعب معين، وهذا المعنى في خسر ما يزال شائعا في عامية اليمن حيث خسر معناها دفع، وخسرّ معناها دفع تعويضا، وخسارة معناها مهر المرأة. وما نزال نحن نصف النفقات والرسوم بالخاسر.

وهذا الرأي في تفسير «سكرب وخسر» في هذه الصيغة رأي سبق لي أن عرضته في بحث قدمته الى ندوة دراسات الجزيرة العربية التي عقدت في كميريدج صيف ١٩٧٠ ولقي استحساناً وقبولاً من ذوي الاطلاع على نقوش جنوب جزيرة العرب ولكنه لم ينشر.

فاذا صح هذا الرأي صار من الواضح أن غزة كانت لها علاقات اجتماعية وثيقة مع معين يبدو أنه لم يكن يجارها علاقة مماثلة ببلد آخر خارج معين كما يشهد على ذلك كثرة المرات التي يرد فيها ذكر نساء من غزة في هذه السلسلة من النقوش.

هل كانت تلك النسوة الغزيات حرائر أو اماء؟ رأينا حالة واحدة كانت فيها امرأة غزية زوجا لصاحب النقش. فماذا كان شأن الباقيات؟ ليس في أي من نقوش هذه السلسلة ما يشعر بأن النساء كن اماء وان كان في نقش واحد منها اسم أو لفظ لافت النظر. ففي نقش جلازر ١٤٢٣ = ٩٦٣ نقرأ أن أسلم بن أوسان ذو ساجف ذو أهل عهد «سكرب وخسر» «زنية» من ديدان. وكلمة «زنيب» كما تكتب بناء كاملة في النقش، يمكن أن تقرأ زانية، ولذا فهل اللفظة هنا علم أم اسم ذات. ولا شك انها علم بدلالة أنه لم تلحقها الميم (التي تقابل نون التنوين في العربية) لامتناع تميم العلم المؤنث. أما لماذا سميت المسكينة زنية أو شيئا من هذا القبيل فأمره متروك الى علم دراسة الاسماء واستقامتها.

والكثرة الملحوظة في عدد النساء اللواتي من غزة تجعلنا نتساءل هل كانت غزة سوقا كبيرا للرقيق بحيث كان يسهل اقتناء الاماء أم أن هؤلاء النسوة كن غزيات ببلديات حرائر ون أهل معين كانوا يرغبون فيهن رغبة خاصة.

يلاحظ في اسماء النساء اللواتي من غزة أنها، ما عدا اسمين، اما تحمل أبنية الصرف العربية أو تشابه تركيب أسماء معروفة في نقوش الجزيرة العربية القديمة. فنحن نلاحظ:

١ - إسماء تنتهي ببناء التانيث بعد ثلاثة أحرف أو بعد حرفين ثانيهما لا بد كان مضعفاً. وهذه الاسماء هي:

بيليت، بشمت بَشامة)، سجلت (سجيلة؟) ملكت (ملكة، مليكة). نجهت (ناجحة = ناجية؟ أو نجية = وجية؟) ودت (ودة) حنت (حنة).

٢ - اسمان ينتهيان بياء بعد ثلاثة أحرف (على صيغة فعلي = فعلى المقصورة بالعربية) وهما: حمتي = حمتي وتعلي = تعلى (أو لعلها على وزن مضارع فعل من علا للغائبة المفردة.

٣ - اسم ينتهي بواو بعد ثلاثة أحرف (على صيغة فعلاو = فعلاء الممدودة في العربية) وهذا الاسم هو خمتو = خمتاء.



٤ - أسماء مركبة تركيباً إضافياً (أو اسنادياً؟ أو مزجياً؟) تبدأ بكلمة أب (بمعنى زهرة أو نورة) يتلوها شيء آخر. وهذه الأسماء هي: أب خيل، أب هل، أب رحم، أب بع، أب عدن.

ولهذه الأسماء نظائر في أسماء الأعلام المؤنثة في نقوش جنوب جزيرة العرب القديمة منها: أب علي، أب رضو، أب ودد، أب يتع.

٥ - اسمان ليس فيهما علامة تأنيث ولا تركيب يدل على تأنيث ومن هذا النوع: أمي، ولعلها تصغير لأمة (على غير قياس نعرفه) وطب ولعلها طيب (بمعنى العطر).

٦ - وهناك، كما نهت سابقاً، اسمان صيغة كل منهما لا تستقيم مع أبنية العربية أو اللغات السامية الأخرى هما «سلمبو» و «أمزأت». ولعل سلمبو مركبة من سلم (= سلم أو سلام) و بو (ولعلها ترخيم اسم اله لعله بعل أو ترخيم علم آخر، ولعلها أيضاً من اليونانية بمعنى روزنة؟

أما أمزأت فلعلها أم زأت على الكنية ولكن يصعب تصور معنى لكلمة زأت إلا أن تعتبر مقلوقة عن زأف، ومع ذلك فمعاني زأف غير مستحبة.

ولعل اسمي سلمبو ومزأت من صيغة فلسطينية قديمة ولكن ليس بين يدي من المراجع ما ييسر لي التحقق من ذلك.

أردت أن أتبين من تحليل أسماء النساء الغزيات هل كان هؤلاء النسوة من أصول غزية محلية (لعلها حتى في ذلك الزمن البعيد عربية) لما قد يكون لذلك من دلالة على طبقتهم الاجتماعية وثر ذلك على أن يتخذهن المعينون المتشددون في أنسابهم أزواجاً أو أمهات أولاد أو على أن يهبوهن المعابد ليكن خادماً وبغايا- ان كان هناك من يريد أن يتمسك بذلك التفسير بعد ما قلناه فيه. وفي رأيي أن «عروبة» تلك الأسماء ان صح التعبير- دليل على انساب محلية وعلى أصول عربية.

ويمكن أن ننظر الى النقوش التي فيها ذكر النساء اللواتي من غزة على ضوء عشيرة كل من الأشخاص الذين قاموا بالالتزام عنهن أو بهن. وقد تبين من تدقيق ذلك أن الشخص كان في ست عشرة مرة من أهل جبآن، وهم اعلى عشائر معين مكانة وشهرة. وإذا أدركنا أن الأشخاص الذين من أهل جبآن يرد لهم ذكر في هذه السلسلة من النقوش ثلاثين مرة من مجموع ثمانين ونيف وأن ست عشرة مرة من هذه المرات الثلاثين تتعلق بنساء من غزة

تبين أن تفضيل أهل جبّان للنساء الغزريات كان أوضح. وإذا امكن استنتاج شيء من ذلك فإني أرى ان ذلك يدل على مكانة النساء الغزريات أعلى من غيرهن، أو أنهن كن آثر عند أهل جبّان من غيرهن. وينبغي ان لا ننسى أن أحد أهل جبّان نعت امرأة من غزة أنها زوجه.

وأرى لذلك استبعاد أن تكون هؤلاء النسوة اماء، أما الفرق بين وصف بعضهن بأنها زوج صاحب النقش أو أنها حرة ثم السكوت عن ذلك في النقوش الأخرى فقد يرجع الى أن الالتزام او الافتداء جرى قبل ان يقع الزواج أو النكاح، ولذا لم يكن هناك موضع للذكر أنها زوج للرجل. وإذا امكن القياس مرة أخرى على ما هو معمول به عند اليهود فمن الممكن القول ان الأهل هو أن يقع الالتزام والافتداء قبل الزواج لا بعده.

## ملحق

أريد في هذا المعرض أن أوضح شيئاً يتعلق ببيت حسان بن ثابت الذي ورد في هجائه  
لبنى الحرث بن كعب وهو:

ميامس غزة ورماح غاب      خفاف لا تقوم بها إيدان

وقد فسرت المعاجم ميامس على أنها جمع مومسة، ولكن ورد في طبعة ديوان حسان بن ثابت  
بعناية الدكتور وليد عرفات نقلاً عن مخطوطات المتحف البريطاني والمكتبة الوطنية في باريس  
وأحمد الثالث رقم ٢٦١٣ أن «الميمس واحد الميامس وهو الذي يسخر منه وليس هو المومسة،  
والمومسة الفاجرة وجمعها موامس» وورد نقلاً عن مخطوطة أحمد الثالث رقم ٢٥٣٤ أن «الميس  
الذي يسخر منه».

وهذا قول حق ويسرني أنه يؤيد شيئاً قلته من زمن بعيد وهو أن ميامس جمع لفظة مأخوذة  
من كلمة UIUOS اليونانية التي اصل معناها المقلد أو المشخص، وهي كلمة انحدرت في أواخر  
الدولة الرومانية والبيزنطية الى معنى مهرج أو مضحك يستعمل الأصباغ والزينات المختلفة في  
تهريجه، ويبدو أن غزة كان فيها على عهد حسان بن ثابت جماعة من هؤلاء المهرجين المتخلفين  
الذين يسخر منهم.

وكلمة مومسة على الاغلب منقولة عن ميمس التي ربما تحرفت الى مومس ثم أنثت بالتاء.  
وقد كان هناك نساء مضحكات مهرجات الى جانب الرجال وكن يعرفن بنفس الاسم على  
صيغة التأنيث. وقد استطاعت واحدة منهن، هي ثيودورا، أن تتزوج الامبراطور جوستينيان  
وتصير امبراطورة للدولة البيزنطية ويكون لها أثر كبير في أمور الدولة والكنيسة.

وبهذا المعنى لكلمة ميامس ومومس ومومسة يجب أن نفهم قول ابن أبي بردة بن أبي موسى  
الاشعري عندما شفى غليل سليمان بن عبد الملك من شتم الحجاج بعد أن لم يعجب سليمان  
ما نعت به الشاميون الحجاج حين قالوا أنه «كان عبدا زبابا قنورا ابن قنور لا نسب له في  
العرب» فقال له ابن أبي بردة يا أمير المؤمنين. أخبرك عن عدو الله بعلم. قال هات. قال كان  
عدو الله يتزين تزين المومسة ويصعد على المنبر فيتكلم بكلام الأحميار واذا نزل عمل عمل

الفراعنة وأكذب في حديثه من الدجال». فقال سليمان لرجاء بن حيوة: هذا وأبيك الشتم لا ما تأتي به هذه السفلة

وواضح أن الحجاج لا يمكن أن ينعت عن علم بأنه كان يتزين تزين القحاب والفواجر، وإنما الإشارة الى زينة مبالغ فيها مستهجنة يفعلها رجال ونساء هم المهرجون والمهرجات وبذلك نعت ابن أبي بردة الحجاج.

اذن لم تكن غزة مكانا يتمثل بفواجره وقحابه وإنما التمثل كان بمهرجية ومشخصية ومحترفي التمثيل في تلك الحقبة المتأخرة من تاريخ المسرح اليوناني الروماني.

# السمات العربية للمواقع الفلسطينية المهودة

د. كمال عبد الفتاح

جامعة بيرزيت

## مقدمة

يعرض في هذا المقال جزءاً من بحث طويل بوشر فيه في جامعة بيرزيت عام ١٩٧٩، ويهدف الى توثيق القرى والمواقع الفلسطينية، يشارك فيه بالإضافة الى كاتب المقال العديد من اساتذة الجامعة وطلابها. ويهدف البحث بصورة رئيسية الى توثيق تام وواف لكل الاماكن الفلسطينية من مدن وقرى وأماكن اخرى ذات اهمية جغرافية وتاريخية كالمظاهر التضاريسية والأنهار والينابيع والاماكن الاثرية كالحفريات ومقامات الأنبياء ومزارات الأولياء. وسيشمل هذا التوثيق جمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والسكانية والاجتماعية بالإضافة الى جمع الصور القديمة وتصوير هذه الاماكن أو بقاياها بحيث تعطينا صورة صادقة لفلسطين أرضاً ومجتمعاً كما كانت قبل استفحال الآثار التدميرية للغزوة الاستعمارية الصهيونية في عام ١٩٤٨ وبعده.

وسأعالج في هذه الورقة الجانب المتعلق بالمسميات «أي أسماء الأماكن» شاملاً بذلك المسميات ذات الدلالة العامة كتسمية القطر «فلسطين» وأسماء الاقاليم الفلسطينية وأسماء الظواهر الطبيعية «الجبال والودية والأنهار...» والبشرية «المدن والقرى...».

## مسميات المواقع الفلسطينية: كثافة هذه المسميات، الاصول اللغوية للتسميات

تبلغ مساحة فلسطين ٢٧٧.٠٠٠ كم<sup>٢</sup>، منها ٢٦٦.٣٣٠ كم<sup>٢</sup> يابسة والباقي مساحات مائية (بحيرة طبرية والبحر الميت). وهي مساحة صغيرة اذا ما قورنت بالاقطار الاخرى في الشرق غير ان التضاريس وكثرة المظاهر الطبيعية من جبال وأودية وتلال ونباتات في فلسطين بالإضافة الى كثافة الاعمار والاستيطان البشري فيها منذ آلاف السنين (٨٠٠٠ ق.م)<sup>(١)</sup> حتى العصر الحديث، جعل من فلسطين بلداً غنياً بالمواقع المسماة (أي التي لها مسميات خاصة). ان المسميات تطلق في فلسطين ليس فقط على الظواهر الكبرى. (جبل مثلاً او

قرية) انما على الظواهر الصغرى كينبوع صغير- عين بردله<sup>(١)</sup> أو عين نينه<sup>(٢)</sup> مثلا- أو مغارة عراق الحمام<sup>(٤)</sup> عراق المردوم<sup>(٥)</sup>- حتى ان قطع الأراضي لها اسماؤها الخاصة بكل منها.. ونستطيع هنا ان نقول انه ليس هناك من قطعة أرض في فلسطين الوسطى والشمالية الا ولها اسم لدى أبناء الوطن، والمثال التالي لقرية أبوديس (الى الشرق من القدس والواقعة على خطي ١٧٦ طول، ١٣٠ عرض، على شبكة الاحداثيات الفلسطينية<sup>(٦)</sup>) يعطينا نموذجا لمسميات الأراضي التابعة لهذه القرية.

وعر ابو مغيري، أو الخيار، الخلاليل، الصدارات المغيري، القلعة، سطح الغزال، عرقوب المداح، باطن الحور، الركبة، العقبة، قناة ابو الحسين، أبو الفيصل، راس الشقيقات، باطن بشارة، الحذب، أو الرجوم، العوج، عرقوب الخيل، راس أبو ديس، ظهر زريق، ظهر الزغابنة، منازل علي، ظهر القراريط، خربة أبو الصوانه، قناني العطار، المسكوبة، العرضه، شعب شومان، واد الزيتون، جبل جورة القطعة، أم ريان، الخبيبة، واد ابو الصوان، ظهر شميس، مزور، سدة مزور، الصوابه، الوشاشيح، الزراعة، عرقوب الجمال، قسعة، أم الزرايزر، الصوانه، أبو المساكين، خلة عبده، أم عبيه، واد أبو هنيدي.. أي ان هناك مسميات ل ٤٨ موقعا في مساحة لا تزيد على ٢٨٣ كم<sup>٢</sup>.

ومثال آخر لقرية قلنديا (شمال القدس والواقعة على خطي ١٦٩ طول، و ١٤٠ عرض<sup>(٧)</sup>) على شبكة الاحداثيات الفلسطينية) وأسماء المواقع في أراضي هذه القرية هي:  
بقيع الطويل، وعرة البلوطة، وقف الجامع، مشة شاهين، قطعة الخروف، وعرة ضنه، كرم طشع، جورة الدويمر، الحرايق، ارزبه، باطن العهد، الكرم الشامي، مداس وعراق الشامي، وقف الشيخة مباركة، وعرة البيار، كرم ابو غنايم، كرم عبد اللطيف، الوعر، الجذر، الخلة، وعر القليع، ظهر الحمار، عوارس القبالا، الجوره، كرم مخلوق، كرم الشرقي، واد أبو غزاله، البيضاء، كروم واد العرايس، المراس، خلة البيت، شعب القروات، الرقبة، القطعة الشامية، خلة البيت، واد حمزه، خلة سليمان.... أي أنه يوجد في أراضي هذه القرية مسميات ل ٣٧ موقعا في مساحة ٣٩٠ كم<sup>٢</sup>.....

نرى من المثالين السابقين ان كثافة المسميات في الأراضي الفلسطينية كبيرة وتصل الى ٢ و ٩ في الكيلومتر المربع وتقل هذه الكثافة بالطبع في المناطق الصحراوية الجنوبية.

وهناك مثال أشمل يرينا مدى غنى فلسطين بمسميات المواقع، هذا المثال هو الخارطة رقم

«١» من المسح الأثري الشامل لفلسطين الذي تقوم به دائرة الآثار الاسرائيلية<sup>(٨)</sup>. ففي هذه الحارطة التي تشمل منطقة ساحل عتليت (ساحل الكرمل جنوب حيفا) والتي تبلغ مساحة اليابسة فيها ٥٦ كم<sup>٢</sup> يوجد حوالي ١٤٠ موقعا أثريا أي بواقع ٢٥٥ موقعا أثريا في الكيلومتر المربع- هذا دون احتساب مواقع الامكنة الأخرى غير الأثرية مثل الحبال والتلال والأودية والقرى....

من كل ما تقدم نستطيع ان نقول بان فلسطين التي كان بها قبل عام ١٩٤٨ أكثر من ٨٢٦ قرية عربية تحتوي على مسميات بها على الاقلا ٣٠-٤٠ ألف مسمى جغرافي- وهذا رقم متحفظ جدا.

ان هذه المسميات، مثلها مثل كل مسميات بلاد الشام، هي بالطبع نتاج تراث حضاري انساني طويل وحصيلة تراكم أسماء من عصور تاريخية متعاقبة<sup>(٩)</sup>، القسم الاكبر منها أسماء عربية الأصل والاشتقاق وأمثلة ذلك:

- نهر المقطع، نهر العوجا ونهر الزرقاء.. وادي الجاموس<sup>(١٠)</sup>..
- جبل الطور<sup>(١١)</sup> جبل الكبير<sup>(١٢)</sup>، تل الفول<sup>(٧)</sup>، تل الذعب<sup>(١٣)</sup>، تل الشيخ رضوان<sup>(١٤)</sup>
- قرية أم الفحم<sup>(١٥)</sup>، الطيبة<sup>(١٦)</sup>، المالكية<sup>(١٧)</sup>، المفتخرة<sup>(١٨)</sup>، الراس<sup>(١٩)</sup>، بني نعيم<sup>(٢٠)</sup>

وتزداد نسبة الاسماء العربية الاصل والاشتقاق في مسميات المواقع الجغرافية الاصغر كاسماء الينابيع<sup>(٢٢)</sup> ومزارات الاولياء<sup>(٢٣)</sup> وأسماء قطع الاراضي الزراعية او المعاور.

وبالاضافة الى الاسماء العربية هناك اسماء من أصول كنعانية<sup>(٢٤)</sup> وآرامية<sup>(٢٥)</sup> ويونانية<sup>(٢٦)</sup> ورومانية<sup>(٢٧)</sup> ولكن كل هذه الاسماء عربت واستعملت منذ قرون طويلة من قبل ابناء فلسطين العرب للدلالة على مسميات وطنهم.

وبالرغم من ان الصليبيين غيروا « بصورة مؤقتة » المسميات الوطنية للعديد من المواقع في فلسطين<sup>(٢٨)</sup> وعلى سبيل المثال لا الحصر: كان يطلق على جنين اسم le Grand Garin وعلى زرعين le Petit Garin وعلى اللد St. George de lidde وعلى بيت جبرين Bethgibelin

فان المسميات الوطنية العربية للمواقع الفلسطينية ظلت في الاستعمال ولم تستطع التسميات الصليبية الدخيلة الصمود أمامها.

## أهمية فلسطين الدينية والتاريخية وأثر ذلك في غنى الكتابات عنها:

حظيت فلسطين بأهمية خاصة بالنسبة للمسلمين ولقد كتب عنها أو عن بعض اقسامها الكثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب المسلمين<sup>(٢٩)</sup> في الفترة بين القرن الثالث والثاني عشر الهجري (التاسع والثامن عشر الميلادي). ومن اشهر هؤلاء: البلاذري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي والانطاكي والادريسي وابن جبير والعماد الاصفهاني وياقوت والمرادي والعمدي وأبو الفدا والقلقشندي والناقلي وأوليا جلبي.

ولقد ورد في مؤلفات الجغرافيين والرحالة والمؤرخين العرب الكثير من اسماء الاماكن الفلسطينية من جبال أو انهار أو قرى...

ان قدسية فلسطين لدى المسيحيين قد جعلها تحظى باهتمام الشعوب المسيحية وخاصة الأوروبية.. هذا الاهتمام الذي كان يتمثل بالزيارات والحج إليها أو بتتبع الكتابات والوصاف والدراسات التي تكتب عنها.. وفي أدب الرحلات الأوروبية، حتى منذ العصور الوسطى، هناك بعض الكتابات عن فلسطين. هناك مثلا وصف رحلات كل من:

Arculf في عام ٧٠٠م<sup>(٣٠)</sup> و Bernard عام ٨٦٧<sup>(٣١)</sup> و Saewolf عام ١١٠٢-١١٠٣<sup>(٣٢)</sup> و Benjamin of Tudela بين عام ١١٦٠-١١٧٣<sup>(٣٣)</sup> Sir John Mandeville بين عامي ١٣٢٢-١٣٥٦<sup>(٣٤)</sup>

لقد كان جل اهتمام هؤلاء الرحالة هو وصف شعائر الحج في البلاد المقدسة ووصف البلاد المقدسة احيانا، الا ان الدوافع الدينية لدى هؤلاء كانت تدفعهم الى محاولة التعرف على المسميات القديمة<sup>(٣٥)</sup> التي تعود الى العهد القديم ليترسما خطى الانبياء، كان بعض هؤلاء الرحالة الأوروبيين يستعملون التسميات العربية احيانا ولكنهم كانوا غالبا يخطئون في تدوينها.

## علماء الدراسات التورانية والتنقيب الاثري في فلسطين وأثر ذلك على المسميات الفلسطينية

ابتداء من القرن الثامن عشر قدم العديد من الرحالة الأوروبيين من جنسيات مختلفة<sup>(٣٦)</sup> الى فلسطين وجابوا ربوعها وكتبوا عنها ورسموا خرائط تقريبية في كتبهم.. وكان غالبية هؤلاء من المهتمين بالدراسات التورانية الانجيلية. ولقد أثر عامل الهوس الديني في ان هؤلاء لم يكونوا



يجب ان يروا في هذه البلاد الآثار المواقع القديمة التي استعملوا لها التسميات القديمة والتي لم تكن في الاستعمال الفعلي أبدا منذ ما يزيد على ألف وسبعماية عام على الأقل قبل قدمومهم. واستمرت الدراسات الانجيلية التورانية وأعطيت اعمال التنقيب الآثاري بعد ذلك أهمية بالغة. وكان هذا سيكون معقولا لو انحصر في اعمال الدراسات الآثارية او التاريخية.. ولكن الغربيين تجاوزوا كل حدود المعقول والمألوف والمتعارف عليه في صنع الاطالس والخرائط فاستعملوا لفلسطين المسميات التاريخية للدلالة على المواقع والامكنة المعاصرة.. وهكذا استعملت اسم Judea للدلالة على جبال القدس والخليل واطلق اسم Samaria على جبال منطقة نابلس، وأصبح مرج بن عامر يعرف باسم Esdraelon واستعيض عن اسم الخليل ب Hebron ولقد بلغ الهوس بهؤلاء حداً يشعر المرء معه، وهو يقراء كتاباتهم، انهم يجبون ان تكون الحياة قد توقفت في هذه البلاد خلال الالفى سنة الماضية.

وكان لهذا الاتجاه الخاطيء في استعمال المسميات القديمة للمواقع الفلسطينية اثره على اعطاء الرأي العام الغربي أفكار خاطئة عن الاوضاع العمرانية في فلسطين.. وكان ذلك ممهدا للعطف على الصهيونية وتأييدها، وساعد فيما بعد في تدعيم الهجمة الصهيونية ضد المسميات العربية للمواقع الفلسطينية.

ولقد وقعت في هذا الاتجاه الخاطيء مؤسسات علمية محترمة مثل الموسوعة البريطانية Enc. Britannica فرغم انها تلتزم في مقدمة اطلسها باستعمال المسميات المحلية في خرائط الاقطار المختلفة<sup>(٣٧)</sup>، فانها تخرج عن هذه القاعدة فيما يتعلق بفلسطين وتستعمل عنوانا للخرائط في صفحة ١٢٢ Yerushalayim-Dimashq وتستعمل مصطلحات Samaria and Judea للدلالة على جبال نابلس والقدس والخليل.

ولقد كان من أثر ذلك ايضا- وبسبب قلة الدراسات العربية عن جغرافية فلسطين- ان وقع بعض المؤلفين العرب في مثل هذا الخطأ..

ففي امالي جغرافية آسيا العربية للدكتور أديب باغ على طلاب قسم الجغرافيا بجامعة دمشق لعام ١٩٦٣ نراه يسوق العبارة التالية في معرض كلامه عن جيولوجية فلسطين «على ان هذه الطية الكبيرة تشمل بعض الفجوات الثانوية كجوف صحراء اليهودية فوق البحر الميت وسنام حبرون الذي يتوقف عند بيت لحم»

وفي كتاب جغرافية الأردن للدكتور صلاح الدين البحيري / مطبعة الشروق، عمان ١٩٧٣. تجد في صفحة ٣٤ «وأصبحت الينابيع المنبثقة بصحراء يهودا Judean Desert

كعيون القلط واليوك والفارعة..» وفي صفحة ٤٠ « في القرب يختفي شريط تلل Shefela الذي رأيناه من قبل يواكب اقدام مرتفعات...» والمقصود هنا بصحراء يهوذا بوية القدس والخليل او البرية كما هو مصطلح عند أهالي المنطقة.  
كما ان Shefela تعني التلال او تلل بيت جبرين رأس العين.

## الهجمة الصهيونية على فلسطين وأثر ذلك على المسميات العربية

وفي ظل هذه الظروف حدثت الغزوة الصهيونية لفلسطين التي كانت منذ البداية متعددة الجوانب فاستهدفت ازاحة الشعب الفلسطيني بإفناؤه او تهجيروه، واستهدفت المواقع الفلسطينية كالمدن والقرى وقامت بتدميرها. فقد تم تدمير ٣٩٥ قرية بين عام ١٩٤٨ - ١٩٥٠. وكانت الهجمة الصهيونية تستهدف ايضا المسميات الوطنية للمواقع الفلسطينية.

ان تغيير المسميات العربية للمواقع الفلسطينية وتهويدها يتم بصور منظمة ودقيقة والهدف النهائي هو الغاء كل المسميات العربية للمواقع الفلسطينية ويتم ذلك بالغاء المسميات العربية للمواقع الفلسطينية واستبدالها باسمااء عبرية او ذات مظهر عبري.

## الهيئة المشرفة على تهويد المسميات

ان عملية التهويد هذه تتم عن طريق «سلطة تسمية الاماكن الاسرائيلية» وهي الهيئة الوحيدة المنوط بها هذا العمل.

كانت هذه الهيئة جزءا من الوكالة اليهودية قبل عام ١٩٤٨ وأصبحت هيئة مستقلة بعد عام ١٩٤٨ مرتبطة بمكتب رئيس الوزراء وتابعة له مباشرة.. ويشترك في اعمال السكرتارية والادارة لها موظفون تابعون لمكتب رئيس الوزراء.. اما الاعضاء الفنيون في الهيئة فهم من اساتذة الجامعات المتخصصين في مواضيع كالآثار والتاريخ والجغرافيا وصناعة الخرائط من الجامعات المختلفة، وهناك بعض المستشارين من جامعات امريكية واوروبية مختلفة.

تجتمع هذه الهيئة بصورة دورية وتتخذ قراراتها التي يتم اعلانها في الجريدة الرسمية الاسرائيلية.. حيث يعلن عن مكان الموقع الدقيق على شبكة الاحداثيات الفلسطينية وتفسير لسبب التسمية. ومن ثم ادخال التسميات الجديدة في الاستعمال الرسمي وفي الخرائط والاطالس وغير ذلك من النواحي الادارية المختلفة.

## فلسفة هيئة تهويد المسميات العربية

- هناك فلسفة عامة لهيئة اسماء الاماكن المذكورة وهو محاولة التخلص من المسميات العربية واستبدالها باسماء عبرية او ذات طابع عبري وتكون فئات الاسماء:
- اسماء توراتية ونسبتها قليلة عموما مثل استعمال سهل يزريعل بدلا من مرج ابن عامر
  - بيت شان بدلا من بيسان، بيت شعاريم القائمة على اراضي قرية الشيخ يريك العربية المدمرة في الطرف الغربي لمرج ابن عامر.
  - بيت شيمش القائمة على اراضي قرية دير ابان العربية المدمرة.
  - اسماء اعطيت تخليدا للذين اسهموا في تدعيم الحركة الصهيونية والاستعمار الصهيوني، افرادا او مؤسسات.
  - بنيامين: مستعمرة اقيمت على اسم البارون ادموند (بنيامين) روتشلد.
  - جفعات لمادة على اسم زوجة البارون ادموند دي روتشليد، وقد اقيمت على اراضي قرى قنير والسنديانة وقيسارية العربية.
  - بلفوريا وقد اقيمت على اراضي قرية الفولة العربية (مرج ابن عامر) على اسم اللورد بلفور.
  - هرتسليا اقيمت على اسم ثيودور هرتزل- في اراضي قرية حرم سيدنا علي وجليل العربيتين.
  - رامات هاشوفيت المقامة على اسم قاضي المحكمة العليا الاميريكي الصهيوني لوسي برنديس في اراضي قرية الريحانية العربية (في بلاد الروحة جنوب شرق جبل الكرم).
  - بيني زيون على اسم The American Zionest Fraternal Organization
  - هناك اسماء تعكس حب التسلط والقوة مثل:
  - نحال عوز المقامة الى الشرق من غزة في اراضي غزة.
  - نير عوز المقامة الى الشرق من خانينونس في اراضي بني سهيلة.
  - جفعات عوز المقامة في اراضي قرية سالم الى الشمال الغربي من جنين او الاسماء التي تبدأ بكلمة مشمار = حارس او تيرات = حصن ، مجدال = قلعة.
  - مثل مشمار هاعيمق- المقامة على ارض قرية الغبية العربية في مرج ابن عامر.
  - او مجدال هاعيمق- المقامة على ارض قرية المجيدل العربية الواقعة غربي الناصرة والمشرفة على مرج ابن عامر.

- او تيرت تسفي- المقامة على ارض قرية الزراعة العربية في جنوب غور بيسان.
- هناك اسماء هي مترجمة او تحوير للمسميات العربية ( المهم هو عدم ابقاء الاسم العربي بشكله ونطقه العربي).
- ناتسيرت عيليت- المقامة على اراضي مدينة الناصرة العربية.
- عفولا- المقامة على اراضي قرية العفولة العربية في مرج ابن عامر..
- ايلانيا اي الشجرة- المقامة على اراضي قرية الشجرة العربية في الجليل الادنى الشرقي، شرقي الناصرة.

## اولويات التسميات

في حين تسير عمليات تهويد المسميات العربية بصورة مستمرة ومنظمة ودائمة وفي جميع الاتجاهات شاملة كل فئات المواقع الجغرافية فانه يظهر من متابعة دراسة الخرائط والاطالس والكتب الاسرائيلية.. ان التهويد جار وبسرعة وانه قد تم فيما يتعلق بمسميات : المناطق الجغرافية الرئيسية، الانهار الرئيسية، الودية الرئيسية، الجبال الرئيسية والقرى.

وهكذا فان من ينظر الى خريطة فلسطين في اطلس اسرائيل او من ينظر الى خرائط ٢٥٠٠٠٠/١ الاسرائيلية سيجد ان معظم الاسماء الواردة هي اسماء مهودة، وقد تم ذلك بسرعة لاسباب عدة منها ان هذه الاسماء لا تشكل اكثر من بضع الوف من المسميات، وان الحاجة واسماؤها مهودة ضرورية جدا من اجل اغراض التعليم في المدارس وصناعة الخرائط التي يتم تداولها بصورة واسعة.

اما على مستوى المسميات للظواهر الجغرافية الصغرى كاسماء قطع الاراضي واسماء الينابيع الصغيرة والمغاور وغير ذلك فان التهويد لم يستطع حتى الآن ان يكون فعالا وبذلك فان اسماء المواقع الصغيرة هذه والتي لا تظهر الحاجة الى استعمالها الا في الشؤون المتخصصة كعمل الخرائط التفصيلية او اجراء مسح تفصيلي شامل، وهنا لم تستطع عملية تهويد المسميات حتى الآن ان تكون واضحة وأول مثال على ذلك انه في المسح الأثري المفصل بخرائط ذات قياس ٥٠٠٠٠/١ الذي قامت به دائرة الآثار الاسرائيلية فان العديد من المواقع الاثرية في الخريطة رقم (١) من هذه الخرائط، اشير اليها بالارقام ولم تذكر أسماؤها على الخارطة، لانه لم يتم حتى الآن اسماء عبرية لهذه المواقع الصغيرة.

## واجب الدارسين العرب في المحافظة على المسميات العربية للمواقع الفلسطينية

هذا هو الواقع الحالي.. فما هو المطلوب من الجانب العربي؟

المطلوب هو توثيق المسميات العربية لكل المواقع الفلسطينية وبسرعة على ان يتم ذلك في كل المجالات اي في مجال الاحتفاظ باسماها الاماكن الرئيسية والمناطق والظواهر الجغرافية الكبيرة جنبا الى جنب مع مسميات الاماكن والمواقع الصغيرة... على ان تعطى هنا اولويات:

- تعطى الاولوية الفورية للمناطق التي تم تدمير الوجود البشري العربي فيها وبالتالي تعرضت هي من جهة لتغيير وطمس ودثر معالمها الجغرافية في حين ادى تفرغها من سكانها العرب الى امكانية نسيان مسمياتها وهنا اخص بالذكر المناطق التي لم يجر فيها عمليات المسح اي كل المناطق في قضاء بير السبع والتي تشمل اكثر من ٤٠٪ من مساحة فلسطين (في الخريطة المرفقة Ia) فالمسميات العربية لمواقع هذه المنطقة محفوظة فقط في ذاكرة سكانها البدو الذين شردوا عن معظم ارجائها وبات من بقي منهم في فلسطين محصورا في المناطق المحيطة بمدينة بئر السبع.

- هناك مناطق اخرى تم تدمير الوجود البشري العربي فيها، ولكن هذه المناطق كانت قد تمت لها عملية مسح وبالتالي فان مصادرها لتوثيقها هي اكثر من مجرد ذاكرة ابنائها فهناك خرائط المساحة المفصلة لها والسجل عليها اسماء المواقع العديدة فيها وهذه يجب ان تكون في الدرجة الثانية من الاهمية ( في الخارطة المرفقة Ib) وتشمل مناطق السهل الساحلي الفلسطيني ثم الاغوار الفلسطينية الشمالية ( منطقة الحولة وطبرية وبيسان).

- تلي ذلك في اهمية الاسراع بتوثيقها منطقة الجليل الاعلى وبلاد الروحة على سفوح الكرملة الجنوبية الشرقية ( في الخارطة 11a)

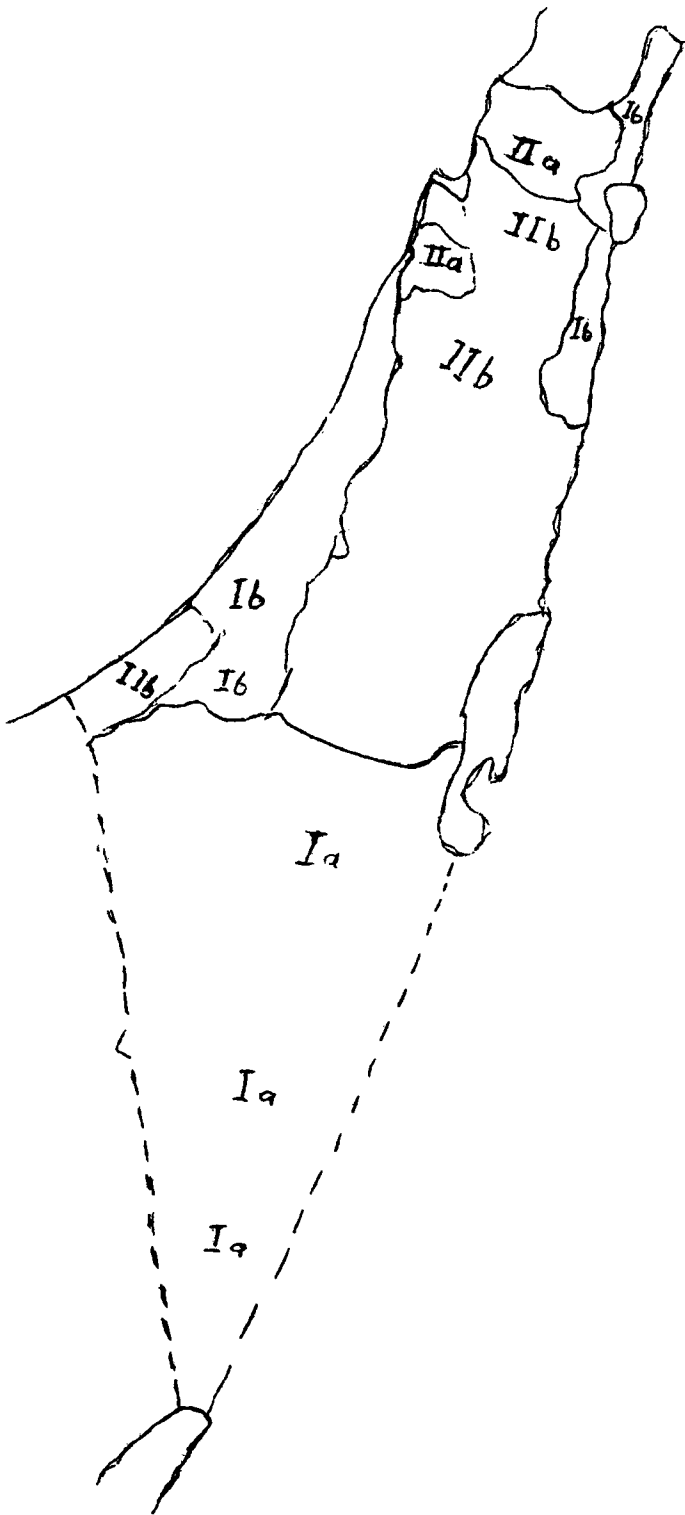
- اما المناطق المأهولة بالعرب الفلسطينيين فان عملية توثيقها تعطى الاولوية اللازمة ولكن بصورة اقل الحاحا؟ وهذه المناطق هي الجليل الادنى والمثلث والضفة الغربية وقطاع غزة (في الخريطة IIb).

هذا الاهتمام اولا بالمسميات الجغرافية الكبرى كأسماء المناطق والجبال والانهار والمدن والقرى على ان يصار الى صنع خرائط ذات مقاييس ١/٢٥٠.٠٠٠ و١/٢٥٠.٠٠٠ لفلسطين توازي الخرائط الاسرائيلية في جودة الرسم وتعطي المسميات العربية.

اما مسميات المواقع الصغرى فيصار الى تجميعها في برنامج اطول مدى، او ربما في عمليات تجميع وتوثيق المسميات العربية فانه يمكن الاستفادة من:

- خرائط المساحة التفصيلية المتوفرة لمعظم قرى فلسطين الوسطى.
- الكتب والمراجع والخرائط العربية، عن فترات تاريخية مختلفة، التي تستعمل المسميات العربية.
- تجميع المعلومات الميدانية من قبل السكان الموجودين فوق او بالقرب من المواقع التي سيجري تجميع وتوثيق اسمائها العربية. او من قبل الاهالي الذين ينتمون الى هذه المناطق وشرّدوا عنها.

ومن تجربة عملية قام الطلاب في جامعة بير زيت بتجميع المعلومات عن المسميات وصفات لمواقع عديدة، وقد ظهر بالتجربة ان تجميع المعلومات حتى عن المناطق في الاغوار شمال اريحا التي تتعرض لموجة استيطانية شرسة- كان صعبا، ولذا لا بد من بذل الجهود والاسراع في القيام بمثل هذه الدراسات.



جامعة بير زيت - مكتب الوثائق والبحاث ودائرة الشرق الاوسط  
بيان باسماء المواقع الجغرافية في القرى الفلسطينية

| اسم القرية | القضاء | مأهولة أم مهجورة<br>١٩٧٨ | ملاحظات |
|------------|--------|--------------------------|---------|
|            |        |                          |         |

| اسماء القرى التي تحد اراضيها القرية موضوع الدراسة |                  |                   |                  |
|---|------------------|-------------------|------------------|
| في الجهة الشمالية                                 | في الجهة الشرقية | في الجهة الجنوبية | في الجهة الغربية |
|   |                  |                   |                  |



أسماء أشهر المواقع المحيطة بالقرية

جبال - تلال - سهول - أودية - خرب - كهوف أو مغاور مشهورة - ينابيع - برك

| الرقم | اسم الموقع | نوعه | وصفه |
|-------|------------|------|------|
|       |            |      |      |

رجاء وضع المواقع على هذا الرسم مع مراعاة جهاتها ابعادها التقريبية عن مركز القرية  
والإشارة الى الموقع بإشارة ( X )  
مثال موقع رقم ( ١ ) في الجدول السابق.

شمال ، شرق ، غرب ، جنوب

شمال

۱  
۲  
۳  
۴  
۵  
۶  
۷  
۸  
۹  
۱۰

x 1

شرق

۱ کم ۲ کم ۳ کم ۴ کم ۵ کم ۶ کم ۷ کم ۸ کم ۹ کم ۱۰ کم

۱  
۲  
۳  
۴  
۵  
۶  
۷  
۸  
۹  
۱۰

جنوب

# مصادر البحث

- 1- Mellart, J Early Civilization, of the Middle East London 1965  
Beaumont, P and others The Middle East, a geographical Stud
- 2 - South levant 1:50.000 Sheet Jenin 199,195
- 3 - South levant 1:50.000 Sheet Jenin 206,178
- 4 - South levant 1:50.000 Sheet Jenin 199,180
- 5 - South levant 1:50.000 Sheet Jenin 194,193
- ٦ - خارطة مساحة مقياس ١/١٠٠٠٠٠ قرية أبو ديس دائرة المساحة الفلسطينية عام ١٩٣٣
- ٧ - خارطة مساحة مقياس ١/١٠٠٠٠٠ - دائرة المساحة الفلسطينية عام؟
- ٨ - Yeivin, Z., Israel Archoeological Survey 1987
- ٩ - Wild, S., Libanesische Ortsnamen, Beirut 1973
- ١٠ - شمال غرب جنين قرب سيلة الحارثية ١٧٢، ٢١٣
- ١١ - الجبل الجنوبي في نابلس (١٧٥، ١٨١)
- ١٢ - شرق نابلس (شمال دير الحب (١٨١، ١٨٢)
- ١٣ - في أراضي بيت حنينا (١٧٦، ١٣٧)
- ١٤ - في مرج ابن عامر (في أراضي قرية بمانة (١٧٠، ٩١٢)
- ١٥ - في شمال غرب غزة (٩٨، ١٠٤)
- ١٦ - شمال غرب جنين (١٦٥، ٢١٤)
- ١٧ - جنوب طولكرم (١٥١، ١٨٦) وهناك قرى بنفس الاسم في منطقة رام الله ومرج ابن عامر
- ١٨ - شمال صفد على الحدود اللبنانية (١٩٧، ٢٧٨)
- ١٩ - شمال شرق صفد (٢١٠، ٢٨٥)
- ٢٠ - جنوب شرقي طولكرم (١٥٦؟ ١٨٤)
- ٢١ - شرق الخليل (١٦٦، ١٠٣)
- ٢٢ - انظر كلمة عين في، Stewardson, H.:The Survey of Western Palestine, Volume Index
- ٢٣ - انظر تحت كل كلمة شيخ في المرجع السابق.
- ٢٤ - مثال ذلك: بتين، عكا، يافا، عسقلان.
- ٢٥ - مثال ذلك اسماء القرى التي تبدأ بكلمة كفر فهي كلمة آرامية: كفر كنا، كفر مندا، كفر عبوش.
- ٢٦ - مثال ذلك نابلس (Neopolis) عقربه.
- ٢٧ - مثال ذلك سبسطيه (على اسم Sebastian) قيساريه على اسم Ceaser
- ٢٨ - مثال Atlas of Israel, Amsterdam 1970, Plate IX/10
- ٢٩ - تجد قائمة باسماء كثير منهم وأسماء مؤلفاتهم في كتاب بلدانية فلسطين العربية للأب مرمجي الدومينيكاني، القدس ١٩٤٨ (مترجم عن الفرنسية).
- ٣٠ - Wright, T.,: Early Travels in Palestine, London 1848.
- ٣١ - المصدر السابق.
- ٣٢ - المصدر السابق.

المصدر السابق. -٣٣

المصدر السابق. -٣٤

٣٥- أمثلة:

Roscott Friar Flex at large a fifteenth century pilgrimage to the Holyland, Greenwood- Westport, Connecticut 1950

aundrell: A journey from Aleppo to Jerusalem in 16 Reprinted Khayats, Beirut 1963

tococke , R. Beschreibung des Morgenlandes Erlangen 1754

-٣٦

Bachiene, W. Mistorische und Geographische Beschreibung von Patastina Leitzig 1799.

Burckhardt, J.: Travels in Syria and the Holyland, London 1822.

Buckingham, J.: Travels in Palestine, through the countries of Bashan, London 1822.

Wilson, W.: Travels in Egypt and the Holyland, London 1824.

Robinson, E.: Biblical Researches in Palestine;

Vols I-III, London 1841.

Smith. G. Historical Geography of the Holyland.

Reprint London 1966.

Enc. Britannica Atlas. Enc. Britannica and Rand McNally 1974 'Forward Page iii "Names of -٣٧  
inhabited places and physical features situated within the boundaries of one country appear on the maps  
in the local language"

# صندوق استكشاف فلسطين

نشاطاته ١٨٦٥ - ١٩١٥

## THE COMMITTEE OF THE PALESTINE EXPLORATION FUND

د. خيرية قاسمية  
( جامعة دمشق )

### مقدمة:

لفلسطين اهمية فريدة في العالم، بالاضافة الى مكانتها الدينية وموقعها الهام كجسر بين آسيا وافريقيا، تلاقت على أرضها حضارات عديدة تركت آثارها في بقايا قائمة او مدفونة تحت الارض، وتناثرت بعض اخبارها في وثائق مكتوبة من كتب العهد القديم، واخبار الرحالة والكتّاب من الرومان واليونان والبيزنطيين والعرب المسلمين. وقدم البلاد على مرّ العصور حجّاج سجّلوا ملاحظاتهم الوصفية ومذكراتهم وما سمعوه من اخبار البلاد، ورغم ان هذه الكتابات كانت تفتقر الى روح النقد والوسائل الكافية للقيام بالبحث العلمي، الا انها القت ضوءاً على احوال البلاد الجغرافية وطبائع سكانها ووصفت المواقع الاثرية فيها. وحتى مطلع القرن التاسع عشر لم يحدث اي تقدم في الكشف عن الوثائق المتعلقة بتاريخ فلسطين، او تفسير النقوش والكتابات او فهم الخط العام لتطور الحضارات او دراسة الحقائق العملية الجغرافية او التنقيب داخل التلال المتراكمة التي تكمن تحتها المدن والقرى القديمة\*.

---

\* Macalister R. A.S., A Century of Excavation in Palestine, London 1925, pp. 13 ff.

وكان المؤلف مديراً للحفريات في صندوق الاستكشاف ثم استاذاً لعلم الآثار السلطية في دبلن.

ومنذ بداية العشرينات أصبحت فلسطين حقلاً لاهتمام خاص من الدول الأوروبية رغم فقرها بامكانياتها ومواردها المادية، فتدفقت اليها الاساليات الاجنبية وفتحت فيها المدارس وانشئت المطابع وبدأ التعرف على احوال فلسطين الجغرافية وطوبوغرافيتها وجمع المعلومات عن اماكنها المقدسة وآثارها. ولم يكن ذلك الا لأنها احتلت مكانا بارزا في المنافسات الدولية بسبب موقعها الجغرافي الذي جعلها عاملا حيويا وحقيقيا في التاريخ العالمي. والتقت عندها مطالب معظم الدول الأوروبية المتداخلة ومصالحها الحقيقية، وكان الاهتمام الديني جانبا فقط من التطلعات السياسية والتجارية للدول الأوروبية في شرقي المتوسط، وظهرت فلسطين كما كانت دوما صلة الوصل بين اوربوا وثروات الهند والشرق الاقصى، واصبحت القدس مركزا لنشاطات القناصل الأوروبيين تماما كما كانت الآستانة مركزا لنشاط السفراء<sup>(١)</sup>.

### بدايات الاستكشاف في فلسطين

كان الانكليز اسبق من غيرهم في مجال التعرف على فلسطين ذلك لان بريطانيا كان لا يمكنها ان تسمح لأية دولة اخرى بتهديد الطريق الرئيسية للمواصلات بين بلادها وبين ممتلكاتها الآسيوية، فكان لها مصلحة تقليدية في الاهتمام بفلسطين، وتشكلت في لندن عام ١٨٠٤، واثرت فشل الحملة النابليونية على مر وفلسطين، جمعية باسم رابطة فلسطين Palestine Association بهدف جمع ونشر المعلومات عن جغرافية الاراضي المقدسة وسكانها ومناخها وتاريخها، الا ان هذه الجمعية لم تحقق شيئا يذكر سوى نشر ترجمة لكتاب سيتزن Seetzen يصف المنطقة المجاورة لبحيرة طبرية ونهر الاردن والبحر الميت، الا ان الوقت لم يكن مناسباً لعمليات الاستكشاف وتعذر على المستكشفين الذين بعثت بهم الجمعية عمل شيء نظرا لخطورة الوضع<sup>(٢)</sup>. وفي عام ١٨٣٠ تشكلت الجمعية الجغرافية الملكية Royal Geographical Society فكان ان حلت الاولى لأن الجمعية الجديدة شملت اغراضا مشابهة وقدمت اوراقها وكتبها واموالها الى الجمعية الجديدة لاستخدامها لغرض الاستكشاف الجغرافي، الا ان الجمعية الجديدة لم تكن في سنواتها الاولى قادرة على عمل الكثير فيما يتعلق بالاستكشاف في فلسطين لأن اهتماماتها كانت عالمية.

وقد شهدت الفترة من ١٨٣١-١٨٤٠ تزايد الاهتمام البريطاني بفلسطين بعد ان وقفت بريطانيا لمقاومة دولة محمد علي، واتخذت دور حامية اليهود في الدولة العثمانية وفي فلسطين بالذات. وكان ذلك وراء انشاء اول قنصلية لها في القدس عام ١٨٣٨، ثم كانت تعليمات بالمرستون الى ممثليه في الشرق لتشجيع تلك الحماية<sup>(٣)</sup> وبداية المشاريع البريطانية التي تجمع

على ان الاستيطان اليهودي ضروري لتحكم بريطانيا في الشرق<sup>(٤)</sup>.

وفي عام ١٨٣٨ قام قس امريكي هو ادوارد روبنسون Robinson بدفع عملية « التعرف على فلسطين » الى مرحلة عملية، وكان قد عين استاذاً الأدب التوراة في كلية الاتحاد اللاهوتية في نيويورك Union Theological Seminary واعتقد انه لكي يكون قادراً على اداء هذه المهمة يجب ان يتعرف بنفسه على « ارض التوراة »، وبعد الاطلاع على كل ما كتب حول الموضوع وما توصل له غيره في ميدان الاستكشاف، بدأ زيارته لفلسطين متتبعا اشارات التوراة، ( ورافقه في هذه الرحلة دكتور ايلي سميث<sup>(٤)</sup>، وقد نشر بعد عودته عام ١٨٤١ كتاباً بعنوان « ابحاث تورانية في فلسطين » Biblical Research in Palestine ضمنه كل المعلومات التي جمعها واستنتاجاته، فكان احسن عمل علمي نشر حتى الآن، ومنحته الجمعية الملكية الجغرافية الميدالية الملكية الذهبية مكافأة له على هذا المجهود. وقد قام عام ١٨٥٢ برحلة أخرى الى فلسطين مضيفاً مادة ضخمة لما جمعه في رحلته الاولى وخاصة فيما يتعلق بالطبوغرافية التوراتية، ولم تثر اهتمامه مسائل الآثار او التاريخ الطبيعي او عادات اهل البلاد بل كان غرضه الاساسي تحديد مواقع التوراة. ودون نتائج اكتشافاته في كتاب آخر عنوانه « ابحاث تورانية جديدة » Later Biblical Researches. وكان يأمل ان يؤلف كتاباً آخر يعالج بشكل منظم جغرافية الأراضي المقدسة الطبيعية والتاريخية، ولكنه توفي عام ١٨٦٠ قبل ان يتم له ذلك. ورغم كل ما يؤخذ على اعمال روبنسون الا انه يمكن القول بأنه كان اول رحالة علمي زار فلسطين /.

وقد أدى نجاحه الى توجيه الانظار الى الحقائق العلمية التي يمكن البحث عنها، وأثار اهتمام الرحالة والباحثين لمحاكاته. وكانت قد تشكلت بعد عام ١٨٤٠ جمعية حملت اسم Society of Biblical Archaeology هي توحيد لجمعية « رابطة فلسطين » والجمعية السوية الفلسطينية Syro-Egyptian Society هدفها توسيع البحث في الموضوعات التوراتية وما يشابهها، واخذت بنشر مجلتها الشهرية Proceedings \* \* .

وقدم الى فلسطين منذ الاربعينات عدد من المكتشفين والرحالة وجهوا اهتمامهم لجغرافية

\* - Macalister, p. 26.

\* \* -Daiches, Samuel, Lord Kitchner and his Work in Palestine, london, 1915, p. 14.

- والكتاب هو محاضرة قدمها المؤلف في جمعية Jew's College Union Society نشرت اثناء الحرب وكان كشنر وزيراً للحربية.

البلاد ( كثير منهم من الضباط والمهندسين)، وفي عام ١٨٢١ قام الملازم (ليفنتانت) سيموندس R. E. Symonds من سلاح الهندسة الملكية البريطانية Royal Engineers بمسح المنطقة الممتدة من يافا- القدس- البحر الميت، وفي عام ١٨٤٧ قام الملازم مولينكس Molyneux ( من الاسطول البريطاني) بركوب قارب عبر الاردن من بحيرة طبرية حتى البحر الميت لمسح المنطقة (توفي بلفحة شمس). وفي عام ١٨٤٨ قام الملازم لنش Lynch (من الاسطول الامريكى) بتتبع خطاه برحلة مسح فيها نهر الاردن والبحر الميت (قاس عمق البحر الميت بواسطة الارتداد الصوتي). وفي عام ١٨٥١-١٨٥٢ قام الملازم فان دي فيلد Van de Velde ( من الاسطول الهولندي) بزيارة فلسطين. وزارها ثانية ١٨٦١- ١٨٦٢، ونشر خريطة ١٨٥٨ كانت اهم عمل في فن رسم الخرائط (الكارتوغرافية) حتى الآن وأرفق بها مجلداً يحوي ملاحظات هامة \* \* \*.

وبعد نشر مؤلف روبنسون زار الاراضي المقدسة عدد من الرحالة النشيطين منهم الالماني توبلر T. Tobler وعند عودته نشر نتائج تحرياته بعمل طبوغرافي منظم، وكان دقيقا بدراسة القدس بشكل خاص ( وقد حالت آراء روبنسون العلمانية دون اعطائها الاهمية المناسبة). وجاء بعده طبوغرافي فرنس هو (جورين) V. Guérin عكف بمفرده على صنع خريطة لفلسطين انتهت عام ١٨٦١ ومعها دراسة وصفية في سبعة مجلدات ضخمة تتضمن ملاحظاته.

وكان من زوار فلسطين ايضا ستانلي (الذي اصبح مطران وستمنستر) ودون نتائج رحلته الاولى في مؤلف اسمه «Sinai and Palestine» عام ١٨٥٦. وفي رحلته الثانية الى الاراضي المقدسة عام ١٨٦٢ رافقه ولي عهد الملكة فيكتوريا (اصبح ادوارد السابع)، وهي اول زيارة يقوم بها أحد أفراد العائلة المالكة البريطانية منذ الحروب الصليبية.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ خط آخر في ميدان الاستكشاف بالاضافة الى الاستكشاف السطحي هو التنقيب على الآثار. ففي عام ١٨٥٠ قام (دي سولسي) F. de Saulcy برحلة الى الأراضي المقدسة واعتقد انه عثر على موقع سدوم كما لفتت نظره المقابر الصغيرة المحفورة في الصخر شمال القدس والمعروفة باسم قبور الملوك وحصل على تصريح من السلطات العثمانية باجراء التنقيب وعمل حتى ١٨٦٣ حيث وجد عددا من التوابيت



الحجرية عليها نقوش (نقلها الى فرنسا)<sup>(٦)</sup>. كما قام المهندس بيروتي E. Pierotty الذي كان يعمل لدى العثمانية في القدس بوضع مؤلف من مجلدين عنوانه Jerusalem Explored وقد اتاح له عمله الرسمي الدخول الى اماكن محظورة على الاجانب لاسباب عسكرية ودينية<sup>(٧)</sup>.

وفي عام ١٨٥٦ تولى وليام سميث جمع قاموس للكتاب المقدس Dictionary of the Bible ضمنه كل المعلومات التي امكن الحصول عليها ليضعا في خدمة دارسي التوراة. وتولى جورج جروف Grove (وكان سكرتير شركة Crystal Palace) جمع المقالات المتعلقة بفلسطين (وكان قد ساعد ستانلي باعداد كتابه: سيناء وفلسطين). وقد رأى جروف كسلفة روينسون انه لاعداد هذه المقالات لا بد من زيارة الاراضي المقدسة للتعرف بنفسه على الاماكن التي وصفها واصطحب معه مهندسا معماريا هو فيرجسون Fergusson، وكان مهتما بطبوغرافية القدس (وخاصة كنيسة القيامة وموقع الهيكل) ليتولى بحثاً علمياً في فلسطين لم يتحقق منه شيء.

وخلال فترة تزايد الاهتمام بالأراضي المقدسة تبرعت البارونة بورديت كوتس Burdett-Coutts بمبلغ ٥٠٠ جنيه استرليني عام ١٨٦٤ من اجل تزويد القدس بالمياه<sup>(٨)</sup>. وكانت اول خطوة لتحقيق ذلك وضع مخطط للقدس والمنطقة المجاورة، قدمتها الى المدير العام لهيئة المساحة العسكرية Ordnance Survey ووقع الاختيار على ضابط من سلاح الهندسة الملكية Royal Engineers هو النقيب تشارلس ويلسون<sup>(٩)</sup>.

وقد رافقه في مهمته فريق من سلاح الهندسة الملكية للقيام بالمسح (ايار ١٨٦٤-ايار ١٨٦٥) وتم رسم مخطط تفصيلي للقدس (بمقياس  $\frac{1}{4000}$ ) مع مخططات تفصيلية لقبة الصخرة وكنيسة القيامة وغيرها من الاماكن الهامة في المدينة، كما مسحت المنطقة المجاورة للقدس (بمقياس رسم  $\frac{1}{10000}$ ). وبعد عودة ويلسون قامت دائرة المساحة البريطانية بنشر المخططات والتقارير والصور مع الملاحظات الدقيقة التي احتوت على معلومات هامة. وكان لعمل الكابتن ويلسون والملاحظات الدقيقة التي قدمها عن طبوغرافية المدينة قيمة كبيرة للمهتمين بتاريخ القدس والحجر الاساسي الذي بني عليه كشف فلسطين العلمي. وكانت مع الاعمال السابقة هي الحوافز الخارجية لتشكيل صندوق استكشاف فلسطين كما يقول مؤسسوا الصندوق.

## انشاء جمعية صندوق استكشاف فلسطين ١٨٦٥ :

شعر بعض المهتمين بموضوع فلسطين بعد نجاح هذه العملية ان الوقت قد حان للقيام بعمل اكثر تنظيماً بخطوات محددة لانشاء جمعية للاستكشاف العلمي لفلسطين. وأيد ستانلي مطران وستمنستر جهود (جورج جروف) Grove. وفي ١٢/ايار ١٨٦٥ عقد اجتماع في قاعة القدس Jerusalem Chamber في وستمنستر برئاسة رئيس اساقفة يورك (وليام تومسون)<sup>(١٠)</sup> وحضرة المهتمون بأغراض الجمعية المقترحة واتخذ القرار التالي: «بتشكيل رابطة باسم «صندوق استكشاف فلسطين» Palestine Exploration Fund بغرض الكشف عن آثار فلسطين وجغرافيتها وجيولوجيتها وتاريخها الطبيعي». وقد عين (جروف) Grove سكرتيراً فخرياً للجنة الصندوق، وعهد الى لجنة فرعية من رئيس اساقفة يورك ومطران وستمنستر والامستاد (اوين) R. Owen بمهمة وضع بيان يوضح اهداف الجمعية ويدعو الجمهور الى المساهمة المادية لانجاز هذه الاهداف. وفي ٢٢ حزيران يوضح اهداف الجمعية ويدعو الجمهور الى المساهمة المادية لانجاز هذه الاهداف. وفي ٢٢ حزيران ١٨٦٥ عقد اجتماع عام في وستمنستر في Willis's Room برئاسة اساقفة يورك حيث تم تشكيل الجمعية رسمياً. وفي الكلمة الافتتاحية تقدم رئيس الاساقفة بثلاثة مبادئ محددة يقوم عليها عمل الجمعية وهي:

- اولاً: كل عمل تقوم به الجمعية يجب ان يكون على اساس علمية.
- ثانياً: ان تمتنع الجمعية كهيئة عن الدخول في اي جدل.
- ثالثاً: ان لا تبدأ كجمعية دينية ولا تمارس عملها على هذا الاساس<sup>(١١)</sup>.

وفيما يتعلق بالهدف الاول فكان غرضه - من وجهة نظر مؤسسي الصندوق - التأكد على ان نتائج التحريات والاستكشاف تقبل من العالم كما تقبل الحقائق الناتجة عن مخبر للعلوم الطبيعية<sup>(١٢)</sup> اما الهدف الثاني فغرضه ان تقدم الجمعية الحقائق المكتشفة نفسها دون اي استنتاجات تدور حولها<sup>(١٣)</sup>. اما الهدف الثالث فهو - كما يقول مؤسسو الصندوق - لضمان استقلال الجمعية بمنعها من الارتباط بأي هيئة او كنيسة او عقيدة ما. وهي تطلب اسهام جميع الاشخاص المهتمين بتاريخ بلد يتصل اتصالاً وثيقاً بالديانات الثلاث، وللمساعدة على فهم التوراة بشكل أفضل على ان لا تعالج مسألة العقائد الدينية في منشورات الجمعية.

وفي الاجتماع الاول تحدث البعض عن الاعمال المرتقبة فأشار (ليارد) A. Layard (وكان قد انتهى حديثاً من حفريات نينوى) عما يمكن ان تلقىه الحفريات في تلال الارض المقدسة التي تمثل مواقع مدن قد اندثرت، من اضواء على تاريخ وفنون «الامة اليهودية» كما اشار مارشيسون R. Murchison رئيس الجمعية الملكية الجغرافية الى ضرورة العمل على مسح جغرافي جيولوجي لفلسطين تمهيداً للكشف العلمي للبلاد.

وقد وضعت اللجنة بيانا تمهيدياً<sup>(٤)</sup>، اوضحت فيه بتفصيل الاهداف التي من اجلها أسست الجمعية، وقدمت لذلك بالتأكيد على اهمية البلد الذي يحوى وثائق العقيدة الدينية، والحاجة الملحة لتوضيح اشارات وحوادث التوراة لتصبح في مادتها كتابا جديدا بعد ان ظلت غامضة في كثير من نواحيها، وضرورة الكشف عن وجه هذا البلد ومناخه ومنتجاته وعاداته وملابسه وانماط حياته (التي تختلف في نواحيه المادية عن العالم الغربي)، وانه بدون المعرفة الدقيقة تظل الوثائق الدينية غامضة. ويمكن الحصول على ذلك بخريطة دقيقة للبلاد والتعرف على الطبوغرافية والكشف عن بقايا الآثار المدفونة، اي العمل بشكل منظم لما ظل مهملا في السابق او تم بطريقة مبثورة وجهود شخصية متفرقة. ولو بذل في ميدان استكشاف فلسطين نفس الحماس والجهد والمعرفة التي بذلت في قرطاجة وسيرينا، وهي اماكن ليس لها ارتباطات مقدسة، فالنتيجة ستكون كسبا لمعرفة هذه البلاد وتعاقب سكانها.

وأشار البيان الى ان الفرصة قد حانت لمثل هذا البحث العلمي بعد الزيارة التي قام بها امير ويلز الى جامع الخليل « وكسر الحاجز الذي اعاق لقرون دخول المسيحيين الى اكثر اماكن فلسطين قداسة» وان ما تم عمله باشراف ويلسون يدل على ما يمكن تحقيقه بالمرونة واللباقة ودون اثاره معارضة السكان والسلطات. ويقترح البيان جمع الاموال لاستخدامها بهدف الكشف عن الاراضي المقدسة بتوظيف اشخاص اكفاء للقيام بالمهام التالية:

الآثار: وتقدم القدس حقلا خصبا في هذا المجال اذ ان ما هو قائم فوق سطح الارض سوف يعرف بدقة بعد انتهاء عملية المسح التي يقوم بها ويلسون، الا ان ما هو تحت سطح الارض لم يكتشف بعد. وجميع مواقع القدس تنتظر التنقيب والكشف، وستقدم الاعماق التي تقوم عليها المدينة مادة هامة ومفيدة لعالم الآثار وعالم النقود. وكذلك فان البلاد الواقعة وراء المدينة المقدسة مليئة بالمواقع التي لا تقل أهمية بوفرتها وحاجتها للكشف.

العادات والتقاليد: هناك حاجة ملحة لعمل كتاب عن الاراضي المقدسة شبيه بكتاب «

لين» عن مصر الحديثة، يصف بطريقة منظمة وبأدق التفاصيل عادات السكان وتقاليدهم وطقوسهم ولغتهم، وهدف ذلك ان توضح جملة العادات القديمة التي يتميز بها سكان فلسطين قبل ان تختفي امام موجة العادات الغربية المتزايدة، « وتزول بذلك المعاني الدقيقة لكثير من الاشياء المتطابقة مع التوراة» ومع انه قد وردت في كتب الرحالة اشارات لذلك الا انها ليست دقيقة ولا منظمة.

**الطوبوغرافي:** اذ لا يوجد سوى خريطة واحدة لخط الساحل الفلسطيني (خريطة الامبريالية التي تمت مؤخرا) والمطلوب هو مسح المناطق لتحديد النقاط الرئيسية بدقة ماثلة، تحدد فيها المواقع الصغيرة، كما يتم تحديد مستويات الاماكن بصورة دقيقة (قامت الجمعية الجغرافية الملكية حتى الآن بتحديد ارتفاع منطقة القدس وارتفاع البحر الميت)، وكذلك معرفة مسارات الطرق القديمة ومدى مطابقتها للطرق الحديثة نظرا لأنها لم تدرس من قبل بالقدر الذي تستحقه من الاهتمام ونظرا لما لها من اهمية بالغة في دراسة التاريخ وفهم الاسس الحديثة التي رسمت عليها حدود الولايات وخط الحدود بين القبائل وتوزيع الغربي.

**الجيولوجيا:** وهذه مسألة مجهولة تماما، فوادي الاردن وحوض البحر الميت هي اكثر المناطق الجيولوجية اهمية على سطح الارض، بالاضافة الى اهمية حوادث التوراة بمعرفة التغيرات البركانية التي حدثت حول هذه المنطقة خلال العصور التاريخية.

**فروع العلوم الطبيعية:** علم النبات والحيوان والظواهر الجوية وهي فروع غير معروفة بدقة بيننا اظهرت تحريات العلماء مؤخرا انه يمكن للبحوث العلمية ان تقدم نتائج قيمة، ويتساءل البيان لماذا يكرس علماء الطبيعة سنوات الجهد والمقدرة لدراسة غابات امريكا الجنوبية وانهار افريقية ولا يكرسونه لدراسة زنابق وأرز وطحالب وغربان الاراضي المقدسة؟ وتؤكد اللجنة في بيانها أن هذا لا يعني اطلاقا ان القضايا المشار اليها لم يجر بحثها او الكشف عنها، ولكن الملاحظ ان اعمال الرحالة والعلماء السابقين، مع تقدير قيمة ما أنجزوه، كانت مبعثرة وجزئية، والنتائج التي توصلوا اليها كانت تتناقض مع بعضها في كثير من الاحيان. لذا تقترح اللجنة ارسال بعثة من اشخاص اكفاء بجميع فروع البحث ويتمتعون بتفويض كامل من حيث المال والوقت وجميع التسهيلات الممكنة ويقومون بوضع تقرير شامل عن فلسطين يقبله الجميع كوثيقة معتمدة، وسيجري الترتيب لاستبقاء كابتين ويلسون في فلسطين عدة اشهر اخرى بعد انجازه عملية مسح القدس ودراسة مستوى البحر المتوسط والبحر الميت كما سيجري العمل على توظيف اكفاء آخرين للقيام بالمهام الاخرى.

## ادارة جمعية صندوق استكشاف فلسطين:

اعلن في الاجتماع الاول عن موافقة الملكة على ان تكون راعية للجمعية (تبرعت بمائة وخمسين جنيها<sup>(١٥)</sup>)، وساهمت جامعة اكسفورد (٥٠٠) وكمبردج (٢٥٠) والرابطة البريطانية (١٥٠) ولجنة تحسين سوريا Syria Improvement Committee (٢٥٠) والمحفل الماسوني الاكبر (١٥٠) وعدد كبير من الافراد (خلال سنوات ثلاث جمع حوالي ٨٠٠٠ استرليني بعضها اكتاب وكثير منها تبرعات وبلغ مجموع الواردات (حتى ١٩١٥) ١٣٨٦٥٠ جنيها والنفقات ١٣٨٦٥٠ جنيها<sup>(١٦)</sup>). وكان مؤسسو الجمعية يأملون انجاز الاهداف خلال سنوات ولم يدركوا ضخامة المهمة التي اضطلعوا بها فأخذت الجمعية تعتمد على الاكتاب السنوي وليس على التبرعات لتنفيذ العمل كما وسّعت لضم اعضاء جدد وتوسيع التعريف بأعمال الجمعية. وكانت قائمة المكتتبين تتغير باستمرار، وكان كثير منهم يرسل العون اثناء سير عمليات الاستكشاف فقط، وكان عدد اعضاء الجمعية عند تأسيسها ٤٥ عضوا من المهتمين بالكشف عن فلسطين، وبلغ عددهم عام ١٩١٥ (١٠٥) اعضاء (لم يبق من الاعضاء المؤسسين سوى موريسون، امين الصندوق). وتولّى رئاسة الجمعية عند تأسيسها رئيس اساقفة يورك الذي ظل يحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته عام ١٨٩٠ حيث خلفه في هذا المنصب رؤساء اساقفة كنتبري. ومنذ عام ١٨٧٥ تقرر تعيين لجنة تنفيذية صغيرة لمدة سنة يجري اعادة تعيينها في الاجتماع السنوي، وتعد اجتماعين في الشهر. وكان اول رئيس للجنة التنفيذية هو رئيس اساقفة يورك. وفي عام ١٩١٥ كان الكولونيل واتسون C. M. Watson هو رئيس اللجنة التنفيذية.

وكانت الجمعية في عام ١٨٦٦ تشغل غرفة في الجمعية الاسيوية الملكية Royal Asiatic Society. وبعد ٤٦ سنة من التنقل في ابنية مختلفة تبرع موريسون للجمعية عام ١٩١٠ بمقر دائم في 2, Hinde Str. Manchester Square كان يحوي بالاضافة الى الكتب والادوات والخرائط ونماذج وعينات الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي مجموعات من الآثار الفلسطينية تشكل متحفا فلسطينيا صغيرا رغم القانون العثماني الخاص بالآثار الذي ينص على نقل حصيلة الحفريات الى متحف استانبول او متحف القدس<sup>(١٧)</sup>.

وقد اتسع نطاق الجمعية فأصبح لها ٤٦ فرعاً في مختلف انحاء بريطانيا وذلك من اجل توسيع الاهتمام بعمل صندوق الاستكشاف وتنظيم لقاءات وترتيب المحاضرات وجمع التبرعات، كما امتدت الفروع الى بلاد الدومنيون البريطاني والولايات المتحدة الامريكية

وفلسطين<sup>(١٨)</sup>. وخلال السنوات الأولى لنشاط الجمعية كانت الرسائل والتقارير التي ترد من رجال الاستكشاف تطبع وترسل للمتبرعين المهتمين بمجريات العمل. وتقرر عام ١٨٦٩ طبع الرسائل والتقارير والبحوث في مجلة دورية هي Quarterly Statement وارسالها مجاناً واصبحت هذه الدورية ناطقة باسم الصندوق ومعترف بها في ميدان البحث الفلسطيني بما تحويه من موضوعات تتعلق بالأراضي المقدسة.

## عمليات صندوق الاستكشاف:

### أ - الاستطلاع الأولي في فلسطين ١٨٦٥-١٨٦٦<sup>(١٩)</sup>:

طلبت لجنة صندوق الاستكشاف من الكابتن ويلسون الشروع بالعمل الذي اقترحته في بيانها التمهيدي وذلك بالقيام بمسح أولي يمكن للجنة من اختيار الأماكن المناسبة لأعمال الاستكشاف في المستقبل وكذلك الحصول على معلومات محددة تلقي ضوءاً على الموضوعات التي اشير لها في البيان التمهيدي. وقد رافق ويلسون الملازم (لفتاننت) اندرسون Anderson وفريق من سلاح الهندسة الملكية فنزلت البعثة بيروت في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٦٥ ثم اتجهت شرقاً عبر جبال لبنان وبعلبك ودمشق حيث قامت برسم الخرائط وأخذت صور الآثار الهامة وسمحت السلطات العثمانية لويلسون بعمل مخطط دقيق للجامع بني أمية (كان قد عمل مثيلاً له للحرم الشريف). وتقدمت البعثة إلى بانياس قرب منابع الأردن حيث بدأت عملية مسح فلسطين في كانون الثاني ١٨٦٦ بالتعرف على المواقع والآثار الهامة وتحري الرسوم وتسجيل الملاحظات الفلكية والظواهر الجوية والطبوغرافية، وتعذر تحري شاطئ بحيرة طبرية الشرقي بسبب الأحوال المضطربة بين القبائل البدوية، كما رفض قائم مقام طبرية منح البعثة الحماية المناسبة وتقدمت البعثة عبر تلال الناصرة للتعرف على سهل مرج ابن عامر (يزرعيل) ثم اتجهت نحو نابلس (وقدم القائم مقام العثماني حراسة مسلحة أثناء قيام اندرسون ببعض الحفريات في آثار كنيسة بيزنطية في جرزيم) وأنهت البعثة عملها في القدس في نيسان ١٨٦٦.

وقد عرض رئيس اساقفة يورك نتائج عملية المسح التي قام بها ويلسون في بيان عن تقدم العمل Statement of Progress سجل فيه أهم المعلومات التي أمكن للمكتشفين الحصول عليها<sup>(٢٠)</sup>:

الطبوغرافية: ملاحظات دقيقة عن التوقيت وخطوط العرض أخذت في ٤٩ موقعاً بين

بيروت والخليل وحدد خط السميت من بانياس حتى القدس، وعلى اساس ذلك تم عمل مجموعة من الخرائط بمقياس رسم بوصة للميل الواحد للجزء الاساسي من البلاد بما فيها بحيرة طبرية والجداول المنحدرة الى شاطئها الغربي.

الآثار: تم عمل خمسين مخططاً مع رسوم تفصيلية للكنائس والكنس والمساجد والمعابد والقبور «وقدمت السلطات التركية في الاستانة وسورية والقدس كل مساعدة ممكنة كما أبدى العرب موقفاً ودياً»<sup>(٢١)</sup>.

وولتخليص نتائج بعثة ويلسون أوضحت اللجنة في تقريرها الاسباب التي تحث على القيام بمسح كامل ودقيق لفلسطين، والدعوة للبحث العلمي في تلك الآثار «الوثيقة الصلة بالتاريخ التوراتي». وأشار التقرير الى أن ما تبقى لانجازه في طبوغرافية المنطقة بين القدس والاردن كبير، وخاصة شبكة الوديان المعقدة نحو أريحا التي «عزّتها تحركات شعب اسرائيل»، ولذا فان وادي الاردن وحوض البحر الميت يحتاجان الى توضيح مشابه لما قدمته الخريطة الطبوغرافية الحالية بشأن وسط فلسطين، وكذلك فان المنطقة الواقعة شرقي الاردن تحتاج الى قدر مشابه من الملاحظة العلمية، ويمكن عندها اعتبار ان عملية مسح فلسطين قد اصبحت كاملة.

ورغم تقدير اللجنة لأهمية الابحاث الطبوغرافية والأثرية إلا انه ليس في نيتها اهمال التحريات العلمية التي وضعها البيان التمهيدي، ومن أجل ذلك تتجه نية اللجنة الى ارسال مراقبين اكفاء يتولون القيام بتحري ووصف جيولوجية البلاد وتاريخها الطبيعي وهم مزودون بالوسائل والادوات اللازمة للقيام بالتحري الدقيق، ولذا، وبعد الأخذ بعين الاعتبار عملية الاستطلاع الاولى التي قام بها ويلسون، تقترح اللجنة توجيه جهودها نحو الأهداف التالية:

- ١ - مسح فلسطين العربية بمقياس رسم يكفي لتوضيح الصفات الجغرافية والطبوغرافية والمدن والقرى «والتلال» (اي: مواقع المدفونة) والبقايا الأثرية.
- ٢ - مسح مشابه للمنطقة شرقي الاردن.
- ٣ - القيام بتحريات في القدس من اجل دراسة تاريخ المدينة القديمة الكامنة الان تحت ترآم القرون.
- ٤ - الكشف والتنقيب في التلال والروابي المبعثرة بأعداد كبيرة في انحاء البلاد وتحوي كل منها تاريخ مدينة مدفونة.

٥ - التحري في فلسطين عن الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي والظواهر الجوية بأسلوب دقيق وعلمي.

## ب - الاستكشافات في القدس ١٨٦٧-١٨٧٠:

رغم ما أبدته لجنة الصندوق في تقريرها السابق من اهمية المسح الدقيق للبلاد كخطوة اولى نحو الاستكشاف العلمي المقترح لفلسطين، إلا انها وجهت بعثتها الثانية نحو المدينة المقدسة « نظرا لان عددا كبيرا من المتبرعين للصندوق كانوا يعنون بصفة خاصة بأمر مرتبطة بالقدس<sup>(٢٢)</sup> » وكانت التوجهات التي اعطيت للبعثة هي ضرورة التوصل الى حل المسائل التي يثور حولها الجدل وأهمها<sup>(٢٣)</sup>:

- ١ - تحديد موقع هيكل اليهود (الذي بناه سليمان وهدمه تيتوس).
- ٢ - تحديد سنة انشاء قبة الصخرة المشرفة (التي تسمى خطأ مسجد عمر).
- ٣ - تحديد موقع كنيسة القيامة (هل تقوم على موقع الكنيسة التي انشأها الامبراطور قسطنطين في القرن الرابع).
- ٤ - تتبع جدران القدس الثلاثة التي وضعها المؤرخ اليهودي يوسيفوس.
- ٥ - تحديد ابواب المدينة القديمة المشار اليها في التوراة وفي كتابات يوسيفوس.
- ٦ - تحديد اماكن اخرى هامة مواقعها الحقيقية غير مؤكدة كمدينة داود وقبر هيرود، وكانت النظريات المختلفة بشأن هذه القضايا مبنية على آراء المؤلفين الشخصية وعلى اشارات طبوغرافية مبعثرة في التوراة وفي وصف يوسيفوس والكتّاب المسيحيين الأوائل والحجاج المسيحيين واعتمدوا على الروايات وكثير منها خاطيء وخضع للتغيير من جيل الى آخر، ولا بد للتعرف على الحقيقة - كما تقول التعليمات التي وجهتها لجنة الصندوق - من التأكد مما هو موجود في باطن الأرض وكشف بقايا الابنية القديمة ولو امكن اعادة تركيب مخطط البناء كما كان قبل تهديم تيتوس.

وقبل الشروع بالعمل تقدمت لجنة الصندوق ١٨٦٧ بطلب الى وزارة الحربية للاستفادة من خدمات الملازم (لفتينانت) تشارلس وارن Warren وهو ضابط في سلاح الهندسة الملكية، ومساعدى السفير البريطانى في الأستانة بعثت الحكومة العثمانية الى السلطات العثمانية في القدس لتقديم التسهيلات المناسبة للاستكشاف. ووصل وارن على رأس فريق من سلاح الهندسة الملكية الى فلسطين في شباط ١٨٦٧ واستمر العمل حتى ١٨٧٠.



ونظرا لأن بعض القضايا الهامة التي حددت في مهام البعثة كانت في اماكن قريبة من الحرم الشريف<sup>(٢٤)</sup> كان من الصعب على البعثة القيام بتحرياتها في هذه المنطقة. وتقرر بدء العمليات بتفحص الجدران الخارجية. وقد اثبتت التحريات الأولى ان الجدران الخارجية هي في الحقيقة اضعف من منظرها الخارجي لاختفائها وراء بعض الابنية وتراكبات التربة. ووجد أن الطريقة الوحيدة للوصول الى الاساس هي حفر الانفاق والممرات تحت الارض كأسلوب العمل في المناجم<sup>(٢٥)</sup>. وللتغلب على اعتراضات السلطات المحلية بشأن اعمال الاستكشاف قرب منطقة الحرم احتالا وارين بحفر الانفاق على مسافة بعيدة خارج الجدران ثم دفع الممرات تحت الارض نحو الجدار ثم فحصه من عدة نقاط فتبين له ان الجدار هو اكثر ارتفاعا مما كان متوقعا وخاصة عند الزاوية الشمالية الشرقية، كما حفر عددا من الانفاق على طول وادي Tyropoeon ملاصقا لقوس «روبنسون» الذي هو بداية طريق معمد ضخيم يمتد من الحائط الغربي لمنطقة الحرم الشريف ملاصقا لزاويته الجنوبية. واكتشف وارين قناة محفورة في قعر الوادي (بعمق ١٢ قدما وعرض ٤ أقدام) كانت تستخدم لجلب المياه للمدينة السفلى. وقام بفحص البركة المعروفة ببركة سلوان (ويعتبرها موقع مدينة داود).

ألا ان وارين لم يستطع القيام باستكشاف على طول جدار الداخلي مشابه لما قام به في الجدار الخارجي. ومع ذلك فقد اجرى فحصا دقيقا لقبة الصخرة، وكثير من الخزانات المحفورة في الصخر لخرن المياه ضمن منطقة الحرم، كما قام بالعمل في اجزاء أخرى من القدس مضيفا الى المعلومات التي حصل عليها ويلسون فيما يتعلق بالجدران والابواب واقنية جسر المياه للمدينة.

وخلال سير عمليات الاستكشاف كان وارين يرسل بتقاريره الى لجنة الصندوق. وبعد عودته الى انجلترا نشر مجلدا بعنوان «عودة القدس» Recovery of Jerusalem قدم فيه خلاصة لاستكشافاته. وبعد سنوات نشر مؤلفا آخر عنوانه «القدس الدفينة» Underground Jerusalem ولكن اهم الكتب التي عاجلت حفريات وارين هو مجلد القدس في المجموعة المسماة: مذكرات عملية مسح فلسطين الغربية Memoirs of the Survey of Western Palestine الذي نشرته لجنة الصندوق عام ١٨٨٤، وأرفق بأطلس فيه ٥٠ لوحة ضخمة هي نسخة طبق الاصل عن مخططات رسمها وارين بنفسه. وتفيد دراسة هذا المجلد في فهم تاريخ القدس القديمة ومعرفة التغيرات التي حدثت في المدينة منذ العصور القديمة.

ورأت اللجنة ان كشوف وارين لم تحل النقاط مثار الجدل<sup>(٢٦)</sup> لأنه ليس من المعقول حل

مشاكل طبوغرافية القدس المعقدة بسبر عدد من الاماكن المتفرقة داخل المدينة وحوها الا انها - بنظر اللجنة - قد اظهرت مدى الكنوز التي لا تزال محتبئة داخل المدينة وحوها بانتظار قدوم بعثة اخرى تقوم بالعمل المنظم ولها تمويل كاف<sup>(٢٧)</sup>.

وخلال السنوات التي عمل فيها وارين في القدس قام بالتعرف على انحاء اخرى من فلسطين فقام برحلة الى غزة وعسقلان ومدن كثيرة على ساحل فلسطين الجنوبي مسح فيها ٨٠٠ ميلا مربعا، كما سافر الى وادي الاردن وشرقي الاردن ولبنان وجمع معلومات هامة عن الاثار القديمة للمدن والمعابد، وطبعت تقاريره في دورية الصندوق والمجلدات المذكورة سابقا. وأقرت اللجنة ان نتائج بعثته كانت ذات اهمية قصوى وتشكل قاعدة اساسية لدراسة القدس القديمة التي استمرت بعد ذلك، «وان جميع المهتمين بتاريخ التوراة يدنون بالامتنان للطريقة الدقيقة التي قام بها وارين في استكشافه<sup>(٢٨)</sup>».

#### ج - بعثة الى صحراء سيناء ١٨٦٩-١٨٧٣<sup>(٢٩)</sup>.

بعد انتهاء مهمة وارين توقف صندوق الاستكشاف لمدة ٢٠ سنة تقريبا عن القيام بعمليات تنقيب على مقياس واسع الا من بضع مهمات صغيرة، وتوجهت اهتمامات الصندوق لمهمة «مسح فلسطين الغربية» والى اعمال فرعية واطافية اخرى.

ونفذت العملية التالية (لم يمّوها الصندوق وان كانت ضمن اهدافه) في المنطقة الصحراوية التي تفصل جنوب فلسطين عن مصر «لمعرفة الطريق الذي سلكه النبي موسى مع بني اسرائيل في هجرتهم من مصر الى فلسطين وتلقى الشريعة عند جبل موسى». وقد تقدم بتلر P. Butler رئيس كلية (ألكوم) Ulcome في (كنت) باقتراح لجمع مال يخصص للقيام بعملية مسح سيناء لتحديد نقاط الخلاف التي تتعلق بتاريخ التوراة<sup>(٣٠)</sup>. وقد عين لامانة صندوق مسح سيناء كلّ من ميرشيسون R. Murchison رئيساً للجمعية الملكية الجغرافية وهنري جيمس مدير عام المساحة العسكرية Ordnance Survey واختير الكابتن ويلسون للقيام بالمهمة الفعلية (بعد عودته من فلسطين) يساعده الكابتن بالمر E. Palmer وهولاند F. W. Holland السكرتير الفخري لصندوق الاستكشاف. وكان بالمر عالما في المشريات وفي الطبيعة، كما استعين بفريق ضباط من سلاح الهندسة الملكية جاءوا من ساوثامبتون للعمل في المسح.

وقد بدأت العملية من السويس في تشرين اول ١٨٦٨ وانتهت في نيسان التالي، وقد تمّ خلال هذه الفترة مسح دقيق (بمقياس بوصة واحدة للميل الواحد) للمنطقة التي يفترض ان بني اسرائيل قد اجتازوها بعد عبور البحر الاحمر الى المنطقة التي تلقى فيها موسى الشريعة (حوالي ٤٠٠ ميلا مربعا) وتوصل ويلسون ورفاقه الى ان جبل موسى وليس صربال هو المذكور في التوراة. وقد نشرت دائرة المساحة العسكرية عملية كاملة وقدمت الى الصندوق خلاصة عن العمل بعنوان استكشافات في شبه جزيرة سيناء Explorations in the Peninsula of Sinai التي تضمنت في مجلد عودة القدس The Recovery of Jerusalem الذي نشره الصندوق عام ١٨٧٠. وقد اقتصر عمل فريق ويلسون على المنطقة المحيطة لجبل سيناء ولم تشمل التحريات المنطقة التي تقع الى الشمال الشرقي والتي سار خلالها موسى مع بني اسرائيل بعد تلقي الشريعة (وهي المعروفة بصحراء التيه).

وقد رأت اللجنة نظرا لاهمية هذه الصحراء «لدراسي تاريخ التوراة» ارسال بعثة برئاسة بالمر Palmer احد مساعدي ويلسون «خاصة وان معرفته بالعربية تؤهله للقيام بالمهمة لأن الطريق الذي سيسلكه يقع داخل صحراء مجهولة يقطنها بدو رحّل لا ينظرون بؤد للرحالة الاوروبيين<sup>(٣١)</sup>» ورافق بالمر عالم بالتاريخ الطبيعي هو (دريك) T. Drake وقد اتجه الفريق من السويس عبر طريق وادي «الغرنديل» حتى وصل جبل سيناء، ثم توقف ثانية عند «نخل» على طريق الحج من السويس الى العقبة. وبعد اجتياز عدة اودية مهجورة وصل الفريق وادي «قادس» - ربما تكون قادش برينا المذكورة في التوراة بأنها بداية سنوات التيه - الى شمال الوادي يقع النقب، أي جنوب الاراضي المقدسة «التي اقام بها ابراهيم واسحق مؤقتا» ومنها يمر طريق شور Shur «وقد يكون الطريق الذي سلكه يعقوب واتباعه». وقد وجد بالمر في هذه المنطقة عددا من القلاع والكنائس وبقايا خزانات وأقنية ري وتفحص عددا من اثار المدن على الطريق الى بير السبع في جنوب فلسطين منها الخلصة Khalasa. وذهب في رحلة الى عربة وجبل حور وزار آثار البتراء ثم ذهب بطريق البحر الاحمر الى مؤاب عائدا الى القدس بطريق ديبان Diban (في مؤاب) ثم أريحا.

وفي القدس اجري دراسة لتاريخ الحرم الشريف كما يراه المؤرخون العرب<sup>(٣٢)</sup>. وقد نشرت تقارير بالمر عن نتائج كشفه في صحراء التيه في دورية الصندوق عام ١٨٧٠. كما نشرت بشكل موسع في مجلدين عام ١٨٧١ عنوانهم صحراء الخروج The Desert of the Exodus ودلت المعلومات التي جمعها بالمر ودريك بنظر اللجنة الى الحاجة لمسح هذه المنطقة بطريقة اوسع ولكن الظروف حالت دون القيام بذلك حتى عام ١٩١٣<sup>(٣٣)</sup>.

## د - مسح « فلسطين الغربية » ١٨٧١-١٨٧٧

قررت لجنة الصندوق بعد انتهاء عملية استكشاف القدس (وارين) القيام بمسح دقيق لفلسطين الغربية (اي: المنطقة الممتدة من البحر المتوسط غربا الى نهر الاردن شرقا) بحيث تكون منطلقا لاعمال اخرى من اعمال اللجنة، وتوجهت اللجنة ببناء خاص للجمهور في حزيران<sup>(٣٤)</sup> ١٨٧١، اوضحت فيه الاهداف المرتقبة والاسلوب المقترح للعمل. وأوضح النداء انه رغم تقدير الأهداف الأخرى للصندوق (التي قدمت في البيان التمهيدي) فان عملية مسح فلسطين تبدو الهدف الرئيسي في الوقت الراهن نظراً لأن الخرائط المتوفرة لفلسطين حتى الآن ليست دقيقة او كاملة وهي تحوي كثيرا من الاخطاء (عدا تلك التي وضعها لنش Lynch وفان دي فيلده Van de Velde وويلسون واندرسون ووارين والمسح الذي قامت به الاميرالية للخط الساحلي)، كما ان كثيرا من مواقع التوراة لم تحدد بعد وكذلك مواقع الودية والجبال وتثبيت خطوط العرض والطول.

ويستحث النداء اسهام « كل من يرى في التوراة الكتاب المقدس الجدير بالدراسة»، لأن هدف الخطة الاساسي هو اتاحة الفهم الصحيح للكتاب المقدس وكشف مدى صحته وامانته في ادق التفاصيل. ويضيف النداء ان عملية مسح فلسطين تقسم الى قسمين شرقي الاردن وغربه، وان جمعية امريكية مستقلة ستولى اللجنة الانكليزية (أي: الصندوق) المنطقة الغربية. وان البعثة الانكليزية التي ستشرع بالعمل في الخريف ستكون كالسابقة تحت امرة ضباط من سلاح الهندسة الملكية. ويقدر ان يستغرق العمل عدة سنوات ويبقى المساهمون بالصندوق على اطلاع بسير العمل من خلال الدورية.

اما القضايا التي سيتوجه اليها عمل الفريق فهي: وضع خريطة بمقياس رسم «بوصة واحدة لكل ميل» - وضع مخططات بمقياس اكبر للمدن الاثرية والمواقع الهامة - عمل رسوم ومخططات اكثر تفصيلا للمباني والقبور - اجراء حفريات في الاماكن الهامة - جمع اسماء المواقع القديمة و «الخرائب» والقرى - التقاط الصور - جمع العينات الجيولوجية والاثار - جمع العينات الحيوانية والنباتية<sup>(٣٥)</sup> - عمل رسومات مجسمة وتصوير الاشياء والكتابات الاثرية والنقوش، الى غير ذلك.

وبعد جمع المال<sup>(٣٦)</sup> اللازم تقدمت لجنة الصندوق بطلب لوزارة الحربية للاستعانة بمخدمات ضباط من سلاح الهندسة الملكية يتولى مسؤولية البعثة، ووقع الاختيار على النقيب (كابتن) ستوارت R. W. Stewart من مساعدي (سيرجنت) بلاك Black و (كوربورال)

ارمسترونج Armstrong ونزل فريق العمل في يافا في تشرين الثاني ١٨٧١ وبدأ باختيار نقاط ملائمة تشكل اساس المسح الطبوغرافي، وبعد اصابة ستوارت بالحصى عاد الى انجلترا واستدعي دريك T. Drake من دمشق (وكان قد رافق بالمر في بعثة صحراء سيناء) للانضمام لفريق المسح<sup>(٣٧)</sup> بصفته خبيراً بالعربية ومترجماً وعالماً في الآثار والطبيعة. وظل مسؤولاً عن عملية المسح حتى تموز ١٨٧٢ الى ان جاء الملازم (لفتنانت) كلود كوندر C. Conder من سلاح الهندسة ليرأس البعثة وقد انضم اليها في نابلس (بعد ان كانت قد اتمت مسح ٥٦٠ ميلاً مربعاً) وجرت دراسة دقيقة لكل ما له قيمة اثرية وثبتت مواقع التلال التي تغطي مدناً قديمة، وملكت التفاصيل الطبوغرافية، وجرى التأكد من الاسماء المحلية الحديثة وارسلت تقارير كاملة نشرت في دورية الصندوق لاطلاع المتبرعين على سير العمل قبل نشر المذكرات عند انتهاء عملية المسح.<sup>(٣٨)</sup>

وبسبب نقص التمويل الثاني لمواجهة النفقات استغرق العمل فترة اطول مما كان متوقعا، وحتى نهاية ١٨٧٢ كان قد تم مسح ١٢٥٠ ميلاً مربعاً شمل مساحة بين الساحل وخط شمال جنوب من الناصرة حتى القدس. وفي خريف ١٨٧٣ تحرك الباحثون الى وادي الاردن لبدء العمل وبسبب اصابة كوتندر دريك بالحصى قرب أريحا توقف العمل حتى شباط ١٨٧٤ حيث استؤنف على طول وادي الاردن الى بحيرة طبريا. وفي أيار غادر كوندر البلاد الى انجلترا بإجازة، فقدم تقريراً عن تقدم العمل في الاجتماع السنوي للجمعية<sup>(٣٩)</sup>. واثناء غيابه توفي دريك في القدس وحل مكانه الملازم (لفتنانت) كيتشنر H.H. Kitchener كمسؤول ثان في قيادة فريق المسح (وكان ضابطاً صغيراً في سلاح الهندسة - التلغراف الميداني)<sup>(٤٠)</sup> واصبح من اكثر افراد الفريق فعالية. وحتى حزيران ١٨٧٥ كان قد مسح ٤٤٠ ميلاً مربعاً.

ثم تقدمت عمليات المسح الى الشمال حيث جرت مشادة عنيفة بين افراد البعثة وجماعة من اهالي صفد اسفرت عن اصابة كوندر كيتشنر<sup>(٤١)</sup> ورفع تقرير الى وزارة الخارجية عن طريق القنصل العام في بيروت (كما رفع تقرير تفصيلي الى سلاح الهندسة الملكية). وتقرر وقف العمل الى ان تتم محاكمة المتهمين ومعاقتهم. وعقدت المحاكمة في عكا حضرها كوندر وكيتشنر كشاهدين، وسجن المتسببون بالحادث وفرض على اهل صفد ١٥٠ جنيتها<sup>(٤٢)</sup>. وشغلت الاجراءات المتعلقة بالحادث وقتاً طويلاً كلّف خلاله فريق العمل على اعداد المواد التي اتوا بها الى لندن في قاعة ألبرت الملكية Royal Albert Hall وتولى ويلسون وجروف تحرير المذكرات، كما ساعد اندرسون في تحرير الخريطة التي تقرر نشرها في ٢٦ لوحة بمقياس

رسم «بوصة للميل الواحد»، مع نسخة ثانية بمقياس أصغر للرحالة ودارسي التوراة.

وكان قد ظل قسم كبير من الجليل وقسم صغير من الجنوب لم يتم مسحهما بعد (اي: حوالي ١٢٠٠ ميلا مربعا) فاعطيت ادارة العملية الى كتشنر (بعد تحلي كوندر لانهماكه بعملية الاعداد للنشر) ووصل الفريق الى صفد في نيسان ١٨٧٧<sup>(٤٣)</sup>. وانفذت عملية المسح في الجليل بسرعة (في فترة اشتد فيها القلق بسبب الحرب الروسية العثمانية). وفي ١٠ تموز كان قد تم مسح ١٠٠٠ ميل مربع ووضعت المخططات ووصفت القرى والمواقع الأثرية وطبيعة البلاد<sup>(٤٤)</sup>. ثم ذهب كتشنر مع بعثة اصغر الى الجنوب وتم مسح ٣٤٠ ميلا مربعا حول بئر السبع وانتهى العمل في ايلول ١٨٧٧.

وفي كانون الثاني ١٨٧٨ انضم كتشنر الى كوندر في متحف الصندوق لمتابعة اعداد وكتابة المذكرات ولوحات الخريطة<sup>(٤٥)</sup>. وقد ترك كوندر العمل في الصندوق في ايار، واستمر كتشنر في عمله في المتحف حتى ايلول حيث كلفته وزارة الخارجية بالاشراف على مسح قبرص<sup>(٤٦)</sup> (وكان السلطان العثماني قد تنازل عنها في مؤتمر برلين).

واستغرقت عملية مسح فلسطين الغربية حوالي ست سنوات. وبعد الانتهاء من الخريطة قامت ادارة المساحة العسكرية Ordnance Survey في ساوثامبتون بتصويرها ونشرت عام ١٨٨٠. وبين ١٨٨٠-١٨٨٤ نشرت لجنة الصندوق العمل كاملاً تحت عنوان: Survey of Western Palestine of شمل سبعة مجلدات:

المذكرات: وهي في ثلاثة مجلدات تحوي الرسوم والمخططات والملاحظات والمعلومات التي قام بها ضباط عملية المسح وفيها وصف جغرافي وطبوغرافي للوحات الخريطة وتقرير تفصيلي عن الآثار القديمة وملاحظات عن السكان. قوائم الأسماء: وتحوي اكثر من ١٠٠٠٠ اسم جمعت خلال عملية المسح ونقلت بحروف انجليزية وترجمت. اوراق خاصة: وهي اعادة نشر البحوث والاوراق التي ظهرت تباعا في الدورية. مجلد القدس: ويعطي تقريرا وافيا عن حفريات واربن مع وصف لحفريات وبحوث اخرى قام بها ويلسون وكوندر وجانو<sup>(٤٧)</sup> Cannean وشابلن Chaplin وتشك<sup>(٤٨)</sup> Schick الحياة النباتية والحيوانية: كتبها تريسترام C. Tristram

وبعد انتهاء عملية المسح كتب كوندر تقريرا اكثر تبسيطا لاطلاع جمهور اوسع لا تصله مطبوعات اللجنة العلمية في مجلد عنوانه: Tent Work in Palestine وفيه شرح للعمل الذي

انجز والاساليب التي اتبعت. واعدت طبعة اخرى من الخريطة على مقياس اصغر ( ٣ بوصة لكل ٨ اميال مربعة ) انتهت عام ١٨٨٤ على اربعة اشكال:

فلسطين الغربية: وعليها الاسماء العربية الحديثة.

فلسطين الغربية: وعليها اسماء العهد القديم التي امكن التحقق منها.

فلسطين الغربية: وعليها اسماء العهد الجديد ( الانجيل ).

فلسطين الغربية: تبين مصادر المياه وتوزيعها<sup>(٤٩)</sup>.

واهم النتائج التي اسفر عنها العمل بنظر اللجنة<sup>(٥٠)</sup> هي:

أولاً: تحديد عدد كبير من الاماكن المذكورة في التوراة لم تكن مواقعها معروفة سابقا ( ٦٢٢ اسم توراتي في غربي الاردن كان قد تحدد منها ٢٦٢ قبل عام ١٨٧٠ ) وتأمل التعرف على عدد اكبر بواسطة ١٠٠٠٠ اسم حديث حددت مواقعها الخريطة).

ثانياً: وصف المظاهر الطبيعية للبلاد لاول مرة بشكل تفصيلي بحيث يمكن لدارسي التوراة متابعة احداث ما يقرأون بدل تتبع وصف الرحالة السابقين.

ثالثاً: التعرف على طبيعة البلد ونباتاتها وحيواناتها وخصوبتها والتعرف على تاريخها القديم من الآثار المتراكمة التي تعلم مواقع المدن القديمة، ويمكن الادعاء كما تقول اللجنة « بأن مسح فلسطين الغربية هو عمل ليس له قيمة كبرى في الوقت الحاضر بل انه قاعدة علمية لكل كشوف الاراضي المقدسة في المستقبل<sup>(٥١)</sup> ».

وخلال عملية المسح استطاعت لجنة الصندوق ان تستعين ( وبموافقة وزارة الخارجية الفرنسية ) بجهود كليرمونت جانو C. Ganneau عالم الساميات والأثري المعروف لتحرّي آثار القدس وفلسطين الجنوبية ( كان قد سبق له وهو موظف في القنصلية الفرنسية في القدس ان قام بكشف وتفسير حجر مؤاب<sup>(٥٢)</sup> كما اكتشف اللوحة اليونانية في القدس ( وكانت أصلاً في المعبد اليهودي ) وأجرى كشوفاً هامة في القدس أواخر عام ١٨٧٣، وزار أريحا وعسقلان وغزة واماكن أخرى في فلسطين الجنوبية، وجمع قدرا من المعلومات وقام زميله المهندس المعماري ليكوم Lecomte باجراء عدد كبير من الرسوم الجميلة للأماكن والأبنية ونشرت رسائل جانو في دورية الصندوق ١٨٧٤، ثم نشرت بعد ذلك بشكل موسع في مجلدين عنوانهما: بحث اثري في فلسطين Archaeological Research in Palestine كملحق لمذكرات « مسح فلسطين الغربية » وفي المجلدين كثير من الرسوم التوضيحية وقدر كبير من المعلومات عن آثار القدس.

## هـ - مسح فلسطين الشرقية ١٨٨٠-١٨٨٢:

وجهت لجنة الصندوق انظارها الى مسح المنطقة الواقعة شرقي الاردن (او: فلسطين الشرقية كما تسميها مطبوعات الصندوق) وكان قد تم الاتفاق على ان تتولى عملية المسح جمعية فلسطين الامريكية American Palestine Society الا انه لظروف عديدة لم تتمكن الجمعية من القيام بذلك فقررت لجنة الصندوق ١٨٨٠ ارسال فريق عمل مهدت له بنشر بيان يصف نتائج عملية المسح السابقة ويشرح العمليات المقترحة في شرقي الاردن ويطلب جمع المال لمواجهة النفقات وكانت المناطق المزمع مسحها حسب ما جاء في البيان<sup>(٥٣)</sup>:

- ١ - منطقة باشان Bashan: وهي منطقة نجدية تمتد من المنحدرات الجنوبية لجبل الشيخ (حرمون) الى جلعاد في الجنوب وتشمل منطقة الجولان وحوران واللجاة.
- ٢ - ارض جلعاد وتمتد جنوباً حتى نهر أرنون.
- ٣ - مؤاب: واهم مدنها ديبان Diban (حيث وجد حجر مؤاب).

وكان يتوقع ان يتم مسح شرقي الاردن بسرعة<sup>(٥٤)</sup> نظراً لأن الوضع الجغرافي اكثر ملائمة وكلف الملائم (لفتنانت) كوندنر بتولي البعثة يساعده لفتنانت مانتيل Mantell مع ضباط من سلاح الهندسة الملكية بموافقة وزارة الحربية. ونزل كوندنر في بيروت في آذار ١٨٨١، وقبل وصول ادوات العمل من إنجلترا قام بزيارة بعلبك والتعرف على موقع قادس من منطقة وادي العاصي ومن حمص عبر الى طرابلس وتتبع الساحل حتى بيروت حيث انضم الى بعثة المسح بعد وصول المعدات. ووصلت البعثة الى القدس في ٧ أيار، الا أن الاوضاع القلقة في المنطقة اثر الحرب الروسية التركية أخرجت القيام بالترتيبات الكافية لحماية فريق العمل حتى آب مع الشيخ «قبلان العدوان». مع ذلك تبين له بعد ان عبر نهر الاردن ان الظروف لم يكن مناسباً للبدء بعملية الاستكشاف وبدا له ان فرصة العمل قد تكون افضل في الجزء الجنوبي من «فلسطين الشرقية». وقد بدأت عمليات المسح في مؤاب، وابدى كوندنر اهتماماً خاصاً بالآثار الحجرية المتوفرة باعداد كبيرة في شرقي الاردن والبحر الميت وقام بتصويرها كما كتب تقريراً عنها (وهي من نوعين: دولمن Dolmens والمنهر Menhirs<sup>(٥٥)</sup>). وجرى العمل بشكل عادي الى ان قام قائم مقام السلط بمنع الفريق من متابعة عملية المسح واضطر كوندنر ورفاقه للعودة الى القدس (كان قد تم مسح ٥٠٠ ميل وجمعت كمية من المعلومات قبل ان يتوقف العمل). وفشلت المحاولات التي بذلت في الآستانة لاستصدار ترخيص جديد يسمح للبعثة بمتابعة العمل. وخلال فترة الانتظار شغل كوندنر في القدس



بإعداد المواد التي جمعها للنشر. وخلال هذه الفترة زار الأميران ألبرت فيكتور وأمير ويلز جورج مع معلمهم كانون دالتون Dalton بزيارة الأراضي المقدسة حيث رافقهم كاتبين كوندر في رحلتهم عبر البلاد وقام الاميران بزيارة الحرم الابراهيمي في الخليل، وبإذن خاص من السلطات العثمانية زار الفريق الملكي مغارة المقبلية<sup>(٥٦)</sup>.

وقد قطع كوندر صلواته بصندوق الاستكشاف بعد قيام ثورة عرابي واعداد الحملة الانجليزية على مصر واختير كوندر للخدمة في دائرة الاستخبارات Intelligence Department نظرا لخبرته بالعربية ومعرفته بأهالي الشرق العربي<sup>(٥٧)</sup>.

وقد تم نشر المعلومات التي جمعت خلال عملية مسح هذا الجزء من «فلسطين الشرقية» The Survey of Eastern Palestine يشبه في طبيعته مذكرات المسح السابق. ونشر الكاتبن كوندر في نفس العام نسخة اكثر تبسيطا في كتاب ألفه بعنوان Heth and Moab وفيه وصف مسهب لكشوفاته في موقع قادس على نهر العاصي وكذلك وصف الاثار الحجرية لعصور ما قبل التاريخ في شرقي الاردن.

ورغم فشل عملية «مسح فلسطين الشرقية» واستحالة استئناف العمل، فقد استطاعت اللجنة مواصلة العمل بطريقة اخرى، حيث استخدمت خبرات دكتور شوماخر Schumacher بصفته مهندسا موظفا لدى سكة حديد حيفا - دمشق وكلف بعمل خريطة لحوران والجولان تشمل ٣٤٠ ميلا مربعا، ونشرت الخريطة مع تقارير شوماخر وفيها معلومات قيّمة عام ١٨٨٦ في مجلدين عنوانهما: عبر الأردن A cross the Jordan ومسح الجولان The Survey of the Joulan وقام شوماخر بعملية مسح تالية (٧٠٠ ميل مربع) في منطقة عجلون الشمالية ونشرت هذه العملية مع تقارير شوماخر في مجلد اسمه Abila, Pella and Northern Ajloun<sup>(٥٨)</sup> نشرتهما اللجنة عام ١٨٨٩. وتشمل مخططات للمعابد والباسيليكيا والاكرفمول والكهوف الخ، يرافقها وصف كامل.

وفي عام ١٨٩٠ نشرت لجنة الصندوق طبعة جديدة لخريطة فلسطين بمقياس رسم (بوصة للميل الواحد) تتضمن جميع المعلومات التي تحويها عمليات المسح المختلفة (بما فيها عملية شوماخر ومصادر موثوقة اخرى) وتمتد الخريطة من بعلبك في الشمال الى قادس برنيا في الجنوب وقد نشرت بطبعتين، الاولى تحوى الاسماء الحديثة فقط والثانية اسماء العهد القديم والجديد مع الاسماء المذكورة في الابوكريفا Apocryph (١٤ سفرا تلحق بالعهد القديم)

والمؤرخ اليهودي يوسفوس. وقد هدف من نشر الخريطة ان تكون بمثابة زائري الارض المقدسة ودارسي التوراة<sup>(٥٩)</sup>.

## و - البعثة الجيولوجية ومسح عربة ١٨٨٣-١٨٨٤

كان من الاهداف الاساسية التي حددها البيان التمهيدي للجنة الصندوق هو التحري الجيولوجي لفلسطين وخاصة وادي الأردن وحوض البحر الميت (ولم يكن يعرف عنها الا القليل) وقد تقرر في تموز ١٨٨٣ ارسال بعثة لهذا الغرض، وامكن الاستفادة من خبرات الاستاذ ادوارد هل E. Hull (مدير المسح الجيولوجي لايرلندا) لتولي العمليات مع ابنه جوردون هل (وكان مصورا بارعا) ويتصرح خاص عهد الى (الكابتن) كتشنر Kitchener (الذي سبق له ان شارك في عملية مسح فلسطين الغربية وكان الان مع القوات البريطانية العاملة في مصر والسودان)<sup>(٦٠)</sup> بمرافقة «هل» يساعده ارمسترونج للعمل على مسح وادي عربة، ذلك المنخفض الشهير الذي يمتد من الطرف الجنوبي للبحر الميت الى اقصى الطرف الشمالي لخليج العقبة لربط عملية المسح الحالي بالعمليات التي تمت سابقا في فلسطين.

وقد غادر «هل» مع فريق العمل لندن في تشرين الاول ١٨٨٣ وقابل كتشنر في مصر واتجهوا منها الى السويس حيث تمت الاعدادات لعبور الصحراء الى العقبة<sup>(٦١)</sup> فاتبعوا طريق صراييط الجمل فوادي «نصب» لتفحص الاحجار الكلسية ذات المستحاثات في هذا الجزء من الصحراء وذلك لتحديد عصرها الجيولوجي، ثم رحلوا عبر المناطق الغرائبية في شبة جزيرة سيناء ودرسوا التشكل البركاني لسبل موسى والجبال المجاورة التي تتميز عن الحجارة الكلسية والرملية في تلال الشمال. وقد وصلوا وادي عربة في نهاية تشرين الثاني وبدأت عمليات المسح باتجاه البحر الميت ومن هناك تحول المكتشفون غربا الى بحر السبع وتل ابو حزيري حيث افترق الفريق وعاد كتشنر الى الاسماعيلية عبر الصحراء<sup>(٦٢)</sup> بينما تابع «هل» ورفاقه الطريق الى غزة فياها فالقدس وتوجهت البعثة بعد ذلك نحو وادي الاردن والبحر الميت وهي منطقة لها اهمية جيولوجية خاصة.

وقد عرض «هل» نتائج العملية في تقرير خلاصته: انه قد تم مسح كامل للمنطقة بين جبال سيناء ووادي عربة يحدها غربا نجد «التيه» وشرقا جبال ادموم ومؤاب. واعدت البعثة خريطة بمقياس رسم البوصة للميل (نفس مقياس الخريطة المصغرة) كما اجرت بعض التصحيحات للخط الساحلي لخليج العقبة وحدود البحر الميت، كما اجرت عملية استطلاع

جيولوجي عبر مناطق سيناء والعقبة ووادي عربة. وعرض «هل» وصفاً كاملاً لنتائج بعثته في مؤلف عنوانه: Mount Seir, Sinai and Western Palestine ونشر المؤلف عام ١٨٨٥ وأرفقه بخريطة جيولوجية تضم النتائج التي توصل اليها، وتشمل الخريطة المنطقة شرقي مصر (صحراء سيناء وفلسطين) كما نشرت اللجنة في عام ١٨٨٦ مجلداً أكثر اتساعاً للاستاذ «هل» حول نفس الموضوع بعنوان: The Geology of Palestine and Arabia Petroea. وترى لجنة الصندوق ان هذين الكتابين يستحقان دراسة عميقة من الذين يودون فهم التاريخ الجيولوجي للاراضي المقدسة ومعرفة التغيرات التي مرت منذ عصور ما قبل التاريخ<sup>(٦٣)</sup>. واكثر هذه التغيرات حداثة له ارتباط هام بتاريخ التوراة (مثلاً: عبور بني اسرائيل البحر الاحمر وموقع سدوم وغيره).

### الحفريات في تل حسي (لاكيش) ١٨٩٠-١٨٩٢:

باستثناء عمل الكابتن واين في القدس شغلت لجنة الصندوق بعمليات المسح التي تهتم بصورة اساسية بالصفات الجغرافية والطبوغرافية للبلاد، وبعد ان اعدت ونشرت كل المعلومات التي جمعت، قررت اللجنة تولي مهمة كشف باطن الارض خاصة وقد لفتت عمليات المسح الانتباه الى التلال المبعثرة في انحاء البلاد التي تبدو بالنسبة للرحالة العادي وكأنها تلال صغيرة وانما هي اكوام تغطي وتعلّم مواقع القرى والمدن القديمة، ولكن بتعاقب العصور لم يبق من اثرها شيء ظاهر وسوّت الرياح والأمطار جوانب التل<sup>(٦٤)</sup>

وكان من الضروري قبل بدء العمل الحصول على ترخيص من السلطات العثمانية وفقاً للقانون العثماني الذي يخطر عمليات التنقيب الاثرية قبل الحصول على الاذن الرسمي<sup>(٦٥)</sup>. وبناء على طلب لجنة الصندوق تقدمت وزارة الخارجية البريطانية ١٨٨٨ بطلب الاذن من السلطات العثمانية وكان المركز الذي اختير للتنقيب هو تل حسي (١١ ميلاً شمال شرق غزة) وهو موقع المدينة القديمة لأكيش Lachish وتولى العملية دكتور فلنדרز بتري F. Petrie (خبير الآثار المصرية) وقد ساعدته خبرته السابقة (التنقيب الاثري وتحديد الفترات التاريخية بدراسة قطع الفخار) في عمله في موقع تل حسي<sup>(٦٦)</sup>. وقد ارجع تاريخ الموقع الى القرن السابع عشر قبل الميلاد (حيث بدأت الفتوحات المصرية في آسيا ووجد شعب فلسطين ضرورة بناء الاماكن المحصنة) وحدد بتري تواريخ الفترات المختلفة لسكنى الموقع حتى عهد نبوخذ نصر. وقد نشرت نتائج كشوف «بتري» في مجلد تحت عنوان «تل

الحسي» (لاكيش) عام ١٨٩١ وفيه وصف كامل لسير العمل واساليبه في تصنيف الفخار واستخدامه كمفتاح لتوضيح تاريخ الموقع.

وبعد عودة «بيري» الى مصر تولى العمل دكتور بلس Bliss (هو ابن رئيس الجامعة الامريكية في بيروت وله معرفة دقيقة بالعربية وخبرة في التنقيب الأثري وسبق له العمل مع بيري في مصر) ولمدة عامين (حتى كانون ١٨٩٢) عمل في نفس الموقع وتمت ازالة التراب عن ثماني مدن متعاقبة مدفونة تحت الاطلال (على عمق ٦٠ قدما) وجرى قياس جدران وابنية كل مدينة بدقة تامة كما وضعت مخططاتها وحددت مواقعها الصحيحة في الترتيب التاريخي. واكد «بلس» استنتاجات «بيري» عن انها كانت حصنا للكنعانيين قبل غزو الاسرائيليين لفلسطين وانها قد هجرت قبل غزو الرومان، كما استدل من الآثار على العلاقة بين لاكيش وتل العمارنة. وعرض «بلس» وصفا كاملا<sup>(٦٧)</sup> لعمله في تل حسي في كتابه «اكمة من عدن مدن» A mound of many cities نشرته الجمعية في ١٨٩٤ وهو موضح بالمخططات والرسوم وصور الادوات التي كشفت عنها الحفريات، وكانت تل حسي اول التلال التي كشفت عنها الحفريات بصورة صحيحة واطهرت النتائج الالهية الكبرى لمثل هذه الحفريات<sup>(٦٨)</sup>.

### ح - الاستكشافات في القدس ١٨٩٤-١٨٩٧:

بعد انهاء العمل في تل الحسي توجه الصندوق مرة اخرى نحو القدس لمتابعة العمل الذي بدأ به «وارين»<sup>(٦٩)</sup>. وقد قررت اللجنة اجراء فحص دقيق لبقايا الجدار الخارجي في الجهة الجنوبية من المدينة (وهو جدار وصفه يوسفوس اثناء حصار تيتوس) وخوّل التصريح العثماني عام ١٨٩٤ الاذن بالتنقيب<sup>(٧٠)</sup> في المنطقة الممتدة من غرب سلوان حتى قدرون شرقا وتولى عمليات التنقيب «بلس» يساعده ديكي A. Dickie (استاذ الآثار في جامعة مانشستر) للقيام بعمل المخططات والرسوم. وقد جرت عمليات التنقيب بواسطة الخنادق والممرات بطريقة مماثلة لطريقة وارين (وان لم تكن بنفس العمق - ٤٢ قدما) نظراً لأن جزءا من الجدار كان مدفونا تحت الأرض وقد تتبع بلس الجدار الجنوبي للقدس من جبل صهيون حتى وادي قدون (باتجاه الزاوية الجنوبية الشرقية لمنطقة الحرم). وحدد مواقع ابوابه كما تعرّف على بعض ابراجه وهي جزء من نظام معقد للتحصينات لها قيمة اثرية كبيرة.

وقد استمرت عمليات بلس حتى حزيران ١٨٩٧ حيث انتهت مدة الاذن العثماني (وكما

اشترط نص القانون اعيد ملء الخنادق والممرات) ونشر بلس وصفا كاملا لعمليات الحفر في مجلد طبعته اللجنة بعنوان «حفريات القدس ١٨٩٤-١٨٩٧» Excavation at Jerusalem 1894-1897 موضعاً بالرسوم والمخططات التي وصفها ديكي Dickie وفي عام ١٨٩٥ توجه بلس ببعثة الى شرقي الاردن تفحص خلالها كنائس مأدبا وابنية اخرى هامة في ديبان والكرك<sup>(٧١)</sup>

### ط- الحفريات في تل الصافي، تل زكريا، تل الجديدة، تل ساندهانه ١٨٩٨-١٩٠٠

بعد النتائج التي امكن الحصول عليها من حفريات تل حسي وبعد انتهاء العمل بالجدار الجنوبي في القدس، رأت اللجنة متابعة الكشف عن التلال المنتشرة في الساحل الفلسطيني (لتحديد الاماكن المذكورة في تاريخ العهد القديم) واهمها تل الصافي (جنوب الرملة) التي يفترض انها موقع مدينة «جات» Gath (المدينة الكنعانية التي ورد ذكرها في التوراة في اخبار الحرب بين الاسرائيليين والفلسطينيين، كما كانت موقعا هاما في حروب صلاح الدين والصلبيين)، وقد تولى بلس عملية الحفريات يساعده العالم ماكاليستر Macalister ونظرا لانه طلب الاذن كان لا بد ان يرفق بمخطط مساحته ١٠ كم<sup>٢</sup> فقد اضيف الى المنطقة المقترحة لاجراء التنقيب فيها ثلاثة تلال اخرى هي تل زكريات الجديدة وتل ساندهانه (وهي اماكن هامة في الماضي رغم ان اسماءها غير معروفة) وقد شرع بالعمل في تشرين اول ١٨٩٨ في تل زكريا اولاً (في منتصف الطريق بين القدس وعسقلان) وفي ايار ١٨٩٩ انتقل التنقيب الى تل الصافي، وفي تشرين الثاني ١٨٩٩ الى تل الجديدة (قرب بيت جبرين) وفي حزيران ١٩٠٠ انتقل مخيم التنقيب الى ساندهانه آخر اربع تلال يشملها الاذن العثماني (ويظن انها موقع مدينة مرش Marissa القديمة).

وامكن خلال عمليات التنقيب في هذه التلال باسلوب حفر الخنادق تتبع جدرانها وخطوط التحصينات فيها وبقايا الابنية، وتم وضع المخططات ودراسة الآثار والفخار، بحيث امكن تحديد الفترات التاريخية للموقع والسكان الذين شغلوه. وبانتهاء فترة الاذن الممنوح في خريف ١٩٠٠ اغلقت الخنادق والممرات نهائياً وملئت، وكان بلس وماكاليستر يرسلان بتقارير كاملة عن عمليات التنقيب بين حين وآخر<sup>(٧٢)</sup>.

وبعد انتهاء العمل نشر مجلد عنوانه حفريات في فلسطين خلال سنوات ١٨٩٩-١٩٠٠ Excavation in Palestine during the years 1899-1900 موضحة

بالمخططات والرسوم التي أعدها ماكاليستر Macalister كما أعد دراسة وصفية للفخار والآثار الأخرى وأعد العالم Wunch فضلا عن مجموعة النقوش اليونانية في ساندهانة<sup>(٧٣)</sup>.

## ي - حفريات تل جزاري Jezari (جزر) ١٩٠٢-١٩٠٥، ١٩٠٧-١٩٠٩

تقدمت لجنة الصندوق ١٩٠١ بطلب إذن جديد من السلطات العثمانية لمتابعة العمل بموقع جديد هو تل جزاري (جنوب الرملة عند محطة السكة بين يافا والقدس) وهو احد المواقع القديمة التي امكن تحديدها بدقة (كان العالم الفرنسي جانو Ganneau قد حددها منذ ثلاثين سنة اثناء اقامته في القدس واجرائه بحوثه الاركيولوجية). واقدم ذكر للموقع ورد في رسائل تل العمارنة وكانت جزر مدينة كنعانية مشهورة قاومت غزو الاسرائيليين واكتسبت اهمية خلال حروب صلاح الدين ضد الصليبيين، وقد تولى عمليات الحفر فيها (ماكاليستر) وكان قد ساعد (بلس) في تل الصافي وبدأت العمليات في حزيران ١٩٠٢ بحفر الخنادق داخل الاطلال، وتبين من نتائج الحفريات توالي فترات متعاقبة من السكنى تعود الى عصر سكان الكهوف والادوات الحجرية. وقد كشف بقايا حصن كنعاني ونفق عظيم يؤدي الى نبع تحت الارض (تقول الروايات التقليدية ان لهذا صلة بقصة طوفان نوح).

وقد شغل التنقيب عن هذا الموقع خمس سنوات في موسمين<sup>(٧٤)</sup> ونشر ماكاليستر نتائج التنقيب في كتاب عنوانه: «اضواء جانبية على التوراة من تلة جزر» Bible Side Lights from the Mound of Gezer اوضح فيه ما ألقته كشوف «جزر» من اضواء على تاريخ التوراة.

وبانتهاء المرحلة الثانية من عملية التنقيب ١٩٠٨ كان ماكاليستر قد اضاف قدرا كبيرا من المعلومات الى سجل علم الآثار الفلسطينية. فعمل ٦٠٠٠ مخطط ورسم حوالي ٥٠٠ صورة وأعدّ تقريرا كاملا ضمنه ملاحظات اكتشافه في ثلاثة مجلدات نشرت عام ١٩١٢ تحت عنوان «حفريات جزر» Excavation of Gezer in 1902- 5& 1907-9 والمجلد الثالث يحوي الوسائل التوضيحية، وهو من اضعف الاعمال التي نشرت حول تاريخ تل اثري، ولم تكن «جزر» سوى واحدة من عدة تلال.

## ك - الحفريات في عين شمس (بيت شمس) ١٩١١-١٩١٢:

بعد تل جزاري طلبت اللجنة من ماكاليستر كتابة تقرير عن مواقع تلال اخرى تصلح

للتابعة التنقيب فيها، واختيرت عين شمس (التي يعتقد انها موقع بيت شمس المذكورة في العهد القديم) وتقع قرب محطة دير أبان (على خط سكة الحديد بين يافا والقدس جنوب وادي الصرار، أحد الطرق الرئيسية بين السهل الساحلي والقدس) وقد اشير للمدينة في قائمة البلاد التي فتحها رمسيس الثاني باسم شماشانا Shamashana وكانت مدينة كنعانية مشهورة قبل تاريخ الغزو «الاسرائيلي». وقد وقع الاختيار على العالم ماكنزي D. Mackenzi<sup>(٧٥)</sup> لتولي عملية الحفريات نظرات لخبرته في الاثار اليونانية وحفريات كنوسوس في كريت. ورافقه نيوتن F. G. Newton لعمل المخططات والرسوم. وقبل وصول التصريح العثماني قام ماكنزي ونيوتن برحلة الى مؤاب وآدم بهدف تفحص آثار احجار ما قبل التاريخ Dolmens, megalithic كما عمل قياسا لحزنة بتراء<sup>(٧٦)</sup> ومخططات دقيقة لها ولمدينة ديبان (حيث وجد حجر مؤاب ١٨٦٨).

وبعد وصول التصريح بالتنقيب في عين شمس في نيسان ١٩١١ وتبع خلال عامين الجدار الذي يحيط بالمدينة القديمة ووجد بقايا معبد وثني ودير بيزنطي ونفق لتزويد المدينة بالمياه وقبور محفورة في الصخر كما عثر في الطبقات الدنيا على آثار سكنى تعود الى عصور ما قبل التاريخ. ووجد ادوات مختلفة (فخار واختام واسلحة وحلي) من نماذج او تشبه ما وجد في جزر بحر ايجة. وتمكن ماكنزي من خلال دراسة هذه النماذج تحديد الفترات التاريخية المتتالية. وقد انتهت عمليات الحفر في شهر كانون الاول ١٩١٢ واعيدت الارض الى حالتها الطبيعية. ونشرت تقارير ماكنزي في المجلدات السنوية التي نشرها الصندوق في ١٩١١ و ١٩١٢ و ١٩١٣ موضحة بالصورة، ويحوي المجلد الاول وصفا للآثار الحجرية في شرقي الاردن وخزانة البتراء<sup>(٧٧)</sup>.

## ل - مسح فلسطين الجنوبية ١٩١٣ - ١٩١٤

كانت اللجنة قد اتمت عامي ١٨٧١-١٨٧٧ مسح «فلسطين الغربية» وهي المنطقة الممتدة بين المتوسط ونهر الاردن ومن صور وبانياس في الشمال الى خط يسير من غزة جنوبا عبر بئر السبع الى المنطقة المعروفة بالنقب، اي التي تقع بين بئر السبع وخط الحدود المصرية من رفح والمتوسط الى رأس العقبة، وكما تقول اللجنة (هي منطقة يشار لها في كتب العهد القديم في اخبار الآباء الأوائل ابراهيم واسحق ويعقوب واخبار تجول بني اسرائيل في الصحراء بعد ان تركوا مصر قبل وصولهم ارض كنعان). مع ذلك فقد تم الحصول على قدر لا بأس به من المعلومات عن هذه المنطقة في عملية الاستطلاع التي قام بها بالمر ١٨٧٥-١٨٨٠

وعملية مسح وادي عربة ١٨٨٣-١٨٨٤ التي قام بها «هل» و «كتشنر»، كما زار هذا الجزء من الصحراء رحالة آخرون وكتبت حوله عدة بحوث نشرت في دورية الصندوق بين سنوات ١٨٧١-١٩١٢. وكما تقول اللجنة «فان هذه المعلومات لم تعط ذلك القدر الدقيق من المعلومات التي يتطلبها صندوق الاستكشاف وحانت الفرصة التي تطلعت اليها اللجنة ١٩١٣<sup>(٧٨)</sup>.

وفي ذلك العام عهدت وزارة الحربية الى الكابتن نيوكومب S.F. Newcombe واللفتنانت (الملازم) جريج F.C.S. Greig القيام بعملية المسح في منطقة النقب والمناطق الجنوبية من فلسطين الى الحدود المصرية لمتابعة العملية التي بدأها كوندر وكتشنر. وقد وقع الاختيار على نيوكومب نظرا لأنه سبق له مسح شبه جزيرة سيناء من جهة قناة السويس الى الحدود المصرية العثمانية (الفلسطينية)<sup>(٧٩)</sup> وكان يعرف الصحراء بدقة وهو على صلة وثيقة بقبائل المنطقة. وجرى الترتيب بحيث يلتحق بفريق نيوكومب عالمان بالآثار هما (وولي) C.L. Woolley ولورنس T.E. Lawrence<sup>(٨٠)</sup> وكانا يعملان حينذاك بالكشف عن مدينة كركميش الحثية «جرابلس» شمال سورية على الفرات في بعثة اثرية للمتحف البريطاني.

وقسم عمل البعثة الى موضوعين الاول المسح الذي يتولاه ضباط من سلاح الهندسة الملكية. والثاني اثرى ويتولاه وولي ولورنس وكلا الموضوعين باشراف نيوكومب. وبدأت العمليات في غزة في كانون الاول وكان لا بد من ربط عملية المسح هذه بعمليات المسح الثلاث السابقة: اي عملية كوندر في الشمال وكتشنر في الشرق ولجنة الحدود المصرية العثمانية في الغرب، اي ان المنطقة التي يقترح مسحها تشمل حوالي ٤٥٠٠ ميل مربع تحيطها من الجهات الثلاث عمليات المسح السابقة وقد توزع العاملون بالمسح الى خمس فرق، وانتهى ايار ١٩١٤ باستثناء جزء صغير قرب رأس خليج العقبة ( رفضت السلطات العثمانية السماح بدخولها) ولم يكن لهذا المنع تأثير كبير فقد كان كتشنر قد وضع خريطة لهذه المنطقة خلال بعثة ١٨٨٣ وتمت بذلك عملية المسح خلال وقت قصير رغم الصعوبات التي واجهتها وكبر المساحة وصعوبة النقل والتأمين<sup>(٨١)</sup>.

وقد وصل وولي ولورنس غزة في مطلع عام ١٩١٤ وقدم لهما وكيل القنصل البريطاني في غزة كنفيتش Knesevitch<sup>(٨٢)</sup> المساعدة المطلوبة<sup>(٨٣)</sup>، ثم اتجها الى بئر السبع حيث تم الاتفاق مع نيوكومب على اسلوب العمل في البعثة، ومن بئر السبع اتبع طريق «شور» القديم (الذي يقال ان ابراهيم ويعقوب اتبعاه في طريقهما الى مصر) ووضعنا مخططاً للآثار



القديمة وبقايا المدن البيزنطية خالصة Khalasa والرحبية Raheibah والعوجة وعبدة Abda بكل ما فيها من البيوت والكنائس والاديرة والقلاع<sup>(٣)</sup>، وبعد ذلك تقدم العالمان الى سهول القصيمة Kosaima عبر الحدود المصرية ( وهي التي يفترض انها قادش برنيا Kadesh Barnea ونظرا لانها عقدة مواصلات تؤدي الى مصر والخليل ووادي عربة وايلات وبسبب توفر المياه وامتداد التربة الصالحة فقد جزما بأنها كانت مركز بني اسرائيل خلال تجوهم ٤٠ عاما).

وقد افترق العالمان عند القصيمة فاتجه «وولي» شمالا الى عبدة Abda والكرنب Kurnub بينما اتجه لورنس الى وادي لوسان Lussan والكتنلة Kuntilla ثم الى خليج العقبة وبعد ذلك اتجه شمالا الى عربة وجبل الحول فالخط الحجازي عند معان، وقد نشرت نتائج تحرياتها في المجلد السنوي الذي اصدره الصندوق ١٩١٤-١٩١٥<sup>(٨٤)</sup>، وهو موضح بالرسوم والمخططات والصور ونشره هوغارت D.G. Hogarth<sup>(٨٥)</sup> في الفترة التي توجه فيها وولي<sup>(٨٦)</sup> ولورنس الى مصر ليقوما بدورهما في مسرح العمليات الشرقية في الحرب العالمية الاولى. الا ان الخريطة التي اعدت بهد انتهاء نيوكومب من عملية المسح لم تنشر وتوزع وذلك بناء على طلب وزارة الحربية. وانتهت بذلك عملية مسح فلسطين قبل ان تتوقف عملية استكشاف فلسطين خلال فترة الحرب<sup>(٨٧)</sup>.

### رأي في صندوق استكشاف فلسطين:

لا شك ان الاشراف البريطاني على عملية استكشاف فلسطين كان احد اهداف السياسة الخارجية البريطانية منذ ان بدأت بريطانيا تبدي اهتماما بالشرق العربي بسبب تجارتها مع الهند وزاد هذا الاهتمام بعد ان هددت قوى اوربية اخرى هذا الطريق (احلام روسيا القيصرية، حملة نابليون، قوة محمد علي). ومنذ اواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر كان احد الاتجاهات التي لجأت اليها الدبلوماسية البريطانية للسيطرة على الشرق العربي يمر عبر فلسطين. ونوقشت على نطاق واسع في الصحافة وفي الاواسط الحاكمة قضية سورية وجزء من فلسطين الى منطقة للنفوذ البريطاني او مستعمرة بريطانية. ولعب صندوق استكشاف فلسطين الذي اسس عام ١٨٦٥ دورا كبيرا في تأكيد هذا الاتجاه، ومع انه انطلق من فكرة دينية بهدف دراسة كل ما يتعلق بالاراضي المقدسة، الا ان حقول نشاطاته وما قام به من عمليات التنقيب والمسح ووضع الخرائط قد تعدت المسائل الدينية العلمية، ولا يمكن ان نعزوها فقط الى دوافع اثرية دينية، فمعظم الذين قاموا بالبعثات والاستكشافات وتولوا عمليات الحفر والمسح ووضع الخرائط كانوا من وزارة الحربية البريطانية ومن سلاح الهندسة

الملكية بالذات. ومعظم هؤلاء رغم اهتمامهم العميق بالآثار وتعلقهم بتاريخ التوراة وحسبهم العميق بجمال الاراضي المقدسة كانوا يشيرون الى معلومات تدور حولهم ويشاركون في سير الاحداث لخدمة اغراض السياسة البريطانية الخارجية ( كوندرا، بالمر، كتشنر، وولي، لورنس، الخ) ويقر احد متبعي عمل كتشنر في فلسطين « ان كتشنر وهو يقرأ الماضي كان يرسم دروسا للحاضر والمستقبل<sup>(٨٨)</sup> » وان مشاهدته آثار العظمة القديمة دفعته للتطلع نحو عظمة بلاده وشعبه، وان « رؤيته شعبا قد اعماه تخلفه الحضاري عن رؤية تدني مستوى معيشته قد أشعره بقيمة العمل الذي سيؤديه برفع امثال هؤلاء وملايين معهم نحو مستوى ارفع من الحياة». ويتساءل الكاتب هل كان كتشنر وهو يتطلع الى سهل «يزرعيل» ويرى مشهد معركة «ارجدون» يتوقع بأن «ارجدون» جديدة اصبحت وشيكة الوقوع<sup>(٨٩)</sup>. وكتب كتشنر نفسه رسالة من القدس يتحدث فيها عن آثار طرق رومانية في منطقة نابلس «لو ان فلسطين اعيد فتحها للحضارة فهذه الطرق ستشكل اساس الخطوط الرئيسية للمواصلات عبر البلاد<sup>(٩٠)</sup>. وفي حديثه عن جمال منطقة بحيرة طبريا التي تبدو خرائب الآن يقول « ان المستقبل المشرق يبدو على وشك ان يشرق على تلك الارض»<sup>(٩١)</sup>.

وازداد نشاط الضباط الانجليز لحساب صندوق استكشاف فلسطين في العمل على كشف ومسح جنوب فلسطين بعد ان برزت مشكلة الحدود الشرقية لمصر والدفاع عن القناة ١٩٠٦ واعيد النظر في الاستراتيجية التي تنجم عن كون مصر لم تعد جزيرة محمية بل يمكن ان تحترف في ظروف معينة بقوة معادية. وتخطيط كتشنر (وكان المعتمد البريطاني في مصر) قامت بعثة «نيوكومب وولي و لورنس» بمسح في صحراء سيناء عدلت الى حد كبير الفكرة السائدة بأن نقص المياه ومصاعب النقل تمنع اي هجوم خطير من فلسطين، كما ان المعلومات التي قدمتها عن الصفات الطبيعية ووصف الاماكن ومواقع المياه مع الصور التوضيحية والمخططات كانت ذات قيمة كبرى اثر نشوب الحرب حين توجهت الانظار كلها الى شمال سيناء. ويمكن القول ان هيئة الاركان البريطانية كانت تملك عند نشوب الحرب خرائط عن فلسطين اكثر بكثير مما يملكه الترك.

وكان العطف البريطاني نحو اليهود ومشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين تحت الحماية البريطانية جزءا من سياسة بريطانية الشرقية منذ ان صمم بالمرستون على ان يحاول بين محمد علي وبين ان يكون حاكم سوريا ومصر معا<sup>(٩٢)</sup>، واكدت نشاطات صندوق استكشاف فلسطين هذه الصلة العملية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فاجتماعات لجنة الصندوق غالبا ما كانت تشير الى فكرة «عودة اليهود»، كما ان اعماله شجعت بطريقة غير

مباشرة عملية الاستيطان اليهودي بتقديم صورة مفصلة عن فلسطين<sup>(٩٣)</sup> وكان (لورنس اوليفانت) L. Oliphant (الصحفي البريطاني وعضو البرلمان الذي قام برحلات الى الشرق في سبعينات القرن التاسع عشر بعد مؤتمر برلين) احد المساهمين في بحوث وتقارير دورية الصندوق ووضع مشروعا لحل المسألة الشرقية بتنمية موارد الامبراطورية العثمانية بدعوة اليهود في اوروا للاستيطان في الجانب الشرقي للاردن في النهاية العلوية للبحر الميت (ارض جلعاد) وفي دعوته التي بناها على عوامل دينية وعاطفية تكمن امور سياسية واستراتيجية نظرا للدور الذي يمكن ان تلعبه بريطانيا في سياسة الشرق عن طريق اليهود في هذه المنطقة الحساسة بالنسبة للمصالح البريطانية<sup>(٩٤)</sup>.

ويكتب مؤرخ نشاط كتشنر في صندوق الاستكشاف<sup>(٩٥)</sup> بأن كتشنر قد رأى في فلسطين الارض التي تخص الشعب اليهودي ولس التطلع العاطفي لهذا الشعب نحو أمجادهم القديمة، ورأى في فلسطين استمرار الحياة اليهودية من يوشع حتى حاخامي القدس وطبرية، ووجد ان رجال الشعب اليهودي العظام منذ القرون الاولى بعد تحطيم الهيكل حتى العصور المتأخرة لا يجدون راحتهم الا في الارض التي يدعونها ارضهم. ورأى كتشنر ان تغييراً آتٍ نحو فلسطين، فهل فكر كتشنر أنه بعد «ارجحدون» يمكن لليهود، او جزء منهم على الاقل، ان يعودوا الى بلادهم القديمة، من يدري؟»

وفي عام ١٨٩٢ نشرت لجنة الصندوق في كتاب بعنوان «المدينة والبلاد» The City and the Land (سلسلة من المحاضرات بعثت في صيف ١٨٩٢<sup>(٩٦)</sup>) كان ابرزها محاضرتان احدهما القاها ولتر بيسانت Beasant السكرتير الفخري للصندوق وكان قد شغل منصب السكرتير الفعلي مدة خمسين عاماً، والثانية القاها كلود كوندرا وكانت بعنوان مستقبل فلسطين.

تحدث بيسانت عن عمل الجمعية فقال: كنا نقوم بثورة كاملة في فهم ودراسة الثورات، كما نحبي العظام وهي رميم، كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودوس، كنا نستعيد بلاد داود ونرد الى الخارطة اسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع، لقد اعدنا للقدس مكانتها ومجدها وفخامتها، لقد اعدنا البلاد (فلسطين) للعالم بالخارطة وبالاسماء والاماكن المذكورة في التوراة. وسمحوا لي ان افاخر بذلك اذا علمتم ان شخصا واحدا (كوندرا) قد استعاد من الاسماء القديمة اكثر مما فعله جميع الباحثين والرحالين حتى الآن». وعن منجزات الصندوق قال: «عندما وضعت الاسماء في اماكنها اصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها...

طريق السرية البطريركية... طريق الغازي... طريق العدو الهارب... هنا توجد التلال، وهناك توجد الوديان، وهناك الطريق... الجيش لا يستطيع ان يفر قفزا من فوق الوادي، لا يستطيع ان يتسلق صخرة عمودية في انحدارها... وانما هذا هو الطريق الذي كان للقائد الفلاني ان يقود قواته فيه ولا طريق سواه»

وألقى كلود كوندرا كلمة بعنوان «مستقبل فلسطين» فقال: «التاريخ يعيد نفسه، وهذا يصح بصورة خاصة في الامور المتعلقة بالتجارة والحرب، لان الطرق في اي بلد تظل على حالها عبر القرون، والتضاريس الطبيعية كالجبال والينابيع والانهار لا تتغير والاماكن المشرفة على ميادين القتال ثابتة وان تغيرت الاسلحة والاساليب التي تتبعها الجيوش». ومضى يتحدث عن الهجرة اليهودية الى فلسطين وخاصة مدينة القدس فقال ان عدد اليهود في مدينة القدس عام ١٨٧٣ لم يكن يتجاوز بضع مئات، أما الآن (١٨٩٢) فقد بلغ عددهم أربعين الفاً، وأصبحوا يسيطرون على التجارة في المدينة ولم يعد اليهود اقلية مضطهدة وجبانة. وانما يبدو انهم سادة المدينة. وأشار الى دوره ودور الجمعية التي يعمل لحسابها في تشجيع هذه التطورات فقال: «اعتقد بأنني استطيع القول دون تبجح انه كان لي (ولآخرين غيري) دور ما في هذه الحركة. ففي اول كتاب نشرته بعنوان (مخيمات في فلسطين) حاربت الفكرة القائلة ان فلسطين لم تعد قطرا يصلح للسكنى وأدى ذلك الى عرض محرر صحيفة «ذي جويش كرونيكل» على ان اكتب مجموعة من المقالات عن الاستعمار اليهودي في فلسطين. ويبدو ان هذه المقالات لفتت انتباه لورنس اوليفانت وقدمت له سلسلة من الاقتراحات يبدو انه قبلها كأساس، ولكنه استعاض عن اقتراحي اقامة مستعمرة في الجليل باقتراح من عنده هو لاقامة مقاطعة يهودية في جبال جلعاد (البلقاء وعجلون) ولكنني لا اعتقد بأن ذلك ممكن لأن السلطان لن يوافق على اقامة دولة داخل دولة، علاوة على ان المنطقة بعيدة وستكون عرضة لهجمات البدو والمواصلات بينها وبين البحر طويلة ورديفة مما يجعلها غير صالحة، لأن تكون مركزا طبيعيا لشعب يهودي. واقترح المستر اوليفانت مد خطوط سكة حديدية عبر هذه الجبال لا يمكن لأي مهندس ان يحاول مدها. والخط الوحيد الذي يرجح ان ينجح هو الخط الذي رسمته في مراسلاتي عام ١٨٧٨ ويمتد من قناة السويس الى العاصمة ودمشق ماراً بمرج ابن عامر ووادي اليرموك».

وأشاد كوندرا باليهود في هذا المضمار فقال: «بينما كان الناس يتكلمون كان اليهود انفسهم يعملون، والآراء التي كانت عندما كتبتها قبل اثني عشر عاما تبدو من شأن

المستقبل البعيد أصبحت حقائق بفعل الاشخاص الذين يهتم الامر اكثر من غيرهم... والسكة الحديدية التي اقترحتها قد بدأ العمل فيها والمستعمرات التي اوصيت باقامتها وبزراعة الكرمة والزيتون والحبوب والقطن والفواكه فيها، قد اخذت تظهر الى حيز الوجود في فلسطين. ويبدو اننا سنرى سكة حديدية في فلسطين في العام القادم الامر الذي من شأنه ان يزيد من عدد السكان وينشط التجارة.» وعن الاهمية الاستراتيجية لخط السكة الحديدية تحدث فقال: «ان هذا الخط سيزيد من احتمال نشوب معركة كبيرة في مجدو - ميدان القتال القديم - في حالة نشوب حرب لأن السيطرة على خط السكة الحديدية الوحيد في البلاد ستكون الهدف الحتمي الوحيد لأي مخطط استراتيجي.»

وعن الهدف الاستعماري قال: «الاعتبار الثاني وهو سلمي الى حد كبير هو أن الخط الحديدي ستتبعه شبكة من الطرق البرية تكون بمثابة روافد له، وسيفتح جبال جلعاد امام زراعي الكرمة والحبوب (والمقصود هنا اليهود). اما السكان القلائل من البدو العرب فسيسحبون الى الجنوب والشرق، وستنمو القرى المتفرقة لتعود مدنا مزدهرة كما كنا نعرف انها كانت بين العهدين المسيحي والاسلامي.

وأق كوندرا في محاضراته على ذكر الهجرة اليهودية واثرها على التكوين السكاني في فلسطين فقال: «حدثت تغيرات كبيرة في التكوين السكاني لفلسطين بزيادة العنصر اليهودي والمسيحي زيادة كبيرة واضمحلال السكان المسلمين الاقوياء، وزيادة التعرف على الحضارة الغربية التي كانت طلائعها في بعض المناطق فرق المسح التي ترأسها مدة ست سنوات... وفي عام ١٨٧٢ لم يكن في فلسطين من ملاك الاراضي الزراعية الأوروبيين غير اثنين فقط، ولكن بالتدريج ارغم الفلاحون - كما حدث في عهد نحيا - على بيع انفسهم عبيدا للمرابين الذين استرهنوا الارض، او على بيع اراضيهم للمستعمر الالمانى واليهودي، وقد تضرروا بسبب الحرب والقحط الذي تبعها الى حد لا يعرف عنه الانجليز شيئا يذكر»

وانتقل كوندرا في الحديث عن المستقبل الذي تتصوره فلسطين فقال: «ان الذي نتوقع ان نراه في فلسطين - اذا كان مستقبلها سلما - هو زيادة تدريجية في عدد السكان المزارعين وانتشار (المستوطنات) المزدهرة. ولن يحول وجود الاتراك دون هذا التقدم وان كان من الممكن ان يحد من سرعته. وكلما ازداد رأس المال الاوروبي والمستعمرون الاوروبيون في البلاد ازداد دخولها في دائرة الدول التي تنبثق من جسم الترك (الامبراطورية العثمانية). وان اية محاولة عنيفة للتدخل في تطور بلد يستطيع اعالة شعب كبير مزدهر تطورا سليما

ستؤدي حتما الى حدوث « مشكلة فلسطينية » هائلة ينبغي حلها في كركميش ( جرابلس بشمال شرق سوريا) ومجدو<sup>(٩٧)</sup>. وفي الوقت ذاته لا تعتمد عودة اليهود على اي عرق سواهم، وقد بدأوا يعودون وينوون العودة بأعداد اكبر لأن معارضة الحكومات لا يمكن ان تعيق مثل هذه الحركة وانما قد تنظمها على نحو يكون فيه صلاحها».

واختتم كوندر محاضرتة بالقول: « وختاماً أود أن أقول ان نتيجة اي مشروع مهما يكن صغيرا في مظهره لا يمكن حسابها حتى تظهر جلية للعيان. لقد بدأ صندوق استكشاف فلسطين عمله وهدفه الوحيد القاء ضوء اجدد وادق على التوراة، ومع ذلك فقد اصبح أداة رئيسية لمساعدة اولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل في الحصول على الحقائق الثابتة عن طاقات وامكانيات البلاد. وهكذا قدّم خدمة جليّ بالعمل السلمي المخلص لتحقيق الازدهار وازالة الفقر من البلاد».

ويقول نورمان بنتويتش في معرض حديثه عن المؤسسات الصهيونية قبل تبلور الحركة الصهيونية « كانت المشاريع الصهيونية الرئيسية تتأسس على شكل شركات بريطانية فتشكلت سكة حديد وادي الفرات لتصل بين حيفا وبغداد ولكنها فشلت هي الاخرى. وفي عام ١٨٦٥ تأسس صندوق استكشاف فلسطين وقام ضباط سلاح الهندسة في الجيش البريطاني بحفريات استكشافية في القدس ورسم خارطة للبلاد، وهذا النشاط المزدوج كان مثالا لتكامل المصالح التوراتية والسياسية».<sup>(٩٨)</sup>

# مصادر البحث

1 - **Stravrou, The. G.**, Russian Interests in the Levant 1843-1848; Middle East Journal, vol. 17. 1963, p. 91.

2 - **Watson, C.M.**, Fifty Years Work in the Holy Land, A record and a summary 1865-1915, The Committee of the Palestine Exploration Fund, London 1915.

وكان المؤلف رئيس اللجنة التنفيذية للصندوق عام ١٩١٥.

**3-Hayamson, A. M., (ed.)**, The British Consulate in Jerusalem, London, 1941, Document No, 2, No. 239, No. 24.

- ٤ - خيرية قاسمية، «قضية الحدود بين مصر وفلسطين ١٨٤٠-١٩١٧ وأثرها في جذور الصراع العربي الصهيوني». بحث مقدم الى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٨/١٢/٢٧-١٩٧٩/١/٣.
- ٥ - كان ايلي سميث بحكم اقامته الطويلة في سورية كرجل ارساليات ومعرفة بظروف السكان وخبرته باللغة العربية خير مرشد في هذه الرحلة (جورج انطونيوس، بقطة العرب، مترجم بيروت (طبعة رابعة) ١٩٧٤، ص ١٠٥.

6 - Macalister, p.26.

7 - Loc. cit.

8 - Watson, p. 15

٩ - اصبح ويلسون فيما بعد ماجور جنرال واعطي لقب سير ورئيس المخابرات البريطانية. انظر: محمد وادي المراه، بريطانيا، صندوق الاستكشافات الفلسطينية، شؤون فلسطينية عدد ٩، ١١ ايار ١٩٧٢، ص ١٩٧.

١٠ - كان قد نشر اعلان في التيمس ١٨٦٥/٥/٨ بدعوة المهتمين لحضور الاجتماع لتشكيل جمعية استكشاف فلسطين وعدد الاعلان الاشخاص الذين وافقوا على الانضمام الى لجنة الصندوق، وجميعهم من كبار رجال الدين او اعضاء البرلمان او الدوقات او اللوردات، ومن بينهم ايرل شافتمسيري وحدد موعد اول اجتماع للجنة في ١٢/ ايار ١٨٦٥.

انظر المراه، صندوق استكشاف فلسطين، ص ١٣٨ نقلاً عن التيمس ١٨٦٥/٥/٨.

.Watson, p. 18-١١

.Watson, p. 19-١٢

ويقول المؤلف ان قيام ضباط الهندسة الملكية بقدر كبير من العمل مع مشاركة عدد آخر من المكتشفين العلماء قد أكد التمسك بهذا المبدأ الاساسي، وانه لم يثر خلال عمليات صندوق الاستكشاف اي سؤال حول صحة ودقة التقارير التي قدمها ممثلو لجنة الصندوق.

.Loc. cit-١٣

يقول المؤلف انه بمرور الزمن تبينت صعوبة استبعاد عنصر الرأي الشخصي في مطبوعات الجمعية ورغب المتبرعون للصندوق بالتعرف على آراء الاشخاص المبينة على نتائج كشوفاتهم، وان هذه الآراء نشرت كآراء خاصة بكتابتها دون ان يكون للجنة الصندوق اي مسؤولية عن النتائج التي توصلوا اليها وتركت الآخرين استخدام الحقائق بالطريقة التي يرونها مناسبة.

.Watson, pp. 22-28 - ١٤

- ١٥- تعاقب ملوك إنجلترا من بعد الملكة فكتوريا على رعاية الجمعية وقد خلفها ادوار السابع الذي كان يعرف الاراضي المقدسة شخصيا منذ ان كان امير ويلز وسافر عبر شيناء وفلسطين ١٨٦١، ثم اصبح جورج الخامس راعيا عام ١٩١٠ وكان قد زار الاراضي المقدسة ١٨٨٢ مع شقيقه الامير ألبرت فيكتور، امير ويلز.
- ١٦- تدل ميزانية الصندوق أن تكاليف النشر هي اكثر من حصيلة المبيعات، ذلك ان قسما كبيرا من منشورات اللجنة كان يقدم مجاناً.

17- Watson, p. 17

- ١٨- في عام ١٩١٠ عين ماسترمان E. W. G. Masterman سكرتيراً عاما فخريا للجنة في فلسطين وكان مسؤولاً عن البعثة الطبية لجمعية يهود لندن، وقد اجري عدة جولات ودراسات مع عام الاثار ماكاليستر Macalister عن سكان فلسطين في العصر الحديث نشرت في دورية الصندوق في الاعداد التالية:

1906, pp. 33-50, 110-114, 221-225, 286-291.

1915, pp. 170-179.

1916, pp. 11-19, 64-71, 126-137, 173-178.

1917, pp. 72-80, 119-125, 117-179.

19 - Watson, pp. 31-40.

- ٢٠- كلفت كشوف البعثة ١٥٥٠ جنينها وهذا المبلغ، كما يقول التقرير، يعطي فكرة عن المبلغ الضخم الضروري لانجاز اهداف الصندوق بالاسلوب الكامل الذي تأمله اللجنة.

12- Watson, p. 38.

22 - Macalister, p. 31.

يوجه المؤلف نقده لهذه المهمة، ويرى ان التوجه المبكر للكشف عن المدينة المقدسة هو خطأ اساسي، اذ كان يجب التوجه الى مواقع اقل اهمية في البلاد والعمل فيها بدقة لمعرفة صفاتها العامة وتاريخ الآثار فيها، ذلك لأن عملية التنقيب تحدث تخريبا في بعض الاحيان. وموقع القدس بهذه الاهمية كان يجب ان يؤجل حتى يتدرب المنقبون على اسلوب التنقيب في مواقع اقل اهمية بحيث لو لحقها التخريب كان اقل خسارة.

23 - Ibid, p. 32.

يرى المؤلف ان هذه التعليمات كانت قد اعطيت بطريقة خاطئة، اذ كان يفترض فيها ان تجد الحفريات المقترحة حلا نهائيا لنقاط الجدل المتعلقة بالاماكن المقدسة، وهو برنامج يستغرق عدة اجيال، الا ان الخطأ الاساسي لا يمكن فقط بضخامة التوقعات بل بوضع برنامج محدد سلفا، لأن المنقب الحقيقي يتوجه لموقعه المختار بهدف واحد هو أن يجد ما يحويه هذا الموقع، أما أن يبحث عما يجب ان يحتويه هذا الموقع فهو كفيل بأن يحجب عين المنقب عن حقيقة ما هو موجود فعلاً.

24 - Macalister, p. 35.

ويُدعى المؤلف ان الجميع يقرّ بأن الحرم الشريف يشغل موقع معبد سليمان.

25 - bid,

يرى المؤلف ان هذا الاسلوب كان مكلفا وبطيئا وخطراً كما انه لا يمس الأجزاء صغيرا من التراب، فلا يمكن من دراسة الترتيب التاريخي. وهذا الاسلوب لا يكون ناجحا إلا اذا كشف البناء كله وامكن رؤية كل العلاقات المتبادلة وعملت شبكة كاملة من الانفاق.



٢٦- اثبت وارين ان الهيكل لا يمكن ان يكون في الجانب الجنوبي الغربي لمنطقة الحرم كما كان فيرجسون Fregusson يقول، بل يجب ان يكون عند الموقع الذي تشغله قبة الصخرة الآن، واما الجانب الجنوبي من منطقة الحرم فيبدو ان هيرود قد اضافة.

27- Macalister, p. 38.

28- Watson, p. 52.

٢٩- وتسميها لجنة الصندوق صحراء الخروج The Desert of the Exodus

30- Watson, p. 54.

31- Ibid, p. 58.

لم يستعن بالمر بالخدم او التراجمة، وكان حراسه هم اصحاب الجمال التي كان يستأجرها وكان يستبدلهم بين حين وآخر اثناء تنقله من منطقة الى اخرى بين القبائل البدوية لتجنب المتاعب.

32- Quarterly Statement, 1871, p. 107.

33- Watson, pp. 62-64

عاد بالمر ثانية للصحراء في ظروف مختلفة وذلك عام ١٨٨٢ واثناء الاعداد لارسال الحملة البريطانية لمصر. وقد اعتبر مسألة هامة ضمان تأييد القبائل البدوية أو سكوتها وعدم تعرضها للقوات البريطانية بشكل يهدد امن القنال. ونظرا لمعرفة بالمر بأمر هذه القبائل كلفته الحكومة البريطانية بالاتصال مع شيوخ القبائل لاجراء الترتيبات الضرورية لأمن القنال «وهو عمل غير عادي لاستاذ جامعي» وقد وجد بالمر ضرورة الاتصال بالقبائل على الجانب الفلسطيني فاتجه بحرا من بور سعيد الى يافا ثم غزة واجرى اتصالاته مع اصدقاء قدامى من قبائل طربين والتياهة وعبر الصحراء نحو السويس لمقابلة شيوخ آخرين ثم قد تقريرا الى الاميرال وليام هويت Hewitt قائد الحملة وطمانه بنجاح مهمته وانه لا يوجد ما يخشاه من العرب بشأن القناة. وبعد احتلال القوات البريطانية للسويس عين مسؤولا عن الترجمة ومعه جهاز كبير، وتقرر ان يقوم ببعثة اخرى الى الصحراء ومع ضابطان بريطانيان، وبعد مغادرته آبار موسى... (٨ آب ١٨٨٢) هاجمته بعض القبائل العربية عند وادي سدر فقتل الثلاثة. ويتساءل Watson أكان ذلك بغرض النهب ام بتوجيه من الحزب الثوري؟ لا يدري، الا انه يضيف بأن العقوبة التي تلت الحادث «لن ينساها بدو صحراء سيناء» وان الخسارة التي لحقت بالصندوق البالغة لانه كان ملتمًا بالعربية وبعادات وطبائع السكان العرب.

34- Watson, pp. 65-70.

٣٥- يشير النداء الى ان متحف الصندوق تتوفر فيه اشياء مختلفة امكن الحصول عليها خلال عمليات الكشف السابقة كالزجاج والفخار والنقود والصور والرسوم والمخططات. والمتحف مفتوح للمساهمين في الصندوق وللجمهور في South Kinsington

٣٦- يقدر النداء تكاليف البعثة بما فيها نشر تقارير الضباط ووضع الخرائط وغيرها بما لا يقل عن ١٥ الف جنيه، ولدى الصندوق اكتتابات سنوية ٢٠٠٠ جنيه، وكان لا بد من جمع مبلغ ٧٠٠٠ جنيه موزعة على اربع سنوات.

٣٧- كان فريق العمل يتألف من ٥ اوروبيين و ٦ من المواطنين (خدم ومساعدين) وجندي للحراسة من قبل السلطات المحلية، ومع الفريق ٨ خيول و ٦ جمال و ٧ بغال.

38- Quarterly Statement, 1872, 1873, 1874, 1875, Letters and Reports of the Survey of Palestine (Condor and Drake).

39- The Survey of Palestine, a paper read before the British Association. Quarterly Statement, 1874, p.243.

40- Diaches, S., pp. 15-21

يذكر المؤلف ان سبب التحاق كتشنر بهذا العمل هو « ميوله العلمية وتلهفه للقيام بعمل يتيح له استخدام خبرته كمهندس، الا ان السبب الاكثر عمقا هو حبه للتوراة وارض التوراة مما دفعه للتعرف على الارض المقدسة ومسحها والتنقيب في كل زاوية منها وربما ايضا لرؤية امكانياتها المستقبلية وهو اغراء لم يستطع كتشنر ان يقاومه. -٤١ في تقرير كتبه كوندر (واكملة كتشنر) بعث به من جبل الكرمل في ١٥ تموز ١٨٧٥ انه بعد الاعتداء وصل ضابط وعدد من الجنود ومعهم وكيل القنصل البريطاني وعندما اختفت الاسلحة والمهاجمون، ويقر كوندر بخدمات المستشفى اليهودي في صفد لفريق المسح.

Quarterly Statement, 1875, pp. 195-196.

-٤٢ رفض كتشنر المبلغ فزيدت الغرامة الى ٢٧٠ جنيا تبرع بها لصندوق الاستكشاف. انظر المراس، صندوق الاستكشاف، ص ١٩٩ نقلا عن كتاب:

The City and the Land P. E. F., London, 1892.

-٤٣ في تقرير بعث به كتشنر بعد عودته من فلسطين نشرته Quarterly Statement, 1877 pp. 70-72 يصف دخوله صفد في ١١ نيسان، حيث خرج القائمقام والقاضي ووكيل القنصل البريطاني وعدد من الاتباع على مسافة مسيرة ساعة ونصف ودخل بموكب الى السرايا وبعد تناوله القهوة حضر كل الحاضرين في المجلس حفل اقامة مخيمة قرب صفد. ويعلق مؤلف كتاب Lord Kitchener and his Work in Palestine, p33 بقوله: « نرى هنا كتشنر الفاتح»

44- Ibid, pp. 50-55

في تقرير كتبه كتشنر من مخيمه في القدس في ١٢ تشرين اول ١٨٧٧ يعلم فيه انتهاء خريطة فلسطين من «دان الى بير السبع» ويصف عمله في الصحراء بين غزة وبير السبع ويعرف الاسماء الحديثة بالاماكن التوراتية، ويصف رحلة العودة من بير السبع الى القدس واصطدامه بعدد من الفلاحين.

-٤٥ كان كتشنر قد احضر معه ٥٠ صورة من فلسطين اختار منها ١٢ صورة لها علاقة بالتوراة نشرها في مجلد واحد مع وصف لها بقلمه، وعنوان المجلد:

Lieutenant Kitchener's Guinea Book of Biblical Photographs. See, Quarterly Statement, 1878, p. 134.

-٤٦ عبرت اللجنة التنفيذية للصندوق في اجتماعها السنوي ١١ حزيران ١٨٧٨ عن تقديرها لعمل كتشنر في وقت كانت البلاد مهددة بالقلاقل ولم توجد اي مقاومة للاهالي الا حين هوجم كتشنر بالحجارة في شوارع نابلس لمنعه من تنفيذ اقتراحه باصلاح بير يعقوب.

Diaches, S., p. 69, and Quarterly Statement, 1878, p. 108.

47- Quarterly Statements, Letters and Reports, 1874, pp. 3, 7, 80, 89, 98, 104, 135, 147, 158, 167, 261, 269, 275.

48- Quarterly Statement, 1879, p. 187.

49- Watson, p. 77.

-٥٠ كلفت عملية المسح ١٧ ألف جنيه تقريبا بزيادة ٢٠٠٠ جنيه عن التقدير الأولي واستردت معظم النفقات من بيع الكتب والخرائط.

51- Watson, p. 179.

52- Quarterly Statement, Letter to the Times on Moabite Stone, 1870, p. 175.

53- Watson, pp. 81-82.

٥٤- قدرت تكاليف البعثة بحوالي ٣٠٠٠ جنياً سنوياً.

٥٥- الدولن هو حجر كبير مسطح فوق عدد من الحجارة المنصوبة، والمنهر هو نصب حجري عمودي  
Quarterly Statement, 1881, pp. 158, 275 وقد اظهرت الكشف التالية ان هناك عددا كبيرا  
من هذه الحجارة موجود في الغرب الا انها كانت مغطاة بأكوام الاطلال كما في تل جزاري وبيت شمس.

56- Report on the Visit of their Royal Highnesses Princes Albert Victor and George of Wales to the Hebron Haram on 5th April, 1882. Quarterly Statement, 1882, p. 197.

57- Watson, p. 86.

ويدعى المؤلف الحملة الانجليزية ارسلت الى مصر لاعادة الأمن بعد قيام ثورة عسكرية فيها.

٥٨- Pella هو المكان الذي تراجع اليه مسيحيو القدس قبل حصار مدينتهم على يد تيتوس.

٥٩- ابدت اللجنة بعد ذلك رغبتها بإصدار خريطة نافرة تظهر الصفات الطبيعية للبلاد بطريقة أوضح من الخريطة العادية وتولي القيام بها ارمسترونج (الذي عمل بالمشح مع كوندر ثم اصبح سكرتيراً مساعداً للجنة الصندوق) وانبى ارمسترونج الخريطة النافرة بالخص بعد سبع سنوات بنفس المقياس (البوصة للميل) وبنفس المساحة من بعلبك حتى بير السبع (أبعادها ٧ أقدام و ٦ بوصات طولاً ٤ أقدام عرضاً) ووضعت في متحف اللجنة. كما عرضت صور منقولة عنها للبيع للمتربعين وغيرهم. وبيع حتى ١٩١٥ ١١٥ نسخة كثير منها للمكتبات الجامعية والمؤسسات العامة، كما عملت خريطة ماثلة بحجم اصغر لاستخدامها بالمدارس (مقياس بوصة لكل ميل أبعادها ٣ أقدام و ٦ بوصات طولاً و ٢ قدم و ٦ بوصات عرضاً) وهي خفيفة يسهل حملها وطبعتها الجمعية ١٩٠٢ وبيع منها ٦٠ نسخة حتى ١٩١٥ وكانت ذات قيمة للاستاذة ودارسي التوراة. Watson, pp. 89-90

٦٠- كان كتشنر يتنقل بين مهمات في الخارج (قبرص ومصر والسودان) ويعود ثانية لاعمال الصندوق

٦١- في رسالة بعث بها كيتشنر الى لجنة صندوق الاستكشاف في ١٣/١/١٨٨٤ بعد ان تمت عملية المسح كتبها في العباسية ونشرت في Quarterly Statement, 1887, pp136-7 انه مر بكثير من القبائل العربية واستقبل بوصفه موظفاً مصرياً باسم: عبد الله بيه اذ انه كان يتقن العربية كأهل البلاد.

62 - Letters on the Survey, Quarterly Statement, 1884, pp136-202.

يقول مؤلف كتاب Lord Kitchener المذكور سابقاً ص ٢٧ «ان كتشنر مسح خلال شهرين شبه جزيرة سيناء والبلاد الواقعة جنوب البحر الميت وصعد جبل سيناء وجبل حور، ومن المحتمل انه لا يوجد شخص آخر يعرف منطقة الحدود المصرية الفلسطينية كما يعرفها كتشنر».

٦٣- يرى «هل» انه خلال العصر الجليدي كانت فلسطين وسورية الجنوبية ذات مظهر مختلف عما هما عليه اليوم، فقد كانت جبال لبنان مكسوة بالثلوج خلال السنة، فيما هبط الجليد الى بعض الودية، وان منطقة حوران كانت موضعاً لعدة براكين بينا طغى على المنطقة حولها ووادي الأردن نفسه المقذوفات البركانية، وامتد بحر داخلي من بحيرة الحولة في الشمال الى وادي عربة في الجنوب، وامتد عدد من الخلدجان والودية الصغيرة في فلسطين ومزاب من الجانبين وفي هذه الظروف كانت الحضرة تغطي التلال والودية أكثر بكثير من الوقت الحاضر.

64- Macalister, p. 40.

٦٥- يقضي الأذن بوصف المكان المقترح للتنقيب فيه بدقة مع تقديم مخطط لمسافة ١٠ كم (٤ أميال مربعة) يحظر التنقيب خارجها. ويصدر التصريح من متحف الآثار في الأستانة الذي انشئ عام ١٨٥٠.

66- Quarterly Statement, 1892, p. 114. Note on the Results at Teel El- Hesy.

67- Quarterly Statement, 1891, 1892, 1893, Reports of the excavation at Tell Hesy.

٦٨- حين انتهت مدة التصريح العثماني كان التل قد تم التنقيب فيه حتى الصخر.

٦٩- في الفترة بين عملية واين وعملية الاستكشاف الاخيرة كانت لجنة الصندوق تنتهز كل فرصة لتنتشر في دوريتها Quarterly Statement اي كشف يقوم به احد العلماء في القدس وكان اهم تلك الكشوف ما قام به العالم الفرنسي جانو C. Canneau ونشرت نتائج كشوفه في المجلد الأول من Archaeological Research وظل جانو يسهم باستمرار في بحوث الدورية. وكذلك عالم آخر من سويسرا هو دكتور تشك C. Schick عاش في القدس بين ١٨٤٦-١٩٠١ ومارس عمله كمهندس معماري ووكيل جمعية يهود لندن London Jews' Society ومدير مدرسة الصناعة التي تعلم الفنون الصناعية للشباب اليهودي وكان مهتما بالآثار وتاريخ مدينة القدس وقدم الى ويلسون عام ١٨٦٤ مساعدات قيمة اثناء عملية المسح نظرا لمعرفته بالأمور المحلية ومعرفته بالعربية وعلاقته بالسكان ومن هنا بدأت صلته بصندوق الاستكشاف. وكان يراقب بشكل خاص مستويات الصخور التي بنيت عليها المدينة ويتابع بصفته مهندسا معماريا كل عمليات تهديم البيوت القديمة او حفر اساس البيوت الحديثة، ويعمل مخططات لكل ما يكشف تحت الأرض وقد نشر في دورية الصندوق حوالي ٢٠٠ تقريرا وبخنا موضحة بالمخططات والرسوم عالجت موضوعات هامة لها علاقة بآثار القدس (منها المستويات الصخرية في القدس، الجدران القديمة، الابنية المجاورة لبقعة الصخرة، ابنية منطقة الحرم، الخ)

٧٠- كانت شروط الأذن تقضي بحظر الحفريات في المناطق المجاورة للأماكن المقدسة او المنشآت العسكرية وكذلك ان تنقل الموجودات الى متحف الآستانة، على ان يكون لعالم التنقيب كل الحقوق العلمية في النقل والتوضيح والنشر. ويرافقه ممثل للحكومة لنقل حصيلة التنقيب بعد انتهاء الملاحظات العلمية. Macalister, p. 54.

71- Quarterly Statement, 1895, p. 203, Narrative of an Expedition to Moab and Gilead.

72- Quarterly Statement,

Tell Zakaria, 1899, pp. 10, 89, 170,

Tell es-Safi, 1899, pp. 188, 317,

Tell ej-Judeideh, 1900, pp. 87, 199,

Tell Sand hannah, 1900, p. 319.

٧٣- حتى نهاية القرن التاسع عشر ظل صندوق الاستكشاف هو الهيئة الاجنبية الوحيدة التي تعمل في ميدان التنقيب عن الآثار رغم وجود جمعيات مماثلة بنشاطها للصندوق. ففي عام ١٨٧٨ بدأت جمعية Deutsche Palastin-verein بنشر مجلة تحوى مواد متفرقة لها علاقة بفلسطين وكذلك كانت جمعية Ecole Biblique التي يديرها اساتذة من علماء الدومنيكان تنشر منذ مدة مجلتها الدورية Le Revue Biblique تحوى موضوعات من النقد التوراتي والتاريخ الكهنوتي والآثار الفلسطينية. وكذلك فقد ادى اهتمام روسيا الديني والفكري المتزايد في البلاد المقدسة الى انشاء جمعية فلسطين الامبراطورية الارثوذكسية عام ١٨٨١ Imperial Orthodox Society اهدافها زيادة المعرفة بالاراضي المقدسة ودعم ديني وتعليمي للارثوذكس العرب، ومن اجل الغرض الأول اخذت الجمعية بنشر مجموعات من الاعمال العلمية الجادة ظلت تنشر بانتظام منذ ١٨٨١ حتى السنوات الأولى للحرب

الأولى باسم مجموعة فلسطين الأثرية Sbornik فيها مصادر أولية للإراضي المقدسة وأماكنها الدينية خلال فترة الحكم البيزنطي والإسلامي بما فيها مذكرات الحجاج والرحالة، والمجموعة الثانية هي مراسلات الجمعية Soobscheniia إلا أن هذه الهيئات جميعاً لم تنشر سوى القليل بالقياس إلى ما نشره الصندوق، كما أنها عيّنت بأمرٍ تقع على سطح الأرض ويمكن الوصول إليها بدون عمليات الحفر. ومنذ أواخر القرن دخلت دول أخرى في تنافسٍ ودي مع لجنة الصندوق، فقام العالم الألماني سيلين E. Sellin بطلب إذن للحفر في تل تنك Taanak وهو موضع مدينة Taanak ودخلت التمساً بذلك ميدان التنقيب. ونتيجة لزيارة الإمبراطور الألماني لفلسطين ١٨٩٨ نقل قسم من الواجهة الفنية لقصر المشتى إلى برلين وارتبط اسم العالمين الألمانين Watzinger و Koh بهذه الزيارة إذ بعد الكشف عن معبد بعلبك قاما مع العالم الألماني ثيرش Thersch بالكشف عن مواقع الكنس القديمة في الجليل (وكانت هذه الكنس قد لفتت انظار كيتشنر خلال عملية مسح فلسطين الغربية). وكان قد سبق للعالم شوماخر أثناء فترة إقامته الطويلة في فلسطين القيام بأعمال مسح مفيدة، وتولى بعد ذلك برعاية الإمبراطور الألماني التنقيب في موقع تل المتسلم (مجدو) لمصلحة Deutsche Palastina- Verein وبالتعاون مع Orient- Gesellschaft كما اخترت أمريكا منطقة جبال السامرة حقلاً لعملياتها وأشرف على العمل الدكتور ليون P.G. Lyon ودكتور ريسنر G.Reisner باسم جامعة هارفارد. وفي عام ١٩٠٨ عاد ستلن Stellin لزيارة فلسطين ومعه واتزنجير Watzinger ولانجنج Langenegg لفحص معظم آثار الري القديمة.

74- Quarterly Statement, Macalister's Reports, Excavation of Gezer, 1902, 1903, 1904, 1905, 1907, 1908.

- ٧٥- كان ماكليستر قد عين استاذاً للآثار السلطية في دبلن.
- ٧٦- رافق الفريق في هذه المهمة جوستاف بالمان G. Palman من القدس الذي أجرى دراسة على خزانة بتراء وكتب وصفاً لها وأرفقه برسوم نيوتن.
- ٧٧- بانتهاء عمليات التنقيب في بيت شمس انتهت عمليات التنقيب في فلسطين في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، واستحال الاستمرار بعمليات التنقيب خلال الحرب. وبعد الحرب انشئ في فلسطين متحف ومدرسة الآثار الانكليزية British School of Archaeology وكانت فرنسا وألمانيا وأمريكا قد أسست في فلسطين مدارس للآثار والساميات واللاهوت خلال العهد العثماني.
- Macalister, p. 70.
- ٧٨- كان كيتشنر قد أصبح المعتمد البريطاني في مصر منذ ١٩١١، وكان مع بعض الدوائر العسكرية في بريطانيا قد وجه الانظار نحو مشكلة الدفاع عن القناة ضد أي هجوم من الشرق بعد تغير الأوضاع في الدولة العثمانية اثر هزيمتها في البلقان واحتمال بحثها عن مجال جديد في مناطق جنوب سورية والحدود المصرية. وعمل كيتشنر على الدعوة لدى الدوائر الرسمية إلى فكرة انه في حالة تجزؤ الدولة العثمانية يجب ان يبذل جهداً لفصل سورية الجنوبية شمالاً إلى حدود يافا وعكا لتشكّل كياناً منفصلاً تحت النفوذ البريطاني.
- Kedourie, E., England and the Middle East, London 1956, p. 134.
- ٧٩- وكان ذلك اثر ازمة الحدود المصرية الفلسطينية بين السلطان في مصر والدولة العثمانية. (خيرية قاسمية: قضية الحدود بين مصر وفلسطين، البحث المشار له سابقاً).
- ٨٠- لعب ثلاثهما دوراً هاماً في مسرح العمليات الشرقية خلال الحرب العالمية الأولى.

81- Watson, p. 150.

يقول المؤلف ان القبائل البدوية وخاصة الغزاة لم تبد معارضة كبيرة.

- ٨٢- لعب كنزفيتش دورا هاما في تشجيع عملية شراء الاراضي لصالح الاستيطان الصهيوني في مناطق فلسطين الجنوبية.
- ( خيرية قاسمية: قضية الحدود بين فلسطين ومصر، البحث المشار له سابقا).
- ٨٣- اسهم كنزفيتش في نشاطات صندوق الاستكشاف في تقرير عن كشف تابوت حجري في غزة.
- Quarterly Statement, A Sarcophagus at Gaza, 1910, p. 294.
- ٨٤- كان نيوكومب و لورنس يزودان مجلة الصندوق بتقاريرهما اثناء عملية المسح في الصحراء.
- Quarterly Statement, Newcombe Reports, 1914, p. 114, 1915, p. 130 Lawrence Desert Surveys, 1915, pp. 61-2, 121, 130.
- ٨٥- كان عالما في الاثار ومستشرقا واحد رجال المكتب العربي الذي تأسس في القاهرة ١٩١٦ للاشراف على تسيير السياسة البريطانية في الشرق العربي، كما كان احد مخططي هذه السياسة خلال الحرب حول العلاقة مع العرب وخاصة الحسين.
- ٨٦- ارتبط اسم وولي ١٩١٥ بشبكة التجسس الصهيونية التي تأسست في فلسطين (مستوطنة زخرون يعقوب قرب عنتيت) لحساب القوات البريطانية، وقد أسر «وولي» حين فجرت السفينة التي كان على ظهرها في محاولته اخذ المعلومات من افراد الشبكة على الشاطئ الفلسطيني عن توضع القوات التركية في منطقة سيناء.
- Engle, A. The Nili Spies, London, 1959.
- ٨٧- لم يتوقف اصدار دورية الصندوق خلال الحرب وكانت تنشر مواد سبق وأعدت خلال عمليات الصندوق قبل الحرب، وقد عاد صندوق الاستكشافات لنشاطاته في فلسطين بعد انتهاء الحرب وأخذ يعمل بالتعاون مع المدرسة البريطانية للآثار في القدس British School of Archaeology. حتى الوقت الحاضر، وفلسطين قد وقعت تحت الاحتلال الصهيوني، ما زال صندوق الاستكشاف قائما في مقره القديم الذي اهداه اليه « موريسون» (وكان قد عمل في الصندوق مدة ٥٦ عاما)، ولا تزال مجلته تصدر بنفس العنوان وان اصبحت نصف سنوية، وتحتوي في صفحاتها نفس التعريف « صندوق استكشاف فلسطين: جمعية لدراسة الاثار والطبوغرافية والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والعادات والتقاليد في البلاد المقدسة دراسة دقيقة ومنظمة لتوضيح التوراة. راعية الصندوق: الملكة اليزابيث الثانية، الرئيس: رئيس اساقفة كنتبري، نائب الرئيس: رئيس اساقفة يورك».
- 88- Daiches, S., p. 59.
- 89- Ibid, p. 86.
- 90- Ibid, p. 61. Also Quarterly Statement, 1878, p. 63.
- 91- Daiches, S., p. 71.
- ٩٢- اقترح السياسي الانجليزي الدوق شافتسبري في رسالة الى بالمر ستون في ٢٥ ايلول ١٨٤٠ «لو تمعنا في مسألة عودة اليهود على ضوء بعث فلسطين او تحويلها الى مستعمرة لرأينا ان ذلك هو ارحص واسلم طريق لتأمين كل ما هو ضروري لهذه المنطقة القليلة السكان».
- N. Sokolow, The History of Zionism, London, 1914, vol. II, p. 230
- ٩٣- من الامثلة تقارير كوندر التالية في مجلة الصندوق: The Present Condition in Palestine (reprinted from the Jewish Chronicle, 1879, pp. 6-8 The Colonization of Palestine, 1880, p. 116
- 94- Oliphant, L., The Land of Gilead, Edinburgh, 1880.
- 95- Daiches, S., pp. 87-88.

٩٦- المراه، ص ٢٠٠

٩٧- اشارة الى المعارك الشهيرة التي وقعت عبر التاريخ في هذين الموقعين.

98- Bentwich, N., Israel and its Neighbours, London, 1956,p.

# مدرسة النجاح الوطنية ودورها الاجتماعي في تقدم المجتمع العربي الفلسطيني زمن الانتداب البريطاني\*

د. علي أمين الكخن  
الجامعة الاردنية

## مقدمة:

عرف الشعب العربي الفلسطيني التعليم الحديث قبل نظام الانتداب البريطاني<sup>(١)</sup>. فلقد انتشرت المدارس الابتدائية النظامية بفلسطين في اواخر القرن التاسع عشر، وكانت هذه المدارس تابعة للانظمة التربوية التالية<sup>(٢)</sup>:

- ١ - مدارس الحكومة التركية.
- ٢ - المدارس التبشيرية المسيحية. وكانت تركز على لغة وثقافة الدول الاوروبية الممولة لها.
- ٣ - المدارس العربية الاسلامية الخاصة. وكانت تركز على الدين الاسلامي والقومية العربية معا.

والجدول التالي رقم (١) يوضح عدد المدارس، والطلبة، والمعلمين في المدارس الحكومية التركية وفي المدارس العربية الاسلامية الخاصة في فلسطين عام ١٩١٤م.



## الجدول رقم (١)

عدد المدارس والطلبة، والمعلمين في المدارس الحكومية  
والخاصة في فلسطين عام ١٩١٤

| نوع المدارس                  | عدد المدارس | عدد الطلبة | عدد المعلمين | نسبة عدد الطلبة لكل مدرسة | نسبة عدد الطلبة للمعلم |
|------------------------------|-------------|------------|--------------|---------------------------|------------------------|
| المدارس الحكومية التركية     | ٩٥          | ٨٤٠٠       | ٢٣٤          | ٣٨                        | ٣٦                     |
| المدارس العربية<br>الاسلامية | ٣٧٩         | ٨٧٣١       | ٤١٧          | ٢٣                        | ٢١                     |

\*\* Source: Ibid, p.12.

ومن المدن الفلسطينية التي حظيت بنصيب كبير من التعليم مدينة نابلس. التي عرف أهلها بحبهم للعلم، فكانت مساجدهم تضم في حلقاتهم الكثير من الطلاب الذين يرتادونها طلباً للعلوم الاسلامية كالفقه والحديث والسيره النبوية<sup>(٣)</sup>. ففي عام ١٦٧١م كان في مدينة نابلس سبع مدارس لتدريس القرآن الكريم وسبع مدارس ابتدائية للبنين<sup>(٤)</sup>. وفي عام ١٩٠٣م كان في مدينة نابلس<sup>(٥)</sup> ١٢ مدرسة موزعة كالتالي<sup>(٦)</sup>:

- أ ( المدارس الرسمية: وعددها أربع، اثنتان ابتدائيتان، والثالثة رشدية<sup>(٧)</sup>، والرابعة اعدادية. وضمت جميعها ٢١٤ طالبا و ١٣ معلما.
- ب ( المدارس الاسلامية: وهي مدرسة الصلاحية وضمت ٥٠ طالبا، ومدرسة القريون وضمت ٢٠ طالبا.
- ج ( المدارس المسيحية: مدرسة الروم الأرثوذكس وضمت عشرة طلاب.
- د ( المدارس الأجنبية:
- ١ - مدرستان انكليزيتان للبروتستنت: واحدة للبنين وضمت ٣٥ طالبا والثانية للبنات وضمت ٣٠ طالبة.

٢ - ثلاث مدارس للاتين الفرنسيين: واحدة مختلطة ضمت ٢٥ طالبا و ١٢ طالبة، والثانية للذكور ضمت ١٢ طالبا، والثالثة للبنات وضمت ١٥ طالبة.

أما ابان الحرب العالمية الاولى (١٤-١٩١٨م)، فلقد كان في نابلس أربع مدارس للبنين بها ٧١٢ طالبا، وثلاث مدارس للبنات بها ما يقرب من ٤٠٠ طالبة (والعدد الحقيقي للطلاب يزيد عن المجموع المذكور بنحو الخمس، وذلك لأن الحالة الاقتصادية السيئة أثناء الحرب العالمية الاولى قد اضطرت بعض الاهالي لسحب ابنائهم من المدارس لمساعدتهم في التماس الرزق)<sup>(٨)</sup>.

وعند سقوط فلسطين عام ١٩١٨م تحت الانتداب البريطاني، قرر بعض محبي العلم تأسيس مدرسة النجاح الوطنية في مدينة نابلس لتعمل على غرس الروح الوطنية في نفوس الطلاب، ولتقف سدا منيعا أمام المدارس الاجنبية الآخذة بالانتشار، والمدارس الحكومية الموجهة من الانتداب البريطاني.

وزادت أهمية مدرسة النجاح الوطنية وغيرها من المدارس الوطنية الحرة، خاصة وان الانتداب البريطاني قد اعاق الحركة العلمية التي كانت قد بدأت في فلسطين والبلاد العربية الاخرى منذ حركة كفاح الشعوب العربية من اجل الحرية والاستقلال والتقدم في اوائل القرن التاسع عشر<sup>(٩)</sup>. فلقد كانت الغالبية العظمى من طلبة المعارف تترك الدراسة بعد الصف الخامس الابتدائي أو قبله، بينما يكمل الدراسة منهم قسم قليل<sup>(١٠)</sup>. فكانت شروط الالتحاق بالمدارس الثانوية الحكومية قاسية. اذ ليس هناك الا ثلاث مدارس حكومية - وكلها في مدينة القدس - تحتوي على صفوف المترك أو أعلى وهي: الكلية العربية، وكلية البنات (وقد خصصتا لاعداد المعلمين)، والمدرسة الرشيدية<sup>(١١)</sup> ولم يكن امام الطلاب الذين يرغبون في مواصلة دراستهم الا الالتحاق بمدارس الارساليات أو المدارس الوطنية كمدرسة روضة المعارف ومدرسة النجاح الوطنية<sup>(١٢)</sup>.

ولقد نمت وتطورت هذه المؤسسة التربوية، فأصبحت تعرف باسم كلية النجاح الوطنية في عام ١٩٤١/٤٠م، وانشئ معهد اعداد المعلمين فيها عام ١٩٦٦/٦٥م، وفي عام ١٩٧٧ تطورت كلية النجاح الى جامعة وطنية<sup>(١٣)</sup>.

ونظرا لمساهمة هذه المؤسسة التربوية في تطوير التربية والتعليم في المجتمع العربي الفلسطيني، فقد رؤي القيام بدراسة تاريخية تربوية ميدانية لمدرسة النجاح الوطنية زمن الانتداب البريطاني.

## مدخل

من الصعوبة بمكان تقييم العملية التربوية لمدرسة النجاح الوطنية تقييماً ماثراً، إلا إذا تم توضيح بعض الدعائم الأساسية التي قامت عليها. ومن هذه الأهداف الدعائم المجلس المؤسس ومجلس العمدة، والمدراء، والهيئة التدريسية، والطلاب، والميزانية.

### أ - المجلس المؤسس لمدرسة النجاح الوطنية ومجلس عمدتها

تمكن بعض محبي العلم من اخذ رخصة لافتتاح مدرسة النجاح الوطنية من أجل « ايجاد ناشئة متتورة قديرة على القيام بواجباتها نحو الوطن والأمة »<sup>(١٤)</sup>. ولقد أخذ أعضاء المجلس المؤسس<sup>(١٥)</sup> ومعلمو المدرسة على عاتقهم « القيام بتقويم اخلاق ابناء البلاد، وتثقيف عقولهم، وتربية اجسامهم تربية تمكنهم من اثبات ذاتيتهم في معترك الحياة »<sup>(١٦)</sup>.

ولقد احدث مؤسسو مدرسة النجاح الوطنية مجلس عمدة للمدرسة، وانتخبوا اعضاء من افاضل المدن الفلسطينية، ليكونوا للمدرسة عدة تعتمد عليهم وهداة تسترشد بأرائهم واقتراحاتهم فيما يعود على المدرسة بالفائدة الادبية والمادية<sup>(١٧)</sup>.

### ب - مدراء مدرسة النجاح الوطنية:

تعاقب على ادارة مدرسة النجاح الوطنية عدد من المرين، والجدول التالي يوضح اسماءهم والفترة الزمنية التي قضاها في ادارة هذه المدرسة.

#### الجدول رقم (٢)

مدراء مدرسة النجاح الوطنية زمن الانتداب البريطاني<sup>(١٨)</sup>

| الاسم           | السنوات       | الرقم |
|-----------------|---------------|-------|
| أديب مهيار      | ١٩١٨ - ١٩٢١ م | ١     |
| محمد عزة دروزة  | ١٩٢١ - ١٩٢٨ م | ٢     |
| جودة حيدر       | ١٩٢٨ - ١٩٣١ م | ٣     |
| جلال زريق       | ١٩٣١ - ١٩٣٣ م | ٤     |
| عبد اللطيف حبال | ١٩٣٣ - ١٩٣٤ م | ٥     |
| فريد زيد الدين  | ١٩٣٤ - ١٩٣٥ م | ٦     |
| أديب مهيار      | ١٩٣٥ - ١٩٥٠ م | ٧     |

ولقد امتاز مدرء مدرسة النجاح الوطنية بأنهم من الشخصيات المعروفة بعلمها وبوطنيتها في العالم العربي<sup>(١٩)</sup>.

### ج - الهيئة التدريسية لمدرسة الوطنية:

اهتم مؤسسو مدرسة النجاح الوطنية ومدراؤها بدقة انتقاء المعلمين، فلقد جاء في النشرة الأولى عن مدرسة النجاح الوطنية انهم اختاروا المعلمين الذين «توفرت فيهم الاخلاق الفاضلة والمباديء الشريفة ووفرت معلوماتهم»<sup>(٢٠)</sup>. ومن مزايا مدرسة النجاح الوطنية ان معلمها «هم نخبة من ذوي الاخلاق الفاضلة والاطلاع الكافي والمعرفة بطرائق التعليم والتهديب»<sup>(٢١)</sup>. فالمعلم في نظر مدرسة النجاح الوطنية نموذج طيب، وقدوة حسنة يتشرب الطلاب منه العادات الحميدة، ويحاكونه في تصرفاته. ويمكننا القول ان هناك اسسا كانت تراعى عند اختيار معلمي مدرسة النجاح الوطنية ومنها:

١ - ان يكون المعلم من اصحاب المباديء الشريفة، فالمدرسة قد اهتمت بتهديب ابنائها الطلاب تهديبا اسلاميا وقوميا ووطنيا حتى يخرجوا رجالا يعتر بهم الوطن<sup>(٢٢)</sup>.

٢ - أن يكون المعلم متمتعا بالأخلاق الفاضلة، فلقد وجهت مدرسة النجاح عناية خاصة للاخلاق واعتبرت ان الخلق هو اساس النجاح في الحياة<sup>(٢٣)</sup>. ولقد كانت المدرسة تصرف الكثير من قواها في تعويد التلاميذ النظام والترتيب والحرية والطاعة الناشئة من الرغبة لا من الرهبة<sup>(٢٤)</sup>.

٣ - أن يكون المعلم ملما بالمادة الدراسية.

٤ - أن يكون ملما بأساليب التدريس المختلفة، فعلاوة على المعلومات النظرية التي كانت تعطي للطلاب، فلقد حرصت المدرسة على الجانب التطبيقي العلمي، كما انها حرصت على تعويد التلاميذ الاعتماد على انفسهم في الدراسة والتعليم، فكثيرا ما كانوا يكلفون الطلاب بالابحاث ليتمرنوا على البحث، والتنقيب، وجمع المعلومات، وترتيبها، واختيارها<sup>(٢٥)</sup>. وهذا ما يدفع الطلاب - في الغالب - الى مواصلة الجد والبحث والاطلاع بعد تخرجهم من المدرسة.

وراعت مدرسة النجاح الوطنية مجال التخصص عند كل معلم، فقد كانت تتعاقد مع معلمين عرب أو اجانب في حالة تعذر الكفايات العلمية في فلسطين.

والجدول رقم (٣) يوضح أسماء بعض معلمي مدرسة النجاح حسب تخصصاتهم.

### الجدول رقم (٣)

معلمو<sup>(٢٦)</sup> مدرسة النجاح الوطنية زمن الانتداب البريطاني  
حسب التخصص

| اسماء المعلمين   | مجال التخصص                         |
|--|-------------------------------------|
| الشيخ فهمي هاشم، الشيخ صديق أبو غزالة، الشيخ اسعد شرف، الشيخ عبد الحميد السائح، الشيخ زكي ابو الهدى، الشيخ عبد الرحمن البيتاوي، محمد رشدي الخياط، و ابراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وأحمد احمد بدوي، ومحمد العدناني، وعلي نويهيقي، ومحمد العمدة. | التربية الاسلامية<br>واللغة العربية |
| محمد سعيد العبوشي، وعبد الرحمن بامية، وواصف كال، وعلاء الدين الثمري، واحمد هارلو، وابريدون شاهين، وجرجي البارودي،  | اللغة الانكليزية                    |
| ممدوح السخن، فارس السخن، اكرم كمال، عبد اللطيف الحبال، سعيد السنتريسي، عادل تفاحة، سليم كمال   | العلوم                              |
| أحمد طوقان، داوود طوقان، بكر عبد الحق، خليل الخماش، فريد زين الدين، قدرې طوقان، جلال زريق، عفيف سليمان   | الرياضيات                           |
| عمر فروخ، عزت دروزة، محمد علي دروزة، اكرم زعيتر، جميل كمال، زكي النقاش، اديب مهيار، امين صوفان.  | الاجتماعيات                         |
| منير نجا، محمود الحبال، عبد الودود رمضان.  | الرياضة البدنية                     |

#### د - طلاب مدرسة النجاح الوطنية:

في السنوات الأولى للتأسيس أم مدرسة النجاح الوطنية طلاب من كافة أنحاء فلسطين، حتى جاءها طلاب فلسطينيون يقطن اهلهم مصر<sup>(٢٧)</sup>. ومن ثم كسبت المدرسة نتيجة جهودها اسما حسنا في جميع أنحاء فلسطين، وشرق الاردن، وبعض البلاد العربية الاسلامية، فأما طلاب من كافة مقاطعاتها<sup>(٢٨)</sup> ولقد فتحت المدرسة ابوابها للطلاب غير المسلمين كما للمسلمين علس السواء. وكانت لا تكلفهم بممارسة الطقوس الاسلامية او حضور حصصها، بل تسهل لهم ممارسة طقوسهم الدينية في معابدهم<sup>(٢٩)</sup>. وفي عام ١٩٢٦م-١٩٢٧م كان عشر أبناء المدرسة مسيحيين يعيشون مع طلاب المسلمين عيشة الود والصفاء التام<sup>(٣٠)</sup>.

والدراسة في مدرسة النجاح الوطنية كانت تهيء الطلاب للدراسة الجامعية، وتهيئهم للعمل بعد تخرجهم سواء في المدارس أو الدوائر الحكومية أو العمل الحر، اذا لم تكن ظروفهم مساعدة لهم على الاستمرار في الدراسة<sup>(٣١)</sup>.

والجدول التالي رقم (٤) يبين عدد الطلاب الذين التحقوا بمدرسة النجاح الوطنية في كل سنة دراسية زمن الاحتلال البريطاني:

الجدول رقم (٤)

أعداد طلاب<sup>(١)</sup> مدرسة النجاح الوطنية زمن الانتداب البريطاني

| السنة الدراسية | عدد الطلاب | السنة الدراسية | عدد الطلاب | السنة الدراسية | عدد الطلاب |
|----------------|------------|----------------|------------|----------------|------------|
| ١٨-١٩١٩م       | ١٧٤        | ٢٩-١٩٣٠م       | ٢٤٦        | ٤٠-١٩٤١م       | ٣٦٩        |
| ١٩-١٩٢٠م       | ١٨٤        | ٣٠-١٩٣١م       | ٢٣٩        | ٤١-١٩٤٢م       | ٣٣٩        |
| ٢٠-١٩٢١م       | ١٩٢        | ٣١-١٩٣٢م       | ٢٨٢        | ٤٢-١٩٤٣م       | ٣٦٤        |
| ٢١-١٩٢٢م       | ٢٥٤        | ٣٢-١٩٣٣م       | ٢٤٧        | ٤٣-١٩٤٤م       | ٣٧٠        |
| ٢٢-١٩٢٣م       | ٢١١        | ٣٣-١٩٤٣م       | ٢٢٩        | ٤٤-١٩٤٥م       | ٤٠٦        |
| ٢٣-١٩٢٤م       | ٢٥١        | ٣٤-١٩٣٥م       | ٢٤٣        | ٤٥-١٩٤٦م       | ٤٣٨        |
| ٢٤-١٩٢٥م       | ٢٤٥        | ٣٥-١٩٣٦م       | ٢٩٠        | ٤٦-١٩٤٧م       | ٤١٨        |
| ٢٥-١٩٢٦م       | ٢٧٦        | ٣٦-١٩٣٧م       | ٢٥٣        | ٤٧-١٩٤٨م       | ٤٠٩        |
| ٢٦-١٩٢٧م       | ٢٢٢        | ٣٧-١٩٣٨م       | ٢٨٩        | ٤٨-١٩٤٩م       | **         |
| ٢٧-١٩٢٨م       | ٢٥٢        | ٣٨-١٩٣٩م       | ٢٥٤        |                |            |
| ٢٨-١٩٢٩م       | ٢٦٤        | ٣٩-١٩٤٠م       | ٣١٦        |                |            |

١ - حصل الباحث على اعداد الطلاب في كل سنة دراسية من سجلات العلامات القديمة الخاصة بهم، وذلك باحصاء عدد الطلاب في كل صف من صفوف المدرسة، ومن ثم إيجاد عدد الطلاب في جميع الصفوف.

ملاحظة: لمقارنة اعداد طلاب المدرسة باعداد الطلاب في مدارس فلسطين يمكن الاطلاع على الجدول رقم (١٢) في كتاب «التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني» لنبيل أيوب بدران، ص (١٢٤-١٢٥)، ص ١٢٨.

\* نظرا لظروف البلاد السياسية التي اضطرت المدرسة الى الاضراب في عام ٣٥-١٩٣٦م، وحال هذا الاضراب دون اتمام الدراسة فقد قررت ادارة المدرسة، بعد الاطلاع على قرار ادارة المعارف بشأن طلابها وترفيعهم، اعتبار الذي كان

معدله في الفصل الاول ٦٥ فما فوق مترفعا وناجحا حتى ولو كان مقصرا في موضوعين فقط، واعتبار الطالب المقصر في ثلاثة مواضيع راسبا في صفه (انظر سجل علامات الطلاب لعام ٣٥-١٩٣٦م).  
\*\* أقلت المدرسة ابوابها في هذا العام الدراسي لتتيح للاجئين بها.

ومن الجدير بالذكر ان عدد الطلاب في القسم الداخلي كان ٢٦ طالبا، أي بنسبة ١٥٪ تقريبا من مجموع عدد الطلاب<sup>(٣٢)</sup>. اما عدد الطلاب الداخليين عام ٢٤-١٩٢٥م فكان ٧٥ طالبا<sup>(٣٣)</sup>.

#### هـ- ميزانية مدرسة النجاح الوطنية :

شملت ميزانية<sup>(٣٤)</sup> مدرسة النجاح الوطنية ناحيتين اساسيتين هما الواردات والنفقات. وكانت الواردات تنقسم الى اربعة فصول: الفصل الاول في رسوم الطلاب، والفصل الثاني في الواردات المتفرقة<sup>(٣٥)</sup>، والفصل الثالث في المساعدات او الاعانات<sup>(٣٦)</sup>، والفصل الرابع في المدور من العام السابق. اما النفقات فكانت تقسم الى خمسة فصول وهي: الفصل الاول في رواتب الادارة والمعلمين، والفصل الثاني في رواتب العمال<sup>(٣٧)</sup>، والفصل الثالث في النفقات المتفرقة<sup>(٣٨)</sup>، والفصل الرابع في النفقات التأسيسية<sup>(٣٩)</sup>، والفصل الخامس في نفقات المطبخ<sup>(٤٠)</sup>، والفصل السادس في زيادة الرواتب.

والجدول التالي رقم (٥) يلقي الضوء على ميزانية النجاح الوطنية في السنوات الاولى لتأسيسها.



### الجدول رقم (٥)

الواردات والنفقات في ميزانية مدرسة النجاح الوطنية للسنوات الدراسية  
١٩٢٢/٢١ - ١٩٢٧/٢٦ م<sup>(٤١)</sup>

| السنة الدراسية | الواردات | النفقات   |
|----------------|----------|-----------|
| ١٩٢٢-٢١ م      | ٣١١٧٥٧٠  | ٣١٢١٢٦٠٠٠ |
| ١٩٢٣-٢٢ م      | ٣١٧٧٧١١  | ٢٨٨٨٩٣٨   |
| ١٩٢٤-٢٣ م      | ٣٨٥٠٨٠٦  | ٣١٦٢٩١٧   |
| ١٩٢٥-٢٤ م      | ٣٩٨٩٨٨٩  | ٣٤٠٧٩٣٠   |
| ١٩٢٦-٢٥ م      | ٤٤٣٥١٧٨  | ٣٨٢٢٢ ٣٠  |
| ١٩٢٧-٢٦ م      | ٣٩٨٩٨٨٩  | ٣٤٠٧ ٩٣   |

وإذا استعرضنا ميزانية عام ٢٤-١٩٢٥ م<sup>(٤٢)</sup> علي سبيل المثال، نجد ان الواردات قد بلغت ٣٩٨٩٨٨٩ جنيها فلسطينيا، قسمت على النحو التالي: جنيها من رسوم الطلاب الداخليين، و ٦٨١ جنيها من الطلاب النهارين، و ٢٠٥ جنيها واردة متفرقة، و ٣٠٠ جنيها اعانة المجلس الاسلامي الاعلى، و ٦٨٧٨٨٩ جنيها المدور النقدي لعام ٢٣-١٩٢٤ م. أما نفقات هذا العام فلقد بلغت ٣٦٦١٢٦ جنيها منها ١٧٠٥٦٠ جنيها رواتب للمدرسين، ٢٢٤ جنيها رواتب العمال، و ٣٨٨٣٣ جنيها في النفقات المتفرقة، و ١٨٠ جنيها في النفقات التأسيسية، و ٩١٠ جنيها في نفقات المطبخ، و ٣٣،٢٥٣ جنيها اجرة البناء. ونلاحظ ان رسوم الطلاب هي الجزء الاساسي من الواردات رغم انها كانت لا تغطي النفقات الكلية للمدرسة، والجدول التالي يوضح تطور الرسوم السنوية للطلاب النهارين والطلاب الداخليين.

**الجدول رقم (٦)**  
تطور الرسوم السنوية بالجنهيات<sup>(٤٣)</sup> للطلاب  
النهارى والداخلي بمدرسة النجاح الوطنية

| رسوم الطالب النهاري بالجنهيات رسم الطالب الداخلي بالجنهيات |       |       |       |       |       |       |       |       |       | المرحلة الدراسية         |
|--|-------|-------|-------|-------|-------|-------|-------|-------|-------|--------------------------|
| عام  | عام   | عام   | عام   | عام   | عام   | عام   | عام   | عام   | عام   |                          |
| ٤٧-٤٦  | ٤٣-٤٢ | ٤٠-٣٩ | ٣٧-٣٠ | ٣٣-٢٢ | ٤٤-٤٦ | ٤٤-٤٢ | ٤٠-٣٩ | ٣٢-٣١ | ٢٣-٢٢ |                          |
| —  | —     | —     | —     | —     | ٦     | ٤     | ٣     | ٣     | ٣     | بستان الاطفال            |
| ٥٨   | ٢٨    | ٢٨    | ٢٨    | ٢٨    | ١     | ٤     | ٣     | ٣     | ٣     | القسم الابتدائي          |
| ٦٠   | ٣٨    | ٣٠    | ٣٠    | ٣٠    | ١٢    | ٧     | ٥     | ٥     | ٤     | القسم الاستعدادي المتوسط |
| ٧٠   | ٣٩    | ٣٢    | ٣٢    | ٣١    | ١٨    | ١٢    | ٧     | ٧     | ٦     | القسم الاستعدادي العالي  |

ويمكن ان نستنتج من الجدول السابق امورا عدة منها:-

- ١ - عدم وجود تفاوت في الرسوم منذ تأسيس مدرسة النجاح وحتى سنة ١٩٤٠ م.
- ٢ - ارتفاع ملحوظ في الرسوم المدرسية في الاربعينات وخاصة للطلاب الداخليين، وقد يعود ذلك الى الارتفاع في أسعار المواد الغذائية.

ولقد كانت المدرسة تعفي عشرين بالمئة من الطلاب النهاريين من الرسم، وينتخب المعافون ممن حسنت اخلاقهم، وكانوا من الفقراء الناجحين في دروسهم<sup>(٤٤)</sup>. وكان يخصم عشرة بالمئة من رسوم الطلاب النهاريين عن الاخوة. ويخصم جنيه واحد عن كل أخ من الاخوة الداخليين<sup>(٤٥)</sup>. وكانت المدرسة تستوفي الرسوم على ثلاثة اقساط<sup>(٤٦)</sup>.

ويمكن القول ان واردات مدرسة النجاح الوطنية قد هيأت المجال للتعاقد مع المعلمين المؤهلين<sup>(٤٧)</sup>، وساعدت في توفير الادوات والوسائل التعليمية، وهيأت للطلاب أوجه النشاط المدرسي، ومكنت ادارة المدرسة من استئجار مبنى ملائم<sup>(٤٨)</sup>.

## مشكلة الدراسة وأهدافها:

هدف هذه الدراسة هو تقديم صورة واضحة عن طبيعة التعليم في مدرسة النجاح الوطنية، والكشف عن دورها الاجتماعي في تقديم المجتمع العربي الفلسطيني زمن الانتداب البريطاني.

وعلى سبيل التحديد فان هدف الدراسة هو التعرف الى ما يلي:-

- اولا- دور مدرسة النجاح الوطنية في تثقيف عقول الطلاب بالمعلومات والحقائق والمهارات.
- ثانيا- دور مدرسة النجاح الوطنية في تنمية الوعي القومي لدى الطلاب.
- ثالثا- دورها في تنشئة الطلاب على الاخلاق الحميدة.
- رابعا- دورها في مساعدة أسر الطلاب في تربية ابنائهم الصحية.
- خامسا- دورها في غرس روح التعاون ومحبة العمل في المتعلمي.
- سادسا- دورها في تخرج الطلاب القادرين على قيادة المجتمع الواعين بدورهم الايجابي في العمل على حل مشكلاته، او الدور الاجتماعي الذي لعبه هؤلاء الخريجون في تقدم المجتمع العربي الفلسطيني.

ومن اجل الاجابة عن اسئلة الدراسة تم الاستعانة بالوسائل التالية:-

- ١ - دراسة تحليلية لأغلب المنشورات والكتيبات السنوية التي كانت تصدر عن مدرسة النجاح الوطنية من اجل التعرف الى نوعية الطالب العربي الذي تريد ان تخرجه.
- ٢ - الاطلاع على السجلات الرسمية الخاصة بعلامات طلاب مدرسة النجاح الوطنية للتعرف الى مستواهم العلمي، وعدد الذين التحقوا بها، واسماء الذين تخرجوا منها.
- ٣ - متابعة خريجي مدرسة النجاح الوطنية لمعرفة الدور الاجتماعي الذي قاموا به.
- ٤ - اجراء مقابلات شخصية مع اعضاء مجلس جامعة النجاح الوطنية- الذين درس أغلبهم في مدرسة النجاح الوطنية، وساهموا كذلك في تطويرها، ومع بعض

مدرسيها، والعديد من الذين تعلموا فيها من اجل الاستفسار عن بعض الامور المتعلقة بالدراسة، والتأكد من صحة بعض المعلومات التي تم جمعها.

## مصطلحات الدراسة

مدرسة النجاح الوطنية: استخدام هذا الاصطلاح- في هذه الدراسة- ليدل على مؤسسة النجاح الوطنية منذ تأسيسها عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٤٨ م (رغم انها عرفت باسم كلية النجاح الوطنية عام ١٩٤١/٤٠ م).  
مؤسسة النجاح الوطنية: هي المؤسسة التربوية التي تم افتتاحها في مدينة نابلس عام ١٩١٨ م وعرفت باسم مدرسة النجاح الوطنية. ومن ثم اصبحت تعرف عام ١٩٤٠ م باسم كلية النجاح الوطنية، وعام ١٩٧٧ م باسم جامعة النجاح الوطنية.

دور المدرسة الاجتماعي: لأغراض البحث تم تحديد هذا الدور بالامور التالية:  
تثقيف عقول الطلاب، وتنمية وعيهم القومي، وتنشئتهم على الاخلاق الفاضلة، والمساهمة في تربيتهم صحيا، وغرس روح التعاون والعمل فيهم، وتخرج الطلاب القادرين على قيادة وتقديم المجتمع<sup>(٤٩)</sup>.

خريجوا مدرسة النجاح الوطنية: هم الطلاب الذين اجتازوا الصف الخصوصي، او السادس الاستعدادي، او الرابع الثانوي، وحصلوا على وثيقة النجاح من المدرسة زمن الانتداب البريطاني.

التقدم: هو التغير الايجابي العميق الذي يمس كل مواطن، وينعكس بالتالي على المجتمع<sup>(٥٠)</sup>.

## أولا - دور مدرسة النجاح الوطنية في تثقيف عقول الطلاب

يمكن القاء الضوء على هذا الدور من خلال التعرض للامور التالية:-

١ - اختيار المعلومات والحقائق النافعة للطلاب في حياتهم الحاضرة والمستقبلية.

لتوضيح المعلومات والحقائق التي كانت تعلم في مدرسة النجاح الوطنية، لا بد من التعرف الى السلم التعليمي - ففي عام ١٩١٨م تم افتتاح المدرسة بصفوف أربعة، وكانت نتيجة الطلاب باهرة نالت اعجاب المدققين والمخلصين<sup>(٥١)</sup>. وفي السنة الثانية لتأسيسها، ونتيجة لنجاح المدرسة والاقبال الشديد عليها، اهتم القائمون بأمر المدرسة في توسيع صفوفها فزادوا صفين<sup>(٥٢)</sup> وفي عام ١٩٢١م أصبح عدد صفوف المدرسة ثمانية<sup>(٥٣)</sup>. وفي عام ١٩٢٣م أصبح عدد صفوف المدرسة عشرة<sup>(٥٤)</sup>.

ومن ثم نظم السلم التعليمي في مدرسة النجاح الوطنية، فأصبح كما يلي:-

- أ ( مرحلة ما قبل التعليم (بستان الاطفال): افتتحت المدرسة فرعا للاطفال عام ١٩٣١م - ١٩٣٢م، وكان يؤمه الصبيان والبنات من سن الرابعة الى السادسة، وعهد بادارته الى مديرية متخصصة في تربية الاطفال وتم تجهيزه بمعدات حديثة<sup>(٥٥)</sup>.
- ب ( المرحلة الابتدائية: ومدة الدراسة فيها اربع سنوات، وصفوف هذه المرحلة أربعة<sup>(٥٦)</sup>.
- ج ( مرحلة الاستعدادي المتوسط: ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات بعد نجاح الطالب في الدراسة الابتدائية وتشمل هذه المرحلة ثلاثة صفوف<sup>(٥٧)</sup>.
- د ( مرحلة الاستعداد العالي: ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات بعد نجاح الطالب في القسم الاستعدادي المتوسط. وتضم هذه المرحلة ثلاثة صفوف<sup>(٥٨)</sup>.

وفي عام ٤٠-١٩٤١م، اضافت ادارة مدرسة النجاح الوطنية صفا جديدا يؤهل الطلاب لدخول فحص المترك في حكومة فلسطين، وقررت ادارة المدرسة اعطاء الشهادة الثانوية في كليتها<sup>(٥٩)</sup>.

أما المواد<sup>(٦٠)</sup> التي كانت تدرس في مدرسة النجاح الوطنية فهي:-

- أ ( القسم الابتدائي:-
- الصف الأول: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، الحساب، معلومات عامة، رسم، رياضة بدنية.
- الصف الثاني: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، الحساب، دروس الاشياء، التاريخ، الجغرافيا، رسم، رياضة بدنية.
- الصف الرابع: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، اللغة الانجليزية، الحساب، التاريخ، الجغرافيا، دروس الاشياء<sup>(٦١)</sup>، الرسم، رياضة بدنية.

ب - القسم الاستعدادي المتوسط:-

الصف الاول: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، اللغة الانجليزية، الحساب، التاريخ، الجغرافيا،  
دروس الاشياء، رسم، رياضة بدنية.

الصف الثاني: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، اللغة الانجليزية، الحساب، التاريخ، الجغرافيا،  
دروس الاشياء، رسم، رياضة بدنية.

الصف الثالث: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، اللغة الانجليزية، الهندسة، الحساب،  
التاريخ، الجغرافيا، دروس الاشياء، رسم، رياضة بدنية.

ج - القسم الاستعدادي العالي:-

الصف الرابع: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، اللغة الانجليزية، التاريخ، الجغرافيا، الحساب،  
الهندسة المستوية، الجبر، دروس الطبيعة، رياضة بدنية.

الصف الخامس: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، اللغة الانجليزية، التاريخ، الجغرافيا،  
الحساب، الهندسة، الجبر الابتدائي، علم الطبيعة، الكيمياء.

الصف السادس: الديانة الاسلامية، اللغة العربية، اللغة الانجليزية، التاريخ، الهندسة  
المستوية، الجبر الابتدائي، المثلاث، علم الطبيعة، الكيمياء، وبين الجدولين التاليين توزيع  
الحصص في القسم الابتدائي والقسم الاستعدادي:-

الجدول رقم (٧)

توزيع الحصص في القسم الابتدائي (٦٢)

| الموضوع                             | الصف الاول | الصف الثاني | الصف الثالث | الصف الرابع |
|-------------------------------------|------------|-------------|-------------|-------------|
| القران الكريم<br>والديانة الاسلامية | ٤          | ٦           | ٦           | ٦           |
| اللغة العربية                       | ١٦         | ١٣          | ١٠          | ٨           |
| اللغة الانجليزية                    | ٠          | ٠           | ٦           | ٧           |
| الحساب                              | ٥          | ٥           | ٥           | ٥           |
| التاريخ                             | ٠          | ٢           | ٢           | ٢           |
| الجغرافيا                           | ٠          | ٢           | ١           | ٢           |
| المعلومات العامة                    | ٤          | ٠           | ٠           | ٠           |
| دروس الاشياء                        | ٠          | ٢           | ٢           | ٢           |
| الرسم                               | ١          | ١           | ١           | ١           |
| الرياضة البدنية                     | ٣          | ٢           | ١           | ١           |
| مجموع الحصص                         | ٣٣         | ٣٣          | ٣٤          | ٣٤          |

## الجدول رقم (٨)

توزيع الحصص في القسم الاستعدادي<sup>(٦٣)</sup>

| الموضوع                   | الصف الأول | الصف الثاني | الصف الثالث | الصف الرابع | الصف الخامس | الصف السادس |
|---------------------------|------------|-------------|-------------|-------------|-------------|-------------|
| الدين الاسلامي            | ٥          | ٤           | ٣           | ٢           | ٢           | ٢           |
| اللغة العربية             | ٨          | ٨           | ٨           | ٧           | ٧           | ٧           |
| اللغة الانجليزية          | ٧          | ٨           | ٩           | ٨           | ٧           | ٧           |
| التاريخ                   | ٣          | ٣           | ٣           | ٣           | ٣           | ٤           |
| الجغرافيا                 | ٣          | ٣           | ٣           | ٣           | ٢           | ٠           |
| دروس الاشياء              | ٢          | ٣           | ٣           | ٤           | ٠           | ٠           |
| الحسب                     | ٥          | ٥           | ٥           | ٤           | ١           | ٠           |
| الجبر                     | ٠          | ٠           | ٠           | ٣           | ٣           | ٣           |
| الهندسة                   | ٠          | ٠           | ١           | ٢           | ٣           | ٣           |
| المثلثات                  | ٠          | ٠           | ٠           | ٠           | ٠           | ٢           |
| الفيزياء                  | ٠          | ٠           | ٠           | ٠           | ٤           | ٠           |
| الكيمياء                  | ٠          | ٠           | ٠           | ٠           | ٤           | ٤           |
| الرسم                     | ١          | ١           | ٠           | ٠           | ٠           | ٠           |
| الرياضة                   | ١          | ١           | ١           | ١           | ١           | ١           |
| مجموع الحصص<br>في الاسبوع | ٣٥         | ٣٦          | ٣٦          | ٣٧          | ٣٧          | ٣٧          |

ويمكننا بعد دراسة المواد المعطاة، ودراسة جدول توزيع الحصص استنتاج أمور عدة

ومنها:-

- أ ( ان مدرسة النجاح الوطنية كانت تولي عناية كبيرة بتدريس اللغة العربية - لغة القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الحضاري-.
- ب ( العناية بتدريس الديانة الاسلامية - للطلاب المسلمين- في جميع الصفوف الدراسية.



ج ( التركيز على اللغة الانجليزية - كأحدى اللغات الأجنبية الحديثة - منذ الصف الثالث الابتدائي

د ( العناية بالمواد الاجتماعية التي تزود الطلاب بالحقائق والمعلومات، وتساهم في تنمية روحة القومية.

هـ ( العناية بالمواد العلمية (الرياضيات والعلوم).

٢ ( توفير الخدمات المرتبطة باستيعاب المادة الدراسية.

ومن الخدمات التي كانت تقدمها مدرسة النجاح الوطنية لطلابها ما يلي:-

أ - المكتبة المدرسية

اهتمت مدرسة النجاح الوطنية بالمطالعة الحرة، وهيأت مكتبة، فيها كمية حسنة من الكتب العربية والانجليزية المتنوعة التي يحسن ان يقرأها الطلاب في اوقات فراغهم. وبلغ عدد ما فيها من الكتب في العام الدراسي ١٩٣٠ - ١٩٣١م ألف وخمسمائة كتاب<sup>(٦٤)</sup>. وفي العام الدراسي الذي يليه الف وستائة كتاب، وكانت الزيادة في اضطراد<sup>(٦٥)</sup>.

ولقد اشتركت المدرسة بعدد من المجالات العربية والانجليزية لترغيب الطلاب بالمطالعة<sup>(٦٦)</sup>.

ومما لا ريب فيه ان تهيئة الطلاب للحفلات الخطابية الاسبوعية واقامتهم للمناظرات والمباريات الكتابية كانت نتيجة للمطالعة الحرة.

ب - مختبرات المدرسة

لقد تم تجهيز مختبرين، أحدهما للكيمياء والآخر للفيزياء بأهم الالات والادوات التي يستخدمها الطلاب في اجراء التجارب العلمية<sup>(٦٧)</sup>.

٣ - استخدام الاساليب المختلفة في التدريس

اهتمت مدرسة النجاح الوطنية بأن يكون المعلم ملما بالمادة الدراسية وبأساليب تدريسها ايضا، فعلاوة على المعلومات النظرية كان الاهتمام بالجانب التطبيقي العلمي، والحرص على تعويد الطلاب الاعتماد على انفسهم في الدراسة والتعليم، والعناية بتكليفهم بالابحاث ليتمرنوا على البحث والتنقيب وجمع المعلومات وترتيبها واختيارها<sup>(٦٨)</sup>.

لقد تفوق كثير من طلاب مدرسة النجاح الوطنية، وكانت النتائج السنوية جيدا جدا. والجدول رقم (٩) يظهر نسبة نجاح الطلاب في السنوات الاولى لتأسيس المدرسة.

### الجدول رقم (٩)

نسبة نجاح الطلاب في السنوات الاولى لتأسيس  
مدرسة النجاح الوطنية<sup>(٦٩)</sup>

| التقدير |       |       |            | عدد الطلاب | السنة الدراسية |
|---------|-------|-------|------------|------------|----------------|
| مقصر    | وسط   | حسن   | جيد        |            |                |
| دون ٦٠  | ٦٠-٧٥ | ٧٥-٩٠ | ٩٠ فما فوق |            |                |
| ٥٦٪     | ٢٩٪   | ٤٠٪   | ٢٤٪        | ٢٥٤        | ١٩٢٢-٢١        |
| ١٠٪     | ٢٢٪   | ٥٦٪   | ١٢٪        | ٢١١        | ١٩٢٣-٢٢        |
| ١٪      | ٣٦٪   | ٣٣٪   | ٢٠٪        | ٢٥١        | ١٩٢٤-٢٣        |
| ١٥٪     | ٢٥٪   | ٢٧٪   | ٣٣٪        | ٢٧٦        | ١٩٢٦-٢٥        |
| ١٠٪     | ٢٤٪   | ٣٦٪   | ٢٨٪        | ٢٥٢        | ١٩٢٨-٢٧        |

ويستنتج من الجدول السابق، ان المتوسط الحسابي للنسب المؤوية للنجاح في السنوات الخمس المبينة في الجدول أعلاه، هو ٨٩٫٦٦. وهذه النسبة المرتفعة جدا كانت نتيجة الجهود المشتركة التي بذلها الطلاب والهيئة التدريسية والادارية، وولياء الامور.

وفي عام ٤٠-١٩٤١م نجح في فحص المترك الفلسطيني ستة عشر طالبا من سبعة عشر<sup>(٧٠)</sup>. وفي العام الدراسي ٤١-١٩٤٢م نجح ستة عشر طالبا من ستة عشر<sup>(٧١)</sup>.

وكانت شهادة الدراسة الاستعدادية تمنح للطلاب اذا اتم الصف السادس الاستعدادي وكان ناجحا في جميع المواضيع ومعدل علاماته ٦٥ في المائة فما فوق، والطالب الذي يكون معدله سبعين على الاقل يعطى مع الشهادة وثيقة تخوله الدخول في الصف العلمي الاول في الجامعة الامريكية ببيروت، او الى الجامعة الامريكية في القاهرة، او الكلية الانجليزية في القدس، او توصي بقبوله في الصف الرابع في الكلية العربية في القدس، او في الجامعة السورية في دمشق<sup>(٧٢)</sup>.

وفي المدرسة فحصان كبيران هما نصف السنة، والفحص النهائي، وتحسب لهما ثلاثة ارباع العلامة النهائية للسنة الدراسية<sup>(٧٣)</sup>، وهناك فحوص شهرية ويومية يقوم بها المعلمون على انفراد لحفز الطالب على الجهد والاجتهاد<sup>(٧٤)</sup>.

أما علامة الاجتياز فهي ستون في المائة، فالطالب الذي لا يقصر عن هذه العلامة في كل مادة من المواد المقررة يجتاز الصف الذي هو فيه اذا كان معدل علاماته خمسا وستين في المائة فما فوق، والطالب الذي يقصر تعطى له فرصة لاداء فحص تكميلي في أول السنة الجديدة، فاذا نال علامة الاجتياز ارتقى على ان لا يقل معدل علاماته عن خمس وستين في المائة<sup>(٧٥)</sup>.

## ٥ - تأمين قبول الطلاب في الجامعات:

كانت مدرسة النجاح الوطنية مرتبطة بجامعة بيروت الامريكية بحيث ان الطلاب الذين ينهون فيها دراستهم بنجاح يدخلون الصف الاول العلمي بدون امتحان<sup>(٧٦)</sup>. ولقد تم الارتباط كذل بجامعة القاهرة الامريكية عام ١٩٣٠م<sup>(٧٧)</sup>. وهيأت المدرسة كذلك للطلاب الناجحين دخول الصف الرابع بالكية العربية في القدس للتخرج منها كمعلمين<sup>(٧٨)</sup>. ولقد اتسع هذا الارتباط حتى شمل الجامعات الاخرى في دمشق ومصر والعراق<sup>(٧٩)</sup>.

## ثانيا : دور مدرسة النجاح الوطنية في تنمية الوعي القومي لدى الطلاب.

اهتمت مدرسة النجاح الوطنية بتغذية شعور الطلاب بالحقائق والعواطف القومية، وحثهم على التضحية، واحترام حقوق الآخرين. ويمكن ادراك هذه الامور مما يلي:

### ١ - اهداف تأسيس مدرسة النجاح الوطنية:

جاء في أول نشرة صدرت عن ادارة المدرسة ما يكشف عن الغايات الرئيسية لتأسيسها:  
«وقد اتخذت لنفسها غاية اساسية ان توجه مجهوداتها الى تنمية العواطف الوطنية في تلاميذها وبث مكارم الاخلاق الاسلامية في نفوسهم وتقوم ملكاتهم الشخصية بحيث يتكون منهم في المستقبل رجال عاملون يقدرون على القيام بواجباتهم الشخصية والاجتماعية»<sup>(٨٠)</sup>.

ويمكن القول من العبارة السابقة، ان التعليم في مدرسة النجاح الوطنية كان هدفه تحقيق

امور منها:-

- أ ) اعداد الطالب المرتبط بوطنه العربي والمؤمن بأهداف امته في الوحدة والتحرر.
- ب ) اعداد جيل واع لخطر الغزو الاستيطاني الاجنبي، وربط المواطن بتراث امته واخلاقها الاسلامية.
- ج ) تزويد الطلاب بالقدر الكافي من الثقافة الاسلامية وغرس مكارم الاخلاق في نفوسهم.
- د ) اعداد الطالب ذي الشخصية المتكاملة النمو في النواحي الروحية والاخلاقية والبدنية والعقلية والانفعالية والاجتماعية.
- هـ ) اعداد الرجال القادرين على دفع عجلة التنمية من خلال ممارستهم لدورهم في المؤسسات الاجتماعية المختلفة.
- و ) اعداد الطلاب لمواصلة دراستهم الجامعية.

فالتربية الوطنية للطلاب كانت من الاهداف الاساسية لتأسيس مدرسة النجاح الوطنية، حتى يدرك الطلاب انهم جزء من امتهم العربية، وعليهم خدمة وطنهم، والتضحية من اجله.

٢ - اختيار المديرين والمعلمين.

من الاسس التي روعيت في اختيار مديرين ومعلمي مدرسة النجاح الوطنية، كونهم من اصحاب المبادئ الشريفة الذين يهتمون بتهديب الطلاب ووطنيا، وبمحرصون ان يكونوا قدوة حسنة لهم<sup>(٨١)</sup>.

٣ - تزويد الطلاب بالمعلومات الوطنية الضرورية.

لم يكن هناك اشراف او توجيه من حكومة الانتداب البريطاني على مناهج التعليم في المدارس الوطنية بفلسطين، وكان اعضاء الهيئة التدريسية بمدرسة النجاح الوطنية يؤثرون تأثيرا بالغا في المنهاج المدرسي، وكان لهم الرأي في تحديد الخبرات التربوية التي يرونها مناسبة للطلاب<sup>(٨٢)</sup>. ومن الادلة في هذا المجال:

أ ) اهتمام المنهاج باللغة العربية (اللغة القومية). ويظهر هذا الاهتمام من خلال التدريس باللغة العربية، والعناية بها في تدريس المواد الاخرى، ودراسة اللغة العربية عن طريق أوجه النشاط المختلفة<sup>(٨٣)</sup>. وكذلك بعدد حصص اللغة العربية المعطلة<sup>(٨٤)</sup>.

- أ ( ) تدريس التاريخ العربي الاسلامي<sup>(٨٥)</sup>.  
تدريس الجغرافيا<sup>(٨٦)</sup>.
- وفي المواد الاجتماعية دروس في التعاون والتضحية وتحمل المسؤولية، وهي تساعد الطالب على فهم واجباته وحقوقه وخصائص وطنه، وامكانياته، ومعرفة فضل امته في ميادين الحضارة<sup>(٨٧)</sup>.
- د ( ) حث الطلاب على مطالعة القصص والروايات التي تركز على تاريخنا الوطني، وحثهم على حضور الروايات التمثيلية- في هذا المجال- والاشترك فيها<sup>(٨٨)</sup>
- هـ ( ) تحفيظ الطلاب الاناشيد الوطنية والتغني بها<sup>(٨٩)</sup>.
- ٤ - استغلال المناسبات المختلفة لاهاب قلوب الطلاب بحب الوطن وتحمل المسؤولية. ومن هذه المناسبات الحفلات العامة التي اقامتها المدرسة، والمتمثلة بحملة القرآن الكريم عقب الفحص الفصلي الثاني، وحفلة توزيع الشهادات عقب الفصل النهائي وحفلة الالعاب الرياضية<sup>(٩٠)</sup>. ومن الجدير بالذكر ان كل واحدة من هذه الحفلات كانت تعد مهرجانا وطنيا يؤمه الكثيرون من جميع انحاء البلاد<sup>(٩١)</sup>.
- وعلاوة على ذلك فلقد شاركت المدرسة اهالي مدينة نابلس الاحتفال بالاعياد الوطنية والمناسبات الدينية، وكان لها دور قيادي في التخطيط لها<sup>(٩٢)</sup>. ويمكن القول ان هذه المناسبات كانت تسمي شعور الطلاب بالعواطف السامية نحو الوطن وابنائها.
- ٥ - غرس روح البذل والتضحية في سبيل الوطن.
- وحسبنا في هذا المجال ذكر مشاركة الكثير من مدرسيها في الحركات الوطن، وكانوا قدوة في هذا المجال قولاً وعملاً، ولقد استشهد عدد منهم كالشاعر عبد الرحيم محمود.
- ثالثاً- دور مدرسة النجاح الوطنية في تنشئة الطلاب على الاخلاق الحميدة.
- ركزت مدرسة النجاح الوطنية- بطريقة غير مباشرة- على التربية الاخلاقية، والامور التالية توضح ذلك:-
- ١ - ان من اهداف التأسيس بث مكارم الاخلاق الاسلامية في نفوس الطلاب<sup>(٩٣)</sup>.
- ٢ - ان من اسس اختيار المعلم تحلية بالاخلاق الفاضلة، وقوة الشخصية التي تساعده في ان يقود الطلاب ويرشدهم الى الطريق السليم<sup>(٩٤)</sup>.

- ٣ - ان للمدرسة مفكرة فيها نبذة مفيدة في انظمة المدرسة وواجبات الطلاب<sup>(٩٥)</sup>.
- ٤ - الاهتمام بتدريس القرآن الكريم والديانة الاسلامية ( منبع التربية الخلقية)<sup>(٩٦)</sup>.
- ٥ - ممارسة النشاط المدرس الذي يسهم في رفع المستوى الخلقى للطلاب<sup>(٩٧)</sup>.
- ٦ - تقدير الرسوم والمسيقى والاناشيد الاخلاقية<sup>(٩٨)</sup>.
- ٧ - تزويد الطلاب بالمثل العليا- كالامانة، والعطف، والشجاعة، والصدق- من ثنايا دروس اللغة العربية والمواد الاجتماعية<sup>(٩٩)</sup>.
- ٧ - حفظ دراهم الطلاب.
- كانت المدرسة مستعدة لأن تحفظ للطالب دراهمه الخصوصية وان تعطيه لزومه الاسبوعي، وهي لا تتحمل تبعة ما يفقده من الدارهم التي يحملها دون لزوم<sup>(١٠٠)</sup>. ولقد كانت المدرسة تنصح اولياء الطلاب ان لا يوجدوا في يد ابنائهم دراهم زائدة منعا للاسراف والنفقة الزائدة<sup>(١٠١)</sup>.
- ويظهر التركيز على الجانب الاخلاقي واضحا وجليا عند قراءة مزايا مدرسة النجاح الوطنية- التي عرفت بها- زمن الانتداب البريطاني ومنها:-
- أ ( «انها في بلدة خالية من كل باعث على النفقات الزائدة.
- ب ( انها في بلدة خالية من كل باعث على فساد الاخلاق، ولا خشية على التلميذ فيها مهما كان حديث السن.
- ج ( انها في بلدة اسلامية عربية لا تقع عين تلميذ فيها علا على ما يقوى فيه عواطفه الاسلامية العربية.
- د ( انها تهتم بتهديب ابنائها تهديبا اسلاميا وقوميا ووطنيا.
- هـ ( انها تعتني بتنمية الروح الرياضية والكشفية اعتناء تاما.
- و ( ان التلميذ يرى نفسه فيها كأنه في بيته، بين اللطف والحنان والعناية والاهتمام.
- ز ( ان اساتذة المدرسة هم نخبة من ذوي الاخلاق الفاضلة والاطلاع الكافي المعرفة بطرق التعليم والتهديب.
- ح ( ان منهاجها جامع للمرونة ووفرة المادة، وضامن لتنمية مواهب التلاميذ العقلية والاخلاقية.
- ط ( ان شهادتها مقبولة في اكبر جامعات سوريا وفلسطين ومصر والعراق)<sup>(١٠٢)</sup>.

- رابعاً: دور مدرسة النجاح الوطنية في مساعدة أسر الطلاب في تربية ابنائهم الصحية:
- سأهمت مدرسة النجاح الوطنية في اكساب الطلاب المعلومات والعادات والاتجاهات الصحية. ويمكن استنتاج ذلك مما يلي:
- ١ - تدريس علم الصحة.
  - ٢ - كانت المدرسة تدرس هذه المادة ضمن موضوعات دروس الاشياء التي كانت تقدم للطلاب منذ السنة الثانية الابتدائية حتى نهاية الصف الرابع الاستعدادي<sup>(١٠٣)</sup>.
  - ٣ - تدريس مادة الرياضة البدنية<sup>(١٠٤)</sup>.
  - ٤ - وكانت تدرس في جميع صفوف المدرسة، وتسهم في اعداد الطالب اعدادا متكاملًا من النواحي المختلفة وخاصة الجسمية.
  - ٥ - تشجيع الطلاب على الاشتراك بالنشاطات الرياضية والكشفية التي تساهم في تقوية اجسام الطلاب<sup>(١٠٥)</sup>.
  - ٦ - الجمعية الصحية.
  - ٧ - وكان هدفها مراقبة حالة الطلاب في الصحة والنظافة والترتيب<sup>(١٠٦)</sup>.
  - ٨ - طبيب المدرسة.
  - ٩ - كان مدرسة النجاح الوطنية خاص لمداداة الطلاب والاشراف على حالة المدرسة الصحية<sup>(١٠٧)</sup>.
  - ١٠ - وجبة الغذاء.
  - ١١ - كانت المدرسة تقدم لمن يرغب من الطلاب النهارين وجبة غذائية في أيام الدراسة، وكانت المدرسة تتقاضى ستين قرشا شهريا ثمنا للوجبة<sup>(١٠٨)</sup>.
  - ١٢ - الاعتناء بطلاب القسم الداخلي.
  - ١٣ - نظرا لما رأته مدرسة النجاح الوطنية من الرغبة والاقبال من نابلس ومن خارجها، فقد انشأت قسما داخليا فيها علاوة على القسم النهاري<sup>(١٠٩)</sup>. ولقد اعتنت المدرسة كل العناية بتأمين راحة الطلاب الداخليين من حيث المنامة والغذاء والراحة والنظافة، وسهرت على سيرهم وأدابهم وصحتهم، فكان الطلاب يجدون

فيها حنان الأم وعطف الأب وعناية المهذب<sup>(١١٠)</sup>. ولقد كان رسم الطالب الداخلي في الصفوف الابتدائية والاعدادية ثمانية وعشرين جنيها سنويا على السواء، بينما رسم الطالب في الصف الخصوصي اربعة وثلاثين جنيها سنويا<sup>(١١١)</sup>. وكان يستوفي الرسم الداخلي على ثلاثة اقساط<sup>(١١٢)</sup>.

والجدول التالي يبين الامتعة اللازمة للطالب الداخلي عند التحاقه بالقسم (وكان يكتب بالخياطة أو التطريز، اسم الطالب على كل قطعة من قطع ثيابهم)<sup>(١١٣)</sup>.

### الجدول رقم (١٠)

#### الامتعة اللازمة للتلميذ الداخلي (١)

| العدد | النوع                    | العدد | النوع             |
|-------|--------------------------|-------|-------------------|
| ٢     | مناشف حمّام              | ١     | فرشة              |
| ٢     | فساتين نوم               | ١     | لحاف              |
| ٣     | قمصان داخلية             | ١     | حرام              |
| ٣     | قمصان خارجية             | ٢     | مخدات             |
| ٣     | لباسات داخلية            | ٤     | وجوه مخدات        |
| ٢     | اكياس لوضع الثياب        | ٢     | شراشف بيضاء       |
| ٦     | محارم وجوارب من كل منهما | ١     | غطاء للسريير ابيض |
| ١     | بابوج                    | ١     | بشاكير يد         |
| ١     | خزانة سريير              | ١     | وزرة حمّام        |

خامسا: دور مدرسة النجاح الوطنية في غرس روح التعاون ومحبة العمل في المتعلمين  
 هيأت مدرسة النجاح الوطنية الفرص المفيدة للطلاب للتمرن والقيام بالاعمال  
 والتشكيلات الاجتماعية والعلمية والادبية والرياضية تحت اشراف المعلمين المختصين ومن  
 الجمعيات او اللجان التي انشئت لهذا الغرض:

١ - جمعيتان ادبيتان لغويتان.



احدهما للغة العربية والاخرى للغة الانجليزية، وهدف هاتين الهيئتين تهيئة الحفلات الخطابية الاسبوعية، والتمرن على التمثيل الادبي في اللغتين، واقامة المناظرات العلمية والادبية والاجتماعية والاقتصادية، ونقد اللغة والاساليب، وتعويدهم الحرية في ابداء الآراء ومناقشتها... والجمعيتان تعتنيان كذلك بترتيب المباريات الخطابية - كتابية وارتجالية - وترتيب جوائز للمبرزين فيها<sup>(١١٤)</sup>.

٢ - الجمعية الخيرية:

وكان هدفها مساعدة الفقراء من الطلاب<sup>(١١٥)</sup>.

٣ - اللجنة الموسيقية:

وهدفها تمرين الطلاب على الانشاد والتلحين<sup>(١١٦)</sup>، ولقد اهتمت مدرسة النجاح الوطنية بالاناشيد الوطنية والاخلاقية اهتماما كبيرا<sup>(١١٧)</sup>.

٤ - الحفلات العامة:

وهي حفلة ختم القرآن الكريم، والتخرج السنوية، والالعاب الرياضية<sup>(١١٨)</sup>.

٥ - اللجنة الرياضية:

وهدفها تهيئة الالعاب الرياضية ونشرها بين الطلاب، وتهيئة المباريات الرياضية في نابلس وخارجها<sup>(١١٩)</sup>. وكانت اللجنة الرياضية باشراف اخصائيين في الرياضة تقيم ف فصل الربيع من كل عام حفلة العاب عامة توزع فيها الجوائز على الفائزين تشجيعا لفكرة الرياضة في البلاد<sup>(١٢٠)</sup>.

٦ - فرقة الكشافة:

وهدفها تقوية اجسام الطلاب واكسابهم القوة وتعويدهم الخشونة والصبر والثبات والاعتماد على النفس والجلد والمثابرة، وتهدف أيضاً الى تربية عقول الطلاب تربية قوية من خلال الرحلات التي يقومون بها حيث يرون مناظر متعددة، ويختلطون بأقوام كثيرين فيتعرفون الى اخلاقهم وعاداتهم<sup>(١٢١)</sup>.

ولقد تأسست فرقة الكشافة في مدرسة النجاح الوطنية على مبادئ «الكشاف المسلم» في بيروت، وكان يقوم بتسييرها وتدريب طلابها اخصائي معروف من معلمي المدرسة<sup>(١٢٢)</sup>.

وكان يديره لجنة منتخبة من الطلاب ليتعودوا ادارة المشروعات بأنفسهم. ولقد هيات المدرسة لاعضاء هذا النادي الالعاب المناسبة والمفيدة لاشغال اوقات فراغهم. وكانت هيئة ادارة النادي تقيم مسابقات اثناء السنة، ينال الفائزون فيها جوائز ثمينة من الكؤوس والمداليات<sup>(١٢٣)</sup>.

ويمكن القول، ان ممارسة هذه الانشطة المختلفة تساعد الطلاب في وضع الخطط وتنفيذها، واحترام آراء الآخرين، وايشار المصلحة العامة على الخاصة، وتنمية روح الاخوة والقيادة فيهم، واعدادهم للحياة الاجتماعية، واستخدام اوقات الغراء استخداما<sup>(١٢٤)</sup> نافعا.

سادسا: الدور الاجتماعي الذي لعبه خريجو مدرسة النجاح الوطنية في تقدم المجتمع العربي الفلسطيني.

والاجابة عن هذا السؤال، تتطلب اجراء دراسة ميدانية لمتابعة الخريجين، والكشف عن دور مدرسة النجاح الوطنية في تخرج القادرين على قيادة المجتمع الواعين بدورهم الايجابي في العمل على حل مشكلاته.

## طريقة البحث

١ - عينة الدراسة:

تتكون عينة الدراسة من جميع خريجي مدرسة النجاح الوطنية زمن الاحتلال البريطاني، ولقد بلغ عدد هؤلاء الخريجين والحاصلين على وثيقة النجاح ٣٨٥ طالبا، اشترك جميعهم في هذه الدراسة.

وثيقة النجاح ٣٨٥ طالبا، اشترك جميعهم في هذه الدراسة.

٢ - قوائم الخريجين:

وأخذت اسماء الخريجين ومكان ولادتهم من السجلات الخاصة معلمات الطلاب<sup>(١٢٥)</sup>، ثم تم طباعة اسماء الخريجين<sup>(١٢٦)</sup>، وسحب العدد الكافي منها.

٣ - نواحي متابعة الخريجين:

شملت نواحي المتابعة الامور التالية:-

- أ ( التحصيل العلمي للخريجين .  
 ب ( مهن الخريجين .  
 ج ( المناصب والوظائف التي شغلها الخريجون .  
 ٤ - أما الاساليب العديدة التي اتبعت من اجل التعرف الى الخريجين وجمع المعلومات اللازمة عنهم فهي :

- أ ( مقابلة الخريج ان امكن .  
 ب ( قراءة ما كتب عن الخريجين<sup>(١٢٧)</sup> .  
 ج ( الاتصال بأقرباء الخريجين .  
 د ( الاتصال بزملاء<sup>(١٢٨)</sup> واصدقاء الخريجين .  
 هـ ( الاتصال ببعض التجار .  
 و ( الاتصال ببعض موظفي المؤسسات المختلفة سواء في التربية والتعليم او البلدية، او الغرفة التجارية، او الدوائر الصحية .  
 ز ( الاتصال بمختار المدينة او القرية .

ولقد ساعد الباحث في متابعة الخريجين ٩٥ من طلبة الدراسات العليا<sup>(١٢٩)</sup> بجامعة النجاح الوطنية، ولقد وضحت الامور التالية لمساعدتي البحث:

- أ ( هدف الدراسة .  
 ب ( اساليب المتابعة .  
 ج ( نواحي المتابعة .

ومن اجل تنظيم عملية المتابعة فلقد اتبع الباحث الخطوات التالية:

- أولاً- قسّم الطلبة الى ثلاثين مجموعة، وشملت المجموعة الواحدة ثلاثة طلاب .  
 ثانياً- روعي ان يكون في كل مجموعة طلبة من المدينة والقرية .  
 ثالثاً- اعطي لكل عشر مجموعات قائمة كاملة بالاسماء، ووزعت بينهم اسماء القائمة بالتساوي تقريباً. فحصى كل مجموعة ما يقارب ٣٩ خريجاً، وبذلك يكون نصيب كل طالب متابعة ١٣ خريجاً .

- رابعاً- اعطي الطلبة شهراً واحداً لاتمام متابعة الخريجين .  
 خامساً- كانت المجموعة الواحدة تتعاون لمتابعة اسماء الخريجين الخاصة بها، وكان يسمح

سادسا- كذلك بالتعاون المشترك بين طلبة المجموعات العشر. كان الباحث يجتمع بالطلبة مرتين في الاسبوع ويقف على اعمالهم. ولقد حصل الباحث في نهاية الفترة المحددة على ثلاث قوائم معبأة للخريجين.

٥ - صدق قائمة الخريجين:

- أ ( لقد اتبع الباحث خطوات عدة لتحقيق صدق القائمة وهي:  
تم تأليف لجنة من طلبة الدبلوم واشرف الباحث لتنسيق عمل جميع الطلبة. وتم تعبئة قائمة جديدة للخريجين من خلال النظر في قوائم الخريجين الثلاث المعبئة، مع مراعاة ان المعلومات المدونة في القائمة الجديدة متفق عليها في قائمتين على الاقل من القوائم الثلاث. وتم اعتبار مهنة الخريج غير محددة في حالة وجود التباس في المعلومات التي جمعت عنه.
- ب ( مقارنة المعلومات التي جمعت عن الخريجين بما كتب عنهم في كتيبات<sup>(١٣٠)</sup> مدرسة النجاح الوطنية.
- ج ( عرضت القائمة على لجنة من المحكمين<sup>(١٣١)</sup>، وطلب من اعضائها ابداء الآراء في المعلومات التي جمعت عن الخريجين الذين يعرفونهم. ولقد اجمع اعضاء اللجنة على دقة وصحة المعلومات التي تم جمعها عن الخريجين، كما استفاد من آرائهم في تطوير بعض المعلومات المستقاة.

## النتائج

من اجل معرفة الدور الاجتماعي الذي لعبه خريجو مدرسة النجاح الوطنية في تقدير المجتمع العربي الفلسطيني، صنفت المعلومات التي تم التوصل اليها عن الخريجين الى المجالات المهنية التالية:- التجارة والاعمال الخاصة، والزراعة، والصيدلية، والطب، والقضاء والمحاماة، والهندسة، والوظيفة.

والجدول رقم (١١) يمثل نتائج هذا التصنيف.

الجدول رقم (١١)

توزيع خريجي مدرسة النجاح الوطنية زمن الانتداب البريطاني  
في المجالات المهنية المختلفة التي اقتصوا بها

| النسبة المئوية | العدد | المجالات المهنية        |
|----------------|-------|-------------------------|
| ١٣٫٢٥٪         | ٥١    | التجارة والاعمال الخاصة |
| ٣٫٦٤٪          | ١٤    | الزراعة                 |
| ٧٫٠١٪          | ٢٧    | الصيدلة                 |
| ١٣٫٧٧٪         | ٥٣    | الطب                    |
| ٣٫٩٠٪          | ١٥    | القضاء والمحاماة        |
| ٥٫٤٥٪          | ٢١    | الهندسة                 |
| ٤٦٫٤٩٪         | ١٧٩   | الوظيفة                 |
| ٦٫٤٩٪          | ٢٥    | غير محدد * *            |
| ١٠٠٫٠٠٪        | ٣٨٨   | المجموع                 |

\*\* تم اعتبار مهنة الخريج غير محددة في حالة عدم معرفة المهنة، أو في حالة وجود التباس في المعلومات التي تم جمعها.

يتضح من الجدول رقم (١١) ان اكثر المهن ممارسة (مرتبة حسب نسبتها المئوية)  
بالنسبة لخريجي مدرسة النجاح الوطنية كانت:-

- الوظيفة.
- الطب.
- التجارة والاعمال الخاصة.
- الصيدلة.
- القضاء والمحاماة.
- الزراعة.

ويظهر الجدول التالي رقم (١٢) التالي نتائج توزيع خريجي المدرسة الذين التحقوا في مجال الوظيفة حسب الدوائر الحكومية والمؤسسات المختلفة.

الجدول رقم (١٢)

| النسبة المئوية | العدد | مجال الوظيفة                                      |
|----------------|-------|---|
| ٥٣ر٠٧%         | ٩٥    | في سلك التربية والتعليم                           |
| ٢٧ر٩٣%         | ٥٠    | في الدوائر الحكومية الأخرى (أعمال إدارية وسياسية) |
| ١٩ر٠٠%         | ٣٤    | في المؤسسات العامة والخاصة                        |
| ١٠٠ر٠٠%        | ١٧٩   | المجموع   |

وبالرجوع الى الجدول رقم (١٢) يلاحظ ان الخريجين الذين التحقوا في مجال الوظيفة كان اغلبهم في سلك التربية والتعليم بنسبة ٥٣ر٠٧ في المائة يليهم موظفو الدوائر الحكومية الأخرى بنسبة ٢٧ر٩٣ في المائة، ومن ثم موظفو المؤسسات العامة أو الخاصة بنسبة ١٩ في المائة.

وبين الجدول رقم (١٣) التالي نتائج توزيع خريجي مدرسة النجاح الوطنية الذين انهموا دراسة الطب حسب تخصصاتهم العلمية.

الجدول رقم (١٣)

| النسبة المئوية | العدد | مجال الطب   |
|----------------|-------|-------------|
| ٣٠ر١٩%         | ١٦    | طبيب إحصائي |
| ٥٠ر٩٤%         | ٢٧    | طبيب عام    |
| ١١ر٣٢%         | ٠٦    | طبيب أسنان  |
| ٧ر٥٥%          | ٠٤    | طبيب بيطري  |
| ١٠٠ر٠٠%        | ٥٣    | المجموع     |

من الجدول رقم (١٣) يتضح ان نسبة الخريجين الذين انهوا دراسة الطب، ومن ثم -  
 واصلوا دراستهم العليا - تخصصوا في ميادين الطب المختلفة كانت ٣٠.١٩ في المائة، وهي  
 نسبة مرتفعة. كما يتضح أن ١١٣٢ في المائة من الذين انهوا دراسة الطب كانوا اطباء  
 اسنان، وان ٧٥٥ في المائة منهم درسوا الطب البيطري، بينما مارس المهنة، كطبيب عام،  
 ٥٠.٩٤ في المائة.

والجدول رقم (١٤) التالي يوضح نسبة طلاب مدرسة النجاح الوطنية الذين واصلوا  
 تعليمهم الجامعي الى مجموع الطلاب الخريجين.

### الجدول رقم (١٤)

| النسبة المئوية                                      | العدد | المجال                                     |
|---|-------|--|
| ١٣.٢٢%  | ٤٨    | الآداب والتجارة والحقوق                    |
| ٣٤.٧١%  | ١٢٦   | المجال العلمي                              |
| ٤٧.٩٣%  | ١٧٤   | المجالات العلمية والادبية والتجارة والحقوق |
| ١٠٠.٠٠%   | ٣٦٣   | مجموع الخريجين * *                         |
| * * الذين تم تحديد تحصيلهم العلمي ودورهم الاجتماعي. |       |  |

ويتبين من هذا الجدول ان النسبة المئوية للطلاب الخريجين الذين واصلوا تعليمهم  
 الجامعي كانت ٤٧.٩٣ في المائة، منهم ٣٤.٧١ في المائة تخصصوا في المهن العلمية  
 كالطب والصيدلة والهندسة والزراعة والعلوم، والآداب، والتجارة، والحقوق.

ويبين الجدول التالي رقم (١٥) توزيع خريجي مدرسة النجاح الوطنية زمن الانتداب  
 البريطاني حسب الدول التي عملوا فيها.

## الجدول رقم (١٥)

| النسبة المئوية | العدد | القطر             |
|----------------|-------|-------------------|
| ٧٩.٥٠%         | ٢٨٩   | فلسطين والأردن    |
| ١٤.٢٠%         | ٥٢    | الكويت            |
| ٢.٧٥%          | ١٠    | السعودية          |
| ٠.٢٧%          | ١     | العراق            |
| ٠.٨١%          | ٣     | الامارات العربية  |
| ٠.٢٧%          | ١     | قطر               |
| ٠.٥٥%          | ٢     | المغرب العربي     |
| ١.٦٥%          | ٦     | خارج الوطن العربي |
| ١٠٠.٠٠%        | ٣٦٣   | المجموع           |

وبالاحظ من الجدول ان خريجي مدرسة النجاح الوطنية قد عملوا في العديد من الاقطار العربية، وان ٧٩.٥ في المائة عملوا في فلسطين والأردن، و ١٤.٢ في المائة عملوا في الكويت، و ٢.٧٥ في المائة عملوا في السعودية، وعدد منهم عمل في العراق، والامارات العربية وقطر، والمغرب العربي. ويظهر من الجدول كذلك ان ١.٦٥ في المائة من الخريجين عملوا خارج الوطن العربي.

### المناقشة

هدفت هذه الدراسة الميدانية متابعة خريجي مدرسة النجاح الوطنية لمعرفة الدور الاجتماعي الذي قاموا به.

وظهر من نتائج هذه الدراسة ان مدرسة النجاح الوطنية ساهمت في توفير العديد من الخريجين العرب الفلسطينيين ودفعت بهم - مباشرة أو بعد متابعة دراستهم الجامعية - لتحمل مسؤولياتهم القومية فعملوا في المجالات المهنية التالية: الوظيفة، والطب، والتجارة، والاعمال الخاصة، والصيدلة، والهندسة، والقضاء والمحاماة، والزراعة. ومن الجدير بالذكر ان



التعليم الحكومي زمن الانتداب البريطاني قصر في هذا المجال، فكان للمدارس الوطنية دور ايجابي فيه، فلقد جاء في نتائج احدى الدراسات «ان التعليم الحكومي العام لم يرق بأى نصيب يذكر في اعداد التلاميذ للمهن الضرورية لحياة السكان مثل: الاطباء، والصيادلة، والمهندسين، والمرضات، والمهندسين الزراعيين، والكيميائيين، والجيولوجيين، والاحصائيين، حتى المعلمين. والحق يقال ان معظم من وجد في البلاد من هؤلاء الفنيين، تعلموا قبل التحاقهم بالكليات والجامعات في مدارس ثانوية اهلية أو اجنبية. وهكذا فان التعليم العام لم يساهم مساهمة تذكر في سد حاجات السكان» (١٣٢).

وكشفت الدراسة عن أن ٤٧٩٣ في المائة من خريجي مدرسة النجاح الوطنية قد واصلوا دراستهم الجامعية. ويمكن تفسير هذه النتيجة المرتفعة في ضوء ما يلي:-  
- حاجة البلاد الملحة لتوفير الكوادر المؤهلة في كافة التخصصات من ابناء البلاد، وذلك في ضوء المجابهة العلمية التي برزت نتيجة الهجرة والاستيطان الاجنبي.

- تشجيع مدرسة النجاح الوطنية لمواصلة تعليم ابنائها الخريجين، والعمل على تأمين قبولهم بالجامعات.  
- رغبة الطلاب الخريجين من مواصلة تعليمهم.  
- المستوى العلمي الجيد للطلاب الخريجين (١٣٣).  
- الحالة المادية الجيدة لأغلب اولياء الامور، ورغبتهم في تعليم ابنائهم.

واظهرت الدراسة أيضاً ان ٣٤٧١ في المائة من خريجي مدرسة النجاح الوطنية قد تخصصوا في المجالات العلمية كالطب، والهندسة، والصيدلة، والزراعة والعلوم بينما ١٣٢٢ في المائة منهم قد تخصصوا في الآداب والتجارة والحقوق. ويمكن رد ذلك الاتجاه الايجابي الى توجيه مدرسة النجاح الوطنية الطلاب، لحاجة البلاد للاحصائيين في مجال التكنولوجيا والعلوم امام تحديات الاستيطان الاجنبي.

ولقد ظهر من نتائج الدراسة ان الخريجين مارسوا المهن المختلفة، وان اكثرها ممارسة كانت الوظيفة، والطب، والتجارة والاعمال الخاصة. ويمكن رد الاقبال على مجال الوظيفة الى ان خريجي مدرسة النجاح الوطنية كان بإمكانهم الالتحاق مباشرة في مجال الوظيفة - سواء في مجال التربية والتعليم أو في الوظائف الادارية الحكومية الاخرى، أو في المؤسسات العامة أو الخاصة - وبغض النظر عن مواصلة تعليمهم الجامعي. وظهر من نتائج الدراسة ان اغلب الموظفين هم من المعلمين، وتأثير المعلمين يكون نتيجة التوجيه والارشاد والتعليم المباشر الذي

بممارسونه. وكذلك يمكن رد اقبال الطلاب الخريجين على دراسة وممارسة الطب للامور التالية:-

- حاجة البلاد الماسة للاطباء

- انسانية المهنة.

- المركز الاجتماعي المرموق للطبيب.

- الدخل المالي الجيد للطبيب.

ويعتقد الباحث من خلال متابعته للخريجين، ان اغلبهم ينحدر من عائلات غنية أو متوسطة، مما جعل العديد منهم يتجه الى التجارة والاعمال الخاصة، رغبة منهم ومن اولياء امورهم في تطوير وتنظيم اعمالهم التجارية.

واظهرت نتائج هذه الدراسة الميدانية ان ٩٨٣٥ في المائة من خريجي مدرسة النجاح الوطنية قد عملوا في الوطن العربي. ويمكن تحليل ذلك بالتربية الوطنية التي غرستها مدرسة النجاح الوطنية في نفوس الطلاب، الذين ارتبطوا بوطنهم العربي، وفضلوا الخدمة في اقطاره المختلفة، رغم تهيئة ظروف الهجرة - لخارج الوطن العربي - أمام الكثيرين منهم. ولقد ساهم هؤلاء الخريجون في نشر التعليم وتقديم الخدمات الادارية والصحية والقضائية والهندسية والزراعية لوطنهم وللعديد من الاقطار العربية. وعلى سبيل المثال فلقد عمل (٥٢) خريجاً - أي بنسبة ١٤٢ في المائة من الخريجين - في دولة الكويت، فكانوا عشرة مهندسين، واثني عشر طبيباً، وستة عشر موظفاً، واثني عشر معلماً، وصيدلياً واحداً، وقاضياً واحداً. ومما لا شك فيه ان هؤلاء الخريجين قد ساهموا في التنمية والتقدم الاجتماعي من خلال ممارستهم لمهنهم المختلفة.

ولقد اظهرت نتائج هذه الدراسة ايضا ان العديد من الخريجين، قد احتلوا المراكز القيادية المرموقة في مجالات تخصصهم العلمي، وكذلك في المجال السياسي. فلقد اظهرت نتائج متابعة الخريجين ان عشرة خريجين<sup>(١٣٤)</sup> على الاقل، قد احتلوا مراكز سياسية برتبة رئيس وزراء، أو وزير، أو وكيل وزارة، أو رئيس مجلس نواب، أو عضو في مجلس نواب، أو عضو في مجلس اعيان، أو عضو في المجلس الوطني الاستشاري. ولعل ذلك يعود الى ما غرسته مدرسة النجاح الوطنية في نفوس طلابها من تنمية لروح القيادة، وتحمل للمسؤولية، وتفهم للقضايا الوطنية، وتفان في سبيل خدمة امتهم.

## المراجع باللغة العربية

- ١ - ابراهيم، عبد اللطيف فؤاد. وحمد، سعد مرسي: المواد الاجتماعية وتدرسيها الناجح، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣، ١٩٧٦.
- ٢ - بدران، نبيل ايوب: التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني، ج ١: عهد الانتداب، مركز الابحاث الفلسطينية، بيروت، آب، ١٩٦٩م.
- ٣ - برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ٢١-١٩٢٢م، المطبعة الوطنية بنابلس.
- ٤ - برنامج مدرسة النجاح الوطنية في نابلس لعامها السادس، ٢٣-١٩٢٤م، مطبعة يوسف كوي بمصر.
- ٥ - برنامج مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الحادي والعشرين ٣٨-١٩٣٩م، مطبعة دار الايتام الاسلامية- القدس.
- ٦ - برنامج مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الثاني والعشرين، ٣٩-١٩٤٠م، مطبعة بيت المقدس، القدس.
- ٧ - بيان كلية النجاح الوطنية بنابلس عن السنة المدرسية ٥٠-١٩٥١م، مطبعة النصر التجارية - نابلس.
- ٨ - جامعة النجاح الوطنية بنابلس، ١٩١٨ - ١٩٧٧م، مطبعة النصر التجارية، نابلس.
- ٩ - الحسيني، السيد محمد وزملاؤه: دراسات في التنمية الاجتماعية، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٤.
- ١٠ - الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ج ٢، القسم الثاني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م.
- ١١ - سرية، صالح عبد الله: تعليم العرب في اسرائيل، مركز الابحاث الفلسطينية بيروت، حزيران، ١٩٧٣م.
- ١٢ - شرابي، هشام: مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، طبعة اولى، ١٩٧٥م.
- ١٣ - شرف، عبد الحميد: التقدم السياسي والتقدم الاجتماعي (محاضرة القيت في نادي خريجي الجامعة الاردنية)، تموز، ١٩٧٨.

- ١٤- شهلا، جورج وزملاؤه: الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية، ط٢، ١٩٦١م.
- ١٥- عبد العزيز، صالح وعبد المجيد، عبد العزيز: التربية وطرق التدريس، ج١، ط١٠، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١م.
- ١٦- فئة من المدرسين، اصول التربية وعلم النفس وتطبيقاتها التربوية، الجزء الاول، ١٩٦٢م.
- ١٧- قورة، حسين سليمان: الاصول التربوية في بناء المناهج، ط٤، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ١٨- لائحة اجمالية عن مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٢٢-١٩٢٣م.
- ١٩- مدرسة النجاح الوطنية، اعلان، ١٩١٨م.
- ٢٠- مدرسة النجاح الوطنية، النشرة الاولى، نابلس، ١٩١٨م.
- ٢١- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها السابع، ٢٤-١٩٢٥م، مطبعة مدرسة الايتام الاسلامية بالقدس.
- ٢٢- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها الثامن، ٢٥-١٩٢٦م، المطبعة العربية بمصر.
- ٢٣- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها التاسع، ٢٦-١٩٢٧م، مطبعة دار الايتام الاسلامية بالقدس.
- ٢٤- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها العاشر، ٢٧-١٩٢٨م، مطبعة فلسطين الجديدة، يافا.
- ٢٥- مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الثاني عشر، ٢٩-١٩٣٠م، مطبعة دار الايتام الاسلامية بالقدس.
- ٢٦- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها الثالث عشر، ٣٠-١٩٣١م، مطبعة دار الايتام الاسلامية، القدس.
- ٢٧- مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الرابع عشر، ٣١-١٩٣٢م، مطبعة دار الايتام الاسلامية، القدس.
- ٢٨- ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٢-١٩٤٣م، مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس.
- ٢٩- ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٣-١٩٤٤م، مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس.

- ٣٠- ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٤-١٩٤٥م، مطبعة دار الايتام  
الاسلامية الصناعية بالقدس.
- ٣١- ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٥-١٩٤٦م، مطبعة دار الايتام  
الاسلامية الصناعية بالقدس.
- ٣٢- ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٧-١٩٤٨م، مطبعة دار الايتام  
الاسلامية الصناعية بالقدس.
- ٣٣- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، احوال التربية والتعليم في الاراضي المحتلة،  
الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ٣٤- ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ٢١-١٩٢٢م.
- ٣٥- ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ٢٢-١٩٢٣م.
- ٣٦- ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ٢٣-١٩٢٤م.
- ٣٧- ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ٢٤-١٩٢٥م.
- ٣٨- ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ٢٥-١٩٢٦م.
- ٣٩- ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ٢٦-١٩٢٧م.
- ٤٠- التمر، احسان: تاريخ جبل نابلس واللقاء، الجزء الاول، عام ١٩٣٧م، الجزء الثاني  
عام ١٩٦١م - نابلس.
- ٤١- يوسف، عبد القادر: مستقبل التربية في العالم في ضوء التجربة الفلسطينية،  
شركة كتب الشرق الاوسط، القاهرة، ١٩٦٢م.

### المراجع باللغة الانجليزية

- 1 - Mar'i S.K.Q **Arab Education In Israel** Syracuse University Press, New York,  
1978.
- 2 -Matthews, R.D. & Akrawi, M. q **Education In Arab Countries of The Near East**,  
American Council on Education, Washington, D. C., 1949.

ملحق الدراسة

خريجو مدرسة النجاح الوطنية زمن الاحتلال البريطاني  
(١٩١٨-١٩٤٨م): أسماء الخريجين، وتحصيلهم  
العلمي، ودورهم الاجتماعي

١٩٢٣/١٩٢٤

دفعة الخريجين الأولى

الصف الخصوصي

| الرقم | الاسم            | التحصيل العلمي والدور الاجتماعي  |
|-------|------------------|--|
| ١     | فريد العلي       | (أم الفحم) بكالوريوس علوم الجامعة الامريكية، قائم مقام<br>بئر السبع، مدير شركة الدخان.   |
| ٢     | محمد سليم الأمين | عمل في المجال العسكري.   |
| ٣     | أدهم الحجاوي     | خريج الكلية العربية، مدير مدرسة، وكيل وزارة الشؤون<br>الاجتماعية.  |
| ٤     | سليم كمال        | ماجستير زراعة من جامعة بركلي في كاليفورنيا موجه زراعي<br>(يافا) اخصائي طب اطفال من جامعة جنيف، طبيب في<br>جامعة الدول العربية. |
| ٦     | أكرم زعيتر       | بكالوريوس حقوق، مؤرخ، (عمل في المجال السياسي<br>كسفير ووزير خارجية).   |
| ٧     | حكمت المصري      | بكالوريوس تجارة، الجامعة الامريكية، رئيس مجلس النواب،<br>رئيس مجلس امناء جامعة النجاح الوطنية.                                 |
| ٨     | صابر الشنار      | ماجستير الزراعة من فرنسا، مدير زراعة، وعضو الغرفة<br>التجارية بنابلس   |
| ٩     | مصطفى المحمد     | موظف حكومي   |
| ١٠    | حسني شاهين       | مدير مدرسة   |

١٩٢٥ / ١٩٢٤

الصف التخصصي

|   |                       |    |
|---|-----------------------|----|
| عمل في الزراعة (قمبازة)   | حيدر الماضي           | ١  |
| (اليامون) عمل في الزراعة  | فائق المسعد           | ٢  |
| خريج الكلية العربية- مدير مدرسة محامي                               | صديق كمال             | ٣  |
| بكالوريوس علوم الجامعة الامريكية- موظف                              | واصف عنتاوي           | ٤  |
| بكالوريوس علوم الجامعة الامريكية، مدير اداري بوزارة التربية         | وصفي عبد المجيد       | ٥  |
| (حيفا) بكالوريوس علوم وحقوق، موظف، رئيس غرفة تجارية                 | أكرم كمال             | ٦  |
| بكالوريوس صيدلة من الجامعة الامريكية، صيدلي (رمانة) عمل في الزراعة. | فريد كساب             | ٧  |
| بكالوريوس علوم، موجه مادة العلوم.                                   | ممدوح السنخ           | ٨  |
| (قنبازة) عمل في الزراعة.  | أمين السعيد           | ٩  |
| طبيب عام في نابلس.  | حيدر حلاوة            | ١٠ |
| (صير) قائم مقام سلفيت، مدير ناحية جنين.                             | حسني الماضي           | ١١ |
|   | احمد الطاهر           | ١٢ |
|   | ياسين ارشيد           | ١٣ |
|   | سبع الدرويش احمد تاجر | ١٤ |

١٩٢٦ / ١٩٢٥

الصف الخصوصي

|    |  |
|----|--|
| ١  | محمد كمال اسماعيل (عنبتا) بكالوريوس علوم، موظف دائرة المطبوعات في القدس                |
| ٢  | ضياء الخماش صيدلي  |
| ٣  | نظمي زيد بكالوريوس زراعة، مفتش زراعي   |
| ٤  | عبد الله بشناق بكالوريوس علوم، مدير عام مساعد في البنك العربي                          |
| ٥  | حمدي العمدة موظف في البنك العربي   |
| ٦  | محمد الحافظ موجه في التربية والتعليم   |
| ٧  | صبحي حجاب حقوق الجامعة السورية، محامي  |
| ٨  | عبد القادر الصالح خريج الكلية العربية، عمل كمدير مدرسة، ونائب في البرلمان ووزير زراعة. |
| ٩  | احسان النمر مؤرخ   |
| ١٠ | مصطفى ارشيد (جنين) حقوق الجامعة الامريكية، محامي                                       |
| ١١ | مصطفى الحاج احمد   |
| ١٢ | حسن الدجاني (شويكة) درس الحقوق، مدير مدرسة ملاك  |
| ١٣ | احمد عبد الرحمن عمل كمعلم، ومدير، وموجه تربوي  |
| ١٤ | اسماعيل رشدي حنون خريج الجامعة الامريكية، رئيس دائرة المساحة والأراضي                  |
| ١٥ | سعد الدين نجم موظف دائرة الطابو  |



١٩٢٧ / ١٩٢٦

الصف الخصوصي

|   |                     |   |
|---|---------------------|---|
| مهندس عمل في يافا والرملة وبلدية الكويت                             | عبد الحق عبد الشافي | ١ |
| طبيب اخصائي نساء (خريج انجلترا)                                     | شوكت هاشم           | ٢ |
| بكالوريوس علوم، موظف  | رشيد كساب           | ٣ |
| عمل كمعلم ومدير مدرسة بوكالة الغوث.                                 | نافذ هاشم           | ٤ |
| بكالوريوس علوم الجامعة الامريكية، عمل في السلك السياسي ورئيس وزراء. | سليمان النابلسي     | ٥ |

| الرقم | الاسم           | التحصيل والدور الاجتماعي   |
|-------|-----------------|--|
| ١     | خليل السخن      | طب عام الجامعة الأمريكية بيروت، عمل في العراق                                |
| ٢     | سعد الدين بسيسو | (غزة) حصل على الدكتوراة في الحقوق، محامي.                                    |
| ٣     | رؤوف حمزة       | (عنتبا) مساعد مدير التربية والتعليم في لواء القدس                            |
| ٤     | سليمان احمد     | (عنتبا) مدير مدرسة بطولكرم.  |
| الخضر |                 |  |
| ٥     | كمال حنون       | (طولكرم) حقوق من جامعة جنيف، مدير مطار القدس                                 |
| ٦     | رشاد حنون       | (طولكرم) حقوق جامعة ليفربول.   |
| ٧     | تحسين كمال      | أنهى الحقوق، محامي في القدس و نابلس  |
| ٨     | نعيم عبد الهادي | هندسة الجامعة الامريكية، عمل كقائم مقام في رام الله ورئيس بلدية نابلس ووزير. |
| ٩     | عارف النابلسي   | موظف في البنك العربي   |
| ١٠    | حمدي السخن      | موظف شركة.   |
| ١١    | محمد جرار       | (برقين) موظف في دائرة الزراعة.   |
| ١٢    | راشد جيوسي      | (طولكرم) أنهى الحقوق، عمل كمحامي ورئيس محكمة البداية.                        |
| ١٣    | رفيق صوفان      | تاجر   |
| ١٤    | نعيم الخوري     | عمل كموظف في دائرة حكومية بطولكرم  |
| ١٥    | نهاد عرفات      | عمل كموظف في دائرة الصحة   |
| ١٦    | تيسير النابلسي  | عمل كمعلم، ومدير وموجه وملحق ثقافي بوزارة التربية والتعليم.                  |
| ١٧    | منير السختيان   | صيدلي (من الجامعة الامريكية بيروت)   |
| ١٨    | جمال الطاهر     | تاجر   |
| ١٩    | اكرم كعكور      | تاجر   |
| ٢٠    | منيب أبو غزالة  | صيدلي بغزة (خريج الجامعة الامريكية بيروت).                                   |

١٩٢٨ / ١٩٢٩

الصف السادس الاستعدادي

|    |                      |   |
|----|----------------------|---|
| ١  | بهجت عبد الهادي تاجر |   |
| ٢  | عادل حماد            | موظف في دائرة الاشغال في القدس                          |
| ٣  | محمود يونس           | (عرعرة) عمل في الزراعة                                  |
| ٤  | صلاح حنون            | (طولكرم) مدير مدرسة بوكالة الغوث                        |
| ٥  | شوكت كمال            | صيدلي (صيدلة ايطاليا)                                   |
| ٦  | عارف ملحس            | موظف في دائرة الاشغال.                                  |
| ٧  | عادل التميمي         | تاجر  |
| ٨  | راضي نمر             | (كفر قدوم) تاجر   |
| ٩  | راشد الزعبي          | (طوباس) مدير مدرسة                                      |
| ١٠ | حمدي عنبتاوي         | موظف حكومي  |
| ١١ | حسن الزعبي           | صيدلي (خريج الجامعة الامريكية)                          |
| ١٢ | كامل الكيالي         | موظف في المساحة.  |
| ١٣ | عقيل عبد الهادي      | موظف في دائرة الاشغال                                   |
| ١٤ | عثمان بدران          | عمل كمدرس في الدرسة الرشيدية بالقدس وفي المجال العسكري. |
| ١٥ | واصف الزاغة          | موظف في وزارة المالية.                                  |
| ١٦ | عبد الكريم الزعبي    | -   |
| ١٧ | حمدي البسطامي        | موظف في المساحة   |
| ١٨ | مهيب الخياط          | عمل موظفا في دائرة حاكم نابلس وفي المجال السياسي عضو    |
| ١٩ | جواد الخياط          | في المجلس الاستشاري<br>موظف في التسوية.                 |

١٩٣٠ / ١٩٢٩

الصف السادس الاستعدادي

|                      |                                      |    |
|----------------------|--------------------------------------|----|
| عوني حنون            | (طب ادنبرة) مدير الخدمات الطبية      | ١  |
| اشرف عبد الهادي      | طبيب اسنان (جامعة نانسي - فرنسا)     | ٢  |
| عزت البشناق          | مهندس (هندسة تركيا).                 | ٣  |
| توفيق المصري         | موظف في المستشفى الوطني              | ٤  |
| بهجت عبد الهادي تاجر |                                      | ٥  |
| سليمان العزوني       | موظف في البنك العربي بيافا           | ٦  |
| محمد بشناق           | بكالوريوس علوم، معلم في مدرسة النجاح | ٧  |
| جواد ابو رباح        | طبيب اسنان (الجامعة الامريكية)       | ٨  |
| محمد سعيد            | تاجر                                 | ٩  |
| سعيد عبد القادر      | تاجر                                 | ١٠ |

١٩٣١ / ١٩٣٠

الصف السادس الاستعدادي

|               |   |   |
|---------------|---|---|
| موسى خماش     | مساعد مدير بنك باركلز                             | ١ |
| سميح النابلسي | تاجر  | ٢ |
| عادل ابازة    | طبيب بيطري في الكويت                              | ٣ |
| جودة تفاحة    | طبيب عام (الجامعة الامريكية بيروت) عضو مجلس امناء | ٤ |
| صادق بشناق    | جامعة النجاح<br>تاجر (حيفا)                       | ٥ |

١٩٣١ / ١٩٣٠

الصف السادس الاستعدادي

| الرقم | الاسم            | التحصيل العلمي والدور الاجتماعي  |
|-------|------------------|--|
| ٦     | محمد الأدهم      | طبيب عام (الجامعة الأمريكية ببيروت).   |
| ٧     | صبحي عزون        | (يافا) تاجر وملاك.   |
| ٨     | برهان عبوشي      | شاعر وأديب، عمل في البنك العربي بحيفا  |
| ٩     | عبد الرحيم محمود | شاعر، عمل كمدرس في مدرسة النجاح الوطنية  |
| ١٠    | تاج الدين عرفات  | اخصائي طب العيون (طب جامعة استنبول)  |
| ١١    | اسعد هاشم        | عمل موظفا في الرملة، ومديرا لاحدى شركات البلاستيك في السعودية.                               |
| ١٢    | محمود وصفي       | (بيت دجن) عمل موظفا في دائرة حاكم غزة وفي الكويت.  |
| ١٣    | داود أبو غزالة   | (يافا) ماجستير في القانون عمل كرئيس لمحكمة البداية، والاستئناف ومحكمة التمييز العليا في عمان |
| ١٤    | عوني دباغ        | (يافا) تاجر  |
| ١٥    | حبيب خوري        | (رفيديا) عمل موظفا في الاشغال العامة بنابلس  |
| ١٦    | عيسى أغاوي       | (رفيديا) موظف في بنك باركليز   |
| ١٧    | شفيق دباغ        | (يافا) موظف في بلدية حيفا، ومدير بنك في السعودية سابقا.                                      |
| ١٨    | جبر سليم         | (صرفند) تاجر   |
| ١٩    | نصوح حيدر        | (يافا) تاجر  |

١٩٣٢ / ١٩٣١

الصف السادس الاستعدادي

|  |                         |    |
|--|-------------------------|----|
| (تطوان / مراكش)  | طبيب عبد السلام بنونة   | ١  |
| مدير تربية وتعليم، ومحاضر غير متفرغ بجامعة اليرموك                           | واصف عبد الرحمن الصليبي | ٢  |
| (القدس) عمل معلما في دار الأيتام الاسلامية                                   | نمر رشدي أبو السعود     | ٣  |
| تاجر   | انور طاهر كنعان         | ٤  |
| (اماتين) طب الجامعة الامريكية، طبيب في دائرة الصحة بنابلس.                   | روحي احمد عبد الرحمن    | ٥  |
| (حيفا) تاجر وملاك  | سعدى فضل قرمان          | ٦  |
| (كفرديك) معلم مدرسة  | يعقوب حسن اسماعيل       | ٧  |
| (رفيديا) موظف في المساحة   | اديب خوري               | ٨  |
| (بديا) (طب ايطاليا) اخصائي طب العيون ورئيس جمعية الصداقة الأردنية السوفياتية | رفعت محمود عودة         | ٩  |
| (طوباس) -  | عبد الرحيم ناجي         | ١٠ |
| -  | يوسف منير النابلسي      | ١١ |
| (يافا) تاجر وملاك.   | توفيق موسى البنا        | ١٢ |
| (يافا) ملاك  | وجيه طاهر التاجي        | ١٣ |
| (طوباس) مدير مدرسة   | سامي رشيد الوظائففي     | ١٤ |
| تاجر   | أمين حافظ بازبان        | ١٥ |
| (يافا) موظف في البنك العربي بيافا وملاك                                      | سعيد يوسف الشرقاوي      | ١٦ |
| (يافا) صيدلي (الجامعة الأمريكية بيروت).                                      | رشيد منيب الدجاني       | ١٧ |
| ودكتوراة في التحليل الكيماوي   |                         |    |
| (طولكرم) عمل في الزراعة بطولكرم، وفي الأعمال الحرة بعمان                     | صلاح الدين أمين صلاح    | ١٨ |

|  |                         |    |
|--|-------------------------|----|
| طبيب أسنان (جامعة دمشق)  | راضي رضا قادري          | ١  |
| مدير دائرة الأراضي   | شاهر ضامن بركات         | ٢  |
| خريج الجامعة الأمريكية ببيروت، موظف في اذاعة الكويت.                               | عباس نمر حماد           | ٣  |
| (تطوان / مراكش) هندسة استنبول، عمل في السلك الدبلوماسي                             | محمد عبد السلام الفاسي  | ٤  |
| (تطوان / مراكش) تخرج من الجامعة المصرية وعمل في السلك الدبلوماسي                   | محمد عبد السلام الخطيب  | ٥  |
| (بير زيت / رام الله) خريج الكلية العربية، عمل مدرسا.                               | جورج حراسيموس خوري      | ٦  |
| عمل موظفا في دائرة الأراضي وفي البنك العربي (عكا) صيدلي (الجامعة الأمريكية ببيروت) | أحمد شافع عبد الهادي    | ٧  |
| صيدلي في العراق (صيدلية الجامعة السورية)   | محمد علي يوسف الخياط    | ٨  |
| خريج الجامعة الأمريكية، رئيس قسم الترجمة بليبيا (جنين) تاجر                        | عادل عبد الكريم المنير  | ٩  |
| (تطوان / مراكش) محرر جريدة الحياة بتطوان   | حسن يوسف صلاح           | ١٠ |
| (يافا) خريج الجامعة الأمريكية - صيدلي  | حسني سعيد مرعي          | ١١ |
| معلم في المدارس الاميرية سابقا، وتاجر غسل النحل حاليا.                             | عبد السلام احمد بن حلون | ١٢ |
| معلم في المعارف  | صبحي سليم شعث           | ١٣ |
| (يافا) تاجر وملاك  | عبد الرحيم صلاح عنبتاوي | ١٤ |
| تاجر   | ثابت عزت صلاح           | ١٥ |
|  | سعيد اسماعيل الشنير     | ١٦ |
|  | عبد الخالق محمد عنبتاوي | ١٧ |

١٩٣٤ / ١٩٣٣

الصف السادس الاستعدادي

| الرقم | الاسم                  | التخصص العلمي والدور الاجتماعي  |
|-------|------------------------|---|
| ١     | يوسف أبو ضبة           | (يافا) صيدلي - (الجامعة الامريكية بيروت).                                       |
| ٢     | وهيب البيطار           | دار العلوم بمصر - موجه ومدير تعليم ووكيل وزارة ومحافظ ومستشار في دائرة المحاسبة |
| ٣     | محمد بن الشيخ الخطيب   | موظف في المساحة   |
| ٤     | أيوب الخماش            | مدير مدرسة  |
| ٥     | عرفان نور الدين عرفات  | صيدلي (من كلية الطب في استنبول)   |
| ٦     | محمد العمدة            | بكالوريوس دار العلوم بمصر / عضو المجلس البلدي ومدير معهد جامعة النجاح الوطنية.  |
| ٧     | نهاد كنعان             | موظف الأشغال والبنك ثم تاجر.  |
| ٨     | احمد مرعي منصور        | (طولكرم) خريج الكلية العربية، تاجر  |
| ٩     | عبد الفتاح المطري      | (يافا) تاجر وملاك   |
| ١٠    | خالد مطيع الدرويش احمد | (جنين) طبيب عام (الجامعة الامريكية بيروت)                                       |
| ١١    | رياض طاهر الحققة       | (عمان) تاجر   |



١٩٣٥ / ١٩٣٤

الصف السادس الاستعدادي

|    |                       |  |
|----|-----------------------|--|
| ١  | محمد أبو غزالة        | (بئر السبع) بكالوريوس تجارة الجامعة الامريكية /<br>مدير البنك العربي في جنين |
| ٢  | مهدي بنونة            | (تطوان) وزير مفوض لدولة المغرب   |
| ٣  | اكرم خليل بورنو       | (غزة) طبيب عام   |
| ٤  | حازم عبد الرؤوف حود   | (يافا) تاجر  |
| ٥  | رفيق الحبش            | موظف في قناة الغور الشرقية   |
| ٦  | يوسف رضا السختيان     | صيدلي (الجامعة الامريكية بيروت)  |
| ٧  | محمود احمد شابصوغ     | (قيسارية - حيفا) مدير ميناء العقبة   |
| ٨  | احمد الحاج محمد شعبان | (يافا) -   |
| ٩  | محمد أمين صوفان       | (تاريخ الجامعة الامريكية) معلم بكلية النجاح<br>الوطنية                       |
| ١٠ | حمدي رشدي العالول     | بكالوريوس تجارة الجامعة الامريكية - تاجر                                     |
| ١١ | فوزي عقروق            | هندسة كلية روبرت استنبول   |
| ١٢ | صلاح العنبتاوي        | اخصائي طب أطفال (الجامعة الامريكية بيروت)                                    |
| ١٣ | نشأت كنعان            | تاجر   |
| ١٤ | وحيد عمر المصري       | يعمل في الزراعة (الانتاج الحيواني)   |

١٩٣٦ / ١٩٣٥

الصف السادس الاستعدادي

| الرقم | الاسم                      | التخصص العلمي والدور الاجتماعي                                |
|-------|----------------------------|---|
| ١     | توفيق بدر الشريف           |   |
| ٢     | حاتم جميل كنعان            | طبيب بيطري، رئيس أطباء البيطرة في الضفة الغربية               |
| ٣     | خميس احمد الحسيني          | (يافا) ملاك وتاجر   |
| ٤     | رستم عزيز الماضي           | (حيفا) موظف الشؤون الاجتماعية / خريج الجامعة<br>الامريكية     |
| ٥     | رفعت صدقي أغا النمر        | مدير بنك العربي في نابلس                                      |
| ٦     | عبد الله الشيخ محمد صلاح   | اخصائي طب الجراحة (الجامعة الامريكية ببيروت<br>وجامعة ادنبرة) |
| ٧     | كمال عزت طاهر              | طبيب بيطري  |
| ٨     | محمد سعيد ابراهيم الرنتيسي | معلم في كلية النجاح الوطنية                                   |
| ٩     | ممدوح أبو لبن              | صيدلي (الجامعة الامريكية ببيروت)                              |
| ١٠    | هشام عبد الفتاح ملحس       | (دمشق) طبيب عام (الجامعة السورية)                             |

١٩٣٧ / ١٩٣٦

الصف السادس الاستعدادي

|  |                               |    |
|--|-------------------------------|----|
| طبيب عام بنابلس (الجامعة الامريكية بيروت)                      | عدنان حماد                    | ١  |
| (جنين) اخصائي طب الجلد (الجامعة الامريكية بيروت)               | عوني سعيد التمر               | ٢  |
| خريج السوريون يعمل محاضرا في الحمامة بجامعة لندن               | ابراهيم زكي أباطلة            | ٣  |
| (عصيرة الشمالية) خريج الكلية العربية، عمل معلما ومديرا         | حسن الحاج محمد                | ٤  |
| (طولكرم) كيمياء الجامعة الامريكية، موجه علوم بالكويت           | زهير الكرمي                   | ٥  |
| تاجر معلم ومدير مدرسة  | صبري مسعود زيد                | ٦  |
| (دير استيا) طبيب عام (الجامعة الامريكية بيروت)                 | عبد الفتاح كشكش               | ٧  |
| موظف حكومة   | عبد المجيد جميل               | ٨  |
| معلم في كلية النجاح الوطنية ثم محامي تاجر وعضو في مجلس الأعيان | فيصل عبد اللطيف أبو حجلة تاجر | ٩  |
|  | قدري مسعود زيد النابلسي       | ١٠ |
|  | نزبه الشيخ رشدي كنعان         | ١١ |
|  | نشأت طاهر المصري              | ١٢ |

١٩٣٨ / ١٩٣٧

الصف السادس الاستعدادي

| الرقم | الاسم                    | التخصص العلمي والدور الاجتماعي                           |
|-------|--------------------------|--|
| ١     | أحمد بن رشيد الحاج موسى  | (قليلية) مدير وموجه في وزارة التربية والتعليم            |
| ٢     | عادل رفيق بشير           | معلم ومدير مدرسة   |
| ٣     | بدوي عبد المجيد          | معلم ومدير مدرسة   |
| ٤     | تيسير الحنبلي            | معلم   |
| ٥     | طارق مصطفى البشناق       | مهندس (الجامعة الأمريكية بيروت) نائب مدير مؤسسة الاسكان. |
| ٦     | عبد الرؤوف نديم كمال     | موظف بوزارة الاشغال بالكويت                              |
| ٧     | مسعود بن ابراهيم المسعود | (دير شرف) معلم (ماجستير لغة عربية)                       |
| ٨     | مروان حلمي الشاهد        | تاجر   |
| ٩     | ناظم أحمد السخن          | صيدلي (الجامعة الامريكية ببيروت)                         |
| ١٠    | وجيه علي حنون            | معلم في المعارف  |
| ١١    | وليد نجيب النابلسي       | اخصائي طب العظام (جامعة القاهرة)                         |
| ١٢    | سالم سليمان حنا          | معلم   |

١٩٣٩ / ١٩٣٨

الصف السادس الاستعدادي

|    |                               |  |
|----|-------------------------------|--|
| ١  | أحمد بن جميل الأحمد           | (دير شرف) معلم                                   |
| ٢  | توفيق بن محمد عبد الجليل      | (بيت دجن) مهندس (الجامعة الأمريكية ببيروت)       |
| ٣  | جميل محمد عبد الكريم الخطاب   | (طولكرم) ماجستير ادارة، رئيس قسم في شركة ارامكو  |
| ٤  | داود رشيد الشخشير             | صيدلي / مدير شركة أدوية في السعودية              |
| ٥  | رجا محمود عبد الهادي          | موظف حكومي، قائم مقام جنين                       |
| ٦  | سليم عبد الحميد الطاهر        | (يافا) معلم، مدير مدرسة، موجه تربوي.             |
| ٧  | سليم مصطفى جاد الله           | (عنبتا) معلم في الامارات العربية                 |
| ٨  | عبد الرحمن بن محمد عبد الرحمن | -  |
| ٩  | عفيف الحاج سعيد مسمار         | رئيس ديوان محكمة بداية نابلس                     |
| ١٠ | محمد بن سعيد الصاحب           | (بيسان) تاجر                                     |
| ١١ | محمد بن فارس محمد             | (دير شرف) موظف في أبو ظبي                        |
| ١٢ | محمود حسين الاسعد             | (حيفا) ملاك                                      |
| ١٣ | محمود عبد الرحيم الحاج احمد   | (شويكة) مدير المشتريات في وزارة الكهرباء بالكويت |

١٩٤٠ / ١٩٣٩

الصف السادس الاستعدادي

|   |                          |    |
|---|--------------------------|----|
| معلم ومدير مدرسة                        | احمد قاسم نزال           | ١  |
| تاجر                                    | راضي عبد الرحيم التيمي   | ٢  |
| طبيب بيطري                              | راغب نظمي كمال           | ٣  |
| تاجر                                    | رفعت عبد الرحيم النابلسي | ٤  |
| صيدلي                                   | سميح ابراهيم الادهم      | ٥  |
| تاجر                                    | عباس ممدوح النابلسي      | ٦  |
| شاعر، معلم، علم في مدرسة النجاح الوطنية | عبد الرحيم اسعد محمود    | ٧  |
| معلم ومدير مدرسة                        | عمر كامل عبد الهادي      | ٨  |
| محامي                                   | فريد الحاج حافظ          | ٩  |
| موظف مالية                              | محمد بن يوسف النابلسي    | ١٠ |
| معلم ومدير مدرسة في كفر اللبد           | محمود حسين العلي         | ١١ |
| معلم ومدير مدرسة                        | نصوح راجي عبد المجيد     | ١٢ |
| موظف بالكويت                            | وجيه فارس جابر           | ١٣ |

١٩٤٠ / ١٩٤١

الصف السادس الاستعدادي

|   |                           |    |
|---|---------------------------|----|
| معلم ومدير مدرسة نابلس                                  | احسان زكي أبو الهدى       | ١  |
| دبلوم حقوق، محامي، قاضي محكمة التمييز والعدل العليا     | تيسير رشدي كنعان          | ٢  |
| معلم ومدير مدرسة النجاح بنابلس                          | خليل عبد الفتاح الحنبلي   | ٣  |
| تاجر  | راتب محمد حسن يعقوب       | ٤  |
| صيدلي (الجامعة الامريكية ببيروت)                        | زكي فياض أبو غزالة        | ٥  |
| بكالوريوس هندسة، مهندس في الكويت                        | صلاح طه الحنبلي           | ٦  |
| موظف في شركة أرامكو - السعودية                          | عاصم جميل كمال            | ٧  |
| ماجستير في علم الفايروسات. مدير مختبر في كاليفورنيا.    | عدنان نديم كمال           | ٨  |
| موظف في سكة حديد الحجاز                                 | مبدا خليل دواني           | ٩  |
| تخصص طب المناطق الحارة ليفربول، مدير عام مستشفيات نابلس | محمد سعيد عبد الغني بدران | ١٠ |
| موظف محاسبة في احدى الشركات                             | محمد سليمان جردانة        | ١١ |
| مهندس في بلدية نابلس                                    | محمد نور الدين تفاحة      | ١٢ |
| ماجستير هندسة، مهندس في الكويت                          | نهاد الشيخ يوسف صلاح      | ١٣ |
| اخصائي النساء، عمل في المجال السياسي                    | وليد محمد زكي القحماوي    | ١٤ |
| طبيب عام  | واثق سيف الدين الخماش     | ١٥ |
| -   | عبد الرحمن محمد الرماوي   | ١٦ |

الصف السادس الاستعدادي

١٩٤٢ / ١٩٤١

| الرقم | الاسم                     | التخصص العلمي والدور الاجتماعي   |
|-------|---------------------------|--|
| ١     | برهان عاهد المصري         | معلم ( بكالوريوس فلسفة )   |
| ٢     | خالد صديقي العمدة         | موظف في بلدية الكويت   |
| ٣     | روحي زكي التكروري         | اخصائي طب الامراض الجلدية بالكويت  |
| ٤     | زكريا حسن الصمادي         | مهندس في الكويت  |
| ٥     | صبحي الشيخ سعيد الحنبلي   | موظف في حكومة الكويت   |
| ٦     | صالح زهدي تفاحه           |  |
| ٧     | عبد الجليل مصطفى السعيد   | معلم في السعودية   |
| ٨     | عبد الحميد ابراهيم الادهم | طبيب عام ( جامعة القاهرة )   |
| ٩     | عبد الله خلف الرزة        | موجه اللغة العربية بنابلس (عربي الجامعة اللبنانية)                                     |
| ١٠    | عبد الملك توفيق عرفات     | بكالوريوس رياضيات، عضو الجمعية المكية العلمية، مؤلف كتب مدرسية، عمل في المجال التربوي. |
| ١١    | فاروق محمد سعيد بشناق     | مهندس في الكويت  |
| ١٢    | محمد لافي محمد العبد الله |  |
| ١٣    | مصطفى ابراهيم مصطفى       | ( عكا ) —  |
| ١٤    | ممدوح جميل ابو حجله       | صيدلي في الكويت  |
| ١٥    | يوسف احمد قسراوي          | (عورتا) معلم ومدير مدرسة عورتا   |
| ١٦    | يوسف علي موعدة            | (صنورية) —   |



الصف الرابع الثانوي ١٩٤٢ / ١٩٤٣

|    |                            |  |
|----|----------------------------|--|
| ١  | ابراهيم عمر الحمازنه       | (زرزوفه) عمل في المجال التربوي                         |
| ٢  | بهجت عطا الناظر            | (الخليل) —   |
| ٣  | تيسير رشدي الحبش           | موظف في البنك العثماني وملاك                           |
| ٤  | حيدر فارس ابو غزالة        | اخصائي في طب الاطفال                                   |
| ٥  | خالد عادل صلاح             | بكالوريوس علوم، موظف شركة بالسعودية                    |
| ٦  | سعدى جميل الداري           | طبيب اسنان بنابلس                                      |
| ٧  | صلاح يوسف العمله           | معلم   |
| ٨  | طاهر راشد فيضي             | ماجستير كيمياء، مدير مختبر بعمان                       |
| ٩  | عبد الرحمن شافع عبد الهادي | اجازة محاماة، مساعد مدير في البنك العربي               |
| ١٠ | عبد القادر قاسم استيته     | طبيب اسنان في الكويت                                   |
| ١١ | عبد الحمن صادق قادري       | صيدلي بنابلس   |
| ١٢ | عبد الرؤوف يعقوب           | (عنتبا) معلم في نابلس                                  |
| ١٣ | عزمي عبد الرحمن عبد المجيد | معلم في نابلس  |
| ١٤ | عزيز حسين العبد            | (سيريس) معلم في نابلس                                  |
| ١٥ | محمد حسن سعيد كنعان        | موظف في البنك العربي                                   |
| ١٦ | مصطفى عمر يونس             | معلم وموظف في مكتب التربية بنابلس                      |
| ١٧ | نزار عبد الرحيم جردانه     | صيدلي، نقيب الصيادلة في عمان                           |
| ١٨ | عبد الغني عنتاوي           | صيدلي ( الجامعة الامريكية) بيروت، عضو مجلس             |
| ١٩ | يوسف زيد                   | الامناء بجامعة النجاح الوطنية<br>(يعبد) معلم في الكويت |

|   |                       |    |
|---|-----------------------|----|
| خريج الجامعة الامريكية، مدير اذاعة في دبي         | حسام الدين الجيوسي    | ١  |
| مهندس، رئيس شركة مصفاة البترول الزرقاء            | رامز مسعود ملحيس      | ٢  |
| (قليلية) موظف في بلدية قليلية                     | رشيد أمين عناية       | ٣  |
| طبيب عام بالكويت                                  | سلامه فارس النابلسي   | ٤  |
| طبيب عام  | صالح محمد صالح عوال   | ٥  |
| خريج جامعة القاهرة، مدرس بالكويت                  | صدقي زكي الحجاوي      | ٦  |
| مدير تسجيل أراضي نابلس                            | طارق أديب كمال        | ٧  |
| عمل في مجال التربية، ومدير الرياضية في مؤسسة      | عبد القادر ابو منصور  | ٨  |
| رعاية الشباب بعمان                                |                       |    |
| موظف في دائرة الاشغال بالكويت                     | عدلي سعيد عبد المجيد  | ٩  |
| محامي، موظف بشركة رذك بجدة                        | عدنان نديم صلاح       | ١٠ |
| اخصائي طب الاسنان                                 | غالب توفيق الخماش     | ١١ |
| (حيفا) معلم بالكويت (لغة عربية)                   | كامل محمود            | ١٢ |
| (بيت امرين) مدير شركة في امريكا                   | محمود محمد عموره      | ١٣ |
| تجارة الجامعة الامريكية ببيروت، مدير بنك القاهرة- | مدحت سبع كنعان        | ١٤ |
| عمان، عضو مجلس امناء النجاح الوطنية               |                       |    |
| (دير شرف) معلم بالسعودية                          | مصطفى صبري محمود      | ١٥ |
| خريج الجامعة الامريكية ببيروت- موظف في هولندا     | مصطفى عزت طوقان       | ١٦ |
| طبيب عام في نابلس                                 | نظام أسعد باكير       | ١٧ |
| (اجزم/عكا) معلم في السعودية                       | نور الدين احمد الماضي | ١٨ |
| معلم في عمان                                      | سعدى شاهين            | ١٩ |

|   |                        |    |
|---|------------------------|----|
| موجه الفنون الجميلة في الأردن               | احمد ابو الهدى         | ١  |
| بكالوريوس زراعة، موجه تربوي زراعة في طولكرم | احمد سعيد عبد الكريم   | ٢  |
| تاجر  | احمد تفاحه             | ٣  |
| (سبسطيه) بكالوريوس رياضيات، ممثل جامعة      | خليل الازهري           | ٤  |
| الدول العربية بطوكيو                        |                        |    |
| خريج جامعة الازهر، معلم في أبو ظبي          | زكي الحنبلي            | ٤  |
| خريج الجامعة السورية، مدرس بكويت            | صلاح مجاهد             | ٦  |
| طبيب بالكويت                                | جمال النابلسي          | ٨  |
| صيدلي                                       | مصطفى زيد              | ٩  |
| موظف  | عبد الكريم عيسى        | ١٠ |
| مدير شئون الطلبة بجامعة النجاح الوطنية      | عدنان وصفي حماد        | ١١ |
| موظف بوزارة التربية والتعليم                | عبد الرازق رشيد        | ١٢ |
| —   | عفيف الأمين            | ١٣ |
| موظف بوزارة التربية والتعليم                | علي محمد صالح          | ١٤ |
| (حيفا) معلم في الكويت                       | عمر طيله               | ١٥ |
| خريج الجامعة الامريكية، موظف اذاعه          | قاسم سعد الدين         | ١٦ |
| تاجر  | كمال تفاحه             | ١٧ |
| حيفا  | لييب احمد فخر الدين    | ١٨ |
| معلم بالكويت                                | لظفي أمين الشريف       | ١٩ |
| معلم ومدير مدرسة بالكويت                    | محمد اباطه             | ٢٠ |
| طبيب عام                                    | محمد حامد عوده         | ٢١ |
| اخصائي طب الامراض السكرية بالكويت           | محمد عبد الرحمن القاسم | ٢٢ |
| ملاك وتاجر                                  | محمد عبد المالك        | ٢٣ |
| مهندس بالكويت                               | محمود علان الضامن      | ٢٤ |
| مهندس في الكويت                             | مسعود الحسن            | ٢٥ |
| محامي في نابلس                              | نصوح قوقش              | ٢٦ |
| (طولكرم) معلم بالكويت                       | يوسف تكرروري           | ٢٧ |
| موظف في الكويت                              | يونس عبدالله الفار     | ٢٨ |
|   | فاروق ملحس             | ٢٩ |
|   | مفيد ملحس              | ٣٠ |

|  |                            |    |
|--|----------------------------|----|
| موظف في شركة قطان بنابلس ثم تاجر                       | ابراهيم بشارة فقعتي        | ١  |
| طبيب عام في الكويت (عين شمس)                           | اكرم محمد جيوسي            | ٢  |
| معلم في وكالة الغوث                                    | جودة داود الهندي           | ٣  |
| طبيب عام بالكويت                                       | حسام عبد الرحمن عبد المجيد | ٤  |
| —  | حسين علي ابو شامي          | ٥  |
| بكالوريوس تجارة، مدير شركة الدباغة الاردنية            | خالد مدحت كنعان            | ٦  |
| هندسة امريكا، مندوب لشركات امريكية تعمل في<br>السعودية | سعيد علي بشناق             | ٧  |
| —  | سليم ابراهيم حسن           | ٨  |
| طبيب عام، مدير أطباء محافظة نابلس                      | عصام مصباح كمال            | ٩  |
| (جنين) —   | عبد الفتاح سامي زيد        | ١٠ |
| (يافا) طبيب ويعمل في التجارة                           | عصام نظمي طاهر             | ١١ |
| دكتوراه في الزراعة                                     | محمد حافظ سامي             | ١٢ |
| موظف في الكويت   | مصباح عبد الرحيم طاهر      | ١٣ |
| مهندس في الكويت  | ممدوح توفيق محمد عرفات     | ١٤ |
| مدير مدرسة الهاشمية في رام الله                        | ناظم نبيه البيطار          | ١٥ |
| معلم في الكويت   | هاني حمدي البظ             | ١٦ |
| معلم بنابلس  | هشام فهمي النابلسي         | ١٧ |
| موظف بالكويت   | وليد سامي أباطه            | ١٨ |
| طبيب عام بالكويت                                       | وليد اسعد الحبش            | ١٩ |

الصف الرابع الثانوي ١٩٤٦ / ١٩٤٧

| الرقم | الاسم                        | التخصص العلمي والدور الاجتماعي                           |
|-------|------------------------------|--|
| ١     | ابراهيم توفيق محمود          | ( جنين )   |
| ٢     | جمال مسعود الخياط            | اخصائي طب تخدير  |
| ٣     | محمد ابراهيم عبدالله         | ( عكا )  |
| ٤     | حسن عبدالله او رقبة          | (عكا)  |
| ٥     | خليل صبري الازم              | ( حيفا)، معلم في شمال افريقيا                            |
| ٦     | صالح حمدان الحمد             | (ياصيد)، معلم ومدير مدرسة اعدادية                        |
| ٧     | طالب حسن عبدالله             | (الطيرة)، موظف في الكويت                                 |
| ٨     | عدي صادق كنعان               | دكتوراه علوم، استاذ الكيمياء في احدى الجامعات الامريكية. |
| ٩     | عبدالله حسن سلامه            | (قليلية)، موجه تربوي في مدارس وكالة الغوث                |
| ١٠    | محمد عرفه عرفان فؤاد الجوهري | اخصائي طب الاشعة بعمان                                   |
| ١١    | عدنان عمر تفاحه              | موظف في البنك العربي                                     |
| ١٢    | عيسى خليل دواني              | تاجر   |
| ١٣    | عدنان كاظم عاشور             | موظف في اليونسكو   |
| ١٤    | ماجد علي العلمي              | (غزة) موظف في شمال افريقيا                               |
| ١٥    | محمود توفيق                  | معلم في الطيرة   |
| ١٦    | ملاذ تحسين الخيري            | (الرملة) طبيب في الكويت                                  |
| ١٧    | مؤيد حسن قناديلو             | علم في كلية النجاح الوطنية، موظف في الخليج العربي        |
| ١٨    | نظام فياض الخماش             | اخصائي طب الامراض الباطنية بالكويت (لندن)                |
| ١٩    | يوسف مصطفى عيسى              | طبيب، مدير الطب العلاجي بوزارة الصحة بعمان               |
| ٢٠    | يوسف سليمان الحنا            | تاجر   |
| ٢١    | يوسف محمد العسلي             | -  |

|    |                          |   |
|----|--------------------------|---|
| ١  | تيسير سليمان مصطفى       | (عصيره) بكالوريوس تجارة، مدير مدرسة بالكويت                       |
| ٢  | رياض عبدالله جوده        | (البيره - القدس)  |
| ٣  | زهير عثمان الكردي        | ليسانس حقوق، موظف في الكويت                                       |
| ٤  | سيف الدين احمد عراقي     | (الطيرة) معلم بالطيرة   |
| ٥  | مفلح احمد محمود          | (زواتا) معلم  |
| ٦  | مسعود الجايي             | عمل في المجال العسكري   |
| ٧  | عبد السلام رفيق القمحاوي | اخصائي طب امراض القلب في مستشفى فلسطين<br>بعمان                   |
| ٨  | حسين امين عمرو           | (الخليل) صيدلي  |
| ٩  | احمد حجاب                | موظف في الكويت  |
| ١٠ | لطيف فارس محمد           | (عصيره الشمالية) مدير مدرسة بالكويت                               |
| ١١ | رشدي الحبش               | طبيب صحة بالعقبة  |
| ١٢ | فريج شطاره               | (رفيديا) موظف بالكويت   |
| ١٣ | شكري المصري              | تاجر  |
| ١٤ | محمد ملحيس               | تاجر  |
| ١٥ | واصف هاشم                | موظف في ضريبة الدخل   |
| ١٦ | محمد العسلي              | (القدس) مهندس   |
| ١٧ | شفيق ابو لبن             | (يافا) صيدلي في الكويت  |
| ١٨ | محمد شحاده               | صيدلي في عمان   |
| ١٩ | نهاد راضي ابو ربيع       | طبيب في الكويت (خريج جامعة الاسكندرية)                            |
| ٢٠ | توفيق عرفات              | مهندس العمارة بلدية نابلس، عضو مجلس امناء<br>جامعة النجاح الوطنية |
| ٢١ | كاظم عاشور               | مهندس في الكويت   |
| ٢٢ | توفيق الطاهر             | (يعبد - جنين) معلم في يعبد  |
| ٢٣ | عبد المنعم قمحية         | حقوق، عضو محكمة البداية، قاضي في الكويت                           |
| ٢٤ | كامل الحمد الله          | (عنبتا) موظف دائرة الزراعة ثم رئيس بلدية عنبتا                    |
| ٢٥ | جميل الحامد              | (جبع / حيفا)  |
| ٢٦ | راضي الطاهر              | موظف في البنك العربي بالكويت                                      |

## مصادر البحث

- دعمت جامعة النجاح الوطنية هذه الدراسة.
- ١ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أحوال التربية والتعليم في الأراضي المحتلة، ص ٢٣.
- ٢ - Mar'i, S.K. Arab Education in Israel, p. 12.
- ٣ - مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، ج ٢، ص ٥١.
- ٤ - المرجع السابق، ص ٢١٢.
- ٥ - بلغ مجموع المدارس التي أنشأها العثمانيون في الديار النابلسية ٩٠ مدرسة ابتدائية (المرجع السابق، ص ٥٤).
- ٦ - المرجع السابق، ص (٢١٣-٢١٤).
- ٧ - المرحلة الرشدية وهي التي المرحلة الابتدائية ومدتها ٣ سنوات، اما المرحلة الابتدائية فمدتها ثلاث سنوات، والمرحلة الاعدادية أربع سنوات ويقبل خريجوها في جامعة استنبول (المرجع السابق، ص (٥١-٥٢).
- ٨ - المرجع السابق، ص (٢١٤-٢١٥).
- ٩ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، احوال التربية والتعليم في الأراضي المحتلة، ص ٢٨.
- ١٠ - نبيل ابو بدران، التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني، ج ١، ص ١٣٣.
- ١١ - المرجع السابق، ص ١٣٣.
- ١٢ - المرجع السابق، ص ١٣٤.
- ١٣ - جامعة النجاح الوطنية، نابلس ١٨-١٩٧٧م، ص ٣.
- ١٤ - مدرسة النجاح الوطنية، اعلان، ١٩١٨، تشرين الأول، ص ١.
- ١٥ - ان اعضاء المجلس المؤسس لمدرسة النجاح الوطنية مؤلف من السادة: الحاج حسن حماد، ابراهيم القاسم عبد الهادي، كامل هاشم، الحاج قاسم كمال، ابراهيم هاشم، علاء الدين حلاوة، الطيب حافظ كنعان، فارس السخن، الشيخ فهمي هاشم، أديب مهيار، جميل كمال، وداود طوقان. (المرجع السابق، ص ١).
- ١٦ - المرجع السابق، ص ١.
- ١٧ - برنامج مدرسة النجاح الوطنية، عام ١٩٢١-١٩٢٢، ص ٦.
- ١٨ - بناء على طلب الباحث، قام السيد محمد العماد - مدير معهد المعلمين بجامعة النجاح الوطنية - مشكوراً بكتابة قائمة بأسماء المدرء الذين تعاقبوا على مؤسسة النجاح الوطنية، ولقد تأكد الباحث من صحة القائمة من خلال عرضها على بعض مدرسي المدرسة وخريجها.
- ١٩ - لقد تم استخلاص واستنتاج هذا الحكم من خلال مقابلة الباحث لأعضاء مجلس أمناء جامعة النجاح الوطنية في صيف ١٩٧٩م.
- ٢٠ - مدرسة النجاح الوطنية، النشرة الأولى، نابلس، ١٩١٨م.
- ٢١ - برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٩ - ١٩٤٠، نابلس، ص ٤.
- ٢٢ - المرجع السابق، ص ٤.
- ٢٣ - المرجع السابق، ص ٣٠.
- ٢٤ - المرجع السابق، ص ٣٠.
- ٢٥ - المرجع السابق، ص ٢.

- ٢٦- قام مدير معهد المعلمين بجامعة النجاح الوطنية مشكوراً بكتابة قائمة باسماء بعض معلمي مدرسة النجاح الوطنية منذ تأسيسها بناء على رغبة الباحث. ومن ثم قابل الباحث بعض معلمي وخريجي المدرسة، وعرض عليهم القائمة للتأكد من صحتها، ولتحديد المادة التدريسية التي اشتهر بها المعلم، ومن ثم صنف الباحث اسماء المعلمين في ستة مجالات.
- ٢٧- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها الثامن، ١٩٢٥-١٩٢٦، ص ٣.
- ٢٨- مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الثاني عشر ١٩٢٩-١٩٣٠م، ص ٣.
- ٢٩- مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها العاشر ١٩٢٧-١٩٢٨، ص ٤.
- ٣٠- المرجع السابق، ص ٤.
- ٣١- مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الثاني عشر، ١٩٢٩-١٩٣٠، ص ٥.
- ٣٢- اخذت هذه المعلومات من السجل الخاص بعلامات الطلاب لعام ١٩١٩/١٨م.
- ٣٣- انظر ميزانية عام ٢٤-١٩٢٥م: الواردات، الفصل الأول في رسوم الطلاب.
- ٣٤- لقد تم الحصول على ميزانيات مدرسة النجاح الوطنية للسنوات الدراسية ٢١/١٩٢٢م-٢٦/١٩٢٧م. وهي الميزانيات الوحيدة التي وجدت واخذت جميع المعلومات منها.
- ٣٥- من الواردات المتفرقة: الربح في الكعب والقرطاسية وتفصيل ملابس الطلاب.
- ٣٦- ومنها الاعانة السنوية التي كانت تتلقاها المدرسة من المجلس الاسلامي الاعلى، وكذلك مساعدات الافراد.
- ٣٧- ومن عمال المدرسة الطباخون، البوابون، والخزنة والفراشون.
- ٣٨- من النفقات المتفرقة: الطبابة والعلاج، والطراشة، والدهان، والحفلات والتعميمات المتنوعة، والتفولن، وأجرة البنائات.
- ٣٩- من النفقات التأسيسية: أدوات فنية للمختبر، وأواني للمطبخ والمطعم، ومقاعد، وكراسي، وأسرة، وخزائن ثياب، وطاولة للأكل، ومواسير للحديقة، وبسط لأرض المنامات.
- ٤٠- ومنها ثمن المواد الغذائية والمصرفات اليومية للخضروات واللحم واللبن، والحليب والحلويات والشاي..
- ٤١- أخذت هذه الاحصائيات من الكشوف الخاصة بميزانيات المدرسة للسنوات الموضحة في الجدول.
- ٤٢- انظر ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ١٩٢٤م.
- ٤٣- يمكن النظر الى:
- أ ) لائحة اجمالية عن مدرسة النجاح الوطنية، ٢٢-١٩٣٣، ص ٥.
- ب ) برنامج مدرسة النجاح الوطنية، نابلس، ٣١-١٩٣٢، ص (١٧-١٨).
- ج ) برنامج مدرسة النجاح الوطنية، نابلس، ٣٩-١٩٤٠م، ص (٢٠-٢١).
- د ) ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٢-١٩٤٣م، ص ٤.
- هـ ) ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٦-١٩٤٧، ص ٥.
- ٤٤- مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الرابع عشر، ص ١٧.
- ٤٥- المرجع السابق، ص ١٧.
- ٤٦- نفس المرجع، ص ١٧.
- ٤٧- بلغ الراتب السنوي للمدير (عزت دروزة) ٢١٦ جنيتها، اما راتب المعلم السنوي فقد تراوح بين ١٠٠-١٨٠ جنبيا. انظر: ميزانية مدرسة النجاح الوطنية لعام ٢٤/١٩٢٥م.



- ٤٨- بلغت الاجرة السنوية لمبنى المدرسة ٢٥٣,٣٣ جنيتها. انظر المرجع السابق.
- ملاحظة: شيدت بناية المدرسة خصيصا لها في موقع من اجمل مواقع المدينة مستوفية كل شروط الصحة والهدوء، وحماية على كل ما يلزم لمدرسة راقية من قاعات، وحمامات، ومحلات العاب، ومطالعة، واختبارات فنية (مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الثاني عشر، ٢٩-١٩٣٠م، ص ٥).
- ٤٩- انظر دور المدرسة الاجتماعي فيما يلي:
- أ ( حسين سليمان قورة، الاصول التربوية في بناء المناهج، ط٤، ص ٦٠.
- ب ( صالح عبد العزيز، وعبد العزيز عبد المجيد، التربية وطرق التدريس، ج١، ط١٠، ص (٧٨-٨٣).
- ج ( فئة المدرسين، اصول التربية وعلم النفس وتطبيقاتها التربوية، ج١، ص (٣٨-٥٤).
- ٥٠- عبد الحميد شرف، التقدم السياسي والتقدم الاجتماعي، ص ١٣.
- ٥١- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٢١م - ١٩٢٢م، ص ٢.
- ٥٢- المرجع السابق، ص ٣.
- ٥٣- المرجع السابق، ص ٣.
- ٥٤- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٢٣م - ١٩٢٤م، ص ٤.
- ٥٥- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ٣١ - ١٩٣٢م، ص ٩.
- ٥٦- انظر: برنامج عامها الثاني عشر، ١٩٢٩م - ١٩٣٠م، ص ٥.
- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٩م - ١٩٤٠م، ص ٦-٧
- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٩م - ١٩٢٧م، ص ٥.
- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٠م - ١٩٣١م، ص ٥.
- ٥٧- المرجع السابق، نفس الصفحات.
- ٥٨- المرجع السابق، نفس الصفحات.
- ٥٩- أصبحت مدرسة النجاح الوطنية - من هذا التاريخ - تعرف باسم كلية النجاح الوطنية.
- ٦٠- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٩ - ١٩٤٠م، ص (٩٠-١٩).
- ٦١- يعطي الطالب في هذه المادة مبادئ في الحيوانات والنباتات والجمادات والصناعات المألوفة ومبادئ في علم وظيفة الاعضاء (المرجع السابق، ص ١٢).
- ٦٢- المرجع السابق، ص ٨.
- ٦٣- المرجع السابق، ص ٨.
- ٦٤- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها الثالث عشر، ص ١١.
- ٦٥- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها الرابع عشر، ص ٣١.
- ٦٦- المرجع السابق، ص ٣١.
- ٦٧- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ٣٨ - ١٩٣٩م، ص ٢٧.
- ٦٨- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ٣٩ - ١٩٤٠م، بنابلس، ص ٢.
- ٦٩- تم الحصول على تقارير الطلاب من السجلات الخاصة بعلاماتهم للسنوات الدراسية المبينة في الجدول. والتقارير المتعارف عليها في تلك الفترة هي: الجيد (٩٠ فما فوق)، والحسن (٧٥-٩٠)، والوسط (٦٠-٧٥)، والمقصر (دون ٦٠).

- ٧٠- ملحق برنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ٤٣-١٩٤٤م. ص ٣
- ٧١- المرجع السابق، ص ٣.
- ٧٢- مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٩-١٩٤٠م، ص ٢٧.
- ٧٣- المرجع السابق، ص ٢٣.
- ٧٤- المرجع السابق، ص ٢٣.
- ٧٥- المرجع السابق، ص (٢٢-٢٣).
- ٧٦- برنامج مدرسة النجاح الوطنية بنابلس لعامها السادس، ٢٣-١٩٢٤، ص ٤.
- ٧٧- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها الثالث عشر، ٣٠-١٩٣١م، ص ٤.
- ٧٨- المرجع السابق، ص ٤.
- ٧٩- ملحق لبرنامج كلية النجاح الوطنية بنابلس، ١٩٤٣-١٩٤٤م ص ٣.
- ٨٠- النشرة الأولى عن مدرسة النجاح الوطنية في نابلس، ص ١، بدون تاريخ.
- ٨١- انظر ما كتب المدراء وهيئة التدريس بمدرسة النجاح الوطنية في مدخل هذه الدراسة.
- ٨٢- تم الحصول على هذه المعلومات من بعض مدرسي مدرسة النجاح الوطنية والذين قابلهم الباحث في صيف ١٩٧٩ بمدينة نابلس.
- ٨٣- المرجع السابق. ومن اوجه النشاط: الخطابة، المناظرة، التمثيل، الصحافة.
- ٨٤- انظر الى جدول توزيع الحصص بالقسم الابتدائي والاستعدادي في هذه المدرسة.
- ٨٥- انظر الى الموضوعات التي كانت تعطى في مادة التاريخ في القسم الابتدائي والقسم الاستعدادي في: مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، برنامج عامها الثاني عشر، ٢٩-١٩٣٠م، ص(٦-١٣). ومن هذه الموضوعات سير اشهر ابطال العرب والاسلام من اقدم الازمنة الى العصر الحاضر، وتاريخ العرب قبل الاسلام وبعد الاسلام الى العصر الحاضر، ودراسة كتاب دروس في التاريخ الاسلامي لعزة دروزة.
- ٨٦- مع الافاضة بجغرافية الاقطار العربية الاسلامية، انظر المرجع السابق، ص (٦-١٣).
- ٨٧- عبد اللطيف فؤاد ابراهيم وسعد مرسي احمد، المواد الاجتماعية وتدريسها الناجح، ص (٢٩-٣١).
- ٨٨- تم الحصول على هذه المعلومات من خلال المقابلة التي اجراها الباحث لعدد من خريجي المدرسة في مدينة نابلس في صيف ١٩٧٩م.
- ٨٩- المرجع السابق.
- ٩٠- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها العاشر، ٢٧-١٩٢٨م، ص ١٤.
- ٩١- تم استخلاص هذه النتيجة من خلال المقابلة التي اجريت لعدد من خريجي مدرسة النجاح الوطنية بنابلس، في صيف ١٩٧٩م.
- ٩٢- المرجع السابق.
- ٩٣- انظر لما كتب عن اهداف تأسيس مدرسة النجاح الوطنية في هذه الدراسة.
- ٩٤- انظر الى اختيار المدراء والمعلمي في هذه الدراسة.
- ٩٥- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها التاسع، ٢٦-١٩٢٧م ص ١٥.
- ٩٦- انظر جدول توزيع الحصص في القسم الابتدائي والاستعدادي في هذه الدراسة.
- ٩٧- انظر الى ما كتب في هذه الدراسة حول دور المدرسة في غرس روح التعاون ومحبة العمل في المتعلمين.

- ٩٨- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها السابع، ٢٤-١٩٢٥م، ص ١٥.
- ٩٩- تم استنتاج هذه العبارة من خلال المقابلة التي اجريت لعدد من مدرسي وخريجي مدرسة النجاح الوطنية في مدينة نابلس، في صيف ١٩٧٩م.
- ١٠٠- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها التاسع، ٢٦-١٩٢٧م، ص ١٥.
- ١٠١- المرجع السابق، ص ١٥.
- ١٠٢- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، نابلس، ٣٨-١٩٣٩م، ص ٤.
- ١٠٣- انظر جدول توزيع الحصص في القسم الابتدائي وفي القسم الاستعدادي.
- ١٠٤- المرجع السابق.
- ١٠٥- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ٣٨-١٩٣٩م، ص ٢٦.
- ١٠٦- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها السابع، ٢٤-١٩٢٥م، ص ١٥.
- ١٠٧- برنامج مدرسة النجاح الوطنية في نابلس لعامها السادس، ٢٣-١٩٢٤م، ص ١٤.
- ١٠٨- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها السابع، ٢٤-١٩٢٥م، ص ١٤.
- ١٠٩- نشرة اولى عن مدرسة النجاح الوطنية في نابلس، ص ١.
- ١١٠- المرجع السابق، ص ١٠.
- ١١١- برنامج مدرسة النجاح الوطنية في نابلس لعامها السادس ٢٣-١٩٢٤م، ص ١١.
- ١١٢- المرجع السابق، ص ١١.
- ١١٣- المرجع السابق، ص ١٥.
- ١١٤- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٨م-١٩٣٩م، ص (٢٤-٢٥).
- ١١٥- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها السابع، ١٩٢٤م-١٩٢٥م، ص ١٥.
- ١١٦- المرجع السابق، ص ١٥.
- ١١٧- نفس المرجع، ص ١٥.
- ١١٨- انظر لما كتب عن الحفلات العامة اثناء التحدث - في هذه الدراسة - عن دور المدرسة في تنمية الوعي القومي لدى الطلاب.
- ١١٩- مدرسة النجاح الوطنية، برنامج عامها الثالث عشر، ١٩٣٠ - ١٩٣١م، ص ١٦.
- ١٢٠- المرجع السابق، ص ١٦.
- ١٢١- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٨م - ١٩٣٩م، ص ٢٦.
- ١٢٢- المرجع السابق، ص ٢٦.
- ١٢٣- برنامج مدرسة النجاح الوطنية، ١٩٣٨م-١٩٣٩م، ص (٢٥-٢٦).
- ١٢٤- منذ تأسيس المدرسة ١٩١٨م، وحتى عام ١٩٤٨م، ولقد تم تخرج الفوج الاول في نهاية العام الدراسي ٢٣-١٩٢٤م.
- ١٢٥- وضعت ادارة جامعة النجاح الوطنية مشكورة سجلات علامات الطلاب بين يدي الباحث من اجل اجراء الاحصائيات اللازمة.
- ١٢٦- روعي طبع اسماء خريجي كل عام دراسي على حدة.

- ١٢٧- شملت بعض الكتيبات الصادرة عن مدرسة النجاح الوطنية اسماء العديد من الخريجين والجامعات التي التحقوا بها.
- ١٢٨- خاصة زملاء الصف الدراسي الواحد.
- ١٢٩- كان هؤلاء الطلبة موزعين في شعبتين تضم الأولى ثلاثين والثانية خمسة وستين طالبا وطالبة. درّس الباحث كلا منها مساقا تربويا في صيف ١٩٧٩. ومعظمهم يعملون في سلك التربية والتعليم بالضفة الغربية، ولا تقل خبرة أي منهم في مجال التدريس عن ١٥ عاما. وقد قاموا «مشكورين» بمتابعة الخريجين عن رغبة وإخلاص وتبرع، وهم من سكان العديد من مدن وقرى الضفة الغربية؛ فمنهم سكان نابلس، ورامالله، وطوباس، وجنين، وعنتبا، وقلقيلية، وطولكرم، وسلفيت، والبعض الآخر من سكان القرى المجاورة لهذه المدن.
- ١٣٠- شملت اغلب الكتيبات الصادرة عن مدرسة النجاح الوطنية اسماء العديد من الخريجين والجامعات التي التحقوا بها.
- ١٣١- وعددهم عشرة محكمين، تم اختيارهم من مدينة نابلس في صيف ١٩٧٩م ومن عرفوا بدياريتهم ومعرفتهم بخريجي مدرسة النجاح الوطنية زمن الاحتلال البريطاني ولقد عرض الباحث عليهم القائمة بنفسه، وكان يجلس مع كل واحد منهم الوقت الكافي لابتداء الآراء.
- ١٣٢- عبد القادر يوسف، مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية، ص ٣٦٦.
- ١٣٣- انظر الى تأمين قبول الطلاب بالجامعات في هذه الدراسة.
- ١٣٤- وهم: سليمان النابلسي، وحكمت المصري، واکرم زعيترو، وعبد القادر الصالح، ونعيم عبد الهادي، ومهيّب الحياطة، ونشأت المصري، ووليد التمحايوي، وادهم الحجاوي، ووهيب البيطار.

## بيانات حول سكان فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مستقاة من ثلاثة كتب اسبانية في ادب الرحلات الى الاراضي المقدسة

د. بد رومارتيث مونتابث

يبدو لي ان الوقت قد حان للتبنيه من جديد ألى التطور الكبير الذي حققه، منذ زمن بعيد، النتاج المكتوب في ادب الرحلات أو الحج الى الاراضي المقدسة او فلسطين في اقاليم وبلدان العالم الغربي المسيحي المترامي الاطراف. انه نوع خاص من القصص يتميز بتأصل وانتشار عظيمين ويدوم على مر العصور والأحداث الشديدة التنوع والتقلب، وفي هذه الحقل فإن النتاج الأسباني يقدم نماذج عديدة ذات اهمية خاصة مع انه حتى الآن لم يُكشَف عنها النقاب ولم تحتل مكانها المناسب في اطار التدوين التاريخي وهو ما سأحاول عمله في هذه الصفحات، ولو بصورة موجزة وملخصة بهدف الاشارة الى الموضوع<sup>(١)</sup>.

ومن الواضح ان هذا النتاج في معظمه يتكون من نصوص يكمن وراءها في المكان الاول حافز ديني قوي، ولهذا فهي مشحونة بمضمون باطني وعاطفي غلاب.. قريب من القلب بقدر ما هو موضَّح للأمر، وبهذا يصبح من المحبذ إدراج هذه النصوص ضمن تحليل واختصاص ما يمكن ان نسميه بـ «علم النفس الاجتماعي» في الادب او في التدوين التاريخي. وفي ضوء هذا المفهوم المحدد يمكن ان تُقَوِّم بصورة ملائمة، ضمن أشياء اخرى، درجات الاستقامة او الإعوجاج في كل من البيانات والتصورات والمعلومات الكثيرة التي تمدنا بها. ومن المحتمل ان يكون هذا المفهوم في نهاية الامر واجهة بحث اكثر اهمية ودلالة يقوم على استشارة نصوص من هذا النوع. ولكن الذي سافعله الآن في هذا العرض السريع ذي الاغراض الوصفية الاعلامية الواضحة هو دون شك شيء غير هذا<sup>(٢)</sup>.

بالإضافة الى ان هذه النصوص شاهد مادي مباشر على حقائق واضحة يُرى ويُحاول الى حد كبير عكسها بصورة ملائمة، فهي ايضا نصوص يمكن استغلالها استغلالا تاريخيا كبيرا. فالطابع الروحي الذي يغلب عليها لا يمنعها عادة من ان تكون مستودعاً غنيا بالبيانات والملاحظات والتعليقات والاحكام والاشارات التي تستلزم جهودا مخلصه تمكننا من تنمية وتصوير أو تجميع معلوماتنا عن الصورة المعاصرة للبلد الذي طاف بأرجائه المؤلفون، وعن الطوائف التي كانت لهم معها علاقات عرضية. والحقيقة ان تاريخ فلسطين خاصة في كتابته يدين بشيء غير قليل هؤلاء المخبرين الأسباب الذين يحصيهم العد، والكثيرون منهم مجهولون. فقد طاف هؤلاء المخبرون دون كلل بهذه الأراضي الفريدة.

ساعتمد في هذا البحث على ثلاثة كتب في أدب الرحلات لأربعة كتاب اسبان في الربع الاخير من القرن التاسع عشر، وهي بالنسبة لفلسطين فترة ذات اهمية خاصة<sup>(٣)</sup>. ان نصوصا كالتي نعالجها هنا تصلح ايضا لتأكيد أهمية النتاج المكتوب باللغة الاسبانية في القرن التاسع عشر حول الموضوع العربي والاسلامي، والجهل التام الذي لا زال يكتنفه حتى في اسبانيا نفسها. ولكي يعاد الى الموضوع من جديد الاهتمام الذي يستحقه فقد طرحت هذه القضية في مقالين نشرتهما حديثاً<sup>(٤)</sup> والآخر ارجو ان يظهر في وقت غير بعيد<sup>(١)</sup> فمن كان الأمر يعنيه يمكنه ان يجد فيهما المراجع اللازمة، ولكن يجب بالتأكيد مرة اخرى ان هذه المادة التاريخية المدونة تكاد تكون غير مستغلة وبكراً.

## النصوص المدروسة في البحث

يعتمد البحث على ثلاثة كتب سأذكرها فيما بعد ليس حسب تاريخ نشرها وانما حسب الزمن الذي تمت فيه الرحلة.

(١) خوسيه ماريه فيرنات سانشت وفرانثيسكو فيريري فييرو: يوميات حاج الى سانتياغو والقدس وروما واماكن اخرى مقدسة في اسبانيا وفرنسا ومصر وفلسطين وسوريا وايطاليا في اليوبيل العالمي سنة ١٨٧٥. سانتيفو ١٨٨٢. ١٠٦٤ صفحة.

يخرج المؤلفان من مصر ويصلان إلى يافا يوم الجمعة ١٩/مارس/١٨٧، ويخرجان من فلسطين الى سوريا يوم الأربعاء ١٤/ ابريل/من نفس العام، اي انهما مكثا في الديار

المقدسة ما يقرب من شهر. (عندما يرد ذكر هذا الكتاب سأشير إليه بـ (ف.ف.)).  
٢) مونوبيل ايوو الفارو: القدس وصف كامل ومفصل للأماكن المقدسة. مدريد  
١٨٧٩ ١٤١٣ صفحة.

يخرج المؤلف أيضاً من مصر وبالتحديد من بورسعيد ويصل إلى يافا في  
٦/مارس/١٨٧٩، ويغادر يافا إلى الاسكندرية في اليوم العشرين من نفس الشهر. يمكث في  
الأراضي الفلسطينية اسبوعين. وسأشير لهذا الكتاب عند ورود ذكره بـ (أ.).

٣) اكتافيو بلاسكو ديل ريال: من روما إلى القدس، رحلة إلى سوريا وفلسطين.  
برشلونة دون تاريخ. ٤٣٥ صفحة.

يصل المؤلف من روما مباشرة. يخرج من صور يوم ٨/يناير/١٨٨٩ ويصل إلى عكا  
عند زوال شمس نفس اليوم وعندما اقترب شهر مارس من نهايته توجب على المؤلف أن يعبر  
الحدود الفلسطينية إلى لبنان بعد أن قضى ما يقرب من ثلاثة أشهر في فلسطين.

(وسنشير لهذا الكتاب بـ (ب.ر.)).

ليس هذا هو وقت الحديث عن حياة كل واحد من هؤلاء الكتاب، مهما كان ذلك  
مجملاً ومختصراً أما إذا كان المقصود مجرد إشارة سريعة لشخصياتهم ونشاطاتهم المهنية  
وكتاباتهم، فالمهم أن نعرف مثلاً أن الأربعة كانوا أساتذة، وأن ثلاثة منهم وبالتحديد  
متخصصون في حقل التاريخ أو الحقل التاريخي الجغرافي. وكلهم أيضاً مكونون تكويناً ثقافياً  
عالياً ومتمرسون في البحث التاريخي، هذا بالإضافة إلى أن بعضهم وصل إلى أن يكون  
عضواً في العديد من المجالس العلمية. وقد اثبتوا جميعاً بأنهم ذوو اصطلاح واسع وتكوين ثقافي  
مرموق، الأمر الذي يؤثر كثيراً أو قليلاً في طريقتهم في الكتابة وفي غنى المعلومات التي  
تحتوي عليها<sup>(٧)</sup> ومع أن أعمالهم جميعاً وعمل كل واحد منهم على انفراد مكتوبة أيضاً بلغة  
اسبانية راقية فإنه تلاحظ اختلافات بسيطة في الأسلوب والحدة الأدبيين اللذين يجعلان  
كتاباتهم على درجات متفاوتة من الاناقة<sup>(٨)</sup>. احدهم أيضاً كتب أعمالاً تكميلية حول نفس  
الموضوع العام الذي هو هدف الرحلة<sup>(٩)</sup>.

ومع ذلك فإن ذكر هذه الكتب الثلاثة دون غيرها لا يعني أنها المادة الوحيدة الموجودة  
حول الموضوع أو أنها سهلة الاستشارة والاستغلال، بل على العكس من ذلك يمكن أن

تضاف إليها أعمال أخرى كثيرة مماثلة لها نفس الفائدة. مع ذلك فالحقيقة ان هدي في الأساس من كتابة هذا المقال<sup>(١٠)</sup> هو ببساطة كما قلت: لفت الانظار الى الموضوع تاركا الباب مفتوحا امام باحثين آخرين يأتون من بعد فيواصلون البحث ويوسعونه بكل التكميلات والاستدراكات اللازمة، ومع ذلك ولكي تصبح لدينا فكرة تقريبية عن المادة الواسعة المتوفرة اختار واذكر منها بعض العناوين مثل:

- ( ١ ) فر . فرانتيسكو بايسكا : مسيحي في فلسطين او لتكن رحلة من برشلونة الى القدس سنة ١٩٨٣ برشلونة ١٨٥٥ .
- ( ٢ ) البارو روبيدو : يوميات حاج الى الاراضي المقدسة . مدريد ١٨٦٣ .
- ( ٣ ) غريغوريو اندريس اسبالا : من المائتانارس الى النيل الى الاردن . مدريد ١٨٧ .
- ( ٤ ) ناريسو بيريث رويو : رحلة الى مصر وفلسطين واقطار اخرى في المشرق . لوغو ١٨٨٢-٣<sup>(١١)</sup> .
- ( ٥ ) الدكتور اريانو فييرا ( كتاب مطبوع باشراف ) : الارض المقدسة وصفها وتاريخها العجيب ، يضم الاحداث البارزة في تاريخ فلسطين حتى يومنا هذا والوضع الراهن للاماكن المقدسة ، بلنسية ١٨٩٠ .
- ( ٦ ) انطونيو يور : الارض المقدسة او فلسطين ، دراسة تاريخية لفلسطين وآثارها المكتوبة في ضوء الأعمال الرئيسية المنشورة حول الموضوع ، برشلونة ١٨٩٦<sup>(١٢)</sup> .
- ( ٧ ) مانويل دي توريس اي توريس : فلسطين ، أصداء رحلة ، مدريد ١٩٠٠ .
- ( ٨ ) م . بولو اي بريولو : ذكريات وتقاليد الأرض المقدسة ، بلنسية ١٩٠٢ .
- ( ٩ ) كوستا إي يوبرا : رؤى فلسطين ، برشلونة ١٩٠٨ .



## سكان فلسطين

من بين الجزازات الكثيرة والمتنوعة لهذا البحث الذي يقوم اساسا على دراسة نصوص من هذا النوع اهتمت في المكان الأول بتقنين ومعالجة البيانات التي تتعلق اصلا بسكان فلسطين في تلك الفترة: كما وكيفا أو بالتفصيلات التكميلية وبهذا المعنى فإن ف:ف: يقدم لنا صورة شاملة ومفيدة عندما يؤكد على وجه الخصوص ان عدد السكان يمكن تقديره على الاقل بـ ٦٠٠ ألف نسمة<sup>(١٣)</sup>

وربما كان في الرقم شيء من المبالغة... ويكون من المناسب ان نظنه هكذا لاسباب كثيرة منها: مقارنة هذا الرقم بالمجموع الكلي الناتج عن جمع الاحصائيات لاغلب المدن والقرى التي يزورها المؤلفون والتي سأتي على ذكرها فيما بعد. والحقيقة ان ذلك المجموع الكلي مع انه يتعلق فقط ببعض المناطق التي يزورونها - بالطبع وعلى وجه العموم تكون الاكثر اهمية وعدد سكان - يزيد قليلا على مائة وخمسين الف نسمة وكذلك حسب بيانات معطاة حديثاً بواسطة باحث فلسطيني<sup>(١٤)</sup> فإن عدد السكان سنة ١٨٨٢ كان ثلاثمائة الف نسمة وفي سنة ١٨٨٥ وصل الى اربعمائة وخمسين الف نسمة. ومعلومات كهذه تصبح مطابقة بالفعل للمعلومات التي يعطيها وينستوك في كتابه الممتاز والشهير حول الصهيونية<sup>(١٥)</sup> وعلى اية حال يمكننا ان نفترض بأن عدد سكان فلسطين في تلك الفترة يتراوح بين ثلاثمائة الف نسمة كحد ادنى وستائة الف نسمة كحد اعلى.

ومن ناحية اخرى ليس من السهل ان نحدد برقم معين وثابت الامتداد الترابي لفلسطين ولكن يمكن ان يكون تقديره بسبعة وعشرين الف كيلو متراً مقبولاً<sup>(١٦)</sup>. وبالتالي فمن معلومات كهذه نستخلص نسبة مئوية لعدد السكان تتراوح بين ١١ و ١٢ نسمة لكل كيلو متر مربع. وواضح بان هذه البيانات لا تسمح لنا بالحديث عن بلد ذي كثافة سكانية عالية ولو انه على اي حال يجب ربطه بنظائره المعاصرة ومقارنته بها<sup>(١٧)</sup> كما ان هذه البيانات تهدم من الأساس تلك الأحابيل التي تدعى ان فلسطين «ارض بلا شعب». ان «صورة العزلة الصحراوية الموحشة» لفلسطين قد استطاعت ان تروج فقط لكونها عاملاً هاماً في تطوير تركيبة سياسية واقتصادية واجتماعية، محكمة التخطيط ومطبقة بالقوة، ولا تكثرت في كثير من الأحيان باسبغ الحقائق والأسس. كل ذلك يمكن تحقيقه فقط في ظل استخدام مستمر ومكثف لصور مزيفة وملتوية، نجد هنا واحدة حيث يلاحظ دائماً ان عدد سكان بلد ما، يتناسب مع استغلال وزراعة اراضيه.

ودون ان اتمادى في التقديرات الجزئية والتكميلية الطويلة فقد تناولت في القائمة الطويلة التي سأقدمها الآن كل المعلومات المتعلقة بسكان فلسطين في الفترة التي نحن بصددتها مستقاة من الكتب الثلاثة سابقة الذكر، وهي معلومات عن مدن واماكن متعددة زارها المؤلفون وسترد الأسماء في القائمة حسب الترتيب الأبجدي (اللاتيني) مع ذكر الاسم الشائع والمعروف لكل مكان.

١ ( عين كارم Aain Karem

يبلغ عدد سكانها ستمائة نسمة: مائة وخمسون منهم كاثوليك، والباقيون فمسلمون لا يوجد بين سكانها بروتستانت ولا ارثوذكس، ويجاول الروس ان يجعلوا من أنفسهم أصدقاء (ف.ف. ٦٣٨).

٢ ( ابو ديس Abudis

جميع سكانها من العرب المسلمين (ف.ف. ٤٣٧)

٣ ( عكا Acre

يبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة منهم مائة وستون من الكاثوليك اللاتين ومائة وخمس عشرة من الكاثوليك اليونان واربعمائة من الكاثوليك المارونيين والفس وسبعمائة من الارثوذكس اليونانيين وتسعون من العبريين وخمسة آلاف وخمسمائة وخمس وثلاثون من المسلمين (ف.ف. ٨٩٠)

لا يقل عدد سكانها عن خمسة وعشرين الف نسمة (ب.ر. ١٢٩)

٤ ( ارطاس Artas

يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة نسمة (ف.ف. ٥٤٨)

٥ ( عجة Aye

يبلغ عدد سكانها خمسمائة نسمة (ف.ف. ٧٤٩)

٦ ( بيت قاد Beit- Kat

يبلغ عدد سكانها مائتي نسمة (ف.ف. ٧٦٢)

٧ ( بيت صفافا Beit- Safafa

تتكون من ثلاثين بيتا (ف.ف. ٦١٠)

Beit- Sahur

٨ ( بيت ساحور )

يبلغ عدد سكانها خمسمائة نسمة وكلهم . ما عدا ستين مسلما . من المسيحيين  
واغلبهم ارثوذكس. ( ف.ف. 562 )

Beit - Yala

٩ ( بيت جالا )

يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة. منهم الفان وستائة يونان ارثوذكس واربعمائة  
كاثوليك، وربما كانت البلدة الفلسطينية الوحيدة التي تخلو من المسلمين (ف.ف. ٥٣٠)  
( 530 )

Belen

١٠ ( بيت لحم )

يبلغ عدد سكانها خمسة آلاف وخمس عشرة نسمة. بينهم الفان وخمسمائة كاثوليك،  
والف وسبعمائة ارثوذكس يونانيين، وسبعمائة ارثوذكس أرمن، وخمس عشرة بروتستانت.  
( ف.ف. ٥٩٢ )

عدد سكانها خمسة آلاف وخمسمائة نسمة، منهم ثلاثة آلاف وخمسمائة نسمة، منهم  
ثلاثة آلاف كاثوليك، والف وسبعمائة يونان متفرقون، وسبعمائة المان متفرقون، وخمس  
عشرة برتستانت، ومائة مسلمون، ولا يوجد يهودي واحد. ( ا. ٤٠٥ )  
اغلب سكان بيت لحم من الكاثوليك ( ب.ر. ٣٠٢ )

Betania

١١ ( العيزرية )

تعيش هناك ثلاثون عائلة مسلمة ( ف.ف. 434 )

Borka

١٢ ( برقة )

عدد سكانها عشرة آلاف نسمة، متعصبون وغلاظ الطباع ( ف.ف. ٧٤٩ )

Caifa

١٣ ( حيفا )

يبلغ عدد سكانها ( بدون الجالية الالمانية ) ٤٠٠ نسمة. موزعين على النحو التالي:  
١٧٠ كاثوليك لاتين  
٦٠٠ كاثوليك يونان  
٣٠ كاثوليك مارونيون  
١٠٠٠ ارثوذكس يونان  
١٠٠٠ يهود

١٢٠٠ مسلمون

(ف.ف ٨٨٧)

١٤) كنا Cana

يبلغ عدد سكانها ٦٠٠ نسمة، نصفهم مسلمون ونصفهم ارثوذكس يونان. (ف.ف. ٨٤٠)

١٥) دير الشرافات Deir Es - Chorafat

تتكون من عشرين بيتا. (ف.ف. ٦١١)

١٦) دير النبي موسى Deir Nebi Musa

يسكنها بعض الدراويش الهنود المتعصبون الذين لا يسمحون بالدخول الا للمسلمين. (ف.ف. ٥١١)

١٧) الطنطورة Dora

تتكون من حوالي ثلاثين أو أربعين كوخ صياد. (ب.ر. ١٣٩)

١٨) دورا Dura

يبلغ عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة. تشتهر بالشجاعة والثورة والتعصب. (ف.ف. ٥٣٩)

١٩) فقوعة Foku

يبلغ عدد سكانها ٤٠٠ نسمة (ف.ف. ٧٦٣)

٢٠) غزة Gaza

يبلغ عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة من العرب واليونان، يعملون في الرعي والتجارة والزراعة. (ب.ر. ١٥١)

٢١) عيبال Hebal

بها بعض أكواخ الفلاحين (ف.ف. ٧٣٠)

٢٢) الخليل Hebron/El - Jalil

يبلغ عدد سكانها ٧٦٠٠ نسمة

فيهم ٦٠٠ يهودي والباقون مسلمون ما عدا طيب مسيحي، وهي مدينة اسلامية مقدسة، واهلها متعصبون جدا، لا يكرمون الضيف شيئا.  
(ف.ف. ٥٣٧)

لا يقل عدد سكانها عن ٥٠٠٠ او ٦٠٠٠ نسمة كلهم اترك تقريباً والبقية يهود، وهي مدينة مقدسة عند اليهود والعرب.

(ب.ر. ٣١٢)

تعتبر بمثابة فندق ومدينة تجارية.

(ب.ر. ٣١٤)

Jafa **٢٣) يافا**

يبلغ عدد سكانها ٦٢٩٥ نسمة. منهم:

٤٥٠ كاثوليك لاتين

٣٧٥ كاثوليك يونان

٣٠ مارونيون

٧٠٠ ارثوذكس يونان

١٠ ارثوذكس ارمن

١٠ بروتستانت

٤٠ يهود

٤٣٠٠ مسلمون

(ف.ف. ١٢٠، ملاحظة ٢)<sup>(١٨)</sup>.

في الوقت الحالي لا يقل عدد سكانها عن ١٠٠٠٠٠ نسمة، منهم:

١٠٠ كاثوليك

(ف.ف. المكان نفسه) وهي مدينة جديدة، تأخذ في الاتساع جهة الضواحي القديمة،

وسنة ١٨٦٨ تأسست فيها مستعمر المانية.

(ف.ف. ٢٨-٩)

Jerico/Er- Riega, Rihha, El-Rhyba **٢٤) اريحا**

بها خمسون كوخا، ويبلغ عدد سكانها ٢٥٠ نسمة)

(ف.ف. ٤٦١)

بها بعض دكاكين جلود الماعز، وبيوت من الطين او الطوب او غصون الاشجار، وبها قلعة عربية قديمة.  
(ب.ر. ٣٨٤).

## ٢٥) القدس Jerusalem

يكاد عدد سكانها يصل الى ٢١٠٠٠ نسمة وبالتحديد: ٢٠٩٣٨ نسمة. منهم: ٨٠٠ عبريون

٧٥٦٥ محمديون (مسلمون)

١٥٠٠ لاتين

٢٨٠٠ ارثوذكس يونان

٣٠٠ كاثوليك يونان

٥١٠ ارمن ارثوذكس

١٣٠ ارثوذكس اقباط

٣٠٠ بروتستانت (كلهم تقريبا جاؤوا من سويسرا والمانيا وانجلترا ويعيشون في مجبوحة عيش مستفيدين من الذهب الذي تمنحهم اياه الجالية الانجليزية). ومنهم:

٧٥ ارثوذكس احباش

١٢ ارثوذكس سريان

(ف.ف. ١٠٦)

عدد الكاثوليك فيها ينمو يوماً بعد آخر. الارثوذكس، ارمن ويونان يتقبلون البرتستانتي اكثر من الكاثوليك، فيها فندقان وخمارتان أو ثلاثة وكثير من الحانات وفيها ايضا مكتبتان (لبيع الكتب) ليس فيها اية صحيفة او مطبعة، ما عدا مطابع الرهبانية (الدير)

(ف.ف. ١٠٧-١١١)

والحقيقة ان عدد سكان القدس، الذي يعطيه اليوم أناس مهتمون بالأمر ومعنيون، هو: ٤٠.٠٠٠، والجالية التي نما عددها هي الجالية العبرية او اليهودية.، حيث ارتفع عددها الى ٢٠.٠٠٠ الف نسمة.

(١: ٢٤٣) (١٩)

يبلغ عدد سكانها ٢٦.٠٠٠ نسمة، منهم:

١٤.٠٠٠ يهودي

من ٧١ ٠٠٠ الى ٨ ٠٠٠ مسيحي،  
ومن ٤ ٠٠٠ الى ٥ ٠٠٠ مسلم  
(ب.ر. ٢٩٤) (٢٠)

والطابع الغالب على القدس هو الطابع الاسلامي، اما الطابع اليهودي فلا « يظهر الا في  
غيبة الطابع الاسلامي»، فالعنصر الاسلامي يسيطر ويدخل في كل شيء.  
(ب.ر. ٢١٩)

كباتية Kabatie (٢٦)

يبلغ عدد سكانها ٣ ٠٠٠ نسمة، في احياء متفرقة، كل حي له شيخه وقوانينه الخاصة  
المستقلة. وهم غلاظ الطابع ومتعصبون.  
(ف.ف. ٧٥٣) (٢١)

كفردان Kafar - Adan (٢٧)

عدد سكانها ٣٠٠ نسمة  
(ف.ف. ٧٦١)

اللدا Lida (٢٨)

فيها ٢٦ من الكاثوليك، وبعض البروتستانت الذين استقروا فيها حديثا. وفيها مقبرة  
اسلامية كبيرة.  
(ف.ف. ٣٩)

لبان Luban (٢٩)

يبلغ عدد سكانها ٣٠٠ نسمة  
(ف.ف. ٧١٧)

لوبية Lubie (٣٠)

مكان واسع ومأهول بالسكان (ف.ف. ٨٣٤)

المالحة Maleha (٣١)

يبلغ عدد سكانها ٢٠٠ ٢٠٠ نسمة  
(ف.ف. ٦١١)

نين Nain (٣٢)

عدد سكانها قليل.

(ف.ف. ٧٧٣)

٣٣) نابلس Naplusa/Sichem

لا يقل عدد سكانها عن ١٦ ٠٠٠ نسمة: اكثرهم مسلمون، روحهم مضطربة ومتعصبون، يضرب بهم المثل في جميع انحاء فلسطين، ومنهم:

٢٤٠ يهودي

٥٠٠ ارثوذكس يونان

١٠ بروتستانت دخلاء

(ف.ف. ٩٠٧٣٨)

٢٤٠ السامريون، ممثلون في ٣٥ او ٤٠ اسرة، يتزاجون فيما بينهم.

(ف.ف. ٧٣٦-٨)

يبلغ عدد سكانها ٨ ٠٠٠ نسمة

(ب.ر. ٣٤٦)

وسكان هذه المدينة يبدون متمدين جدا، ولكنهم اقل تمدنا من الاروبيين، وتعتبر المدينة مركزا تجاريا (ب.ر. نفس المكان) السامريون. (ب.ر. ٣٤٧ وما يليها)

٣٤) الناصرة Nazaret

يبلغ عدد سكانها ٩٣١ ٥٠ منهم:

٩٠٠ كاثوليك لاتين

٧٥٠ كاثوليك يونان

٢٥٠ كاثوليك مارونيون

٢٠٠٠ ارثوذكس يونان

٢٠٠٠ مسلمون

عبري واحد

(ف.ف. ٧٩٤-٥)

في اوائل سنة ١٧٤١ كل يوناني الناصرة كانوا ارثوذكس، وفي هذا العام قام الفرانسيسكيون بتحويل (١٢١). والآن تبدو مدينة كاثوليكية، وقلما وجد كاثوليكي قبل

الفرانسيسكيين. (ف.ف. ٨٤٩).

(849).



اغلب سكانها - من ١٤ ٠٠٠ - مسيحيون (ب.ر. ٣٥٤)

٣٥) الفندقومية Pentecumie

عدد سكانها ٥٠٠ نسمة كل سكان السامرة ف.ف. ٧٤٩

٣٦) البقعة Rafain (Valle)/El-Bakaa

يكان يكون كل سكانها من اليونان (ف.ف. ٦٨١)

(٦٨١)

٣٧) رافيدية Rafidia

يقرب عدد سكانها من ٤٠٠ نسمة، نصفهم ارثوذكس يونان ١٠ بروتستانت

والبقية محمديون (ف.ف. ٧٤٢)

٣٨) الرملة Rama, Ramma, Arimatia,

يزيد عدد سكانها قليلا على ٣ ٠٠٠ نسمة منهم:

٢ ٥٠٠٠ مسلمون

١ ٤٠٠ ارثوذكس يونان

٦٠ ارثوذكس ارمن

٣٠ كاثوليك

اسرتان بروتستنتيتان

(ف.ف. ٤٥)

يبلغ عدد سكانها ٥ ٠٠٠ نسمة منهم:

٦٠ كاثوليك

١٣ بروتستانت

٤٠٠ يونان غير متحدين

٤ ٥٢٧ مسلمون

٣٩) رام الله Ramala

يبلغ عدد سكانها ٢ ٠٠٠ نسمة اغلبيهم ارثوذكس يونان، ويوجد ايضا:

٢٠٠ كاثوليك

٥ بروتستانت مجمعين

قليل من المسلمين  
كثيرون من سكانها يعانون مشكلات في النظر.  
(ف.ف. ٧٠٨)

Rame (٤٠) الرامة  
يبلغ عدد سكانها ١٢٠ نسمة  
(ف.ف. ٧٤٩)

Ramin (٤١) رامين  
قرية كبيرة مأهولة بالسكان (ف.ف. ٦٤٩)

(٤٢) غزة  
يبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠٠ نسمة، منهم ١٠ كاثوليك (ف.ف. ٣٦)

Er-René (٤٣) الرينة  
يبلغ عدد سكانها ٨٠٠ نسمة، نصفهم مسلمون ونصفهم أرثوذكس يونان، وحتى وقت  
قريب، حيث تحولوا اخيرا الى كاثوليك.  
فيها بروتستانتيان، وبالتحديد، كاتب البعثة نفسها وزوجته.  
(ف.ف. ٨٤١)

Safet,/ Saphed (٤٤) صفد  
يبلغ عدد سكانها ٤٠٠٠ نسمة، منهم:  
٢٠٠٠ محمديون  
٣٠٠ يهود  
٧٠٠ مسيحيون  
(ف.ف. ٨٣٣)

الأحبار في طبريا يعتبرونها بمثابة صهيون الجديد. وجد هناك الكثير من اليهود البولنديين،  
الذين تنفشى بينهم الامراض الخبيثة.  
(ب.ر. ٣٨٢)

يبلغ عدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة، كلهم اترك متعصبون قساة، (ف.ف. ٨٣٥)

Samunié (٤٦)

في سنة ١٨٦٧ تأسست فيها مستعمرة بروسية من ١٢ شخصاً، ولكنهم بعد وقت قصير لم يوفقوا. (ف.ف. ٧-٨٥٦)

Sanur (٤٧) سانور

يبلغ عدد سكانها ١٠٠٠ نسمة  
(ف.ف. ٧٥٢)

Sile (٤٨) سيلة

لا يقل عدد سكانها عن ١٠٠٠ نسمة  
(ف.ف. ٧٦١)

Siluan (٤٩) سلوان يسكنها بدو متعصبون ومخيفون

(ف.ف. 662)

Sinyil (٥٠) سنجل

يبلغ عدد سكانها ١٢٠٠ نسمة  
(ف.ف. ٧١٥)

Soba (٥١) صوبا

يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة، كلهم مسلمون  
(ف.ف. ٧٧)

Taibe (٥٢) الطيبة

يكاد يكون سكانها كلهم من الاثوذكس اليونان، ويوجد أيضاً ١٥٠ كاثوليكيا.  
(ف.ف. ٧١٣)

Tiberiades, Tabarieh (٥٣) طبرية

يبلغ عدد سكانها ٣٥٠٠ نسمة، منهم:  
٢٥٠٠ يهود  
٧٤٠ مسلمون  
٢٥٠ كاثوليك يونان  
١٠ كاثوليك لاتين (ف.ف. ٨١٦) (٢٤).

مدينة مقدسة عند اليهود، الذين يعيشون في مركز ووسط المدينة، يأتون للاقامة بها من جميع  
الانحاء

(ف.ف. ٨١٦-٨)

المدينة الحالية تكاد تكون خرابا بسبب الزلزال الذي اجتاحتها سنة ١٨٣٧، وتحتل فقط  
جزءا من المدينة القديمة، مدينة التلمود المقدسة، يقيم فيها عدد كبير من علماء اليهود. الذين  
يتحدث الكثيرون منهم الاسبانية المدجنة (هكذا) واخرون يتحدثون الالمانية. ويكاد العنصر  
المسيحي يقتصر على بعض الارثوذكس اليونان واللاتين، ويذهب سكانها ضحية للملاريا.

(ب.ر. ٣٦٧)

٥٤) ترمس عيا Turmus-Aya

يبلغ عدد سكانها ٦٠٠ نسمة.

(ف.ف. ٧١٥)

٥٥) يافا Yafa, Safa

يبلغ عدد سكانها ٤٠٠ نسمة بين مسلمين وارتوذكس وكاثوليك. ويبلغ عدد الكاثوليك  
مائة نسمة، اعتنقوا الكاثوليكية حديثا، وبعض سكانها كانوا قد باعوا انفسهم بالذهب  
البروتستانتى (اي انهم تحولوا الى المذهب البروتستانتى تحت الاغراء المالى)

(ف.ف. ٧٧٩)

٥٦) جلبون Yelbon

يبلغ عدد سكانها ٣٥٠ شخصا

(ف.ف. ٧٦٢)

٥٧) Yelame

مسكونة بدروز شريين

(ف.ف. ٨٠٦)

٥٨) جنين Yenin

يبلغ عدد سكانها حوالي ٣٠٠٠ نسمة كلهم مسلمون تقريبا ما عدا بعض الأسر  
الارثوذكسية اليونانية وسراً اخرى يهودية، واسرة كاثوليكية واحدة. حتى وقت قريب كان فيها:  
اسرتان كاثوليكيتان. يشتغل اهلها بالزراعة. يهودي واحد يتحادث معهم بالاسبانية، اهلها  
نشالون (لصوص) بارعون.

(ف.ف. ٧٥٥-٧)

٥٩) اليامون Yenum

يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة.

(ف.ف. ٧٦١)

٦٠) جربا Yerba

فيها اربعة او خمسة بيوت لا غير.

(ف.ف. ٧٥٢)

٦١) جبع El-Yib

يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة.

(ف.ف. ٧٠٢)

٦٢) جفنة Yifna

يبلغ عدد سكانها ٣٠٠ نسمة، نصفهم كاثوليك، والنصف الآخر ارثوذكس يونان.

ليس بينهم مسلم واحد. عدد الكاثوليك فيها في تزايد.

(ف.ف. ٧١٤).

كما اشرت وكما اثبت بالحجة فيرناندث سانتشثت وفرييري بريرو وهما اكثر من امدانا بالمعلومات الأدق وثائق، ويكون من المناسب تبنيهما كدليل ومشير رئيسي في الدراسة. فاذا جمعنا بمرص البيانات الدراسية التي تقدمها تلك المعلومات فسوف نحصل على رقم نهائي يقدر بـ ٣٤٩ ١٥٢ نسمة. ومع ذلك أعود فاذكر بأنه يجب ألا نفهم بان هذا الرقم يجمع كل سكان فلسطين، اذ انه فقط يمثل عدد سكان المدن التي زارها، وببساطة تلك الاماكن التي يذكر انها. ومما يؤسف له، دون شك، أن المندفعين بهذا الحافز الديني لهؤلاء السكان كان بالفعل الشيء الوحيد الذي يعنيتهم.

على كل يتضح ايضا بان ما يمكن ان تعتبرهم سكاناً أصليين يمثلون الاغلبية الساحقة وان شخصيات طارئة من المهاجرين - يهود وغير يهود - يصبح ذكرها غير ذي معنى عند مقارنتها بعدد السكان الأصليين<sup>(٢٥)</sup>، بمعنى انه يوجد سكان عرب فلسطينيون اقحاح وان هؤلاء السكان الأصليين كانوا في الاساس يدينون بديانات متعددة ولو انه في المدة الاخيرة سادت الديانة الاسلامية. انه من المناسب ان نكرر ذلك مرارا وتكرارا. كما انه يظهر دليل

آخر هام واثباتي على تعايش اجتماعي على مر العصور، ولو انه لم يكن من السهل تحقيقه دائماً، وبالفعل فقد حدثت صدمات متفرقة، اتخذت طابعا جديدا. وفي اطار التسامح التقليدي المتبادل الذي يعود في النهاية بالمنفعة على الجميع يندرج أيضاً بصورة ملائمة الموقف المتساهل والتسامح، عادة، والذي تبناه السلطان العثماني نفسه، وهذا عكس ما يمكن للأوهام والأفكار المتوقعة (السابقة لاوانها) ان توحى به.<sup>(٢٦)</sup> على اية حال هناك مظاهر قضية لا اود الان التفصيل والاطناب فيها. ولكن يكون من المناسب ان نشير اليها بوضوح.

وبالفعل فإن البيانات التي تقدمها لنا هذه النصوص تسمح تماما بطرح جوانب اخرى كثيرة للبحث، جوانب على اساسها تدرسة صورة فلسطين في تلك الفترة، جوانب تفضح في الاساس المناورة المضللة لعملية تدوين تاريخي مأجور (دنيئة) ذات اهداف مفتعلة شوهدت الحقيقة عن عمد وسبق اصرار.

## ملاحظات

- ١ - لاعطاء بعض الامثلة المتنوعة على هذا الجنس من القصص، اذكر اعمال: خ ثيبيرو دي بيرا، المطبوع في روما سنة ١٥٩٦: ثم طبع مرة ثانية على نفقة ث. مارتنيت فيغيروا و إ. سيراً رافلز، اللغة ١٩٦٤ - فادريكي انر يكيث دي ريبيرا وماركس ديتاريفه - اشبيليه ١٦٠٦ - فرانسيسكو غريرو، مدريد ١٦٤٤ - انطونيو ديل كاستيو - مدريد ١٦٥٤ ويسكو ال لويث (بين ١٧٦٢ و ١٧٨١) من كتاب من قطلونيا الى فلسطين "Catalunya a Palestina" برشلونه ١٩٠٠.
- ٢ - مع انه بين مختلف الرحالة والحجاج من الطبيعي ان تسجل فروق واختلافات وطابع تعين على عمل تلخيص مناسب لذلك الطابع الذي يتأثر بقوة بما نشير اليه في الفقرة التالية المقطفة من كتاب احدهم: مانويل ابو الفارو» هذا الكتاب الصغير الذي اكتبه اليوم وارفعه الى حلم الجمهور ليس فيه هذه التناسبات، ولكنه بالمقابل، الكتاب الاكثر ثقي، انه آتاوه أوديهيا لمعتقداتي الدينية؛ انه زفره من نفسي، انه زهرة اغرسها على قبر ابوي، هذا الكتاب مكتوب بالقلب وليس بالفكر، لا توجد فيه فقرة تقوم على العقل، كل ما فيه مشاعر، فالاحساس لا يظهر الا في

الأراضي المقدسة، لأن العواطف تتفجر هناك من الأرض: لأن العواطف هناك تهبط من السماء، وروحنا تستسلم منومه تنويمياً مغناطيسياً تحت تأثير سام قوي وعجيب». Jerusalem Des ceipcion elactay detallda de lor santor lygaser, Madrid 1879, p. 16.

٣ - كما أن بشاره خضر من بين آخرين كثيرين يشير إلى أن «تاريخ فلسطين في القرن التاسع عشر يتميز بالتغلغل الرأسمالي وضمائه للسوق العالمية، هذا النفوذ باستمرار يتحقق عن طريق «الحملات الصليبية المسالمة» للبعثات المسيحية، ومن ثم بوصول المعمرين الألمان، وفي النهاية بواسطة الاستعمار الصهيوني». انظر، Histoire de la Paletine, I, Tunes, 1976, p. 73)

كتاب آخر مهم حول هذا الفترة هو، A.L. Tibuwi: Britsh intersten en Palestine, 1800-1901, London, 1961

وكذلك مساهمات نيفيلي ماذريل: الهجرة التركية والعربية واليهودية إلى فلسطين Middle Eastern Affairs, Vol, 4.1955. في (١٨٨٢-١٩١٤)

٤ - انظر مثلاً: مقالات من كتاب «Ensayar marginaler de arubeime Midsid», 1977، حيث أن أحد هذه المقالات يشير إلى مظاهر الموضوع التونسي في الفكر والأدب الأسبانيين المعاصرين (١٨٨١-١٩٤٥)، وقد ظهرت ترجمة عربية للمقال في: Cahen de Tunisie, tamo xxvi No, 103-104, 1978, pp. 175-188.

٥ - أشير بالتحديد إلى الكتاب المعنون ب: Turquia Vista pos viayeror literator: أشير بالتحديد إلى الكتاب المعنون ب: hipancor en el puente de for siglor xIx y xx. الذي سيصور عن معهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة مدريد الأوتونمة.

٦ - انظر على وجه الخصوص مقالي: Sobec el aun desconacido asabirmo epanal del: siglo xix, في كتابي سابق الذكر، الصفحات من ٣-٢٢

٧ - أجمالاً يبدو لي أن كتاب فيرنادث سانتشش وفريد بريري ليس فقط الكتاب الأكثر وثاقاً بل أيضاً الكتاب الذي يمكن أن يقدم لنا هذه الوثائق بصورة يمكن الاستفادة منها. وكتاب بيلا سكوديل ريال يقدم أيضاً ذخيرة بليوغرافية ولكنه يستخدمها بصورة أقل دقة من كتابي العمل سابق الذكر.

٨ - في هذا المجال اعتبر نص مانويل أبو الفارو انضج من النصوص الأخرى أحياناً من

خلال اسلوبه وغاياته الواضحة يقدم صفحات نموذجية بالفعل وذات قيمة ادبية كبيرة.

٩ - اشير الى Jerusalem, libro de lectura para lay escolar de primera emenaya, Madid 1880 ، وقد طبع عدة مرات.

١٠ - الحقيقة انني استفيد هنا بصورة كبيره من المادة التي استخدمها في اعداد محاضرة القيتها في اسبوع الثقافة العربية الاسلامية بمدريد سنة ١٩٧٨ . بعنوان: Algnor: aspetor humanor de la Palestina de la epoca segun tier retator de viajeror espanaler de segunda mitad de siglo xlx (والآن موجود تحت الطبع في المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد).

١١ - يجمع المؤلف في هذا الكتاب انطباعاته عن رحلة قام بها الى الشرق سنة ١٨٧٥ ، وهو كتاب استفدت منه كثيرا في تأليف الكتاب سابق الذكر عن تركيا.

١٢ - الجدير بالذكر ان هذا يحتوي على رسوم توضيحية دقيقة للفنان أسيرينيا، تتمشى كثيراً مع ذوق العصر.

١٣ - عمل سبق ذكره.

١٤ - Bichara khader: Histoire de Palestine, vol , I , Tunes, 1975, p.77.

١٥ - Nathan Weinsteeck: le sianisme cantre Israel, Peris 1969. p.63

١٦ - انه الرقم الذي يعطيه كتيب، عبد العزيز عثمان ومحمد تاقى عبد الرحمن: جغرافية الوطن العربي، حلب، دون تاريخ، ص ٤٨.

١٧ - بالنسبة لاسبانيا مثلاً كان عدد سكانها سنة ١٨٧٧ يبلغ ١٧٥ر٦٦٢ر١٦

نسمة، وسنة ١٨٨٧. بلغ ١٧٥ر٣٤،٤١٦ نسمة) انظر في ذلك كتاب

Mastiney Cuadrado: La leurgusea Conservodora (1874-1931) Madrid, 3

ed. 1976, p. 101. حيث كانت النسبة المئوية تبلغ من ٣٣ الى ٣٤ نسمة

للكيلو متر المربع.

١٨ - كما يعلن المؤلفون انفسهم، فأنهم استقوا هذه المعلومات في هذه المره كما فعلوا في

مناسبات اخرى فر. ليبين.

١٩ - يضمن الكاتب جدول السكان الذي وضعه ب. ليفيني (فر. ليبين)، مع انه



يشير الى الجدول «بعيد جداً عن ان يكون دقيقاً»، حيث يذكر احصائية سكانية كهذه:

١٢٠٠٠ يهودي

١٦٠٠ كاثوليك لاتين

٣٥ كاثوليك يونان متحدون

٥ كاثوليك ارمن متحدون

٢٨٠٠ يونان متفرقون

٥١٠ ارمن متفرقون

٧٥ احباش متفرقون

١٥ سوريون متفرقون

٣٠٠ بروتستانت

٧٥٠٠ مسلمون

٢٠- استقى الكاتب هذه البيانات من كتاب بيغا، الذي يعتبر من اهم مصادره على الاطلاق.

٢١- هذه هي احدى الفقرات التي يشار فيها بوضوح الى الاختلاف الكبير الواقع بين المزاعم الباطلة والواقع، ومن نفس رواية المؤلفين وتأکید انهم يستنتج ان سكان البلده لم يكونوا متعصبين وغلاظ الطباع الى درجة كبيرة، هكذا يعترفون بذلك: «يتوجب علينا ان نقول كلمة حق، وهي انه بين السكان الذين استرشدنا بهم استطعنا ان نتبين، ما اردنا، ان الشكوك التي اوحى لنا بها سمعه انهم متوحشون وغير كرماء، لم تخل من نفس كريمة وضعتنا على الصراط المستقيم.

٢٢- هذه البيانات ايضا مستقاه من فر. ليين (Fr. Lievin).

٢٣- من الواضح انه يوجد اختلاف كبير بين البيانات التي يعطيها هنا ف.ف. والبيانات السابقة الذكر (انظر Gora) المنسوبة الي ب.ر. ولم اصل الى تفسير لسبب هذا الاختلاف الكبير، فالنصان يشيران الى مدينة بعينها وليس الى اقليم او منطقة.

٢٤- بيانات مستقاه من فر. ليين

٢٥- هي من جهة اخرى معلومة تكفلت البيليوغرافية الحديثة بتوضيحها بما فيه

الكفاية. فمثلا، يعطي وينستيك (مرجع مذكور ص ٦٣) الارقام ١٠ ٠٠٠ نسمة لليهود سنة ١٨٥٥ از ١٣٠٠٠ سنة ١٨٦٨ و ٢٠ ٠٠٠ سنة ١٨٨٠ و ٥٠ الف سنة ١٨٩٥. وبشاره خضر في كتابه سابق الذكر ص ٧٧ وملاحظة رقم ٢، يتحرك في اطار هوامش كمية مقارنة فيجعل عدد اليهود سنة ١٨٥٥ ١٠ ٠٠٠ نسمة وسنة ١٨٨٢ ٣٥٠٠٠ نسمة وسنة ١٨٩٥ بين ٥٠ ٠٠٠ و ٦٠ ٠٠٠ نسمة. وحسب هذا الكاتب نفسه فان مجموع سكان القطر بين سنتي ١٨٨٥ و ١٨٩٥ كان يتراوح بين ٣٠٠ ٠٠٠ وما يزيد قليلاً على ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة، وارقام مشابهة او اقل قليلاً يذكرها مقال عبد العزيز عوض: متصرفيات القدس اواخر العهد العثماني، مجلة شؤون فلسطينية، العدد: ٤، سبتمبر ١٩٧١، صفحة: ١٣٣ وما يليها.

-٢٦

وهي بالضبط النعمة السائدة لرد الفعل الاسلامي المتسامح الذي اعترف به الرحالة بالرغم من كل شيء. وهي نعمة كانت ايضا في هذه الفترة تتمشى مع ظروف تاريخية وسياسية وكما فهمها واثار اليها يكون من المناسب ذكر فقرة لا لفارو (من كتابه سابق الذكر) الصفحات (٣٤٦-٣٤٨) اقتطفها دون انقطاع: «يعتقد على وجه العموم في اسبانيا، وانا بدوري احاول تصحيح هذا الاعتقاد الخاطيء، ان مسلمين يكرهون الدين المسيحي. اليوم يحدث شيء كهذا، على الاقل بين مسلمي فلسطين.. فخلال رحلتي من القدس الى الاردن، قال لي بعن نيه ذلك الشاب النحيل (حسن) الذي تحدثت معه مرات عديدة، وكان خدام الفصل الاسباني السيد مانويل: «نحن خير منكم، لانكم تؤمنون فقط بالمسيح ومريم، ونحن نؤمن بالمسيح ومريم ومحمد، هذا ما تجهله العامة في بلدكم، كما انها تجهل ايضا التسامح الذي يعامل به المسيحيون اليوم.. وفي بلدنا حقيقة غير معرفة ايضا، وهي ان حكومة السلطان الظالم هي في الاساس متسامحة جدا، وبالفعل مع المسيحيين على الاقل مع مسيحيي فلسطين، والرهبان الكاثوليك من كل البلدان التي تتخذ على عاتقها رعاية الاماكن المقدسة، رأيتهم وسمعتهم، اثناء الحرب الروسية التركية يتضرعون الى الله ان ينصر الاتراك، لان الروس البروتستانت والارمن والارثوذكس اليونان هم الاعداء اللددون للكاثوليكية». و فقرات اخرى في نفس المعنى واللهجة ترد نسبيا وبصورة عادية في (ف.ف.) وفي (ب.ب.)

## - ترجمة -

# فكرة سيد الكون (هو)، وما قبل الاستقرار الاسرائيلي في فلسطين

هارماندكس ميكل كروكس

عمدت الحركة الصهيونية، من اجل تبرير رفضها الاعتراف بوجود دولة للشعب الفلسطيني، الى شرح داراماتيكي للوضع القائم، من خلال تفسير تعسفي، وعنصري ومحصور لوعد سيد الكون - ملي ايباهيم - . ولا يصمد تفسيرهم هذا امام اكثر الانتقادات التاريخية بدائية. وقبل عدة سنوات، وخلال عمل قمنا به، حللنا المعنى الديني لهوية سيد الكون (هو) مع يافي. وسوف نحاول الان الاشارة الى الصفة المتفتحة، المحددة وغير العنصرية (للوعد الابراهيمي).

## ١ - المنابع الرئيسية للتاريخ البدائي «للبلاذ» ما حول الاردن:-

ان المنابع الرئيسية لهذا التاريخ، ومع انها ليست الوحيدة، التي تساعد الى التعرف نسبيا للاستقرار الانساني في المنطقة ما بين البحر الابيض المتوسط الشرقي الى الصحراء السورية (بلاد الشام)، هي ثلاثة:- الاكتشافات الأثرية في المنطقة، وشهادة الشعوب المجاورة من كبار المحتلين واخيرا الكتاب المقدس العبراني.

ان الاكتشافات الأثرية في هذه المنطقة هي معروفة بما فيه الكفاية. وتبين ان قدم بعض المدن الأثرية فيها يصل الى ابعد من اربعة آلاف سنة. ومن اجل المزيد من التأكيد، فقد قاد عمليات البحث والتنقيب عن الاثار فنيون امريكيون وآخرون من اوروبا. وبعد تأسيس دولة اسرائيل استمرت بعض عمليات البحث هذه وبدأت عمليات أخرى يقودها فنيون من اسرائيل. وان الاختلاف بين اقامة المدن في هذه المنطقة بما يتعلق بالعرب وشعوب ما بين الرافدين والسوريين فإنه ليس حاسما في جميع الحقب التي سبقت تأسيس مملكة داوود - سليمان.

ومن جهة اخرى فإن النصوص التاريخية غير المكتوبة تؤكد نفس المعلومات الأثرية،  
ونذكر من بينها ما يلي:-

- أ ( قصة ما بين الرافدين للقصيدة البابلية (اينومو - اليش). حول الخلق.  
ب ( قصة سومرية - بابلية لزيوسدرا وجيلجاميش (جيلجاميش).  
ج ( راوية (الملوك العشرة السابقون للطوفان) المزعومين. والمعروفة منذ القدم برواية  
بيروسو والمبنية على وثائق من (ارشيف مسماري).  
د ( (معلومات) شمشي - اداد ١ (١٨٢٣ - ١٧٩١ ق.م.)  
هـ ( (ارشيف) ماري (١٧٣٠ - ١٦٩٠ ق.م.)  
و ( قانون حمورابي (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م.)  
ز ( (ارشيف) كبادوسيا (القرون ١٩ - ١٥ ق.م.)  
ح ( (ارشيف) الاخ (القرون ١٧ - ١٥ ق.م.)  
ط ( (ارشيف) هوربتا نوزي (القرن ١٥ ق.م.)  
ي ( (ارشيف) لاجاش (تيليو).  
ق ( (ارشيف) الاشوريون وما تضمنه من سرد لقصص الغزوات العسكرية لسالمانسار،  
تيجلات - فار - اسار، شاروكينو (سارجون) بسين اجيرييا (سيناكيريب)،  
اراح - ادون (كذلك اسور - ناسير - ابلو) و واسور - باني - بال (وكذلك  
اسور - باني ابنو)، (١٥٠٠ - ٦١٢ ق.م.)
- ١ - (اخبار) بابل الحديثة وتاريخ ما بين الرافدين حتى فتوحات بابل من قبل الملك  
كوراش (الى ٥٣٩ ق.م.)  
ل ( المكتبة (الكنعانية) حروف اوجاريت (راس سمرا) (القرون ١٦ ١٤ ق.م.).  
م ( (الارشيف الدبلوماسي) في تل العمارنة (القرن ١٥ ق.م.).  
ش ( النقوشات المصرية في ميربتا (١٢٣٠ ق.م.)  
ك ( نقوشات شيشونج (سيساك) في معبد الكرنك (العائلة الحاكمة الثانية  
والعشرون).  
لا ( النقوش المسماة (نقوش ماشا)، (ميسا، ملك مواب) (القرون ٩ ق.م.)  
س ( كتابات على ورق البردى وجدت في جزيرة ابو (اليفاتينا حاليا اسوان) القرون ٧  
- ٦ ق.م.)

والنصوص الرئيسية لكتابات التوراة (سفر توراة وي - نبيي - ان وي - كيتوبين)، تأتي من (بير - ريشيت) - (التناسل) واوي - ايليه (الهجرة)، و (ميشنية - ها - توراة سفر تثنية الاشتراع في التوراة). ومن اجل تقييم معناها، يجب التذكير، وباستثناء بعض التفاصيل، بانه مذهب عام اعتبار النص الحالي للتوراة، الذي ترجم الى الكتابة، فيما بعد من قبل (ماسوريتاس)، ما هو الا (التقنين والتشريع) الذي تم في عهدي (ايسدراش و نيمياس) (القرن الخامس ق.م.)، على اساس قاعدة مرت، على الأقل، بست مراحل متتالية وهي:-

أ - (الطبعة جي J)، (ياهوستا)، وسميت كذلك لانها اطلقت اسماً محدداً لسيد الكون وهو (يافي). وتنحدر هذه الطبعة من الوثائق التي (حفظت) تقاليد الاسرائيليين المهاجرين من مصر بعد (الهجرة)، والتي نسخت في القرن التاسع ق.م. في المملكة اليهودية (ابان حكم الملك سليمان).

ب - (الطبعة اي E)، (ايلوهيتستا)، وسميت كذلك لأنها لاطلاقها تسمية عبرية (الريانية)، (ايلوهيم)، مشتقا من الاسم الاصلي سيد الكون، الذي كان اسمه المحدد بالنسبة لهذه المجموعة (الساددي). ويحتوي على (تقاليد) الاسرائيليين الذين لم يهاجروا من مصر ويبدو انها نسخت في نهاية القرن التاسع في المملكة اليهودية.

ج - (الطبعة جي JE)، (ياهوستا - ايلوهيتستا). واعادة تأليفها تم في المملكة اليهودية، بعد دمار مملكة الشمال في نهاية القرن الثامن ق.م.

د - (الطبعة د D) (سفر تثنية التشريع في التوراة)، وهي تقاليد اسرائيلي مملكة الشمال، التي نقلها الليفستاس الى يودا بعد دمار السامرة من قبل (سارجون) (٧٢٢ - ٧٢١ ق.م.).

هـ - (الطبعة جيد JED)، (ياهوستا - ايلوهيتستا - تثنية التشريع)، التي عملت في عهد (خوسياس) (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م.). والجديد فيها انها قدمت النص البدائي لسفر تثنية التشريع في التوراة من (٤٤،٤ الى نهاية ٢٨).

و - (الطبعة بي 1P)، (بريستيركوديكس = قانون الرهبانية). وهي القوقعة الشرعية - التاريخية التي عملت من اجل ضمها للطبعة (جيد)، التي عملت في القرن الخامس ق.م.

## ٢ - المعنى الديني - الاجتماعي (هبة) كنعان :-

ان (هبة) (ارض كنعان)، التي وعد بها سيد الكون، قد شهد عليها بما فيه الكفاية. فهي بالنسبة للمؤمن ببيان نبوءه، ورسالة الأهمية، وهي بالاضافة لذلك ثقة تاريخية. اما بالنسبة لغير المؤمن فإن (الهبة) هي ثقة تاريخية فقط. وتمتد جذور هذه (الهبة) الى وعد (سيد الكون) الذي لأول مرة يبعث رسالته الى انسان سامي من اور كاشديم في كلدان السفلى، واسمه (ابرام) الذي آمن بكلمة الرب وهاجر غرباً معاكساً مجرى نهري الرافدين). وقد اعيد التأكيد على هذا الوعد الى (ابراهيم)، (ابرام هو الاسم من المخرج الصوتي المقرب)، والى ابنائه اسحق ويعقوب القاطنين مستقرهم في المدن - الدينية في سيكيم، (بيت ال، ومامبري) (التناسل، ١٢، ٧، ١٣، ١٤-١٦، ٢٨، ١٣-١٥، ٣٥، ١١-١٢، ١٥، ١٨-٢١، و ٤-٨). ويجب قراءة النصوص من خلال المعرفة الحديثة الحالية لتاريخ الشرق الأوسط.

وخلال سني الألف الثانية قبل الميلاد، استقرت بعض الجاليات على ضفتي نهر الأردن، استقر بعضها في مدن محددة وذات أهمية ونذكر هنا، على سبيل ضرب مثال واحد لذلك، قدم الآثار التي اكتشفت في اريحا، والتي لا نعرف الكثير عن تفاصيلها كما لا نعرف الكثير من التفاصيل حول هذه الجاليات المستقرة. الا انهم باتصال مع (الامورو العموريون)،. الا ان الرموز السومرية (مار - تو) لا تعني سوى (الغرب)، حتى نفس كلمة واسم (كنعان) لا تعني الشيء الكثير: (كي نا ان)، (المصري، كان نا، الخط المسماري في راس سمرا، كيناني، وارشيف تل الامرا، كي - نا اي - اي)

وقد عاشت في هذه المنطقة وكذلك في (الهلال الخصيب) مجموعتان من الرحالة هم: رجال القوافل الذين كانوا يمتلكون قطعانا كبيرة من الابل حيث استشهد بهم (الكتاب المقدس) منذ القرن السابع. والمجموعة الثانية (الصفري)، هم رعاة الأغنام، اكبر واوسع من المجموعة الأولى، على الرغم من ان صدهم التاريخي كان اضعف، وتجولوا دائما حول حدود الصحراء. وكان عبورهم بطيئا وسلميا بشكل عام الا انه كان عنيدا. وكانت تحركاتهم محدودة نظرا لان الاغنام لا تتحمل العطش والجوع مثل الابل، فهم يستغلون المراعي الواسعة المؤقتة في اطراف الصحراء بعد هطول الامطار ثم يتجهون نحو الانهار ومجاري الوديان وبالقرب من الينابيع والآبار في اوقات الجفاف. وهكذا فان اغلبية هذه المجموعة (الصفري) انتهت الى الاستقرار بسبب اتصالمهم المستمر بالشعوب المستقرة، وسكنوا او احتلوا بعض

المدن. وكان اختياريهم يميل الى الاراضي المرتفعة لسببين احدهما ديني والثاني سياسي: حيث ان الهتهم في السابق كانت من النجوم يقيمون لها الشعائر الدينية من اماكن مرتفعة. وقد سجل (الكتاب المقدس) احد اسماء الهتهم وهو (اليليون - اي السيد العلي - المرتفع). اما بالنسبة للسبب السياسي فيعود الى ان الاماكن المرتفعة ليست مرغوبة من قبل الشعوب المستقرة سابقا كما انها اسهل للدفاع عنها في حالته الهجوم عليها من قبل الجيوش التي كانت تمتلك ذلك الحين (العربات المدرعة).

واشار هؤلاء الرحالة الى الانسان (ابراهيم - ابراهيم)، الذي لا يمكننا ان نفهم من هذا الاسم «انسان شيئا محددًا بل نفهم منه اسم لجماعة سامية وشرقية والتي شرعت في الهجرة الطويلة من (اور - كاشديم) الى ضفاف نهر الأردن، بمحاذاة قوس الهلال الخصيب. وان هذا الحج قد استمر عبر اجيال معدودة وكافية لاحداث التغيير والتعديل على اصول الكلمات (ابراهيم الى ابرام وسارة الى ساراي)، وتغييرات ثقافية شملت تحول ديني نجمي قمري الى فكرة اكثر تحديدا ورفعة لسيد الكون. وفي (اور) كانت (الاهية) ل (سين، القمر. وان للاسماء الابراهيمية (تيراج) و (لابان) اشتقاقات قمرية. وكذلك في (جاران) وهي مرحلة مهمة من هذا الحج الابراهيمية كان يعبد الآله القمري (سين). ونعتقد أن شيئا مثل ذلك حدث مع اسحق ويعقوب.

و (الهبه) التي وعدوا بها كانت امتلاك حقل خاص بهم اي (ادماه). فهم يمتلكون الكثير من الارض ولكن ليس حقلاً بل صحراء قاحلة. وان (الجنة المفقودة) (غان) تعني في السومرية (الجنة المروية). واحة واسعة. اذ انها (عدن)، التي تلفظ في لسومرية (ايدين) وفي الاشورية - البابلية (ايدينو) وتعني (السهل الفسيح). وعندما ينتقلون حول (ارض الميعاد) ارض كنعان، كانت مواشيم ترعى الصحارى الواسعة في الاوقات الخصب، ولكن الرغبة تميل عندهم الى امتلاك ارض لا ينفذ مها المرعى ولا ينضب ماؤها. أما حاجتهم من الحبوب فقد كانت تعطى من قبل مصر حيث اقيمت لهذا السبب علاقات ثابتة بين الرحل والمستقرين تحافظ عليها تلك الشعوب ذات السيادة السياسية على المنطقة التي تعاقبت في السيطرة عليها مثل: (السومريين والآشوريين والحوريين والبابليين والمصريين والحثيين الخ)

وكانت هذه الشعوب ذات الحضارة المدنية عندما تضعف وتشتت روابط امبراطوريتها، تسبب الضعف ايضا للاستقرار المدني الكنعاني. وتجد عند ذلك القبائل الرحل سهولة اكبر في الحل محل الكنعانيين او الاستقرار في اراضيهم.

### ٣ - التنظيم (المتفتح) (للميعاد):-

ان نفس التنظيم لقصص التوراة لا تسمح للاعتقاد بوجود خط مغلق واستثنائي وعنصري ومتطرف: ابراهيم، اسحق، ويعقوب، والاثنتي عشرة قبيلة، وموسى و(الشعب) الاسرائيلي. كما انه لا يعتقد اليوم بهجرة (الاثنتي عشرة قبيلة) الى مصر بكاملها. بل بالعكس من ذلك وبالرغم من جميع التحريفات التي حدثت فيما بعد لاحتكار (هبة) سيد الكون في ابراهيم، فأنها تأتي من جميع الشعوب الرحل التي استقرت بين اراضي كنعان او حلت محلها. وليس مقبولاً بأي حال من الاحوال من ان الاسرائيليين في المستقبل سيهاجرون الى مصر. بل على العكس من ذلك، حيث برهنت بحوث (البرتشت الت، ومارتين بوث وبعض الباحثين الآخرين) على ان عملية العبور الاسرائيلية كانت بطيئة للغاية وان مجموعة هارون وموسى (خرجت) وبدأ يوسف بالادخال في وادي الأردن. ومن المحتمل ان تكون هذه هي الحلقة الأخيرة بين القبائل - الاسرائيلية التي كونت فيما بعد الشعب الاسرائيلي حيث من المحتمل ان يكون عبارة عن النتيجة النهائية لاتحاد بين القبائل. وتكمن اهمية المجموعة المهاجرة (الهجرة) في تقييماها البالغ في (اتصالها الرباني في سيناء): العوسج المشتعل) و(لوحة القانون) (الوصايا العشر).

ان قدم الطبعة اليهودية (القيمة المعوية لتنقية لاهوتية سيد الكون (الله لا اله الا هو)، جعلت هذه المجموعة (توم) لمصلحتها ومصلحة سيادتها في (الاتحاد القبلي)، نبوءة الميعاد القديم البطرياركي.

وعلى الرغم من قوة (التقاليد) في المجموعات الاسرائيلية الاولى والاسرائيلية (غير المهاجرة - الطبعة اي) وتقاليد الشمال (الطبعة دي)، والتعديلات اليهودية (الطبعة بي)، جوسواس (الطبعة بيد) وما بعد البابلية (الطبعة بيدب)، الا انها قوت من الورقة التي لعبتها المجموعة (المهاجرة وتاميمها) (للميعاد) لمصلحة المملكة (الداودية - السليمانية) في البداية وفيما بعد لمصلحة اليهود.

واعترفت شعوب العموريين والكنعانيين والفنيقيين: الذين سكنوا الجزء الجنوبي من شواطئ البحر المتوسط حول مدن عسقلان واشدود وغزة، اعتبروا اعداء ومنافسين وغير شرعيين في (ارض الميعاد)، ولكن لا المجموعة (المهاجرة) من مصر ولا (اتحاد القبائل) الاسرائيلية ولا حتى ابان امبراطورية (داوود) استطاعت احتلاك جميع (ارض الميعاد) (من الفرات الى النيل).



وخلال (الفتوحات الاولى) (القرن الثاني عشر قبل الميلاد احتل المهاجرون والاتحاد الاسرائيلي) فقط المناطق الجبلية، بالحصار والتدمير (بيت آل، هاسور) او كمكان (اريجا) حيث ان الآثار الموجودة لا تبين تدميرا كبيرا في حصونها لأنها كانت تالفة)، او ببسط السيادة عن طريق اتفاقيات او تحالف او ما شابه ذلك (سيكيم ، والقدس، حيث تم السيطرة عليها ابان حكم الملك داود). وشهادة القضاة (من ١٩٠١) تثبت تماما عدم السيطرة على السهول التي تدافع عنها (العربيات المدرعة) الكنعانية، والحروب غير المظفرة دائما لشمشوم وساول وداود ضد الفنيقيين في المدن الساحلية الجنوبية. وانه لمن الطبيعي من وجهة النظر التاريخية والافكار التي سادت ما بين القرن العاشر الى القرن الخامس قبل الميلاد بان تتحول (الهبة الآهية) الى معناها المحدود وحجمها الاجتماعي لاعطاء صفة شرعية لسيادة (داود وسليمان) والرغبة لخدمة ذلك. ولكن حتى النص الحالي للتوراة يلمح الى الاصل (الرحل) (المتنقل) البدائي (للهبة).

وهكذا تقول التوراة (٢٨، ١٠، ٢٠)، ان سيد الكون المعروف ب(هو) (يافي) بدا وانه (اله للمدينة) في المعبد المحلي. ويعد (بانه سيكون معكم وبيارككم بعد (التيه) اينما كنتم وساعيدكم الى هذه الارض، ولن اترككم حتى يتحقق ذلك). وتعلو كلمتي (١٥، ٢٨).

وكما شرحت في محاضرة سابقة قمت بها، فان الذي حدث هو ان سيد الكون (هو) (والذي ظهر السادي، الاليون، واروي) قد ابرز في الطبعة (ياهوستا) بان الرب (لا اله الا هو) (يافي). ولحسن الحظ، لم يحتفظ بجميع التقاليد القديمة فحسب وفي جميع الطبقات والوثائق (التي بررت فيما بعد السيطرة والسيادة الواسعتين لمملكة داود وسليمان والآمال فيما بعد سليمان)، بل ان بعض التعابير (في ذلك الحين يسكن الكنعانيون هذه الارض) تكشف جميع التحريفات.

وحسب قول البروفيسور البرت بوري فان جميع (الشهادات) حول (الميعاد- الهبة)، محفوظة في جميع الطبقات بما في ذلك الطبعة النهائية (بيدب).

وفي السطور التالية لهذه الفقرة سجلت المراجع التي تثبت هذا القول.

وان اعادة التفسيرات في عهد المملكة كان من (الاحترام) بمكان يمكن استخلاص

العناصر التالية منه:-

١ - ان (الهبة) البدائية تشمل جميع الجالية الابراهيمية السابقة للاسرائيليين، والسابقة

ايضاً لموسى واسماء الرب (هو ويافي).

- ٢ - ان الهبة كانت موجهة الى جماعة قبلية رحل رعاة اغنام.
- ٣ - تشكل الضمان للاحتمال الحقيقي للحصول على مسكن مستقر محدود.
- ٤ - تفتح باب الاحتمال امام اتحاد فدرالي بين القبائل الاسرائيلية وكذلك يوسف وابناؤه والذين حرم عليهم الزواج من نساء كنعانيات.
- ٥ - تبرر احتلام المدن والاراضي.

والآن، وبما ان الاستقرار لم يكن دائماً سليماً وان التناشق الاولي قد انقضى، فان الحاجة دعت الى (تفسير جديد) تشرح الوضع الحربي وتبرر سيطرة (الجماعة المهاجرة). وان السيطرة الداودية قد تمت بواسطة تحالفات والتزامات، وكذلك على حساب معارك ضارية وحرب ضروس. وسيطرت مملكة داود على ضفتي نهر الاردن وجزء من سيناء وجنوب فينيقية وجزء من سوريا. وهكذا فان النص المشهور في (التناسل ١٥، ١٨-٢١) لم يكن نبؤه بل انه شرح تاريخي وضع فيما بعد السيطرة المذكورة. ومن هنا تأتي الحدود الواسعة غير المحددة تماماً في القول (من النيل الى الفرات). ولو كانت تحديد جغرافي فانها ستستثني او تشمل كلية جميع شبه جزيرة سيناء من النيل الى البحر الاحمر ولشملت جميع صحراء سوريا حتى نهر الفرات وجميع شواطئ فينيقيه. ولكنها ضمت من سيناء حتى العريش (الارض الكافية لحماية الاراضي الجنوبية)، وسهول سوريا. والحقيقة ان (الميعاد) فيما لو شمل جميع هذه الاراضي من النيل الى الفرات فان الجماعة الرحل التي وجهت الهبة اليهم سيتعرون بحجية امل ولم يكن بمقدورهم فهمها، اذا ان ثلثي هذه الارض صحراء قاحلة وكانوا يعيشون بها وهم بحاجة الى (اداماه) اي الارض الخصبة التي تنتج اللبن والعسل، وهذان المنتجان لا يوجدان لا في الصحراء السورية ولا في النقب. وبالنسبة لهم فان الذي يملك الارض الخصبة هو الذي يستطيع التكاثر في النسل وهدفهم هو الارض الخصبة والعيش بسلام مع الانسان ومع الرب.

ولو كان (ياهوستا) مؤرخاً، فان النص الذي تملكه اليوم لن يتعد كونه سرداً تاريخياً للانتصارات ولن يختلف عن سرد قصص انتصارات رمسيس وغيرها. ولكن المؤلف (الطبعة يياهوستا) وبالرغم من انه عاش ابان ملك سليمان الا انه كان رجلاً روحياً متديناً اعطى اهمية اولية الى التراث والتقاليد القديمة وحرص على تفسير الانتصارات بانها تحقيق لهبة الرب والميعاد. حتى انه في التاريخ اهتم اكثر في عدم المقدرة على الحصول على الميعاد منه بعد الحصول عليها. والتحذير من انه من الممكن خسرانها في حالة اضطهاد الشعوب الاخرى واضطهاد الفقراء.

# سكة فلسطين منذ قيام العباسين حتى استقلال الطولونيين

( ١٣٢ - ٥٢٦٤ هـ ٧٤٩ - ٨٧٧ م )

السيد يوسف سعيد النتشة

تبعث فلسطين للخلافة العباسية زهاء القرنين وربع القرن تقريبا (١٣٢-٥٣٥٨ هـ / ٧٤٩-٩٦٨م)، حيث شهدت سنة (١٣٢ هـ - ٧٤٩ م) سقوط الدولة الاموية، وقيام الدولة العباسية، وعلى اثر ذلك خضعت فلسطين خضوعا تاما للخلافة العباسية<sup>(٢)</sup>، الا ان فلسطين تحررت من هذه التبعية المطلقة، بعد نجاح احمد بن طولون في سنة (٥٢٦٤ هـ / ٨٧٧م) في ضم فلسطين والشام الى مصر، وتأسيس دولة طولونية تحدى فيها سلطة الخلافة العباسية، واستقل عنها استقلالاً مطلقاً في الواقع واسمياً في الظاهر<sup>(٣)</sup>.

الا ان فلسطين سرعان ما عادت الى حظيرة الخلافة العباسية وتبعها تبعية مطلقة فعلية وليست اسمية. وكان ذلك على أثر سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب، الذي سار بناء على رغبة الخليفة العباسي المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠٢-٩٠٨م) من أجل استرداد ما سلبه الطولونيون من حقوق للخلافة والسلطنة العباسية، حيث تمكن محمد بن سليمان في اواخر سنة (٢٩١هـ/٩٠٤م) من دخول الرملة وتخليص فلسطين من أيدي الطولونيين، وفي المحرم من سنة (٢٩٢هـ/٩٠٥م) زحف محمد بن سليمان الى مصر لاستردادها، ونجح في ذلك في ربيع الاول من نفس السنة<sup>(٤)</sup>.

ورغم عودة فلسطين الى التبعية العباسية، الا أن البلاد لم تنعم بالأمن والاستقرار، بل استمرت الاضطرابات والقتال فيها<sup>(٥)</sup> بسبب المنافسة بين الولاة وعمال الخراج وبسبب كثرة تولية هؤلاء وعزلهم، عوضا من ضعف الخلفاء العباسيين وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم<sup>(٦)</sup>، وقد استمر الحال كذلك الى أن تمكن محمد بن طفح الاخشيدي من أن يرسي دعائم دولة اخشيدي على غرار الدولة الطولونية، حكمت مصر وفلسطين لمدة تقرب من خمسة وثلاثين سنة (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م)، تمتعت هذه الدولة باستقلال فعلي وملموس عن الخلافة العباسية.

على هذا فان فلسطين خلال حكمها من قبل العباسيين تأرجحت ما بين التبعية المطلقة والخضوع التام للخلافة العباسية، وما بين التمتع باستقلال واقعي ملموس مع المحافظة على التبعية الاسمية الظاهرية لهذه الخلافة.

والحق أن ما يعنينا من ذلك في هذا المقام، هو التعرف على مدى تأثير وانعكاس ذلك على امور السكة بفلسطين العباسية، باعتبار السكة شارة من شارات الملك والخلافة. تثبت أو تنفي تبعية الولاة والبلاد للحكومة المركزية.

وتسهيلا لدراسة سكة فلسطين في العصر العباسي، فانه يمكن تقسيمها الى أربع فترات زمنية هي كالتالي:

١ - سكة فلسطين منذ قيام العباسيين حتى (١٣٢-٢٦٤هـ/٧٤٩-٧٤٧م)  
استقلال الطولونيين

٢ - سكة فلسطين الطولونية<sup>(٧)</sup> (٢٦٤-٢٩٢هـ/٨٧٧-٩٠٥م)

٣ - سكة فلسطين العباسية منذ سقوط (٢٩٢-٣٢٣هـ/٩٠٥-٩٣٤م)

## الطولونيين حتى استقلال الاخشيديين

٤ - سكة فلسطين الاخشيدية<sup>(٨)</sup> (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٤-٩٦٨م)

وفيما يلي من سطور سنبحث حال السكة بفلسطين في الفترة الاولى، أي منذ قيام العباسيين حتى استقلال الطولونيين، وذلك بخصوص فئات المعدن الثلاثة: الذهب، والفضة والنحاس.

### الدنانير الذهبية:

لا بأس أن تكون نقطة البداية في هذا الموضوع من السكة الذهبية، أي الدنانير، فقد ضرب العباسيين الدنانير الذهبية - فور استيلائهم على زمام الامور - في الاماكن التي كانت تضرب فيها الدنانير الاموية، وذلك مثل دمشق ومصر، هذا على الاقل في البداية ومن ثم توزع هذا الضرب على اماكن اخرى<sup>(٩)</sup> وهذه الدنانير أيا كان مكان ضربها، فانها ضربت على طراز الدنانير الاموية، حيث استمر المظهر العام للدنانير الاموي بنفس العبارات ممثلاً على الدينار العباسي، فيما عدا كتابات مركز ظهر الدينار، حيث استبدلت سورة الاخلاص بالرسالة المحمدية<sup>(١٠)</sup>.

ان التشابه الكبير بين هذه الدنانير، جعل أمر نسبتها الى دور ضربها ومحاولة التفريق فيما بينها من الصعوبة بمكان، خاصة ون مدن الضرب لم تسجل على الدنانير العباسية الا في الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م) حيث بدأت تظهر مدن الضرب على قسم من الدنانير التي ضربت في زمنه<sup>(١١)</sup>. فقد ذكرت مدينة السلام سنة ١٩٨هـ-٨١٣م، والعراق ومصر ذكرت على الدنانير المضروبة في سنة (٩١٩هـ-٨١٤م)، والمضروبة في (٢٠٢هـ-٨١٧م)<sup>(١٢)</sup> ويظهر أن ضرب الدنانير توزع على عدة مدن، بعد أن كان مقصوراً على العاصمة، وذلك فيما بعد سنة (٢١٢هـ-٨٢٧م)<sup>(١٣)</sup>.

وحيث أن دور الضرب لم تسجل على الدنانير العباسية الا في سنة ١٩٨هـ، وبما أن هذه الدنانير متشابهة مع بعضها البعض، فالذي ينبغي أن نفكر فيه، هو هل يمكن الاستناد على معلومات اخرى من تلك التي وردت على الدنانير، غير أسماء دور الضرب؟؟ من أجل أن نحدد اذا ما ضربت بفلسطين دنانير على الطراز العباسي فيما بين (١٣٢هـ-١٩٨هـ / ٧٤٩-٨١٤م).

ان الاجابة على ذلك ليست يسيرة، ولأن الوصول الى نتائج مطمئنة في هذا المجال أمر مستبعد على أكبر الظن، بيد أن المتتبع لتطور كتابات الدنانير العباسية قد يجد بعض المساعدة، فقد حدث تطور هام منذ عهد الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦-٨٠٩ م) لنظام السكة الذهبية، تمثل هذا التطور بأمر الرشيد بأن يكتب اسمه واسم ابنه الامين على السكة<sup>(١٤)</sup> كما منح هذه الامتيازات لوزرائه، وللولاة وعمال الخراج أيضا<sup>(١٥)</sup>، بل أن الرشيد ذهب الى أبعد من ذلك بترفعة عن مباشرة العيار بنفسه، وقد كان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار سكتهم بأنفسهم<sup>(١٦)</sup>.

على أن المهم في هذا التطور هو مدى انعكاسه أو تأثيره على أحوال السكة في فلسطين، وبمعنى آخر، هل ترك هذا التطور صدها على دنانير فلسطين العباسية، بأن سجل على بعض الدنانير أسماء عمال أو ولاة من الذين تولوا الحكم والادارة بفلسطين وذلك من (١٧٠-١٩٩ هـ) أي منذ بداية ورود أسماء العمال على السكة وحتى ظهور مدن الضرب.

الواقع أن المصادر التاريخية ذكرت أسماء بعض من تولوا الحكم بفلسطين في العصر العباسي وذلك مثل: روح بن حاتم بن قبيصة<sup>(١٧)</sup>، وهرثمة بن أعين<sup>(١٨)</sup>، وطاهر بن الحسين<sup>(١٩)</sup>. الا أنه يبدو أننا نفتقر الى نماذج من دنانير ذهبية هؤلاء الولاة، حتى نتبين اذا ما كان لخطوة الرشيد السابقة أي أثر على سكة فلسطين الذهبية، ويظهر أن فلسطين لم تضرب الدنانير الذهبية فيما بين (١٣٢-١٩٩ هـ / ٧٤٩-٨١٤ م).

وقد يؤيد هذا الرأي ويدعمه أن فلسطين لم تضرب سكة ذهبية في العصر العباسي في الفترة الواقعة بين ١٣٢-٢٦٤ هـ / ٧٤٩-٨٧٧ م، حتى بعد ظهور دور الضرب على الدنانير ، فالحق انه لا يعرف أية اشارة ثابتة لأي دينار ضرب في فلسطين من (١٩٩-٢٦٤ هـ)، أي منذ بداية تسجيل دور الضرب على الدنانير وحتى استقلال احمد بن طولون بمصر وفلسطين. وعلى هذا فان فلسطين لم يضرب فيها للخلفاء ولا لغيرهم في العصر العباسي، وعلى وجه التحديد من (١٣٢-٢٦٤ هـ / ٧٤٩-٨٧٧ م)، أية دنانير ذهبية، وبذلك فان سكتها كانت سكة الخلافة العباسية.

وينبغي ان نوضح امرين يتعلقان بتطور السكة العباسية الذهبية من تلك الفترة الامر الاول يتعلق بنصوص العبارات الدينية المسجلة على السكة الذهبية، حيث انه في عصر المأمون اضيفت البسملة كاملة الى عبارة هامش الضرب، حيث اصبح نصها « بسم الله

الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينير سنة...»<sup>(٢٠)</sup> واضيف ايضا هامش ثان على كتابات وجه الدينار، هذا الهامش كان اقتباسا قرآنيا<sup>(٢١)</sup> نصه «لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»<sup>(٢٢)</sup> وقد سجل الى الخارج من الهامش الاول الذي ينص على مكان الضرب وتاريخه واكملت الآية القرآنية في هامش ظهر الدينار بعد ان كانت تسجل على وجه الدينار<sup>(٢٣)</sup>، حيث أصبحت «محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»<sup>(٢٤)</sup>

والامر الثاني يتعلق بتسجيل اسماء الولاة وعمال الخراج على الدنانير الذهبية العباسية، فقد ثبت القول بأن الرشيد سمح بذلك، بيد انه ينبغي ان نذكر ان الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م) وضع حدا لظهور مثل هذه الاسماء، حيث اصيحت الدنانير بعد سنة (٢١٩هـ / ٨٣٤م) خلوا من اسماء الولاة او عمال الخراج، واقتصر الامر على ظهور اسم الخليفة، وقد يظهر اسم ولي العهد<sup>(٢٥)</sup>.

## ٢ - الدراهم الفضية:

على عكس الدنانير الذهبية العباسية التي لم تظهر مدن ضربها عليها الا في عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣) فان الدراهم الفضية العباسية سجلت عليها مدن ضربها منذ بداية اصدارها، مثلها في ذلك مثل الدراهم الاموية بعد تعريبها الكامل، ومع ذلك فإني - على حد علمي - لا أعرف أي اشارة مؤكدة لأي درهم عباسي ضرب في فلسطين في الفترة الواقعة بين (١٣٢-٢٦٤هـ / ٤٧٩-٨٧٧م).

والجدير بالذكر ان اول اصدار مؤكد للدراهم العباسية من ضرب فلسطين ظهر سنة ٢٩٣هـ<sup>(٢٦)</sup> فهي عهد الخليفة المكتفي بالله، وذلك بعد سقوط الدولة الطولونية واسترداد فلسطين وعودتها الى حظيرة الخلافة العباسية. هذا علما بأن السيد نصار (Nassar نسب درهمين الى ضرب فلسطين، الاول سنة ٢٦٤هـ، والثاني سنة ٢٧٧هـ<sup>(٢٧)</sup>). والدرهم الاول من مجموعة دائرة الاثار بعمان برقم تسجيل (A.A.36)، وقد حاولت فحص هذا الدرهم، الا انني ام اعثر عليه، وذلك نظرا لان دائرة الاثار قامت منذ ربع القرن بتحديد ارقام قطع العملة لديها، مما جعل عملية البحث عن قطعة عملة ذات رقم قديم ملغي امر غير ممكن

لكن مهما كان الامر فإني اجد صعوبة في الاطمئنان الى صحة قراءة السيد نصار لهذا الدرهم، ولما كان الدرهم الثاني من مجموعة متحف الاثار الفلسطيني بالقدس (روكفلر) فقد

تيسر لي فحصه، حيث وجدته في حالة سيئة جداً من الحفظ، وانه يصعب الاعتماد عليه ويبدو لي ان السي نصار حمله اكثر مما يحتمل.

هذا ويمكن رد أسباب تأخر ضرب الدراهم في فلسطين العباسية وندرتها الى أن فلسطين حين الفتح العربي لها كانت تتبع في نظامها النقدي قاعدة الذهب<sup>(٢٨)</sup> حيث بقيت واقعة تحت تأثير قاعدة الذهب لمدة طويلة، استمرت حتى فترة متأخرة جداً من القرن الثالث الهجري، شأنها في ذلك شأن مصر<sup>(٢٩)</sup>.

وقد يؤيد هذا التفسير افتقارنا الى النماذج والدلائل التي تثبت عكس ذلك، والى أن خراج فلسطين قدر بالدنانير باستمرار<sup>(٣٠)</sup>، هذا والمعروف أن فلسطين لم يضرب فيها دراهم في العصر الاموي، لكن هناك اشارة واحدة لدرهم من ضرب فلسطين سنة ١٣٢هـ<sup>(٣١)</sup>، هذا الدرهم يكتنفه الغموض والشك<sup>(٣٢)</sup> وغلب الظن أن نسبته الى فلسطين خطأً

### ٣ - ألسكة النحاسية:

تعتبر فلوس فلسطين العباسية قليلة، ولو عقدت مقارنة بين هذه الفلوس، والفلوس الاموية المضروبة بفلسطين، لوجد أن الفلوس الاخيرة تفوق الفلوس العباسية من عدة نواح مثل العدد، وتنوع الطراز، وتعدد دور الضرب، وغيرها من الامور، ولأمكن الوصول أيضاً باطمئنان الى أن فلوس فلسطين العباسية يمكن اعتبارها نادرة اذا ما قيست بفلوس فلسطين الاموية، ولعل انتقال عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد كان له أثراً سلبياً على انتاج وضرب السكة النحاسية بفلسطين في الفترة العباسية.

وعلى عكس كل من الدنانير الذهبية والدراهم الفضية، لم تضرب الفلوس العباسية في فلسطين الا في الفترة الاولى (١٣٢-٢٦٤ هـ / ٧٤٩-٨٧٧ م) وذلك بشكل ثابت ومؤكد ولا يعرف - حسب علمي - فلوساً ضربت بفلسطين في العصر العباسي بعد سنة ٢١٨ هـ<sup>(٣٣)</sup>، هذا ويمكن حصر الفترة الزمنية التي صدرت فيها هذه الفلوس العباسية الفلسطينية بفترة حكم الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ / ٨١٣-٨٣٣ م) مع ملاحظة استثناء فلس وحيد<sup>(٣٤)</sup> وصلنا من عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦-٨٠٨ م) مسجلاً عليه اسم جعفر.

ويمكن تصنيف الفلوس العباسية المضروبة بفلسطين الى قسمين:



## أولا فلوس باسم الولاية مع ذكر دار الضرب دونما تاريخ:

تفتح سلسلة هذه الفلوس، بفسل نادر، بل وحيد، نشره استاذنا الدكتور عبد الرحمن فهمي<sup>(٣٥)</sup> وهو من مجموعة متحف الفن الاسلامي بالقاهرة، ويعود هذا الفلوس لعهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦-٨٠٨ م) وقد سجل عليه في أسفل كتابات مركز الظاهر اسم «جعفر بن يحيى اليرمكي»<sup>(٣٦)</sup>. وهذا الفلوس من ضرب الرملة، ويزن ٣٢، ٢ غرام، وقطره ١٨ ملمتر.

ويلى هذا فلس بضعة فلوس وصلتنا باسم أحد ولاية فلسطين في عهد المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ / ٨١٣-٨٣٣ م) في سنة (٢٠٥ هـ - ٨٢٠ م) وهو سعيد بن السرح<sup>(٣٧)</sup> وقد وصلنا أربعة فلوس باسم سعيد بن السرح<sup>(٣٨)</sup>. وجميع هذه الفلوس من ضرب الرملة وتتشابه هذه الفلوس مع بعضها البعض في ترتيب ومضمون كتاباتهم<sup>(٣٩)</sup>.

ويتميز هذا النوع من الفلوس بأنه خفيف الوزن، ضيق القطر، فقطر أحد الفلوس بلغ ١٦ ملمتر، والوزن لم يزد على ٧٠، ١ غرام.

ولم تشر المراجع الى فلوس اخرى من هذا النوع، الا أنه توجد في احدى المجموعات الخاصة<sup>(٤٠)</sup> بعض الفلوس العباسية من ضرب فلسطين باسم سعيد الحرب.

## ثانيا فلوس بدار ضرب وتاريخ دون ذكر أسماء الولاية:

تبدأ سلسلة هذه الفلوس من ضرب مدينة طبرية مؤرخ بسنة ٢٠٠ هـ<sup>(٤١)</sup> يعقبه فلس آخر من ضرب الرملة مؤرخ بسنة ٢٠٥ هـ<sup>(٤٢)</sup>، وهذان الفلوسان لم يتوفر وصف لهما لتبين خصائصهما وكتابتهما، ويلى ذلك ثلاثة فلوس مؤرخة في عام ٢١٠ هـ، الاول من ضرب مدينة عكا<sup>(٤٣)</sup> والاثنان الاخران من الرملة<sup>(٤٤)</sup>.

وفي ضوء ما وصلنا من فلوس تعتبر سنة ٢١٧ هـ أنشط واغزر السنوات التي ضرب فيها فلوس عباسية في فلسطين، ولم يقتصر الانتاج والضرب على الرملة، بل تعداه الى غزة والقدس وعكا بيد أن الضرب تركز في الرملة في الدرجة الاولى، ومن ثم غزة في الدرجة الثانية، في حين أنه لم يعرف - حتى الان - الا نموذجا واحدا لكل من القدس<sup>(٤٥)</sup> وعكا<sup>(٤٦)</sup>.

وما عرف لمدينة غزة من فلوس بلغ ستة فلوس تقريبا<sup>(٤٧)</sup>. في حين ان مجموع ما وصلنا من الرملة من هذه السنة بلغ ثلاثة عشر فلوسا<sup>(٤٨)</sup>. وتنتهي سلسلة الفلوس العباسية المضروبة

بفلسطين في عام ٢١٨هـ. حيث عرف فقط للرملة انتاج من هذا العام تمثل في خمسة فلوس<sup>(٤٩)</sup>.

وخصائص وكتابات هذه الفلوس العباسية المضروبة بفلسطين متشابهة، وان وجد بعض الاختلاف، فهو طفيف ولا يمس الامور الجوهرية المتعلقة بمضمون الكتابة، وما سجل على هذه الفلوس العباسية لم يختلف كثيرا عما سجل على فلوس فلسطين الاموية، والطابع العام لكتابات وترتيب هذه الفلوس يمكن التعرف عليه من الكتالوج المرفق.

بيد أنه يلاحظ ورود بعض التباين البسيط والذي يتمثل في تسجيل هلالين صغيرين على شكل «حرف الباء» العربي، اسفل كتابات مركز الوجه (رقم ١، ٢، ٣) او بوجود خط زخرفي بسيط التشكيل<sup>(٥٠)</sup>، أو نجد بعض الدوائر الصغيرة<sup>(٥١)</sup>، والغالب على هذه الفلوس ترك هذه المنطقة فراغ (رقم ٢). هذا عن اختلافات وجه الفلوس، اما ظهر الفلوس فالتباين فيه أقل، ويكاد ينحصر في نموذج واحد<sup>(٥٢)</sup> سجل فيه لفظ «بخ» فوق كتابات مركز الفلوس، بدلا من أسفلها كما هو مشاهد في بقية النماذج.

ويشذ عن هذا الوصف، فلسا مدينة عكا، حيث نقل هامش الظهر، وسجل في هامش الوجه، ووضع بدل الهامش المنقول كتابة هي اقتباس قرآني نصه «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» وبدلا من لفظ «بخ» أسفل كتابات مركز الوجه، وضع هلال يعلوه نقطة<sup>(٥٣)</sup>.

#### الخلاصة:-

هذا ويمكن اجمال حال سكة فلسطين العباسية في الفترة الاولى (١٣٢-٢٦٤هـ / ٧٤٩-٨٧٧) بالنقاط التالية:-

★ كانت السكة الذهبية والفضية المتداولة في فلسطين العباسية سكة الخلافة العباسية المضروبة في الانحاء والمدن المختلفة.

★ لا نعلم اذا ما تمتع احد الولاة في فلسطين بحق ضرب سكة ذهبية وسجل اسمه عليها وذلك منذ عهد هارون الرشيد، الذي منح مثل هذا الحق للولاة والعمال.

★ لم تظهر فلسطين كمكان للضرب على الدنانير في عهد المأمون حين ابتداء

ظهور دور الضرب على الدنانير، واستمر هذا الامر حتى استقلال الطولونيين، وول  
لفلسطين على السكة العباسية الذهبية كان سنة ٢٩١ هـ، حين عودة فلسطين الى  
تبعية الخلافة العباسية ثانية.

لم تضرب فلسطين أي دراهم عباسية في هذه الفترة، وول ذكر لفلسطين على  
الدراهم العباسية كان سنة ٢٩٣ هـ.

ضربت الفلوس العباسية في فلسطين في هذه الفترة فقط، حيث انحصر ضربها  
في فترة عهد المأمون (١٩٨٠-٢١٨ هـ / ٨١٣-٨٣٣ م)، هذا فيما عدا الفلوس  
المضروب في عهد هارون الرشيد، هذا ولا أعرف أي فلوس عباسية ضربت  
بفلسطين بعد سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م.

ضرب الفلوس العباسية تركز في الرملة مع مشاركة لطبرية وغزة وعكا.

## كتالوج:

فلوس عباسية بمدن ضرب وتاريخ الرملة ٥٢١٠ هـ

| سلسل المجموعة | النوع القطر الوزن | وجه          | ظهر   |
|---------------|-------------------|--------------|---|
| ١             | القاهرة<br>٢٤٨٧٣  | نحاس ٢ر١٥١٨٥ | مركز:<br>مركز:<br>(داخل دائرتين)<br>الخارجية منها خط<br>محمد رسول الله<br>واحد والداخلية من<br>خطوط متكسرة)<br>(لا اله الا الله)<br>بخ<br>وحد لا شريك له<br>هامش: ضرب هذا الفلوس<br>بالرملة سنة عشر (ومئتين)<br>لوحة) (                                 |
| ٢             | الفرنسيسكان       | نحاس ٢٠ ٣ر٥٨ | الرملة ٥٢١٧ هـ<br>مركز:<br>مركز:<br>(داخل دائرتين)<br>الخارجية منها خط<br>محمد رسول الله<br>واحد والداخلية من<br>خطوط متكسرة)<br>لا اله الا الله<br>بخ<br>وحده لا شريك له<br>هامش: (داخل دائرة)<br>ضرب هذا الفلوس بالرملة<br>سنة سبع عشرة ومئتين<br>( ) |

فلوس عباسية بمدن ضرب وتاريخ الرملة ٥٢١٠ هـ

| سلسل المجموعة | النوع القطر الوزن | وجه         | ظهر   |
|---------------|-------------------|-------------|---|
| ٣ الاقصى      | نحاس ١٩ ٢ر٨٥      | الرملة ٥٢١٧ | مركز:<br>مثل رقم (١)<br>هامش: (داخل دائرة)<br>(بسم الله) ضرب هذا<br>الفلس بالرملة سنة سبع<br>عشر ومئتين لوحة ( )        |
| ٤ الاقصى      | نحاس ٢٠ ٢ر٣٥      | الرملة ٥٢١٧ | مركز:<br>مثل رقم (٢)<br>محمد رسول الله<br>(بسخ) هامش:<br>ضرب هذا الفلوس بالرملة<br>سنة سبع عشرة ومئة<br>(هكذا) لوحة ( ) |
| ٥ اوسلو       | نحاس ٢ر٠٨         | الرملة ٥٢١٧ | مركز:<br>مثل رقم (٣)<br>هامش: (ضرب هذا<br>الفلس) بالرملة (سنة سبع<br>عشرة ومئتين.<br>لوحة ( )                           |

## مصادر البحث

- ١ - يقصد بلفظ السكة هنا النقود التي ضربت او تداولت في فلسطين سواء أكانت دنانير ذهبية أم دراهم فضية أم فلوس نحاسية، هذا وقد ورد لفظ السكة في المراجع العربية معبرا عن عدة معاني أخرى بالإضافة الى ما سبق، حيث قصد به أحيانا النقوش التي تزين بها النقود، وأحيانا أخرى قصد بها قوالب السك التي تضرب بها العملة، ثم تجاوز اللفظ وطلق في النهاية على الوظيفة التي تقوم على سك النقود نفسها.
- انظر: بن خلدون، المقدمة، (بيروت ١٩٦١) ص ٣٩٩، ٤٦٥. الماوردي الاحكام السلطانية (القاهرة، ١٩٠٩) ص ١٤٠، الكرمل، النقود العربية (القاهرة ١٩٣٩) ص ١٠٣، عبد الرحمن فهمي، فجر السكة العربية ج ١ (القاهرة ١٩٦٥) ص ٢٧، ٢٨، المقرئ، شذور العقود (النجف ١٩٦٧) تحقيق محمد بحر العلوم، ص ٦٦، ٦٧.
- وتعد السكة من اهم المصادر الاثرية لدراسة التاريخ، حيث انها تلقي الضوء على كثير من الاحداث السياسية والتي ثبتت او تنفي تبعية البلاد والولاية للخلافة والحكومة المركزية، فهي بذلك وثائق صحيحة وقديمة ورسمية ليس من السهل الطعن في قيمتها، ولا غرو في ذلك فهي شارة من شارات الملك والسلطان.
- ٢ - المسعودي، التنبيه والاشراف (ليدن ١٨٩٤) ص ٣٣٨، ابن تغريدي، النجوم الزاهرة، ج ١ (القاهرة ١٩٦٣) ص ٣١٧.
- ٣ - سيده اسماعيل كاشف، مصر في فجر الاسلام (القاهرة ١٩٧١) ص ٣٠٩. ابن الداية، سيرة احمد طولون، (برلين ١٨٩٤) نشر وتحقيق ك. فولرز، ص ٥٥. ابن الاثير، الكامل، ج ٧ (بيروت ١٩٦٥) ص ٣١٦. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ (بيروت - دار الثقافة) ص ١٧٣-١٧٤.
- ٤ - الطبري، تاريخ الرسل، ج ٣ (ليدن ١٨٨١) ص ٢٢٤٨، ٢٢٥١-٢٢٥٢، ابن الاثير الكامل، ج ٧ (بيروت ١٩٦٥) ص ٥٣٥ وما بعدها. المسعودي، التنبيه والاشراف ص ٣٧٣
- ٥ - عن حالة مصر والشام وفلسطين قبل قيام الأحشيديين انظر:  
سيده اسماعيل كاشف، مصر في عصر الأحشيديين (القاهرة ١٩٧٠) ص ١٧-٥٥
- ٦ - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج ٣ (القاهرة ١٩٧٣) ص ١٣٤.
- ٧ - عن سكة فلسطين الطولونية انظر: "The Coinage of the Tulunides in Filastin", S.Shamma, Al-Abhath 1971, QJAUB, vol. xxiv. No. 1-4.
- ٨ - عن سكة فلسطين الأحشيديية انظر: "The Ikhshidids Coins of Filastin," Al-Abhath: S.Shamma, 1969. QJAUB. vol. xxll. No. 3.
- ٩ - ناصر النقشندي، الدينار الاسلامي في المتحف العراقي (بغداد ١٩٥٣) ص ١٦
- ١٠ - أصبحت خصائص وكتابات الدنانير العباسية بعد هذا الاستبدال تنص على:
- |                                  |                                       |
|----------------------------------|---------------------------------------|
| وجه                              | ظهر                                   |
| لا اله الا الله وحده لا شريك له  | محمد رسول الله                        |
| محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين | بسم الله ضرب هذا الدين سنة ثلث وثلثين |
| الحق ليظهره على الدين كله        | ومنة                                  |

انظر: H. Lavoix, Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque National, vol I (Pares : 1887) P. 135, no. 564

Lavoix, I, S. lane-pool, Catalogue of the Collection of ... سيد هذا المرجع مختصرا فيما بعد هكذا...

سيرد هذا المرجع مختصرا هكذا ... Lane-pool, Khed,

- ١١- النقشبندي، الدينار الاسلامي، ص ٣٦.
- ١٢- Lane-pool, Khed, P.67-69, no 553, 555, 563
- ١٣- النقشبندي، الدينار الاسلامي، ص ٣٦.
- ١٤- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٨٧.  
Lavoix, I, P. 177, no. 767.
- Lane-pool, Khed, P. 50, no. 420.
- النقشبندي، الدينار الاسلامي، ص ٣٧.
- عبد الرحمن فهمي، فجر الشكة، ص ٨٨.
- ١٥- من الولاة اللذين تمتعوا بهذا الحق:  
أ) علي بن سليمان بن علي العباسي والي مصر. (Lane-pool, Khed, P. 48, no. 398, 399)  
ب) ابراهيم بن صالح العباس.. (Lane-pool, Khed, P. 49, no. 411).  
ج) جعفر بن يحيى البرمكي. (Lavoix, I, P. 175, no, 755, 757)  
ومن عمال الخراج: عمر بن غيلان. (Lavoix, I, P. 173, no. 746)
- ١٦- الكرملي، النقود العربية، ص ٤٨.
- ١٧- ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ١١٣. ابن خلدون، العبر، ج ٣ ص ٤٩٨٤.
- ١٨- ابن الاثير، الكامل، ج٦، ص ١١٤. ابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٤٦٧.
- ١٩- ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج ١ (دمشق ١٩٥١) ص ٦٥.
- ٢٠- Lovoix, I. p. 201, no. 872-  
Lane- poole khed, p.66, no. 543.
- ٢١- آية رقم ٤، ٥ من سورة الروم.
- ٢٢- Lavoix, I, p. 214, no. 884.  
Lane- poole khed, p. 67, no. 584.
- ٢٣- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٨٩.
- ٢٤- آية ٢٨، ٢٩ من سورة الفتح او آية ٩ من سورة الصف.
- ٢٥- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٩٩.
- ٢٦- N.G.Nasser, 'The Arabic Mints in Palestine and Trans-Jordan  
QDAP (1948) Vol. xlll. p. 124.
- ٢٧- سيرد هذا المرجع مختصرا فيما بعد هكذا. Nasser, ... Nasser, p. 124.
- ٢٨- ان البلاد التي فتحها المسلمون كانت تشمل من وجهة النظر المالية على مجالين مختلفين تماما الاولى هي البلاد التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية كمصر وسوريا وهذه كانت تتبع قاعدة الذهب في تعاملها النقدي، أي أن أساس نظامها النقدي الذهب، ومن ثم البلاد والولايات التي كانت تابعة للإمبراطورية الساسانية كالعراق وفارس وهذه

كانت تتبع قاعدة الفضة في تعاملها، انظر:

J.Kirkman, "The Mints of Iraq during the Umayyad and Abbasid Period," Sumer, vol. I (1945) no.2. P.15.

٢٩- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة العربية، ص ٣٥، ٦٦، تبعت مصر وفلسطين من النظام النقدي قاعدة الذهب، وكان لذلك أثر واضح على ضرب الدراهم الفضية، فالمعروف أنه لم يصلنا دراهم من ضرب مصر في العصر الأموي، وتعتبر دراهم مصر العباسية نادرة جدا.

٣٠- اعطى كثير من المؤرخين والجغرافيين العرب مقدار خراج فلسطين وذلك ضمن خراج اخبار الشام انظر: اليعقوبي، البلدان (ليدن ١٨١٢) ص ٣٢٩، البلاذري، فتوح البلدان (ليدن ١٨٦٦) ص ١٩٣، ابن خردادبة، المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) ص ٧٩، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥) ص ١٠٣، الجهشيارى، الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨) ص ٢٨٧، ابن حوقل، صورة الأرض (بيروت) ص ١٥٩، المقدسي، احسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٩) ص ١٨٩، ابن خلدون المقدمة ج ١ (بيروت ١٩٥٨) ص ٣٢١، وانظر ضياء الدين الرضى الخراج والنظم المالية (القاهرة ١٩٦٩).

٣١- A.Zia, Catalogue of Islamic Coins (Istanbul 1910) P.10, no. 149.

٣٢- شك الدكتور ووكر (Walker) في هذا الدرهم، ورجح أن يكون خطأ، واخبرني الاستاذ الدكتور باتس (M.L.Bates) أمين قسم المسكوكات الاسلامية بجمعية التمثيل الأمريكية تأييده لرأى ووكر، انظر: J.Walker, Acatologue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umayyad Coins, (London 1956) P. 170.

٣٣- نسب الاستاذ مايلز فلسا من ضرب الرملة الى الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠ هـ) دون الاستناد الى برهان أو دليل، وذلك بالرغم من سوء حفظ الفلوس وغموض كتابته ونقصها، انظر:

G.C.Miles, "Islamic Coins Antiach on-the-Orante", Offprint from Antioch on-the-Orantes, Iv, Partone, 1948, P.III. no. 143.'

سيرد هذا المرجع مختصرا فيما بعد هكذا Miles, Antioch,...

٣٤- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٧٦٦ رقم ٢٧٤٣.

٣٥- فجر السكة العربية، ص ٧٦٦ رقم ٢٧٤٣ لوحة ٨٨، وقد وردت كتابات هذا الفلوس هكذا:

|                                  |                            |
|----------------------------------|----------------------------|
| وجه                              | ظهر                        |
| لا اله الا الله وحده لا شريك له  | لله محمد رسول الله         |
| محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين | جعفر... ضرب بالرملة سنة... |
| الحق ليظهره على الدين كله        |                            |

٣٦- لعل هذا الفلوس ضرب من قبل جعفر بن يحيى البرمكي حينما أرسله الرشيد في سنة ١٨٦ هـ الى بلاد الشام حين أثار أهلها الفتن والقلاقل، حيث أزال أسباب التدمير وعمل على تهدئة الخواطر، انظر: حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام، ج ٢ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٥٨.

٣٧- ذكر لافوا (Lavoix, I,P. 436) ان سعيد بن السرح كان حاكم الرملة عام ٢٠٥ هـ ٨٢٠ م، وذلك نقلا عن دي غويه، وانظر:

اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢ (بيروت ١٩٦٠) ص ٤٣٥.

٣٨- Lavoix, I,P.436, no. 1586

Miles, Antioch, P.III, no.134



- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٧٦٧ رقم ٢٧٤٤.
- مجموعة دار الكتب المصرية برقم سجل ٨٧١٢.
- ٣٩- وردت نصوص كتاباتها هكذا:
- وجه  
لا اله الا الله وحده لا شريك له  
محمد رسول الله  
ظهر
- مركز:  
بسم الله مما أمر به الامير سعيد بن السرح سرح ضرب هذا الفلوس بالرملة على يدي...
- هامش:  
مجموعة السيد (Berman) بحسقا.
- ٤٠- مجموعة خاصة بحيفا (Berman)
- ٤١- V.E. Zambaur, Die Munzprägungen des Islam, I (Wiesbaden 1968) P.38, no. 88.
- ٤٢- Zambaur, Munzprägungen, A.Berman, Islamic Coins, سبرد هذا المرجع مختصرا فيما بعد هكذا،
- ٤٣- Exhibition Winter 1976, L.A. Mayer Memorial, Jerusalem.
- سبرد هذا المرجع مختصر فيما بعد هكذا Berman,...
- ٤٤- F.Soret, "Letters Sur La Collection III (a Darn)" RNB 1856, Vol, vl, 2nd ser. P.16, no. 13.
- ٤٥- مجموعة متحف الاثار الفلسطينية بالقدس (روكفلر) رقم سجل II.80
- ٤٦- Berman, P.38, no.84
- 47-J.Karabacek, "Zur Orientalishchen Munzkunde" WNM III (1867)
- P.37, no.3. -Cited by (G.CMiles, Rare Islamic Coins, ANSNM 118, (New york, 1950) p.116)
- .w.Tiesnhausen, Monnaies khalfes Orientaux, (1873) no. 2849.-Cited by (Miles, RIC, p.116).Miles, RIC, p.116, no. 236, 284, 285. Berman, p. 38, no. 90.
- Lavoix, I, p. 435, no. 1584-1858.
- ٤٨- غالب اسماعيل غالب، مسكوكات قديمة اسلامية قتالوغي، ج٢ (استانبول ١٨٩٤) ص ٢٨٦ رقم ٧٧٣
- H.Nutzel, Katalogue der Orientalischen Munzen, I(Berlin 1898) p.353, no. 2211-2212-
- Nutzel, I, ... سبرد هذا المرجع مختصرا هكذا
- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٤١٦، رقم ٩٧٣، لوحة ٢٦، ويلاحظ ان هذا الفلوس نشر على اعتبار انه أموي الطراز، حيث قرأ التاريخ ١١٧هـ، بدلا من ٢١٧هـ، وذلك نتيجة لسوء حالة الفلوس، بيد انه بدراسة هذا الفلوس ومقارنته بغيره من الفلوس العباسية المنسوبة الى الرملة وجد ان نسبته الى العصر العباسي اصح من الاموي.
- Zambaur, Munzprägungen, p. 128.
- مجموعة دار الكتب المصرية قم سجل ٨٧١، الكتالوج رقم ٤-١.
- ٤٩- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٤١٧، رقم ٩٧٤ لوحة ٢٦، ينطبق على هذا الفلوس ما سبق قوله عن الفلوس رقم ١٩٧٣ المتقدم ذكره.
- Berman, p.39, no. 91.

٥٠- عبد الرحمن فهمي، فجر السكة، ص ٤١٧ رقم ٩٧٤.

Berman, p. 39, no. 91.

51- Nutzel, I, p. 353, no. 2211.

51- Lavoix, I, p.453, no. 1583.

53- Berman, p. 38, no. 88, 89.

## فلسطين في كتب الجغرافيين العرب

د. هاشم ياغي  
الجامعة الاردنية

قبل المضي في رسم صورة فلسطين كما جاءت في كتب الجغرافيين العرب اود ان اشير الى الخطوط العريضة التي ينبغي ان تنال حظها من الاهتمام البين لدي ولدى القارىء معاً. فليس المقصود، في رأيي، ان اجمع كل الذي قاله الجغرافيون العرب عن فلسطين لان مثل هذا العمل قد قام به غيري، ولعل نظرة الى «بلدانية فلسطين العربية» من صنيع الاب أ.س مرمجي الدومنيكي<sup>(١)</sup> ان تبين أن الحاجة اصبحت غير جمع كل ما قاله الجغرافيون العرب عن فلسطين، فقد جمع الاب مرمجي الدومنيكي نصوص ما قاله الجغرافيون عن فلسطين وبجدها، وترجمها الى الفرنسية. وقد خف الى قريب من صنيع الاب مرمجي الدومنيكي الاستاذ مصطفى الدباغ<sup>(٢)</sup> في كتابه القيم «بلادنا فلسطين»

وليس المقصود من عملي أيضاً أن أعمد الى اثبات عروبة فلسطين، لأن عروبة فلسطين من الثبوت والسطوع بحيث لا تحتمل ادنى الشك. وقد ذهب غيري في هذا السبيل استجابة للرد على العدو الصهيوني في محاولاته سرقة عروبتنا وعروبة فلسطين<sup>(٣)</sup>. ثم لأن اثبات عروبة فلسطين يشبه في رأيي اثبات عروبة غيرها من الاقطار العربية الحالية كالعراق وسوريا ومصر مثلاً. ومن هنا اود ان اقول ان المقصود من عملي هذا هو ان اشير الى ابرز القسّمات في صورة فلسطين كما جاءت عند الجغرافيين العرب ووفق ما تعرفه الجغرافيا الاقليمية الحديثة، والى ابراز الخطوط في صورة شخصيتها الاجتماعية والاقتصادية، والثقافية بما في ذلك الخطوط العمرانية في نصوص اولئك الجغرافيين الاجداد.

أما فلسطين التي نود ان نقف عند صورتها، فهي فلسطين الحالية محدودها\* التي انبثقت اثر الحرب العالمية الاولى، اي فلسطين التي اخذها الاستعمار البرلاني من جسم بلاد الشام بعد الاتفاق بينه وبين الاستعمار الفرنسي في ٢٣/١٢/١٩٢٠<sup>(٤)</sup>

وتبلغ مساحة فلسطين الحالية هذه (٢٧٠٠٠٩) من الكيلو مترات المربعة تقريبا<sup>(٥)</sup>، وهذه يعني امرين:

الامر الأول: ان فلسطين الحالية ظلت العصور العربية وما بعدها جزءا من بلاد الشام الى ان جرى تقسيم بلاد الشام بعد الحرب العالمية الاولى بين فرنسا وبريطانيا.

والامر الآخر: ان فلسطين الحالية كانت عند الجغرافيين العرب تتألف من اجزاء من جند فلسطين وجزء اخرى من جند الاردن.

وجند فلسطين وجند الأردن هما جزءان من خمسة اجناد كانت تكوّن بلاد الشام عند الجغرافيين العرب.

فقد ورد منذ وقت مبكر عند الجغرافيين العرب تحديد لاجناد بلاد الشام الخمسة، فذكر ابن خرداذبة<sup>(٦)</sup> (المتوفي في حدود ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) كلامه عن حجم الاقتصاد في اجناد بلاد الشام ان اجناد بلاد الشام هي: جند قنسرين والعواصم، وجند حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين.

وكان تقسيم هذه القسمة من صنيع الفاتحين العرب المسلمين، وقد درج الجغرافيون العرب على رسم هذه الصورة عبر العصور مع بعض التعديلات اليسيرة بين الحين والحين. ولهذا يقول ياقوت الحموي (المتوفي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) «وهو يتكلم عن اجناد الشام<sup>(٧)</sup>: «جمع جند، وهي خمسة: جند فلسطين، وجند الاردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين: قال احمد ابن يحيى بن جابر: <sup>(٨)</sup> اختلفوا في الاجناد، فقبل سمي المسلمون فلسطين جندا، لانه جمع كورا. والتجند التجمع. وجنّدت جندا اي جمعت جمعا. وكذلك بقية الاجناد. وقيل: سميت كل ناحية بجند لانهم كانوا يقبضون اعطياتهم فيه. وذكروا أن الجزيرة كانت مع قنسرين جندا واحدا فأفردها عبد الملك بن مروان، وجعلها جند برأسه. ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان ليزيد بن معاوية، فجعل قنسرين، وانطاكية ومنبج جندا، وفرد العواصم».

ونقل الياضي صفي الدين بن عبد الحق صاحب كتاب «مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع<sup>(٩)</sup>» خلاصة صورة جند بلاد الشام فقال:

وجناد الشام جمع جند وهي خمسة: «جند فلسطين، وجند الاردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين. وكل جند منها يجمع كورا. وقيل سميت بذلك، لان جند كل

موضع كانوا يقبضون اعطياتهم فيه» واذن فقسمة بلاد الشام هذه هي قسمة عسكرية او كما يقولون اليوم استراتيجية واقتصادية في آن واحد.

واذي يطّلع على ما كتبه الجغرافيون العرب<sup>(١٠)</sup> منذ أبي جعفر محمد بن موسى الخوارزمي المتوفي سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) الذي ألف «كتاب صورة الارض<sup>(١١)</sup>» حتى ابن بطوطة الرحالة المشهور<sup>(١٢)</sup> المتوفي سنة ٧٥٦ هـ وما بعده بقليل يجد ان هذه القسمة، اي قسمة الأجناد هي الغالبة على صورة بلاد الشام عامة.

قال عماد الدين ابو الفداء (المتوفي سنة ٧٣٢ هـ) في كتابه «تقويم البلدان»<sup>(١٣)</sup>

قال ابن الاثير: واعلم أن الشام خمسة اجناد اولها من الفرات جند قنّسرين، ثم جند حمص، ثم جند دمشق، ثم جند الأردن، ثم جند فلسطين. قال: وكل جند من هذه عرضه من ناحية الفرات الى ناحية فلسطين، وطوله من الشرق الى البحر. وفلسطين بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون المثناة التحتية وفي آخرها نون. قال وهي كورة كبير تشتمل على بيت المقدس وغزة وعسقلان. قال ابن حوقل جند فلسطين أول أجناد الشام من جهة الغرب من رفح الى حدّ اللجون، وعرضه من يافا الى ربحا نحو يومين. وما زغر<sup>(١٤)</sup> وديار قوم لوط والجبال والشراة فمضمونة اليها، وهي منها في العمل الى حدّ أيلة<sup>(١٥)</sup> وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر الى بيسان والى طبرية يسمى الغور، لانه بين جبلين، وسائر بلاد الشام مرتفع عليه. وبعضها من الاردن، وبعضها من فلسطين في العمل. وقال ابن حوقل ايضا: الغور اوله بحيرة طبرية ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي الى زغر وريحا الى البحيرة المنتنة، ويمتد كذلك الى ايلة».

وقد قال ابن خرداذبة تحت كور جند فلسطين<sup>(١٦)</sup> «كورة الرملة، وكورة ايليا وهي بيت المقدس وبينها وبين الرملة ثمانية عشرة ميلا»، ثم يقول: «ومن بيت المقدس الى مسجد ابراهيم «صلى الله عليه» وقبره ثلاثة عشر ميلا مما يلي القبلة، وكورة عمواس، قال ابن كلثوم الكندي:

رب خرق مثل الهلال وبيضا      ء حصان بالجزع من عمواس

وكورة لّد، قال الشاعر:

يا صاحِ اني قد حججت وزرت المقدس      ودخلت لّدًا عامراً في عيد مريا

جرجس

وكورة بينا، وكورة يافا، وكورة قيسرية، وكورة نابلس، وكورة سبسطية، وكورة عسقلان، وكورة غزة، وكورة بيت جبرين».

وقال ابن خردادبة ايضا تحت كور جند الاردن: (١٧): «كورة طبرية، كورة السامرة، وكورة بيسان، وكورة فحل، وكورة جرش وكورة بيت راس قال حسان:  
كأن سبيّة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

وكورة جدر، وكورة آبل، وكورة سوسية، وكورة صفورية، وكورة عكا، وكورة قدس، وكورة صور».

ومن هذا كله يتبين ان صورة فلسطين الحالية تضم جانباً من جند الأردن المعروف عند الجغرافيين العرب وهو الجانب الشمالي الذي كان يضم آنذاك مدناً اشهرها طبرية والسامرة (١٨) وعكا وصفورية واللجون، وبيسان (١٩).

ويتبين كذلك ان شرقي الاردن الحديث وضعت حدوده في سنة ١٩٢٢ كما ذكرنا سابقاً ضمّ جانباً من جند فلسطين المعروف عند الجغرافيين العرب وهو القسم الاوسط والقسم الجنوبي وكان يشمل بلدانا اشهرها عمان، والكرك ومعان وذرح والحميمة.  
وكأنما اخذ شرقي الاردن من جند فلسطين القديم جانباً هو القسم الاوسط والقسم الجنوبي منه، وعطى فلسطين الحالية جانباً هو القسم الاكبر من جند الاردن القديم.

ولسنا نود في هذا الكلام ان نتبع التطور الذي مضت فيه شخصية فلسطين في الميادين الاجتماعية والثقافية، بل اننا سنتاول خطوطا بارزة في هذه الشخصية في مجمل ما جاء في رؤية اولئك الجغرافيين الاجداد، اذ ان التفصيل في مراحل التطور هو بكتاب الصف منه يمثل هذا الكلام في هذا المقام، ثم ان التفصيل في تطور اوجه الحياة في فلسطين لا يكفي فيه الرجوع الى ما قاله الجغرافيون العرب وحدهم، ولا ما قاله صنف آخر من الكتاب، بل انه يحتاج الى استقصاء في كل ما كتبه اصناف من الكتاب بينهم الجغرافيون والمؤرخون، والادباء والعلماء من متعدد اصناف العلوم وغيرهم.

ولا يعني هذا ان المادة التي كتبها الجغرافيون العرب عن فلسطين مادة قليلة الكم، فقد عرضوا لخطوط وطولها وبلدانها ومدنها وقراها، ولياها وعميونها، ولجبالها وسهولها وغورها ولمزروعاتها وتجارها، واقتصادها، ولسكانها، ولتاريخها، وحوادثها ولعلمائها ومدارسها وللمسافات بين بلدانها وكورها ومكائنها الدينية وكنها التاريخية وعاداتها ومواسمها ومناخها

وغير ذلك من صنوف حياتها مفصلين ومجملين، وإنما يعني هذا كما اشرت الى ان المقصود هنا ان ابرز جانباً واضحاً من بعض اوجه حياة فلسطين لدى الجغرافيين وحدهم.

### جوانب الحياة الاجتماعية:

ونحن نجد ان عناصر في صورة سكان فلسطين كانت معروفة بوضوح لدى اجدادنا الجغرافيين، فقد اشاروا الى شيء من اصل السكان وطبيعتهم، ولونهم ومستوى معيشتهم ومذاهبهم وشيء من ولائهم، حتى الى عنصر من الشذوذ لدى بعضهم، والى عاداتهم ومواسمهم.

فقد ذكر اليعقوبي في كلامه على جند فلسطين<sup>(٢٠)</sup> ان اهل جند فلسطين اخلاط من العرب، من لحم وجذام وعاملة وكندة (وهؤلاء يمانيون) ومن قيس وكنانة (وهؤلاء عدنانيون)، وذكر ان اهل مدينة الرملة اخلاط من الناس من العرب والعجم. وقال اليعقوبي في كلامه على بيت جبرين<sup>(٢١)</sup>: «وهلها قوم من جذام» وقال كذلك في كلامه على اريحا وعمّان: «والظاهر ومدينتها عمان، والغور ومدينتها اريحا. وهاتان المدينتان ارض البلقاء وهلها قوم من قيس وبها جماعة من قريش»<sup>(٢٢)</sup>

وقال اليعقوبي في كلامه على نابلس: «وبها اخلاط من العرب والعجم»<sup>(٢٣)</sup> اما ياقوت الحموي فقال في كلامه على رفح؛ نقلاً عن المهلبى «وهلها لحم وجذام، وفيهم لصوصية واغارة على امتعة الناس حتى ان كلابهم اضر كلاب ارض بسرقة ما يسرق مثله الكلاب»<sup>(٢٤)</sup>.

وذكر البكري في كلامه على غزة انها «موضع بديار جذام من مشارف الشام»<sup>(٢٥)</sup> وقال ياقوت الحموي ونقل عنه الياقعي في مراصد الاطلاع<sup>(٢٦)</sup> في الكلام على المازمين: «قرية بينها وبين عسقلان نحو فرسخ. كانت بها وقعة بين الكنانية (اهل عسقلان) والافرنج مشهورة» واذن فعسقلان كان اهلها من الكنانية عند ياقوت.

وقد ورد في كتاب فتوح البلدان للبلاذري<sup>(٢٧)</sup> اثناء الكلام على جند الاردن ان معاوية بن ابي سفيان نقل «قوما من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الاردن صور وعكا وغيرها سنة ٤٢ هـ (٦٦٢م)». وقال البلاذري ايضا: «حدث الاشياخ، قالوا: نزلنا صور والسواحل، وبها جند من العرب، وخلق من الروم. ثم نزع الينا اهل بلدان شتى، فنزلوها معنا. وكذلك جميع سواحل الشام».

وقال اليعقوبي في كلامه على جند الاردن<sup>(٢٩)</sup>: «ومدينة عكا، وهي من السواحل، وقدمت وهي من اجل كورة، وبيسان، وفحل وجرش والسواد. وهل هذه الكورة اخلاط من العرب والعجم».

وقال الياضي<sup>(٣٠)</sup> نقلا عن ياقوت الحموي: في الكلام على ارسوف: «أرسوف مدينة على ساحل بحر الروم، بين قيسارية ويافا. كان بها خلق من المرابطين».

وكما كان عنصر السكان او جانب واضح منهم من فلسطين بين الصورة لدى الجغرافيين العرب فان شيئا من لونها قد اشاروا اليه ايضا. قال المقدسي في كلامه على اريحا: «شديد الحر، معدن الحيات والعقارب، اهلها سمر وسودان، كثيرة البراغيث»<sup>(٣١)</sup>

وقال الياضي<sup>(٣٢)</sup> نقلا عن ياقوت الحموي في الكلام على بيسان: «اهلها سمر الألوان، جعد الشعور، لشدة الحر الذي عندهم».

ولم يفت ما ورد عن بعض الجغرافيين العرب ان يشير الى شيء من الشذوذ في بعض مجتمعات فلسطين، فقد ذكر المقدسي<sup>(٣٣)</sup> اثناء كلامه على بيت جبرين انها «كثيرة الخنثين». أما القلقشندي<sup>(٣٤)</sup> فقد ذكر في كلامه على غزة ان «اهل برّها عشرا بعضهم اعداء بعض، ولولا خوف سطوة السلطنة لما اغمد سيف الفتنة بينهم، ولاجتاحوا المدينة ومن فيها».

كذلك لم يفت بعض الجغرافيين العرب ان يشيروا الى جانب من مذاهب بعض المجتمعات الفلسطينية، فقال اليعقوبي في كلامه على طبريا «وهل مدينة طبريا، قوم من الأشعريين، هم الغالبون عليها»<sup>(٣٥)</sup>

ولكن ناصر خسرو<sup>(٣٦)</sup> بعد هذه الفترة الزمنية بينه وبين اليعقوبي يقول ان السكان في طبريا شيعة.

وقال المقدسي في كلام عام عن اهل الشام: «ولا نجد فيه (اي في اقليم بلاد الشام) مجوسيا ولا صابثيا»<sup>(٣٧)</sup>.

وقال ايضا: «ومذاهبهم (اي اهل الشام) مستقيمة، اهل جماعة وستة وهل طبريا، ونصف نابلس، وقدمت، واكثر عمان شيعة، ولا مجال فيه للمعتزلة، انما هم في خفية، وبيت المقدس خلق من الكرامية، لهم خوانات ومجالس. ولا ترى فيه مالكياء ولا داوديا»<sup>(٣٨)</sup>.



وقال ياقوت الحموي في الكلام على ايلة (اي العقبة). (٣٩)

«وبها اي (ايلة) قوم يذكرون انهم من موالي عثمان بن عفان».

وورد عند بعض الجغرافيين العرب جانب من صور العادات والتقاليد والمواسم والطقوس في بعض مجتمعات فلسطين.

فقال المقدسي (٤٠) في الكلام على رسوم بلاد الشام عامّة: «ورسومهم انهم يقلدون القناديل في مساجدهم على الدوام، يعلقونها بالسلاسل مثل مكة. وفي كل قسبة بيت مال بالجامع معلق على اعمدة. وبين المغطى والصحن ابواب الا اريحاء، ولا ترى الحصى الا في صحن جامع طبريا. والمنائر مربعة ووساط سقوف المغطى مجمّلة، وعلى ابواب الجوامع وفي الاسواق مطاهر. ويجلسون بين كل سلامين من التراويج. وبعض يوترون واحدة، وكان وترهم في القديم ثلاثا. واذا قام الى كل ترويحة نادي منادي الصلاة. رحمكم الله. ويصلّون بايلياء ست ترويحات. والمذكرون به قصاص. ولاصحاب ابي حنيفة بالمسجد الاقصى مجلس ذكر، يقرأون في دفتر. وكذلك الكراميّة في خوانقهم. ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشائين. وللقرءاء مجالس في الجوامع.

ومن اعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدرّون بها الفصول: الفصح وقت النيروز، والعنصرة وقت الحر، والميلاد وقت البرد، وعيد بربارة وقت الامطار. ومن امثال الناس: اذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زماره، يعني فليجلس في البيت والقلندس ومن امثالهم: اذا جاء القلندس فتدفاً واحتبس. وعيد الصليب وقت قطاف العنب. وعيد لد وقت الزرع. وشهورهم رومية: تشرين الاول والثاني وكانون الاول والثاني. شباط، آذار، نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول.

وقل ما ترى به (أي في اقليم بلاد الشام) فقيهاً له بدعة، أو مسلماً له كتابة الا بطبريا فانها ما زالت تخرّج الكتاب. وانما الكتبة ويمصر نصارى. لانهم اتكلوا على لسانهم، فلم يتكلفوا الادب كالأعاجم. وكنت اذا حضرت مجلس قاض القضاة ببغداد اخجل من كثرة ما يلحن. ولا يرون ذلك عيبا. وكثر الجهابذة والصباغين والسيارفة والدباغين بهذا الاقليم (أي اقليم بلاد الشام) يهود. واكثر الاطباء والكتبة نصارى.

واعلم ان خمساً في خمسة مواضع من الاسلام حسن: رمضان بمكة، وليلة الختمة بالمسجد الاقصى، والعيدين بصقيلة. ويوم عرفة بشيزار، ويوم الجمعة ببغداد، ويضا ليلة النصف من شعبان بايلياء (أي بيت المقدس) «ثم يقول بعد ذلك بقليل:

«وقبورهم مسنمة ويمشون خلف الجنائز، ويسلون الميت. ويخرجون الى المقابر لحتم القرآن ثلاثة أيام اذا مات ميت، ويكشفون المماطر، ولا يقورون الطيالسنة. ولأجلّة البرّازين بالرملة حمر مصرية بسروج. ولا يركب به الخيل الا امير او رئيس، ولا يتدرع الا اهل القرى والكتبة» ولباس القرىتين برستاق ايلياء ونابلس كساء واحد حسب بلا سراويل. وهم الا فرنة، وللقريتين تنور في الارض صغير قد فرش بالحصى، فيوقد الزبل حوله وفوقه، فإذا احمر طرحت الأرعفة على الحصى. وبه طباخون للعدس وللبيسار. ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويسلقونه، ويبيع مع الزيتون. ويملحون الترمس ويكثرون اكله. ويصنعون من الخرنوب ناطفا يسمونه القبيط، ويسمونه ما يتخذون من السكر ناطفا. ويصنعون زلابية في الشتاء من العجين غير مشبكة. وعلى اكثر هذه الرسوم اهل مصر، وعلى اقلها اهل العراق».

ومما ورد عند ناصر خسرو في رحلته<sup>(٤١)</sup> عما رآه في الخليل قوله:

«ويعطون الضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون. وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق وبالمضافة خادما يخزن طول اليوم. ويزن رغيفهم منا واحد ويعطي من يصل هناك رغيفا مستديرا وطبقا من العدس المطبوخ بالزيت وزبيا كل يوم (ويقول: «وفي بعض الايام يبلغ عدد المسافرين خمسمئة، فتهيأ الضيافة لهم جميعا».

ومما قاله المقدسي في كلامه على طبريا<sup>(٤٢)</sup>: «ويقال ان اهل طبريا شهرين يرقصون، وشهرين يقيمون، وشهرين يثاقفون، وشهرين عراة، وشهرين يزمرون، وشهرين يرقصون يعني يرقصون من كثرة البراغيث، ويلوكون النبق، ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمطاب، وعراة من شدة الحر، ويمصون قصب السكر، ويخضون الوحل».

وذكر مجير الدين الحنبلي<sup>(٤٣)</sup> شيئا عن موسم النبي روين قرب الرملة فقال: «وفي كل سنة له (أي النبي روين) موسم يجتمع الناس فيه من الرملة وغزة وغيرها ويقومون اياما، وينفقون اموالا كثيرة. ويقرأ القرآن العظيم والمولد الشريف. والذي عمر المشهد سيدنا ومولانا ولي الله الشيخ شهاب الدين ارسلان تغمده الله برحمته».

## جوانب من الحياة الاقتصادية:

أ - في الزراعة:

تنبه الجغرافيون العرب الى عناصر بارزة في حياة فلسطين الاقتصادية، وان كانت لا

تشمل جميع صورتها، ولا تعتمد الى تحليلها، فقد تنبهوا الى جوانب زراعية ليست قليلة، وكذلك الى جوانب تجارية، واخرى صناعية، وان كانت التجارية والصناعية اقل اضاء.

لقد تناول اجدادنا الجغرافيون امورا متعددة في ثمار فلسطين وفواكهها وبساتينها ومزرعاتها، ومناخها ومياهها، وجعلوا عناصر ذلك كله في المدن البارزة والبلدان التي وقفوا عندها وفقات ليست عابرة.

فقد ذكر ابو اسحاق الاصطخري، وابو القاسم محمد بن حوقل وهما من جغرافي القرن الرابع الهجري ان فلسطين «ازكى بلاد الشام ربوعا»<sup>(٤٤)</sup>

وقال المقدسي في اثناء كلامه على اقليم بلاد الشام عموما: «وهو اقليم مبارك، بلد الرخص والفواكه والصالحين. وكلما علا منه نحو الروم كان اكثر انهارا وثمارا وبرد هواء. وما سفل منه فانه افضل وطيب، والذ ثمارا واكثر نخيلا، ليس فيه نهر يسافر فيه، انما يعبر»<sup>(٤٥)</sup>.

وقال المقدسي ايضا<sup>(٤٦)</sup>: «واعلم انه قد اجتمع بكورة فلسطين اربعة وثلاثون شيئا، ولا يجتمع في غيرها. فالسبع الاولى لا توجد الا بها. والسبع الثانية غريبة في غيرها. والاثنتان والعشرون لا تجتمع الا بها، قد يجتمع اكثرها في غيرها. مثل قضم قریش، والمعنقة، والعينوني، والدوري، وانجاص الكافوري، وتين السباعي، والدمشقي، والقلقاس، والجميز، والخرنوب، والعكوب، والعناب، وقصب السكر، والتفاح الشامي، والرطب، والزيتون، والاترج، والنيل، والراسن، والنانج، واللفاح، والنبق، والجوز، واللوز، والهلين، والموز، والسماق،، والكرنب، والكمأة، والترمس، والطرى، والبلح، ولبن الجواميس، والشهد، وعنب العاصمي، والتين التمري، وما القبيط فقد يرى مثله، غير ان له طعما اخر. وقد ترى الخس، غي انه في جملة البقل، الا بالاهواز، فانه غاية، ويفرد عن البقل ايضا في البصرة».

وقال ابو الفداء<sup>(٤٧)</sup>: «وفلسطين ماؤها من الامطار، واشجار وزروعها اعداء، الا نابلس، فان فيها مياهها جارية. وفلسطين ارضي بلدان الشام».

وقال وهو يتكلم على مدينة الخليل: «والمدينة في وهدة جبال كثيفة الاشجار وشجار هذه الجبال وسائر جبال فلسطين وسهلها زيتون وتين وخرنوب، وسائر الفواكه اجل من ذلك»<sup>(٤٨)</sup>.

أما الادريسي<sup>(٤٩)</sup> فقد قال: «وفلسطين ماؤها من الامطار والسيول، واشجارها قليلة، وديار فلسطين حسنة البقاع، بل ازكى بلاد الشام».

ويقول ياقوت الحموي<sup>(٥٠)</sup> في الكلام على رفح: «ومن رفح الى مدينة غزة ثمانية عشر ميلا. وعلى ثلاثة اميال من رفح من جنب مدينة غزو شجر جميز مصطف من جانبي الطريق من اليمين والشمال نحول الف شجرة متصلة اغصان بعضها ببعض مسيرة نحو ميلين» وفي كلام القلقشندي<sup>(٥١)</sup> على غزة يقول: «وساحلها البساتين الكثيرة، واجل فاكهتها العنب والتين، وبها بعض النخيل».

وقال ابو الفداء<sup>(٥٢)</sup> في الكلام على غزة: «وهي بلدة متوسطة في العظم، ذات بساتين على ساحل البحر، وبها قليل نخيل، وكروم خصبة. وبينها وبين البحر اكوام رمال تلي بساتينها». وذكر المقدسي<sup>(٥٣)</sup> في الكلام على بيت جبرين انها: «مدينة سهلية جبلية».... ونها «بلد الغلال والرخاء، ذات ضياع جليلة، الا انها قد خفت».

وقال المقدسي<sup>(٥٤)</sup> كذلك في الكلام على عسقلان «عسقلان على البحر، جليلة، كثيرة المحارس والفواكه ومعدن الجميز.... بهية فاضلة، طيبة، ... وقزها فائق، وخيرها دافق، والعيش فيها رافق».

وقال القزويني<sup>(٥٥)</sup> نقلا عن محمد البشاري المقدسي في الكلام على بيت المقدس: «انها متوسطة الحر والبرد. وقلما يقع فيها ثلج. ولا ترى احسن من بنيانها، ولا انظف ولا انزه من مساجدها. قد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبال، والاشياء المتضادة، كالاترج واللوز والتين والموز».

وقال ياقوت الحموي في كتابه «المشترك»<sup>(٥٦)</sup> عن جبل الخمر: «اذا ذكر عني به بيت المقدس، لكثرة كرومه».

ويقول ناصر خسرو<sup>(٥٧)</sup> اثناء كلامه على بيت المقدس التي بلغها في رحلته سنة ٤٣٨ هـ، ١٠٤٧ م «وسواد ورساتيقي بيت المقدس جبلية كلها. والزراعة واشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء. والخيرات بها كثيرة ورخيصة. وفيها ارباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والاحواض، ويصدرونها الى اطراف العالم».

وقال المقدسي<sup>(٥٨)</sup>: وخير العسل ما رعى السعتر بايلياء وجبل عاملة».

وقال ياقوت<sup>(٥٩)</sup> في كلامه على تفوع: « من قرى بيت المقدس يضرب بجودة عسلها المثل ». «

وقال ياقوت<sup>(٦٠)</sup> ايضا في كلامه على يبرود: « يبرود من قرى المقدس. عين يبرود قرية اخرى. من قرى المقدس. نصفها وقف على مدرسة بدر الدين بن ابي القاسم، والنصف الآخر لأولاد الخطيب فابتاعه السلطان الملك المعظم، ووقفة في جملة اوقاف السبيل، وهي ذات اشجار وكروم وزيتون وسماق ». «

ويقول ياقوت الحموي<sup>(٦١)</sup> في كلام على الغور اثناء كلامه على الاردن: « وما الاردن الصغير فهر نهر يأخذ من بحيرة طبريا، ويمر عند الجنوب في وسط الغور فيسقى ضياع الغور، وكثير مستغلتهم السكر، ومنها يحمل الى سائر بلاد المشرق. وعليه قرى كثيرة منها بيسان، وقراوا، وريحنا والعوجاء وغير ذلك ». «

وقال المقدسي<sup>(٦٢)</sup> في الكلام على اريحا: «... وهي معدن النيل والنخيل، رستاقها الغور. وزروعهم تسقى من العيون. شديدة الحر... غير ان ماءها اخف ماء في الاسلام. كثيرة الموز والارطاب والريحان ». «

وقال مجير الدين الحنبلي<sup>(٦٣)</sup> المتوفي سنة ٩٠١هـ، ١٤٩٦م في الكلام على اريحا: « وقد صارت اريحا في هذه الازمنة قرية من قرى بيت المقدس. وهي اقطاع لمن يكون نائباً بالقدس الشريف ». «

وقال المقدسي<sup>(٦٤)</sup> عن الحولة: « الحولة معدن الأقطان والأزهار، وفيها اغوار وانهار ». «

اما نابلس فقد قال شمس الدين ابو عبد الله بن ابي طالب الانصاري الدمشقي<sup>(٦٥)</sup> اثناء الكلام عليها: « نابلس مدينة خصبة نزهة بين جبلين متسعة ما بينهما، ذات مياه جارية... وكأنها قصر في بستان. قد خصّها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة، وهي الزيتون، ويحمل زيتها الى الديار المصرية والشامية والى الحجاز والبراري مع العربان، ويحمل الى جامع بني أمية منه في كل سنة الف قنطار بالدمشقي. ويعمل منه الصابون الرقي يحمل الى سائر البلاد التي ذكرنا، والى جزائر البحر الرومي، وبها البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الارض ». «

وقال ابن بطوطة<sup>(٦٦)</sup> المتوفي سنة ٧٥٦هـ، ١٣٥٥م في الكلام على نابلس: « ثم خرجت منها (اي الرملة) الى مدينة نابلس، وهي مدينة عظيمة، كثيرة الاشجار، مطردة الانهار،

من اكثر بلاد الشام زيتونا. ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق. وبها تصنع حلواء الخروب، وتجلب الى دمشق وغيرها... وبها البطيخ المنسوب اليها، وهو طيب عجيب».

وقال ناصر خسرو<sup>(٦٧)</sup> في كلامه على حيفا: «وحيفا مشيدة على البحر، وبها نخل وشجار كثيرة».

ويقول المقدسي<sup>(٦٨)</sup> اثناء الكلام على قيسارية: «ليس على بحر الروم بلد اجل، ولا اكثر خيرات منها، تفور نعما، وتتدفق خيرات، طيبة الساحة، حسنة الفواكه».

وقال ناصر خسرو<sup>(٦٩)</sup> في كلامه على قيسارية: «... وسرنا حتى بلغنا مدينة تسمى قيسارية بينها وبين عكا سبعة فراسخ. وهي مدينة جميلة بها ماء جار ونخيل واشجار النارج والترنج».

#### ب - في التجارة:

ولم يفت الجغرافيين الاجداد ان يتكلموا على بعض العناصر في تجارة فلسطين وعلى بعض الامور المالية فيها.

فقد ذكر اليعقوبي<sup>(٧٠)</sup> (المتوفي سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م) ان «خراج جند فلسطين على ما صار في الضياع يبلغ ثلاثمئة الف دينار».

وقال المقدسي<sup>(٧١)</sup> (المتوفي سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م) في كلام على الضرائب والخراج في اجناد بلاد الشام: «والضرائب فيه (اي في اقليم بلاد الشام) هيته، الا ما يكون على الفنادق فانه منكر على ما ذكرنا من بيت المقدس، وحمياته ثقيلة. على قنّسرين والعواصم ثلاثمئة الف وستون الف دينار، وعلى الأردن مئة الف وسبعون الف دينار وعلى فلسطين مئتا الف وتسعة وخمسون الف دينار، وعلى دمشق اربعمئة الف دينار. وخراج حمص ثلاثمئة الف وربعون الف دينار، وخراج الأردن ثلاثمئة الف وخمسون الفا وخراج فلسطين خمسمئة الف دينار».

وقال ياقوت الحموي<sup>(٧٢)</sup> (المتوفي سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) اثناء كلامه على (ايلة - اي العقبة): «خراج ايلة، ووجوه الجبايات بها، نحو ثلاثة آلاف دينار».

وحب الأ ننسى ما كنا قد اشرنا اليه من تداخل بين جند فلسطين وجند الاردن في فلسطين الحالية التي نرسم بعض عناصر صورتها، وبخاصة عند تدبّر هذه المقارنة في كمّ

الخراج والضرائب في أجناد بلاد الشام، لأن ذلك يزيد في دقة النظر الى العناصر التي نود الوقوف عندها في شخصية فلسطين.

وفي كلام المقدسي<sup>(٧٣)</sup> على تجارات بلاد الشام عامة يقول:

والتجارات به (اي باقليم بلاد الشام) مفيدة. يرتفع من فلسطين الزيت والقطن والزبيب والخروب، والملاحم، والصابون، والفوط، ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية، والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له، والمرايا، وقدر القناديل والابر، ومن اريحا نيل غاية. ومن زغر وبيسان النبل والتموز... ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد وبز. ومن قدس ثياب المنيرة والبلعسيّة والحبال.... ومن بيسان الرز.... ولا نظير لقطين وزيت الانفاق، وحواري وميازر الرملة، ولا لمعنة وقضم قريش وعينوني ودوري وترياق وسبح بيت المقدس». ولم يفك المقدسي<sup>(٧٤)</sup> الكلام على المكايل فقال: «وأما المكايل فلأهل الرملة القفير والويبة والمكوك والكيلجة. فالكيلجة نحو صاع ونصف. والمكوك ثلاث كياج والويبة مكوكان. والقفيز اربع وبيات. وينفرد اهل ايليا (اي بيت المقدس) بالمدى وهو ثلثا قفيز، وبالقب وهو ربع المدى. ولا يستعمل المكوك الا في كيل السلطان» ويواصل المقدسي<sup>(٧٥)</sup> الكلام على المكايل فيما يعطينا بعض عناصر المقارنة بين اجزاء بلاد الشام عامة في هذا الشأن فيقول: «ومدى عمان ست كياج، وقفيزهم نصف كيلجة وبه يبيعون الزيت والقطن. وقفيز صور مدى ايليا، وكيلجتهم صاع. وغرارة دمشق قفيز ونصف بالفلسطيني. والأرطال من حمص الى الجفار ستمئة، غير انه يتفاوت، فأملاه (اي اكثره امتلاء) رطل عكا، واقله الدمشقي. ووقيتهم من خمسين درهم الى بضع وربعين. كل رطل اثنتا عشرة اوقية. ورطل قنشرين ثلثا هذا».

وقدم تكلم الجغرافيون الأجداد عن بعض الأسواق في فلسطين فقال ياقوت الحموي<sup>(٧٦)</sup> في كلامه على رفح: «منزل في طريق مصر: بعد الداروم بينه وبين عسقلان يومان للقاصد مصر. وهو اول الرمل. خرب الآن» ثم ينقل عن المهلبى فيقول: «رفح مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق».

ويقول الاصطخري<sup>(٧٧)</sup>: «وآخر مدن فلسطين مما يلي جفار مصر مدينة يقال لها غزة، فيها قبر هشام بن عبد مناف، وبها مولد محمد بن ادريس الشافعي، وقبره بالفسطاط، وفيها استغنى عمر بن الخطاب في الجاهلية، لانها كانت متجراً لأهل الحجاز».

ومع ان هذا الكلام عن غزة في الجاهلية الا انه يعطينا فكرة عن اهمية سوق غزة

التجاري منذ وقت مبكر في الحياة العربية.

وقال ابن بطوطة<sup>(٧٨)</sup> في رحلته: «ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر، متسعة الاقطار كثيرة العمارة، حسنة الاسواق».

وقال مجير الدين الحنبلي<sup>(٧٩)</sup> في كلامه على الرملة: «وما صفة مدينة الرملة قديماً قبل الاسلام وبعده، الى حدود الخمسمئة هجرية (١١٠٦م) فكان بها سور محيط بها. وكان لها قلعة واثنان عشر باباً. منها باب القدس، وباب عسقلان وباب يافا، وباب نابلس. ولها اربعة اسواق متصلة من اربعة ابواب الى وسطها. وهناك مسجد جامعها. وهي اسواق كانت حسنة، يباع بها أنواع السلع. ويتصل بباب القدس سوق القطنين الى سوق المشاطين للكتان، الى سوق العطارين الى المسجد الجامع. ويتصل بباب آخر من أبوابها سوق الصياقلة ثم الى سوق السراجين الى المسجد الجامع.

ويقال ان الرملة كانت اربعة آلاف ضيعة. وتقدم ان السلطان الملك الناصر صلاح الدين هدم قلعتها، وهدم مدينة لد في شهر رمضان سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م. وما في عصرنا فلم يبق اثر لتلك الاوصاف التي بالرملة وقد زالت اسوارها وسواقها القديمة لاستيلاء الفرنج عليها نحو مئة سنة ولم يبق من المدينة ثلثها بل ولا ربعها. وبني فيها مساجد ومنابر مستجدة من زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وبعده. والموجود الآن من الابنية في المدينة معظمه خراب متهدم.

.....  
ثم لما فتح الملك الظاهر بيبرس يافا سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م عمّر القبة التي على المحراب والباب المقابل للمحراب وهو المجاور للمنبر الذي يخطب عليه العيد وعمر المنارة القديمة. وقد زالت وبني عوضها المنارة الموجودة يخطب عليه العيد وعمر المنارة القديمة. وقد زالت وبني عوضها المنارة الموجودة الآن.

وما المدينة يومئذ فقد تفهقرت ونقصت جداً، وقَلَّ سكانها. ومع ذلك فهي مقصودة للبيع والشراء ولا تخلو من بركة في معيشتها».

ويقول خسرو<sup>(٨٠)</sup> المتوفي سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م)، في كلام له على القدس: «وهي مدينة كبيرة كان بها، في ذلك الوقت، عشرون الف رجل، وبها اسواق جميلة، وبنية عالية، وكل ارضها مبلطة بالحجارة، وقد سوّوا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة بحيث



تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الامطار».

وما مدينتا يافا وعكا وما في كل منهما من ميناء فقد اشار لهما اجدادنا كذلك.

قال ابو الفداء<sup>(٨١)</sup>: «مدينة يافا بلدة صغيرة، كثيرة الرخاء، ساحلية، من الفرض الشهيرة. ومدينة يافا كانت حصنا كبيرا فيه اسواق عامرة، ووكلاء تجار، وميناء كبير، فيه مرسى المراكب الواردة الى فلسطين، والمقلعة منها الى كل بلد، وبينها وبين الرملة ستة أميال، وهي في الغرب من الرملة».

وقال ابن جبير<sup>(٨٢)</sup> المتوفي سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) في كلامه على صور مشيرا الى عكا: «فشأن هذه الميناء - اي صور - شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكا مثلها في الوضع والصفة. ولكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وانما ترسو خارجها. والمراكب الصغار تدخل اليها، فالصورية اكمل واجمل وحفل».

وقال ابن جبير<sup>(٨٣)</sup> أيضاً في كلامه على عكا: «عكا هي قاعدة مدن الافرنج في الشام ومحط الجوّاري والمنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية، مجمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من كل الآفاق. سككها وشوارعها تغص بالرخام، وتضيف فيها مواطىء الاقدام».

### في الصناعة والمعادن:

ولم تخل اشارات اجدادنا الجغرافيين من كلام على بعض الصناعات والمعادن في فلسطين.

فقال ناصر خسرو<sup>(٨٤)</sup>: «وفي طبريا يصنعون الحصير، ومنه حصر الصلاة. وتشتري الواحدة بخمسة جنهات مغربية».

وقال المقدسي<sup>(٨٥)</sup>: «بيت جبرين مدينة سهلية جبلية، رستاقها الداروم. فيه مقاطع الرخام وميرة القصبه، وخزانة الكورة».

وقال ياقوت الحموي<sup>(٨٦)</sup> في كلام له على جند الأردن نقلاً عن البلاذري:

«ولم تزل الصناعة من الاردن بعكا الى نقلها هشام بن عبد الملك الى صور. وبقيت على ذلك الى صدر مديد من ايام بني العباس حتى اختلف باختلاف المتغلبين على الثغور الشامية».

وقال أبو الفداء<sup>(٨٧)</sup> في كلام له على اريحا: «وعنده (أي المكان الذي تعمد فيه السيد المسيح) مقالع الكبريت. وليس بفلسطين معدن غيره. قال: بأريحا تزرع الوسمة فيعمل منها النيل».

وقال القزويني<sup>(٨٨)</sup> في كلامه على اريحا: «ذات نخيل وموز، وسكر كثير».

وقال أبو الفداء<sup>(٨٩)</sup> في كلامه على بحيرة زغر: «وهي تقذف بشيء يسمى الحمّر. ويلطخ منه أهل أهل تلك البلاد بكرومهم وأشجار تينهم. ويزعمون أنه للشجر كالتلقيح للنخيل.»

وقال الدمشقي<sup>(٩٠)</sup> المتوفى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) في كلامه على بحيرة زغر: «إن أرضها شديدة الحرارة، ومعادنها كبريتية ملتبة، فهي لا تزال ترقأ بخارا متحللا يخلقه الماء الداخل، ويتحلل بخارا كذلك».

ويلخص المقدس<sup>(٩١)</sup> كلاماً عن المعادن عامة باقليم بلاد الشام فيقول منه عن فلسطين: «وفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعادن للرخام بيت جبرين، وبالاعوار معادن كبريت وغيره. ويرتفع من البحيرة المقلوبة (أي البحر الميت) ملح منشور. وخير رمي السعتر بايليا وجبل عاملة. وجود المرى (أي المرايا جمع مرآة) ما عمل بأريحا».

وقال الشيخ عبد بن اسماعيل بن عبد الغني المعروف بالنابلسي<sup>(٩٢)</sup> ( المتوفى سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م) في الكلام على الحمّر: «وهو نوعان، أحدهما يوجد على السواحل عندما يقذفه البحر، والآخر يحتفر عليه فيستخرج من تلك الأراضي بقرب الساحل. ويصفونه مما اختلط به من الحصى والتراب بالماء الحار والنار كما يصفون الشمع من العسل. وهذا يكون مطفي اللون كمدا ليس له بصيص شديد، تقترب رائحته إلى القير العراقي. وما الذي تقذفه البحيرة يكون في الشتاء عند هيجان البحر، فهو بصاص غير مطفي اللون وفي رائحته شبه النفط. وجوده الفريري الرزين القوي. وقد يغشّ بالزفت، ويكون لونه أسود. وكذا العتيق الخالص منه، فإنه يكون أسود أيضا. والمحتفر عليه أجود من الطافي. وهو الذي يدخل الترياق. وهما حاران يابسان... وهل بلاده يحلونه بالزيت، ويطلون به الكروم لتسلم من الدود. وهو يلصق الجراحات الطرية بدمها. وهو يقوم مقام الموميا. بل بعضهم يؤثره عليه. ينفع في رض اللحم والكسر ضمادا. ودخانته وشمة ينفع للاوجاع العارضة في النساء، ولخروج الرحم، والاختناق وينفع من السعال المزمن، وضيق النفس، ونهش الهوام، وعرق النساء. وإذا ابتلع منه مقدارا الحزنوتين أو الثلاثة محببة قطع الاسهال الرطوبي المزمن. وإذا

استنشق دخانه نفع من النزلات. واذا وضع على السن الوجعة سكن وجعها. ودخانه يطرد الحيات والعقارب والهوام والبق وغيرها. ويقتل الديدان في اي موضع حتى في الآبار والصحاري وما فيها من العلق. ولهذا يستعمل مع الزيت في الكرم لقطع الديدان كما تقدم. وهذه الحكمة لا يتولد في البركة المذكورة (اي البحر الميت) ذو روح.

وقال المقدسي<sup>(٩٣)</sup> في كلامه على عسقلان: «بهية فاضلة طيبة حصينة، قرّها فائق وخيرها دافق، والعيش فيها رافق، اسواقها حسنة».

وقال ناصر خسرو<sup>(٩٤)</sup> في الكلام على حيفا: «ثم غادرتها (اي عكا) الى قرية تسمى حيفا في طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صيّاح العجم، والمسمى بالرمل المكّي. وحيفا مشيدة على البحر، وبها نخل وشجار كثيرة. وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي».

أما بعد، هذه الخطوط العريضة في صورة فلسطين الاجتماعية والاقتصادية فهناك بعض الخطوط الأخرى الأقل سعة في نتف حول امور ثقافية وعمرانية في شخصية فلسطين، لعل من الخير الإشارة الى ابرزها.

### في الامور الثقافية:

ذكر القزويني<sup>(٩٥)</sup> في الكلام على طبريا انه «ينسب اليها (اي طبريا) سليمان ابن احمد بن يوسف الطبراني، احد الائمة المعروفين والحفاظ الكثيرين، والمشايخ المعمرين. من تصانيفه: المعجم الكبير من اسماء الصحابة، لم يصنّف مثله.

ذكر ابو الحسين احمد بن فارس، صاحب المعجم، قال: سمعت الاستاذ ابن العميد، وزير آل بوية يقول: كنت اظن ان لا حلاوة في الدنيا فوق الرئاسة، حتى شاهدت مذاكرة سليمان الطبراني وبي بكر الجعاني، فكان الطبراني يغلب الجعاني بكثرة حفظه، والجعاني يغلب الطبراني بزيادة فطنته، حتى ارتفعت اصواتهما، ولا يكاد يغلب احدهما الاخر. الى ان قال الجعاني: عندي حديث ليس عند احد. فقال الطبراني: هاته. فقال: حدثني ابو خليفة قال: حدثني سليمان بن ايوب، وذكر الحديث. فقال الطبراني: انا سليمان بن ايوب، ومنى سمع ابو خليفة، فاسمعه منى حتى يعلو اسنادك. فخرجل الجعاني. وقال ابن العميد: «فوددت ان الوزارة للطبراني، ونا الطبراني. وفرحت كما فرح هو».

وقال ياقوت الحموي<sup>(٩٦)</sup> في كلامه على عسقلان: «عسقلان يقال لها عروس الشام.

وهي كانت مدينة كورة فلسطين على ساحل بحر الشام. نزلها جماعة من الصحابة وهي قديمة فتحها المسلمون في ايام عمر بن الخطاب. ولم تنزل بأيدي المسلمين على احسن حال يحتلها العلماء، وينبع منها اهل الصلاح والفقهاء، الى ان استولى عليها الفرنج، خذلهم الله، في الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م فبقيت في ايديهم خمسة وثلاثين عاما. ثم استنقذها صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م مع بيت المقدس.

في كلام على قرية بيت مامين قال ياقوت الحموي<sup>(٩٧)</sup>: «بيت مامين قرية من قرى الرملة. مات بها ابو عمير عيسى بن محمد بن اسحاق، ويقال ابن محمد بن عيسى الرملي يعرف بابن النحاس. روي عنه ابو زرعة و ابو حاتم الرازيان، وتلك الطبقة. وروي عنه يحيى بن معين، ومات يحيى قبله بثلاث وعشرين سنة. وسئل عنه يحيى فوثقه وكان من الصلحاء الاخيار. وروي عنه البخاري ايضا. قال ابن زيد: ومات سنة ٢٥٦ في بيت مامين، وحمل الى الرملة فدفن بها لثمانية ايام مضت من المحرم».

وفي هذا الكلام الذي أوردته ياقوت دلالة ساطعة على مكانة هذا العالم الكبير المعروف بابن النحاس، وعلى مستوى العلماء الكبار الذين رووا عنه حتى كان البخاري، وهو من هو في علو المنزلة، من الذين رووا عنه.

وقال ياقوت الحموي<sup>(٩٨)</sup> في كلام له على يازور: «يازور بالنزاء والواو ساكنة ثم راء، بليدة بسواحل الرملة من اعمال فلسطين بالشام ينسب اليها وزير المصريين الملقب بقاضي القضاة ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري. وكان ذا همة ممدحا. وحمد بن محمد بن بكر الرملي أبو بكر القاضي اليازوري الفقيه احدث عن الحسن ابن علي اليازوري. حكى عنه اسود بن الحسن البرذعي و ابو القاسم علي بن محمد بن زكريا الصقلي الرملي، و ابو الحسن علي بن احمد بن محمد الحافظ».

ومثل هذه الإشارة وسابقتها مما ورد عن ياقوت الحموي يدخل في عداد الاشارات التي تبين ان مراكز الثقافة العربية الاسلامية كانت متشابهة في البلاد الاسلامية ون القرى في فلسطين الى جانب المدن كانت لا تخلو من هذه المراكز ومن العلماء الذين تشد اليهم الرحال.

وفي رحلة ابن بطوطة ما يشير الى جانب من الثقافة العربية الاسلامية في بعض نواحي

فلسطين، فهو حين دخل فلسطين من مصر يذكر شيئاً من هذا الجانب، وهو حين يعود من الجزء الشمالي من بلاد الشام ويمر بفلسطين عائداً إلى مصر في مرحلة من مراحل رحلته يذكر شيئاً آخر.

قال ابن بطوطة: «ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر، متسعة الاقطار كثيرة العمارة، حسنة الاسواق، بها المساجد العديدة، والاسوار عليها. وكان بها مسجد جامع حسن. والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناه الامير المعظم الجاولي، وهو انيق البناء، محكم الصنعة، ومنبره من الرخام الأبيض. وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحوراني، ومدرسها علم الدين بن سالم. وبنو سالم كبراء هذه المدينة، ومنهم شمس الدين قاضي القدس<sup>(٩٩)</sup>.

وقال ابن بطوطة أيضاً: «ثم سافرت إلى عجلون، ثم إلى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنه. ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة ابن عم عز الدين قاضي القضاة بمصر، وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبة على الخطابة ألف درهم في الشهر. وصنع الخطيب عز الدين يوماً دعوة ودعائي فيمن دعا إليها، فسأته عن سببها فأخبرني انه نذر أيام الوباء انه ان ارتفع ذلك، ومر عليه يوم لا يصلي فيه على ميت، صنع الدعوة. ثم قال لي: ولما كان بالأمس لم أصل على ميت، فصنعت الدعوة التي نذرت. ووجدت من كنت اعهدده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى، رحمهم الله. فلم يبق منهم الا القليل مثل المحدث العالم الامام صلاح الدين خليل بن كيكليدي العالائي، ومثل الصالح شرف الدين الخشي شيخ زاوية المسجد الاقصي. ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي. فأضافني. ولم ألق بالشام ومصر من وصل إلى قدم آدم عليه السلام سواه. ثم سافرت عن القدس، ورافقني الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام، وزرناه ومن معه من الانبياء عليهم السلام. ثم سرنا إلى غزة، فوجدنا معظمها خالياً من كثرة من مات بها في الوباء. وخبرنا قاضيها ان العدول بها كانوا ثمانين فبقي منهم الربع، وان عدد الموتى بها انتهى إلى الف ومئة في اليوم. ثم سافرنا في البر فوصلت إلى دمياط.<sup>(١٠٠)</sup>.

وقد وردت نتف من الكلام على المدارس في فلسطين عند اجدادنا الجغرافيين:

فذكر الشيخ عبد بن اسماعيل النابلسي<sup>(١٠١)</sup> في الكلام على معالم بيت المقدس، «ثم مررنا على المدرسة الصلاحية لتبرك بها ونشهد آثار العلماء الذين اقاموا بها الدروس سابقاً من

علماء الاسلام. فدخلناها فوجدنا مدرسة عظيمة الآثار ابنتها قديمة».

وقال عز الدين بن الاثير (١٠٢) « لما فتح صلاح الدين بيت المقدس، اقام بظاهره الى ٢٥ من شعبان، ثم رتب امور البلد وحواله. وتقدم بعمل الرّبط والمدارس، فجعل دار الاستبار مدرسة للشافعية، وهي في غاية ما يكون من الحسن».

وقال غرس الدين خليل بن شاهيم الظاهري (١٠٣) المتوفى سنة ٨٧٢هـ / ١٣٥٥م في الكلام على القدس ووصافها وفضائلها الجمّة: « وبها مدارس كثيرة وخانات وحمامات وعمائر حسنة».

وقد كتب ابو العباس شهاب الدين بن فضل الله العمري (١٠٤) المتوفى (٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) في كتابه المسالك عن المسجد الاقصى كتابة موسّعة، نقل فيها ما يليق بموضع المسجد الاقصى حسب تعبيره عن كتاب صغير الفه الصاحب تاج الدين ابو الفضائل احمد بن امين الملك واسمه « سلسلة العسجد في صفة الصخرة والمسجد».

وقد ورد فيما نقله ابن فضل الله العمري امور عمرانية مهمة ومفصلة، وتنف عن المدارس. ومن هذه المدارس: المدرسة المعظيمة، ويقول العمري انها بالقرنة القبليّة من جهة غربي الصحن (أي صحن المسجد الاقصى).

ويتكلم فيما يتكلم عن قبة الملك المعظم، ويقول ان الملك المعظم رتب للقبة إماماً مفرداً يصلي الصلوات الخمس، ورتب بها خمسة وعشرين نفراً من طلبة النحو، وشيخاً لهم، وشرط أن يكونوا حنفية من جملة مدرسته التي خارج الحرم، ووقف على ذلك قرية تسمى «بيت لقياً» من عمل القدس الشريف. ولا يفوت العمري ان يشير الى مزولة المدرسة، ون يذكر اوصاف هذه المزولة.

ومن المدارس التي ذكرها العمري المدرسة الكريمة، ويقول ان الذي بناها كريم الدين عبد الكريم، ناظر الخواص الشريفة السلطانية الناصرية. ويذكر كذلك مدرسة آل ملك وخانقاه الاسعدي فيقول: «وبأعلاه مدرسة الامير سيف الدين الحاج آل ملك الجوكنداري، وخانقاه مجد الدين الاسعدي التاجر».

ثم يذكر مدرسة الجاولي فيقول: «وبأقصى ارتفاع هذا السور خمسة شبايك لمدرسة الامير علم الدين سنجر الجاولي».

وقد كتب مجير الدين الحنبلي في اوصاف المسجد الاقصى وملحقاته واجزائه وما يتصل به تفصيلات مهمة،<sup>(١٠٥)</sup> وفي كلامه على ائمة المسجد يذكر المدرسة التي بناها السلطان الملك الاشرف.<sup>(١٠٦)</sup>

وثناء الكلام على مصاييح المسجد يقول<sup>(١٠٧)</sup>: «وما الوظائف المرتبة فيه (اي في المسجد) والمدرسون والمعيدون والخدام والمؤذنون والقراء وغيرهم فكثير جدا».

وقال غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري<sup>(١٠٨)</sup> في كلامه على صنفد: «وبها جوامع ومدارس ومزارات، وماكن حسنة، وحمامات، وسواق».

وقال غرس الدين الظاهري<sup>(١٠٩)</sup> في كلامه على الرملة: «وهي مدينة حسنة، بها جوامع ومدارس ومزارات».

اما الامور العمرانية فتكاد تكون في الدرجة الاولى مركزة اخبارها في الاماكن المقدسة في فلسطين، ومن اراد ان يطلع على اوصاف المسجد الاقصى فليرجع الى ما كتبه ابن فضل الله العمري، ومجير الدين الحنبلي مثلا (من اشرنا الى جانب منه سابقا) ليجد التفصيل في الكلام على امور هندسية وعمرانية ومقدسة، وكذلك كلام الجغرافيين العرب عن الاماكن المقدسة الاخرى ككنيسة القيامة مثلا<sup>(١١٠)</sup>، وكنيسة بيت لحم<sup>(١١١)</sup>، وكنيسة اليعاقبة<sup>(١١٢)</sup> بالقدس.

غير ان تنفا عمرانية وردت حول اعمار الرملة وما بذله الامويون فيها مثلا اوردها البلاذري<sup>(١١٣)</sup> واليعقوبي<sup>(١١٤)</sup>. وتنفا اخرى وردت عن مساجد في عدة من المدن الفلسطينية، وكلها تدل على مستوى عمراني مرموق. ولكن اشارة اوردها المقدسي<sup>(١١٥)</sup> عن عكا جديرة بالتنويه في هذا المجال.

قال المقدسي: «عكا» مدينة حصينة على البحر، كبيرة الجامع في غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة. ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها، واستداره الحائط على مينائها. فأحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء. فجمع صناع الكورة، وعرض عليهم ذلك. فقليل: لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان. ثم ذكر له جدنا<sup>(١١٦)</sup> ابو بكر البناء، وقيل ان كان عند احد علم هذا فعنده. فكتب الى صاحبه على بيت المقدس، حتى انهضه اليه. فلما صار اليه وذكر له ذلك، قال: هذا امر هيّن. عليّ بفلق الجميز الغليظة.

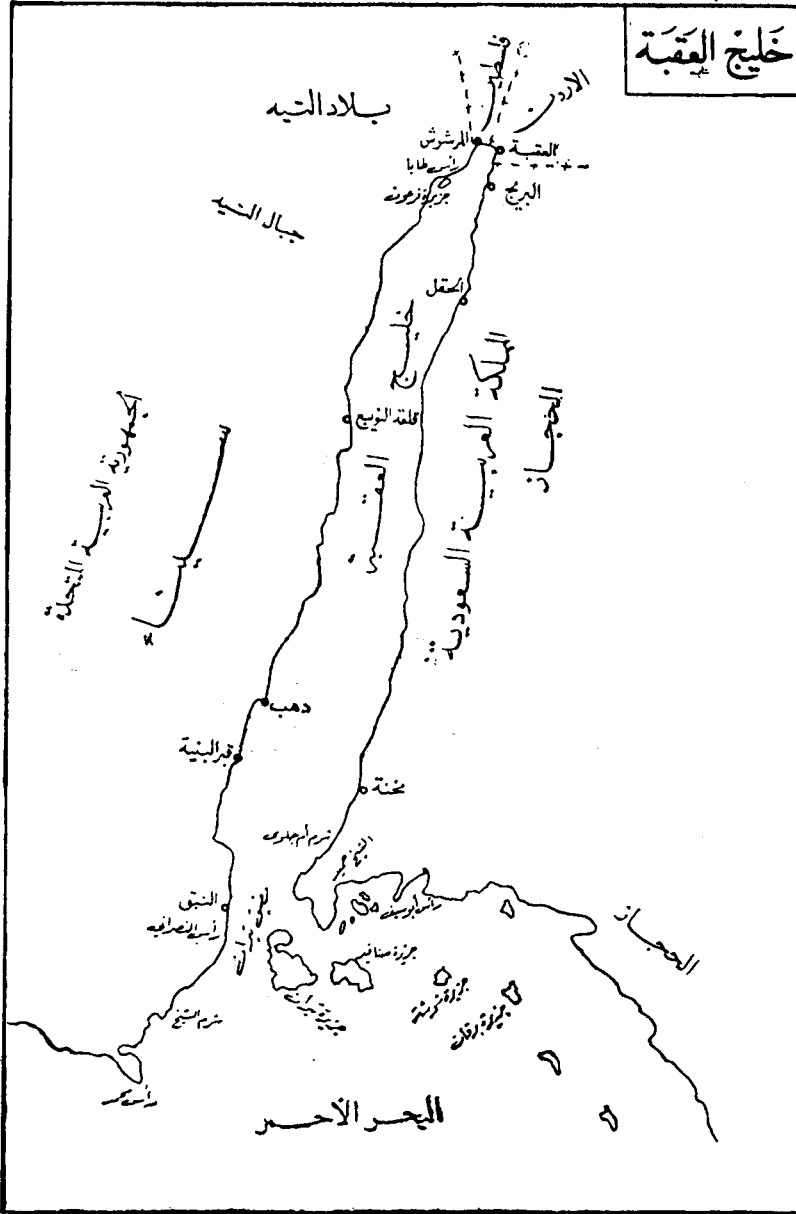
فصّفها على وجه الماء بقدر الحصن البري، وخبّط بعضها ببعض، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً. ثم بنى عليها بالحجارة والشيد. وجعل كلما بنى خمس دواميس ربطها بأعمدة غلاظ، ليشند البناء. وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت. حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً، حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك. وكلما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخبّطه به. ثم جعل على الباب قنطرة. فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور. قال فدفع اليه ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب. واسمه عليه مكتوب».

وكذلك تجدر الاشارة الى ما ذكره ناصر خسرو<sup>(١١٧)</sup> عن المستشفى الذي شاهده في القدس فقال: «في بيت المقدس مستشفى عظيم عليه اوقاف طائلة، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء. وبه اطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف. وهذا المستشفى ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادي جهنم».<sup>(١١٨)</sup>

وبعد، فأرجو ان تكون هذه العناصر التي لم تكمل من صورة فلسطين في كتب الجغرافيين العرب حافزاً لان تستقصي في كتب غيرهم في مقام آخر لنتم بذلك صورة فلسطين وتطور ألوان حياتها عبر العصور.

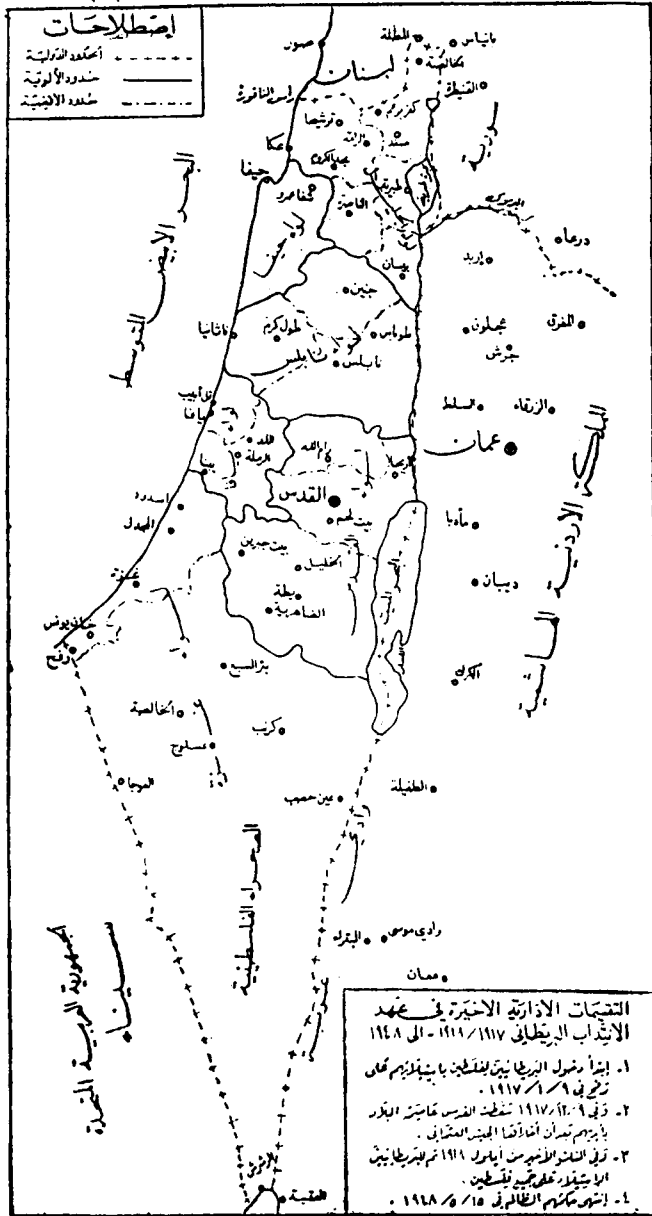






أخذت هذه الخريطة عن كتاب «بلادنا فلسطين»  
للأستاذ مصطفى مراد الدباغ ج قسم

خريطة رقم ٥٣٥



أخذت هذه الخريطة عن كتاب «بلادنا فلسطين»

للأستاذ مصطفى مراد الدباغ ج قسم

## مصادر البحث

- ١ - الاب أ.س مرمرجي الدومنيكي: هو احد اساتذة المعهد الكتاني والاثار في القدس الشريف وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق، ألف كتابه «بلدانية فلسطين» وجمع فيه ما قاله الجغرافيون العرب عن فلسطين وأبجدها وترجمها الى الفرنسية وقد طبع كتابه هذا بالعربية بمطبعة جان دارك ببيروت سنة ١٩٤٨.
- ٢ - مصطفى مراد الدبّاغ: بدأ الجزء الأول من القسم الأول من كتابه «بلادنا فلسطين» ضمن منشورات دار الطليعة ببيروت في كانون الثاني سنة ١٩٦٥.
- ٣ - انظر مثلاً: محمد اديب العامري في كتابه: عروبة فلسطين في التاريخ الحقائق التاريخية والمكتشفات الاثرية تجاه المزارع الصهيونية - منشورات المكتبة العصرية، بيروت صيدا، اغسطس سنة ١٩٧٢ وانظر للمؤلف نفسه كتابا بعنوان «القدس العربية» يعد مدخلا للكتاب السابق.

\* يمكن الاستعانة في تبين بعض المواقع والبلدان الى الخرائط المرفقة.

- ٤ - اذ رسمت حدود فلسطين بهذا الاتفاق، فصارت تمتد من رأس الناقورة الواقع على البحر الابيض المتوسط باتجاه الشرق ثم باتجاه الشمال الشرقي الى «المطلة» والى «بانياس» وبعد ذلك يسير خط الحدود باتجاه الجنوب الغربي الى «جسر بنات يعقوب» ومن ثم يسير باتجاه الجنوب على طول نهر الاردن حتى بحيرة طبرية وساحلها الشرقي الى نقطة تكاد تكون الى الشرق من مدينة طبرية حيث ينحرف خط الحدود في اتجاه الجنوب الشرقي الى ان يصل محطة «الحمة» الواقعة على سكة حديد درعا - سمخ. وحسب هذا التحديد تقع جميع «بحيرة الحولة» وحوضها و «بحيرة طبرية» بأكملها في فلسطين ويتألف القسم الفلسطيني الواقع شرقي البحريرتين من قطاع ضيف يمتد على طول ساحل بحيرة الحولة الشرقي، وقطعة ضيقة تقع شرقي بحيرة طبرية يتراوح عرضها بين ١٠ و ٢٠٠٠ متر على اكثر تعديل.

وما الحدود مع شرقي الأردن، فقد حدّدها المندوب السامي البريطاني لفلسطين وشرقي الأردن في ١/ايلول/١٩٢٢، وهي تبدأ من نقطة اتصال اليرموك بالأردن فتسير جنوباً من منتصف مجرى نهر الأردن وبحيرة لوط ووادي العربة حيث تنتهي في ساحل خليج العقبة على بعد ميلين غربي مدينة العقبة. وكانت الحدود بين فلسطين ومصر قد حددت بموجب الاتفاقية المعقودة في اول اكتوبر سنة ١٩٠٦ بين خديوية مصر والحكومة العثمانية وتمتد من «تل الخرائب» في «رفح» على ساحل البحر الابيض المتوسط وتنتهي في «رأس طابا» على خليج العقبة، وخط الحدود هذا يكاد يكون مستقيماً

انظر في هذه الحدود مصطفى مراد الدبّاغ، «بلادنا فلسطين»، منشورات دار الطليعة، الجزء الأول، القسم الأول، ص ١٧ وما بعدها.

وانظر أيضاً: المصدر نفسه ص ١٥ لتجد أن فلسطين الحالية تقع بين خطي عرض ٣٠ ٢٩ شمالاً وبين خطي طول ٣٤ ١٥ و ٤٠ ٣٥ شرقي غرينتش.

وانظر كذلك: محمد بن موسى الخوارزمي: صورة الأرض، طبع فينا سنة ١٩٢٦ م ١٣٤٥ هـ، ص ١٧، ١٨ حيث نجد خطوط الطول والعرض الواقعة عليها المدن الفلسطينية التي ذكرها وهي: غزة، عسقلان، الرملة، يافا، بيت المقدس (ايلياء)، ارسوف، قيسارية، عكا، طبريا.

وانظر أيضاً: عماد الدين اسماعيل ابو الفداء: «تقويم البلدان»، تحقيق رنود وديسلان طبع باريس سنة ١٨٤٠ وخاصة الجدول الخاص ببلاد الشام حيث يذكر خطوط الطول والعرض لمدينة هذا الاقليم.

- ٥ - انظر مصطفى مراد الدباغ: «بلادنا فلسطين»، القسم الأول - الجزء الأول ص ٢١.
- ٦ - «المسالك والممالك» طبع بريل ١٨٨٩ صورة عنه بالأوفست من عمل مكتبة المثنى ببغداد ص ٢٥١.
- وانظر كذلك ص ٧٧- وما بعدها من هذا المصدر حيث يذكر حجم الخراج في هذه الاجتاد، وكذلك ص ٢٥٥ حيث يتكلم عن الثغور البحرية الأربعة من أجناد بلاد الشام.
- ٧ - معجم البلدان نشر وستفلد بلييسك (١٨٦٦-١٨٧٣ م) مجلد ١ ص ١٣٦.
- ٨ - ابو جعفر احمد بن يحيى بن جابر البلاذري البغدادي (+ ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م).
- ٩ - الامكنة والبقاع، اختصر اليافعي كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي و اضاف اليه بعض المعلومات الاخرى. وقد نشره جوينبول، بليدن سنة ١٨٥٠ م، ج ١ ص ٢٧.
- ١٠ - وعلى الأخص ما ورد لدى الجغرافيين العرب التالية اسماؤهم:  
أ) أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي:  
صورة الأرض، طبع في فينا سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م).
- ب) ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة:  
المسالك والممالك مطبوعة بريل سنة ١٨٨٩، وتصوير مكتبة المثنى ببغداد (أوفست)
- ج) ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (المعروف بالكرخي) + ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م).  
كتابة مسالك الممالك (وهي معمول على كتاب صور الاقاليم للشيخ ابي زيد) احمد ابن سهل البلخي + ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م).
- وقد نشر كتاب مسالك الممالك دي غويه بليدن سنة ١٨٧٠. وللاصطخري ايضا كتاب الاقاليم نشر ملر بغوتنجن سنة ١٨٣٩.
- د) ابو الحسن كلكي بن الحسين بن علي المسعودي + ٣٤٦ هـ.  
كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر نشر باريه دي مينار وبأوة دكورتل بياريس سنة ١٨٨٢.
- هـ) ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادي: + منتصف القرن ٤ هـ.  
كتابه المسالك والممالك (وهو على نمط كتاب الاصطخري مع اضافات زهيدة نشر دي غويه بليدن سنة ١٩٧٢. وكتابه صورة الأرض طبع بيروت ١٩٦٣.
- و) ابو عبد الله بن عبد العزيز البكري + ٤٨٧ هـ.  
كتاب معجم ما استعجم نشر وستفلد بغوتنجن سنة ١٨٧٧ ونشرة الأستاذ مصطفى السقا بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.
- ز) المقدسي: احسن التقاسيم. وانظر ايضا مصادر الاب مرمرجي الدومينيكي.
- ١١ - كتاب صورة الأرض طبع فينا سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) الفه الخوارزمي من المدن والجبال والبحار والجزائر والانهار واستخرجه من كتاب «جغرافيا» الذي الفه بطليموس القلودي.
- ١٢ - هو ابو عبد الله محمد بن عبيد الله بن محمد بن ابراهيم الطنجي الملقب بشمس الدين ابن بطوطة.
- ١٣ - هو عماد الدين اسماعيل بن علي بن شاذي الملك المؤيد صاحب حماة، ص ٢٢٤.  
طبع كتابه بياريس سنة ١٨٤٠ م تحقيق رينود والبارون دي سلين،  
وانظر مثلا: اليمن عبد الرحمن بن محمد بن محير الدين الخنيلي في كتابه «الانس الجليل بتأيج القدس والخليل»،  
المطبعة الوهيبية في مجلدين، القاهرة، ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م)، ص ٤١٦.
- ١٤ - زغر: بلدة قرب البحر الميت. يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان طبع لبيسك ج ٢ ص ٩٣٣. زغر قرية في

- مشارف الشام... اسم بنت لوط نزلت بهذه القرية فسميت باسمها زغر هذه في طرف البحيرة المنتنة (القصص البحر الميت) في واد هناك.
- ١٥- ايلة: أي العقبة.
- ١٦- المسالك والممالك ٧٨.
- ١٧- المصدر السابق ٧٨.
- ١٨- يجدر التنبيه الى ان السامرة غير نابلس والسامرة كانت من جند الأردن، اما نابلس فكانت من جند فلسطين.
- ١٩- انظر مثلاً: ابن خرداذبة في المسالك والممالك ص ٧٨.
- وانظر: مصطفى مراد الدباغ، «بلادنا فلسطين» الجزء الأول القسم الأول ص ٦٣٥.
- ٢٠- احمد بن ابي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي / كتابه «البلدانية» نشر دي غويه بليدن سنة ١٨٩١ ص ٣٢٨.
- ٢١- المصدر نفسه ص ٣٢٩.
- ٢٢- المصدر نفسه ص ٣٢٦.
- ٢٣- البلدانية ص ٣٢٨.
- ٢٤- معجم البلدان ص ٧٩٦.
- ٢٥- عبد الله بن عبد العزيز البكري: معجم ما استعجم (نشر وستنفلد غوتنجن سنة ١٨٧٧) ج ٢، ص ٦٩٥.
- ٢٦- صفي الدين بن عبد الحق اليافعي، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع - نشر جوينبول - ليدن سنة ١٨٥٠ ج ٣ ص ٣٠.
- ٢٧- مع ان هذا الكتاب هو في باب التاريخ ادخل الا ان عنصرا من الجغرافيا يبرز فيه والبلاذري: هو ابو جعفر احمد بن يحيى بن جابر - نشر كتابه هذا دي غويه بليدن سنة ١٨٦٦، انظر ص ١١٦ منه.
- ٢٨- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- ٢٩- كتابه البلدانية ص ٣٢٧.
- ٣٠- مراصد الاطلاع ج ١ ص ٤٦.
- ٣١- شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء البشاري المعروف بالمقدسي: كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» نشر دي غويه بليدن سنة ١٩٠٦ ص ١٧٤.
- ٣٢- مراصد الاطلاع ج ١ ص ٧١٩.
- ٣٣- احسن التقاسيم ص ١٧٤.
- ٣٤- ابو العباس احمد القلقشندي: صبح الاعشى نشر المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ م) ج ٤، ص ٩٨.
- ٣٥- اليعقوبي، بلدانية، ص ٣٢٧.
- ٣٦- الرحالة الفارسي ناصر خسرو كتب رحلته التي زار فيها فلسطين بالفارسية تحت عنوان «سفرنامه» نشر شفر، باريس ١٨٨١ وترجمها الدكتور يحيى الخشاب ونشر الترجمة العربية لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) انظر هذه الرحلة ص ١٨.
- ٣٧- المقدسي: احسن التقاسيم ص ١٧٩.
- ٣٨- المصدر نفسه.
- ٣٩- معجم البلدان ج ١ ص ٤٢٢.

- ٤٠- المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٨٢.
- ٤١- ناصر خسرو الترجمة العربية لرحلته (سفرنامه) ص ٣٥.
- ٤٢- احسن التقاسيم: ص ١١١، ١٨٥.
- ٤٣- اليمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين العلمي، الفخري، الحنبلي، المقدسي، كتابه الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل - نشر المطبعة والهيبية بالقاهرة سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) ص ٤٢٠.
- ٤٤- انظر مسالك الممالك الاصطخري ص ٥٦، وانظر المسالك ايضا لابي القاسم محمد بن حوقل ص ١١١.
- ٤٥- «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» انظر ص ١٧٩.
- ٤٦- المصدر نفسه ص ١٨٠.
- ٤٧- «تقوم البلدان»، نشر رينود ودي سلين، بباريس سنة ١٨٤٠، ص ٢٢٦.
- ٤٨- المصدر نفسه ص ٢٤١، انظر كلاما قريبا من هذا عند ابي اسحاق الاصطخري في مسالك الممالك» ص ٥٧، وانظر المقدسي ص ١٧٢ حيث يذكر ايضا كروم الخليل واعنابة وتفاحة ويقول ان الجبل يسمى نصره ولا احسن من فواكهه.
- ٤٩- ابو عبد الله محمد الشريف الادريسي ( من نسل الادريسيين العلويين الذين استولوا على غربي افريقية الشمالية) (المتوفى سنة ١٠٤٨ / ١١٥٤م) نزهة المشتاق، طبعة روما سنة ١٩٧٤، ١٩٧٤، ص ٣٥٦.
- ٥٠- معجم البلدان ص ٧٩٦.
- ٥١- ابو العباس احمد القلقشندي، «صبح الاعشى في كتابه الانشاء- وفيه مقالة في تقويم البلدان» نشر المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٩ ج ٤ ص ٩٨.
- ٥٢- تقويم البلدان ص ٢٣٩.
- ٥٣- احسن التقاسيم ص ١٧٤.
- ٥٤- المصدر نفسه.
- ٥٥- زكريا بن محمد بن محمود القزويني المتوفى سنة ٥٧٠٨هـ، ١٣٠٨م كتابة: «آثار البلاد وخبار العباد» نشر وستنفلد بغوتنجن سنة ١٨٤٩، ص ١٠٧.
- ٥٦- نشرة وستنفلد بغوتنجن سنة ١٨٤٦، ص ٩٥.
- ٥٧- سفرنامه- الترجمة العربية، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٥ ص ٢٠.
- ٥٨- احسن التقاسيم ص ١٨٤.
- ٥٩- معجم البلدان ج ١ ص ٨٦٠.
- ٦٠- المصدر نفسه ج ص ١٠٠٥.
- ٦١- معجم البلدان ص ٢٠٠.
- ٦٢- احسن التقاسيم ص ١٧٤.
- ٦٣- الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ص ٤٢٢.
- ٦٤- احسن التقاسيم ص ١٦٠.
- ٦٥- آثار البلاد وخبار العباد، نشر وستنفلد بغوتنجن سنة ١٨٤٩ ص ٢٠٠.
- ٦٦- ابو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي الملقب بشمس الدين ابن بطوطة كتابه «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» المعروف برحلة ابن بطوطة - نشر ديغرمري وسنغوينتي في اربعة مجلدات بباريس سنة ١٨٧٤-١٨٧٧ ج ١ ص ١٢٨.

- ٦٧- سفرنامه - الترجمة العربية - ص ١٨ .
- ٦٨- احسن التقاسيم ص ١٧٤ .
- ٦٩- سفرنامه - الترجمة العربية - ص ١٨ .
- ٧٠- احمد بن ابي يعقوب بن واضح اليعقوبي، كتابة «البلدانية» نشر دي غويه بليدن سنة ١٨٩١، ص ٣٢٨ .
- ٧١- احسن التقاسيم ص ١٨٩ .
- ٧٢- معجم البلدان، نشر وستنفلد بلييسك سنة ١٨٦٦-١٨٧٣، ص ٤٢٢ .
- ٧٣- احسن التقاسيم ص ١٨٠ .
- ٧٤- المصدر نفسه ص ١٨١ .
- ٧٥- المصدر نفسه والصفحة نفسها .
- ٧٦- معجم البلدان ص ٧٩٦ .
- ٧٧- مسالك الممالك ص ٥٩، وانظر تقويم البلدان ص ٢٣٩ لابي الفداء حيث ينقل عن ابن حوقل (المتوفي سنة ٣٦٧/٩٧٨م) في كتابه «المسالك والممالك» الذي جاء على غمط كتاب الاضطخري «مسالك الممالك» (المتوفي سنة ٣٤٠/٩٥١م) كلاما عن اثناء عمر بن الخطاب من المتاجرة في سوق غزة بالجاهلية .
- ٧٨- تحفة النظار - ص ١١٣ .
- ٧٩- الأنس الجليل بتأريخ القدس والخليل، ص ٤١٦ .
- ٨٠- سفرنامه - الترجمة العربية - ص ٢٠ .
- ٨١- تقويم البلدان ص ٢٣٩ .
- ٨٢- الحسن بن محمد بن جبير بن سعيد الكنانى الاندلسي البلسني، «رحلة ابن جبير» نشر رايت بليدن سنة ١٨٥٢، ص ٣٠٨، ٣١٣ .
- ٨٣- رحلة ابن جبير ص ٣٠٦ .
- ٨٤- سفرنامه - الترجمة العربية ص ١٧ .
- ٨٥- احسن التقاسيم ص ١٧٤ .

#### ملحوظة:

قال القزويني المتوفي ٥٧٠٨ (١٣٠٨م) في «آثار البلاد وخيار العباد» ص ١٤٨: عكا مدينة على ساحل بحر الشام من عمل الأردن من أحسن بلاد الساحل في ايمانها واعمرها. وفي الحديث: طوبى لمن رأى عكا. ثم قال: ولم تزل في ايدي المسلمين حتى أخذها الفرنج سنة ٤٩٧/١١٠٣ وكان عليها زهر الدولة الجيوشي من قبل المصريين... ولم تزل في ايديهم الى زمن صلاح الدين فافتتحها سنة ٥٨٣/١١٨٧م... فعاد الفرنج فنزلوا عليها.

- ٨٦- معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٠ .
- ٨٧- تقويم البلدان ص ٢٣٦ .
- ٨٨- آثار البلاد وخيار العباد، ص ٩٥ .
- ٨٩- تقويم البلدان ص ٢٢٨ .
- ٩٠- شمس الدين ابو عبدالله بن ابي طالب الانصاري الصوفي، «نخبة الدخر في عجائب البر والبحر»، نشر مهتر بكونها جن سنة ١٨٦٤ ص ١٠٨ .



- ٩١ - احسن التقاسيم ص ١٨٤ .
- ٩٢ - مخطوطة الحضرة السنية في الرحلة القدسية ورقة ٢٣٤ .  
( والنقل عن مخطوطة المتحف الفلسطيني ) وصف النابلسي في رحلته هذه زيارته للقدس التي تمت سنة ١١٠٤ هـ ١٦٨٥ م .
- ٩٣ - احسن التقاسيم ص ١٧٤ .
- ٩٤ - سفرنامة - الترجمة العربية - ص ١٨ .
- ٩٥ - اثار البلاد وخبار العباد ص ١٤٥ .
- ٩٦ - المشترك، نشر وستنفلد بغوتنجن سنة ١٨٤٦، ص ٣٠٨ .
- ٩٧ - معجم البلدان منشورات مكتبة الاسدي رقم ٧ طبعة طهران سنة ١٩٦٥، المجلد الأول، ص ٧٨١ .
- ٩٨ - المصدر السابق، المجلد الرابع، ص ١٠٠٢ .
- ٩٩ - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبع الاهرية بمصر سنة ١٩٢٨، الجزء الاول ص ٣١ .
- ١٠٠ - المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص ١٧٥-١٧٦ .
- ١٠١ - مخطوطة الصخرة السنية في الرحلة القدسية ٢٠١
- ١٠٢ - ابو الحسن علي الشيباني الجزري الملقب بعز الدين بن الاثير كتابه « الكامل في التاريخ » نشر نورينرغ بليدين ولييسك في ١٤ مجلدا من سنة ١٨٥١-١٨٧٦، ص ٣٦٦ .
- ١٠٣ - كتابه « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك »، نشر ريفس بياريس سنة ١٨٩٤، ص ٢٣ .
- ١٠٤ - مسالك الابصار في ممالك الامصار ( وهو معلمة في بضعة وعشرين مجلدا ) نشر الجزء الاول احمد زكي باشا بمطبعة دار الكتب المصرية . انظر ص ١٣٩-١٦٧ .
- ١٠٥ - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ما بين ص ١٠٦، و ص ٣٨٥ .
- ١٠٦ - المصدر نفسه ص ٣٨٤ .
- ١٠٧ - المصدر نفسه ص ٣٨٥ .
- ١٠٨ - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٤٤ .
- ١٠٩ - المصدر نفسه، ص ٤٢ .
- ١١٠ - نزهة المشتاق . ط روما ١٩٧٤ ص ٣٥٩ . « الاشارات في معرفة الزيارات » ورقة ٤٠، معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ١٧٣ .
- ١١١ - انظر: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ص ٤٠٤ .
- ١١٢ - الاشارات في معرفة الزيارات ورقة ٣٥ .
- ١١٣ - فتوح البلدان ص ١٤٣ .
- ١١٤ - انظر كتابه البلدانية ج ٢ ص ٣٥١ .
- ١١٥ - احسن التقاسيم ص ١٦٢ .
- ١١٦ - هو جد المقدسي مؤلف احسن التقاسيم .
- ٧١٧ - سفرنامة - الترجمة العربية - ص ٢١ .
- ١١٨ - يقول المقدسي في « احسن التقاسيم » ص ١٧١ : « وادي جهنم على قرنة المسجد ( اي المسجد الأقصى ) الى آخره، قبل الشرق، فيه بساين وكروم وكنائس ومنائر وصوامع، ومقابر وعجائب ومزارع وسط كنيسة على قبر مريم .

# دراسة للتقسيمات الادارية في فلسطين المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة براترندون دي لابروكييه (١٤٣٢)

د. محمود زايد  
الجامعة الاميركية - بيروت

## ١ . خلفية الرحلة

صاحب هذه الرحلة وعنوانها «الرحلة الى ما وراء البحر»<sup>(١)</sup> هو برتراندون دي لا بروكييه الذي كان يشغل في بلاط فليب الطيب دوق برغنديّة منصبا شبيها بمنصب «خوان سلاز» المملوكي، أو المشرف على السماط. وكان الباعث على الرحلة هو إعداد تقرير عن الأراضي المقدسة تمهيدا للقيام بحرب صليبية جديدة وذلك واضح في قوله في الرحلة:

«أنا برتراندون دي لابروكييه المولود في دوقية جين وسيد فيد - شاتو، ومستشار دون برغنديّة المعظم والمشرف على سماطة. قد دونت تلك الرحلة المتواضعة التي قمت بها طبقا لما أسعفتني به الذاكرة. وما كنت قد سجلته بسرعة على شكل مذكرات حتى إذا رغب ملك أو أمير مسيحي في أن يغزو القدس وان يزحف عليها برا بجيش أو حدث بأحد النبلاء الرغبة في الذهاب إليها والعودة منها كان على معرفة بالبلدان والمدن...»<sup>(٢)</sup>

ولم تكن مهمة دي لا بروكييه الوحيدة من نوعها، ولا كان سيده الدوق الأمير الوحيد الذي كان يحلم بشن حرب صليبية جديدة لاستعادة البلاد المقدسة. فتاريخ الاهتمام بذلك بدأ في أعقاب سقوط عكا (١٢٩١) آخر المعاقل الصليبية في أيدي المماليك فقد كان سقوطها صدمة كبيرة هزت الدوائر المسيحية في أوروبا وخارجها وبعثت فيها موجات من الحزن والخوف والغضب. فقرر ص أعلنت الحداد. وحتى بعد سقوط المدينة بقرن لاحظ

الرحالة مرتوني (١٣٩٤) أن نساء قبرص ملتحفات بعباءات سوداء لا تكشف شيئا منهن غير عيونهن « بسبب الأسى والحزن العميق اللذين تولدا من ضياع عكا وغيرها من المدن السورية»<sup>(٣)</sup> وغرق الدعاة إلى الانتقام أوروبا بمنشوراتهم، وطلقوا نداء تلو نداء للأمرء والبابوات لاستعادة «تراث المسيح»

وتعددت ردود الفعل الأوروبية المسيحية لسقوط عكا. فكان من أبرزها العقوبات الاقتصادية التي حاولت البابوية أن توقعها بدولة المماليك. فقد قامت بتحريم المتاجرة مع تلك الدولة وهددت بمعاينة من يخالف ذلك من تجار الأفرنج بجرمانهم من الكنيسة وبالانتقام منهم بقوة السلاح. وقامت بالفعل بإعداد سفن للتصدي للتجار المخالفين وكانت البابوية تعتقد أن هذه المقاطعة الاقتصادية ستؤدي إلى إفقار المماليك بجرمانهم من أهم موارد ثرائهم وبالتالي إلى التمكن من القضاء عليهم عسكريا واستعادة القدس. على أنه لم يقدر لسياسة المقاطعة الاقتصادية النجاح وذلك بسبب تحدي التجار وبخاصة الإيطاليين لها<sup>(٤)</sup>

وكانت الحملات العسكرية مظهرا آخر من مظاهر رد الفعل لكن لما كان الاعتقاد السائد عندئذ هو أن الهجوم على سواحل سوريا وفلسطين غير مأمون النتائج فقد جرى توجيهها إلى السواحل المجاورة، ففي أعقاب سقوط عكا جهز البابا نيقولاس الرابع أسطولا من عشرين سفينة حربية قام بالاشتراك مع أسطول هنري الثاني ملك قبرص بمهاجمة ساحل آسيا الصغرى عند اسكندرلور (Scandalore). ولكنهما منيا بالفشل<sup>(٥)</sup> وبعد ذلك بعشر سنوات قام بعض الثريات من نساء جنوه ببيع حلين لتجهيز سفن وشحنها بالمقاتلين للاشتراك مع المغول في الاستيلاء على دمشق. لكن بينما كانت تلك السفن تستعد للبحار تخلى المغول عن المشروع ففشلت «حملة النساء»<sup>(٦)</sup> وكانت آخر حملة من هذا الطراز هي حملة بيتر الأول دي لوزينان ملك قبرص على الاسكندرية عام ١٣٦٥، فقد أدى فشلها إلى عدم توجيه حملات مشابهة<sup>(٧)</sup> وينبغي أن لا يجري الخلط بين هذه الحملات التي ارتبطت بفكرة الحروب الصليبية وبين الغارات واعمال القرصنة التي كان يقوم بها الأوروبيون بالاشتراك مع اهل رودس وقبرص بسبب المنافسات التجارية أو تحقيقا لمكاسب تجارية أو الاستيلاء على الغنائم. أو الأسرى لمبادلتهم أو اقتنائهم<sup>(٨)</sup>

ومن أبرز ردود الفعل الأخرى هو التفكير بشن حملات صليبية جديدة والإعداد لها. وكان من أشد ملوك أوروبا حماسة للاعداد لحرب صليبية هنري الخامس ملك إنجلترا الذي

اعتقد بأنه باستطاعته بالتعاون مع فرنسا استعادة البلاد المقدسة. ومن أجل الاعداد لذلك قام بالاشتراك مع فليب الطيب دوق برغندي ومع ملك فرنسا يافاد جيلير دي لانوي<sup>(٩)</sup> إلى البلاد المقدسة لموافاتهم بتقرير عن أوضاعها العسكرية.<sup>(١٠)</sup> وكان لانوي من كبار رجال بلاط الدوق. فقام بالرحلة في عام ١٤٢١. لكن هنري الخامس توفي في هذه الأثناء فحمل عبء القيام بالحرب الصليبية فليب الطيب.

وقد شهد بلاط برغندي آخر محاولة أوروبية للقيام بحرب صليبية فقد أوفد مستشاره وسيد سباطة برتراندون دي لا بروكويه إلى البلاد المقدسة لأعداد تقرير عنها. فغادر بلاط سيدة في شباط (فبراير) عام ١٤٣٢، وسافر برا إلى روما ثم ركب سفينة إلى يافا ومنها إلى القدس ثم إلى غزة وعسقلان ثم زار الناصرة وجبل طابور وعكا وعددا من المدن السورية وعاد بعدها وفي أوائل عام ١٤٣٣ إلى بلاط سيده.

وقد تجمعت لدى الدوق تقارير لانوي وبروكويه وترجمة لاتينية للقرآن الكريم أعدها كاهن في دمشق لبروكويه على أن رفض ملك فرنسا - شارل السابع - للمشاركة في الحملة وسقوط القسطنطينية في يد الأتراك عام ١٤٥٣ أنزلا بالمشروع ضربتين قاضيتين وبذلك طويت آخر صفحة في تلك المحاولات<sup>(١١)</sup>

## ١ . الوضع الاداري والسياسي

ليس في نص رحلة بروكويه سوى إشارات قليلة جدا للأوضاع والشئون السياسية والادارية لما يعرف اليوم بفلسطين. وما يذكر أن ذكر فلسطين قليل جدا في المراجع التاريخية الأولية التي تتحدث عن سوريا في النصف الأول من القرن الخامس عشر فصاحب النجوم الزاهرة مثلا يذكرها في تاريخه للسنوات بين ٨٠١ - ٨٣٦ للهجرة. والاشارات القليلة جدا في غيره من المراجع هي إشارات جغرافية لا سياسية<sup>(١٢)</sup> فيتحدث عنها ابن إياس مثلا في معرض حديثه من وقوع الطاعون فيذكرها إلى جانب نابلس حيث يقول: «وقع الطاعون بالشام وطرابلس ونابلس وفلسطين وحران وعجلون.»<sup>(١٣)</sup>

والاشارات القليلة عند بروكويه لا تعدو ذكره للسلطان برقوق والاشادة به، وذكره لحاكم (نائب) غزة ومير (ونائب) القدس الذي كان عائدا من الحج يرافقه نحو خمسين خيالا ومائة من الجمال «لا تحمل سوى الأطفال والنساء العائدين من الحج» وكبير التراجمة نصير الدين.<sup>(١٤)</sup>

وواقع الأمر أن الصورة التي نجدها لوضع فلسطين السياسي والاداري في ذلك الوقت غير واضح في المراجع الحديثة. وربما كان ذلك عائدا إلى أمرين الأول هو التغيرات التي أحدثتها الممالك البرجية في إدارة الشام بين وقت وآخر والثاني هو أن بعض المراجع الأولية مثل زبدة كشف الممالك والحديثة واسعة الانتشار مثل تاريخ سوريا لا تذكر لحتي جميع التقسيمات الإدارية في سوريا في النصف الأول من القرن الخامس عشر.<sup>(١٥)</sup> فابن شاهين الظاهر صاحب زبدة كشف الممالك لا يذكر نيابة القدس المستحدثة ويقتصر على ذكر سبع نيابات في سوريا وهي دمشق والكرك، وطرابلس وحلب، وحمّاة وصفد، وغزة، وهو أمر يلفت النظر لأنه هو نفسه تولى في القرن الخامس عشر عدة وظائف كبرى بينها نيابة الكرك ونيابة الاسكندرية. أما حتي فيدخل فلسطين كلها فيما عدا صفد في نيابة أو مملكة دمشق.

وواقع الأمر أن فلسطين في القرن الخامس عشر كانت مقسمة بين نيابات الشام وصفد والقدس (والخليل) وغزة. ونيابة غزة كانت قائمة في عهد السلطان خليل بن قلاوون (١٢٩٠-١٢٩٣) فقد اوردها بيبرس الدوادار بين نيابات الشام التي كانت قائمة عندئذ وهي تسع نيابات: دمشق، حلب، صفد، الكرك، قلعة دمشق، غزة، حمص، الشوبك، الحصون الساحلية<sup>(١٦)</sup> وربما ألغى الممالك تلك النيابة بعض الوقت ثم أعادوها في الربع الأخير من القرن الرابع عشر. وكذلك فان نيابة القدس كانت موجودة في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون. وقد تولاها في عهده الأمير علم الدين أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولي الشافعي ثم تولى نيابة غزة كما تولى بعد ذلك نيابة حماة<sup>(١٧)</sup> وكان نائب القدس في أوائل القرن الخامس عشر هو شهاب الدين أحمد بن اليعموري.

وقد كان نائب القدس يتولى أحيانا نيابة الخليل أيضا ونظارة الحرمين الشريفين - يقول ابن الحنبلي

«وفي أيامه (برقوق) في شهر رجب سنة ست وتسعين وسبعمائة ورد الأمير شهاب الدين أحمد بن اليعموري ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام إلى القدس الشريف.»<sup>(١٨)</sup>

ويذكر ابن الحنبلي أنه عندما أعيد السلطان فرج ثانية إلى السلطنة أمر بالفصل بين نيابة السلطنة في القدس والنظارة على الحرمين الشريفين:

«وبين جملة ما رسم به (فرج) بالقدس الشريف أن نائب القدس لا يكون ناظر الحرمين الشريفين ولا يتكلم على النظر بالجملة الكافية، ونقش بذلك بلاطة ولصقت بمخاطب باب السلسلة عن يمينه الداخل من الباب»<sup>(١٩)</sup>

لكن الفصل لم يستمر فقد جمع بينهما الأمير أركاس الجلباني الذي تولاهما في عهد السلطان الملك الأشرف برسبای (١٤٢٢-١٤٣٨)

أما الموظف الكبير الذي يذكره بروكية في رحلته فهو كبير الترجمة في القدس. وكانت سلطاته عندئذ تشمل بعض سلطات ناظري الداخلية والخارجية في الوقت الحاضر<sup>(٢٠)</sup> فقد كان مسئولاً عن الحجاج والرحالة الذي يفدون على البلاد المقدسة فيتولى رجاله مهمة استقبالهم في ميناء يافا والقدس وإثبات أوصافهم والتأكد من هوياتهم. وكان كبير الترجمة أو أحد موظفيه يحضر مع القاضي في مجالس القضاء ليترجم أقوال المتقاضين الذين لا يعرفون العربية. على أنه كان يشترط في الترجمان الذي يحضر في المحاكم أن يكون مسلماً.<sup>(٢١)</sup>

وقد كان كبير الترجمة في القدس عندما وفد بروكية على البلاد (١٤٣٢) هو نصير الدين. ويستنتج السيد أحمد فراج من دراسته للترجمة في عهد برسبای أنه كان من أصل يهودي أوروبي<sup>(٢٢)</sup> ومهما يكن من أمر هويته فقد وصف بروكية إجراءاته من الحجاج الغرباء وصفاً دقيقاً إذ قال:

«ويتوجه إلى هذه المدينة (يافا) الترجمة وغيرهم من موظفي السلطان ليقفوا على عدد هؤلاء الحجاج وليعرضوا على هؤلاء خدماتهم كأداء، وليأخذوا منهم باسم مولاهم الضريبة المعتادة»<sup>(٢٣)</sup>

وعندما كان الحاج يعتمز السفر إلى سيناء مثلاً:

«تجري طريقة التسجيل على النحو التالي: تنظم الاجراءات مع كبير الترجمة لدفع ضريبة السلطان وضريبة الترجمان نفسه مع كل فرد. ومن ثم يتصل كبير الترجمة بالترجمان في غزة بقصد أمر المرور مع عرب الصحراء الذين لهم حق حراسة الحجاج... جمعنا (نصير الدين) أمام المعبد القائم في مدخل كنيسة القيامة على يسار الداخل فيها، وطلب من كل منا بياناً باسمه ولقبه وعمره، ومر بتسجيل البيانات كما أمر بتسجيل أوصافنا بما في ذلك آثار الجروح في الوجوه، إذا وجدت أو غير ذلك (من علامات) وطول كل منا وهندامه، ورسل نسخة عما دونه إلى كبير الترجمة في القاهرة.»<sup>(٢٤)</sup>

## مدن فلسطين

بالرغم من أن بروكبية زار فلسطين بعد ما يقرب من مئة ورربعين سنة من انتهاء الحروب الصليبية فقد كانت آثار الحرب من خراب وتدمير لا تزال ظاهرة في موانئ البلاد ومدنها. وبعض هذا الخراب نشأ عن الاشتباكات وبعضه أنزله السلاطين والأمراء خشية عودة الصليبيين إليها.

ومن المدن التي نزل بها الكثير من التخريب مدينة يافا التي وجدها بروكبية «خربة لا مساكن فيها غير تلك الكهوف التي يلجأ إليها الحجاج هرباً من الحر» وكان الملك العادل (١١٩٩-١٢١٨) قد خربها<sup>(٢٥)</sup> فأعاد يبببس (١٢٦٠-١٢٧٧) إليها بعض العافية<sup>(٢٦)</sup> فوجدها أبو الفداء (١٣٢١) مدينة لطيفة ذات ميناء حصين يستقبل جميع السفن وفيها سوق عامرة يفد عليها التجار<sup>(٢٧)</sup> لكن السلطان ناصر الدين محمد (١٤٢١-١٤٢٢) عاد فخربها<sup>(٢٨)</sup>. ومهما يكن من أمر فان وصف بروكبية يبدو مبالغاً فيه إذ أن الحنبلي الذي كتب في القرن ذاته يبدو أدق عندما يقول رغم تفهقرها «فهي مقصودة للبيع والشراء ولا تخلو من بركة في معيشة ببركة أرضها وسكانها.»<sup>(٢٩)</sup>

على أن ما أصاب الرملة من التخريب كان أقل مما أصاب يافا. فبالرغم من أنها كانت في القرن الخامس عشر بلا أسوار فإنها بدت لبروكبية وغيره من الحجاج والجغرافيين لطيفة. ويذكر الحنبلي أنها كانت قبيل الحروب الصليبية ذات سور وقلعة واثنى عشر باباً وربعة أسواق متصلة من أربعة أبواب إلى وسطها، لكن صلاح الدين الأيوبي هدم قلعتها وسوارها. ويضيف إلى ذلك بأنها كانت في عهده ثلث أو ربع ما كانت عليه في الماضي.<sup>(٣٠)</sup>

وكانت في الرملة عندما زارها بروكبية (١٤٣٢) مضافة للحجاج وقد وصفها الحجاج بأنها كانت ذات مدخل طويل يُقضي إلى ساحة داخلية واسعة في وسطها تحف بها الغرف. وكما باستطاعة الحجاج أن يشتروا منها مختلف أنواع الأطعمة والفواكه.<sup>(٣١)</sup>

ووجد بروكبية اللد قرية. وقد كانت عندئذ بالفعل كذلك. لكن كان قد مضى وقت كانت فيه أعظم بكثير. لكن الخليفة سليمان بن عبد الملك قام عند بنائه للرملة بنقل سكان اللد إليها. وفي أثناء الحروب الصليبية هدم صلاح الدين الأيوبي تحصيناتها. لكنها بقيت «حسنة المنظر.»<sup>(٣٢)</sup>

ووجد بروكبية القدس «مدينة لطيفة ذات شأن» على أنه يظن أنها كانت فيما مضى أعظم من ذلك بكثير. والواقع أن آثار التخريب في أسوارها وتحصيناتها الأخرى بما فيها القلعة وبرج داود. (٣٣) لكن مع هذا قد أشار أكثر الذين زاروها خلال القرن الخامس عشر بجمالها. ويذهب الحنبلي إلى أن ابنتها هي والخليل ونابلس كانت من الحجر. لكن ابنتها هي كانت أكثر إحكاما من الآخرين، ويرتفع بعضها من الآخر. وكثير من ابنتها كانت تقوم فوق ابنة أقدم منها. ولو أن ابنتها كانت منتشرة لجاءت عندئذ في ضعف حجمها. (٣٤)

ويشيد بيترو كاسولا الذي زارها في أواخر القرن الخامس عشر بأسواقها. ولفتت سقفوها نظرة لأن «فتحاتها كانت تسمح بدخول ما يكفي من النور لكن بحيث لا يتضايق الناس من الشمس والمطر». (٣٥) وكان من أعظم أسواقها سوق القطنين المجاور لباب المسجد الأقصى من الغرب والأسواق الثلاثة التي بباب الخليل وتمتد من الجنوب (القبلة) إلى الشمال وهي سوق العطارين الذي كان موقوفا على المدرسة الصلاحية (نسبة لصلاح الدين) وسوق بيع الخضروات وسوق الأقمشة الموقوفان على المسجد الأقصى (٣٦). وكان شارعها الأعظم يبدأ من المسجد الأقصى في الشرق ويمتد إلى باب الخليل في الغرب وكانت تقوم على جانبي هذا الشارع. (٣٧)

ووجد بروكبية مدينة غزة غير مسورة تقوم في منطقة جميلة. وكان ابن بطوطة الذي زارها قبل ذلك بنحو قرن (١٣٢٥) قد وجدها أيضا بلا أسوار ولكنه مثله أشاد بحسنها فقال بأنها «متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة» (٣٨) وقد وجدها بعض حجاج القرن الخامس عشر أوسع مساحة من القدس لكنها لا تظاهيها في حسن ابنتها. كما أشادوا بصورة خاصة بحماماتها العامة وحسن معاملة أهلها للغرباء. (٣٩)

ولا يعلق بروكبية على عسقلان التي كان قد أصابها الكثير من التخريب والدمار خلال الحروب الصليبية. فقد جرى تخريب تحصيناتها ومينائها مرتين مرة بواسطة صلاح الدين الأيوبي ومرة بواسطة بيبرس البندقداري. ويذكر أبو الفداء أنها كانت في زمنه (القرن الرابع عشر) خربة (٤٠) ووجد ابن بطوطة «ثغر عسقلان وهو خراب قد عاد رسوما طامسة وطلالا دارسة» (٤١) ويشير الحنبلي إلى تخريبها (٤٢)

ووجد بروكبية عكا جميلة ولكن ليس فيها إلا قرابة ثلاثمئة بيت. ويذكر أبو الفداء الذي حضر استردادها من الصليبيين عام ١٢٩١ أنه أصابها عندئذ تخريب كثير. (٤٣) وعندما



زارها ابن بطوطة عام ١٣٢٥ وجدها «خرابة»<sup>(٤٤)</sup> لكن يبدو أنها لم تلبث أن استردت العافية فعندما زارها القسيس الألماني فرن سخم بين ١٣٣٦ و ١٣٤١ وجدها في غاية النظافة والجمال. يقول

«وكانت الشوارع داخل المدينة نظيفة. فجدران البيوت جميعها ذات ارتفاع واحد، وهي مبنية بالحجر المنحوت. وقد ازدانت بالنوافذ الزجاجية والرسوم الملونة، وكذلك سائر قصور المدينة وبيوتها. فإنها لم تبن لتكون مجرد مأوى لأصحابها، بل لتوفر لهم أسباب الراحة والبذخ. وكانت طرق المدينة مظلمة بالحرير المنسوخ ويسواه من ضروب السقائف المظلمة الجميلة، دفعا لأشعة الشمس.»<sup>(٤٥)</sup>

ويبدو أنه جرى بين زيارة ابن بطوطة وزيارة القس سخم ترميم لحصونها ومينائها، فقد لاحظ القس أنه يقوم عند كل منعطف في الشوارع برج حصين.<sup>(٤٦)</sup> وعندما زارها بروكبية وجد أن ميناءها صالح لرسو السفن.<sup>(٤٧)</sup>

وقد زار بروكبية مدينة الناصرة فوجدها في حالة يرثى لها ووجد كنيسة خرابة<sup>(٤٨)</sup>

ويذكر بروكبية أنه نام في بساتين مدينة نابلس ولكنه لا يعلق عليها بشيء سوى أنها تقع عند قاعدة الجبل. وكان قد زارها ابن بطوطة قبل ذلك نحو مئة سنة وكتب يقول:

«وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونا»<sup>(٤٩)</sup>

وقد قدمنا أن الحنبلي أشار إلى أنها كانت من أجمل المدن من حيث البناء، هي والقدس والخليل. وقد ذكر بروكبية مدينة الخليل وزارها ولكنه لا يعلق عليها. وكما قد زارها ابن بطوطة قبل ذلك فاشاد بها وحسنها قائلاً:

«وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الأنوار حسنة المنظر عجيبة المخبر في بطن واد. ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع مبنى بالصخر المنحوت.»<sup>(٥٠)</sup>

#### استنتاجات

رأينا فيما مرّ أن فلسطين كانت في القرن الخامس عشر موزعة بين أربع نيابات وهي غزة والقدس وصفد ودمشق. كما رأينا أن التخريب كان قد أصاب أكثر

مدنها وبخاصة مدن الساحل وذلك إما خلال الحروب الصليبية أو من قبل السلاطين والأمراء خوفا من عودة الصليبيين إليها. ومن المدن التي أصابها الكثير من التخريب والدمار عسقلان ويافا وعكا والناصره والرمله، واعظم المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر هي غزة والقدس والخليل ونابلس.

# مصادر البحث

- ١ - نشر نص هذه الرحلة شيفر في  
Schefer, CH. *Ced La Voyage d'Outremer de Bertrand de la Brocquiere* (Paris, 1892)  
ونشر رايت ترجمة انجليزية لها في:  
Wright, Thomas: *Early Travels in Palestine* (London, 1848).
- وقد قام صاحب هذا المقال في عام ١٩٥٤ بدراسة الرحلة وترجمتها من الانجليزية من نص رايت في رسالة ماجستير قدمها لدائرة التاريخ بالجامعة الأميركية. ثم عاد وترجم النص من الأصل الفرنسي بلغته القديمة بمساعدة الأب فريد جبر ونشره في مجلة الأبحاث، عدد ايلول ١٩٦٢، ص ٢٩٩ - ٣٣٥. ثم قام بإعداد دراسة جديدة لبعض مظاهر الرحلة لنشرها في مجلة «المؤرخ العربي» التي تصدر عن جمعية المؤرخين العرب ببغداد.
- ٢ - «رحلة برتراندون دي لابروكبية» مجلة الابحاث، ص ٣٠١
- ٣ - Ferber, Elizabeth: «The Kingdom of Cyprus 1191-1291,» in Setton, K.M. (ed.) *A History of the Crusades* vol. 2 (U.S.A. 1962) p. 618.
- ٤ - راجع بصدد موقف البابوية هذا والعلاقات الاقتصادية بين الممالك والفرنج دراج، السيد أحمد: الممالك والفرنج في القرن التاسع الهجري (دار الفكر العربي، لا تاريخ) ص ٧ وما بعدها.
- ٥ - Dubois, Pierre *The Recovery of the Holy Land*, trans. with introduction and notes by Waiter Brandt (Columbia University, 1956) P.38.
- ٦ - المصدر ذاته.
- ٧ - المصدر ذاته وفراج: المصدر السابق ذكره، ص ٨.
- ٨ - راجع أخبار هذه الغارات في عبد السيد، حكيم: قيام دولة المسالك الثانية (دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧) ص ١٤٩ وما بعدها.
- ٩ - Gilbert de Lannoy
- ١٠ - Prescott, H. F.M. : *Jerusalem Journey* (London, 1954) PP.23-25.
- ١١ - Schefer : *OP. Cit.*, the introduction, PP. 1-76
- ١٢ - ومقال الكاتب في مجلة الأبحاث، ص ٢٩٩ - ٣٠١.
- ١٢ - راجع الجزء الثالث عشر (تحقيق فهم محمد شلتوت، ١٩٧٠) والجزء الرابع عشر (تحقيق جمال محرز وفهم شلتوت، ١٩٧٢) من النجوم الزاهرة.
- ١٣ - ابن إياس، محمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١، ق ٢، تحقيق مصطفى محمد (فيسبادن، ١٩٧٤) أخبار عام ٨١٣ هـ ص ٨٠٣.
- ١٤ - راجع نص الرحلة في مجلة الأبحاث ص ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٤.
- ١٥ - الظاهري، خليل بن شاهين: كتاب زبدة كشف الممالك (باريس، ١٨٩٤) ص ١٣١
- Hitti, Philip K. : *History of Syria* (London, 1915) P. 637
- ١٦ - راجع النص في حسن، على ابراهيم: تاريخ الممالك البحرية، ط ٢، (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨) ص ٢٢٠

- ١٧- الخنبلي، مجير الدين: الأوس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج ٢ (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٦٨٢) ص ٢٧١-٢٧٢.
- ١٨- المرجع ذاته، ص ٩٤-٩٥.
- ١٩- المرجع ذاته: ص ٩٥
- ٢٠- دراج: المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨
- ٢١- حسن: المرجع السابق، ص ٣٨
- ٢٢- دراج: المرجع السابق
- ٢٣- نص الرحلة في مجلة الابحاث، ص ٣٠٥
- ٢٤- المرجع ذاته.
- ٢٥- ياقوت، شهاب الدين، معجم البلدان، ج ٤ (طهران، ١٩٦٥) ص ١٠٠٣.
- ٢٦- الخنبلي: المرجع السابق، ص ٦٩.
- ٢٧- Le Strange, Guy: **Palestine under the Moslem** (Beirut, 1965) P. 551.
- ٢٩- الخنبلي: المرجع السابق، ص ٦٩
- ٣٠- المرجع ذاته، ص ٦٨
- ٣١- Prescott, **Jerusalem Journey**.
- وقد كان فليب الطيب دوق، قرغندية متر تبرع ببناء تلك المضافة.
- ٣٢- Le Strange, **Palestine under the Moslems**
- والخنبلي: المرجع السابق، ص ٧٧.
- ٣٣- الخنبلي: المرجع السابق، ص ٥-٦.
- ٣٤- المرجع ذاته، ص ٥٠.
- ٣٥- Prescottq **Jerusalem Journey**, pp.174-75.
- ٣٦- الخنبلي: المرجع السابق، ص ٥٠
- ٣٧- المرجع ذاته. ص ٥٢-٥٣
- ٣٨- ابن بطوطة: الرحلة ج ١. (المكتبة التجارية، ١٩٦٤) ص ٣١.
- ٣٩- Prescott, H.F.M. **Once to Sinae** (London, 1957) P2 qff
- ٤٠- Le Strange: **Palestine under the Moslems**, P. 402
- ٤١- ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٤.
- ٤٢- الخنبلي: المرجع السابق، ص ٧٣-٧٤.
- ٤٣- Le Strange, **Palestine under the Moslems**, P. 333-34.
- ٤٤- ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٥.
- ٤٥- حتى، فليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، ج ٢ (بيروت، ١٩٥٩) ص ٢٧٩.
- ٤٦- المرجع ذاته
- ٤٧- الرحلة: مجلة الابحاث، ص ٣١١.
- ٤٨- المرجع ذاته:
- ٤٩- ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٥.
- ٥٠- المرجع ذاته، ص ٣١-٣٢.

## المحتويات

| الصفحة | اسم الباحث                          | اسم البحث   |
|--------|-------------------------------------|---|
| ٣      | د . سامي حمارنه                     | ١ - الطب العربي في فلسطين<br>في زمن الفاطميين والايوبيين  |
| ٢٧     | د . نشأت حمارنه<br>د . خالد المراون | ٢ - تذكرة الكحالين أو الكافي<br>في طب العيون « عرض مخطوطة »<br>لرشيد الدين بن الصوري              |
| ٣٤     | د . عماد الدين خليل                 | ٣ - فلسطين في الادب الجغرافي العربي   |
| ٦٨     | د . عبد الكريم رافق                 | ٤ - غزة<br>دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية<br>من خلال الوثائق الشرعية.<br>١٨٦١-١٨٥٧ / ١٢٧٧-١٢٧٣ |
| ١٥٨    | د . احمد الربابعة                   | ٥ - الصناعة في فلسطين<br>في العصور الحديثة  |
| ١٩٢    | د . نقولا زياده                     | ٦ - فيلكس فابري في فلسطين   |
| ٢٠٧    | د . ابراهيم السعافين                | ٧ - الرواية في فلسطين في عهد الانتداب   |
| ٢٦٦    | د . ليلى الصباغ                     | ٨ - فلسطين في « مذكرات الفارس<br>دارفيوا »<br>البيئة الطبيعية والبشرية                            |
| ٣٤٧    | د . احسان عباس                      | ٩ - الحياة العمرانية والثقافية<br>في فلسطين خلال القرنين:<br>الرابع والخامس                       |
| ٣٦٧    | د . محمود الغول                     | ١٠ - غزة في نقوش جنوب<br>جزيرة العرب  |

| الصفحة | اسم الباحث                  | اسم البحث   |
|--------|-----------------------------|---|
| ٣٧٧    | د . كمال عبد الفتاح         | ١١- السمات العربية للمواقع الفلسطينية المهودة.  |
| ٣٩٣    | د . خيرية قاسمية            | ١٢- صندوق استكشاف فلسطين نشاطاته ١٨٦٥-١٩١٥  |
| ٤٣٦    | د . أمين الكخن              | ١٣- مدرسة النجاح الوطنية دورها الاجتماعي في تقديم المجتمع العربي الفلسطيني زمن الانتداب البريطاني                             |
| ٥٠٥    | د . بدر ماتيث<br>مونتايث    | ١٤- بيانات حول سكان فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مستقاة من ثلاثة كتب اسبانية في ادب الرحلات الى الاراضي المقدسة |
| ٥٢٧    | د . هارماندكس ميكل<br>كروكس | ١٥- ترجمة/ فكرة سيد الكون (هو) وما قبل الاستقرار الاسرائيلي في فلسطين   |
| ٥٣٥    | يوسف سعيد النتشه            | ١٦- سكة فلسطين منذ قيام العباسيين حتى استقلال الطولونيين (١٣٢-١٢٦٤هـ ٧٤٩-٨٧٧م)  |
| ٥٥١    | د . هاشم ياغي               | ١٧- فلسطين في كتب الجغرافين   |
| ٥٨٢    | د . محمود زايد              | ١٨- دراسة للتقسيمات الادارية فلسطين / المدن الفلسطينية في القرن الخامس عشر من خلال رحلة برائر ندون دي لابروكييه ١٤٣٢          |